أزهار

قصّة

تأليف
أحمد حسين

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
١٩٦٣

الإهداء

إلى — أخى الدكتور مصطفى الوكيل مثلى الأعلى ، وشهيد الوطنية والعروبة والإسلام

إلى — زوجتى التى لولا مؤازرتها لى ما استطعت أن أقوم بأى دور فى الحياة مذ عرفتها ، فضلاً عن أن أؤلف هذه الرواية .

الجزء الأول

البراعـــــم

الفصل الأول

١

لم يستطع فوزى السيد على وهو يمسك بيد صديقه رياض أحمد النكرمانى ليشقا طريقهما وسط الجموع المحتشـــدة حول قطـــار الصعيد ، أن يقاوم الشـــعور بخيبة الأمل لهـذا الزحام ، ولوقوف القطار على رصيف الوجه القبـلى فى العراء بعيدا عن مبنى المحطـــة الرئيسى الذى كان يفتنه • لطالما خفق قلب فوزى وأحس بالجـلال والرهبة وهو يدلف الى بناء المحطة الرئيسى ليستقل منها القطار الى احدى بلاد الوجه البحرى ، ولم يفارقه هذا الشعور منذ كان حدثا صغيرا يسير الى جوار والدته قبل أن تموت ، حتى هذه الآونة التى أصبح يتطلع فيها للحصول على شهادة البكالوريا فى ختام العام • كان يرى فى هذا البناء الحديدى السامق وفى هذا السقف الزجاجى الضارب فى كبد السماء ، والذى لايسمح للضوء أن ينفـــذ منه الى الساحة الفسيحة الا بمقدار ، هذا الضوء الخافت العليـل الكابى ، ما يشعره بالخشوع والرهبة ، وكان يأخذ بلبه ويســـتهويه منظر القطارات وكأنها الوحوش الخرافية أو الغيلان تقف على الأرصـــفة والدخان يتصاعد من مداخنها ، والنار تشتعل فى مواقدها والأصوات الغريبة لاتنفك تنبعث منها ، ما بين صفير أو أزيز أو فحيح ، كل ذلك كان يملأ نفس فوزى نشوة غامضة ، وهى ذات النشـــوة التى كان يحس بها اذ يدخل الى أحـــد المساجد الكبرى حيث تمتزج الروائح بالاصوات بالاضواء ، روائح البخور العطر وأصوات المصلين وأضواء الكهرباء ، مزيج سحرى يرهف الحس ويزكى الروح بما ينطوى عليه من خفاء وغموض ونغم •

أما هذه المرة فالصورة جد مختلفة ، فقد كان القطـــار يقف في العراء مما جعل فوزى يحس بشيء من الخجل ، كما لو كان يشـــهد انسانا قد تعرى فى الطريق العام ولم يكن يخفف من خيبة أمله وخجله للقطار معا ، الا انشغال باله فى هذه اللحظات على تأمين مقعـــد له ولزميله ، فراحا يشقان طريقهما وسط هذا الحشد من أجساد البشر رجالا ونساء وأطفالا وقد ارتفعت الصيحات واشتد الضجيج واختلطت الزغاريد بالعويل والبكاء • على أن الأمر لم يكن بهذا الســـوء عند عربات الدرجة الثانية وهى التى كان فوزى ورفيقه يقصـــدانها ، مما أحل الشعور بالزهو محل الاحساس بخيبة الأمل •

كان فوزى السيد على فى السابعة عشرة من عمره ، نحيل الجسم متوسط القامة أسود الشعر وكان يستوقف الناظر اليه لأول وهلة باسرافه فى الحركات والاشارات والانفعالات سواء كان متكلما أو صامتا، فلا تكاد يداه تريان الا صاعدتين هابطتين متطوحتين ذات اليمين وذات اليسار ، ولايرى رأسه الا متأرجحا لايستقر على حال ، بينما يبيض وجهه أو يحمر أو يصفر على التعاقب حسب المؤثرات التى قد يتعرض لها • أما لسانه فقلما يخلد الى السكينة أو يعرف معنى الراحة ، بحيث استحق فوزى بحق أن يوصف (بالرغاى) •

على أن ثرثرته لم تنفر منه اصدقاءه ومعـــارفه ، فقد ألفوها من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كان يخفف من وقعها عليهم أنها تعبير صادق عما يجيش به قلبه الحار ، كما أن صوته لم يكن من الأصوات المزعجة بل على العكس كان قوى النبرة حسن الجرس ، مما أهـــله للتفوق فى التمثيل المسرحى • واذا كانت ثرثرة فوزى واسرافه فى الاشارات والحركات أول مايجبه الناظر اليه ، فان قلة عنايته بملبسه ومظهره العام ، لاتلبث بدورها ان تلفت النظر ، فطربوشه غالبـــا منزلق الى الخلف ، والزر فى أحسن أحواله ان لم يكن فى المقـــدمة فاقرب ما يكون اليها ، والطربوش دائمـــا متخلف عن طراز العصر ، فان كان الطراز هو الطول فطربوش فوزى قصير لأنه يأبى الخضوع

(للموضة) حتى اذا اقتنع فى نهاية الأمر كارها بوجوب الخضــوع لأحكام (الموضة) فعمــد الى اطالة الطربوش يكون الطراز قد تغير وأصبح الطربوش قصيرا وهكذا · وقلما كان رباط حذائيه محكما على الرغم من شدة عنايته باحكامه وكان لابد لأحد الرباطين من أن يحل ، مما كان يعرضه للتعثر · على أن الطبيعة كانت بارة بفوزى ورحيمة فعوضته عن عدم عنايته بهندامه ، بوجه مشرق تعلوه ابتسامة دائمة، واذا كان بعض أقربائه من النسوة يتحدثن أحيانا عن عينيه العسليتين وأنفه السوى ، فقد كان هو ينقم على وجهه حاجبين عريضين يلتقيان فى غير نظام محكم ، وكان يساعد على هز الصورة فم واسع وشفتان غليظتان تبدو من خلالهما اذا انفرجتا ، وكثيرا ما هما ، سنة مكسورة وأخرى شبه مكسورة أصبحتا يولفان معا أحــد معالم وجهــه وجزء من جغرافيته ·

أما صاحبه رياض أحمد الكرمانى فقد كان على النقيض منه فى كل شىء ، فاذا كان فوزى كثير الحركات فقد كان رياض قليلهــا ، واذا كانت نقيصة فوزى الكبرى هى الاسراف فى الحديث فقد كانت فضيلة رياض حسن الاستماع ، واذا كان فوزى قليل العناية بهندامه فقد كان رياض يبالغ فى العناية بهذا الهندام ، واذا كان فوزى يرتدى الطربوش دائما فقد كان من اكره الأشياء على نفس رياض آن يرتدى الطربوش ، ولاعجب فى ذلك فقد كان شعره أصفر جميلا شــديد الغزارة ، حبته الطبيعة بتموجات تحسده عليها الفتيــات ، وكان رياض يعنى بشعره عناية بالغة جاعلا منه تاجا واكليــلا · ولقــد كان هذا الشعر والقوام الفارع والعينان الزرقاوان ، مايجعل فوزى ينظر الى صديقه دائما فى اعجاب ، ولكن كثيرين لم يكونوا يشاركون فوزى رأيه فى صاحبه ، مشيرين بصفة خاصة الى انفه العريض القصير ووجهه المثلث الشكل ، واذنيه الكبيرتين ·

وامتد التبــاين بين الصــديقين فكان فوزى فى القســم الأدبى يعد نفسه لأن يكون محاميا أما رياض فقد كان فى القسم العــلمى

يتوق الى دخول هذا القسم الجـــديد الذى أنشىء فى كلية العلوم وأطلقوا عليه اسم « الجيولوجيا » • ورغم هذا الخلاف والتناقض فى الشكل واللبس والمشرب ، فقد كان الناظر اليهما يدرك لأول وهـلة قوة العاطفة التى تربطهما ووحدة الشعور والوجـــدان التى تؤلف بينهما • وقد كان هذا الترابط يتجلى على أشده فى هذه الساعة التى كانا يسعيان فيها للحاق بقطار الصعيد حيث كان كل منهما يمسك بيد الآخر خشية عليه من الضياع •

ونجح فوزى ورياض فى أن يعثرا على صـــالون خال فى القطار الا من راكب واحد يرتدى البدلة مثلهما • وســـأل فوزى الراكب بطريقة عابرة عما اذا كان هذا هو القطـــار الذاهب الى المنيا ؟ فرد عليهما الراكب مبتسما بالايجـاب ويظهر انه كان من النوع السريع الألفة ، فقد سألهما بدوره عما اذا كانا ذاهبين الى المنيا ، فلمـا علم أنهما ذاهبان اليها أبدى سروره وارتياحه لذلك لأنه كان ذاهبا اليها كذلك •

وتفرس فوزى فى وجه هذا الزميل الجديد الذى ساقه القـــدر اليهما ليصحبهما حتى مدينة المنيا فشعر بالارتياح لمنظره العام فقـد كان شابا مثلهما لايكبرهما بغير عام أو عامين ، وان كان شكله يوحى بأنه كبير السن بسبب هذا الشارب الكبير نســـبيا والذى لم يكن يتناسب مع سنه ، وكان طويل القـــامة عريض المنكبين ، مفتول العضلات غليظ الرقبة مما جعل فوزى يتصور أنه مصارع أو من حملة الأثقال • وكانت ملامحه ريفية قمحى اللون أسود العينين والشـعر تلوح عليه سيماء الطيبة والبساطة •

ولم يكد القطار يتحرك أخيرا حتى تنفس فوزى الصـعداء والقى برأسه فى استرخاء على المسند الجلدى وقد شعر لأول مرة بالراحة والطمأنينة منذ بدا الرحلة للحاق بالقطار فقد كان يخشى أن يفوته القطار لأمر ما رغم تأكيد رياض المستمر له من أن لديهما متسعا من الوقت لادراك القطار • والحق أنه منذ وصلت فوزى دعوة صديق طفولته

محيي اسماعيل بركات لشهود حفلة التمثيل التى سيقيمها فى مدرسة المنيا الثانوية وهو مشغول الخاطر بهذه الرحلة فقد كان يشفق على صديقه محيي من جراء هذه المحاولة الجريئة التى أقدم عليها وهى اخراج رواية (لويس الحادى عشر) العالمية على مسرح مدرسة يقام على عجل مستخدما موائد الطعام بعد ضمها الى بعضها وربطها بالحبال حتى لاتنتشر ٠

وكان فوزى يعرف ما الذى جعل صديقه يركب هذا المركب الصعب ويقدم على هذه المغامرة ٠ وابتسم فوزى وهو يستحضر هذا الطابع الفريد الذى تتسم به صداقته بمحيي ، وكيف بدأت هذه الصداقة منذ الطفولة المبكرة ، عندما كانا فى السنة الثانية الابتدائية ، وتطورت على أساس المنافسة بينهما ، وكيف اكتشفا بعد ذلك أن كلا منهما لايطمئن الا للحديث مع صاحبه ، فتآلفا وارتبطا ، ولكن دون أن يذوب أحدهما فى الآخر أو ينزل له عن استقلاله ٠ فأشبهت العلاقة بينهما الخطين المتوازيين يسيران دائما جنبا الى جنب دون أن يلتقيا ٠ ثم افترقا فى التعليم الثانوى نتيجة تنقل والد محيي الذى كان يشتغل قاضيا فى البلاد ، فقويت نزعة كل منهما الاستقلالية دون أن تضعف الروابط بينهما ، بل لقد زادها البعد حرارة وتوثقا ٠

ولم تكن هذه الدعوة الحارة التى تلقاها فوزى والتى يلبيها الآن الا مشهدا جديدا من مشاهد المنافسة الدائمة بين الصديقين ٠ كان فوزى قد وقع أسير هواية فن التمثيل منذ صباه المبكر ، أوقعه فيها شدوه بألحان سيد درويش التى كان يحفظها عن ظهر قلب ويترنم بها فى شتى المناسبات ، فكان لها أعظم الأثر فى تفتح نفسه وانضاج عواطفه ، واستشراف روحه الى آفاق سامية ٠ وهوى محيي التمثيل بدوره ، وكان لابد للمنافسة من أن تلعب دورها ، فاذا كان فوزى قد استطارت شهرته فى أوساط الهواة فى القاهرة ، فقد كان لابد أن

تستطير شهرة محيي عبر الصعيد كله لتصل الى القـــاهرة ، فكانت هذه المحاولة الضخمة لاخراج رواية (لويس الحـــــادى عشر) درة روايات جورج أبيض ، وكان لابد أن يشهد فوزى بنفسه مدى تفوق محيي واقتداره ، وأن يكون رياض صديق فوزى الجديد على ذلك من الشاهدين • ولم يكن هناك من هو اســـــعد من فوزى لكى يخف لزيارة صديقه محيي ورؤيته وسط هالة مجده ، وكان يضـــاعف فى سعادته ان شملت الدعوة صديقه رياض ، الذى قبـــل الدعوة رغم ما كانت تنطوى عليه من تضحية باهظة ، فقد كان عليه ان يسافر فى هذا الوقت بالذات مع بقية أفراد أسرته الى الاسكندرية، لاستقبال أخته الكبيرة آمال، والتى كانت تعود من انجلترا بعد غيبة دامت خمسة أعوام أمضتها فى بعثة حكومية فى لندن لدراسة اللغة الانجليزية • وقـــد كان رياض يترقب هذه العودة منذ أمد بعيد ، بل وكان فوزى نفسه يترقبها معه ، فقد كانت صحبتهمـــا الطويلة قد جعلت أسرة رياض تعتبر فوزى كواحد من العائلة ، وكانت آمال قد اعتادت اذا كتبت لأخيها أن تطلب منه أن يسلم لها على صاحبه فوزى ، كما كان فوزى بدوره يحمل رياض تحياته الى أخته التى لم يرها • وجاءت دعوة محيي وقال فوزى لرياض ان استقباله لأخته فى الاسكندرية يمكن أن يعوض فى القاهرة ، أما مشاهدة جهـــــد محيي فى اخراج رواية (لويس الحادى عشر) فلن يتكرر مرة أخرى • ونزل رياض عند رغبة صديقه فوزى كما هى عادته دائما ، وقد كان هذا دينا جديدا يطوق به رياض عنق صاحبه • ونظر فوزى فى حنان الى صديقه الحبيب رياض والذى أخلص له الحب ووقف الى جواره الخمس سنوات الماضية ينافح عنه فى كل المعارك التى خاضها ، ولولا ذلك الاخلاص لما استطاع فوزى أن يكون رئيسا لفرقة التمثيل فى المدرسة الخديوية ، أو أن يحقق شيئا من مشروعاته الفنية • وظل رياض منهمكا فى مطالعة مقال فى مجلة المسرح ، وكان يغمغم ويدمدم بينه وبين نفسه ، وكأنه أحس أن فوزى ينظر اليه ، فتحولت الدمدمة الى زمجرة والغمغمة الى سب ولعن

لصاحب مجلة المسرح ، وسأله فوزى ضاحكا عما به ، وان كان يحذر السبب فقال رياض :

ـ بودى لو استطعت أن أصفع وأركل صاحب هذه المجـــلة ، أقرأت ما يقول عن رواية يوسف وهبى الجديدة ؟ فقال له فوزى انه اذا كان يزعجه الى هذا الحد التهجم على يوسف وهبى فما عليه الا أن يقاطع هذه المجلة فهو يعرف أن هذا شعارها منذ العـــدد الأول ٠ وتدخل رفيقهما الجديد فى الحديث بعد أن قدم لهما نفسه ، من أنه طالب فى السنة النهائية بقسم الكونستبلات بمدرسة البوليس وانه يدعى فؤاد عبد السميع ٠ وظهرت الغبطة على وجـــه فوزى ورياض عندما اكتشفا أن فؤاد يقصد مثلهما شهود حفلة مدرسة المنيا الثانوية، بناء على دعوة تلقاها من فكرى عبد الحميد صديق طفولته ، وصديق محيى الجديد فى نفس الوقت ٠ وانضم فؤاد الى رياض فى التنديد بصاحب مجلة المسرح ، بينمـــا استأذنهما فوزى وخرج الى دهليز القطار وراح ينظر من احدى النوافذ ممارسا هوايته كلما ركب القطار منذ طفولته ، فى أن يتأمل أعمدة التلغراف والأشجـــار فى عجب لاينتهى ، وهى تعدو فى الاتجاه المضاد لسير القطار ، ولكى يستمتع فى نفس الوقت بسماع موسيقى عجلات القطار ٠ وسرعان ماراح يتأمل هذا الريف الجميل المنبسط أمامه ، وهو يطوى كطى السجل نتيجة اندفاع القطار ، واستوقفته هذه الحيوانات التى استحقت بحق أن يقدسها المصرى القديم لفرط ماتقدمه للفلاح من عون وخيرات ، ونظر الى الفلاحين المتناثرين بين الحقول وبدأ يجتر هذه الفكرة التى أصبحت تؤرقه فى هذه الآونة الأخيرة ٠

كان هذا التأمل وهذه الأفكار التى بدأت تناوش فوزى ، شـــيئا جديدا على حياته ، ولو أنه كان يقوم بهذه الرحلة منذ عام واحـــد ، لما ترك الآن الصالون ليخلو بنفسه ، ولكان غارقا مع زميليه فيمـــا كانا فيه من حديث ، حـــول التمثيل وأسماء الممثلين والروايات التى تعرض فى الوقت الحالى على المسارح ٠

بدأ هذا الانقلاب الجديد فى حياة فوزى عقب اشتراكه فى رحلة كشفية منذ بضعة شهور الى الأقصر وأسوان ، ولم يكد يرى أعمدة الكرنك الرهيبة فى ضوء القمر ، حتى وجد نفسه يندفع فى غير وعى فيعتلى احدى الصخور ويخطب فى اخوانه لأول مرة مرتجلا · ولم يكن يعرف من أين يواتيه الكلام : « على أبناء هذا الجيل أن يكرسوا حياتهم لبعث مجد مصر القديم ، للعودة بمصر قائدة وسيدة وزعيمة العالمين» · ومنذ ذلك اليوم لم يعد التمثيل شغله الشاغل كما كان من قبل ، وأصبحت تعتريه من حين لآخر أمثال هذه الشطحات والتأملات · وقد كان رياض هو الذى قطعها عليه هذه المرة، اذ دعاه ليسمع مايقوله فؤاد عن مدير مدرسة البوليس الذى يلقى عليهم محاضرات فى الوطنية ، ووجوب العمل على بعث مجد العرب وتحرير مصر من ربقة الاستعباد· وذهل فوزى من هذه الأنباء ، أن يكون فى مصر موظف حكومى يدعو لمثل هذه الآراء جهارا فضلا عن أن يكون على رأس مدرسة البوليس، وأحس رفيقهم الجديد بالزهو عندما راح يحدثهما عن هذا الرجل العجيب الذى يسمى عزيز بك ·

٢

وصل الضيوف الثلاثة الى مدرسة المنيا الثانوية ونفذوا الى فنائها الكبير فطالعهم على الفور السرادق الكبير الذى أقيم خصيصا لهذا الاحتفال ، وقد أضيء بالمصابيح الكهربائية · وقصد الثلاثة خلف المسرح الذى كان مؤلفا ــ كما توقع فوزى ــ من مناضد الطعام ، وقد شدت الى بعضها بالحبال وغطى سطحها بالسجاجيد ، فكانت كاحسن مايكون مسرح · وجاء محيى يهرول بملابس التمثيل عندما سمع بمقدم الضيوف متأكدا من أنهم فوزى ورياض · وتعانق الجميع فى قوة وحرارة ، وأبى فوزى الا أن يحدث محيى عن مدى التضحية التى قام بها رياض لشهود الحفلة ، على الرغم من احتجاجات رياض ورجائه فوزى ان لايبالغ فى الأمر · ولم يكد محيى يسمع بنبأ مقدم أخت

رياض من انجلترا بعد غياب خمس سنوات ، حتى كان أشد من فوزى تقديرا لعظم التضحية ، وقال لرياض أنه لن ينسى له هذا الجميـــل مابقى على ظهر الحياة • وجاء فكرى عبد الحميد الذى كان يقوم بدور مدير المسرح ، ووجد صديقه فؤاد بين القادمين ، فكان عناق وكانت تحيات وتبادل الأشواق ، حتى أوشك الأصدقاء فى حرارة اللقاء أن ينسوا مقتضيات الساعة وأن هناك رواية ستمثل وستارا يجب أن يرفع بعد لحظات ، وكان فكرى باعتباره مدير المسرح المسئول ، أول من تنبه لأداء هذه الواجبات ، وطلب من الضيوف أن يأخذوا أماكنهم المعدة لهم فى الصف الأول •

ولم يكد أصحابنا الثلاثة ينزلون الى السرادق ليأخذوا أماكنهم ، حتى اكفهر وجه فؤاد عبد السميع لمرأى حـــكمدار البوليس وبعض كبار ضباط البوليس الآخرين الذين كانوا يتصدرون المقاعد الأمامية بالقرب من سعادة المدير • وسأل فوزى فؤاد عن سبب هذا الخوف الذى اعتراه ، فأجابه بأنه يوشك أن يتخرج ويعمل تحت امرة واحد من هؤلاء ، والويل له اذا اكتشفوا أن هذا الذى كان يجلس الى جوارهم هو هذا الكونستابل • وأصر فؤاد على وجوب أن يتأخر عن زميليه حتى لايلفت اليه أنظار رؤساء المستقبل ، وضحك فوزى وقال لصاحبه :

ـ أهكذا علمكم مدير مدرستكم الجديد ؟ فاحمـر وجـــه فؤاد وقال له :

ـ من كانت يده فى الماء لايحس باحساس من يده فى النار •

* * *

ورفعت الستار وبدأ التمثيل • كان مايراه فوزى نجاحا يفوق كل ما كان يمكن أن يطوف بالخيال • كانت الملابس التاريخية للرواية قد جيء بها من القاهرة، وهى الملابس التى تستعملها فرقة جورج أبيض، وجيء باختصاصى فى التزيين (الماكيير) من القاهرة، وكان جميع الطلاب يحفظون أدوارهم عن ظهر قلب ، ولم يكن فوزى يفاجأ بتأدية محيى لدوره باقتدار ، فلطالما مثلا معا هذا الدور فى القـــاهرة عندما كانا يتلاقيان ، ولكن الذى أذهله وجعله يصفق ويصفق حتى ليكاد يدمى

كفيه ، هو ابداع الطالب خالد أمين فى دور (لويس الحادى عشر) ٠ كان محيى قد قدمه لهما منذ قليل وعجب فوزى كيف يكون بقـــدرة شاب لم يتلق أى تدريب مسرحى سابق ، أن يؤدى دورا من أصعب الأدوار بهذا الاتقان الذى يحسده عليه الممثلون المحترفون ٠

وكان من المصادفات العجيبة ، أن كان لخالد أمين عينان زرقاوان تجعلانه يبدو كما لو كان فرنسيا صــــميما ٠ وكان له أنف اشم يتناسب كل التناسب مع دوره الملكى ٠ وانفتح قلب فوزى لخـــالد أمين ، وأسعده أن يجد صديقه رياض أشد منه حماسة لخالد أمين بحيث راح يقول : « لو لم استفد من هذه الرحلة الا أن تعرفت بهذا النابغة لكفانى ذلك تعويضا » ٠ وكان فوزى يكبر همة صديقه محيى لمجرد تصديه لاخراج هذه الرواية ، ولكنه لم يتصور مطلقا أن يصل محيى الى ذروة الاخلاص للفن حتى ليؤثر بالدور الأكبر خالد أمين ، ولذلك فقد اسمع صديقه من عبارات المدح والثناء ماحجب كل ماسمعه من بقية المدعوين ٠

٣

راح فؤاد عبد السميع يتقلب بعد انتهاء الحفلة ، على السرير الذى خصص له فى بيت والد صديقه فكرى دون أن يكون باستطاعته النوم كزميليـــــه فوزى ورياض اللذين كانا يغطان الآن فى نوم عميق فى السرير المجاور لسريره ٠ لقد أهاجت عودته الى المنيا والى هذا البيت بالذات فى نفسه ذكريات سعيدة وأخرى محزنة ٠

لقد راحت الأيام السعيدة فى المنيا بوفاة والده المبكرة ، ولم يكن المعاش الضئيل الذى استحقوه عقب وفاة والده سكرتير المعهد الدينى، كافيا للانفاق على اسرته التى أصبحت تتألف منه ومن والدته وأخته ، فاضطر الى اختصار الطريق والتحق بهذا القسم الجديد الذى أنشىء فى مدرسة البوليس لتخريج كونستبلات ، وعادت أمه الى مســقط رأسهم فى أحدى قرى المنوفية ، وتزوجت أخته أحد صغار الفلاحين

من أقاربهم ، وهكذا تبدلت حياته رأسا على عقب فى جميع اتجاهاتها وأبعادها ٠

ذوت الآمال العريضة التى كانت تدفىء صـــدره وهو يقـــود المظاهرات على رأس طلاب مدرسة المنيا ٠ وها هو ذا يعود الى البيت الذى شهد آماله التى لايحدها حد بعد ان لم يصبح سوى كونستابل على وشك التخرج ٠

كان أشد ما يحز فى نفسه ، أنه لمح أميرة أخت فكرى التى طالما كان يحلم بالزواج منها بعد أن يكبر ، لمحها جالسة فى الحفلة الى جوار والدتها بعد أن شـــبت عن الطوق وأصبحت عروســـا ، فلم يكن باستطاعته أن يسلم عليها نزولا عند حكم التقـــاليد ٠ وها هو الآن لايستطيع بينه وبين نفسه ، أن يجرأ على التفـــكير فى امكان التزوج منها بعد أن لم يعد سوى كونستابل ٠ وتمرد فؤاد على هذا التشاؤم الذى ران عليه ، وراح يسائل نفسه لماذا يسد على نفسه باب الأمل ؟ أليسوا موعودين أن يرقوا الى درجة الملازم ثان بعد ثلاث سنوات من التخرج اذا أثبتوا كفاءة ؟ ومتى أصبح ملازما ثانيا فانما هى ســـت سنوات أخرى ليصبح بعدها ملازما أول ، وعندها فلن يكون هنـــاك أى مانع من أن يتقدم لزواج أميرة ، فان وظيفة الملازم أول ليســـت بالشىء القليل ، وفكرى لايزال يحبه ، وليس أدل على ذلك من هـــذه الدعوة ، ووالد فكرى قد استقبله أحسن استقبال هذه الليلة ، فليس هناك مايحول بينه وبين تحقيق أمله فى مصاهرة فكرى وأبيه المرشح لأن يكون شيخا للأزهر فى وقت قريب ، وقد كان الحديث عن مشيخة الأزهر يفتن لب فؤاد دائمـــا ، فهم فى المنوفية يطلقون على أسرتهم أسرة الشيخ ، اشارة الى جدهم الكبير الذى كان شيخا للأزهر ٠

وهتف بفؤاد هاتف ، ولكن من أنى لك أن تضمن أن تنتظر أميرة بغير زواج ، ريثما تترقى أنت الى درجة الملازم أول ؟ وعادت اليه من جديد موجة التشاؤم ، ولكنه دفعها بقوله ، انه غير محتاج أن ينتظر ريثما يصبح ملازما أول ، وما عليه بمجرد حصوله على رتبة الملازم ثان الا أن يتقدم لخطبتها ٠

وهكذا راح فؤاد يتقلب بين اليـــأس والرجاء بين التفـــاؤل والتشاؤم ، حتى طلع عليه النهار دون أن يذوق طعم النوم ، وعندما استيقظ فوزى فوجده متيقظا ، أبدى دهشته لهذه اليقظة المبكرة ، فقال له فؤاد وكأنما كان يستيقظ بالفعل من نوم عميق ٠

ـ أنسيت أننى طالب فى كلية البوليس ؟ ٠

٤

ـ أختى آمال تدعوك لتناول الشاى غدا فى الساعة الرابعة بمصر الجديدة ٠

كانت هذه هى العبارة التى فاجأ بها رياض صاحبه فوزى بعد أن فرغا لتوهما من تناول طعام الغداء فى (يامكخانة) المدرسة الخديوية، وقطعا الفناء الرخامى الذى يتوسط بناء المدرسة ، وأوشكا أن يهبطا الدرجات الخمس التى تصل بهما الى الفناء الكبـير الذى كان يغص بالطلاب ساعتئذ ٠ وسرت فى جسد فوزى رجفة عقب تلقى هذا النبأ الذى طال ارتقابه له مذ عادت آمال من انجلترا منذ بضعة أسابيع ٠ وقال فوزى لصاحبه :

ـ انك تعلم أن ليس هناك ما يســـعدنى أكثر من أن أتعرف الى أختك النابهة ٠

ودق الناقوس وتوجه كل من الصاحبين الى فصله ، ولكن شتان ما بينهما فقد أقبل رياض على درسه بذهن مفتـوح ونهم للمعرفـــة والتفوق ، أما فوزى فقد جعله هذا اللقاء المنتظر فى شـــبه دوامة ، بحيث لم يكن يجلس فى الفصل الا بجسمه فقط ، أما روحه وعقله فقد كانا فى دنيا ثانية ، دنيا من الذكريات والصور والمشاعر التى جعلت تاريخ أسرة رياض كله يتمثل فى ذهنه ، ويربط بينه وبين كل فرد من أفرادها ، ابتداء من كبيرها الراحل الدكتور أحمد الكرمانى ٠ كان الدكتور أحمد الكرمانى أحد أبناء رشيد الذين تعتز بهم ، فقـد آثر أهل رشيد بعلمه وفنه ، ولولاه لما حظيت رشيد بطبيب عصرى٠

وقد ظل الدكتور الكرمانى حبيبا الى كل من فى رشيد قبل أن تكبر بنـــاته وتعرض له مشـــكلة تعليمهن • فقـــد كان الرجل ممن يؤمنون بوجوب تعليم البنت كالولد سواء بسواء ، والاعتماد عليهـــا والثقة بها الى أبعد الحدود • وسواء كان مرد هذه العقيدة ، ايمانه بتعاليم قاسم أمين التى استوعبها وأدرك أنها لاتخالف تعاليم الاسلام، باعتباره أحد أبناء مدرسة جمال الدين الافغانى ، أم أن هذه النزعـة كانت النتيجة الحتمية لهذا الجيش الذى رزقه من البنات قبل أن يمن الله عليه بغلام أتبعه بغلامين حتى يتم نعمته عليه ولا يشعره بالحرمان، فقد قرر الرجل الكبير القلب ان يعلم بناته العشر العـــلم • ولم تكن مدينة رشيد بطبيعة الحال فى ذلك الوقت البعيد ترضى أن يكون بين جدرانها مدرسة للبنات ، ولذلك فقد اضطر الرجل أن يبعث بهن الى مدارس الاسكندرية بالقسم الداخلى بها ، وكان من شـــأن ذلك أن يحنق عليه بعض أهالى رشيد الذين لم يفهموا من الأمر الا أن بنات الدكتور الكرمانى يعشن على حل شعورهن فى الاسكندرية • وتفوقت مفيدة ابنة الدكتور الكرمانى الكبرى ، ولم يتردد فى الموافقة على أن تتم تعليمها العالى فى انجلترا عندما رشحتها لذلك وزارة المعارف • ومن جديد هاجت المدينة المحـــافظة على ما اعتبرته ثورة وخروجا على التقاليد ، ولولا شخصية الدكتور الكرمانى ودماثة أخلاقه وحاجة البلد اليه ، لما استطاع البقاء فيها يوما واحدا بعد أن بعث بابنتـــه الى بلاد الكفار • وظل الدكتور الكرمانى يكدح لتربية بناته وهو لايحصل من البلد الفقير المعـــادى الا على أقل من القليل ، حتى أتمت مفيدة تعليمها فى انجلترا وعادت لتحتل وظيفة كبيرة فى وزارة المعارف ، وكأنه كان معها على ميعاد فقد أحس أنه أتم رسالته وباستطاعته أن يذهب الى ربه راضيا مرضيا ، مخلفا حمله الثقيل على عاتق مفيدة ، والتى أثبتت صحة نظرية والدها فكانت أهلا للثقة التى وضعها فيهـا فكانت لأمها وأخواتها نعم الأب والأخ الكبير والبنت والولد مجتمعين•

وامتازت آمال احدى أخوات رياض اللواتى يكبرنه بعـــديد من

الأعوام ، بالاستعداد للتفوق فاختيرت بفضل جهود أختها هذه المرة لترسل فى بعثة الى انجلترا لدراسة اللغة الانجليزية ، بحيث تكون قادرة على تدريسها فى مدارس البنات الثانوية .

وعادت آمال أخيرا من انجلترا وهاهو ذا يدعى لمقابلتها . ولم يكن فوزى يدرى لماذا يحفل بهذه المقابلة كما لم يحفل بمقابلة من قبل ؟ أيكون مرجع ذلك هو هذا الاقتران باسم انجلترا ، الذى يحمل الى النفس أحاسيس متباينة من الاستشعار بالعظمة الى النقمة عليها ؟ أم أنه يرجع الى حب الاستطلاع الذى تملكه فى معرفة مكانهـــا من الجمال بين اخواتها ؟ لقد كان محالا ان تفوق ثريا التى تصغر رياض بعامين ، والتى اعتاد فوزى أن يناديها بست الحسن والجمال أحيانا وبدر البدور أحيانا أخرى لفرط جمالها غير العـــادى . كانت ثريا ممشوقة القد ، ناهدة الصدر ذات بشرة بيضاء حريرية ، وكان لها عينان زرقاوان ساحرتان ، وشفتان رقيقتان قرمزيتان يضمان بينهما فما صغيرا يكشف من حين لآخر عن اسنان لؤلؤية ، وكان لهـــا على خلاف أخواتها أنف دقيق سوى وشعر كستنائى غزير ، يزين ذلك كله حياء وخفر طبيعيان فى غير تصنع أو افراط ، وكانت تتلقى العلم بنجاح فى المدرسة الثانوية .

والآن وقد أوشك فوزى أن يقابل آمال ، أستكون شيئا من هذا الطراز ؟ وسرعان ما استبعد هذا الخاطر ، فليس فى كل أخوات ثريا من يدانيها فى جمالها ، قد يكون فيهن من يفقنهـــا حيوية ، اما فى الجمال فقد كانت العلم المفرد ، ولم يحدث أن ســـمع من رياض أو أحد من اخوته حديثا عن جمال آمال ، وان كان قد سمع الحديث الكثير عن تفوقها الدراسى الذى أهلها للسفر الى انجلترا .

ولم يوقظ فوزى من تأملاته وخواطره الا دقـــة الناقوس مؤذنة بانتهاء اليوم الدراسى .

عندما استقر المقام بفوزى وصاحبه فى بيت مصر الجديدة الذى توجها اليه لمقابلة آمال وجلس على أحد الكراسى المذهبة فى الصالون الذى ادخلا اليه ، أحس بفقدان كل ثقة بنفسه ، على الرغم من العناية غير العادية التى بذلها فى ارتداء ملابسه ، ورغم مساعدة رياض له فى ربط (الكرافتة) كان قلبه يخفق كما لو كان مقدما على امتحان صعب يتوقف عليه مصيره ، وكان شعوره بذلك يضاعف من توتره ويزعجه كل الازعاج ، ولذلك فعندما سمع طرقا على البـــاب ايذانا بمقدم آمال ، تنفس الصعداء ، تصورا منه بقرب انتهـــاء المحنة . ودخلت آمال ، وفى أعقابها فتاة أخرى ، وكان دخولها أشبه مايكون بالعاصفة والاعصار الذى لم يلبث أن اجتاح فوزى واحتواه . لقـــد تخيل فوزى عشرات الصور بل ومئاتها عما يمكن أن تكون عليه آمال، والطريقة التى ستعامله بها ، ولكن آمال لم تكد تظهر أمامه حتى أحس فى عمق أنه يواجه شيئا جديدا لاعهد له به من قبل .

كانت آمال قريبة عهد بانجلترا التىمكثت فيها خمس سنوات هى زهرةحياتها فلا عجباذا شكلتها هذه السنواتالخمس لتجعل منها فتاة انجليزية لحما ودما، وهو مالم يكن لفوزى به عهد من قبل.كان قوامها ممشوقا رشيقا ومشدودا فى نفس الوقت ووجهها أبيض مشــــوبا بحمرة وكانت تتألق تألقا ، أما ثوبها فكان محكما على النصف الأعلى من جسدها فابرز ما فيه من فتنة ، أما النصف الأسفل فواســـع فضفاض أنيق يضفى على صاحبته فخامة وروعة ويشـــهد ببـــذخ صاحبته ، وكان من المحقق أن هذا أحد أثوابها النفيسة التى عادت بها من انجلترا . وكانت ترتدى فوق رأسها قبعة عريضة الحوافى كتلك التى كان يراها فى روايات السينما ، وقد ارتدتها الأميرات . على أن فتنة آمال الكبرى التى جعلت منها شبه اعصار بالنسبة لفوزى هو حديثها المتدفق المنطلق فى حرية وبساطة ، حــديث مرح طروب

صريح ، أكثره بالانجليزية وأقله بعربية مكسرة • ولما كان فوزى قريب عهد بالاستمتاع بفرقة (اتكنسون) الانجليزية التى وفدت الى مصر لتمثل روايات شكسبير على مسرح الأوبرا ، فقد ذكرته آمال بواحدة من هاته الممثلات الانجليزيات ، اللواتى كن يمثلن فى نظره بعض الفراشات أو الزهور والرياحين • ولأول مرة راح فوزى يسمع بأكثر مما يتكلم ، فقد كان ما يخرج من فم آمال ، شيئا أقرب ما يكون شبها بالأغانى والألحان بالنسبة له • راحت تعبر له عن سعادتها لرؤيته وعن شدة شوقها للاجتماع به ، وتطلعها لهذه المقابلة منذ عودتها من انجلترا لكثرة ما حدثها رياض عنه ، فنظمت هذه المقابلة فى بيت صاحبتها فتحية ، ولأول مرة تنبه فوزى الى أنه قد دخلت مع آمال فتاة أخرى لم يعن بمعرفتها وان كان قد سلم عليها ، فقد شغل بمتابعة الاعصار الذى كانت تمثله آمال بالنسبة اليه ، فلم يسبق أن أقبلت امرأة أو آنسة على فوزى مثل هذا الاقبال، وراحت تحدثه بكل هذه الحرية والطلاقة عن سعادتها لمرآه وشوقها لمقابلته • وقطع دخول صينية الشاى على فوزى هذا السيل المتدفق من الحيوية الذى كانت آمال تغمره به ، على أن موضوع الشاى نفسه وطريقة تقديمه ، لم يلبث أن زاد فى توهج فتنة آمال ، فقد استأذنت من صديقتها فتحية أن تقوم هى بتقديمه • ونظرت لفوزى بعينيها الزرقاوين الصافيتين وسألته فى رقة ودلال عن قطع السكر التى يحبها فى فنجانه ، وعما اذا كان يحب الشاى (بالكريم) أم يؤثر مثلها أن يتناوله سادة ، وفهم فوزى بعد قليل أن المقصود (بالكريم) هو اللبن ، وعندما نهض من مقعده ليتناول من يدها فنجان الشاى (بالكريم) ، استوقفته يدها التى كانت ممدودة له بنفجان الشاى حتى لقد تركها بعض لحظات أكثر مما ينبغى معلقة فى الهواء ليستمتع بجمال هذه اليد وبياض بشرتها ورقة أصابعها ، ودقة أناملها المزينة (بالمانيكير) الوردى •

واستغل فوزى فرصة اشتغال آمال بصب الشاى لباقى الحاضرين

حتى يتفرس فيها لأول مرة ليكشف عن موضع فتنتها التى أثرت عليه كل هذا التأثير ، ولم يكن وجهها هو مصدر هذه الفتنة ، فلم يكن يقارن بجمال وجه أختها ثريا ، بل ان الوجه قد ينطوى على بعض المآخذ لو حاول الانسان ان يتقصى أجزاءه ، ولكن كان من الواضح أن فى آمال مايصرف الانسان عن التفرس فى وجهها الا أن يستمتع بعينيها الزرقاوين الصافيتين . كانت حيويتها تطغى على كل عنصر آخر ، وكانت الصبغة الانجليزية التى تصبغها ، وما تنطوى عليه هذه الصبغة من رشاقة وأناقة ، هى موضع الفتنة والتأثير على فوزى .

لم يحس فوزى حيال آمال بما كان يحسه حيال أخواتها وخاصة ثريا ، من شعور بالأخوة ، بل لقد أصبحت تمثل له منذ اللحظة الأولى التى وقع نظره عليها ، فتنة طاغية . لقد راح يلتهم بنظراته كل حركة من حركات يديها الجميلتين ، بل وكل هزة من هزات ثوبها الفضفاض ، وكثيرا ما هجست نفسه بالخوف من أى يفطن رياض لشعوره وانفعاله ، أو ان تغضب آمال من هذه النظرات النهمة ، فراح يسعى جاهدا للسيطرة على أعصابه فيتظاهر بالبرود وعدم الاكتراث ، لكن هذه المحاولة كانت تنهار على الفور تحت وطأة نظراتها التى تسلطها عليه ، واقبالها الشديد على حديثه ، فيستأنف من جديد متابعة حركات يدها وشفتيها مستمتعا بما تمده به هذه المتابعة من أحاسيس لطيفة . وجاءت اللحظة التى لم يكن منها مناص، عندما دعته آمال أن يلقى أمامها بعض المقطوعات التمثيلية ، واحتج فوزى بأن التمثيل قد يسبب ازعاجا لمن فى البيت فبادرت فتحية قائلة انه لايوجد فى البيت سواها أما أخوها فلم يحضر بعد من الخارج ، وليس منظورا أن يعود قبل وقت طويل ، وحتى لو كان أخوها الدكتور ممتاز حاضرا لاشترك معهم فى الاستمتاع بما سيلقيه فوزى فهو من محبى المسرح . ولم يسع فوزى بعد هذا التصريح الا أن يتعاون مع رياض فى تمثيل مشهد من رواية (لويس الحادى عشر) ، ولم يكد فوزى ورياض يفرغان من مقطوعتيهما ، حتى وثبت آمال واقفة



وراحت تصفق بحرارة وحماســـة عجيبتين • وهتفت آمال بفوزى « لابد أن تأخذ قطعة جديدة من (الكيك) جزاء لك على هذا الابداع »• والتفتت صوب رياض وراحت تهنئه بدوره على احســـانه التمثيل ، وقالت له أنها الآن فقط تدرك لماذا تعلق بصديقه كل هـذا التعلق ، وأعلنت أنها بعد اليوم ستنافس رياض فى اعجابه بفوزى • وانتفض فوزى تحت تأثير هذا التصريح الضخم من أنها ستنافس رياض فى اعجابه به ، لقد راعته هذه البساطة التى كانت تسوق بها هـــذه التعبيرات الخطيرة وكان ذلك كله شيئا جديدا فى حياته •

وامتدت الجلسة بالحاضرين ، ومع امتداد الجلسة اتيحت لفوزى فرصة المقارنة بين فتحية وآمال • لقد قالت آمال فى تعريفها بفتحية أنها كانت زميلة لها فى انجلترا طوال السنوات الماضية ، ومع ذلك فقد كانت فتحية تقف من آمال على طرفى نقيض فى كل شيء ، انهـا تمثل المصرية السمراء أصدق تمثيل ، فى حلاوتها الهادئة وبساطتها وحيائها ، كانت صامتة بقدر ما كانت آمال متكلمة ، متحفظة بقـــدر ما كانت آمال متحررة ، وكانت تمثل لفوزى فى هذه الجلسة محطة او استراحة يلجأ اليها كلما تعب من متابعة آمال فى حيويتها الدافقة، كان باستطاعة فوزى أن يعرف على الفـــور ما يسرها وما لايسرها ، ماتحبـــــه وما تكرهه ، ما تعجب به وما تنفر منه • كانت مصرية ، مصرية لم تتلفظ بكلمة انجليزية واحدة طوال الجلســـة ، بل ان تعبيراتها العربية كانت أقرب ما تكون الى اللهجة البلدية •

ورن جرس الباب الخارجى ، وقالت فتحية على الفور ، ان الطارق لابد أن يكون أخاها الدكتور ممتاز •

ودخل الحجرة شاب فى نحو الثلاثين من عمره وسيم الطلعة ، أنيق الملبس ، وأقبل على آمال مسلما فى حرارة وهو يقول لهـا فى غير تكليف « كيف حالك يا آمال ؟ » • وعلى الرغم من أن الوافـــد الجديد قد أقبل على فوزى مسلما فى حرارة وترحاب ، فان فوزى قد شعر بقلق شديد من مقدمه وزاد هذا القلق عندما قيل له ، ان الدكتور

ممتاز معيد فى كلية الطب أو مدرس فلم يهمه أن يعى بالضبط ما قيل له ، بقدر ما كان يقدر أى منافس خطر هذا الدكتور ممتاز بالنسبة اليه وهو الطالب فى التعليم الثانوى • وقد كان حدس فوزى صادقا فقد تطورت الأمور بمجرد ظهور الدكتور ممتاز على المسرح تطورا غير حميد ، اذ نبت اقتراح لم يعرف فوزى بالضبط من كان مصدره ، وهو أن يرقصوا • ولم يكد الاقتراح يعرض حتى شرع فى تنفيذه ، فخرجوا الى شرفة البيت الخارجية وهى شرفة كبيرة متسعة ، وجىء بالجرامافون وأديرت احدى الاسطوانات ، وكان رياض أول من خاصر فتحية شارعا فى الرقص ، بينما نظرت آمال صوب فوزى كما لو كانت تسأله ان يراقصها ، ولكن رياض اسرع يقول لها ان فوزى لايرقص ، وقبل أن يتم كلمته كان الدكتور ممتاز قد خاصر آمال وشرع يراقصها •

تم هذا الانقلاب بسرعة عجيبة لم تدع لفوزى فرصة للتفكير أو التأمل فيما يجرى حوله ، بحيث وجد نفسه فجأة وبدون مقدمات يهوى من حالق ، فبعد أن كان مركز الاهتمام الفى نفسه يجلس وحده فى الظلام كالمنبوذ ، فأحس بمرارة وصلت الى حد الشعور أنه قد امتهن وديست كرامته • وفى الوقت الذى كان يبدو فيه ان الراقصين يزدادون على مر الوقت نشوة وسعادة ، كان فوزى يزداد ألما وحسرة ، وشعورا بالغيرة التى بدأت تنهشه نهشا ، وراح يسائل نفسه ، لو أنه كان يجيد الرقص أو حتى يعرفه ، أما كان يضم الآن آمال الى صدره كما يفعل هذا الدكتور ممتاز ؟ أما كان يشم عبيرها ويستدفىء بحرارة جسدها بدلا من الدكتور ممتاز ؟ ولكن لا ، لقد عاش طول عمره على الرغم من اشتغاله بالتمثيل يستهجن عملية الرقص ، وينكر أشد الانكار ان يلتصق جسد الشاب بالفتاة ، والرجل بالمرأة بهذا الاسلوب الفاضح الذى يسقط الحواجز فى لحظة واحدة بين الجنسين ، ولقد كان فيما مضى يسوق هذا الرأى على سبيل الاجتهاد ، أما الآن فقد كان يقول به بكل ما فى نفسه من قوة غضبية •

ماهذه الحركات النابية ؟ كيف تسمح فتاة مصرية مسلمة لشاب غريب عنها أن يخاصرها بهذا الأسلوب ، بل كيف يسمح رياض لأخته أن تكون هكذا بين ذراعى أجنبى عنها ؟ وحانت من فوزى التفاتة الى رياض فوجده غارقا فى بحر من السعادة بدوره مع فتحية شقيقة ممتاز • واذن فهذه هى القاعدة كل يتسامح لأنه سيستفيد بدوره من هذا التسامح • وأحس لأول مرة فى حياته بعاطفة نحو رياض لم يكن يتصور أنه من الممكن أن يشعر بها حياله لأى سبب من الأسباب، لقد أحس كما لو كانت هناك هوة تفصل بينهما فى هذه اللحظة ، بعد أن سمح لشقيقته ان ترتمى هكذا بين أحضان انسان غريب •

وهكذا اعمت الغيرة قلب فوزى فقلبته فى لحظات الى عدو لكل ما كان يحبه فى آمال من تحرر وانطلاق ، وخروجها على القواعد المألوفة فى حياتنا بعد أن لم يصبح هو محل هذا التحرر وموضوعه • وتلفت فوزى حوله متسائلا فى مرارة ، ما الذى يبقيه فى هذا البيت بعد الآن ، لقد أصبح الجو خانقا لايحتمل ، ويجب أن ينصرف على الفور، وبدون استئذان من أحد ، فهم لم يستأذنوه عندما شرعوا فى رقصهم المنكود مخلفينه هكذا وحيدا فى الظلام •

وقطع توقف الموسيقى على فوزى افكاره ، وصفق الراقصون الأربعة لأنفسهم واستسخف فوزى هذه الحركة منهم ، وبينما كان الدكتور ممتاز يغير الاسطوانة هرعت آمال نحو فوزى ووجهها يطفح بالبشر ، ومدت يدها اليه داعية اياه الى الرقص معها ، فرد عليها فوزى بابتسامة صفراء انه لايعرف الرقص ، فقالت له انها ستعلمه فهو بسيط جدا وجذبته من يده ، ولكن فوزى امتنع عن مجاراتها بقوة فما كان ليسمح أن يراه الدكتور ممتاز وهو يتعثر ويتخبط أو يقف منها موقف التلميذ ، وقال لها فى عزم واصرار « كلا وشكرا » وأحس فوزى بعد أن نطق بهذه العبارة ، انه كان مفرطا فى الجفاء والغلظة ، على ان الموسيقى لم تلبث ان عادت للعزف من جديد وتقدم منها الدكتور ممتاز فخاصرها مرة ثانية وراح يدور بها فى انحاء الشرفة

ولم يكن فوزى ينتظر الا هذا ، لكى ينفذ قراره بوجوب الانسحاب ، وانتهز فرصة لقاء عينيه بعينى رياض لكى يقول له بالاشارة أنه منصرف ، وتلاشت السعادة التى كانت مرتسمة على وجه رياض الذى كان يستمتع من غير شك بدفء جسد فتحية ، وأشار الى فوزى اشارة تفيض بالتوسل أن ينتظر حتى نهاية الدور · وانتظر فوزى نهاية الدور على مضض ، ولم يكد الدور ينتهى حتى صفق هذه المرة مع المصفقين ، وأسرع يقول لقد حان وقت انصرافى · فنظرت اليه فتحية فى عتب ودلال وقالت له ، « أتنصرف فى الوقت الذى بدأت فيه السهرة تحلو ؟ » وأحس فوزى كما لو كان هذا التعبير طعنة سكين أصيب بها ، ولذلك فقد قال لها فى خشونة ، « انى آسف فمشوارى طويل » وبدأ رياض يتنبه الى حقيقة مشاعر فوزى ، ولذلك فقد قال لفتحية ، « دعى فوزى على راحته ، ونظر الى فوزى وقال له « هيا بنا يافوزى ، سأنزل القاهرة معك » · ولكن فوزى أقسم عليه فى عصبية ظاهرة ، ان لاينتقل أو يتحرك من مكانه والا فسيكون غاضبا جدا · وكأن آمال أدركت باحساسها مدى تأزم الأمور فى نفس فوزى ، فاذا بها تنظر فى ساعتها ثم تصيح فى دهشة ، انها لم تكن تتصور بحال أن الساعة قد وصلت الى هذا الحد المتأخر ، وأعلنت رغبتها فى الانصراف ، وخففت هذه الحركة بعض ما كان فوزى يعانيه من مرارة ، ولكنه أصر وألح فى عناد أن لايشعروه بأنه عكر صفو اجتماعهم ، وانهم يجب ان يتركوه ينصرف بمفرده وأن يواصلوا سهرتهم الجميلة الممتعة ، والا فلن يسامح نفسه ابدا آن كان مصدر عكننة من أى نوع كان لهم · وقد دهش فوزى لهذا السيل من عبارات المجاملة الذى راح يتدفق على لسانه نفاقا ورياء · وكأن القوم كانوا فى انتظار كلامه ، بما فيهم رياض لكى يسرعوا مسلمين عليه ثم يمضوا فى سهرتهم التى كانت قد بدأت تحلو على ما قالت فتحية · وانطلق فوزى بعد محنة التسليم والوداع لا يلوى على شىء،

ولم يعرف كيف قطع طريقه الطويل من مصر الجـــديدة الى المنيرة ، وعندما آوى الى الفراش ملتمسا النوم ، ظلت ذكريات ما حدث له في ليلته تتراقص فى ذهنه فتحرقه بنارها حرقا ، ان آمال التى فتنته كما لم تفتنه فتاة من قبل فى أول الليل ، قد حطمت كل آماله وأحلامه فى ختام السهرة ، انها لايمكن أن تكون فتاة أحلامه فالهوة بينهمـا واسعة • انها تكبره فى العمر بست أو سبع سنوات ، واذا كان هذا لايؤلف حاجزا من وجهة نظره ، فان الحاجز موجود فى نفس آمال ، ولعل التفسير الوحيد لهذا التلطف غير العادى الذى أحاطتـــه به ، والاسراف فى عبارات الاعجاب والتشجيع ، قد نبعت من احساسها بأنها أخت أكبر تحدث اخاها الأصغر فى غير تحرج أو تأثم • وهى فى نهاية الأمر مدرسة وهو تلميذ ، وتتقاضى مرتبا محترما فى الوقت الذى يتقاضى فيه المصروف من والده ، لا ان الشقة كبيرة بين الاثنين• وقبل كل شيء فهى فتاة من دنيا غير دنياه ، دنيا الرقص والتحرر والانطلاق ، وهو المحافظ الذى يقدر الاحتشام . لقد كان جنونا عارضا منه بدون شك ان يتصور ولو للحظة عابرة ان مثـــل آمال يمكن أن تكون فتاته التى يتعلق بها وينسج حولها آماله • وهكـــذا بدأت عواطفه تهـــدأ بالتدريج ، غير أن حـــديث آمال لم يطو نهائيـــا بحيث يصبح بقدرة فوزى أن ينام فى نهاية الأمر الا بعد أن ذكر نفسه بما عاهدها عليه ، من تكريس كل عاطفة وجهد فى حياته من أجل العمل مع العاملين على نهضة مصر واحياء مجدها القديم •

٦

كان قد مضى على مقابلة فوزى لآمال بضعة شـــهور ، عندما اقيم حفل التخرج الخاص بطلبة مدرسة البوليس بقسميها ، الضـــباط والكونستبلات • كان فؤاد قد بعث الى صـــديقه فكرى داعيا اياه وأصدقاءه فى المنيا والقاهرة الذين تعرف بهم أن يشهدوا حفـــلة تخرجه ، ولكن ذلك كان متعذرا لاستغراق الجميع فى الاســـتعداد

للامتحان الذى يؤلف مرحلة حاسمة فى حياتهم . على أن فؤاد كان أبعد ما يكون عن تذكر أحد فى الدنيا كلها وهو يتقدم كأنه كتلة من الخشب أو بعض نماذج الانسان الآلى ، من وزير الداخلية لكى يتسلم منه شارة التخرج ، وعندما كان الوزير يعلق هذه الشارة على صدره، كانت فرحة الدنيا كلها قد حلت فيه ، خاصة وقد هنأه الوزير وهو يصافحه تهنئة خاصة باعتباره على رأس المتفوقين فقد كان ترتيبه الأول .

* * *

وتسلم فؤاد عمله على الفور ، ونظرا لتفوقه فقد عين فى قسم عابدين أهم أقسام العاصمة على الاطلاق . وكانت أول بركات المنصب الجديد عليه ان سلم (موتوسيكل) وطلب منه أن يبدأ عمله بالتعرف على دائرة القسم . فراح يطوف الشوارع بموتوسيكله ، والدنيا لاتكاد تسعه من الفرح وهو يباشر سلطانه لأول مرة على عبيد الله من الرعايا المساكين . ومع شديد رغبته فى أن يكون يقظا فى تجواله ، وحازما فى ملاحظاته ، فلم تقع عيناه على شىء غير مألوف ، أو شىء ينكره من أى نوع كان . لقد كان الزهو الذى يتملكه وهو يرتدى ملابسه الجديدة ، ويتمنطق بهذا المسدس الضخم ، يجعل كل شىء جميلا فى عينيه. بدت الدنيا والطبيعة كلها جميلة كما لم يحس بها فى يوم من الأيام. ما أبهى الشمس التى كانت تغمر الطرقات ، لم يكن يحس بحرها رغم أن الصيف كان على الأبواب ، ما أنظف الشوارع التى كان يجتازها ، ان شوارع اوروبا لايمكن ان تكون انظف من هذه الشوارع على الاطلاق ، والنساء النساء ، الا ما أجمل هاته النسوة الأجنبيات ، وهن يتخطرن فى سيرهن كأنهن الطواويس والغزلان ! وفى غمرة هذا الشعور بالسعادة والرضا وحب الوجود ، وقعت عيناه عليها لأول مرة ، فتاة البار بشارع المغربى . كان يتلفت حوله كما يقضى عليه الواجب دون أن يسترعى انتباهه شىء خاص ، عندما شعر بهذه الفتاة تصوب النظر اليه ، ولم يكد يتنبه الى هذه الحقيقة حتى أسرعت

فغضت بصرها ، وغض فؤاد بصره بدوره بحركة تلقـــائية · ولكن صورة الفتاة ظلت مرتسمة فى ذهنه حتى بعد أن غادر الشارع · ولم يكن هناك شك عنده فى أنها كانت تحدق فيه باهتمام عندما ضبطها تنظر اليه ، ولكن لماذا خجلت ، وهى فتاة البار التى يقتضيها واجبها أن تدعو الناس بنظراتها ؟ وقطع على فؤاد سيل خواطره وصوله الى القسم ، اذ وجد الجو مكهربا ، وسرعان ما علم أن وزارة الأغلبيـــة قد أقيلت ، وأن جلالة الملك قد عهد الى رئيس حزب الأقلية بتأليف وزارة جديدة وان حالة الطـــوارىء بين قوات البوليس قد أعلنت ، وألغيت الراحات وأصبح عليهم أن يكونوا مهيئين للعمل طوال الأربعة والعشرين ساعة القادمة ، وأن يستعدوا لمقاومة المظاهرات بالحـديد والنار اذا لزم الأمر · واختفت على الفور هذه الاشراقة التى كانت تملأ نفس فؤاد بالرضا والابتهاج ، واستحضر الحقيقة المرة بعد يوم واحد من تسلمه عمله الجديد من أنه أصبح واحدا من رجال البوليس الذين اعتاد هو نفسه أن يســـميهم أعداء الشـــعب ، عندما كانوا يتصدون له ولاخوانه الطلاب المضربين فى المنيا ·

٧

ظلت قوات البوليس مرابطة فى أركان الشوارع والميادين عدة أيام بعد تأليف الوزارة ولكن العطلة المدرسية كانت قد بدأت ، فلم تقع مظاهرات ولم تكن هناك ضرورة لاستعمال العنف · وهكذا مرت الأيام دون أن يرى فؤاد نفسه مضطرا للاعتداء على أحد من الجماهير · وأصبح بحكم عمله يتابع الأحداث السياسية فى البلاد ، ولكن لامن ناحية شرعيتها أو مداها من الحق والقانون ولكن من ناحية تأثيرها فى حالة الطوارىء المعلنة ، ومتى يستأنف عمله الروتينى ويكف عن أعماله الاستثنائية · وعلى ذلك فقد أزعجه ، أن تؤجل الحكومة الجديدة البرلمان شهرا خوفا مما قد يعقب ذلك من توتر جـديد ، ولكن حالة الهدوء ظلت سائدة ، بحيث ألغيت حالة الطوارىء المشـــددة ، وعاد

فؤاد يطوف فى دائرة القسم من جديد يباشر عمله المعتـــاد • ومرة أخرى ألتقت عيناه بعينيها ، عينى فتاة البار • ولم تغض هـذه المرة ببصرها ، بل ابتسمت له ابتسامة عريضة أشرق بها وجهها ، وعلى الرغم من انطلاق فؤاد بموتوسيكله بعيدا عن مكان البار ، فلم يستطع أن يقاوم الاحساس بالسرور الذى غمر نفسه من جراء هذه البسمة اذ لم يعد لديه شك فى أنه هو المقصود بها • وضغط فؤاد على مفتاح فى موتوسيكله ، فانبعث منه ذلك الصوت المزعج نتيجـــة اندفاع الغازات الحبيسة ، وأثارت هذه الحركة انتباه الكثيرين من المارة ، كما أنها أعادت اليه صوابه ، فأحس بخجل عميق من نفســـه وراح يعنفها أشد ما يكون التعنيف كيف يسمح لنفسه ، أن يغتبط لمجرد أن احدى البغايا قد ابتسمت له ؟ أهان فؤاد عبد السميع على نفسه الى حد ان بات يطرب لابتسامة بغى تتاجر بهذه الابتسامات وتقتنص بها زبائنها ؟ أين العهد الذى أخذه على نفسه أن يجعل من نفسه قدوة لجميع رجال البوليس ليكون باستطاعته ان يترقى سريعا الى درجة الملازم ثان ؟

على ان طبيعة عمل فؤاد وطوافه المستمر فى دائرة القسم كانت تحتم عليه أن يمر حيث تعمل هذه الفتـــاة ، وقد حاول فى مرة من المرات أن يشيح بوجهه عندما اقترب من البار حتى لايراها ، ولكنه لم يكد يقوم بالمحاولة حتى كانت عيناه قد وقعتا عليها بالفعل ، فاذا بأساريرها تتهلل لمرآه ، كما لو كانت تنتظره فى لهفة منذ أمد بعيد • وتصنع فؤاد الجد والصرامة واحتقار شأن الفتاة ، ولكنه لم يستطع أن يغالب موجة السرور التى طغت عليه وهو يلاحظ اهتمام هـــذه الفتاة به • وسواء كانت الفتاة بغيا أو غير بغى ، فان من طبيعة الذكر أن يحفل باهتمام الأنثى به أيا كان شأنها أو وضعها الاجتمـــاعى • وعلى ذلك فلم يعد يتصنع الصرامة أو الجد كلما التقت عيناه بفتاة البار أثناء تجواله من حين لآخر ، بل لقد بدأ يرد على ابتســـاماتها بابتسامة مقابلة • وبدأ يستوقف نظره أن هذه التحيات ، وقفت عند

هذا الحد لاتعدوه، فلم تحاول الفتاة ان تشير له بأية اشارة من نوع ما، فضلا عن ان تدعوه الى الدخول الى البار بحركة من رأسها مثلا ٠ وبدأ هذا التحفظ من ناحية الفتاة يشجع فؤاد على أن يديم النظر اليها دون أن يخشى حدوث مضاعفات من جراء ذلك ٠ وبدأت ترتسم للفتاة صورة كاملة فى ذهنه ، فهى تناهز العشرين أو الواحدة والعشرين من عمرها بالرغم من مظهرها الخارجى ، الذى قد يوحى بأنها أكبر عمرا ، وعلى الرغم من أنه لم يرها الا جالسة فقد جزم بأنها لابد أن تكون طويلة ، ولم تكن بدينة أو نحيلة وانما كانت مليئة ، وكان صدرها هو مستودع فتنتها من غير شك ، ففيما عدا عينيها النجلاوين السوداوين ، لم يكن وجهها يوحى بالجمال ، وكانت المساحيق المبالغ فيها التى تلطخ بها وجهها تنفره منها ، وعجب كيف تضع المساحيق بهذه الصورة المنفرة،لولا ان تذكر ان هذا الأسلوب هو الاعلان عن حرفتها ٠

ومضت الأيام وبدأ فؤاد يحس بخيط خفى يشده الى هذه الفتاة ، وكان يحس بدفء ابتساماتها وصدقها على الرغم من البعد الذى ظل يفصلهما ٠

وقرر فؤاد أن يضع حدا لهذا الاهتمام الذى لامبرر له ، فالفتاة فى نهاية الأمر لاتعدو أن تكون مومسا ، من هذا الطراز الذى طالما اتصل به وهو طالب فى مدرسة البوليس ، عندما كان ينزل من المدرسة مع زملائه فى عطلة آخر الأسبوع ٠ وعلى ذلك فلا ينبغى تعقيد الأمور ، وليس يعنى العهد الذى أخذه فؤاد على نفسه أن يكون مثال الجد والاستقامة فى عمله ، ان يتحول الى قديس ، فمسألة القداسة هذه لم تكن فى حسابه أى لحظة من اللحظات ، وعلى ذلك فليس هناك أى مانع من أن يقضى فؤاد وطره من هذه الفتاة اذا راقت له ولم تعفها نفسه ، وكان قد لاحظ فى الآونة الأخيرة أنها لم تعد تلطخ وجهها كما كانت تفعل عندما رآها فى المرات الأولى ، كما لاحظ أنه يوجد على باب البار (ثلاجة لبيع الكازوزه) ولذلك فقد أوقف

موتوسيكله فى أحد الأيام ، ونزل عنه أمام البار ويمم شـــطر باب البار وقد استولى عليه توتر شـــديد وقلق ، بحيث تمنى لو كان فى قدرته ان يرجع القهقرى ، ولكن لم يكن الى هذا الرجوع من سبيل فقد رأته فتاة البار وغاض الدم من وجهها ، وراعه ماتجلى على وجـه الفتاة من صفرة فزاد ذلك من ارتباكه ، وأسرع فأصدر لها أمرا أن تفتح له زجاجة (كازوزه اسباتس) وناولته الفتاة الزجاجة دون أن تنظر اليه ، فراح يشرب بسرعة ، وكان أخشى ما يخشاه فى هـذه اللحظة أن تعاجله الفتاة بكلمة ماجنة أو داعرة مما اعتدن فى حرفتهن أن يوجهنه فى هذه المناسبات ، ولكن فؤاد أتم شرب زجاجته دون أن يقع شيء مما يخشاه ، وبينما كان يبحث عن القرش ليدفعه الى الفتاة، حانت منه التفاتة اليها فراعه اصفرار وجهها بحيث تجلت المساحيق وكأنها طلاء من الجير على أحد الجدران ، فشعر بالاشـــمئزاز من منظرها ، وأصيب بخيبة أمل من جراء ذلك • ورحب عقله بهـــذا الشعور فلن يعود بعد الآن يهتم بها بعد أن أثارت اشمئزازه بهـــذا الشكل الواضح ، وقدم لها القرش وقد أشاح بوجهه عنها قائلا لها « اتفضلى » وسمعها تقول له فى صـــوت مرتعش « مرسيه » ونظر اليها من جديد ، فاذا بالوجه الذى كان يذوب اصفرارا ، قد أصبح يلتهب احمرارا ، وأحس فؤاد بحيوية الفتاة الدافقة وهى تلفح وجهه بل وكل حواسه بحرها ، وسرعان ما محت هذه الصورة الحية التى تفيض بالحرارة ، الصورة السابقة عليها والتى أثارت اشمئزازه •

ولم يكن لدى فؤاد أى شك بعد اذ غادر الفتاة ، انه أصبح يتوق لها بكل حواسه • وأصبح السؤال الذى يشغله كلما خلا الى نفسه ، ما الذى يحول بينه وبين الاتصال بهذه الفتاة واشباع رغبته منها ، ما الذى يخشاه بعد أن قرر وسلم انه ليس قديسا ولم يفكر فى يوم من الأيام أن يكون كذلك • ولم يطف بخيال فؤاد لأمر ما أنه قد يقوم هناك حائل لتنفيذ المشروع من ناحية الفتاة ، فقد أصبح لديه احساس عميق أنه لايكاد يشير الى هذه الفتاة لكى تلبى رغبته • وقد عزا هـذا

الشعور الى أن هذه هى طبيعة مهنتها التى ترتزق منها وما دام سيدفع لها أجرها ، فلم يكن مجال للتصور ان تقوم هناك عقبات من أى نوع كان • وعلى ذلك فقد شرع فؤاد وقد رسم الخطـــة فى تنفيذها على الفور • وعاد الى بار المغربى ليشترى زجاجـة (كازوزة) ولم تكن هناك حاجة لتوتر الأعصاب هذه المرة ، ولم تكد فتاة البار تقع عيناها عليه حتى طفح وجههـــا بسرور أرضى غرور فؤاد وكبرياءه ، وراح يلتهم صدرها الذى كان يحتل كل تفكيره منذ قرر الاتصال بها وهتف بها « صباح الخير » وأجابته على الفور فى صوتها المرتعش الذى كان يستوقفه :

ــ يسعد صباحك ، هل افتح زجاجة كازوزة ؟

ورد عليها فؤاد فى أدب ولطف أنكرهما على نفسه :

ــ أيوه من فضلك •

وفتحت له زجاجة الكازوزة ومدتها اليه بيد مرتعشة ، واستوقفه جمال ذراعها وفتنه بقوة بحيث راح يقطع الرحلة عبر الذراع الممدود حتى الصدر الموعود ، والتقى نظر الفتاة بنظره وهو يقوم بهذه الرحلة فتضرج وجهها خجلا وحياء ، مما جعل فؤاد يدهش لذلك كل الدهشة ويشعر لذلك بسرور فى نفس الوقت • وأخذ منها الزجاجة وبدأ فى شربها • وفى هذه اللحظة برز من داخل البار رجل يبدو عليه للوهلة الأولى أنه من أعيان الريف المتفرنجين ، يرتدى جلبـــابا من الجوخ البنى اللون ويضع على رأسه طربوشا ، ووجه الحديث الى فتاة البار التى ارتسم على وجهها الذعر والقلق والاستسلام فى ذل ، وســـمع فؤاد الرجل يقول :

ــ انت سايقة علينا الدلال ولا ايه يابنت ؟

وتجلت صفرة الموت على وجه فتاة البار وهى تقول له :

ــ أنا خدامتك ياسعادة العمدة •

وأجاب سعادة العمدة «أيوه اتعدلى كده امال أحسن أخرب بيتك» وناولها العمدة جنيها وأعلمها أنه سيرسل لها فى ساعة معينـة

من الليل تابعه أبوسريع٠ونظرت فتاة البار من طرف خفى ناحية فؤاد قبل ان ترد فوجدته قد اختفى بينما كان القرش ثمن زجاجة الكازوزة مطروحا على غطاء الثلاجة ٠

٨

ووجد فؤاد نفسه مشغولا بهذا الحادث التافه العادى أكثر ممـا ينبغى ، ولذلك فقد راح من جديد يسب هذه الفتاة التى تســللت الى حياته ويلعنها ، ويتمنى لو كان باستطاعته أن يضربها حتى يميتها من الضرب ، وكان منظر هذا العمدة الوقح الذى لم يستح أن يقول لها ما قال بالرغم من أنه كان واقفا يثيره ويملأه بالحنق والغضب ٠ ان عهده بالفلاحين أن يخشوا سطوة رجال البوليس ، ولكن يظهر ان هذا العمدة من النوع الفاجر الذى له صلة ببعض الحــكام حتى أنه أخذ راحته بهذا الشكل أمامه ٠ ويعود فؤاد يصب جام غضـــبه على الفتاة المومس التى تعرض جسدها فى سوق الدلالة بحيث يصـــبح بقدرة أى وقح كهذا العمدة أن يستأجر جسدها ٠ ولم يهـــدأ فؤاد الا بعد أن حكم عقله فى الموضوع ، وأن ماحدث هو شىء عادى جدا فقد كان هو نفسه ذاهبا لاستئجارها فسبقه اليها العمدة ، وما عليه الا أن يكرر المحاولة ليفوز بها ، وقد أصبح الفوز بها يشكل ضرورة حيوية، بعد أن أصبحت تشغله أكثر مما ينبغى ، وكان عـلاج ذلك يتلخص فى أن يقضى وطره منها ثم ينســـاها كما كان شـــأنه دائمـــا مع أمثالها من قبل ٠

وتربص فؤاد للفتاة عقب خروجها من المحل فى بعض الليـالى ٠ وسار كل شىء حسب الخطة الموضوعة فلم تمانع الفتاة أدنى ممانعة فى أن تصحبه الى البيت ، واستقلا احدى سيارات الأجرة حتى ميدان بركة الفيل ، ثم طلب منها ان تتريث حتى يسبقها ويكشف الطريق، فاذا رأت الضوء فى نافذة بيته التى أشار لها عليها ، فما عليها الا أن تدخل وتغلق باب البيت وراءها فى هدوء ٠

....
....

وفرغ منها فؤاد بأسرع مايستطيع فقد كان مايشغله فى الدرجة الأولى هو أن ينتهى من هذه التجربة بسلام ، وان تخرج من البيت ومن حياته كلها قبل أن يعود حسن أفندى مأمون صاحب البيت من المقهى. وأتمت فتاة البار لبس ملابسها فى عجل بعد أن رأت كل اشارات فؤاد بل وعباراته تستحثها للخروج . ودس فؤاد فى يدها خمسين قرشا أخذتها منه فى صمت ودستها فى حقيبة يدها ، ولم تكد تفعل حتى قادها فؤاد الى الباب الخارجى ، وبعد أن استوثق أن لاخطر هناك اشار لها بالخروج . والتفتت نحوه فتاة البار قبل ان تنصرف وقالت له :

– خليتك بعافية ، أنا اسمى سميحة الشهيرة بأزهار ، وأنا دائما تحت أمرك .

ولم تكد أزهار تمضى ويغلق فؤاد الباب وراءها حتى غمرته موجة من الخجل لهذه العبارة التى ودعته بها فقد ذكرته أنه لم يعن طوال الوقت أن يعرف اسمها ، وان هذه العبارة التى قالتها ، كانت هى الجملة الوحيدة التى نطقت بها طوال وجودها معه ، وعجب فؤاد كيف لم يتنبه لهذه الحقيقة قبل ذلك وعاد يستعرض موقفها منه لقد كانت تبتسم له طول الوقت فى بشر وسعادة ، ولقد فتن بجسدها كما لم يفتنه جسد من قبل ، ولكن الذى لاشك فيه أنها لم تنبس ببنت شفة الا هذه العبارة التى ودعته بها من أن اسمها أزهار، وتنهد فؤاد وقال ، أزهار أو غير أزهار لقد فرغت منها الى الأبد .

الفصل الثاني

١

« على حضرات الضباط والصف ضباط سواء منهم من كان فى الخدمة أو فى الراحة ، ان يتواجدوا بالقسم فى الساعة السادسة مساء للاجتماع مع جناب مفتش الفرقة » •

وقال فؤاد بعد أن قرأ هذا الاخطار الذى قدمه له (البلوك أمين) ليوقع عليه بالعلم ، « يا فتاح ! يا عليم ! » • وعبثا حاول أن يفهم من (البلوك أمين) السبب فى هذا الاجتماع • ولكن (البلوك أمين) اقسم له أنه لايعرف شيئا معينا ، ولكن لابد أن يكون الأمر متصلا بالأحداث الجارية وحل مجلس النواب وتعطيل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد • وأمن فؤاد على رأى (البلوك أمين) وراح يغمغم لنفسه •

ـ رئيس الحكومة يصف حكومته بأنها وزارة اليد الحديدية ، وعلينا نحن أن نكون المطرقة التى يضرب بها ، ربنا يستّر •

واحتشد الضباط وصف الضباط فى ساحة القسم فى الموعد المقرر وهتف بهم المأمور « صفا » وتحركت أرجل الضباط متباعدة عن بعضها ، فى تخاذل وعدم اهتمام فهم ليسوا فى نهاية الأمر عساكر ، ولم ير المأمور فى ذلك أمرا غير مألوف ولذلك فقد نادى بالحركة التالية « انتباه » فضم الضباط أرجلهم من جديد ، قارعين كعوبهم فى بعضها بحيث سمع لها فى هذه المرة صوت ، ولكنه لم يكن بالقوة المطلوبة أو الوحدة التى هى طابع العسكرية ، ولم يعجب ذلك المفتش الانجليزى الذى كان يقف الى جوار المأمور بقامته المديدة وصدره

العريض ووجهه الأحمر وطربوشه الطويل ، ولذلك فقد أشـــار الى المأمور بالعصا الصغيرة التى كان يحملها ان يعاود الحركة ، وأسرع المأمور الى تلبية الاشارة فصاح فى الضباط بصوت أكثر عزما «صفا» وأدرك الضباط أن المحافظة على كرامتهم هذه المرة تقتضى أن يحسنوا الحركة ، فأدوها على الوجه الأكمل ، وكادت جدران القسم تتصدع من دق كعوب الضباط فى بعضها ، عندما أدوا حركة « انتباه » ورضى المفتش الانجليزى بأن الضباط دخلوا فى القـــالب الذى يجب أن يكونوا فيه دائما ، وشرع يحدثهم فى سبب الاجتمـــاع فى لكنـــة انجليزية .

– ياحضرات الضباط لقد أعلن النواب والشيوخ احتجاجهم على حل البرلمان وتعطيل الدستور ، وقرروا أن يرفعوا عريضة لجـــلالة الملك تتضمن احتجاجهم ، وقد قررت وزارة الداخلية أن تحـول بين النواب والشيوخ وبين الوصول الى القصر الملكى فى الموعد الذى حددوه لذلك غدا . ومن الطبيعى اننا جميعا وعلى رأسنا سعادة الحكمـدار نتمنى أن يمر الغد بسلام ويتصرف النواب والشـــيوخ فى تعقل فيتفرقوا فى سلام عندما تأمرونهم بالتفرق وعدم المضى فى مظاهرتهم، فاذا أبوا الاتحدى السلطة فليس أمامنا الا أن ننفذ التعليمـــات التى تعرفونها جيدا ، وهى استعمال القوة الى حد اطلاق النار ، وأنا واثق أنكم ستقومون جميعا بواجبكم كما هو شأنكم دائما . وختم جناب المفتش كلامه بالعبارة التقليدية « اشكركم ، وأنا مستعد أن أرد على أى سؤال بخصوص هذه المهمة » .

ولم يحدث من قبل أن سأل ضابط سؤالا فيما قيـل له ، وكان الجميع يرحبون عندما يتلفظ المفتش بهذه العبـــارة اذ كانت تعنى فض الاجتمـــاع وانتهـاء محنتهم ، فلم يكن يعجب الضـــباط أن يصـــفوا على هذا الأسلوب فى ســـاحة القسم ، ولذلك فقـــد كانت مفاجأة الجميع شديدة عندما تقدم الملازم ثان صادق عبد اللطيف الذى كان قريب عهد بالالتحاق بالقسم عقب تخرجـــه ، وطلب من

جناب المفتش أن يسمح له أن يتوجه بطلب بخصوص ما قيـل لهم ، وقطب المفتش الانجليزى حاجبيه فى تجهم ثم قال للضابط « اتفضل اكلم » وأسرع الضابط الحديث التخرج يقول :

ــ جناب المفتش يدرك من غير شك خطورة مايطلبه منا وهو أن نطلق الرصاص على النواب والشيوخ السابقين اذا رفضـوا الأمر بالتفرق وقاوموه ، واعتقد أن من حقنا أن نحصل على هـذه الأوامر كتابيا منعا لكل لبس فى المستقبل ولتحديد المسـئوليات اذا وقع مالا تحمد عقباه •

واحمر وجه المفتش الانجليزى حتى أصبح قانيا بحيث زال الفارق بين لون وجهه ولون الطربوش ، على أن ذلك لم يدم سوى لحظة واحدة لم يلبث المفتش بعدها أن سيطر على أعصابه ، وراح يرد على الضابط الحديث التخرج ، انه قد نقل اليه التعليمات كما تلقاها من سعادة الحكمدار ، وان كل ضابط بوليس يعرف واجبه • وأشـار المفتش للمأمور اشارة خاصة فأسرع المأمور هاتفا بالضباط داعيا اياهم الى الانصراف ، وأشار المعاون السباعى أفندى الى الملازم ثان صـادق عبد اللطيف أن يتبعه الى حجرته ، ولم يكد المعاون يسـتقر خلف مكتبه حتى بادر الضابط الحديث التخرج باستنكار هذا الذى قام به والذى يهدد مستقبله أعظم تهديد • وأبدى الضابط الحديث التخرج دهشته فهو لم يرتكب أمرا يستحق هذا التحذير •

ورفع المعاون حاجبيه فى دهشة وقال له :

ــ كل هذا الذى فعلت ولم تدرك بعد أى خطـأ ارتكبت ؟ كيف تطلب يا أفندى من جناب المفتش أمرا كتابيا باطلاق النار على الشيوخ والنواب اذا هم قاوموا الأمر الصادر لهم بالتفرق ؟ هل تتصور أنه من الممكن كتابة مثل هذا الأمر ؟ ومن ناحية أخرى كيف تسـمح لنفسك أن تخاطب المفتش مباشرة ؟

وذهل صادق عبد اللطيف لهذا الاعتراض الأخير وقال للمعاون فى دهشة :

— ولكنه يافندم هو الذى طلب منا أن نسأله اذا كان هنـــاك ما يستحق السؤال .

فرد عليه المعاون بأن ذلك القول مجرد شكليات كما اعتـــاد البوليس الانجليزى أن يفعل فى بلاده ، ولكن العادة جرت فى مصر أن يرد الضباط دائما على هذه العبارة بقولهم « تمـــام يا أفندم » ثم يستوضح الضابط الذى يريد أن يستوضح شيئا من رئيسه المباشر .

وظهر الامتعاض على وجه صادق عبد اللطيف وقال للمعاون :

— والله ياحضرة المعاون لقد تعلمت فى المدرسة غير ذلك ، ان كل ضابط منا مســئول عن تنفيذ القانون ، واذا دعاه رؤســاؤه الى ما يتصوره خروجا على القانون ، فمن حقه أن يطلب من رئيسه أمرا كتابيا بما يكلفه به ، وانى اتصور دون أن يكون ذلك تدخلا منى فى السياسة أن من حق النواب أن يرفعوا عريضة الى جلالة الملك حتى بعد أن تزول عنهم صفتهم النيابية ، فلكل مواطن حق تقديم عريضة ، فاذا طلب منى منعهم بالقوة التى تصل الى حد اطلاق النار ، فما الذى يمنع أن يطلب منى ذلك كتابيا ؟ وابتسم المعاون فى اشفاق على هذا الضابط الذى يعيش فى دنيا من الخيالات والاحلام ، وقال له :

— اسمع ياصادق ، لقد كان حريا بك مادمت بهذه الآراء والأفكار أن تدخل الى كلية الحقوق وليس الى مدرسة البوليس ، أما الآن وقد أصبحت ضابطا فيجب أن تخرج من عقلك وفكرك كل هذه الأوهام التى حشا بها رؤوسكم عزيز بك ، أتعرف ما الذى يطلقونه على مدير مدرستكم هذا ؟ انهم يسمونه « المجنون » ، ولولا ان الملك لأمر غير مفهوم يتمسك به لطرد منذ أمد بعيد ، اسمع منى نصيحة باعتبارى أخا أكبر لك ، لاسبيل لك للنجاح أو الترقى بل لاســبيل لك فى البقاء بالقاهرة ، والبقاء فى الوظيفة كلها ، الا اذا جعلت طاعة الرؤساء فى غير مناقشة هو سبيلك وشعارك .

وقال الضابط الحديث التخرج بعد أن ازداد عنادا .

— ان طاعة الرؤساء هى اخص واجبات رجل البوليس ، ولكن فى حدود القانون .

وقطع على صادق عبد اللطيف كلامه دخول فؤاد عبد السميع الذى دعاه للذهاب الى مكتب البك المأمور تلبية لأوامره ، وأعد صادق عبد اللطيف نفسه لتعنيف أمرْ من البك المأمور على ماوقع منه ، ولكنه كان مصمما على التمسك بوجهة نظره ، وانه لم يرتكب أى خطأ • ولم يكد صادق عبد اللطيف يدخل الى حجرة المأمور حتى لاحظ امتقاع وجهه ، بينما تولى المفتش الحديث مع الضابط الحديث التخرج ، فقال له فى عربيته ذات اللكنة الانجليزية وهو يبتسم له :

ـ أنا مسرور جدا منك ياحضرة الضابط ، فأنا أحب الضابط الذى تكون له شخصية ، وقد أدركت الآن فقط لماذا كان ترتيبك الأول فى دفعة هذا العام ، ولكن من سوء الحظ ياحضرة الضابط أن ظروف الأمن فى البلاد دقيقة جدا ، ولايناسبها رجال من أمثالك ، ولذلك فقد صدر قرار مدير الأمن العام بنقلك الى مدينة أبو قرقاص على أن تتسلم عملك فيها غدا بعد الظهر ، وان شاء الله نسمع عنك اخبارا طيبة ، مع السلامة ياحضرة الضابط ، انصراف •

ولم يسع الضابط حديث التخرج الا أن يرفع يده بالتحية وأن يلبى الأمر الصادر له ثم يخرج وهو مذهول لا لأنه عوقب فى ظلم ، ولكن للسرعة التى تم بها العقاب ، وسرت الأنباء فى القسم فأمسك الجميع عن التعليق حتى لايعرضوا أنفسهم لمشاكل ، وكان الملازم أول صلاح هو أول المعلقين وكان قد دخل حجرة المعاون عقب خروج صادق منها ، فقد هز اكتافه فى شماتة واستهتار وقال :

ـ يستاهل ، مادام حضرته يريد أن يعمل بطل ، فليرينا بطولته فى أبو قرقاص واعترض عليه المعاون الذى كان يحب صادق عبد اللطيف قائلا :

ـ ماهذا الذى تقوله ياصلاح ، ان المسألة ليست هينة ، كيف ينقل بهذه السرعة بالتليفون مع أنه لم يرتكب أية جريمة ، ان معنى ذلك اننا جميعا فى خطر •

وقطع عليه الملازم أول صلاح الاسترسال فى كلامه قائلا له :

ـ وحياة النبى ياحضرة المعاون الحيطان لها آذان فدعك من هذا الكلام الذى لاطائل تحته ، هذه حياتنا وهذا نظامنا ، ولاجديد فى هذا الذى جرى ، وليس فينا من لم يتعرض لمثل هذه الصدمات فى أيامنا الأولى حتى تعلمنا ، وقد حان دور صادق لكى يتلقى درسا ينفعه طول حياته • وسكت المعاون على مضض مقدرا مافى كلام صلاح الذى لم يكن يحبه ، من تصوير للأمر الواقع •

ولم يكن فؤاد عبد السميع أقل من الجميع رعبا لهذه العقوبة السريعة الناجزة التى لم توجه الى صادق عبد اللطيف وحده ، بقدر ما كانت موجهة اليهم جميعا ، الى كل من تحدثه نفسه فى التردد أو التلكؤ فى تنفيذ الأوامر الصادرة له مهما كان شذوذها ، ومع ذلك فقد وجد فى نفسه حافزا ، أن يهرع لتحية صادق عبد اللطيف وأن يودعه ويهنئه على موقفه ، واذا كان فؤاد هو الوحيد من بين صف الضباط والضباط الذى فكر فى تحية صادق عبد اللطيف ، فان العساكر جميعا والاونباشية بدون استثناء أقبلوا على الضابط المنقول ، وهم يحيونه ويسلمون عليه ، وذرف بعضهم الدموع ، ولم يفت واحد منهم أن يقول له انه سيكون سعيدا فى أبو قرقاص فقد سبق له أن خدم فيها وهو الآن يبكى على هذه الأيام •

٢

احتشدت قوة البوليس فى اليوم التالى منذ الصباح المبكر فى الشوارع المؤدية الى ميدان عابدين ، وقد ارتدوا جميعا الخوذات وحملوا فى أيديهم العصى الثقيلة والدروع لتقيهم قذف الطوب • واختص نفر منهم بحمل الأسلحة النارية لاستعمالها اذا تأزمت الأمور ، وكان فؤاد واحدا ممن عهد اليهم بهذه المأمورية ، ولكنه أضمر فى نفسه ، ان لايطلق النار أبدا • ولم يكن هذا العزم وقفا عليه ، بل لقد كان هذا شعور الأغلبية من ضباط قسم عابدين ، وشعور جميع الضباط الذين حشدوا فى هذا اليوم من سائر الاقسام،

رغم تظاهرهم جميعا بالانصياع الى الأمر الصادر لهم . ولم يكن ذلك الشعور بدافع من الاحساس بالواجب وما يجوز أو لايجوز مما دفع صادق عبد اللطيف ثمنا له ، ولكن نتيجة التجارب التى تمرسوا بها ، فمن يضربونهم اليوم قد يصبحون حكام الغد فينتقمـــون منهم شر انتقام ، ولذلك فقد كانوا على استعداد بطبيعة الحال أن يحولوا بين النواب والشيوخ وبين الوصول الى القصر ما اســـتطاعوا الى ذلك سبيلا ، تاركين مهمة الاعتداء اذا لم يصبح منها مناص الى غيرهم من القوات المخصصـــة لذلك ، والذى لم يفت المشرفين على الأمن أن يحشدوهم بالفعل من باب الاحتياط .

وجاء النواب والشيوخ وتصدى لهم مأمور قسم عابدين ومن حوله ضباطه ، وناشد النواب الذين كان يعرفهم جيدا ، أن ينصرفوا بسلام فالتعليمات لديهم صريحة ان يمنعوهم بالقوة من الوصول الى القصر ، وأغلظ له بعض النواب فى الرد وقالوا له انه لاتوجـــد قوة على ظهر الأرض تستطيع ان تحول بينهم وبين الوصول الى ساحة المليك وأسرع فريق من النواب بالفعل فتجاوز نطاق البوليس ، وجرى البعض نحو باب التشريفات وهنا انفجر غضب مساعد الحكمدار الانجليزى الذى كان يرأس القوة ، وأحس كما لو كانت حصونه وقلاعه قد وقعت فى يد العدو فأصدر أوامره الى مساعديه من المفتشين أن ينفذوا ما لديهم من التعليمات بالضرب . وصدر الأمر الى قوة بلوكات النظـــام التى كانت مستعدة ، أن تهجم على النواب والشيوخ وتضربهـــم ، وجرى النواب تحت وطأة هذه الهجمة الغاشمة ، وتصـــور بعض النواب الآخرين ممن كانوا نفذوا من النطاق انه من العار ان يجروا ، فادركهم عساكر بلوك النظام وانهالوا عليهم ضربا ، وقد كان هذا العـــدوان كافيا لكى يسرع جميع النواب والشيوخ باخلاء الميدان ومشـــارفه . وأسرع البوليس بعد أن انصرف النواب يصب جام غضبه على الجمهور الذى كان قد احتشد وراح يهتف بالدستور وبحياة الشعب . ورأى مأمور عابدين وضباطه أن يعوضوا ما ظهر عليهم من تراخ فى مقاومة

النواب فراحوا يبطشون بأفراد الشعب فى قسوة ، وكان فؤاد فى بادىء الأمر هو الوحيد الذى حاول أن يتمسك بفكرة عدم الاعتداء فراح يهوش ويصيح فى الجماهير ويلوح بعصا أخذها من أحـــد العساكر ، واذا به يفاجأ بطوبة تصدمه فى جبهته . وطاش عقـــل فؤاد وغلا الدم فى عروقه من حرارة الضربة ونظر الى الجهة التى جاءته منها الطوبة ، فوجد صبيا لايزال تحت تأثير النشوة لنجـــاحه فى اصابته ، فأسرع يعدو خلفه وهو مصـــمم أن يذيق الولد المجـــرم الأمرين . وجرى الغلام الصغير فى فزع ، ولكن فؤاد أبى الا أن يلاحقه وأوشك أن يدركه عند منعطف شارع حسن الأكبر ، لولا انه اصطدم فجأة بأحد الافندية السائرين وهم فؤاد أن يصب جام غضبه على هذا الأفندى الذى حال بينه وبين الانتقام من الولد الذى اعتدى عليـــه ، واذا به يفاجأ بأن هــــذا الافندى ليس الا صديق طفـــولته فكرى عبد الحميد ، وكانت الخوذة التى يرتديها فؤاد والبدلة العســـكرية والمفاجأة ، كل ذلك من شأنه أن يجعل فكرى لايكتشف صاحبه ، ولكن عندما صاح فؤاد قائلا « فكرى » كان فكرى يرد على صيحته بصيحة مماثلة « فؤاد ؟ » وتصافح الصديقان ، وتنبه فكرى أخيرا الى الظروف غير الطبيعية التى اصطدم فيها بفؤاد فسأله فى استنكـــار عما كان يفعل ؟ فأجابه فؤاد بأن الوقت لايسمح له بشرح الموقف ، وســـأل فكرى أين يستطيع أن يقابله بعد ان يفرغ من عمله ، فوصـــف له فكرى بيته الذى استأجره فى شارع البحر بالجيزة ليسكن فيـــه هو وزميله محيى بعد أن جاءا الى القاهرة للالتحاق بالجامعة .

٣

عاد فوزى فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن أمضى سهرته فى بيت البحر الذى أصبح مستقرا له بعدا اجتماع شمله من جـــديد بصاحبه محيى ، وتعلقه بفكرى صديق محيى الجـــديد . وكانت المناقشة بينهم هذه الليلة كأحد مادارت بينهم فى المدة الأخيرة ، فقد

أشعلتها زيارة فؤاد عبد السميع الكونستابل صديق فكرى ومادار حول ذلك من بحث عن واجب الشباب الوطنى بالنسبة للالتحاق بالبوليس وأيهم أصلح للشعب ، فكان من رأى فوزى أن على الشباب الوطنى أن يهرع الى الانضمام الى البوليس والجيش ، للوقوف الى جوار الشعب فى معاركه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وللتخفيف من وطأة الضغط الشديد الذى يمارسه البوليس بصفة خاصة ضد الشعب ، وكان من رأى محيى أن ذلك لايعدو ان يكون كلاما نظريا فما دام البوليس تحت سلطان الانجليز فهو لايمكن الا ان يكون أداة عسف وعدوان على الشعب ، وأن كل شاب ينضم اليه لايمكن الا أن يمسخ ويتحول الى عدو من أعداء الشعب ، وانضم فؤاد بطبيعة الحال الى جانب فوزى وأقسم أنه آلى على نفسه أن لايضرب مواطنا فى أى مظاهرة ، فاعترض عليه فكرى بقوله « أولم اضبطك يافؤاد وانت تعدو خلف شخص لم أتبينه ؟ » ورد فؤاد على ذلك بقوله ، انه انما كان يجرى خلف ولد قذفه بحجر وكان يهم بقذفه بحجر آخر ، فالمسألة لاتعدو ان تكون دفاعا عن النفس ٠ وهنا صاح محيى قائلا :

ــ أرأيت ؟ هذه هى الحجة التى يلوذ بها البوليس دائما عندما تضبطه يعتدى على أحد أفراد الشعب ٠

وقص عليهم فؤاد حادثة الضابط صادق عبد اللطيف وكيف اعترض على المفتش الانجليزى ، وعندما حاول فوزى أن يتخذ من هذا الحادث دليلا على أن الشاب الوطنى يستطيع أن يقوم بدور فى منع الظلم والتعسف اذا انضم الى البوليس ، رد عليه محيى بأن موقف صادق ليس سوى البداية ، وأن هذا الدرس القاسى الذى تلقاه لدى أول محاولة سوف يجعله يتحول وقد يصبح أشد ضراوة من غيره ٠ وهكذا لم تصل المناقشة الى نتيجة حاسمة ، وما كانت المناقشات بين فوزى ومحيى يمكن أن تصل الى أى نتيجة ٠

ومع ذلك فقد كان فوزى سعيدا بهذا الجو الذى أصبح يعيش فيه ، وراح يدندن باحدى الأغنيات فى صوت خافت حتى لايوقظ أحدا

فى البيت ، ولكنه فوجىء بصديقه رياض فى حجرته مرتديا ملابسه.
وفرح فوزى بصديقه رياض الذى كان قد مضى وقت طويل لم ينعم بصحبته ، سواء قبل الامتحان أو فى أثنائه ، ولم يكد الامتحان ينتهى حتى دعته أخته الكبرى مفيدة لتمضية بعض الوقت معها وزوجهـــا شوقى بك نصار فى مصيفها بالاسكندرية ، ليعوض بعض مالاقاه من عناء فى المذاكرة . وقد استأذن رياض درية هانم زوجة والد فوزى فى أن ينتظر فوزى فى حجرته ، فرحبت به درية هانم فقد كان كثير الاعتياد على ذلك بل وقدمت له طعام العشاء . وراح كل من الصديقين يقص على الآخر تفاصيل حياته فى الفترة التى انقطع فيها عن أخيه .
وكان طبيعيا أن يكون الجزء الأكبر من حديث فوزى منصبا على بيت شارع البحر الذى استأجره محيى وفكرى للاقامة فيه بمناسبة قرب التحاقهما بالجامعة ، وكيف أن هذا البيت أصبح يؤلف بالنسبة لهـم ناديا أدبيا ففيه جميع الألعاب المنزلية من طاولة وكوتشينة ودومينو، كما أن لديهم جرامفونا مع مجموعة رائعة من آخر اسطوانات أم كلثوم وعبد الوهاب من أمثال (ان كنت اسامح ، وحقك انت المنى والطلب) لأم كلثوم ، و (أنا انطونيو ، وفى الليل لما خلى ، وعلى غصون البان) لعبد الوهاب ، وانتقل فوزى من الحديث عن بيت البحر الى الحـديث عن المحاضرة التى القاها فى جمعية الشبان المسلمين عن حضارة مصر القديمة الفرعونية ووجوب العمل على بعثها ولم يدع فوزى شاردة أو واردة مما جرى فى هذه المحاضرة الا وقصها على رياض الذى كان يستمع الى نجاح صاحبه فى أول محاضرة عامة يلقيها بفرح واعتداد .
واكتشـــف فوزى أنه قد غرق فى خطيئته الكبرى حيث راح يثرثر متحدثا بكل شىء عن أحواله ، فطلب من رياض أن يحدثه بدوره عن كل شىء يتصل به ، ولكن رياض لم يقل له سوى موجز سريع لأحواله من أنه يقيم واخته ثريا فى الاسكندرية ، وأنه قد جاء ليقدم أوراقه لدى الجامعة بعد أن استقر عزمه نهائيا على دخول كلية العلوم قسم الجيولوجيا ، ليكون باستطاعته المساهمة فى الكشف عن ثروة مصر

المعدنية ، والتى قامت عليها الحضارة الفرعونية بالـــذات ، وعانق فوزى صديقه اكبارا لهذه الروح الوثابة • وانتقل الحـــديث الى السؤال عن أفراد أسرة رياض ، وكان من الطبيعى أن يرد ذكر آمال، فقال رياض ان آمال ضاقت ذرعاً بالاسكندرية وفضـــلت عليها حر القاهرة ، لايثارها الحرية التى تحيا عليها فى القاهرة وكراهية منها للنظام والقيود التى تسير عليها الحياة فى بيت اخته مفيدة • وقد طلبت منه أن يدعو فوزى لزيارتها غداً فى مصر الجـــديدة فى بيت صديقتها فتحية ، لفرط شوقها لرؤيته • واحتج فوزى على صاحبه قائلا « هل من المعقول أن تكون آمال فى شوق لمرآى ؟ » واحمر وجه رياض من الخجل ، واقسم لفوزى أنه نقل اليه نص عباراتها • ثم أضاف قائلا « وأى غرابة فى أن تشتاق لرؤيتك ، وانت تعلم أن جميع أفراد أسرتى قد باتوا يعتبرونك فردا منهم ؟ » •

٤

وتقابل فوزى وآمال من جـديد فى البيت الذى كان قد آلى على نفسه أن لايدخله مرة ثانية ، بعد أن شـــهد القهر الذى أحس به والمرارة التى تجرعها ، عندما تخلت آمال عنه لتراقص الدكتور ممتاز. وكان معنى هذه العودة ، عدم اكترائه ومبالاته بآمال وشعورها نحوه، ولولا حب الاستطلاع الذى تملكه ، لما قبل دعوتها الجديدة ، فقـــد كان نسى كل شىء يتصل بها منذ تلك الليلة الأولى التى قابلها فيها • وقد ساعدت عوامل كثيرة على هذا النسيان ، كاستغراقه فى الاستعداد للامتحان ، ثم نجاحه ، وحياته الجـديدة فى بيت شـــارع البحر ، وما أصبح يراودهم من أحلام •

على أن آمال لم تكد تظهر أمامه ، لم تكد تمد له يدها البيضـــاء الدافئة ذات الأظافر الوردية ، وتنظر اليـــه بعينيهـــا الزرقاوين الصافيتين ، حتى أحس أنه كان يخدع نفسه طوال المدة الســابقة ،

وان آمال تحتل من نفسه مكانة لم تحتلها انثى من قبل ٠ وهتفت به آمال مرحبة فى سحر ودلال ٠

— مرحبا يا أستاذ فوزى ، أهلا وسهلا ، وحشتنا يا اخى ، أين أنت من زمان ؟

وكان على فوزى أولا أن يتمالك انفاسه ، قبل أن يرد على هـــذا السيل من عبارات الترحيب ، وساعده على تمالك أنفاسه بسرعة هذا التبـــدل الغريب الذى كان قد طرأ على آمال والذى لاحظـــه على الفور٠ لم تعـــد آمال هذه الفتـــاة الانجليزية التى لاتجيد الكـــلام باللغة العربية ، والتى لاتســـتطيع التعبير عن المعـــانى الدقيقة فى نفسها الا باللغة الانجليزية ، بل لقد أصبحت فتاة مصرية وهاهى ذى تقول له أوحشـــــتنا ، وأين أنت من زمان ٠ على أن آمال ظلت محتفظة فى ملابسها وهندامها بالطابع الانجليزى الذى فتن فوزى عند أول مقابلة ٠ كان الثوب هذه المرة وردى اللون يلتصق بجسدها فى جزئيه العلوى والسفلى ويكشف عن اتساق خطوطه ورشاقتهـــا ، وكانت أكمام الثوب قصيرة جدا ، فكشفت عن ذراعيها الجميلتين حتى لقد خيل لفوزى انهما يشعان ضوءا ٠

وبعد أن استقر المقام بفوزى وتجاذب مع آمال الحديث ، اكتشف أنها لم تعد هذه الطفلة اللاهية التى رآها فى المرة السابقة ٠ لم تعد هذه الفراشة التى تكاد تطير بغير أجنحة لفرط خفتها ورشاقتهـــا ، لقد استطاعت بضعة شهور من الاصطدام بواقع الحياة المصرية وتحمل المسئوليات ، وما يمكن أن تكون قد لقيته من خيبة أمل فى أكثر من ناحية ، أن تحدث فيها انقـــلابا عميق الغور فأصبحت أكثر اتزانا ورصانة ، أو هكذا تجلت لفوزى فى هذه اللحظة على الأقل ٠

وكان رياض كما هى العادة هو الذى هيأ الفرصـــة لفوزى كى يصول ويجول أمام اخته آمال اذ راح يحـــدثها ، كيف القى فوزى محاضرة فى جمعية الشبان المســـلمين لاقت نجاحا كبيرا ٠ وطلبت آمال من فوزى أن يقص عليهـــا عنـــاصر محاضرته ، ولم يكن فوزى

ينتظر الا هذه الاشارة ، لكى ينـدفع فى حـديثه عن مدنية قدماء المصريين وكيف تجددت هذه المدنية بكل عناصرها فى حيـاة مصر أكثر من مرة ، وتكلم بالحماسـة التى اعتاد أن يتكلم بها كلما عرض لهذا الموضوع حيث ينسى نفسه تماما ، ولكنه لم يلبث هـذه المرة أن توقف فجأة وعرته موجة من الخجل لتطوحه بعيدا فى الحديث، وطلب من آمال ان تغفر له تصديعه رأسها بهـذه الأقوال • وارتفع صوت آمال آلتى كانت مأخوذة بحماسة فوزى ، بالاحتجاج عليه لهذا الاعتذار وقالت له :

ــ أتكون قد نسيت ياسيد فوزى أننى مصرية ، وان الحديث عن مدنية مصر وعظمتها يشوقنى كما يشوق أى انسان آخر ؟ اسمح لى أن أعبر لك عن اعجابى أن يتكلم شاب فى مثل سـنك بكل هـذا الاقتدار ، وانى أتنبأ لك بمستقبل عظيم ان شاء الله •

ونزلت اشارتها الى سنه الصغير ، وتحدثها عن مستقبله العظيم بلهجة الأخت الكبرى ، على عواطف فوزى كما لو كانت دشا باردا . على ان آمال لم تلبث ان سألته ان يسمعها شيئا من روائعـه التمثيلية ، ومرة أخرى تضرج وجه فوزى بالاحمرار من الخجـل ، وقال لها ان موضوع التمثيل انتهى • ودهشت آمال لهذا القول وقالت له وفى صوتها رنة احتجاج •

ــ ابعد هذه السنوات الطويـلة والاغراق فى هواية التمثيل ، تتخلى عنه مرة واحدة ولاتعود تحفل به ؟ وابتسمت آمال وأشـارت بأصبعها محذرة :

ــ حـذار يا أسـتاذ فوزى أن تكون من هؤلاء الهـوائيين الذين لايستقرون على حال ؟ واحمر وجه فوزى لهذا الهجوم وأسرع يقول :

ــ ان الأمر ليس على هذه الصورة ، لقد هويت التمثيل وسأظل طول عمرى متعلقا به كهواية ، ولكن نشاطى هذه الأيام كرس لهذه الفكرة التى حدثتك عنها ، من وجوب العمل لبعث مجد مصر وتشييه

نهضتها . ونظر فوزى لآمال وقال لها « لقـد كان تمثيلى أمامك فى الشتاء الماضى هو آخر تمثيل لى » . وارتسمت على شفتى آمال بسمة غامضة ، وحدقت فيه النظر وهى تقول :

ــ انك تضفى على شرفا كبيرا اذ تجعل تمثيلك أمامى ختام مرحلة وبدء مرحلة جديدة ، سيقرر المستقبل وحده ما اذا كان هذا التطور نحو الأحسن أم نحو الأسوأ وضحكت آمال فى الوقت الذى أرتج فيه على فوزى ازاء هذه العبارة الضخمة التى تلفظت بها والتى كانت تفيض بشتى المعانى ، ونظر اليها مستطلعا والتقت العيون للحظة من الزمن، ولكن الاثنين أسرعا فى وقت واحد باطراق رأسيهما وزاد ارتبـاك فوزى ، ولكن دخول فتحية فى هذه اللحظة قادمة من الخارج قد بدد الشعور بالحرج . واعتذرت فتحية عن تأخرها حتى ذلك الوقت ، وان كانت واثقـة ان الجميع كانـوا سـعداء فى غيبتهـا . وارتفعت أصوات رياض وآمال بالاحتجاج على تصريحاتهـا ، ولكن فوزى كان يقرها فى أعماق نفسه على كل كلمة قالتها فقـد ذكره دخولها ، بالمأساة التى انتهت اليها مقابلة المرة الماضية . وأهاجت الذكرى مشاعر فوزى ، واستعاد صورة الدكتور ممتاز وهو يخاصر آمال ، فرأى أن يبادر بالانصراف مبكرا هذه المرة قبـل أن يحضر الدكتور ممتاز وتتكرر المأساة . واحتجت فتحية عندما صرح فوزى برغبته فى الانصراف وأصرت على حقها فى الاستمتاع بالجلسـة مع رياض وفوزى . ولم يقع ماكان يخشاه فوزى فلم يظهر الدكتور ممتاز هذه المرة . وأخيرا جاءت الجلسة الى نهايتهـا عندما اعتذرت آمال بارتباطها هى وفتحية بالقيام بزيارة احدى المفتشـات الانجليزيات التى كانا قد قابلاها فى انجلترا ، وعلم فوزى لأول مرة أن آمال قد استلمت عملها كمدرسة للغة الانجليزية فى مدرسة السنية الثانوية للبنات . وبينما كان فوزى يستمتع بيد آمال التى مدتها اليه مودعة، اذ فاجأته بقولها :

ــ يا أخى انت أخدتنا فى دوكة فلم تدع لنا فرصة نهنئك فيهـا

على نجاحك في البكالوريا • ومن جديد لم يطرب فوزى لهذه التهنئة التى ذكرته بمدى الفارق الشاسع بين شاب نجح فى البكالوريا وفتاة أتمت تعليمها العالى فى انجلترا وتدرس لطلاب التعليم الثانوى الذين كان واحدا منهم حتى الأمس القريب •

٥

كان فؤاد قد كف منذ أمد بعيد عن المرور فى دائرة القسم ، بعد أن أصبح عمله الرئيسى هو تولى احدى نوبات الضابط (النوبتجى) فى القسم ، حيث يقوم بتحرير المذكرات وعمل المحاضر لما يرد على القسم من حوادث • وكانت نوبته تبدأ هذه المرة فى السادسة صباحا ، وشرع زميله الذى كان متوليا نوبة الليل يسلمه الأوراق والمضبوطات والاحراز الخاصة بمختلف القضايا ، لافتا نظره الى ماينبغى عمله أو استيفاؤه فى كل مسألة على حدة ، ولم يلبث أن قال له : •

ـ والنبى يا فؤاد ، عندك فى الحجز بنت كلب غلبانة ، كان يجب أن يفرج عنها بالأمس ولكنا لم نجد أحد مشايخ الحارات ليضمنها فاضطررنا لابقائها فى الحجز ، فارجو أن تعمل ترتيبا للافراج عنها بأسرع ماتستطيع • وسأل فؤاد صاحبه عن تهمة هذه البنت ، فأجابه بأنها احدى فتيات الهوى تعمل فى بار فى شارع المغربى ، وقد ادعى عليها أحد العمد من زبائن البار بأنها سرقت محفظة نقوده ثم تبين كذب الادعاء ، والحقيقة أنه كان فى حالة سكر وأراد أن يقبلها رغم أنفها فصفعته على وجهه ، فأقسم ان ينتقم منها فاتهمها بسرقة المحفظة • ولكن جميع الشهود ومنهم عسكرى الداورية الذى جاء على أثر الحادث مباشرة كذبوه • وقد أشر حضرة المعاون على المحضر بوجوب الافراج عنها ، ولكنا لم نتمكن من ذلك لعدم وجود شيخ الحارة •

وكان فؤاد لم يكد يسمع كلمة فتاة بار فى شارع المغربى حتى أدرك باحساس خفى أنها لابد أن تكون أزهار ، ولم يخطئه ظنه اذ لم يكد

يطالع المحضر الخاص بها بعد انصراف زميله ، حتى تأكد له أنها الفتاة المعنية . وأحس بارتياح شديد لما ظهر من براءتها ، ولكن ارتياحه الأكبر جاء من واقعة صفعها لهذا العمدة الوقح الذى لايمكن الا أن يكون هو نفس الشخص السمج الذى رآه يدعوها للحاق به . ووجد فؤاد يسائل نفسه ، «ولكن ما الذى جعلها تصفعه لمجرد محاولته تقبيلها بدلا من ان تشكره على ذلك ؟» ولم يكد فؤاد يلاحظ على نفسه اهتمامه غير العادى بالفتاة حتى انقلب عليها ، فمثل هذه الفتاة القذرة لاينبغى أن تستوقفه للحظة واحدة . من الذى يدريه أنها لم تسرق المحفظة بالفعل ، ان أمثال هؤلاء النسوة يسرقن الكحل من العين . ومن أدراه أن صاحب البار الذى شهد لصلحتها فى التحقيق ليس شريكا فى عملية السرقة ؟ وضاق فؤاد بكل ذلك فقرر أن يفرغ من موضوعها بأسرع ما يستطيع فكلف أحد العساكر أن يحضرها من الحجز . وعندما دخلت أزهار ووقع بصرها على فؤاد كادت تقع على الأرض من هول المفاجأة ، لولا أنها أمسكت بالحاجز الخشبى الذى كانت تقف وراءه ، ولم يكن فؤاد بأقل تأثر منها لالتقائه بها على هذه الصورة . على أنه لم يلبث ان تمالك نفسه ، وراح يفحصها من رأسها حتى اخمص قدميها ، كان من الواضح أنها غسلت وجهها منذ الصباح المبكر فقد كان خاليا من المساحيق ، وبدت بشرتها على طبيعتها أقرب الى السمرة منها الى البياض ، ولم يكن هناك ما يستوقف النظر فى وجهها سوى عينيها السوداوين النجلاوين وما يشع منهما من نظرة عميقة حزينة . وكان شعرها الغزير الأسود الفاحم هو كل زينتها . على أن فتنتها الكبرى كانت تبدأ بعد ذلك عندما هبط فؤاد بفحصه الى صدرها الناهد ، الذى كان أعظم اعلان عن بقية جسدها الفاتن الذى لم ينس فؤاد حلاوته طوال الأيام الماضية . على أن فؤاد كانت تغلب عليه فى هذه اللحظات شعوره بالمسئولية ، فلم يشأ أن يخلط العمل بالشئون الخصوصية فيفكر فى أن يستغل موقفه للحصول منها على موعد ، كما أنه كان قد قرر منذ أمد بعيد أن يقطع الى الأبد

كل صلة بينه وبين هذه الفتاة • ولذلك فقد قطب حاجبيه عندما رآها تقف أمامه منتصبة القامة فى كبرياء ورشاقة رغم ثوبهـا الذى كان متغضنا نتيجة نومها به على الأرض ، وضايقه منها أنها كانت تنطوى على شىء يحمله على احترامها ، ولذلك قرر أن يحطمها فسألها رغبـة فى اذلالها :

ـ ماذا حدث ؟

وأجابته فى صوت ينم عن كبرياء مجروح :

ـ ان ماحدث مسجل فى الأوراق أمامك •

وحار فؤاد فى تعليل هذا الجواب المقتضـب وما ترمى اليه من ورائه ، فتشاغل بالنظر فى الأوراق وراح يغمغم بحيث تسـمعه أزهار :

ـ هذه نهاية المثل البطال ، سجون وجرائم وقذارة •

ـ وماذا عساى أفعل ، هكذا حكم على الزمان •

وانهـار كل مافى نفس فؤاد من عواطف متضـاربة ولم يبق الا احساس عميق بالعطف عليها فأشار لها على أحد الكراسى لتجلس عليه ريثما يتم اجراءات الافراج ، ثم سألها عن مكان سكناها فأجابته فى البغالة • فسألها اذا كانت تعرف شيخ حارتها ، فأجابته بالنفى، فسألها اذا كان معها نصف ريال ، فردت عليه بالايجاب ، فاستدعى لها أحد مشايخ حارات القسم الذى لم يتردد فى ضمانها مقـابل النصف ريال •

وانصرفت أزهـار من القسـم بعـد أن تمت الاجراءات دون أن ترفع عينيها للنظر اليه ثانية • وبينما كانت عينـا فؤاد تشيعانها وهو مندهش لرشاقتها العجيبة ، كانت دهشته من الطريقة التى تصرفت بها معه لاتقل عن دهشته لجمال جسدها ورشاقتها • فان الفتاة لم تحاول أن تشير له من قرب أو بعد لسابق اتصالهما ، بل تصرفت معه كما لو لم تكن تعرفه ، لم تحاول أن تستعطفه ، لم

تحاول أن تغريه ، لقد تصرفت كما لو كانت بنت ناس ، ووجد فؤاد نفسه يغمغم محاذرا هذه المرة أن يسمعه أحد » .
– لابد أن وراء هاتين العينين الحزينتين قصة .

٦

انقضى على هذه المقابلة التى دبرها القـــدر بين فؤاد وأزهار أسبوعان ، قبل أن يجد نفسه مارا فى غير وقت العمل الرسمى فى شارع المغربى ، واقترب عن قصد أو غير قصد الى بار ميخالى ، واذا به يفاجأ بصـــاحب البار يقف بنفســـه وراء خزانة المحـــل ، ولم ير أزهار حيث اعتادت ان تجلس . ولم يتردد فؤاد فى ســـؤال صاحب البار عنها ، فعلم منه أنه طردها عقب الحـــادث الذى خسر بسببه أحسن زبائنه ، وعندما ذكره فؤاد بأن أزهار لم تسرق حسب شهادته ، أجابه الرجل بأنها لم تسرق فعلا ، ولكنه ليس مستعدا أن يبقى عنده فى البار فتاة تضرب الزبائن ، وراح الرجل اليونانى يؤكد أنه لابد أن يكون قد ركبها عفريت فلم يحدث أن فعلت مثل ذلك من قبل ، بل لقد كانت صاحبة كل الناس . وسأله فؤاد عما فعلته بعد خروجها من عنده ، فهز الرجل كتفيه اشارة الى أنه لم يعرف وليس يهمه أن يعرف ، ثم أضاف على ذلك قوله أنهـــا لابد أن تكون عادت لحرفتها القديمة وهى الرقص فى كازينو شهرزاد . وقرر فؤاد على الفور أن يبحث عن أزهار بعد أن أحس بشعور وصل عنده الى مرتبة اليقين أنه لابد أن يكون أحد العوامل التى أدت الى فقدان الفتاة لعملها فى البار . وعندما سأل عنها فى كازينو شهرزاد علم أنها لم ترجع الى العمل فيه منذ فارقته من عامين سبقتا . والهب هذا الفشـــل فى معرفة مستقر أزهار عزيمة فؤاد لكى يعثر عليها ، لاستجلاء هـذا السر الذى جعلها تضرب العمدة رفيقها القديم بدلا من أن تشكره على الدعاية العظيمة التى يحيطها بها عندما يحـــاول أن يقبلها عنوة . وتذكر فـؤاد أن عنوان بيت أزهار مكتوب فى المحضر الذى كان قد

حزن لها بمناسبة هذا الحادث ، وعثر على العنوان بالفعل ويمم ذات يوم بعد فراغه من عمله الرسمى صوب بيتها فى البغالة، ولكنه لم يكد يقترب من الحارة التى يقع فيها البيت ، حتى أوشك أن يقفل راجعا بعد أن استسخف هذا الذى يقدم عليه . ما الذى ستظنه فيه أزهار ؟ قد تتصوره وقع فى غرامها والا لما جاء يبحث عنها ، مع أن الدنيا لو ضاقت بالنساء وفرغت منهن ولم يبق فيها سوى أزهار لما جاز أن يقع فى غرامها فما كان لمثله أن يغرم ببغى ولو كانت فى جمال كليوبترا . ولكن كان من العبث أن يفكر فى الرجوع بعد أن قطع هذا المشوار الكبير الى أن عثر على الحارة التى يقع فيها البيت ولم يبق عليه الا خطوات . وأمسك فؤاد بالسقاطة المعلقة على باب البيت ودق الباب ودوى صوت السقاطة فى سكون البيت فامتلأ فؤاد من جديد بالرغبة فى العدول عن هذه المغامرة السخيفة ، ومرة أخرى كان الوقت قد فات فقد سمع وقع أقدام تسعى لفتح الباب وصوت المزلاج يفتح ، وانصفق الباب وأطل منه وجه فتاة مشرق لطيف ولكنه لم يلبث أن تجهم عندما وقع بصره على فؤاد ، وسألت الفتاة فى لهفة وقلق

ـ افندم ؟

وسألها فؤاد فى عصبية ظاهرة اذا كانت الست سميحة الشهيرة بأزهار موجودة .

وأجابت الشابة الصغيرة اللطيفة وان كانت مظاهر القلق قد تضاعفت على وجهها :

ـ هذا بيتها ، ولكنها ليست موجودة الآن ، فهل من خدمة أستطيع أن أوديها لك ؟ أو هل من رسالة تحب أن تبلغها اليها ؟

وحار فؤاد بماذا يجيب على هذه الأسئلة الواضحة الصريحة ، توجهها اليه هذه الفتاة اللطيفة التى لم يكن يشك أنها أخت أزهار فقد كان الشبه بينهما كبيرا ، لولا أن هذه الفتاة تصغر أزهار ببضعة سنوات وتفوقها جمالا ويبدو عليها أنها ابنة مدارس ، وتلاشت مظاهر الصلابة التى كان فؤاد يتصنعها لشذوذ موقفه الذى لم يكن

راضيا عنه ، وكأنما أحست الشابة الصغيرة بالتبدل الذى طرأ عليه ، فابتسمت له ابتسامة ساذجة وقالت له :

اذا شئت أن تدخل وتنتظرها فلا مانع ، اتفضل .

ولم يدر بخيال فؤاد للحظة واحدة أن يستغل هذه الدعوة ولذلك فقد اعتذر عنها ، وقال للشابة الصغيرة أنه جاء فقط للتأكد من أنها تقيم فى هذا البيت.وسألته الشابة الصغيرة بعد أن لم يعد لديها شك فى أنه قد جاء لأختها كصديق .

– الا تقول لى ما اسم حضرتك لأبلغها بعد عودتها ؟ أليست لديك رسالة أقولها لها ؟

ورد فؤاد على ذلك كله بجفاف اذ أصبح شديد الرغبة أن يبتعد عن هذا المكان :

– لاتقولى لها شيئا ، سعيدة ياشاطرة .

وانطلق عقب هذه الكلمة لايلوى على شىء ، ولم يتنبه لنفسه الا بعد أن وجد نفسه فى ميدان السيدة بعيدا عن البيت فراح يقول لنفسه :

– ليس هذا الذى أقدمت عليه سوى جنون ، جنون مطبق . أاسعى خلف امرأة مومس ؟ ماذا أصابنى أين ذهب كبريائى ؟ . وبدأ يصب جام غضبه على رأس أزهار المنكودة التى كلما تصور أن علاقته بها انتهت عاد فوجد نفسه مشغولا بها كأعظم ما يكون الانشغال . وهل بعد بحثه عنها ووصوله الى بيتها انشغال ؟ وهتف يقول لنفسه :

– مصيبة لقد وقعت فى مصيبة ، فبينما لجميع زملائى نساء محترمات من كبار الأسر ، ولكل منهم أكثر من عشيقة من الفتيات الأبكار أو المتزوجات والأرامل ، بينما يحدثه الجميع عن مغامرتهم وغزواتهم ويطلعونه على ما حصلوا عليه من الهدايا الثمينة ما بين ساعات وأربطة عنق فاخرة أو محافظ نقود ، اتردى أنا فى البحث عن مومس محترفة خريجة السجون . أين ذهبت كرامتى ؟ أين ذهبت

آمالى أبمثل هذا الأسلوب سأتقدم يوما لمصاهرة ٠٠٠ ولم يجسر أن يتم انتلفظ باسم صديقه فكرى ، فضلا عن أن يذكر اسم أخته ، فقد كان يحس بنفسه ملوثا دنسا ٠

٧

عادت أزهار الى البيت تحمل فى يدها الدواء الذى اشـــــترته لوالدتها التى كانت تشكو أحيانا ، من مرض الربو الذى يعـــودها ببعض نوباته من حين لآخر ، ولم تكد أزهار تدخل الى حجرة والدتها حيث كانت راقدة علىظهرها فوق السرير ،حتى قالت لها أختها فاطمة:

ـ لقد سأل عنك أحد الضباط يا أبلة سميحة ٠

وامتقع وجه أزهار لهذا النبأ المفاجىء ، وانتهرت أختهـــا لفرط ما أصابها من ذعر وقالت لها :

ـ الا تصبرين على قليلا يافاطمة ريثما التقط أنفاسى ، وأسقى أمنا الدواء ؟ وسكتت فاطمة على مضض ، اذ لم تدرك سببا لهـــــذا التقريع ٠ وفتحت أزهار زجاجة الدواء وسكبت منه ملعقة ناولتهـــا لأمها وهى تدعو لها بالشفاء والعافية ٠ ولم تكد الأم تفرغ من شرب الدواء حتى تنهدت فى ارتياح وقالت لابنتها أزهار :

ربنا يخليكى ياسميحة ويريح قلبك ، أنا دائما أحس بالراحـة بعد تناول هذا الدواء ٠ وقالت أزهار :

ـ ربنا يبقيك أنت يا أمى، ويمتعك بالصحة والعافية حتى تفرحى بفاطمة وحسن ٠ وقاطعتها أمها قائلة :

ـ وأفرح بك قبلهم ياسميحة ٠ وتنهدت أزهار فى مرارة وقالت « دعيكى منى يا أمى لقد انتهيت وانتهت أيامى » وكأنها تذكرت وهى تتجرع غصص اليأس ، ما قالته أختها من أن أحد الضباط قد سأل عنها ، ولذلك فلم تلق بالا لما قالته أمها كالعادة احتجاجا على مظاهر يأسها ، والتفتت صوب أختها وسألتها عن تفاصيل موضوع الضابط بعد أن اعتذرت لها عن مقاطعتها الخشنة عندما أنبأتها بالخبر أول

مرة . وقالت فاطمة وقد أقبلت على أختها « لقد جاء أحد الضباط وسأل عنك » ومن جديد ظهر القلق على وجه أزهار وأسرعت تقـــول « ماذا يريدون مني ؟ الا يدعونني وشأني ، لقد تركت لهم الدنيا كلها انني لم أخرج من البيت منذ ثلاثة أســـابيع ، ماذا يريدون مني ؟ وقالت فاطمة « انه لم يقل ماذا يريد ، وقال انه جاء ليســتوثق من أنك تقيمين هنا » . وبدا الاهتمام يظهر على وجه أزهار ، وســألت أختها ، « الم يترك ورقة ؟ ألم يقل اذا كنت مطلوبة لقسم عابدين أو السيدة أو أى قسم آخر ؟ » وعادت فاطمة تؤكد لها أنه لم يقل شيئا من هذا القبيل ، وكل ماتلفظ به هو سؤاله اذا كانت الســت سميحة الشهيرة بأزهار تقيم فى هذا البيت ، وقاطعتها أزهار فى لهفة متسائلة ، « أقال الست سميحة ؟ أمتأكدة أنت يافاطمـــة أنه قال الست ؟ وأجابت فاطمة بأنها متأكدة ، بدأت أزهار تشعر بارتياح خفى بينما مضت أختها تقص عليها تفاصيل ما حـــدث ، وكيف ان الضابط اعتذر عن الدخول وعن ترك أى رسالة خاصة بها . ولمع فى ذهن أزهار أن يكون فؤاد أفندى الكونستابل هو الذى سأل عنها ، ولم يكد الخاطر يطرأ عليها حتى خفق قلبها ، وطلبت من أختها وقد تعلقت بالأمل والرجاء ان تصف لها هذا الضابط . وأجابتها فاطمـــة الى سؤالها فى دقة فهو شاب طويل القامة عريض المنكبين قوى الجسم قمحى اللون وله شارب كبير ، وكادت تند عن أزهار صرخة سرور فقد كان الوصف ينطبق على فؤاد ولكنها رأت أن لاتتطوح مع الأمل فمضت تطلب منها أن تصف لها ملابسه ، وعندما بدأت تصف هذه الملابس أسرعت أزهار تضحك فى ابتهاج وسعادة تصحح لأختها حقيقـــة السائل وانه كونستابل وليس ضابطا ، ولم يبق لديها شك فى أن السائل عنها هو فؤاد ، ومع ذلك فقد أبت الا أن تمضى فى التأكد من هذه الحقيقة ، والسعادة تملأ جوانبها فقالت لأختها « وهل له حواجب مقرونة » ولم تكد أزهار تلقى بهذا السؤال حتى احتجت عليها أختها ، فما دامت تعرف الرجل الى هذه الدرجة ، ففيم كان تعذيبها لهـــا

وانكارها عليها في بادىء الأمر اشارتها اليـــه ؟ وأسرعت أزهار الى أختها تعانقها وتطيب خاطرها وتقسم لها أنهـــا لم تتوقع ولم تكن تتصور أن يكون هو الذى جاء بنفسه ليسأل عنها ، ففى أمثال هـذه الحالات يرسلون أحد العساكر أو المخبرين، ونظرت أزهار لأمها وقالت لها « أتذكرين يا أمى هذا الكونستابل الذى حدثتك عنـــه من أنه أجلسنى على الكرسى فى القسم وأحضر شيخ الحارة ليضمننى ثم اطلق سراحى ؟ وأجابت الأم انها لايمكن ان تنسى أى انسان يحسن اليها ، وأنها مافتئت تدعو له كلما تذكرته ، فقالت لها أزهار أنه هو هـذا الذى جاء للسؤال عنها ، ولكن الوساوس عادت من جديد لتتملكهـا بعد أن فرغت من التحقق من شخصية السائل ، ترى لماذا سأل عنها فؤاد ؟ ألأمر يتصل بهذه القضية التى اتهمت فيها زورا ، أم لشـــأن آخر ؟ ولم يغمض لأزهار جفن هذه الليلة وراحت تســـتعرض وهى راقدة الى جوار أمها ، تاريخ حياتها منـــذ وقع بصرها لأول مرة على فؤاد والتبدل الضخم الذى طرأ على حياتها • لقد كانت حياتها قبل أن تلتقى به حياة ضائعة ، كانت قد تردت الى حضيض الهـــاوية ، ولولا هذا الخيط الرفيع من علاقتها بأمها وأختها وأخيها الصـــغير ، لكانت أقرب الى أن تكون شيطانا منها الى أن تكون انسانا ، لقـــد كانت غارقة فى الاثم والتحلل من كل دين أو عرف أو أخلاق ، كانت تعصف بالرجال الذين يوقعهم سوء الحظ فى براثنها ، فتلعب بهم ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، وتجردهم من آخر قرش فى جيوبهـــم، ولو استطاعت أن تجردهم من الحياة نفســـها لما ترددت ، ولم يردها عن جرائم القتل والفتك الا تفكيرها الدائم فى أنها يجب أن تعيش من أجل أمها ، من أجل فاطمة وحسن • ثم ظهر فؤاد فى حياتها ، من خلال هذه النظرة السريعة العابرة ، عندما التقت عيناها بعينيه لأول مرة وهو يطوف بالموتوسيكل فأحست بكيانها كله يهتز لغير سبب مفهوم• وبدأت تترقب مرور هذا الكونستابل على أحر من الجمر فلا تكـــاد تراه ، حتى تغمرها سعادة عميقة ، كانت تتجلى فى هذه البسمة التى

لم يستطع فؤاد فى نهاية الأمر أن يقاومها فأصبح يرد عليها • وطرأت على أزهار تطورات عاطفية كانت تظن أنها ماتت فى نفسها منذ أمد بعيد ، عادت من جديد تحس بالخجل ازاء هذا الانسان الجديد الذى لاتعرف حتى اسمه ، وثار فى نفسها من جديد شعور الفتـــاة التى كانتها فى سنواتها الأولى ، عندما كانت ذات خفر وحياء ، عندما كانت غضة بريئة تنظر الى الحياة بمرح وثقة واطمئنان • وعندما أخـــذها فؤاد الى بيته تصورت كما لو كانت عروسا تزف الى عريســـها لأول مرة ، ومن هنا كان هذا الصمت الذى استولى عليها وهى معه •

وتبدلت حياة أزهار بعد هذه الليلة التى أمضتها مع فؤاد فقـد اعتبرته رجلها الأوحد وحرمت جسدها على أى انسان غيره ، وكان ذلك هو السر الكامن وراء صفعتها للعمدة وهو الذى طالما بأعته جسدها من قبل كلما عرض عليها الشراء • وكان ان سجنت من جراء هذا الاتهام الظالم ، ووجدت نفسها فجأة أمام الرجل المسئول عن هذا العنت الذى وجدت نفسها فيه ولكنها لم تشأ أن تقول له شيئا لأنها كانت واثقة أنه لايمكن أن يصدقها، فاحتفظت بالسر لنفسها وأسعدها أن تجد نفسها قادرة على أن تضحى من أجل انسان وان تخفى تضحيتها عنه ، وعندما طردت من عملها لم يزدها ذلك الا رضا ، فلأول مرة منذ سنوات أحست أنها تحب وأنها تدفع ثمن الحب . وهاهو فؤاد يظهر فى حياتها من جديد ، وأيا كان السبب الذى جاء من أجله ، حتى ولو كان جاءها بتهمـــة جديدة فحسبها أنها لاتزال تدور فى فلكه •

ولم يكد ضوء النهار يطلع حتى كانت أزهار تعد نفسها للتوجه الى قسم عابدين ومقابلة فؤاد أفندى لمعرفة السبب الذى جاء اليها من أجله. وبحثت فى مجموع ملابسها عن أكثر أثوابها احتشاما ، ولم تضـع من المساحيق على وجهها الا بالقدر الذى يضاعف من حسن هيئتها ويحفظ لها وقارها ، فقد أصبحت شديدة الحرص على أن يراها فؤاد كواحدة من بنات الناس• ولأول مرة لم ترض عن وجهها عندما نظرت اليه فى المرآه، أحست بالمرارة لأنها لاتملك وجها فاتنا، لقد كانت فتنتها فى جسدها ،

وهي لاتريد اليوم أن يكون رأسمالها هو جسمها، تريد أن تقابله بوجه جميل مشرق ، وجهدت في تصفيف شعرها مستخدمة كل ماتعرف من مهارة في هذا السبيل ليضفي عليها شعرها بعض ما ينقصها من جمال الوجه فانزلت منه خصلة على جبينها وعقصت بقيته في مؤخر رأسها ، وطلت شفتيها بصباغ قرمزي خفيف محاولة جهد الطاقة أن تصغر في فمها ، حتى اذا انتهت من محاولاتها ورضيت عن نفسها قدر الاستطاعة ، انطلقت لاتلوى على شيء ميممة صوب قسم عابدين ، وهي تدعو الله طوال الطريق أن يجمعها مع فؤاد على خير • ولكنها لم تكد تقترب من مبنى القسم حتى تبدد أملها ، اذ وجدت هرجا ومرجا وحشدا من العساكر يحيطون بالقسم وهم يحملون العصى والبنادق، فامتلأت رعبا من هول المنظر ، وسرعان ماتذكرت ما كان يقال حولها في الترام فلم تلق بالها اليه ، من أن وزارة اليد الحديدية قد استقالت ، بناء على طلب الانجليز ، وان سياسيا محايدا كبيرا لم تعن بحفظ اسمه ، قد ألف الوزارة الجديدة • لم يسبق لأزهار في أي يوم من حياتها ان فهمت شيئا من السياسة فضلا عن أن تعتنى بحوادثها ، وهاهي ذي تجد نفسها في صميم السياسة اذ حالت بينها وبين أن تقابل الرجل الذى تحب • ولعنت سقوط الوزارات وتأليف الوزارات ، والانجليز ، وندبت حظها الأسود الذى يأبى الا أن يكون سقوط الوزارة في هذا اليوم بالذات • وقررت أخيرا أن ترجىء المقابلة لليوم التالى بعد أن ظلت تدور من بعد حول القسم متطلعة الى نوافذه في غير جدوى • ولأول مرة في حياتها اشترت نسخة من احدى الصحف المسائية وراحت تطالع فيها كيف أن الحكومة الانجليزية أشارت بعرض مقترحاتها لحل القضية المصرية على الشعب المصرى ، فأبى حزب الأغلبية أن يبدى رأيه في هذه المقترحات الا تحت قبة البرلمان ، وهكذا سقطت الوزارة وجيء بوزارة جديدة محايدة ، لتجرى انتخابات عامة ، ولم يكن باستطاعة أزهار ان تفهم شيئا من فحوى هذه الأنباء لولا مساعدة أختها فاطمة لها •

وظلت أزهار بعد ذلك تتردد على القسم عدة أيام متوالية ، وهى تضيق ذرعا بالمظاهرات الصاخبة التى راح الشعب فيها يعبر عن فرحه لانتصار ارادته ، فقد كانت ترى فى هذه المظاهرات ماسوف يحول بين فؤاد وبين رؤيتها ، حتى جاء اليوم الذى طالعت فيه نداء فى الصحف من رئيس الحكومة ورئيس حزب الأغلبية معا يدعوان فيه الشعب الى الاخلاد الى السكينة بعد أن عبر عن فرحته ، ليفسح المجال أمام الحكومة لتعمل بسرعة على اعادة الحياة النيابية للبلاد . وهرعت أزهار الى القسم فوجدت الهدوء يسيطر على ما حوله بعد أن استجاب الشـــعب لنداء رئيسه • اقتربت من الشرطى الواقف على باب القسم فى تراخ وخمول وسألته ، اذا كان حضرة الكونستابل فؤاد أفندى موجودا فى الداخل؟ ونظر اليها العسكرى فى ارتياب وبلادة ولم يحر جوابا ، وكررت عليه أزهار السؤال أكثر حزما ، فأفادها بأن نوبة فؤاد أفندى الكونستابل تبدأ فى الليل الساعة العاشرة، وغمز الشرطى بعينه قائلا لها «ابقى تعالى قابليه فى الليل ياروحى » • ولم تحفل أزهار بتعريض الجندى بها قدر ما أسعدها انها أمسكت بطرف الخيط نهائيا •

وعادت أزهار الى القسم قبيل منتصف الليـــل وقد ارتدت أكثر أثوابها حشمة بعد أن أصبحت متأكدة أنها ستلقاه الليـــلة ، كان الثوب من المخمل الارجوانى الداكن وكان طويل الكمين فلم يبد من الذراعين الا كفاها ، وكان ضـــيق فتحة العنق ، طويل الذيل حتى لايكاد يظهر من قدميها الا كعبيها • ولم تسأل هـــذه المرة الجندى الواقف على الباب ، فقد كانت متيقنة أن فؤاد فى الداخل ، وصعدت درجات سلم القسم الخارجية وثبا ، وأوشـــكت أن تقتحم حجرة الضابط النوبتجى ، لولا أن استوقفها المراسلة الواقف على البـــاب وسألهـــا عما تريد • فقالت له أنهـــا تبغى مقـــابلة فؤاد أفندى الكونستابل ، وأوشك عسكرى المراسلة أن يســـألها من باب حب الاستطلاع عن موضوع المقابلة،لولا أن صوت هذه المناقشة كان قد وصل الى مسامع فؤاد فى هدأة الليل،فسأل بدوره العسكرى عمن يسأل

عنه وقبل أن يرد عليه العسكرى كانت أزهار تنفــذ الى الحجرة • وعقدت المفاجأة لســـان فؤاد عندما وقع بصره على أزهار التى كانت تقف الآن أمامه مبهورة الانفاس ، ممتقعة الوجـــه من فرط التأثر والانفعال ، وبعد لحظة خالها الاثنان دهرا قالت له أزهار وقد أشرق وجهها بابتسامة حلوة •

ــ (مساء الخير) وأسرع يرد عليها وهو مبتهج وسعيد بمرآها •

ــ مساء النور • أهلا وسهلا • ولم تستطع أزهار أن تكتم لهفتها فى معرفة سبب سؤاله عنها فقالت له على الفور :

ــ (أسألت عنى فى البيت ؟) وتردد فؤاد فى الاجابة على هــذا السؤال ، على أنه لم يلبث أن هز لها رأسه وهو يبتسم علامة الايجاب• وخفق قلب أزهار وهى تقول له « خيرا ؟ » وتلعثم فؤاد وهو يرد عليها بقوله «خير ، خير • لاشىء ، لقد أوحشتنى وهذا كل مافى الموضوع»•

ولو أن كل موسيقات الدنيا عزفت لما أشجت أزهار كما اشجتها هذه العبارة القصيرة « لقد أوحشتنى » ، وانعقد لســـانها من فرط التأثر فلم تستطع أن تقول شيئا واكتفت بالنظر الى فؤاد وكأن روحها توشك أن تقفز من عينيها لتقبله وتعانقه • على أن فؤاد وكانت المفاجأة بالنسبة اليه قد انتهت ، أسرع للتفكير فى واجبات مركزه ، وخشى أن يدهمه فى هذه اللحظة أحد المفتشين فلا يستطيع أن يعـــلل له سبب وجود أزهار فى هذا الوقت أمامه ، ولذلك فقد أسرع يقـــول لها :

ــ ان غدا هو يوم راحتى ، فما رأيك فى أن تزورينى فى البيت فى الساعة الحادية عشرة مساء ؟ انك تعرفين بيتى فى بركة الفيل ، أليس كذلك ؟ وأومأت أزهار بالايجاب فقال لهـــا « ســـأكون فى انتظارك وسأترك لك فى الموعد المحدد تماما الباب الخارجى مفتوحا وكذلك باب الشقة » وقالت له أزهار والدنيا لاتســـعها من الفرح « سوف أحضر فى الميعاد » ولم يكد فؤاد يظفر منها بهذه الاجابة حتى بادرها بقوله « والآن من الخير أن تنصرفى قبل أن يمر علينا أحـــد المفتشين ، مع السلامة يا أزهار والى الغد •

وأدارت له أزهار ظهرها بعد أن حيته برأسها وبارحت القسم مبتعدة عنه بسرعة لتخلو بنفسها بعد أن علمت ما كانت تريد أن تعلمه. وطالعها قصر عابدين فبدأت تخفف من سيرها ، وانشرح صـــدرها لهذا الميدان الرحب الفسيح ، وفتحت صدرها للهـــواء النقى وملأت رئتيها منه ، فافادتها هذه الحركة فى تهـــدئة ما كانت تحس به من انفعال شديد ٠ ونظرت الى القصر الجميل وتطلعت نحو الســـماء الصافية حيث كان القمر يضىء الكون كله معها،أنه لم يكن بدرا ولم يكن ضوؤه ساطعا ، ومع ذلك فقد كان كافيا ليمـــلأ الليل بالبهجـــة ، وأحست أزهار بأنها سعيدة بعد أن تحققت من ان فؤاد قد ســـعى للبحث عنها ووصل الى بيتها وهو مالم يفعله انسان آخر من قبله فقد أبقت بيتها حرما على الناس جميعا ٠ وسوف تقـــابله غدا وتحظى بوصاله ، وبدأ احساس بالمرارة يتسلل الى نفسها ، وهى تســـتعيد الصورة التى كان فؤاد ينظر بها اليها طول الوقت ٠ انهـــا تعرف هذه النظرة الجائعة فى أعين الرجال الى جســـدها ، لقد كان كأى انسان آخر عرفته يتحسس بنظره جميع اجزاء جسدها ، لقد كانت تحس به وقد عراها فى خياله ليراها كما رآها عنده فى فراشـــه ٠ ما اقصر العبارة التى طلب بها منها أن توافيه الى بيتـــه فى اليوم التالى ، لم يتصور ولو للحظة واحدة أن هذا الموعد قد لايناسبها ، لقد كان متأكدا من أنها ستلبى دعوته بأيسر مما يلبيها أى سباك أو حداد أو نجار يدعى الى أحد البيوت ليقوم بعمل يتناول عليه أجره ٠ انه لم يدرك شيئا من التبدل الذى طرأ على حياتها، لم يلحظ ثوبها المحتشم الذى لبسته من أجله ، لقد ظلت عيناه طول الوقت على صـــدرها وجسدها ، ولولا خوفه من المسئولية واخلاقه الريفية ، لفكر فى قضاء لبانته منها فى القسم نفسه ، ثم يطردها بعد ذلك كما طردها من قبل، بل وكما طردها الليلة بالذات ، وهو يطلب منها الانصراف خوفا من أن يدهمه أحد المفتشين كما قال ٠ أكان يقول هذه العبارة لأى امرأة أخرى تحـــادثه ؟ وطغت موجـــة من الأسى على أزهار ، وهى تذكر

ظروفها وهى أنها ليست سوى مومس ، مومس بكل ماتثيره هـــذه الكلمة فى احساس الناس جميعا من شعور بالاحتقار والازدراء ٠

٨

وفرت أزهار على فؤاد عناء الانتظار فلم تكد الساعة تدق الحادية عشرة ، حتى رأى شبحها قادما عبر الميدان ، وكان الطريق ممهـــدا لدخولها ، فصاحب البيت لم يعد بعد ، والميـــــدان خال من المارة ، وأسرع يستقبلها فى اللحظة التى وصلت فيه الى الباب الخارجى،وهمس فى أذنها ان تنفذ على الفور الى داخل شقته ريثما يتأكـــد من أن كل شىء على ما يرام ٠ وومضت الخواطر فى ذهن أزهار خلال اللحظات القصيرة التى وقفت فيها فى انتظاره ٠ لقد خالطت الرجال من قبل خلال خمس سنوات عندما لم يكن عمرها يتجاوز الســـابعة عشرة ، وتاجرت فى جسدها كما شاءت أن تتاجر ، وحذقت مهنتها كل الحذق فأصبحت اختصاصية فى فن ارضاء الرجال ، كان لديهـــا مجموعة ضخمة من التجارب ، من التصرفات والحركات والنغمات التى ترسلها فى الوقت المناسب وبالقدر الملائم للأجر الذى ستحصـــــل عليه ، أو الهدف البعيد الذى تتوق لتحقيقه ٠ كانت دائما تفكر أثناء وجودها مع أى رجل ، أهو زبون من الطراز العـــابر فلن تراه ثانية ، أم أنه سيكون ممن يترددون عليها ؟ وكان الذى يشغلها فى كلتا الحـالتين مقدار ماتستطيع أن تسلبه منه ٠ لقد كان من طبيعة حرفتها أن تؤخذ الى البيوت على رءوس الاشهاد أحيانا ، وفى الخفاء فى أكثر الأحايين ، فليس فى موقفها الليلة شىء غير عادى يثير اهتمامها ، بل لم تكن هذه المرة الأولى التى تدخل الى هذه الحجرة بالذات ، لقد نامت على هــذا الفراش من قبل ، ومع ذلك كله فقد كانت تقف فى هذه اللحظـــات السريعة التى سبقت دخول فؤاد عليها وهى شديدة الارتباك ، لقـــد عاودها من جديد هذا الشعور الذى أحست به فى المرة السابقة من أنها عذراء تزف لعريسها ، وحاولت أن تسخر من نفسها ، ولكن عندما

كان فؤاد يحكم غلق الباب الخارجى للشقة وسمعت صـــوت المزلاج ينزلق مؤذنا بأنه احكم الرتاج ، تملكتها من جديد فكرة أنها زوجته• فليتصور فؤاد فيها مايريد أن يتصوره ، فليعاملها كما يحلو له أن يعاملها به ، أما هى فلن تنظر له الا باعتباره زوجها الذى يجب أن تخلص له الاخلاص كله وان تقف نفسها عليه •

* * *

كانت الساعة قد أشرفت على الخامسة صباحا ، وكانت الدنيـا لاتزال غارقة فى الظـلام عندما طلب فؤاد من أزهار بلطف أن تنتهز هذه الفرصة لتغادر البيت ، قبل أن تدب الحركة فى البيت أو فى الميدان • ولم يحتج فؤاد أن يقول ذلك لأزهار بكثير كلام فقد كان بقدرتها أن تقرأ مشاعره واحساساته كما لو كانت تطالع فى كتاب مفتوح ، ولما كانت شديدة الحرص على أن تحقق له أخفى رغباته فقد بادرت الى لبس ملابسها • لقد كانت تتمنى لو أنه سمح لها بالبقاء الى جواره ، لو أنه أتاح لها فرصة لتعرفه بنفسها ، بأنها كانت ضحية ظروف قاسية كانت فيها مجنيا عليها وضحية ، ولكن غريزتها بدأت تملى عليها أنها اذا شاءت أن تبقى ما بينها وبين فؤاد موصولا ، فيجب أن لاتثقل عليه فى الحديث ، أو تشعره بحقيقة عاطفتهـــا نحوه • وأعدت نفسها للخروج من الجنة التى كانت تعيش فيهـا ، وراحت تضع اللمسات الأخـــيرة فى هيئتها عندما لاحظت فؤاد يخرج من حافظة نقوده ورقة مالية من فئة الخمسين قرشا ليقدمها لها ، وتصاعد الدم حارا من الخجل الى وجهها وقالت له فى عتاب « ما هذا الذى تفعله ؟ فأجابها ضاحكا « أعد لك (الفوزيته) أم تراك تتصـــورين أننى سآكل عليك أجرك ؟ ونظرت اليه فى عتاب وقالت له « ابعـــد هذا الذى أصبح بيننا ، مازلت تحدثنى عن الأجر ؟ » وامتقع وجه فؤاد وقال لها « أى شىء جرى بيننا غير عادى ؟ أليست هذه حرفتك التى تعيشين منها ؟ ليكن فى علمك انك اذا لم تأخذى أجرك فهـذا فراق

بينى وبينك » . وعضت أزهار شفتيها من القهر ، لقد كانت فى واد وهو فى واد آخر ، وأسرعت تقــول « أنت محق فلابـــد من دفع الفوزيته ، ولكن لاتنس أن لنا مزاجنا فى نفس الوقت ، فاذا صادفنا من يرضينا فلا نتقاضى منه أجرا ، ولقد أرضيتنى الليلة كما لم يرضنى انسان من قبلك ، فأرجوك أن تعفينى من أخذ الأجر لهذا السبب . وأحس فؤاد بالزهو وهذه المرأة الخبيرة تحدثه عن تفوقه بين الرجال وفحولته ، ومع ذلك فان طبيعته الريفية غلبت عليه وقال لها ، انه مصر على شرطه ، فأما أن تأخذ الأجر واما فلن تراه ثانية . واضطرت أزهار لأن تقبل هذا الاذلال كارهة ، وان أبت الا أن تمضى فى محاورته فقالت له : « سآخذ الأجر ولكن من حقى أن أخفضه كما أشــاء وأن أجرى عليه الخصم الذى أريد » ، فضحك فؤاد وقال : « هذا حقك » ثم أسرع يقول « على أن لايقل عن خمسة وعشرين قرشا » وعضـــت أزهار شفتيها من جديد قهرا ومرارة وقالت له : « كما تريد ، لست أستطيع أن أخالف لك أمرا » ، وتناولت من يده الورقة المـــالية الصغيرة وكأنها جذوة نار تحرقها ودستها فى صمت داخل حقيبتها وتدثرت داخل معطفها وقبلته بينما كان يفتح لها الباب ليخرجها .

وواجهت أزهار الطبيعة المكفهرة الغاضبة فى هذا الوقت المبكر من الصباح والشمس لما تطلع بعد والدنيا شتاء ، وصدمها الصقيع فذكرها بالواقع الذى تحيا فيه ولن تستطيع الفرار منه ، وابتعدت عن البيت الذى ذاقت فيه السعادة المترعة أول الليل ثم تحول الى مصدر لآلامها ، وكانت السحب تحجب السماء ، والشبورة تحجب الرؤيا وتجثم على الأرض وعلى نفسها معا ، ومضت أزهار بين الضباب الذى لفها والدموع تنحدر من عينيها وهى تقول « شد ما أنا تعسة ، شــد ما أنا شقية ؟ » .

الفصل الثالث

١

ذهاب أى طالب الى مدرسة عالية يؤلف حدثا من أكبر أحـداث حياته ، ان لم يكن أكبرها على الاطلاق ، حيث تتحدد معالم طريقه فى المستقبل وتعظم الآمال فى نفسه يغذيها مافى الشباب من قوة خيال وحماس لكل ما يعالج من أمور • ومنذ تحولت المدارس العليا فى مصر الى جامعة ، بدأت هذه الظاهرة تأخذ بريقـا أعظم وفاعلية أكبر • فلا يجب أن نلوم أصحابنا محيى وفكرى وفوزى اذا رأيناهم صبيحة أول أيام ذهابهم الى الجامعة يختالون فى زهو واعتداد وشموخ كأنهم لمحض دخولهم الجامعة ، قد أدركوا أسباب المعالى كلها والعزة والفخار. كان الناظر اليهم يتصورهم عرسانا وليسوا طلابا ، أو نوابا يتوجهون لحفلة افتتاح البرلمان • كان كل شيء جميلا حولهم السـماء والهواء والأرض ، وعندما اقتربوا من مبانى كليتى الحقوق والآداب بما هى عليه من شموخ وكبرياء ، أحسوا كما لو كانوا يقتربون من الكعبـة التى ستحقق لهم كل أمانيهم وآمالهم •

وتوالت أيامهم فى الجامعة ، ولم يحدث أبدا أن خاب أملهم أوقلت حماستهم ، بل على الضد من ذلك كان كل يوم يمـر عليهم وهم بين جدران الجامعة يؤكد حبهم لهذه الحياة الجديدة واعزازهم لها • كان مشوارهم الى الجامعة كل صباح يزداد سحرا وفتنة فهـذا الطريق الواسع الذى يشطر حديقة الأورمان شطرين ، كان يأخذ بلبهم ، كان عبير الزهور تحمله نسائم الصباح الى خياشيمهم يملأهم بالنشـوة والبهجة ، كانت الحشائش الخضراء والأشجار المورقة وأشعة الشمس

الواهنة تتسلل من خلالها ، وقطرات الندى وقد تبلورت على أوراق الشجر ، كل ذلك لم يكن يفتهم كما لو كانوا تحولوا الى شعراء • على أن ما كان يروعهم أكثر من أى شىء آخر ، هو منظر الطلاب أنفسهم وهم يفيضون حيوية وشبابا ونضارة ، تتخللهم بعض الطالبات اللواتى كن يعددن على الأصابع ، ومع ذلك فقد كان وجودهن يمثل حدثا من أكبر الأحداث الاجتماعية فى مصر ، كان زحفـــا فى دنيا النهوض والتقدم وتحرير المرأة من الهوان الذى تردت فيه قرونا وأجيـــالا • وكان أصحابنا يشعرون بالفخر والاعتزاز أن تم هذا الانقلاب الجديد فى دفعتهم وليس قبلها أو بعدها ، كما لو كان لهم يد فى تحقيق هذا العمل العظيم • وكانت الأنظمة الجامعية شيئا جديدا فى حياتهم كما كانت بالنسبة لغيرهم من ألوف الطلاب ، فلم يكن هناك سور يحول بين الطلاب والانصراف فى أى وقت يشاءون ، لم يكن عليهم من رقيب الا ضمائرهم ، ومدى رغبتهم فى التعلم والتحصيل • واســـتغل أصحابنا كما لم يفعل طالب آخر هذه الرخصة حتى الثمالة ، فكانوا يختارون الدروس التى يرغبون فى حضورها حتى ولو لم تكن مقررة عليهم ، ويقاطعون ويزورون عن الدروس التى لاتروق لهم حتى ولو كانوا سيمتحنون فيها • كان أصحابنا قد اختـــاروا كلية الحقوق لينضموا اليها ، فكان عليهم أن يمضوا السنة الأولى فى كلية الآداب ، فراحوا يعبون من مناهج كلية الآداب عبا ، ويحضرون محـــاضرات أساتذتها الأعلام طلبا للثقافة واستزادة من المعرفة الحرة الطليقـــة من كل قيود دراسية • وعندما كانوا يتضايقون من بعض الدروس أو المدرسين ، يسارعون الى حديقة الأورمان ويرقدون على حشيشها مستدفئين بحرارة الشمس الســاطعة ، ثم يروحون يثرثرون فى كل شىء ، ويعلقون على كل مايجرى من حولهم ، وبدأت زميلاتهم الطالبات يحرزن الكثير من اهتمامهم وتعليقاتهم •

وكان الهدوء يسود الحيـــاة السياسة فى هذه الأيام فانعكس ذلك على الجامعة • كانت الوزارة الانتقالية المحايدة تحكم البلاد حكما

تظيفا طبيعيا لاتحتاج فيه الى عنف أو اصطدام مع الجماهير ، وكانت الدعاية السلمية للانتخابات المقبلة هى شغل البلاد الشاغل ، ووقفت الجامعة فى بادىء الأمر فى معزل عن هذه الانتخـــابات ، الى أن فتح باب الترشيح لعضوية اتحاد الطلبة ، فغرقت الجـــامعة بدورها فى حمى الانتخابات ، ورشح محيى نفسه لانتخابات الاتحاد ، فأصـبح نجاحه هو أخطر مايشغل بال أصحابنا الذين حشدوا كل جهودهم لانجاحه • وكانت قاعدة الدعاية للانتخابات تقوم على الاتصـــــالات الشخصية ، ولكن محيى قرر أن يجعلها لأول مرة فى الجامعة معركة انتخابية كاملة ، ففاجأ طلاب السنة الأولى ابان احتشادهم فى المدرج الكبير ، بخطاب مدو عن مشروعاته وبرنامجه الانشائى فيما لو نجح فى الانتخابات وخطب فوزى وفكرى يزكيانه ، وبدأت الجماعة تلفت الأنظار الى تحابها وتضامنها وتكتلها ، وتصرفها كما لو كانت كائنا واحدا له ثلاثة أجسام •

ومضى محيى فى مغامرته فقرر أن يقتحم على الطالبـــات عزلتهن فى حجرتهن الخاصة ، ابان (الفسحة) ولم يحدث أن اجترأ طالب من قبل على الاقتراب من هذه الحجرة فضلا عن أن يقتحمها ، ولكن محيى لم يعبأ بذلك ، فقرع الباب ولما اذن له بالدخول دخل ، وراح يحدث الطالبات بوجوب انتخابه •

على أن محيى سقط فى النهاية ، وفاز طلاب آخرون لاميزة لهم الا أنهم أعلنوا عن أنفسهم أنهم ينتمون للحزب الغـالب الذى كانت الدلائل كلها تشير الى قرب نجاحه فى الانتخابات العامة • وهكـــذا اصطدم أصحابنا بالوضع السياسى فى البلاد ، وامتداد أثره الى كل نواحى الحياة المصرية ، وان مجرد الانتساب الى هذا الحزب ، وليس الكفاءة هو الذى يقدم للبلاد العناصر التى تتولى قيـــادتها ، وكان طبيعيا ان تنفر قلوب الجماعة من هذا الوضع ، ولا يرتضـــوه وهم المعتزون بأنفسهم •

٢

كان فوزى قد أوشك أن ينسى كل شىء عن آمال بعد حيـــاته الجديدة فى الجامعة ، وظهور هذا العدد الجديد من الفتيات على مسرح الجامعة ، وقد كان بعضهن جديرا ان يثير اهتمـــامه ، لولا أن جاءه صاحبه الحبيب رياض يعتب عليه ما أسماه بالمقاطعة ، وكان رياض وخالد أمين من بين الجماعة الذين التحقوا فى كلية العلوم وكانت تقع فى العباسية فحال ذلك دون تلاقيهما مع بقية الجماعة كثيرا ٠ وصاح رياض فى وجه فوزى بمجرد أن التقيا بعد غيبة طويلة :

ـ ان عودتك للالتقاء بصديق طفولتك محيى ، لاينبغى بحال أن تنسيك اياى ياسيد فوزى ، ومالى عليك من حقوق ، هل تتصور مثلا أننا نقلنا الى بيت جديد فى العباسية فلم تكلف نفسك مؤونة زيارتنا فيه ولو لمرة واحدة ؟ وهل تعلم أن جميع أفراد أسرتى يتصورون أنه قد حدثت بينى وبينك جفوة هى التى جعلتك تنقطع عن زيارتنا كما اعتدت ان تفعل ؟ واستعاذ فوزى من فكرة وقوع جفوة بينـــه وبين رياض ، واحتج عليه كيف يسمح لمثل هذه الفكرة ان تقـــال أمامه ، وانما هى ظروف حياتهم الجديدة فى الجامعة التى يعـــانيها رياض نفسه ، هى التى أحدثت هذا الاضطراب المؤقت ، واذ كان اليوم يوم جمعة فقد أسرع فوزى يقول لصاحبه : هيا بنا الى بيتكم وتنـــاول الغداء عندكم ٠

وان هو الا بعض الساعة حتى كان فوزى يجلس من جديد وسط هذا الحشد من الجنس اللطيف الذى تؤلفه شقيقات رياض ، وكأنهن يؤلفن علبة ألوان تمد الانسان بكل مايتوق اليه من ألوان ، ومع ذلك فقـــد كان أول ما طرأ على فوزى مذ دخل البيت هو التطلع نحـــو آمال ، ترى أهى بدورها فى البيت ؟ ولم يكن باستطاعته أن يسأل عنها تصورا منه أن ذلك يفضح اهتمامه بها ، على أن قلقه لم يلبث ان تبدد وحل محل القلق خفقان القلب ، عندما سمع ثريا تقول لوالدتها

انها ستخرج واختها آمال بعد الظهر للمرور على طبيب الأسنان ٠ واذ جاء ذكر آمال ، اسرع رياض ينـاديها ٠ وظهرت آمال على باب الصالون ، ولم يكد نظر فوزى يقع عليها هذه المرة حتى كاد يصرخ من شدة الفرح لا لأنه يراها بل لأنه يراها لأول مرة على هذه الصورة ، فقد كانت لاتزال بملابس النوم وقد غطتها بثوب صـينى مزركش بالألوان الصارخة ، ولطالما أخذ فوزى بمرأى هذه الأثواب الصـينية الجميلة وهى معلقة أمام محال بيع العاديات بجوار فندق شـبرد ، وازداد تعلقه بهذه الأثواب منذ شاهد فى السينما بطلته الأثيرة عنده سيلفيا سدنى ، وهى ترتدى واحدا منها فى دور مـدام بترفلاى ، وهاهو يرى آمال تستقبله بواحد من هذه الأثواب لتفتنه من جديد بانفرادها من دون من يعرف من الفتيات أو النساء ٠ والحق ان آمال كانت فى هذه اللحظات أحوج ما تكون الى هذه الفتنة التى تستمدها من الثوب الصينى ، فقد كانت هذه أول مرة تقابل فيها فوزى بغير (تواليت) وبعيدا عن الجو الذى قابلته فيه فى المرتين السابقتين ، لقد أحس فوزى على الفور بمجرد ذهاب الروع عنه ، انها دون اخواتها جمالا سواء الكبار منهن أو الصغار ، ولولا بياض بشرتها وزرقة عينيها لعدت قبيحة بالمقارنة الى اختها ثريا التى كانت تشف وتوف الى جوار فوزى وتتألق كما لو كانت مصباحا يضىء ، أو زهرة تنشر عبيرها ، ولكن هذا الاحساس لم يدم الا أقل من لحظة خاطفة لايكـاد يكون لها حساب فى عالم الزمن ، اذ لم تكد آمال تقبل عليـه مفترة الثغر وقد أضاءت أسنانها اللؤلؤية ، لم تكد تمد له ذراعها البض وتنظر اليه بعينيها الزرقاوين كما لو كانت تفتنه أو تسحره ، حتى نسى كل انسان فى الحاضرين غيرها ، وسرت الرعشة فى جسده وهو يلامس جلد يدها الناعم ويحس بالدفء يسرى من يدها اليه ، ولم يفته بل كان من عوامل سروره ولذته ، ان شعر بيدها متراخية متباطئة فى يده ، ولولا العيون التى كانت مسلطة عليه فى هذه اللحظة لما تمالك نفسه عن تقبيل هذه اليد التى كانت تدعوه لتقبيلها ٠ وتنبه فوزى

فجأة الى أنه أبقى يد آمال فى يده أكثر مما ينبغى ، فاحمر وجهه خجلا وأسرع فاطلق سراح اليد العزيزة • وقالت آمال لفوزى :
ــ خلاص ياعم دخلت الجامعة وتكبرت علينا ؟

ولم يصدق فوزى اذنه ، هل رفعت آمال التكليف بينها وبينه الى هذا الحد الذى تمازحه فيه بما يشبه السخرية ؟ وتدخل رياض فى الحديث قبل أن يحير فوزى جوابا على هجوم أخته فصاح قائلا :

ــ تصورى يا آمال يا أختى ، ان فوزى أصبح يقضى مايقرب من خمس عشرة ساعة مع صديقه محيى وصاحبه الجـــديد فكرى ؟ فهم اما فى الجامعة معا ، أو فى الطريق اليها ومنها واما مجتمعون فى بيت البحر ، ثم راح رياض يصف لهم بيت البحر وما به من اسطوانات حديثة وكل ضروب التسلية والألعاب المنزلية • وأبدت آمال اهتمامها ببيت البحر بحيث لم يجد فوزى حرجا فى أن ينتهز هذه الفرصة ويدعو الجميع باسم صاحبيه محيى وفكرى الى زيارة بيت البحر وتنـاول فنجان من الشاى فيه •

وكانت سناء صغرى أخوات رياض وذات السبعة أعوام هى التى قطعت الحديث عن بيت البحر وطالبت فوزى ان يقص عليهم حكاية الحرامى الأعمى الذى حاول أن يسرق الرجل البصير ظنا منه أنه أعمى مثله ، ولم تكد سناء تتقدم بالطلب حتى أسرع الجميع فى الانضمام اليها وقد بدأوا يغرقون فى الضحك لمجرد تذكرهم الحكاية ، وراحوا يحدثون آمال عن ابداع فوزى فى هذه الحكاية وكيف انهم لايتمالكون انفسهم من البكاء لفرط مايضحكون • وانضمت آمال على الفور مع بقية الملحين فى وجوب سماع الحكاية ، ووقف فوزى ملبيا الدعوة فى نهاية الأمر واستحضر كل عزمه لاتقان تمثيل القصة المضحكة ، ولم يكن الجميع مبالغين عندما حدثوا آمال عن شدة تأثرهم بالقصـــة اذ لم يكد فوزى يفرغ من القصـــة حتى كان البعض يتلوى من الألم لشدة الضحك ، والبعض يتملكه السعال ، بينما راح الجميع يلتمسون المناديل ليمسحوا دموعهم ، أو أنوفهم • وكان رياض هو أول المعلقين، فقال لصديقه :

ـ ما هذا يافوزى ؟ اننى على كثرة ما سمعت هذه الحـــكاية ، فلا أظنك قد أبدعت فى تمثيلها كما أبدعت اليوم ، لقد كدت تقتلنى من شدة الضحك • ولم يلق فوزى باله لما قاله رياض أو قاله غيره من الموجودين فقد كان كل اهتمامه موجها لآمال والأثر الذى أحدثه فى نفسها • انه لم يفته بطبيعة الحال انها كانت تضج بالضحك وتصرخ من شدة الانفعال ، ولكنه كان شديد اللّهفة أن يسمع تعليقها ليستنتج منه مقدار الشوط الذى قطعه نحو قلبها فقد كان يمثل لها ، لهـــا وحدها • ولم تتأخر آمال فى غمره بعباراتها الانجليزية التى تتحدث عن الاعجاب والتقدير والروعة والدهشة ، ولكن ذلك لم يبهج فوزى فلم يكن ير فيه جديدا ، ولكنها عندما قالت له بالعربية :

ـ ايه يا اخى خفة الدم هذه ؟ حتى دارت رأسه وأحس أنه حقق بغيته وهو ان يصل الى قلبها • وتناول فوزى الغداء مع أسرة رياض وأحس بارتفاع كل كلفة بينه وبين آمال ، بحيث ان اليوم لم ينقض حتى كان فوزى لم يعد يشك أنها تبادله عواطفه ومشاعره •

٣

لم يستطع فوزى أن يخفى عن صديقه محيى موضـــوع آمال أكثر من ذلك ، فقد وصل الى الحد الذى كان لابد معه من أن يتحدث عن حبه الوليد الى صديق ، وقد كان رياض هو الصـــديق الطبيعى الذى يفضى له فوزى بذات نفسه ، لولا أن آمال كانت أخته والحديث عنها يسبب لكليهما حرجا من غير شك • وعندما حدث فوزى صاحبه محيى عن الموضوع منتهزا فرصة غياب فكرى ، لم يدع أدق التفاصيل لم يذكرها له ، حدثه عن مقابلاته الثلاث معها ، عن الأثر الشـــديد الذى تركته فى نفسه لأول وهلة ، وكيف تحولت حياته فى ختـــام المقابلة الأولى الى جحيم وسعير عندما بدأت ترقص مع الدكتور ممتاز ، وكيف قابلها للمرة الثانية بعد حصوله على البكالوريا ، وأخيرا هــذه المقابلة الأخيرة التى اشعرته أخيرا أنها تحمل له من العواطف مثـــل

ما يحمل ، وان كان شديد الخوف من أن يكون ذلك مجـــرد وهم ، فهى لم تقل شيئا أو تصرح بشىء يبرر هذا الشعور ٠ واستمع محيى بشغف لقصة فوزى ، وقد ظل ساكتا لاينبس ببنت شفة وفوزى يقص حكايته حتى لايقطع عليه تدفقه ، واستمتع كما لم يستمتع بحـــديث سابق لفوزى ، حتى اذا اتم فوزى حـــديثه وتطلع صـــوب محيى مستطلعا رأيه فيما قص عليه ، هنا فقط بدأ محيى يفكر فيما سمع ، واذا كان قد أبهجه أن يجد صاحبه غارقا لأول مرة حتى اذقانه فى الحب ، فلم يفته مافى هذه العلاقة التى حدثه عنها من شـــذوذ وانحراف عن الطريق السوى ، فقد فهم أن آمال تكبر فوزى بعديد من السنين وانها أمضت عدة سنوات فى انجلترا صاغتهـــا وكيفت حياتها بما لايتفق وعاداتنا وتقاليدنا ، وهى مدرسة تتقاضى مرتبـا كبيرا لن يحصل على مثله فوزى قبـــل أن يتخرج ، بل وينجح فى الحياة ، ومعنى ذلك أنها لايمكن أن تكون زوجة لفـوزى ، فلم يبق الا أن تقتصر العلاقة بينهما على الحب الذى لاينتهى بزواج ، ومحال أن يفكر فوزى فى شىء من ذلك مع شقيقة صاحبه ٠ ادرك محيى بما فى نفسه من قوة على ادراك الواقع أكثر من فوزى كل هذه الصعوبات والمشاكل التى تشوب هذه العلاقة النامية ، وتمنى لو يســـتطيع أن يصارح فوزى بكل ذلك ، ولكنه اشفق ان يصدم صـــديقه ، وان يعكر عليه دنيا السعادة التى كان يعيش فيها ، على ان الذى حال بين محيى وبين ان يفضى بخواطره لفوزى هو شكه فى جدوى ذلك ، لقد كان يعرف من أخلاق فوزى أنه عنيد لايقتنع الا بما يثبت له هو من خلال تجاربه ، ولذلك فقد آثر محيى الامساك عن التعليق على الموقف الا بقوله :

ـ لقد شوقتنى لرؤية آمال بأسرع ما استطيع ، لأرى تلك التى استطاعت ان تدير رأسك هكذا وتوشك ان تجعـــل منك قيس ليلى أو بطل غادة الكاميليا ٠ وضحك الصـــــديقان ولكن فوزى تحمس للفكرة ، فكرة تلاقى محيى بآمال وقال له انه لن يكون فى الأمر كبير

صعوبة فقد دعوتها وبقية اخواتها بالفعل لزيارتنا هنا بعد ان رأيت شدة اهتمامها لمعرفة كل شيء عن هذه الشقة وعن حياتنا فيها ·

وكأن الاقدار كانت تتآمر لتحقيق رغبة فوزى ومحيى فى أسرع وقت ، فما هى الا أيام قليلة حتى كان رياض يسهر مع الشـلة فى بيت البحر ، وذكر فى معرض حديثه أنه اعتزم هو واخوته أن يزوروا حدائق الحيوانات فى يوم الجمعة المقبلة فقد أبدت آمال رغبتها فى زيارتها معهم ، ووجد محيى فرصته الذهبية فى هذا النبأ فدعا رياض واخوته لتناول الغداء معهم يوم الجمعة ، ولبى رياض الدعوة شريطة ان تقتصر على شرب الشاى ولكن فكرى أصبح أشد حماسـة لفكرة تناول الغداء مع محيى وفوزى ، ولذلك لم يكف عن الالحـاح حتى انصاع رياض أخيرا لقبول دعوة الغداء ·

٤

على الرغم من أن محيى كان يتصور أن حضور فوزى يوم الجمعة لتناول الغداء مسألة مقررة ، فان فوزى لم يظهر فى بيت البحر يوم الجمعة الا فى السادسة مساء ، وقابله فكرى بالاحتجاج الشديد ، وعبثا راح فوزى يعتذر اذ لم يقبل منه فكرى أى اعتذار وأعلنه بأنه غضبان ولابد من زمن لكى يصالحه ، ولم يكن محيى أقل عتابا من صاحبه وان كان أكثر فهما لبعض الدوافع التى قد تكون أدت بفوزى الى هذا التخلف وأن لم يقره عليها · وقال فوزى فى نهـاية الأمر : لقد أردت أن أتيح لك فرصة دراستها بعيدا عن أى مؤثر من حضورى، وهنا فقط كف فكرى عن غضبه على فوزى بعد أن أدرك أن فى الأمر سرا يتصل بعاطفة خاصة بين فوزى وآمال وهو مالم يكن يعرفـه أو يحذره من قبل · وران الصمت على الجماعة ، وسأل فوزى محيى عن نتيجة دراسته ، وقال محيى لصاحبه : أتريد أن أحدثك بصراحة؟، فقال فوزى : انه لن يقبل غير الصراحة طبعا ، فأسرع محيى يقول :

ــ اذن فاعلم ان الذى يجذبك الى آمال ويشدك اليها ، هو هـذا

الانطلاق فى شخصيتها وهذا التحرر الذى لم نعتده فى فتياتنا ، ان طابعها الانجليزى هو الذى يفتنك ، وانت دائمـــا تدع المألوف من الأمور ، وتأبى الا ان تتعلق بالصعب والشائك ، والا فهل هنـــاك انسان الا فوزى ، وفوزى فقط من ينصرف عن فتاة فى مثل جمـال ثريا وملائكيتها ، ليتعلق بآمال المتمردة الثائرة التى تكبره فى العمر؟ وهنا تدخل فكرى فى الحديث معربا عن اعجابه الذى لاحد له بثريا وجمالها وانه لو كان متزوجا يوما ، فيرجو ان تكون ثريا من حظـــه ونصيبه ، اذا لم يشأ فوزى ان يغير رأيه فى الموضوع ويتمسك بثريا٠ ولم يلق فوزى بالا لشىء مما قاله فكرى لأن كل اهتمامه كان موجها لهذه التصريحات الانتقادية التى خرجت من فم محيى ٠

وقال فوزى لمحيى :

ــ هل افهم من كلامك ان آمال لم تعجبك ؟

وأجاب محيى لا استطيع ان أقول انها تعجبنى ، فقد أخــذت مثلك بشخصيتها القوية الجذابة وحيويتها المتدفقة ، ورشاقتهــــا والطابع الانجليزى الذى يميزها ، ولكنى أقول لك كمــا قال فكرى اننى لو كنت متزوجا لما تزوجت فتاة من طراز آمال ٠ وسأل فوزى محيى : وما رأيك فى عاطفتها نحوى ، اتظن انها مهتمة بى ؟ فأجاب محيى على الفور : هذه مسألة واضحة وضوح الشمس ، اننى لا اشك لحظة انها لم تقبل ان تلبى دعوة الغــداء عندنا اليوم على خـــلاف البروتوكول الا أملا منها فى ان تأتى لتتعرف الى البيئة التى تعيش فيها ولكى تنعم بصحبتك فى جو من المرح ورفع التكليف ، ونظر محيى الى فكرى وسأله عن رأيه فى الموضوع ، فصاح فكرى قائلا : لقـــد كادت تميتنا من الجوع فى انتظار مقدمك ، وعبثا قلنا لها بعــد أن اشرفت الساعة على الثالثة انك لايمكن ان تحضر للغداء بعد ذلك ٠ ومضى محيى يقول لفوزى :

ــ وعلى الرغم من البشاشة التى كانت تصطنعها طول الوقت فلم يخالجنى شك فى أنها كانت تعانى كثيرا من خيبة الأمل لغيـــابك ،

وشعر فوزى بموجة عارمة تغمره بالسعادة لهذا الذى يقوله محيى من تعلق آمال به ، وأحس بأنه يحب محيى كما لم يحببه من قبل ۰ بينما مضى محيى فى تحليله للعلاقة بين فوزى وآمال قائلا :

ــ ان أى فتاة لايمكن الا أن تحس بالهامها وغريزتها بالأثر الذى تتركه فى أى شاب أو رجل يمر فى حياتها ، فمـــا بالك بآمال فى علاقتها بك ؟ انك تقرأ دائما كما لو كنت كتابا مفتوحا ، وباستطاعة أى انسان أن يطالع فى يسر وسهولة كل انفعـــالاتك اذ تتجلى على وجهك وفى صوتك وحركاتك ، وآمال فتاة ناضجة وزادتها اقامتهـــا فى انجلترا سنوات من النضج والتجربة فوق ســـــنواتها الأربع والعشرين ، ولست أشك لحظة أنها أحست بمـــدى تأثرك بها منذ مقابلتكما الأولى ، ولابد ان تكون وزنتك وقدرت ظروفك وظروفهـــا وانك لاتصلح ان تكون بحال زوجا لهـــا ، ومع ذلك فهى كأى انثى لاتستطيع أن تتجاهل عاطفتك الجياشة التى أصبحت تحيطها بها كلما التقيتما ، لايمكنها أن لاتتأثر بشخصيتك ولذلك فهى فى حـــيرة من أمرها ، لاتستطيع أن تنظر اليك كزوج ، ومن ناحية أخرى لايمكنها أن تسقطك من حسابها ، والى ان تستقر على رأى نهائى فليس هناك ما يمنع ان ۰۰۰۰ وتوقف محيى عن الكلام فجأة بعـــد أن أحس أنه استرسل فى حديثه الصريح أكثر مما ينبغى ، وأنه أوشك أن يجرح عواطف فوزى فى عمق ، كما بدأ من ناحية أخرى يتصـــور انه قد يكون مخطئا فى كل هذا الذى قال ، ولذلك فقد سكت فجـــأة عن الحديث وارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ۰ ولكن لم يكن من السهل مغالطة فوزى بعد اذ وصلت الأمور الى هذا الحد ، ولذلك فقد طلب من محيى أن يمضى فى صراحته التى وعد بها حتى النهـــاية ، وضحك محيى ولم يشأ أن يقع فى الفخ ۰ وظهر الجد على وجهه وقال لفوزى انه لم يبق لديه مايقوله فى هذا الموضوع ۰ فقال له فوزى :

ــ أنا أكمل لك ما توقفت عن اكماله ، لقد اردت أن تقول ، ان ليس هناك ما يمنع هذه الفتاة التى عاشت فى اوروبا حرة طليقة ،

ان تتخذ من تعلقى بها موضوعا للتسلية والتسرية عن نفسها ، ريثما تقع فى حب حقيقى أو تعثر على الزوج الصالح لها . وقال محيى بعد أن قطب حاجبيه :

ـ لقد صغت الأمر على طريقتك المبسطة الحادة ، ولكنى ما قصدت الذهاب الى هذا الحد . واطلق فوزى لغضبه العنان فراح يقول :

ـ لايمكن الا أن يكون ذلك هو الموقف بالفعل ، ولكنى ما كنت اسمح لفتاة أن تجعل منى موضوعا لعبثها ، وما كنت لأرضى أن تقوم بين أخت صديقى وبينى علاقـــة تقوم على العبث من أى نوع كان ، وعلى ذلك فاشهدوا على اننى لن اقابلها أو أراها بعد اليوم ، بل ولن أذهب لبيت رياض .

وبينما كان فوزى يؤكد العهد ويأخذ على نفسه المواثيق انه لن يرى آمال ، كان هاجس يهجس فى نفســـه ، ان محيى قد ظلم آمال وانه قد جرفه معه فى ظلمها ، وكان يحس فى أعماق نفسه البعيدة أن لو أشـــارت اليه آمال فى هذه اللحظة أن يتبعهـــا الى أى طريق لما تردد .

٥

كان لابد لأزهار ان تبحث فى نهاية الأمر عن مورد للعيش تنفق منه على اسرتها لقد كان جميلا أن تحب ، وان تحب بلا أمل ، ولكن كانت هناك حقائق الحياة المرة التى أكدت لها أنهـــا بالأمس باعت آخر حليها ، ولم يبق عندهم ما تبيعه الا أثاث البيت وهو ما كانت تؤثر الموت على ان تقدم عليه ، انها لن تبيع أثاث البيت ولكنهـــا ستعود للرقص ، ستحاول ان تجعل من نفسها فنانة شهيرة لتكون جديرة بفؤاد . ان فؤاد لاينظر اليها الآن الا باعتبارها مومسا ، فيجب ان تثبت له أنها يمكن ان تكون شيئا أعظم من ذلك ، لقد أصبح لهـــا الآن هدف تعيش من أجله ، وتسعى للتفوق من أجله ، ستستغل الى آخر الحدود جمال جسدها وحساسيته للموسيقى ، ستكد وتشقى لتجعل من نفسها راقصة ممتازة ، وهو ما أكد لها الكثيرون قدرتها

عليه من قبل ، فلم تكن تحفل به · ولم تجد أزهار أى صعوبة فى الالتحاق من جديد بكازينو شهرزاد ، فقد كانت شهرتها القديمة فى حمل الزبائن على شرب اكبر كمية من الوسكى كانت لاتزال تذكر لها ، وكان مدير الكازينو يذكر لها أنها لم تتردد فى تلبية اشارته كلما دعاها للاستمتاع بها ، وهكذا عبدت أزهار القديمة الطريق أمام أزهار الجديدة ، التى كتمت سرها الجديد فى حنايا نفسها ، مقررة أن تستخدم مهارتها وكل تجاربها فى الذود عن جسدها الذى يجب أن تصونه من أجله هو ، هو وحده ·

وبينما كانت أزهار تحاول ان تبنى لنفسها مستقبلا جديدا لتكون جديرة به ، كان هو يحاول ان يخوض غمار مغامرة جديدة حتى لاتظل أزهار هى تجربته الوحيدة مذ تخرج من مدرسة البوليس، وهو ما كان يعتبره فشلا ذريعا فى دنيا الغرام لايليق برجل بوليس اعتادت السيدات والفتيات ان تتهافت عليهم · على أن مغامرته الجديدة لم تكن تختلف كثيرا فى طبيعتها عن مغامرته مع أزهار وان اتسع الميدان وتضخم · فلطالما دعاه الملازم أول صلاح زميله فى القسم ان يصاحبه الى أحد البيوت السرية فى دائرة القسم لامضاء ليلة حمراء بها · وقد كان السر فى دعوة الضابط الكبير للكونستابل ، هو ان الملازم أول صلاح افندى كان يضع هذا البيت وصاحبته فى حمايته ، وكان شديد الحرص على تجنيب البيت المهاجمات المفاجئة· ولما كان فؤاد بحكم مهارته قد أصبح يقوم بدور الضابط النوبتجى ، فقد وجد صلاح افندى انه من حسن السياسة والتكتيك ، ان يذيق فؤاد طرفا من الفاكهة المحرمة ، ليجعل منه حليفا عند اللزوم · وقد كان فؤاد يعرف ذلك ، ولذلك فقد حاول كثيرا ان لايزج بنفسه فى هذا الطريق الشائك ، ولكنه لم يلبث ان سخر من نفسه لتردده بعد ان سمع من زملائه جميعا الاقاصيص والعجائب عما صادفهم فى هذا البيت ·

وكان البيت الذى قصده فؤاد لأول مرة مع صاحبه الضابط

الكبير ، بيت احدى حائكات الملابس تدعى مدام سيمون ، وكان رواد البيت فى الساعات المتأخرة يصبحون من علية القــوم ومن الثراة ، الذين يرغبون فى نساء غير عموميات من ربات الصــون والعفاف ، وبنات الأسر • وكان هذا الطراز من النسوة يقصدن البيت لأسباب أهمها بطبيعة الحال شدة حرصهن على ســمعتهن ، فى الوقت الذى يشبعن فيه غريزتهن ، وان سرهن سيبقى مكتوما ، فقد كانت مدام سيمون امرأة أجنبية ذات ذمة وضمير تؤتمن على هذه الأسرار • هكذا قيل لفؤاد تصويرا لمن سيقابلهن فى هذا البيت ، فلا عجب اذا رأينا لعابه يكاد يسيل على الصيد السمين الذى يوشك أن يقع عليــه ، فهو لن يحظ بالمتعة فقط ، بل قد تقع من تصيبه امرأة زوجة لأحــد الكبراء أو الأغنياء مما اعتاد اخوانه أن يحدثونه عنه فتكون ليلة القدر قد فتحت له • وفاز فؤاد بأول ثمار نفوذه كضابط فى قسم عابدين، فلم يدفع المبلغ المقرر لدخول البيت فى هذه الساعة وهو خمســــة جنيهات ، بل لقد رحبت به مدام سيمون بعد ان قدمه لها صلاح بك ، وقالت لفؤاد ان يعتبر البيت بيته • ولم تكن مدام سيمون تتدخل بين عميلاتها وعملائها أو تشرف على سير الأمور بينهم ، فقد كان هذا أحد مظاهر ادارتها البيت لغير غرض الا ارضاء عملائها • وكان من نصيب فؤاد فى خاتمة المطاف سميرة هانم فقد كانت هى المســتعدة لمطارحة الهوى فى الوقت الذى اراده فيه • وكانت سميرة هانم مطلقة أحد كبار الموظفين الذين يشار اليهم بالبنــان وقد انخلع قلب فؤاد وهو يسمع اسم زوجها من الخوف والرعب ، وخفف عنه ماقيل له من أنها طليقته وليست على ذمته فى الوقت الحاضر • وكانت سميرة هانم من الطراز التركى قصيرة بدينة الى حدما ، مفرطة فى بياضها كحيــلة العينين السوداوين ، متبرجــة كأقصى ما يكون التبرج ، ترتدى ثوبا يكشف الجزء الأكبر من صدرها وذراعيها وسيقانهــا وكانت تضع فى عنقها وأذنها ومعصمها حلى ضخمة براقة يقطع بريقها وضخامتها على أنها زائفة ، وكانت سميرة هانم كثيرة الكلام والصياح

مرحة أشد المرح ، بحيث أثارت فى نفس فؤاد الاحساس بأنه بازاء طبق من « البالوظة » ولكنه لم يستطع أن يغالب الشعور بخيبة الأمل ، فقد كان يتخيل طراز النساء اللواتى سيقابلهن على غير هذه الصورة ، مما جعله يتشكك فى صحة المعلومات التى قيلت له فلايمكن أن تكون سميرة هانم ممن يوصفن بربات الصون والعفاف ، ولكنه كان فى نهاية الأمر مع امرأة تساقيه الهوى ويساقيها وقد كان هذا هو ما يحتاجه الآن فى الدرجة الأولى ٠

وأمضى فؤاد الليلة كاملة مع صاحبته دون أن يزعجهما طارىء من أى نوع كان ، وفتح عينيه فى الصباح المبكر بحكم العادة ، وشعر فى نفسه بخمول واحساس بعدم الرضا ، وقد ظل حائرا لايعرف فى بادىء الأمر سبب هذا الاحساس بعدم الرضاء الذى لم يفارقه طول ليلته مع صاحبته ، الى ان اكتشف فى النهاية انه كان نتيجة المقارنة الدائمة التى فرضت نفسها عليه بين سميرة هانم زوجة الموظف الكبير سابقا وبين أزهار البغى ٠ ولقد خرجت أزهار دائما من المقارنة فائزة منتصرة ، ليس فقط من ناحية الجسم الذى كان يدرك ان أزهار فيه متفوقة الى حد لايسمح بالمقارنة ، ولكن من ناحية التصرفات التى كانت تصدر عن كل منهما ٠ لقد نسى فى المرتين اللتين اتصل فيهما بأزهار أنه كان فى احضان مومس ، حيث كان كل شىء يذكره مع سميرة هانم أنه فى براثن عاهرة مهما قيل فى وصفها من أنها من ربات الصون والعفاف ٠ على أية حال لقد قضى الأمر وأصبحت له مغامرة جديدة يستطيع ان يتحدث عنها عندما يتطارح زملاؤه الاحاديث فى هذا الموضوع ٠

وأتم فؤاد لبس ملابسه العسكرية ، وراح يقبل صاحبته شاكرا ما وهبته اياه من نفسها ، فضحكت له فى خلاعة وسألته بعد ان نهضت من الفراش الذى كانت لاتزال راقدة عليه، ما الذى سيقدمه لها على سبيل الهدية والتذكار لليلتهما معا ٠ وصدم فؤاد لهذا الطلب الذى لم يكن مستعدا له ولم يدخله فى حسابه ، فقد أفهمه صلاح بك

زميله الضابط ان المغامرة لن تكلفه قليلا أو كثير فالنسوة اللواتى سيقابلهن لسن محترفات وانما هن من البيوتات الكبيرة ، واحمر وجه فؤاد خجلا وتلعثم فى القول وراح يتصيد الكلمات بصعوبة :

ــ اننى شديد الأسف جدا فلم أحمل معى هدية تليق بك ، ولكنى سأفعل ذلك فى المرة القادمة ان شاء الله ·

وغادرت سميرة هانم الفراش فى قميص نومها بشعرها المشعث وزينتها التى كانت اضطربت وامتزجت فبدأ وجهها مضحكا واكتشف فؤاد لأول مرة كم هى قصيرة وتجلت له فى هذه اللحظة ثقيلة قميئة ، بينما كانت تقول له :

ــ انه لن تكون هناك مرة ثانية يانور العين اذا لم تعبر لى هذه المرة عن ودادك لى ، ليس سوى الهدية رمز الوفاق وعنوان المحبة ، ولذلك فانا مستعدة اكراما لخاطرك ان اتولى عنك شراء الهدية بأى مبلغ تقدره بها ·

وارتبج على فؤاد الذى لم تكن محفظة نقوده تحمل أكثر من جنيه لينفق منه حتى آخر الشهر ، على أنه لم يلبث ان استجمع ارادته بعد ان زايله الخجل الذى كان ينتابه وقال لها ان المبلغ الذى يحمله تافه لايليق بمقامها ، وانه لايكاد يقبض راتبه أول الشهر الذى بات وشيكا حتى يشترى لها ما تريد · وارسلت سميرة هانم صوتا ، وقد كان مثل هذا الصوت يطربه بالامس وهو فى هياجه الجنسى ، أما الآن فقد جعل وجهه شديد الامتقاع لفرط ما أصبح يعانى من انفعال لتلك المفاجأة · وقالت له سميرة هانم :

ــ انت أول رجل يعاملنى هذه المعاملة غير الكريمة، ولو كنت أعرف ان ذلك سيكون موقفك منى لما رضيت بمصاحبتك ، وحانت منها التفاتة فوجدت ساعة يد فؤاد لاتزال على (الكومودينو) لم يلبسها بعد ، فأسرعت واختطفتها قائلة له :

ــ سأحتفظ بهذه الساعة على سبيل التذكار ·

وازداد وجه فؤاد اصفرارا ، اذ تذكر أنه كاد يخرج من هذا

البيت الملعون وينسى ساعته ، لولا هذه الحركة التى قامت بها هـذه المرأة التى أصبحت تبدو الآن فى نظره كما لو كانت غولا أو شيطانا . ورجاها أن ترد له الساعة التى لايستطيع الاستغناء عنها لحظـة فى عمله كبوليس ، واخرج من جيبه الجنيه الذى كان يملكه راجيا اياها أن تقبله تحت الحساب على سـبيل الهدية ، وقالت سـميرة هانم ضاحكة : « لولم أحبك يامضروب لغضبت من هـذه الحركة ، امثلى تقدم لها جنيها ؟ واقسم لها فؤاد انه هو كل ما يملكه وافرغ أمامها حافظة نقوده ، ورضيت أخيرا سميرة هانم أن ترد له الساعة بعد أن وعدها ان سيجزل لها العطاء المرة القادمة ان لم يحمل لها هدية ثمينة تليق بمقامها .

وشكا فؤاد الى زميله صلاح بك الذى كان يكمل اللمسات الأخيرة فى لبسه ، فقاده صلاح بك الى مدام سيمون محتجا عليها أنه وعد صاحبه فؤاد الذى سينفعها جدا فى المستقبل ان لايتكلف شيئا على الاطلاق ، واعتذرت مدام سيمون لسوء طالع فؤاد بك الذى أوقعـه بالذات فى سميرة هانم ، التى تقول أنها لاتستكمل متعتهـا الا اذا أخذت من رفيقها هدية أو مالا ، فليس هناك ما يؤكد حب صاحبها لها الا ان يبذل لها فى مقابل مابذلته له ، ولما كانت مدام سيمون امرأة عملية تحافظ دائما على كلماتها ، فقد قدمت لفؤاد بك الجنيه الذى دفعه ورجته ان لايكون قد غضب وأكدت له ان هذا الحـادث لن يتكرر . ولكن فؤاد عافت نفسه ان يمد يده لأخذ الجنيه من هـذه المرأة بعد أن قرر بينه وبين نفسه انه لن يعود الى هـذا البيت مرة ثانية ، بعد ان اخفقت تجربته الأولى مع نساء علية القوم ، من ربات الصون والعفاف .

٦

مضت أيام على هذه المغامرة حتى نسيها فؤاد فى مشاغل العمل ، عندما طلب ذات ليلة على التلفون العمومى للقسم ، ولم يكـد فؤاد

يدخل حجرة التلفون حتى خرج منها عسكرى التلفون بعد ان قال له فى رنة غير عادية « تلفون من أجل حضرتك » ولم يكد فؤاد يتساءل فى التلفون عن السائل عنه حتى انهال عليه سيل من الكلمات والعبارات المتلاحقة صادرة عن انثى تتهمه بأنه أخلف وعده معها ويظهر انه نسيها ، وتصفه بعدم الوفاء والغدر ، وفى غمرة المفاجأة طار من ذهن فؤاد كل شىء عن شخصية من تخاطبه ، ولذلك فقد استعلم منها عن اسمها وعما اذا كانت تعنيه ام انه حدث فى الموضوع خطأ ، وردت عليه المتحدثة فى سيل جديد من الكلمات والعبارات وصيحات الاحتجاج :

ـ حتى صوتى ياناقص ياعديم الوفاء قد نسيته ؟ اهكذا انت ياقاسى تشبكنى ثم تنسانى ؟ وهنا فقط تذكر فؤاد ان محدثته هى سميرة هانم ،وابتسم فى مرارة وسخرية ، وعتب على سميرة هانم كيف تحدثه عن نسيانه لها ، والمسألة انهم مشغولون جميعا هذه الأيام بعملية الانتخابات التى توشك ان تجرى قريبا ، وسخرت سميرة هانم من هذه الحجة وقالت انه لايستطيع أن يخدعها بها ، فان زميله صلاح بك الضابط يظهر كل ليلة تقريبا عند مدام سيمون ، ورد عليها فؤاد أن لامحل للمقارنة بينه وبين صلاح بك فهو لايزال كونستبلا صغيرا لايستطيع التحكم فى وقته كصلاح بك ، وضحكت سميرة هانم فى خلاعة وقالت له انها مع ذلك لم تعجب بصلاح بك فى أى مرة مثل اعجابها به ، وانها ستكون فى انتظاره هذه الليلة عند مدام سيمون ، واعتذر فؤاد بأنه يستحيل عليه المرور هذه الليلة ، ولم يكن بقدرته ان يتخلص منها الا بعد أن ضرب لها موعدا فى الأسبوع التالى ، وعندما وضع سماعة التلفون وهى لاتزال ترسل له القبلات فى نهاية الخط ، كان العرق يتصبب من جبينه . ونفخ فؤاد ليتخلص من الأبخرة التى حبسها فى صدره طوال مخاطبته سميرة هانم ، فقد كان من الدروس التى علمها له اخوانه ان يكون شديد الحذر فى تعامله مع هذا الطراز من نساء علية القوم خوفا من

الاضرار التى يستطعن احداثها للشخص الذى يغضبن عليه • وراح فؤاد يلعن الساعة التى عرف فيها سميرة هانم ، وأخذ فيها طريقه نحو هذا البيت • ومرة أخرى رأى نفسه يعقد المقارنة بين سـميرة هانم وأزهار ، لقد طلب من أزهار فى آخر مرة تقابلا فيها أن تكلمـه فى التلفون من حين لآخر ليتفقا على المواعيد التى يتقابلان فيهـا ولكن هاقد مضت بضعة أسابيع لم تحاول آزهار ان تتصل به فيها ، فضلا عن ان تطارده هذه المطاردة ، وبدأت صورة أزهار ، صورة جسـمها تلح عليه ، وبدأ يلح على خياله ان ليس هناك ماسيزيل الأثر السيىء الذى أحدثته فى نفسه سميرة هانم ، الا مقابلة جديدة مع أزهار • ولم يكد هذا الخاطر يمر فى نفسه حتى شعر بالسرور والسـعادة ، ونسى كل مابذله من محاولات ليخرجها من حياته •

٧

لم يجد فؤاد هذه المرة أى صعوبة للاتصال بأزهار فقـد كان يعرف البيت جيدا ، وحالفه الحظ فكـانت هى التى فتحت له الباب بنفسها ولم تكد تراه أمامها حتى شهقت من الفرح وصـاحت قائلة « فؤاد افندى ؟ » ووجد فؤاد نفسه يكرر فى غير وعى هذا السيل من الكلمات الذى سمعه بالامس من سميرة هانم :

– أجل فؤاد ياناقصة ياعديمة الخير ياقليلة الوفاء ، أو لم نتفق على أن تخاطبينى فى التلفون ، انسيتنى ياغادرة ؟ وكان هذا اللون من العتاب الحار قمينا ان يدير رأس أزهار ويسكرها ، فلم يحدث من قبل ان خاطبها فؤاد بمثل هذا الأسلوب ، ولكنها كانت فى هـذه اللحظة فى شغل شـاغل عن كل شىء الا أن تدخل فؤاد الى داخل البيت ولذلك قالت له :

– ارجوك ان تدخل أولا فليس يليق بك أن تقف على البـاب هكذا •

واعتذر فؤاد بأنه يجب ان يتسلم عمله فى الساعة الثـانية بعد

الظهر ، وانه جاء فقط ليحصل منها على موعـــد تزوره فيه ، وانه سيكون فى انتظارها فى البيت هذه الليلة الساعة الحادية عشرة ·
ومرة أخرى لم تلق أزهار بالها الى شىء مما قال فقد كان كل اهتمامها مركزا على أن تظفر بادخاله الى البيت ، ولذلك فقد عادت الى القول :
ـ واين نحن من الساعة الثانية بعـــد الظهر ؟ والنبى تشرفنى بزيارة بيتنا ، وخطر لها ان تستخدم معه سـلاحها الذى لايخيب ، فنظرت اليه فى دلال وقالت له « لايوجد سوى أمى فى الدور العلوى وسنجلس بمفردنا فى المندرة · ونجحت الخطة وغمزت السـنارة ، فقد لمعت عينا فؤاد بمجرد سماعه قولها من أنهما سيكونان وحدهما فى المندرة ، واشتعل خياله وهو يتحسس جسدها بنظره وعربدت الرغبة فى أوصاله ، كانت تقف أمامه فى قميص نوم من الحرير السماوى اللون السميك ، وعلى الرغم من ان القميص كان يحجب ذراعيهـــا ولايظهر سوى رقبتها ، فقد كان يفصل جسدها اللدن تفصـــيلا · وغص فؤاد بريقه وتلاحقت انفاسه ، ودخل وراءها الى البيت ولم تكد تغلق الباب الخارجى حتى انقض عليها كما لو كان حيوانا مفترسا وضمها الى صدره فى عنف ، وراحت يده تعبث بأجزاء جســـدها · وارتفع صوت نسائى من الدور العلوى يتساءل عن القادم ، وتمالكت أزهار انفاسها المضطربة اللاهثة وقالت لوالدتهـــا « انه زائر قد جاء لزيارتى يا أمى » ·
وردت الام فى هدوء مرحبة بالزائر ، وطلبت من أزهار ان تسأل الضيف أيحب ان يشرب فنجانا من القهوة أو من الشـــاى ، ونظرت أزهار نحو فؤاد تستفتيه رد السؤال ، ولم يحر فؤاد جوابا فقد بوغت بهذا الصوت وهذا الجو الهادىء ، وأحس كما لو كان قد صب عليه دش بارد · وتولت أزهار عنه الجواب فقالت لأمها ان تعمـــل له فنجانا من القهوة المضبوطة بيدها المبروكة · وقادت أزهار فؤاد الذى كان يتفصد عرقا من الشعور بالخجل الى المندرة فلم يكد يدخلهـــا ، حتى اسرع بالجلوس على أقرب كرسى بينمـــا بادرت أزهار ففتحت

النافذة المطلة على فناء البيت الداخلى لتهـــوى الحجرة ، ومع دخول النور الى المندرة ، واستقرار فؤاد بعض الشىء بدأ ينظر الى ما يحيط به ، فلفت نظره بقوة ما كانت عليه الحجرة من نظـــافة غير عادية . كانت أرضية المندرة عارية من أى بساط أو سجادة ، ولكن بلاطهـا الملون كان يشبه ان يكون سجادة ويزيد عليها هذا التألق ، وكان فى المندرة اريكتان كان يجلس على طرف احداهما وكانتا من النوع البلدى المعروف يغطيهما كساء من القماش الأبيض الناصع البياض من فرط نظافته . وكان يوجد فى وسط الحجرة منضدة من الخيزران الثقيل من هذا الطراز القديم الذى لم يعد موجودا ، وكان سطح المنضـدة يتكون من رخامة بيضاء ناصعة البياض بدورها من شدة النظـافة ، وكان هناك مصباح غازى كبير مدلى من السقف فى سلسلة نحاسية كانت تضوى من شدة اللمعان ، والمصباح تغطيه مظلة زجاجية محلاة بالنقوش . وانتهت جولة فؤاد فى انحاء الحجرة بشعور غامض من خيبة الأمل ، كما لو كانت هذه النظافة الشديدة قد أزعجته . وأحس بالعرق ينحدر على سلسلة ظهره ، خجلا من تصرفه السخيف الذى تصرفه مع أزهار عندما انقض عليها بمجرد دخوله كما لو كان حيوانا ، وراح يقارن بين موقف أزهار وموقفه ، لقد استجابت لعناقه المباغت، واستسلمت لعبثه لمجرد مجاراته ، وهاهى ذى تقف امامه فى هدوء وكل شىء فيها ينطق بسعادتها ، وقد تصرفت بطريقة طبيعية عندما فتحت النافذة ولو كانت تقصد الاختلاء به لما فتحتها . ووجد نفسه يتساءل فلماذا اذن دعته الى الدخول ، فيم كانت هذه الغمزة بعينيها وهى تقول له انهما سيكونا وحيدين ولن يزعجهما أحد ؟ وحار فؤاد فى الاجابة عن هذه الأسئلة ، بينما قالت له أزهار ان لديها ماترجوه منه ، فابتسم ابتسامة لم تخل من صفرة وقال لها ان هذا يتوقف على نوع الرجاء ، فقالت له أزهـار « ما كنت اطلب منك شيئا أعرف أن ليس بقدرتك اجابتى اليه ، ان ما أرجوه منك ، هو ان تتنازل فتقبل دعوتى المتواضعة لك بتناول الغداء معنا ، ان عندنا اليوم ملوخيـة

بالفراخ ، ووالدتى مشهورة جدا فى اتقانهـــا • واعترض فؤاد قائلا « لقد قلت لك منذ البداية اننى يجب ان اتسلم عملى فى القسم فى تمام الساعة الثانية • فقـــالت أزهار « وأنا لم يغب عنى ذلك وانى أعدك اذا قبلت الدعوة ان تفرغ من طعام الغداء قبل الواحدة • وهم فؤاد أن يعترض مرة أخرى ، فاقتربت منه أزهار وأمســـكت بيديه ونظرت الى عينيه فى توسل ، فى الوقت الذى بدأ فيـــه فؤاد يحس بحرارة جسدها تلفحه ، وقد اقتربت منه الى حد الالتصاق به ، فلم يسعه مقاومة هذه الحجة ولذلك فقد أجاب رجاءها مشترطا ان يغادر البيت فى تمام الساعة الواحـــدة • وقفزت أزهار من فوق الأرض سرورا ، وراحت تدعو له أن يطيل الله فى حياته وأن ينيـــله كل أمانيه ، ولم تعجب فؤاد هذه الدعوات ، فقد كان يؤثر عليها ان تنهال عليه تقبيلا وعناقا كما منى نفسه عندما أوشكت أن تلتصـــق به • ونادت الأم على أزهار تدعوها لتأخذ القهوة ، ولكن أزهار رجت منها أن تحضرها بنفسها لتعرفها بفؤاد افندى • وامتعض فؤاد لهـــذه الدعوة ، وأحس كما لو كانت أزهار تعبث به ، ولكنه لم يكد يعتب عليها دعوتها لأمها ، حتى ظهرت الست أم سميحة تحمل صـــينية القهوة • ووقف فؤاد بحركة لاشعورية فقد كانت أم سميحة يجللها الوقار رغم بساطتها الريفية وسذاجتها الواضحة • وقـــدمت أزهار والدتها لفؤاد بقولها « الست أم سميحة أمى » • والتفتت صوب أمها وقالت : وحضرته فؤاد أفندى الذى قلت لك عنه انه ساعدنى وأفرج عنى •

واحتج فؤاد بأنه لم يفعل شيئا ، والست سميحة كانت بريئة ، وكان الافراج مقررا منذ المساء ولكنهم لم يجدوا شيخ حارة ليضمنها• فقالت أم سميحة : انا يابنى لا أعرف هذه الأشياء وكل الذى نعرفه أن الفرج تم على يديك فربنا يحميك ويصونك لشبابك ، ويكتب لك فى كل خطوة سلامة • ولم يستطع فؤاد ان لايتـــأثر بهذا الدعاء الصادق • وعندما قدمت له أزهار القهوة بهرته كوبة الماء الشفافة

البلورية فتناولها ليشرب ما بها من ماء ، فلم يكـد يقرب الكوب الى فمه حتى شم رائحة الزهر الزكية ، فانتعش بكوبة الماء وشربها عن آخرها ، ولما جاء دور القهوة لم يكد يرشف منها رشفة واحدة حتى هتف قائلا :

ـ هذه قهوة جميلة جدا تسلم أياديكي ياست أم ســـــميحة ٠ وخجلت الست أم سميحة من هذا الثناء ، وعادت تدعو لفـؤاد لأنه جبر بخاطرها ٠ وقالت أزهار لأمها : أرأيت الآن بنفسك ، ان فؤاد أفندى أطيب انسان شفته فى الدنيا ؟ وقد بقى ان تعرفى انه قبـــل دعوتى له لتناول الغداء معنا اليوم على شرط ان يأكل حالا ليذهب الى مقر عمله ٠ وهتفت الأم : يا ألف أهلا وسهلا ، ربنا يبـــارك فيك يافؤاد افندى لجبرك بخاطرنا ، ان الطعام جاهز والحمد لله ، فالملوخية مخروطة والفراخ مسلوقة ، وليس ينقص الا ان أحمر الفراخ ، واسقط الملوخية ، ولن يستغرق ذلك ربع ساعة ٠ وانصرفت الأم على عجل لتكمل الطعام فى الوقت الذى سمع صـــــوت السقاطة تدق الباب الخارجى ، وهرعت أزهار الى الباب لتفتحه وهى تقول : هذه دقـــة أخى الصغير حسن ٠

ودخل حسن ، صبى مشرق الطلعة فى سن الثـــامنة من عمره ، وقبلته أزهار وهى تقـــدمه لفؤاد ، ومد فؤاد يده ليصـــافح حسن وقد هش له ، ولكن حسن ازور عن اليد المبسوطة له ، بعد أن لاحظ بدلة البوليس التى كان يرتديهـــا فؤاد ، وقال له :

ـ انا لا أحب رجال البوليس ٠ وامتقع وجه ازهار وانتهرت أخاها الصغير فى شدة ، ولكن فؤاد طلب منها ان تهون على نفسها وأن تخلى بينه وبين حسن ٠ وابتسم فؤاد ابتسامة عريضة لحســـن وقال له :

ـ ولماذا يا أبا على لاتحب رجال البوليس ؟ فأجاب حسن : لأنهم يضربون الناس ويحبسونهم ويقتلونهم.فقال فؤاد :من الذى علمك هذا القول غير الصحيح؟ ان رجال البوليس هم الذين يجعلونك تنام فى بيتك مطمئنا فلولاهم لسرق اللصـــوص بيتكم ، واعتدى عليكم الاشرار ،

صحيح يا أبا علي ان البوليس يضرب ويسجن ويقتل ، ولكنه يفعل ذلك بالمجرمين دفاعا عن الناس الطيبين من أمثالك • ولكن حسن صاح مقاطعا : لقد رأيت البوليس يضرب التلاميذ الكبار وهم يهتفون بحياة مصر ، ولقد ضربني أنا نفسي أحد العساكر ولم أكن سرقت أو نهبت ولكنني كنت واقفا اتفرج • والتفت حسن نحو اخته وقال لها : والنبي يا أبلة سميحة ماتزعليش مني ، أنا لا أحب عساكر البوليس • وحاولت أزهار من جديد ان تنهر أخاها مرضاة لفؤاد ، ولكن فؤاد منعها من ذلك وقال لها ان أخاها معذور فقد كان هو نفسه يردد مثل هذا القول قبل ان ينضم الى البوليس ، فان ظروف البلد السياسية والاحتلال الانجليزي قد جعلا مهمة البوليس الأولى هي حفظ الأمن للانجليز والاجانب •

وعقبت أزهار على قوله بأنها لاتعرف في السياسة ، ولكنها ترى ان البوليس في يده السلطة والنفوذ والابهة ، وهي أمور يحبها كل انسان ، ورأت ان تقنع أخاها حسن بأسلوب آخر فقالت له : ان فؤاد افندي ليس من عساكر البوليس الذي تكرههم ، ولو أنه شاهد العسكري الذي اعتدى عليك لحبسه ، واذا كنت تحبني فيجب أن تحب فؤاد أفندي لأنه حبيبنا وسيتناول معنا طعام الغداء •

ولم تكد أزهار تقول ذلك حتى انفرجت أسارير حسن من الفرح وسأل فؤاد : هل ستتناول معنا طعام الغداء حقا ؟ فقال فؤاد : سأفعل ذلك من أجل خاطرك • فأسرع حسن وطوق عنق فؤاد وقبله في براءة وقال : اذا كنت تحب أبلة سميحة فنحن جميعا نحبك • وتأثر فؤاد من هذه العاطفة الصادقة كما لم يتأثر مذ دخل الى هذا البيت ، وبدأ يحس بكثير من الضيق لهذا الجو الذي وجد نفسه مغمورا فيه •

ودق الباب الخارجي من جديد ، وهتفت أزهار : الحمد لله هذه فاطمة لم يبق الا ان احضر لك الغداء • وأسرعت تفتح الباب ، واستوقف فاطمة مارأته على وجه أختها من سعادة مفرطة ،

ولم تزد أزهار على أن سحبت أختها من يدها الى المندرة وقدمتهـــا
لفؤاد قائلة : اختى فاطمة ، وقالت لأختها : وهذا فؤاد أفندى الذى
قابلته من قبل • وبادرت فاطمة فقالت وقد هشت للضـــيف وافتر
ثغرها عن اسنان جميلة : أهلا وسهلا بفؤاد بك • ورضى فؤاد عن لقب
البكوية الذى خلعته عليه فاطمة كمظهر من مظاهر ثقافتها ، وعوضته
عن سوء استقبـــال حسن • ولم يفت فؤاد بمجرد ان وقع نظره على
فاطمة انها هى التى استقبلته عندما جاء للمرة الأولى ، ولكن شـــتان
بين منظرها فى ذلك اليوم ، ومنظرها الآن ، فقـــد كانت ترتدى زى
المدرسة الرسمى الذى يتألف فى الدرجة الأولى من (مريلة) كحلية
اللون ذات بنيقة بيضـــاء وكان التضـــاد بين لون المريلة الكحلى
وبشرتها البيضاء ولفح الهواء والشمس لخديها الحمراوين ، كل ذلك
قد أضفى على فاطمة جمالا صحيا وجعلها أقرب ما تكون لثمرة ناضجة
طازجة فأخذت بمجامع قلبه • وقال لها : تشرفنا يا آنسة فاطمة •
واسرعت أزهار تزف البشرى لأختها فاطمة من أن فؤاد أفندى سيتناول
الغداء معهم • وفرحت فاطمة بدورها بالنبأ وعادت تقول من جديد :
على الرحب والسعة • وانتهزت أزهار حضور فاطمة وحســـن لكى
تنصرف لمساعدة أمها على اتمام الغداء فى الوقت الذى اتفقت عليه مع
فؤاد • وسأل فؤاد فاطمة عن مدرستها فأجابته ، بأنها فى الســـنة
الثالثة ثانوى ، وتدخل حسن وراح يقول كما لو كان يتلو من لوح
محفوظ : وستمتحن فى آخر هذا العام فى الكفاءة ، وبعد أن تحصل
عليها ستدخل القسم العلمى لتحصل على البكالوريا ثم تدخل كلية
الطب ، لتكون أول دكتورة فى مصر • وأحست فاطمة بموجـــة من
السخرية على شفتى فؤاد لهذا البرنامج الطويل العريض ، فقالت له
فى شبه تحد : هذا هو بالفعل برنامجى الذى اعتزمت ان أحققـــه ،
وربنا يخلى اختى سميحة التى تعاوننى على تحقيقه • وفغر فؤاد فمه
فى دهشة لما قالته فاطمة ، بينما عاد حسن يردد اسطوانته المحفوظة :
أما أنا فسوف ادخل مدرسة الحقوق لكى أكون محاميـــا أو وكيل

نيابة ، فان اختى فاطمة تقول ان كل عظمـــاء مصر كانوا من رجال القانون ، وكانوا فقراء مثلنا مثل مصطفى كامل ، وســـــعد باشا ، والنحاس باشا ٠

ولم يستطيع فؤاد ان يقاوم الانقباض لهذا الجو الذى وجد نفسه غارقا فيه ، والذى يفيض بكل هذه الآمال والطموح ، فلم يجد ما يعلق به ، وتلفت حوله ، نحو الأرائك ، نحو الأرض والســـــقف ، نحو المصباح والمائدة ، وعاد من رحلته بذهن مشتت ، فاستقرت عيناه على كوبة الماء التى كانت تلمع ، فقال لفاطمة وهو سارح :

ـ بيتكم نظيف جدا يافاطمة ٠

فأجابته فاطمة على الفور « النظافة هى هواية أمى ، فلا تكاد تكون فى صحتها حتى لاتنفك تنظف فى البيت وتلمع كل شىء فيـــه ، من الصباح المبكر حتى الليل المتأخر قائلة لنا :

ـ ليس هناك أجمل من البيت النظيف ولو كان مجرد عشـــة ٠ وما فتئت تقول لنا مذ كنا أطفالا ، ان الانسان بملابسه النظيفـــة يستطيع ان يدخل الى أى مكان ، ويتحدث الى أى انسان مهمـــا كان فقيرا ، وملابسه رقيقة الحال ، فالمهم ان تكون نظيفة ٠ وفوجىء فؤاد بهذا الجواب ، أو بالأحرى بهذه المحاضرة عن فوائد النظافة ، وعجب أين يدخل عمل أزهار فى باب النظافة ، وأوشك ان يقول شيئا فى هذا المعنى ، بينما كانت فاطمة بدورها تنظر اليه فى تحد احساســا منها بما يوشك ان يقوله ، ولكن دخول أزهار فى هذه اللحظة حال دون وقوع هذا الاصطدام ٠ كانت أزهار تحمل صينية كبيرة رصت عليها أوانى الطعام ومن خلفها والدتها تحمل قلة من الماء مغطاة بغطاء نحاسى أصفر وهو يلمع كما لو كان ذهبا ٠ وأكل فؤاد اكلا لم يذق مثله منذ أمد بعيد ، وقد استل الطعام من نفسه كل تحفظ وتردد ، فنسى كل شىء الا انه كان سعيدا بهذه الأكلة وهذه الجلسة ، وراح يثنى على الست أم سميحة مهارتها فى الطبخ ، بينما كانت الســت أم سميحة من ناحيتها تعرب له عن خجلها فى أنها لم تقدم له شيئا

يليق بالمقام ولو انها علمت من وقت مبكر ، لطهت له شيئا يستاهل فمــــه ·

٨

وانفرط عقد الجماعة بانتهاء الغداء ، واعتذر فؤاد عن فنجان من القهوة بعد الطعام بعد ان أصبح محتما عليه ان يسرع الى مقر عمله ، ووقف مودعا وانسحب افراد العائلة تاركين لأزهار مهمـــة الوداع الأخير · وهكذا رأى فؤاد نفسه أخيرا وحيدا مع أزهار ، ولكن ما أعظم الرحلة التى كان قد قطعها فى هذه اللحظـــة ، لقد نسى كل شىء عن أزهار التى جاء يسأل عنها ، ولم يعد أمامه سوى سميحة ، سميحـة التى تعيش وسط عائلة تحبها الحب كله ، عائلة كعشرات الألوف من العائلات المستورة الحال ، حيث تعمل وتكد للانتصار فى معركة الحياة وتطوير حياتها ابدا · ونظر فؤاد الى أزهار وكانت تقف الآن أمامه مرتدية (روب دى شامبر) لايكاد يسمح بظهور شىء من جسمها الا الوجه والكفين، وتجلت أمامه فى هذه اللحظة كسيدة بيت محترمة ، فلا عجب اذا كان قد نسى كل شىء عما جاء من أجله ، ولم يبق له الا ان يشكرها فى حرارة على هذه المأدبة العظيمة · وسار فؤاد نحو الباب الخارجى لايقول لها شيئا ، ولم يكن هناك من هو اسعد من أزهار فى هـذه اللحظة وقد نسى فؤاد ان يحدثها عما كانت تعرف انه جاء من أجله · ولكن أزهار اذا كانت قد كسبت جولتها وحملت فؤاد على أن يعـــاملها بشىء من الاحترام لفترة من الزمن ، فلم تكن مستعدة ان تقامر بفقدانه نتيجة لهذا الاحترام · فقالت له فى دلال وقد شحذت من جديد اســـلحة فتنتها وسلطت عليه اشعتها : وماذا عن موعد الغد ، اما ستكون فى انتظارى ؟ وأحس فؤاد كما لو كان يستيقظ من كابوس ثقيل ، وهو يرى أزهار من جديد أمامه تذكره بعملها وحرفتهـــا ونفض فؤاد عن كاهله كل المشاعر التى غرق فيها منذ لحظات ولم يبق فى نفســـه الا أزهار وفتنة جسدها التى جاء يلتمسها ، فلمعت عيناه من جديد

ببريق الشهوة ، وقال لها : سأكون فى انتظارك حيث تعـــلمين على أحر من الجمر • ولم تشأ أزهار ان تجعل هذه الفرصة تفلت من يدها لتقول له حقيقة عواطفها نحوه ، فاستجمعت شجاعتها ونظرت اليـه فى حب ووله وقالت له :

ــ اذا كنت سأجيء لك فى الغد فليس ذلك الا لأنى أحبك ، اتسمع يافؤاد لقد أحببتك منذ النظرة الأولى اليك • ولم يعلق فؤاد كثـيرا على هذا الذى قالته الا من حيث انه زاد فى اشعال رغبتـــه نحوها ، وبدأ يحس من جديد بكل كيانه التيارات المنبعثة من جسدها والتى تدعوه اليها ، وقال لها وهو ينتزع نفسه انتزاعا : غدا الســـــاعة الحادية عشرة • وقالت أزهار : لنجعل موعدنا فى الثانية صباحا • ورفع فؤاد حاجبيه من فرط الدهشة وردد قولها « الثانية صباحا ؟ » وقالت له أزهار : لقد فاتنى فى غمرة سرورى بلقائك أن أخبرك اننى اشتغل الآن راقصة فى كازينو شهرزاد • وغشيت وجه فؤاد سحابة غامضة وغمغم قائلا : اوتعملين أذن فى كازينو شهرزاد ؟ ودب القلق الى نفس أزهار خوفا من ان يكون ذلك قد ضـــايق فؤاد لسبب ما ، وأسرعت تقول له : أولا يرضيك هذا ؟ أليس افضل من عملى بالبار ؟ ولم يجب فؤاد ولكنه راح يمط فى شفتيه ، ويهز رأسه يمنة ويسرة غير قادر على أن يكون رأيا • ومضـــــت ازهار تزيد له الأمر شرحا ووضوحا فقالت له :

ــ لقد بدأت اعمل كراقصة فنانة تكسب عيشها بفنها ، وليس ببيع جسدها •

فرد عليها فؤاد وقد اتضح فى ذهنه معنى معين : ولكنك تجالسين الزبائن وتستحثينهم على شرب الخمر • وعلت على وجه أزهار سحابة من الغم والكآبة وقالت : هذا صحيح • واندفع فؤاد وقد اتضـحت أمامه الحقيقة التى كان يريد أن يعبر عنها : ولابد لك من الخروج مع الزبائن وتلبية رغائبهم • وهنا قاطعته أزهار بشدة وقالت :

ــ كلا كلا ، هذا مالا يحدث • وانى أرجوك يافؤاد ان تكون واثقا

اننى مذ ذهبت الى بيتك فى المرة الأولى لم اسلم جسدى لانسان غيرك • وامسكت أزهار بيد فؤاد ونظرت الى عينيه بعينيها السوداوين النجلاوين وقد بدا عليهما التوسل وقالت له :

ـ اقسم لك بحياة أمى واخواى أننى صادقة فيما قلته لك ، واذا لم تصدقنى فستجعلنى اتعس انسانة فى هذه الدنيا •

وكاد فؤاد أن يثنى على براعتها فى التمثيل والاخراج وانها احكمت كل شىء حوله فى دقة قبل أن تفضى له بهذا التصريح ، ولكنه كان الآن فى عجلة من أمره ويريد الانصراف بأسرع ما يستطيع فقال لها « اصدقك يا أزهار » ولم يكد يتلفظ بهذه العبارة حتى هوت أزهار على يده تقبلها وهى تقول له : اشكرك يافؤاد لن أنسى لك ذلك ماحييت ، سأكون خادمتك منذ اليوم ، سأكون جاريتك • وتخلص فؤاد بصعوبة من هذه العاصفة من العواطف التى فاجأته بها ، وأسرع يعدو بعيدا عن البيت ، لاليدرك عمله الذى حان وقته ، ولكن ليهرب من هذا المشكل الذى بدأ يحس بكل وجدانه انه قد وقع فيه •

٩

لم تكد أزهار تخلع معطفها عندما وفت بوعدها لفؤاد وجاءته فى اليوم التالى ، حتى ظهر على الفور انها كانت ترتدى ملابس الرقص المزركشة البراقة ، والتى تكشف عن الجزء الأكبر من الجسد ، ولاتبقى مستورا الا مايزيد ستره فى نيران الفتنة • وهوى فؤاد على أزهار عناقا ولثما وتقبيلا فى عنف ونهم ، وهى مستسلمة بين ذراعيه فى سعادة وهناء ، وشعر فؤاد انه يؤلمها أو يوشك ان يخنقها ، فخلى عنها بعض الشىء ، فانتهزت الفرصة وافلتت منه والسعادة ملء جوانحها والنشوة تتملكها ، وقالت له : لقد جئت بملابس الرقص لأرقص لك حقيقة ، كما افعل ذلك بخيالى كلما صعدت لأرقص على خشبة المسرح • لقد بدأوا يتحدثون الآن عن نجاحى كراقصة ، ولولا ذلك لطردونى منذ أمد بعيد ، بعد ان أصبحت أرفض ما اعتادوه منى فى الزمن القديم •



وأسرعت أزهار قبل أن يعترض عليها فؤاد ترقص له فى خفـــة ورشاقة جعلاها اشبه بطائر يخفق بجناحيه ، رقصت له على انغام من صنع خيالها ، وعلى موسيقى تنبعث من ذات نفسها •

* * *

وطلع الصباح على العاشقين وعندما خرج فؤاد من الحمام الذى أعدته له أزهار لأول مرة بالماء الساخن ، وشرع فى ارتداء ملابســه ليذهب الى عمله فى السادسة صباحا ، كان يحس بنفسه فى ذروة النشاط كما لو كان نائما طول الليل.وأصرت أزهار على فؤاد أن يتناول كوب الشاى الذى أعدته له قبل أن يخرج ، وبدأت الحقيقة تواجهه لأول مرة وهو يشرب هذا الفنجان من الشاى ، من أن أزهار لاتزال فى البيت ولا يعرف كيف يتخلص منها فلم يكن باستطاعته هذه المرة أن يقول لها كما قال من قبل « حان أوان انصرافك » على أنه لم يكن فى حاجة لأن يقول لها ذلك ، لقد كان يكفى أن يمر الخاطر فى رأسه لكى تدركه على الفور ، ولذلك فقد قالت له وهى ضاحكة لتخفى أثر المرارة من نفسها : لاتحمل الهم من أجلى فأنا لا أذهب الى الكـــازينو بالنهار ، ولذلك فسأنام عندك بعض الوقت ، وسأنتهز أول فرصة يخلو فيها الطريق لكى أخرج من هنا متسللة ، وتستطيع ان تعتمـد على شدة حرصى ورغبتى فى المحافظة على سمعتك • ولكن ذلك لم يكن له أثر الا فى مضاعفة قلق فؤاد عندما طاف بخيـــاله ، أن ترى أزهار خارجة من شقته ، فقد يتصورها البعض سارقة لأن الجميع يعرفون أنه يسكن بمفرده ، ولذلك فقد أعترض على خطة أزهار وقال لها انه يؤثر ان تنتظر عودته حتى يشرف هو على عملية اجلائها عن البيت •

وتصور فؤاد عندما عاد بعد الظهر الى شقته انه ضــــل الطريق اليها ، اذ لم يكد يفتح الباب حتى هبت عليه نسمة لاعهد له بها من قبل فى شقته ، وفوجىء ببلاط الشقة يلمع ويضوى بصورة لم يكن يتصور انه من الممكن ان يصل اليها فقد ذكره ببـــلاط بيت أزهار •

واستقبلته أزهار وهى ترتدى أحد جلاليبه الرجالية فزادت فتنة على فتنة ، بحيث لم يتمالك نفسه بعد ان وضع على المائدة ما كان يحمله من مأكولات ، ان يعود لعناقها • وذهل فؤاد وهو يرى يد الترتيب تمتد الى كل ركن من أركان شقته ، وهو يفاجأ بستار اقامتـــه فى حجرة النوم من احدى ملاياته القديمة وثبتت وراء الستار حبلا علقت عليه كل بدله لتصونها من التراب والعبث • وهكذا صنعت له دولابا من غير شىء•وقال لها وهو لايكاد يصدق نفسه : ماهذا كله يا أزهار، كأنك لم تنامى ؟ فقالت له : وهل تنام المرأة السعيدة ؟ لقد عشــت أجمل ساعات حياتى وأنا أعمل فى انتظار عودتك من عملك •

وطعما مما حمله فؤاد معه ، وما أعدته أزهار من بقايا وجدتها فى البيت من خضروات ومعلبات ، وناما من جديد فى احضان بعضيهما •

وعندما سبقت أزهار فؤاد فى الاستيقاظ وراحت تعد له فنجانا من القهوة قبل انصرافها ، نظر اليها فؤاد فى حنان وهى تقدم له فنجان القهوة وقال لها ما هذه المهارة كلها وهذا التفــانى يا أزهار من أين تعلمتها بالرغم من مشاغل مهنتك ، ان كل شىء حولك يصيح انك من أصل كريم فما الذى جعلك تنزلقين الى ما وصلت اليه ؟ ولم يكد فؤاد يلقى بهذا السؤال حتى أسرعت اليــه أزهار فطوقت عنقه بذراعيهـا وراحت تغمره بقبلاتها تعبيرا له عن شكرها اذ حقق لهـــا ما كانت تصبو اليه مذ جاءت معه فى المرة الأولى • وجلست أزهار تحت قدميه بعد أن جلس هو على الكنبة فى حجرته ، وأغمضـــت عينيها وسرحت بروحها نحو الماضى البعيد ، نحو أبيها وطفولتها ومأساة حياتهـــا ، وبدأت الكلمات تنساب من فمها كما لو كانت فى حلم رهيب •

* * *

كان أبوها الحاج حسن ابراهيم يعمل ســاعيا فى مصــــلحة التنظيم ، وكان متدينا متزمتا يتبع جماعة الســـــنية الذين يطيلون لحــــاهم ويرخون العـــذبة من عممهم • ولم تكـــد ســـميحة تبلغ العاشرة من عمرها حتى حجبهــا عن الخروج من البيت أو مقـــابلة الرجال الغرباء وعبثا توسلت أزهار الى أبيها ان يسمح لهــا ان تتم

تعليمها ولو للمرحلة الابتدائية ، فقد كان يقول لها انه حسبها ان تعلمت القراءة والكتابة وقواعد الحساب ، لتحفظ بعد ذلك القرآن ، وهو ما أخذ على نفسه تعليمه اياها • ولم يشفع لسميحة ما اظهرته من استعداد للعلم وخطها الجميل ورغبتها فى التفوق وحفظها القسم الأكبر من القرآن، بل لقد رأى أبوها فى ذلك كله اسبابا تدعوه للاسراع بحجبها خوفا عليها من الفتنة • وكان مايحمل الرجل المتدين بالأكثر على حجب ابنته عن الخروج والدخول ، هو ما ظهر عليها من موهبة أخرى أوشكت آن تجعل عقل الرجل يطيش ، او ان يفتك بابنته فى يوم من الأيام ، وتلك الموهبة هى هز البطن وكل اجزاء الجسم ، تقليدا لهذا الذى يسمونه بالرقص والذى كان يساوى عند والدها الفُجر • ولم يكد الحاج حسن يكتشف عند ابنته هذا الميل الى الرقص ، حتى راح يقمع هذه الرغبة فى نفسها بكل شدة وصلت فى بعض الاحيان الى حد القسوة مع الطفلة الصغيرة • ومع ذلك فقد ذهبت مجهوداته ادراج الرياح ، وكل الذى نجح فيه ان لم تعد سميحة ترقص فى حضرته ، وان أصبحت زوجته تكذب عليه كلما سألها اذا كانت ابنته ارتكبت هذه الخطيئة من ورائه • وكان حب الرقص ينمو مع سميحة بنمو جسدها • وبدأت اختها فاطمة تشب عن الطوق ، وكادت تلحق باختها فتحرم من التعليم ، لولا أن الحاج حسن ابراهيم توفاه الله ، فذهب مأسوفا عليه من اسرته التى لم يخلف لها سوى هذا البيت الذى كان يأويهم ، ومكافأة صغيرة من مصلحة التنظيم • وبدأت مشكلة الحياة تواجه هذه الأسرة المؤلفة من أربعة أنفار والتى لم يكن فيها أحد يعرف شيئا من أحوال الدنيا ، فأم سميحة لم تغادر عتبة الدار مذ جاء بها زوجها الحاج حسن رحمة الله عليه من الريف ، ولم تكن سميحة تعرف شيئا من أحوال الدنيا الا ان ترقص وان تجيد اشغال البيت الصغير ، وكانت قد أصبحت تناهز الستة عشر ربيعا عند وفاة والدها •

وحارت الأسرة ماذا تفعل لتكسب رزقها ولتنفق على اتمام تعليم

فاطمة وحسن ، فقد استولى على سميحة عزم وتصميم ان تصحح خطأ والدها معها،وان تبذل المستحيل لكي يتما تعليمهما ما وسعهما الجهد لهذا التعليم ، واقترحت على أمها ان تعمل لتكسب لهم بعض المال ، واذ كان من المحال ان يفكروا في ان تعمل سميحة كراقصة كما كانت تعرض عليهم أم على الدلالة ، فلم يبق الا ان تعمل كخادمة في بعض البيوت ٠ وتوقفت أزهار عن الحديث ونظرت الى فؤاد في أسى وحسرة ، ولم يكن فؤاد يقل عنها في هذه اللحظة حزنا وألما ولذلك فقد ربت على ظهرها في اشفاق وألم ، وطلب منها أن تمضي في قصتها ٠ واستأنفت أزهار الحديث : كان هذا قرارا قاسيا ، ولكي لم يكن بد مما ليس منه بد ٠ وكان يدور في ذهن أم سميحة وهي تتخذ هذا القرار بيت أحد كبار الموظفين من أقارب زوجها الذي مافتيء يشير من حين لآخر الى قرابته ، وترفعه عن ان يتصل به في أي شأن من الشئون ، فضلا عن ان يستعين به في قضاء حاجة ، انفة منه وكبرياء واعتزازا بدينه الذي كان يجعله يتفوق على قريبه هذا كتفوقه على سائر المسلمين من غير اتباع السنة ٠ ونحو هذا البك الكبير قصدت أم سميحة لأول مرة في حياتها بعد أن اصطحبت معها سميحة ٠ ونفخ البك الكبير أوداجه وهو يستمع الى قصتها شعورا منه بالنصر الذي أحرزه في نهاية الأمر على الحاج حسن ابراهيم الذي لم يلتجيء اليه في أي يوم من الأيام ٠ وانتهز البك الكبير هذه الفرصة ليكشف عن معدنه الأصيل ، وعن تواضعه وبره وكرمه فقال للست أم سميحة :

ـ اسمعي ياست أم سميحة ، أنت تعرفين طبعا ان زوجك المرحوم كان يمت الى بصلة القرابة ، ويظهر ان حضرته ربنا يسامحه ويسامحنا جميعا ، كان واضعا أنفه في السماء فلم يسأل عني في أي مناسبة من المناسبات ، ولو أنه فعل كما تفعلين الآن لما ترددت في مساعدته كما افعل بالناس الأغراب الذين لايمتون الى بأية صلة٠ وعلى كل حال فلندع الماضي ولنبدأ صفحة جديدة ٠ أنا ياست أم سميحة على استعداد ان اضم سميحة الى أولادي ، وسأحادث أمامك

الست الهانم فى هــذا الموضوع وهى طيبة القلب جدا ، وســـترين بنفسك كيف سترحب باقامة سميحة معنا ، وفوق ذلك فســـوف أساعدك باثنين جنيه كل شهر ۰ وأوشكت الست أم سميحة أن تقبل قدمى البك الكبير لفرط ما غمرهم به من نعمة ، وراحت تدعو له الله جزاء وفاقا على صيانته عرضهم ومحافظته على (لحمهم) ۰

وجاء دور الست الهانم ، فنظرت الى سميحــة من فوق لتحت ، وكأن شيئا ما لم يعجبها فيها اذ أنها لوت شفتيها ، ولكن لم يفتهـــا قوة جسدها وصحتها وقدرتها بالتالى على النهوض بأعباء البيت وحل أزمة الخدم بالنسبة لها ۰ وأعلنت الست هانم قرارها بالموافقة على ايواء سميحة وان تجعل منها ست بيت محترمة ، شريطـة ان تعرف سميحة مركزها وان تقف عند حدها ، وتعلم أنها ، أى الست هانم لاتعرف الا الجد وتكره المياعة ۰ ويجب أن تعرف سميحة ان اشغال البيت كلها ستكون مسئولة منها من غسيل ومسح وتنظيف ۰ وتمت الصفقة وقامت سميحة بكل ماعهد اليها به ، وزادت عليه ان كانت تكوى الملابس واذا خرج الطباخ قامت بالطهى ۰ وكان من الطبيعى ان ترتكب سميحة بعض الاخطاء فى بادىء الأمر ، فكانت تسب وتلعن وتهان وخاصة أمام الضيوف ، فقد كانت الســـت هانم تخشى كل الخشية ان يتصورها الضيوف بقوامها الممشوق ورشاقتها البادية انها أكثر من خادمة ، خوفا من ان يعطل ذلك على بناتهـــا ۰ وقد رضيت سميحة بذلك كله صيانة لعرضها ، ومن أجل الجنيهين اللذين كانت والدتها تتقاضاهما فى كل شهر ۰ على أن مشكلة سميحة الكبرى فى بيت قريبها الكبير والتى كانت تهدد بالخطر ، كانت تكمن فى تصرف البك الصغير معها وقد ادرك البك الصغير الذى كان طالبا فى مدرسة الهندسة مزايا سميحة غير العادية لقد كانت فى السن الذى يشتعل فيه الجسد بلهيب الانوثة ، فكيف ولسميحة جســـد يفوق بقيـــة الاجساد فتنة ولهيبا ؟ ولم يضع البك الصغير دقيقة واحدة للتقرب من سميحة والتودد لها ، وراح بعد ان استقر المقام بسميحة كلمـــا

دخلت الى حجرته لتقوم بواجب الخدمة المفروضة عليها ، يغازلها ويثنى على قوامها ورشاقتها وانها أجمل من فى البيت واحبهن الى قلبه ، وزاد البك الصغير بعد ذلك فبدأ يجذبها من يدها اليه ويعبث بصدرها ٠ وحارت سميحة حيال هذه المداعبات التى كانت تبعث بالدم الحار الى كيانها كله ٠ لقد كان أبوها السنى المتزمت يحول بينها وبين الرجال، فلم يسبق لها ان سمعت هذه الالفاظ المعسولة ولا دغدغت جسدها هذه المداعبات والملاطفات وهى فى أبان ثورة جسدها ، ولم يكن معها مايحميها سوى غريزة الحياء والخوف ٠ ولقد استطاعت هاتان الغريزتان ان تحمياها الى وقت ما ، ولكن كان من الواضح انهما لن تحمياها الى الأبد ، فقد كانت مغازلات البك الصغير هى النسمة الوحيدة التى تنعشها فى هذا البيت الذى لم تكن تلقى فيه غير الضنى والعنت ، فاستسلمت فى نهاية الأمر لمداعبات البك الصغير وأحبته من أجلها ، وسرعان ما تحولت المداعبات العابرة الى عناق طويل وقبل حارة ملتهبة ، وطالبها البك الصغير بالمزيد ، فعادت من جديد غريزة الحياء والخوف لنجدتها ولكن البك الصغير سرعان ما استطاع أن يقضى على هذه الوساوس والمخاوف عندما حدثها عن زواجه منها ٠ وتشككت سميحة فى ان ترضى الهانم الكبيرة من تزويج ابنها من فتاة فقيرة ، ولكن البك الصغير ذكرها بأنها قريبته من دمه ولحمه ، وانه فى نهاية الأمر ليس قاصرا ولا هو صغير ٠ وهكذا ضعفت سميحة فصدقت واستسلمت ووهبته كل شىء ، حتى لقد أصبحت شبه زوجة غير رسمية له ٠

وتوقفت أزهار عن المضى فى قصتها وقد اعتصرها ألم الذكرى ، كما لو كان الحادث قد وقع بالأمس القريب ٠ بينما كان فؤاد عند هذا القدر من القصة بدأ ينتفض من الغضب ، وحدثته نفسه أن يركلها بقدمه فى بطنها وأن ينهال عليها ضربا ، ولكنه تمالك نفسه وسيطر على أعصابه ، وعندما نظرت اليه أزهار وقد تملكها الرعب خوفا منه ، أشار لها برأسه قائلا :

ـ أكملى .

وغضت أزهار من رأسها ذلا وانكسارا ومضت تسرد قصتها :

وجاءت اللحظة التى حدثت فيها البك الصغير عن الاعراض التى بدأت تلم بها من ميل الى القيء ورغبة فى النوم .... وامتقع وجـه البك الصغير وظهر عليه الاضطراب ، وطلب منها ان تتوجـه لزيارة والدتها وان تمكث عندها ولاتعود الى البيت حتى يحضر هو ووالداه لخطبتها رسميا . وصدقت المسكينة فنفذت الخطة كما رسمها لها .

١٠

قصت سميحة على امها ما وقع لها مع البك الصغير وكيف طلب منها أن تعود لها ريثما يأتى مع والديه لخطبتها ، وادركت الأم على فرط بساطتها هول الكارثة التى ألمت بابنتها دون أن تعرف ، فراحت تشد شعرها وتلطم خديها ، وتندد بنفسها ان ساقت ابنتها الى النار بيدها ، وعجبت سميحة لأمها كيف تسيء الظن هكذا بالبك الصغير الذى يحبها وهو احرص الناس على شرفها بآعتبارها قريبته ، وأكدت لأمها أنه لايمكن أن يكون كذب عليها ، فالناس الطيبون الكبار لايمكن أن يكذبوا.ومرت الأيام دون أن يظهر البك الكبير أو الصغير أو الست الهانم ، حتى لكأنهم نسوها ولم يعرفوها فى يوم من الأيام .

وعندما وصلت أزهار الى هذا الحد من قصتها لم تتمالك نفسها من ان تغطى وجهها بيديها فزعا من هول الذكرى وهى تتذكر ماحدث لهما هى وأمها عندما توجهتا الى بيت البك الكبير ليفضيا اليه فى نهاية الأمر بما حدث ، لقد انقضت عليهما الست الهانم كما لو كانت وحشـــا كاسرا وراحت تضربهما وتركلهما بقدميها ولو لاتدخل البك الكبـــير بحنانه وعطفه كما كان يقول ، لمزقتهما اربا جزاء لهما على هذه الفرية الشائنة التىيحاولان الصاقها بابنها وضناها وبالتالىتحطيم مستقبله. ولم يسلم البكالكبير منثورتها جزاء له علىادخاله هذه العقربة الىالبيت، وراح البك الكبير يبسمل ويحوقل ويردد قول الرسول الكريم « اتق

شر من أحسنت اليه » صدق رسول الله الذى لايقول الا حقا وصدقا .
وأمر البك الكبير من المرأتين ان يغورا من أمامه بعد ان حذرهما من ان يتلفظا بكلمة واحدة مما قالتاه أمامه ، والا فسيعرضان نفسيهما لبطشه ، فهو رغم شدة حلمه لايستطيع ان يسكت على مثل هذه الفرية . وخرجت المرأتان من بيت البك الكبير وهما لاتكادا تصدقان انهما نجيتا من القتل والسجن .

وصاح فؤاد وهو فى شدة الحنق والغضب :

— كان يجب أن تلجأى للبوليس فيضطره وأنفه راغم الى الزواج منك ، ما كان باستطاعة والده أن يفعل شيئا ، ان فى البلد قانون ونيابة ومحاكم . ان أمثال هذه الحالات تعرض لنا كثيرا فى القسم ، ولا ندع الجانى الا بعد أن نحضر المأذون ونزوجه على ضحيته ، ولا مانع أن يطلقها بعد ذلك ، والسجن جزاء من يرفض اصلاح غلطته.

ونشجت أزهار بالبكاء وقالت :

— فليرحم الله أبى ، لقد جعل منا نسوة جاهلات عاجزات ، لانعرف شيئا مما يجرى فى الدنيا .

وقرض فؤاد على أنيابه ، وطلب منها ان تمضى فى قصتها .

واستأنفت أزهار قصتها وهى تنشج بالبكاء فقالت انها أصيبت بعد ذلك بنزيف كاد يودى بها وهم يحاولون اجهاضها ، واجريت لها عملية جراحية انقذتها ، وان كان الطبيب الذى أجراها انذرها ان لن يكون باستطاعتها بعد ذلك ان تنجب اطفالا . وشفيت أزهار من جديد واستردت صحتها لتكتشف ان أمها قد باعت فى محنتها كل ما كان يصلح للبيع عندهم ، وكانت المحنة قد جعلت من سميحة انسانة جديدة تخالف سميحة القديمة ، لقد ادركت فى محنتها ما كان يمكن أن تتعلمه فى سنوات واجيال ، من انطواء نفوس البشر على استعداد للخسة والدناءة الى غير حد مع الانسان الضعيف . ولم تتردد هذه المرة فى معرفة طريقها والحصول على رزقها وما يكفى لتسليح اخويها بالعلم حتى لايتعرضا لمثل نكبتها ، ستشتغل راقصة

وستتاجر فى جسدها اذا لزم الأمر ، والويل للرجال من نقمتهـــا سوف تنتقم منهم جميعا ليكفروا عما فعله معها البك الكبير والصغير ان كان ثمة مجال للتكفير • ولم تجد سميحة صعوبة لشق طريقهـــا فى دنيا الرقص ، اذ لم تكد ام على الدلالة تأخذها الى عيوشة العالمة ، حتى قدرت على الفور مواهبها وقدرتها على سلب عقـــول الرجال • واطلقت عليها عيوشة اسم أزهار بدلا من سميحة ، وان ظلت أمهـــا وأخواها لايعرفونها آلا باسم سميحة • وان هو الا بعض الوقت حتى اكتشفها أحد المشتغلين فى كازينو شهرزاد ، فألحقها بالكازينو بعد أن دفعت له أزهار الثمن فأصبحت رفيقة له • ولم تكن تتأخر عن دفع الثمن كلما طلب منها مادام يوفر لهـــا مالا ، أو يحقق لها رجاء • وأدركت أزهار ان مضاجع النوم توفر لها من المال أكثر مما يوفره لها الرقص ، فأصبحت تتاجر بجسدها بأكثر مما تتكسب بفنها • ولكن عندما كبرت فاطمة وشب حسن بدأت تخجل من ان تكون حياتهـــا على هذا الاسلوب ، ففكرت ان تغير من نظام حياتها ، فالتمست هـذه الوظيفة التى يعرفها عند ميخالى حيث ظنت ان عملها لن يتجـــاوز محاسبة الزبائن والجلوس على الكيس ، ولكنها لم تلبث ان اكتشفت انها كانت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد كانت فتنة جسـدها عارمة ، وكان رواد البار عندما يسكرون لايجدون مايغذى خيالهم أكثر من النظر الى جسدها ، وكانت العروض تترى عليها فى كل ليلة عقب الانتهاء من عملها لتصحب واحدا من السكارى ، وحاولت فى بادىء الأمر ان تقاوم هذه العروض كما عاهدت نفسها ، ولكن هذه المقاومة كانت شبه مستحيلة فقد كانت العروض التى تعرض عليها تساوى مرتبها فى نصف شهر وأحيانا فى شهر بأكمله ، ولم يكن باستطاعتها ان تلوذ بالحديث عن الشرف أو الكرامة ، فقد كان ذلك كله مخلفات تركتها فى بيت البك الكبير ، وكانت قد ألفت حياة الدنس ، ولذلك فقد ساءت حالتها فى بار ميخالى عما كانت عليه فى كازينو شهزاد ، ففى هذا الكازينو كانت عليها مسحة الراقصة فى نهـــاية الأمر ،

أما فى بار ميخالى فقد تحولت الى مومس لاينقصها الا الرخصة وكثيرا ما كان يؤرقها عدم حصولها على هذه الرخصة لتجنب نفسها كثيرا من المتاعب ٠

ونظرت أزهار بعينين تفيضان بالرجاء والتوسل وقد اغرورقتا بالدموع الى فؤاد ، واشرقتا بنور الحب ثم وضعت رأسها فى حجره وراحت تتمسح بركبتيه وتقول :

كان ذلك شأنى من الضياع والتخبط الى ان ظهرت أنت ياحبيبى، والتقت عيناى بعينيك لأول مرة فأدركت انك ستكون منقذى ، فقد اهتز كيانى كما لم يهتز من قبل ، وسمعت هاتفا من أعماق نفسى يقول لى ، هذا هو سيدك ومولاك ، واحتضنت أزهار فؤاد بقوة وقالت له :

– فؤاد ياحبيبى اتوسل اليك ، انقذنى من نفسى وقدرى ، انتشلنى من هذا المستنقع الذى أعيش فيه ولاتعدنى اليه ، اجعلنى أعيش لك وحدك من دون الناس أجمعين ٠ وأمسكت أزهار يد فؤاد الذى كان صامتا لايحير جوابا ، وراحت تمطر اليد بالقبلات ، وتتمرغ وتتمسح فيها ٠

لقد استمع فؤاد قصة أزهار الطويلة يحدوه الاستطلاع حينا ويتملكه الشعور بالسخط بل والثورة على عائلة البك الصغير والبك الكبير معا بحيث انهما لو جاءا أمامه فى هذه اللحظة لمزقهما شر ممزق، كما أحس أكثر من مرة بالنقمة على أزهار نفسها ، ولكنها لم تكد تقترب من نهاية قصتها ، وتشرع فى التحدث عن صلته بها وما تعلقه على هذه العلاقة من آمال ، حتى بدأت حماسته تفتر لقصتها ، بل ويداخله الشك فى صحتها ، وبدأ ينظر الى تصرفاتها التى كانت تبدو له غامضة ، على ضوء تصريحاتها ، فوجد هذه التصرفات تهدف الى غاية واحدة وهى جر رجليه الى زواجها ٠ واستعاد صورة استماتتها لتدخله الى بيتها ، وتدعوه لتناول الغداء وتعرفه بأهلها ،

لقد كان ذلك كله خطة مرسومة للايقاع به ، وهذه القصـــة الطويلة العريضة وما انتهت به من توسل اليه وتضرع ، ليست سوى فصل فى هذه المحاولة التعسة ٠

ولم يكد فؤاد يصل الى هذا الحد من تفكيره حتى أحس فجأة كما لو كان قد لدغ ، فوثب من مكانه واقفا منتزعا نفسه منها فى عنف ، حتى لقد آذى بحركته رأســها التى كانت تســتند على ركبتيه ٠ وانزعجت أزهار لهذا الانقلاب المفاجىء ، وازداد انزعاجهـــا عندما نظرت اليـــه فوجـــدت وجهه مكفهرا وسألته فى جزع : ماذا بك ياحبيبى ؟ وتمالك فؤاد نفسه قدر استطاعته ، وقال لها فى جفاف : لاشىء لاشىء ، ولكنى تذكرت فجأة اننى يجب ان أعود الى القســـم وكدت انسى ٠ واسرع فؤاد الى حوض الغسيل متظاهرا بأنه يغسل وجهه استعدادا للخروج ، وقد راح ذهنه يعمـــــل بسرعة ، مقررا التخلص نهائيا من فكرة معاودة الاتصال بهذه المرأة الخطرة ، والتى يبدو أنها قد صممت على اقتناصه ٠ واحست أزهار بغريزتها بمـــا يعتلج فى نفس فؤاد وأدركت مغزاه ، فقد أفزعته فـكرة ان يرتبط معها بعلاقة وثيقة من أى نوع كان قد تصل الى حد الزواج بهـــا ، وأحست انها تهورت فى الحديث معه فما كان يصح لها ان تكشف له عن حقيقة العواطف التى تساورها ٠ ولما كانت شديدة الحرص على عدم اغضابه فقد رأت أن خير ماتفعل فى هذه اللحظة ان تنسحب وتخرج من البيت بأسرع مايمكن ، ولذلك فقد عمدت الى اصـــلاح شأنها استعدادا للخروج ، بينمـــــا بدأت عوامل الثورة تجيش فى نفسها ، ماهؤلاء الرجال ؟ من أى طينة صنعوا ؟ ايكون قلبهـــــا قد أخطأها عندما تصورت فؤاد طيب القلب ؟ أيكون كغيره من الرجال الذين التمسوا المتعة من جسدها وقلوبهم أبعد من ان تتصـــــورها انسانة كبقية البشر لها احساس وشعور وقلب يحب ويكره ؟ ومع ذلك فهى تحبه ، ايا كان حكمه عليها أو قسوته نحوه فهى تحبـــه ٠ وهتفت به تعلنه عن اعتزامها الخروج لأنها يجب ان تمر على بيتهـــا

قبل الذهاب الى الكازينو ، بعد أن اصطنعت أعظم ما تقـــدر عليه من بشاشة فى صوتها حتى لاتجعله يحس انها فهمت شيئا • وتنفس فؤاد الصعداء وهو يسمع منها مايبشر بقرب خروجها ، وكأنه تصور لفرط جزعه منها أنها لن تغــادر البيت ابدا ، واذ كان قد قرر ان يقطع علاقته بها نهائيا فقد اصطنع بدوره البشاشة ، وراح يتظاهر بالاحتجاج عليها لهذه السرعة فى الخـــروج • وعندما عاد فؤاد الى حجرة النوم وهو يمشط فى شعره راعه من جـديد منظرها المحترم بعد ان عادت الى ارتداء معطفها ، ولم تضع كبير مساحيق على وجهها ، وقد عقصت شعرها وراء رأسها ، ولم يعد يرى فى ذلك كله الا مايزيده نفورا منها ، فلم يكن ذلك الا احابيل النصب التى تريد ان توقعه بها، لقد بدا كل شىء يتضح •

واستجمعت أزهار آخر مالديها من قوة ارادة فابتسمت ابتسامة عريضة تنطق بما كانت تحس به من سعادة مترعة ، فقد كان هـــذا ما يجب أن يراها عليها فؤاد فى هذه اللحظة وقالت له :

ـ اشكرك يافؤاد على الوقت السعيد الذى منحتنى اياه فى رفقتك، وستجدنى دائما رهن اشارتك • ومدت اليه يدها مصافحة ، ورد عليها فؤاد قائلا وهو يصافحها : ـ مع السلامة يا أزهار •

وأدارت أزهار له ظهرها وقصدت الباب لتخرج ، وهنـــا تذكر فؤاد أنه لم يعطها أجرها ، وفكر ان هـــذا الأجر يجب ان يكون الآن مضاعفا فقد باتت عنده ، ونظفت له البيت وهى من ناحية أخرى قد أصبحت راقصة ، ولما كان قد قرر نهائيا ان تكون هذه آخر مرة يراها فيها فقد وجب ان يجزل لها العطاء ، وقرر ان ينزل لها عن كل ما معه من نقود وقدره اثنان من الجنيهات عدا ونقدا وليفرجها الله بعد ذلك، انها يجب ان تذكره دائما بالخير هذا اقل ما يجزيهـــا به ، وناداها « أزهار •• » وتوقفت أزهار وعادت فالتفتت اليه تاركة مقبض الباب الذى كانت قد ادارته وسألته بعينيها عما يريده منها ، ورأته يعبث فى جيوبه وأدركت مايقصد اليه وصرخت « فؤاد » وانخلع فؤاد تحت

وطأة هذه الصيحة المكتومة ونظر اليها فى تعجب فهالته نظرتهـــــا الصارمة والتى كانت شيئا جديدا عليه ، ولم يســــتطع ان يقول أو يفعل شيئا فقد احس ان أكبر ما يؤذيها به فى هذه اللحظة ان ينفذ عزمه ، ولذلك فقد اكتفى بهز رأسه وغمغم قائلا « مع السلامة ، مع السلامة» وشاعت البهجة فى وجه أزهار وغمرتها موجة من السعادة ، وقالت له :

شكرا يافؤاد . وخرجت متسللة من الباب فى هــــدوء وأغلقته وراءها ، بينما كان فؤاد يتنفس الصعداء .

الفصل الرابع

١

كانوا سبعة طلاب لايزيدون ، يجلسون فى سفح الهرم فى هذه الليلة ، تتراقص ظلالهم على المدى البعيد على ضوء هذه النـــار التى اشعلوها والتفوا حولها • وكانت السنة النار تتراقص كظـلالهم على على استحياء كأنها تعكس مشاعرهم فى هذه اللحظـــة والتى كانت تتأرجح بين العناد فى نفس البعض والخجل فى نفس البعض الآخر ، واللامبالاة فى نفس واحد منهم أو اثنين • وكان هؤلاء هم اصحابنا فى الجامعة ، فكرى ومحيى وفوزى وخالد ورياض بعد أن انضم اليهم شخص جديد يسمى صبرى عبد الوهاب ، وقد جاء صبرى معه برفيق ليس من الجامعة، جاءوا الى هذا المكان فى هذه الليلة الموحشة ليحتفلوا بعيد الجهاد باسلوب جديد فذ مبتكر •

وشرد ذهن فوزى للحظات والكآبة تغمره فقد تحالف كل شيء على فشل مشروعهم فالظلام كان حالكا والسحب تغطى السماء ، والبرد قارصا ولولا هذه النار المشتعلة التى اقتربوا منها حتى ليكـــادون يجلسون فيها ، لولا هذه النار لتجمدت أطرافهم ، وبدت الاهرامات كما لو كانت مساكن جن ، ومراتع غيلان • ولم يعرف فوزى وهو شارد الذهن ، كيف ومتى نبتت هذه الفكرة ، وما الذى جعلها تخرج من عالم الأفكار الى حيز التنفيذ •

لقد جرت عادة الاحزاب ان تحتفل بذكرى عيد الجهـــاد القومى بطريقة فجة تمسخ جلال هذا اليوم ، وتنطق بالتدهور السياسى الذى تردت فيه البلاد • كان حزب الأغلبية يجتمع فى الصـــباح على ضريح

سعد ، فينثر الزهور ويقرأ الفاتحة ، ثم يلقى رئيس الحزب خطـــابا مليئا بالطعن والتجريح فى بقية الأحزاب الأخرى بحكم اعتدائهـا على الدستور واغتصابها الحكم ، وأحيانا يؤجل القاء هذا الخطاب الى المساء حيث يقام سرادق ضخم تحتشد فيه الوف الجماهير • وكانت الأحزاب الأخرى وخاصة اذا كانت فى الحكم تعقـــد بدورها اجتماعات تكيل فيها الصاع صاعين لحزب الأغلبية ، واصـــفة اياه بأنه حزب الرعاع والغوغاء من أبناء الشعب ، ومختصة نفسها بتمثيل المصالح الحقيقية فى البلاد.وتمرد أصحابنا على هذا الوضع وتساءلوا، ألم يحن الوقت لتستعيد هذه الذكرى جلالها وقد كانت الشرارة التى لم تلهب مصر وحدها ، بل كل الشرق البعيد والقريب ؟ أو لم يشهد بذلك زعيم الهنـــد القديس مهـــاتما غاندى ؟ أولم يقل أكثر من مرة أن ثورة مصر فى عام ١٩١٩ كانت هى التى شجعت الهند على ان تبدأ حركتها التحررية الكبرى ؟ وتعاقبت حركات التحرر فى تركيا وفى شمال افريقيا وفى سوريا ، وكانت ثورة مصر هى المشعل ، ولا عجب فى ذلك فقـــد ضربت للجميع المثل فى استطاعة شعب اعزل ان يقـــاوم اعظم قوة عسكرية فى العالم ، وهى قوة انجلترا بعد الحرب العـــالمية الأولى ، وان لايكون للشعب من سلاح الا قدرته على ان يموت ابناؤه فلا يجعله ذلك يزيد الا اصرارا على المطالبة بحقه ، وان يقف صفا واحدا خلف رجل واحد ، فلا يثنيه الوعيد أو تساقط الشهداء ، وتتحول صيحته الى « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » وتخيل العالم ان ذلك كلـــه لاجدوى له امام الحديد والنار ، فاذا به يفاجأ بانجـلترا تنثنى أمام ارادة الشعب الاعزل ، فتلغى الاحكام العرفية ، بل وتلغى الحمـــاية غداة اعتراف دول العـــالم بها ، وتعلن اســـتقلال مصر على رؤوس الاشهاد • وهكذا أصبحت دولة ذات سيادة لها ملك ودستور وبرلمان ووزارة خارجية تشرف على سياستها الخارجية •

ووجدت الشعوب المهيضة الجناح المغلوبة على أمرها ، فرصتها فى هذا النموذج الحى على انتصار ارادة الشعوب ، فاســـتيقظ الشرق ،

واستيقظت كل الشعوب المستضعفة • أيبدد رجال الأحزاب هـــذه الصفحات المشرقة ويتخذوا من هذا اليوم ميدانا للتراشـق بالتهم ، مهدرين كل المكاسب التى حصل عليها الشعب بجهاده ؟ لا ان هذا لن يكون ، ولابد من الاحتفال بالعيد القومى على الأقل فى الجامعـــة بأسلوب يتفق وجلال هذه الذكرى ، والدروس التى يجب ان تستمد منها ، ومن هنا كان التفكير بأن يكون الاجتماع حول الهــرم ، فليس سوى الهرم رمز لعظمة مصر ووحدتها وانتصـــــارها ، حيث يمضى الشباب ليلته مابين أناشيد وطنية يرتلها ، وأحاديث عن أمجاد مصر يستعيدها ، ودروس من كفاح الشعوب التى سبقت الشعب المصرى الى الحرية الكاملة للتعلم منها ، ومن سرد لقصص البطولة وكفاح المؤمنين•

واشتغل الجماعة بالترويج للفكرة بين طلاب الجامعة وخاصة كلية الآداب ، وأخذ فوزى ورياض على عاتقيهما بمعاونة خالد أمين ان يقيموا المعسكر فى سفح الهرم الثالث ، وقد حققوا الوعـــد فاقترضوا من مدرستهم القديمة الخديوية خيام الكشافة • واقيم المعسكر بالفعـــل واشعلت النيران ولكن أحدا لم يجىء سوى الداعين • وغربت الشمس وكان صبرى أحد زملائهم فى الكلية وعضو اللجنة التنفيذية للطلبة فى حزب الأغلبية هو الوحيد الذى لبى الدعوة واصطحب معه انسانا آخر، وربما كان الدافع له على الحضور هو ان يخرب مشروعهم ، فلما وجده خرابا اظهر هذا الحماس الذى يظهره من اعجابه بالفكرة •

لقد كانت علامة استفهام كبيرة ترتسم فى أذهان السبعة الحاضرين هل يعتبرون المشروع قد فشل أم نجح ؟ كان صبرى هو أكثر الجميع تحدثا عن أن المشروع قد نجح فقد خرج من كونه مجرد خاطر وفكرة ، الى حقيقة مادية ملموسة، فهاهى النار مشبوبة والخيام منصـــوبة ، والأناشيد تلعلع فى صحراء الهرم، ونشيد اسلمى يامصر يتجاوب بين الاهرامات الثلاثة وتتصاعد اصداؤه الى السماء ، ويقول صـــبرى فى حماسة لقد انتصرت الفـكرة وتحولت الى بذرة ، واذا كانت البداية متواضعة فان أمامها أعواما كثيرة لتنمو فيها وتزداد نموا •

وكان هذا الحديث فى نفسه وصدوره من صبرى المنتمى الى حزب الأغلبية ، هو المظهر الوحيد لنجاح الفكرة كما يقول ، فقد مضى السبعة فى تحقيق البرنامج المرسوم ، ثم آووا الى الخيام وتناوبوا الحراسة فيما بينهم • وعند الفجر اذن خالد أمين بصوته الملائكى لصلاة الفجر فقاموا يصلون خلفه فقد استحق بورعه أن يكون أمامهم • واشرقت الأرض بنور ربها وهم وقوف يصلون ، وانتشى الكون من حولهم ، والشمس تتسلل مضيئة كل شىء وباعثة الحياة فى كل شىء • وأحس اصحابنا لأول مرة بالسعادة والنشوة ، واختفى من نفوسهم كل هذه الأحاديث التافهة عن النجاح والفشل ، فالطبيعة لاتعرف نجاحا ولا فشــلا •

وعندما عادوا الى الجامعة وسمع الطلاب تفاصيل ماجرى ، حزن الكثيرون ان لم يكونوا معهم ، وتواعدوا على عيد الجهــاد القادم ان يكونوا فى الطليعة •

ونشرت جريدة الأهرام تفاصيل ما كان عليه احتفــال شباب من الجامعة بعيد الجهاد ، فاستقر خاطر اصحابنا نهائيا ، واعتبروا هذا النشر هو آية النجاح واقبلوا على صبرى يشــكرونه من صميم قلوبهم ، فقد كان هو كاتب هذا الذى نشر ، وقد دل بهذه العمليــة أنه لم يكن يكذبهم فى التعبير عن حماسته ورأوا فيه عضوا جــديدا ينضم الى شــلتهم ، ولكن صــبرى طلب منهم ان يكتموا ذهابه معهم وانه الكاتب لما نشر عن الاحتفــال بتوقيع (احمس) ، فقــد كان غير مستعد للاطاحة برصيده الكبير لدى حزب الاغلبية ، على الأقل فى الوقت الحاضر •

٢

كانت المناقشة على اشدها فى بيت البحر ، عندما توقف محيى فجأة عن الحديث وظلت يده مرفوعة فى الهواء بصــورة تبعث على الضحك وتحول فوزى ببصره الى حيث كان محيى يحملق فى دهشة، ولم يكد ينظر الى حيث نظر صاحبه حتى كانت دهشــته لاتقل عن

دهشة زميله، وان افترق عنه فى ان دهشته كانت ممزوجة بموجة دافقة من السعادة فقد كانت آمال هى مصدر هذه الدهشة ، ولم تكن آمال بمفردها ، بل كانت تصطحب معها صديقتها فتحية • واسرع محيى الى حافة الشرفة على رأس السلم وهو يقول :

ــ أهلا وسهلا ، أهلا وسهلا • ماهذه المفاجأة الجميلة ؟ وكانت آمال قد بدأت تصعد السلم فى هذه اللحظة ، وعلى الرغم من الانفعال الذى كان يطغى على فوزى ، فلم يفته ماكان يسود الموقف من تناقض مضحك ، فقد كان محيى يرتدى فى هذه اللحظة جلبابا ملأه الهـــواء فانتفخ حتى أصبح كقلع المركب ، وانحسر عن ساقيه وركبتيه ، بينما كانت آمال تتبخطر فى مشيتها السريعة كما لو كانت غزالا شاردا ، كانت تمثل الاوروبية الحسناء ، والى جوارها فتحية التى تمثل الحشمة والوقار وجمال المصرية الدافئة السمراء •

وقالت آمال بعد أن استقر بها المقام وهدأت العاصفة التى أثارها ظهورها المباغت موجهة الحديث لفوزى : كنت متأكـدة اننى سـأراك هنا مع الأستاذ محيى والاستاذ فكرى فهما يستوليان عليك • وغمز محيى بعينه قائلا : هل افهم من ذلك ان لنا نصيبا ولو ضئيلا فى هذه الزيارة الكريمة ؟ أليست هذه الزيارة كلها من أجل فوزى وحـده ؟ واحتجت آمال قائلة : من فضلك لاتحدثنى عن اختصـــاص فوزى بهذه الزيارة فى الوقت الذى اعتبر نفسى فى حالة خصام معه • وكاد فوزى يصعق من هذا التصريح الخطير ولم يستطع ان يقاوم موجـــة السعادة التى بدأت تطغى عليه مذ ظهـرت آمال فى الأفق ، وأسرع يقول : فى حالة خصام معى أنا ؟ وما الذى جنيته أو أخطأت فيه ؟

وقالت آمال : أومازلت تجهل ماذا فعلت ؟ أولست تقاطع بيتنا تقريبا ، انهم يقولون لى ان احدا لم يعد يراك هناك على الاطـــلاق ، وغمزت بعينها فى دلال ونظرت نحو محيى وقالت : واصبحنا نطالع اخباركم فى الصحف ، مثل بقية الشعب •

وشاع السرور على وجه الجماعة كلها ، واقبل عليها فكرى يتساءل

فى لهفة : احقا طالعت نبأ اجتماعنا عند الهرم للاحتفال بعيد الجهاد ؟ فقالت آمال : طبعا طالعته وهذا هو سبب حضورى اليوم لأحتج باسم الجنس اللطيف على عدم اشراككم اياه فى هذا الاجتماع. وسألها محيى فى ابتهاج: أكنت تحضرين لو دعوناك؟ وأجابت آمال بالانجليزية «بكل تأكيد كنت احضر ،وما هو موضع العجب فى هذا ألست مصرية ولى شعور كشعوركم ؟ لقد عتبت على رياض عندما راح يقص على تفاصيل هـذه السهرة الجميلة ، وقد ادركت على الفور السر فى قـــلة الذين لبوا الدعوة ، فلو ان الطلاب عرفوا ان سيكون هناك طالبات أو فتيات من أى نوع كان لأقبلوا على الاجتمــاع ، وفى رأيى ان ذلك هو السر فى فشل كل المشروعات الاجتماعية التى تقوم فى هذه البلاد لعــــدم اشتراك المرأة فيها • ان الحياة لايمكن ان تقوم الا على الرجل والمرأة معا ، وكل نشاط اجتماعى لايقوم على العنصرين لايمكن الا أن يكون نشاطا كسيحا • وصفق الحاضرون لهذه الخطبة الرائعـــــة ، وقال فكرى : ليتك تأتين الى الجامعة لتلقى على طالباتها هذه الخطبــــة ، تصورى يا آمال هانم •• وقاطعته آمال محتجة : ارجوك ان تعفينى من كلمة هانم هذه والتى تذكرنى بالحريم ، واننى أعيش فى دنيـا الجوارى ، نادونى بآمال وسأناديكم باســـمائكم المجردة • وأسرع فكرى فاستجاب لها ، ومضى فى حديثه قائلا : تصورى يا آمال ان طالبات كلية الآداب العشر قد خلقن جو الحريم الذى تتحدثين عنــه فأصبحن يجلسن بمعزل عنا فى قاعة المحاضرات ومحال علينـــا ان نقترب من الصف الأول المخصص لهن ، ولاتكاد المحاضرة تنتهى حتى يسرعن الى حجرتهن الخاصة التى لايجوز الاقتراب منها ، فقاطعـــه محيى قائلا : ولكنى اقتحمتها عليهن بمناسبة الانتخابات ، فقـــال فكرى : ومن أجل ذلك سقط فى الانتخابات فلم تعطه أى واحدة منهن صوتها • فقال محيى : بل اخبرتنى مشيرة انها اعطتنى صوتها • ولم يساهم فوزى فى هذا النقاش فقد كان لايزال مأخوذا بهذه القــدرة على التعبير والآراء الناضجة التى قالت بها آمال •

وقال محيى : ان هذا يوم سعيد جدا فى حياتى ، ولكنى متأكد ان فوزى يعتبره أسعد أيام حياته على الاطلاق ، ونظر صـــوب فوزى متسائلا فى ابتسام ، بينما قطعت عليه آمال محاولته لمداعبة فوزى وقالت له : لماذا تحشر نفسك فى عواطف فوزى الا يستطيع هو ان يتكلم عن نفسه ؟ اظن أنه من الخير ان تذهب لمعاونة فكرى المسكين فى اعداد الشاى ، وقال محيى ضاحكا : ألى هـــذا الحد أصبحت تعتبريننى عذولا غير مرغوب فى وجوده ، سمعا وطاعـــة يا آمال سأخلى لك الجو • وخرج محيى ضاحكا ، بينما كانت آمال تصيح فى وجهه بالانجليزية انه « ولد شقى » • ولم يكـــد محيى يخرج حتى التفتت صوب فوزى وسألته عن حكايته ، ولماذا لم يعد يذهب لزيارة أصحابه فى العباسية ، منذ ذلك اليوم الذى قص عليهم فيه حكاية الأعمى الحرامى • وأبدى فوزى اعتراضه على آمال فهى نفسها لاتقيم فى البيت لتعرف اذا كان يذهب أو لايذهب • فقالت له آمال انهـا أصبحت تذهب بانتظام مساء كل خميس وتبيت بالبيت ولاتغـادره الا بعد ظهر الجمعة لتتوجه الى احدى دور السينما • وانفتح قلب فوزى من جديد لآمال كأقوى ما كان فى أى وقت مضى ، بعد ان لم يبق لديه شك فى انها جاءت هذا اليوم خصيصا لتدعوه لزيارتهـــا ، وهاهى ذى قد اعلنته بمواعيدها فى بيت العباسية •

ولم يكد يفرغ من الاتفاق معها على زيارتهم فى البيت يوم الجمعة التالى ، حتى جاء فكرى يحمل صينية الشاى ومحيى فى أعقابه يحمل بعض مالم تتسع له الصينية وقال محيى معابثا : انا آسف جـــدا يا آمال اذا كنت قد عدت بسرعة وقطعت الحديث الذى لايصح للعواذل ان يسمعوه ، فقد أصر فكرى على احضار الشاى قبل ان يبرد•وضربته آمال على صدره فى خفة ورشاقة ، ورددت عبارتها التى قالتهـــا من قبل ، من أنه « ولد شقى » ثم هتفت قائلة « آه منك انت » •

٣

كان يوم الجمعة التالى بدء صفحة جديدة فى العلاقات بين فوزى وآمال فقد ظفر منها بوعد ان تذهب معه الى السنما فى مســاء ذلك اليوم • ووقف فوزى على ناصية شارع فؤاد وابراهيم باشا ، الى جوار محل شيكوريل • واذ كان هذا أول موعد غرام فى حياة فوزى وأول مرة يصطحب فيها فتاة الى السنما ، فقد كان قلقا مضطربا لايعرف كيف يتصرف ، وما الذى يليق به ان يفعله وما لايليق • على ان الذى كان يشغله فى هذه اللحظـــة بقوة ، هو ما اذا كانت آمال ستبر بوعدها بالفعل ، أم انها ستخلف الموعد لأى سبب من الأســباب ؟ وما كاد هذا الخـــاطر يدور فى نفسه ، حتى امتقع وجهـه وأسرعت ضربات قلبه ، فلو حدث هذا لكانت هــذه ضربة من أقسى الضربات التى تعرض لها فى حياته • وابعد هذا الخاطر المخيف عن ذهنه وراح يتشاغل بالتفرج على واجهات المحال التجارية المحيطــة به • كانت احدى الفترينات تغص بالحلى والمجوهرات ، وتنهد فوزى فى حسرة لأول مرة وقد أحس بفقره وضايقه هذا الفقر ، فآه لو انه كان غنيا ، اذن لاشترى لآمال احدى هذه الحلى الثمينة ، وامتدت اصابع فوزى بحركة لاشعورية يتحسس هذه الخمسين قرشا التى دبرها على سبيل القرض والاستدانة ، ليقوم بنفقات هذه الدعوة أو بالاحرى المغامرة• ومر غلام يبيع زهر الياسمين على صورة عقود ،وهم فوزى ان يستوقف الغلام ويشترى منه بعض هذه العقود التى لاتكلف كثــيرا ، ولكن شجاعته لم تلبث ان خانته ، فما كانت علاقته بآمال تسمح له بأن يقدم لها عقودا من الياسمين ان مثل هذه الحركة تفضح مافى نفسه، وهو لايزال غير متأكد من حقيقة مشاعرها نحوه وهل وصـــلت الى الحد الذى يسمح بتقديم الزهور اليها على شكل عقود • على ان فوزى لم يلبث ان اعترف لنفسه ، ان مايحول بينه وبين شراء هذه العقــود هو موقفه الذى سيبدو مضحكا وهو يقف حاملا هذه العقود فى يده ، كأنه يعلن عن نفسه انه فى انتظار حبيبته •

ودلت عقارب الساعة على أنه لم يبق على الموعد المحدد سوى عشر دقائق • وتوترت حواس فوزى كلها فى عنف ، فقد حانت الساعة ولابد انها ستظهر الآن لو كانت تنوى الحضور • وتذكر فوزى انه اطال الوقفة فى مكانه هذا ، وانه لابد قد لفت اليه الانظار . وحانت منه التفاتة فوجد عسكرى البوليس يدير بصره فى الاتجاه المضاد لوقفته، فدب الشك فى نفس فوزى ان العسكرى كان ينظر اليه ، وتحرك مبتعدا عن المكان الذى كان يقف فيه • ولكنه لم يلبث ان سخر من هذه الفكرة ، فهو لم يرتكب جريمة ليخاف من البوليس، وهو لايستطيع ان يبتعد عن هذا المكان الذى وعدته آمال ان تقابله عنده ولذلك فقد عاد الى ذات البقعة التى كان يقف فيها منذ أكثر من نصف ساعة •

وبدأ القلق المؤلم ينهش نفسه عندما دلته عقارب الساعة التى اعتاد أن ينظر اليها فى احد المحلات المجاورة ان لم يبق على الموعد سوى خمس دقائق فقط • وأحس بالقنوط واليأس القاتل ، فلو أنها كانت ستجىء اذن لجاءت •

ودقت ساعة البريد مؤذنة بأنها السادسة ، ودارت رأس فوزى وغامت الدنيا فى عينيه وأسرع ليستند الى الجدار خوفا من أن يقع على الأرض ، واذا به يفاجأ بآمال تقف امامه فى ابتسامة وضيئة ، وتقول له بالانجليزية : أسفة لجعلك تنتظر ، لقد عطلتنى المواصلات • ولم يكن باستطاعة فوزى ان يقول شيئا فقد كانت ساعة البريد لاتزال تدق ، وكان مذهولا لايعرف كيف جاءت ومن أين جاءت وقد كان يرقب كل شبر فى الطريق ، على ان السعادة الغامرة التى كانت تسيطر عليه فى هذه اللحظة لم تدع له مجالا للتفكير فى شىء فهاهى امامه فى نهاية الأمر ، جاءت تلبى دعوته وسيذهب معها الآن الى السنما • كان ذلك كله فوق احتماله وراح يرتجف من الداخل وهو ينظر اليها • لقد كانت فى ابهى حلة وزينة كما لم يرها فى مرة سابقة ، فقد كحلت عينيها لأول مرة فزادت عينيها الزرقاوين سحرا ، وكان وجهها يطفح بالبشر والحيوية ،

وكانت ترتدى معطفا من الصوف ينتهى حول رقبتها بنطاق من الفرو، وكانت تحمل فى يدها حقيبة بلون الفرو وكذلك كان لون حذائها ٠ ومرة أخرى لم ير فوزى فى آمال الا واحدة من هاته الممثلات الاوربيات الرشيقات اللواتى كان يطرب لرؤيتهن فى السنما ويأخذ بلبه نوع ملابسهن ٠

وكانت آمال هى البادئة بالحديث ، فسألته عن السـنما التى سيذهب بها اليها ، فأسرع يقول لها بعد ان تأبط ذراعها وسار الى جوارها : سنذهب الى سنما جومون٠وبينما كانت آمال تبدى اعجابها بهذا الاختيار الموفق ، كان فوزى فى دهشة من أمره كيف واتتـه الجرأة ان يتأبط ذراعها هكذا ، وكان يسعده انها لم تعترض وهاهو يحس بدفء الذراع يسرى الى كل جسده فيغمره بأحاسيس لذيذة ٠ وتنبه لآمال وهى تقول له ، « ما أكثر ما نويت دخول هذه السنما مذ عدت من انجلترا ، ولكنى لأمر ما لم احقق هذه الأمنيـة ، وها أنت يافوزى تحققها لى فشكرا ، ثم اردفت تقول : اظن ان فيها رواية جريتا جاربو الجديدة ، انا كارنينا ؟ لقد طالعت فى انجلترا هـذه الرواية التى يعتبرونها درة روايات تولسـتوى ، وكم تمنيت ان أراها فى السنما وهاهو القدر يحقق لى أمنيتى على يدك يافوزى ٠ واذهل فوزى هذا الطوفان من الملاطفة واظهار التقدير لما فعل ولم يكن يعرف ماذا يقول ، فاكتفى بالغمغمة ، وانحرفا فى شارع عمـاد الدين وبدأت المرحلة الأخيرة نحو السنما التى كانت تقع فى عمارات الخـديو ٠ واذ كانت هذه المنطقة خالية من المقاهى ويسودها ظلام نسبى ، فقد التصق فوزى بآمال أكثر من ذى قبل ، ثم توقف تماما عن السير وقال لها : انا سعيد جدا يا آمال لأنك جئت ولأنك الآن معى ٠ فردت عليه آمال بأن سعادتها لاتقل عن سعادته ٠ ووصلا الى السـنما وشرعا يهبطان الدرج المؤدى الى صالتها التى تقع اسفل الشارع ، وانعكست صورتاهما فى المرآة الضخمة التى تزين مدخل السنما وتضفى عليه جلالا وبهاء غير عاديين ، وتصور فوزى وهو يهبط الدرج متأبطا ذراع

آمال ووجهاهما يتألقان بالبشر ، انهما عروسان قريبا عهد بزفافهما.
وعندما جلسا فى مقعديهما وساد الظلام وبدأ العرض ، ظل فوزى صامتا لاينبس ببنت شفة فقد كان الموقف جديدا عليه ، وأقوى من استعداده وتهيئه ، ولكنه احس ان الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لآمال، فقد راحت تعلق على الحوادث المصورة والتى كانت تعرض امامهما ، وعندما ظهر مشهد للعب الكرة فى انجلترا ، هتفت فى سرور باسم الملعب على الفور ، وانحنت على فوزى وأسرت له أنها طالما شاهدت مباريات الكرة فى انجلترا ، فالانجليز مجنونون بحبها ولايمكن لمن يعيش بين ظهرانيهم الا ان يشاطرهم هذا الشعور .
وسألها فوزى فى لهفة : هل كنت تذهبين بمفردك ؟ وحدقت آمال فى وجه فوزى وقد رآها وهى تفعل ذلك على ضوء الأشعة المنبعثة من آلة العرض ، وترددت بعض الشىء ، ثم لم تلبث أن ضحكت وقالت : كنت أذهب مع صاحبتى فتحية . وكان المشهد قد تغير وبدىء فى عرض للأزياء وهتفت آمال احدى صيحاتها بالانجليزية « ما أجمل هذا ! ، ووضعت يدها على يد فوزى الذى ارتجف تحت تأثير يدها الناعمة ، وسرت فى جسده هزة من السرور والنشوة بهذه الحركة ، على ان آمال لم تلبث ان رفعت يدها دون ان يبدو عليها شعور غير عادى .

وانتهى عرض الجريدة وأضيئت الأنوار ونظر فوزى الى آمال فوجد وجهها يطفح بالبشر ، وقال لها : يظهر انك استمتعت برؤية الأزياء ؟ فأجابته أنها تحب اللبس وارتداء أجمل الأزياء ، وهوايتها هى الخياطة والتفصيل ، وهى تفصل بنفسها كل الملابس التى ترتديها . وتنهدت آمال دون أن يدرك فوزى المقصود بهذه التنهيدة. واطفئت الأنوار من جديد للشروع فى عرض الفيلم . ولم تكد حوادث الرواية تترى ، حتى أدرك فوزى أنه كان موفقا كل التوفيق فى اختيار الفيلم ، فقد كانت الرواية كلها حديثا عن الحب والغرام العنيفين ، عندما تتغلب عاطفة الحب على كل اعتبار ، وكيف يضرب

المتحابان عرض الحائط بكل مايقال عنهما من انتقادات أو مطاعن ، أو ما قد تسببه علاقتهما لبعضهما من كوارث ، ويتقبلان بصدر رحب كل مايلاقيانه فى هذا السبيل • ووصلت جريتا جاربو فى عظمتها التمثيلية الى الحد الذى انتزعت فيه فوزى من آمال فكـــاد ينسى فى بعض اللحظات انها بجواره ، ولولا أن كتفها ما انفك يلامس كتفـــه من حين لآخر ، وأنها مالت عليه أكثر من مرة فلامس شعرها وجهـه فشم عبير عطرها وسرت النشوة فى جسمه ، لولا هذه الحركات من حين لآخر ، وهذه الملامسات ، لاستولت عليه جريتا جاربو استيلاء كاملا وأنسته كل شىء فى الوجود الا تتبعها والعيش معها فى قصة تولستوى الخالدة • وعندما اقتربت الرواية من نهايتها المفجعـة لم يستطع فوزى الذى اندمج فى القصـــــة اندماجا كاملا ان لايبكى فى حرارة ، وقدمت له آمال منديلها الرقيق الصغير لمسح دموعه ، ورضى فوزى عن هذه الحركة وان اخجلتـــه بعض الشىء ، وأسرع فأخرج منديله وراح يجفف به دموعه التى كانت تســـيل مدرارا • وعندما قذفت أنا كارنينا بنفسها تحت عجلات القطـــار وهى تطلب من الله المغفرة ، تحول بكاء فوزى الى نشيج ، على انه من حسن الحظ لم يكن الوحيد بين المشاهدين • وانتهى العرض وأضيئت الأنوار ، ونظرت آمال لفوزى ضاحكة وقالت : هل انت من هذا الطراز ؟ وكأنما أحست أنها آلمته بهذه الكلمة العابرة فأسرعت تخفف من وقعها قائلة : لقـد بكيت أنا نفسى عندما طالعتها لأول مرة •

وبدأت آمال تشكره بعد أن خرجا من دار السنما على هذه الليلة الجميلة ، وسألها فوزى وقد شجعته بلهجتها : هل اطمع فى تكرار الدعوة فى المستقبل ؟ فقالت آمال على الفور : طبعا يافوزى شريطة أن يكون الدور على فى المرة القـــادمة لأكون الداعية • واهتز فوزى من فرط السعادة ولكنه لم يلبث ان صـــــدم عندما استأذنته آمال فى الانصراف لتعود الى المدرسة • وسألها فى دهشة « ألن تسمحى لى بتوصيلك الى المدرسة ؟ وهزت آمال رأسها بحركة نافية ، وقالت له

وقد غضت من صوتها : أفضل ان أعود بمفردى • وأحس فوزى بمجرد تلفظها بهذه العبارة واللهجة التى نطقتها بها ، أن علاقتهما أصبح يشوبها مايريب ، وامتلأ شعورا بالذنب ، فاحمر وجهه من الخجل واطرق رأسه فى حياء ، وأحست آمال على الفور بالتبدل الذى طرأ عليه وما اعتراه من ارتباك ، فبادرت تقول له : أخشى أن تكون اسأت فهم قولى من رغبتى فى العودة بمفردى الى المدرسة ، ولذلك فأرجوك أن تنساه ! وان تتكرم بتوصيلى اليها•ورد عليها فوزى قائلا : بالعكس يا آمال لقد فتحت عينى على شىء كان يجب على ان أقدره ، ان ماقلته هو عين الحكمة والصواب ويجب ان تعودى بمفردك الى المدرسة ، وشكرا لك •

وأحست آمال لأول مرة فى ليلتها بخيبة الأمل وفوزى يخاطبها بهذا البرود والتعقل،فعاتبته على أنه أصبح يكلمها بتحفظ من وراء قلبه وأنه قد غضب عليها، فنفى فوزى ذلك وقد بدأ من جديد يتأثر بملاطفتها له واهتمامها بارضائه ، فطلبت منه بالانجليزية التى أصبحت تحس أنها أقوى أسلحتها فى التأثير عليه ، ان يبتهج وأن يبتسم فهى لايمكن أن تتركه عابسا،وابتسم فوزى ولم تلبث البسمة ان تحولت الى ضحكة، فقالت آمال بالانجليزية «هذا احسن» ومالت برأسها عليه وهى تصافحه لتتهيأ لركوب الترام الذى كان يقترب وقالت له: سأراك قريبا جدا • وشيعها فوزى بناظريه والترام يبتعد عنه ، ولم يكد الترام يختفى ويرى فوزى نفسه وحيدا حتى بدأت هواجسه تضطرب فى نفسه بعنف حول مغزى قولها له أنها تؤثر ان تعود الى المدرسة بمفردها ، فقد ذكره ذلك لأول مرة بالحقيقة السافرة وهى أنه أقدم على عمل فى الخفاء ، انه لم يقل لصاحبه رياض انه سيخرج مع اخته الى السنما بل على العكس من ذلك لقد تملص منه عندما حاول ان يتفقا للذهاب معا الى احدى السنمات ، وبدأ فوزى يشتد على نفسه ، أليس فيما أقدم عليه اخلال بالثقة التى وضعت فيه من عائلة رياض، وتصدى يدافع عن نفسه ، ان آمال ليست فتاة عادية ، أولم تقم فى

انجلترا خمس سنوات كانت تخرج فيها مع عشرات الشبان ، أو لم تذهب الى بيت محيى فى الجيزة لتزوره ، لا أنه لم يرتكب أمرا أدا ٠ وعادت عبارتها تلح عليه ، واللهجة التى قالتها بها والتى كانت أمعن فى الدلالة على أنه قد أصبح بينهما سر يجب اخفـــاؤه عن الآخرين ، تضغط على ضميره وتوقره ، لا انه ليس سعيدا ٠

٤

انقضى قرابة شهرين أو يزيد مذ كانت هذه المقابلة التى تمت بين فؤاد وأزهار والتى انتوى على أثرها بصورة قاطعة ، ان لايقابلهـا ٠ وكان انقضاء هذه الفترة الطويلة دون أن يسعى للقائها بالفعـــل ، حقيقا بأن يجعله راضيا عن نفســه وعن قوة ارادته ، ولكن فؤاد لم يستطع طوال هذه المدة أن يدعى هذه الدعوة بينه وبين نفسه ، فقـد كان حنينه الى جسدها يطغى عليه من حين لآخر ، ولم يرده عن مقابلتها الا استغراقه استغراقا تاما فى عملية الانتخابات ، والتى اضطرته فى أكثر الاحيان الى مواصلة العمل بالليل والنهـــار ، والمبيت أحيانا بالقسم ، فلقد كان محل ثقة المأمور ، وقد اظهر من الهمة والتفـانى فى العمل ماجعله أهلا لأن يوصى عليـــه جناب المفتش بنـــاء على وساطة المأمور ٠ وتمت عملية الانتخابات ، وانتهت الى نتيجتهــــا المتوقعة فى أى انتخابات تجرى فى حرية ونزاهــة ، وهى فوز حزب الأغلبية بثقة الشعب التى اشبهت ان تكون اجمــاعا ٠ وولى رئيس الحزب الحكومة الجديدة فاجتاحت البلاد موجات عارمة من المظاهرات تعبيرا عن ابتهاج الشعب ، وافتتح البرلمان وسط تفاؤل الشـــعب وأمله فى ان يستقبل عهدا جديدا من الاستقرار وحـــكم الشعب ٠ وكان مما يبشر بالخير ان تسفر المفاوضات القادمة بين الانجـــليز والحكومة عن توقيع المعاهدة المرجوة التى تحقق استقلال مصر فعــلا بعد اذ استقلت نظرا ٠ وانعكس جو الاستقرار والتفـاؤل على رجال البوليس باعتبارهم فى نهاية الأمر جزءا من الشعب وهكذا وجد فؤاد

نفسه فى احدى الأمسيات لأول مرة منذ أمد بعيد فى عطلة كاملة ، وأحس بحاجته للترويح عن نفسه الى أبعد الحدود ، بعـــد ان أمضى الشهرين الماضيين كما لو كان أحد الرهبان أو القديسين • واتجـــه خاطره على الفور الى أزهار والشهرة التى بدأت تحرزها كراقصـــــة مرموقة فى كازينو شهرزاد ، فقد حدثه أكثر من واحد من زملائه فى القسم عن راقصة جديدة اسمها أزهار • وراح البعض يصـــــف له جسدها اللدن وتفانيها فى الرقص بصورة تحمل الجمهور على الهوس، والآن وقد وجد فؤاد شيئا من الفراغ فقد أصبح كل همه ان يطير الى كازينو شهرزاد ليمضى به السهرة مستمتعا برقص أزهار وغيرها من الراقصات •

وعندما دخل الى صالة الكازينو كان جو الصخب والحركة والمرح يسيطر بقوة على كل مافى المكان • وقد انعقدت فى سماء الصـــالة سحابة من دخان السجاير والابخرة • لم يكن السكر قد اســـتبد بعد بجمهور الحاضرين الذين كان السواد الاعظم منهـــم يتألف من الرواد العاديين الذين جاءوا للاستمتاع بالرقص والفكاهة ولازيادة • ولمح فؤاد بين الحاضرين ، بعض الشخصيات التى يعرفها من تجـــار وأعيان ريف ، بل وكان هناك بعض النواب الجدد الذين شـــاهد صورهم فى الصحف والذين وفدوا الى القاهرة بمناسبة قرب افتتاح مجلس النواب • وانتحى فؤاد ناحية من القاعة ، وجلس وحيدا الى احدى الموائد • ولم تلبث الأنوار ان اطفئت وعزفت الموسيقى ، ورفعت الستار أخيرا على مجموعة للراقصات ، وامتقع وجـــه فؤاد عندما لم ير أزهار بينهن ، وخاف ان تكون قد طردت من المكـــان ، أو غادرته لأى سبب من الأسباب •

وتلفت حوله فى ضيق شـــديد ، بينما كان الجمهور يصـــفق للراقصات بعد انتهاء دورهن • واسدلت الستار وعزفت الموســـيقى فاصلا ثم كانت مفاجأة فؤاد الكبرى عندما أعلن المذيع ان المشـــهد الثانى ستؤديه فاتنة الرقص الشرقى النجمة الصاعدة « أزهار » •

وامتلأ فؤاد زهوا وهو يشهد تصـــفيق الجمهور لهـــذا النبـــأ فقد دله ذلك على المكانة التى أحرزتها أزهار ، وصيرورتها احدى نجوم الصالة التى تقدم مشهدا خاصا بها ، كما دلته حفاوة الجمهور على ماتتمتع به من نجاح • ودخلت أزهار تختال فى رقصتها ولكن فؤاد شعر بهبوط فى قواه المعنوية ، عندما وجـــدها ترتدى ثوب الرقص الذى رقصت له به فى البيت ، وظل هذا الهبوط فى قــواه المعنوية يتزايد كلما مضت أزهار فى رقصها والجمهور يحوطهــــا بتأوهاته وصرخاته وتحول الهبوط الى غضب ، عندما راحت أزهار تقوم بحركات الرقص الشرقى العادية والتى لاتعدو ان تكون محـــاولة صـــارخة للاثارة الجنســـية ، فكل أجزاء الجســـد تتحـــرك داعية الذكر الى تأمل مفاتن الجسد العارى ، الأثـــداء التى تهتز وتضـــطرب ، الارداف التى تعلن عن نفسها وتصطخب ، الافخاذ والسيقان والاقدام الحافية • وارتفعت موجة الهياج فى الصالة وارتفع معها حنق فؤاد وهو يرى الجمهور كله يشاركه الاستمتاع بالجسد الذى يعرفه جيدا والذى لم يعد فؤاد يشك فى ان هذا الجمهور جله ، ان لم يكن كله يعرفه معرفته له ، فان هذا الحماس المتدفق لايمـكن ان يكون لمجرد الرقص بقدر ماهو للتذكر ، تذكر هذا الجسم اللـدن الحـــار بين الاحضان ، وآية ذلك هذه التعليقات السمجة التى تترى من حوله ، والتأوهات والصيحات الفاجرة التى ترتفع من كل مكان ، فترد عليها أزهار كلها بالابتسام والرضا ، والامعان فى خلاعتها وايماءتها ذات المعنى المكشوف الفاضح • واظلمت الدنيا فى عينى فؤاد فلم يعـــد يتابع مايجرى على المسرح بعد ان غادرته أزهار ، لم يســـــتمتع مع الجمهور بألعاب الاكروبات التى حبست الانفاس وارهفت الحواس والتى اذهلت الحاضرين لما يمكن ان يقوم به الانسان مما يعـــــد من المعجزات • ولم يعبأ بمجموعة الراقصات التى عادت الى المسرح فملأت الدنيا بهجة وانشراحا ، لقد كان يعيش فى دوامة لم يوقظه منهـــا الا عودة أزهار من جديد الى المسرح ، وقد ارتدت ثوبا يزيد خلاعـــة

عن ثوبها الأول ، وبدت له بغيضة كريهة ، نفس الحـركات المثيرة ، نفس الدعوة الجنسية السافرة ، ولـكن أزهار لم تلبث أن أدخلت عنصرا جديدا على الموقف عندما طلبت من الجمهور ان يصفق لهـا (ماسكا الوحدة) وراح الجمهور يتابع رقصها فى حماسـة وجنون وقد اشركته فى الايقاع لحركاتها ، وناداها البعض باسمها ، ودللها البعض فهتف باسـم الدلع على هواه مابين زيزى وزوزو وزهرة وزهرهر ، وزاد البعض فوصفها بأوصاف فاحشة وكان ذلك كله يزيد فى هياج الجمهور الحيوانى وسعاره · وأصر فؤاد على أسنانه وراح يقول بينه وبين نفسه : انها عاهرة مافى ذلك شك ، لقد أوشكت يوما ما أن تخدعنى هذه المجرمة ، وهى تحدثنى عن ان أحدا من الرجال لم يغشاها مذ عرفتنى ، أمن المعقول ان تسلب عقولهم الى هذا الحـد لو لم تكن أغلبية الحاضرين من عشاقها · ولم يعد فؤاد يقـدر على البقاء فى الصالة بعد ان وصل غضبه وتصوره الى هذا الحد فوقف ليخرج فى الوقت الذى كان المذيع يعلن فيه عن ظهور صاحبة الصالة نفسها كذروة مشاهد الصالة ، وصرخ الجالسون خلف فؤاد يطلبون منه ان يجلس أو يخرج ، فالتفت نحوهم وهم ان ينتهرهم لفرط ما كان يحس به من ضيق ورغبة فى الانفجار ، ولكنه لم يلبث ان تمالك نفسه وقدر ماينطوى عليه عمله من حماقة وما قد يتسبب عنه من فضيحة ، ولذلك فقد آثر ان يجلس من جديد ·

وانتهت استعراضات المسرح مع منتصف الليـل ، وخرج رواد المسرح ، ليبقى رواد الكابريه وهم هذا النفر من السكارى والمعربدين· وأضعفت الأنوار فى الصالة وأضيئت المصابيح الحمراء الخافتة ، وبدأت الراقصات ينسبن من باب جانبى وينتشرن فى الصـالة بين الرواد لاستثمار ماوصلوا اليه من هياج حيوانى · ورنت الضحكات الخليعة ، ودوت أصوات زجاجات الشمبانيا التى تفتح وقرعت الكؤوس وغشيت المكان ريح عاصفة من الغريزة البهيمية، وفؤاد وسط ذلك كله يجلس مسمرا على كرسيه لايعرف ما الذى يبقيه حتىهذه اللحظة مع شدةرغبته

في الانصراف منذ أمد بعيـد ، لقد كان ينتظر ، ينتظر ان يراها وأن يضبطها متلبسة بجرمها المشهود ، وهى تبيع لحمها فى سوق الدلالة. ولم يطل انتظاره طويلا ، فقد ظهـرت أزهار ترتدى ثوبا من أثواب السهرة ، أشد خلاعة من ثوب الرقص العارى نفسه ، فقد كان يلتصق بجسدها التصاقا يجعله اكثر الهابا للحواس ، وكان مفتوحا من الصدر حتى يصل الى مفرق نهديها ، ويكشف عن ذراعيها وما تحت ابطيها . وأسرع عجوز متصـاب بمجرد ظهورها فجرها من يدها جرا لتجلس معه الى مائدته ، وسمع فؤاد الرجل الخليع مصبوغ الشـعر ومبروم الشنب يقول لها : سقت عليك النبى يابسبوسة ياقشـطة .... وارتسمت على وجه أزهار ضحكة عريضة ومضت معه الى المائدة وان كانت ضربته بلطف وخلاعة على يده الممسكة بيدها قائـلة له « أوع ايدك ياولد » . ونهض فؤاد الذى لم يستطع ان يحتمل أكثر ممـا احتمل وقد تملكه الغضب حتى آخر الحدود ، وقصد باب الخروج ، فاستوقفته احدى الراقصات قائلة له : لسة بدرى ياجميل ، على فين ياروح قلبى ؟ وأوشك فؤاد ان يصـفعها لفرط ما كان يحس به من انفعال ، ولكنه استطاع مرة اخرى ان يكبت فكرة الصفع هذه ، وان كانت اعصابه لم تلبث ان أفلتت على صورة اخرى اذ انبعث يضحك ويضحك فى عصبية وصوت مرتفع جعلت كل من فى الصالة يلتفت الى مصدر هذه الضحكة . وكان على رأس الملتفتين أزهار ، ولم يكـد بصرها يقع على فؤاد حتى غامت الدنيا فى عينيها وأحست كما لو كان سيغمى عليها ، على انها تمالكت نفسها بقوة واندفعت فى اتجاه فؤاد هاتفة به بصوت لفت اليها الانظار « فؤاد ؟ » واعترضـت سبيلها الراقصة التى استوقفت فؤاد وقالت لها : ابعدى عنه ياست أزهار ، انه زبونى . ولم يكن ينقص فؤاد الا هذه القارعة حيث يوشـك ان يدور صراع بين المرأتين بسببة لكى ينطلق خارجا من الصالة كمـا لو كان قذيفة . وجرت أزهار لتلحق به ، ولكنها لم تعثر له على أثر كما لو كانت الأرض قد ابتلعته . وصممت على ان تلحق به فى البيت

بأى ثمن من الأثمان ، فقد احست انها تموت اذا لم تفلح فى شرح موقفها لفؤاد وحمله على الرضا عليها ٠

وعندما عادت لترتدى معطفها استوقفتها زميلتها الراقصة ، واحتجت عليها فى غضب ان أطارت من يديهما معا الزبون فلم تنتفع به لا هذه ولا تلك ٠ وردت عليها أزهار وقد بدا الشر فى عينيها بصورة لاعهد لزميلتها بها من قبل : حذار من أن تقتربى منه أو تكلميه اذا رأيته هنا مرة أخرى ٠ ومضت أزهار الى حجرة الملابس فلم تسمع رد زميلتها على هذا التحدى ، فقد كانت فى عجلة من أمرها ٠

* * *

وصلت أزهار الى بركة الفيل فى سيارة الأجرة التى استقلتها فوجدت بيت فؤاد كله غارقا فى الظلام ، وقدرت أنه لم يرجع بعد وانها سبقته واعتزمت ان تنتظره حتى يعود ٠ وسمعت وقع أقدام عسكرى الداورية فأسرعت الى منعطف فى الميدان فاستترت به ومر العسكرى دون ان يلحظ وجودها ، وعاد السكون يخيم على الميدان ٠ ومرت لحظات خالتها أزهار دهورا قبل ان تسمع من جديد صوت أقدام دلها قلبها على أنها أقدام فؤاد ، وعندما اقتربت منها هتفت به « فؤاد ياحبيبى » وفزع فؤاد للمباغتة ، ولكنه لم يلبث ان تمالك نفسه بعد ان أدرك مصدرها ، فانفجر غضبه الذى ظل يكبته هذه الليلة وصاح بها غير حافل بما قد يقوله البعض أو يتصوره المارة أو الجيران ٠

ــ ماذا تفعلين هنا ايتها العاهرة ، انصرفى حالا من أمام وجهى والا حطمتك ووضعتك الليلة فى سجن لاتخرجين منه ، وأجابته أزهار وقد برقت عيناها :

ــ أنا خدامتك افعل بى ماتريد ولكن لندخل البيت أولا لئلا يرانا أحد نتشاجر فى الطريق ٠ وبدأ فؤاد يثوب الى رشده بعض الشىء ، وان ظل على غضبه وحنقه عليها ، وكان آية تعقله أن صوته أصبح مكتوما حتى لايثير انتباه أحد وراح يقول لها :

ــ انت تدخلين بيتى ؟ محال ان أسمح لك بأن تطأ أقدامك

النجسة عتبته • وكان كل هذا الغضب والهياج يسعد أزهار ، فقد كان لايعنى شيئا الا أنه يغار عليها كما لو كانت زوجته أو عشيقته التى لايحب غيرها ، ورأت أن تعالج غضبه بالاسلوب الوحيد الذى لم يفشل معه أبدا ، وهو تذكيره بحرفتها واغرائه بجسدها ، فقالت له :

ولكنى تركت الصالة من أجلك ، وفضلتك على كل من كان فيها ، وضحيت بكل مكاسبى هذه الليلة لأكون معك ، أولا يرضيك ان تكون الزبون الذى يعلو عندى على كل الزبائن ؟ وانفثا غضب فؤاد وهى تخاطبه بهذه اللهجة التى تعترف فيها بحقيقتها ، وتسرب الى نفسه من جديد الشعور بالزهو انه المفضل عندها والأثير ، وساعد على تهدئة ثائرته نهائيا ، وقوفه على عتبة بيته ، وما عليه الا أن يجتاز هذا الباب حتى تكون أزهار التى كانت الجماهير تجن افتتانا بها بين ذراعيه هو وحده من دونهم اجمعين •

٥

استيقظ فؤاد على صوت أزهار تناديه :

– فؤاد فؤاد ، اصح الساعة ستة •

وابتسم فؤاد فى هناء وسعادة لأزهار بعد ان فتح عينيه ، تحت أثر الذكريات التى راحت تتداعى فى رأسه بسرعة عجيبة ، ذكريات الليلة الماضية ، والتى بدأت عاصفة بالسخط والعتاب ثم انتهت بعاصفة من السعادة ، اشبهت هطول الغيث عقب الأنواء والزوابع ، حيث أمتعته أزهار بجسدها وروحها كما لم يستمتع بها من قبل • ومدت أزهار يدها اليه من خارج الحمام تحمل له المنشفة ، وناولته بعد ذلك ملابسه الداخلية بعد ان رتقت ما كان يستحق الرتق ، وخاطت بها بعض الأزرة الناقصة وثبتت البعض الآخر •

وعندما كان فؤاد يمشط شعره أمام المرآة كان هو الذى يحس هذه المرة كما لو كان عريسا فى شهر العسل • ولم يفاجأ بابريق الشاى

الفاخر الذى تعـــده له أزهار ، ولكن ما فاجأه هو ان وجـــد طبقـا عليه بعض الجبن الرومي والزيتون الأســـود ، وفى طبق ثان بعض المخللات ، وفى طبق ثالث مربى ، وصفق فؤاد من جمال المنظر الذى لم يتصور ان يجده فى بيته ، وقال لأزهار :

ـ يخرب بيتك يا أزهار ، هل أنت يابت ساحرة أو جنية ؟ من أين جئت بهذه الأشياء ؟ ٠

ـ أو لاتعرف ماذا يوجد فى بيتك وماذا تشترى ؟ لقـــد جمعت هذه الأشياء من أنحاء البيت فبعضها كان فى حجرة النوم وبعضها فى المطبخ ، أو على المائدة فى الصالة ٠ وبينما أقبل فؤاد على الأكل بشهية راح يقول لها انه قلما يأكل فى البيت الا فى الليل عندما يحضر معه بعض الجبنة والزيتون والمخللات ، وكثيرا ما ينساها حتى تتعفن ويلقى بها فى الزبالة ٠

ـ ان الساعة قد حانت لتودع حياة العزوبية ، وتســـمح لى ان أعيش الى جوارك لأرعى شئونك ، وأطهو طعامك ، وأغسل ملابسك، وأنظف بيتك ، واهبة اياك نفسى فى غير مقابل الا أن تبادلنى حبـا بحب ، ووفاء بوفاء ٠ وتململ فؤاد وقال لها :

ـ أولم نتفق بالأمس على عدم الخوض فى هذا الموضـــوع مرة ثانية ؟ ان ما تقترحينه على ضرب من ضروب المستحيلات ، وانصحك اذا كنت حريصة على دوام العلاقة بيننا ان تنزعى من رأسك هـــذه الأفكار ٠ ان اللحظة التى اتخيل فيها انك تعملين على اســـتدراجى للزواج منك ستكون نهاية علاقتنا ولن ترينى بعدها أبدا ٠ انك فتاة عاقلة ومجربة ، وتدركين انه من المستحيل على مثلى ان يتزوجك بهذا الماضى ليس فقط من أجل مركزى وسمعتى التى افهمتك اننى شـــديد الحرص عليهـــا ، ولكن من أجل عائلتى وأسرتى ، ووقف فؤاد فى عصبية وقال لها « أنسيت حرفتك الملعونة التى مازلت غارقة فيهـــا حتى الاذقان ؟ أو تظنين اننى أصدق اكذوبتك من انك لم تســـلمى نفسك لرجل مذ احببتنى ، وهل هذا معقول ، أتريدين ان تجعلى منى

قوادا ؟ وبهتت أزهار لهذا الانقلاب الذى طرأ عليه وتمنت لو كان فى استطاعتها فى هذه اللحظة ان تلطمه على وجهه وتبصق عليه أو تصيح فى وجهه كما يصيح فى وجهها ، أو ان تجهش بالبكـــاء على الأقل ، ولكن غريزتها كانت تملى عليها ، أنها تخسر كثـيرا لو فعلت أيا من هذه الأشياء التى حدثتها نفسها بها ، ولذلك فقد اكتفت بأن نكست رأسها فى ذل وانكسار ، وقالت له :

ـ الله يسامحك يافؤاد ، ألهذا الحد تحتقرنى ؟ ما الذى أمثــله فى نظرك ، أتراني كلبة تستطيع فى أى وقت تشاء ان تركلهـــا بقدمك ، كلما فرغت من رغبتك فى رؤياها ؟ ولست أحســب ان بقدرتك ان تفعل مثل ذلك حتى بكلبـــة ، أأكون حشرة ممن توطأ بالاقدام فى غير شفقة أو رحمة ؟ اننى انسانة يافؤاد ، انسانة مثلك لى أم وأخوات ، ولقد حدثتك كيف خدعت واعتدى على بعد أن دافعت عن شرفى ما وسعنى الجهد كفتاة فقيرة مسكينة غريرة ، ماهو ذنبى اذا كان الرجال هم الذين عرضوا على هذه الحرفة الممقوتة طمعـــا فى جسدى ؟ هانذا أريد ان انتشل نفسى من الهاوية التى اتردى فيها ، فاعرض عليك ان أكون خادمتك الأمينـــة لتحمينى من الرجال ومن نفسى ، فتأبى الا أن تعاملنى بهذه القسوة ، فأنت كغيرك من الرجال على استعداد ان تستمتع بجسدى وتدفع فى سبيل ذلك ما أفرضه من المال ، ولست مستعدا ان تأوينى الى بيتك كخادمة وتتمتع بجسدى بالمجان ، فماذا بقى أمامى الا ان أعود لما تسميه المستنقع الذى أعيش فيه ؟

ولم يستطع فؤاد أن يقاوم شعوره بالحزن والاشـــفاق عليهـــا فاطرق برأسه فى صمت بينما مضت تقول وقد بدأت الدموع تنحدر من عينيها :

ـ تقول انك لاتصدقنى عندما اقسم لك ان أحدا لم يمس جسدى بعد أن أحببتك ، فليكن ، ان ذلك لايهمنى ، اننى لا أفعـــل ذلك من أجل ان تصدقنى أو لاتصدقنى ، اننى أفعله من أجل نفسى واحترامى لنفسى ولكى أكون جديرة بالرجل الذى أحبه ، انك تتصـــور اننى

استدرجك لكى احملك على زواجى مع ان هذه الفكرة لم تمر لى فى خيال ، فأنا أعرف أننى لا أصلح أن أكون زوجة وانا عقيمة لا انجب اطفالا · وما أردت الا ان أعيش من أجلك وحدك اخلص لك وتخلص لى وليس يعنينى بعد ذلك اذا أقمت معك على هذا الأســـاس ، ايسمى الناس ذلك زواجا أم سفاحا ، فمثلى قد اعتـــادت ان لا تأبه برأى الناس فيها من هذه الناحية.لقد تصورت عندما تعرفت بك ان القدر بدأ يبتسم لى ويريد ان يعوضنى عما جرعنى من غصص وآلام ، فاذا به يدخر لى آلاما تفوق كل ماعرفت من آلام ·

وأجهشت أزهار فى البكاء وراحت تقول لفؤاد: ما أنت الا وحش، وحش مفترس لاتوجد فى قلبه ذرة من حنان·ولم يستطع فؤاد ان يقاوم نفسه أكثر مما فعل ، فاذا به يحنو على أزهار ويقول لها :

– لاتخطئى فهمى يا أزهار ، فلست وحشا كما تتصورين ، قـد أكون آلمتك أو جرحت شعورك ولكننى فعلت ذلك في الحقيقة والواقع مموها على نفسى الحقيقة التى عبثا أحاول ان اتجاهلها أو اقاومهـــا وهو أننى أحببتك منذ اللحظة الأولى التى وقع بصرى عليك فيها ، فكم من مرة عاهدت نفسى ان لا أراك ، كم من مرة حاولت أن احقرك وأزدريك بينى وبين نفسى ، ولكن قوة أقدر منى دفعتنى دائما اليك ، ألســـت الآن معى ، الا يدلك ذلك على أنك غلبتنى على أمرى ؟ انك لاتتصورين كيف كانت الغـــيرة تنهش قلبى بالأمس عندما رأيتك ترقصين شبه عارية ، ولو كنت قريبة منى بالامس لقتلتك من فرط غيرتى ، ولم أكن أعرف بعد أن عدت بالأمس كيف سأقوى على الحياة بدونك · مازلت أقول لك اننى لا اصـــدقك اذ تقـــولين لى انك لم تصاحبى انسانا بعد ان عرفتنى ، وقد بقى ان تعرفى اننى مذ عرفتك لم اغازل النساء أو اتصل بهن الا مرة واحدة حاولت فيها ان أتسلى عنك ، واستبد لك بامرأة اخرى ، ففشلت المحـــاولة وكان من جراء ذلك ان جئت لزيارتك فى البيت الزيارة التى تعرفينها ، اننى أحبك يا أزهار أحبك وأريد ان تكونى لى وحدى ·

كانت أزهار تسمع لفؤاد وهى مذهولة لاتكاد تصدق أذنيها ان فؤاد هو الذى كان يقول لها هذا الذى تسمع ، فظلت مفتوحة العينين فاغرة الفم ، خافقة القلب ، حتى اذا وصل فؤاد الى عبارته الأخيرة التى يعترف فيها بحبه لها ، ارتمت على قدميه وراحت تقبلهما وتبللهما بدموعها وتحتضن ساقيه دون ان تقول شيئا فقد كان انفعالها بالسعادة أقوى من أن تقول معه شيئا • وانحنى عليها فؤاد فى حنو وشفقة ووله ورفعها من يديها وهو يقول لها معاتبا : ماهذا الذى تفعلينه يامجنونة ؟ فاجهشت أزهار فى البكاء أكثر وأكثر، وراحت تغمر يديه اللتين امسكتا بها بالقبلات•وقبلها فؤاد فى عينيها وقال لها :

– أرأيت اننى لست وحشا كما تتصورين ، وأننى لست بغير قلب أو عواطف ، وأننى أحبك ربما أكثر من حبك لى ؟ واذ علمت ذلك فباستطاعتنا ان نتكلم بتعقل وصراحة • اعلمى اذن ان لى فى الحياة آمالا كبارا ، واذا كانت الظروف قد اضطرتنى للالتحاق بمدرسة البوليس لأتخرج كونستبلا فى أسرع وقت لأساعد عائلتى ، فان آمالى الكبار لم تزايلنى ، وبقى أن تعرفى اننى من أسرة ريفية شديدة المحافظة والتدين فقد كان أحد أجدادى لأمى شيخا للأزهر ، فلو علم أهلى اننى تزوجتك لربما قتلوك وقتلونى معك ، بل قد أكون أنا نفسى قاتلك بيدى هاتين لفرط ما أحس به من غيرة عليك • ان النار قد تستعر فى نفسى أحيانا وأنت بين ذراعى عندما أتذكر ان هذا الجسد قد تمتع به عشرات من قبلى ، لقد هممت اكثر من مرة أن أخمد انفاسك وأنت تدللييننى لمجرد تصورى انك كنت تتاجرين بهذا الكلام فأنا أحبك يا أزهار ولكن زواجنا شيء يكاد يكون مستحيلا ، يجب ان ترتبى نفسك على ذلك •

ووجد النطق سبيله الى أزهار فى نهاية الأمر فراحت تقول له والدموع فى عينيها « فليأت الموت فلست أباليه بعد ان عرفت انك تحبنى، لاتتردد فى أى لحظة تفكر فيها فى قتلى عن فعل ذلك شريطة ان

لايصيبك سوء من جراء ذلك فلست استاهل ان تؤذى بسببى • ان غيرتك على هى مصدر سعادتى ، فليس سوى حب كبير ما يجعلك تفكر فى قتلى من فرط الغيرة ، اننى أفهم ذلك يافؤاد واقدره ، وأرجوك أن تطمئن فليس الزواج هو ما اسعى وراءه بل حبك ، فابقنى الى جوارك جارية لك وخادمة ، وأعاهـــدك أن لو طلبت أنت منى الزواج يوما فسوف أردك عنه ، ولكن دعنى اكرس حياتى من أجلك أنت وحدك •

وأجلسها فؤاد على السرير ، وجلس أمامها على أحد الكراسى وقال لها : ألم أطلب منك ان نتكلم بتعقل وروية وأن تحكمى عقلك فمثلك وقد حنكته الآلام وصروف الزمن ، يجب ان يصيخ لصوت العقل • ان ماتطلبينه منى من أن تعيشى معى بصفة دائمة بغير زواج أمر عسير التحقيق ، من الذى سيقبل أن يأوى فى بيته شابا أعزب ومعه امرأة ليست زوجته ؟ ما الذى سأقوله لأهلى اذا جاءوا لزيارتى ؟ بل من أين سيكون بقدرتى ان انفق عليك ؟ اننى أعيش على ستة جنيهـــات فى الشهر بعد أن أرسل لأمى جنيهين ، وأنت ، أنت الست تعملين فى الصالة من أجل أن تنفقى على أسرتك ؟ من الذى سيتم تعليم فاطمـــة وحسن ، من أين ستأكل أسرتك بغض النظر عن التعليم ، أيصح لك أن تضحى بذلك كله من أجل ان تعيشى معى كخادمة ؟ وقالت أزهار وكانت عيونها تلمع من فرط السعادة :

ان كل ماتشير له من عقبات صحيح ، واستطيع ان أزيدك عليها ، ومع ذلك فما عليك الا أن تقول نعم لكى أتبعك مغمضة العينين وسنجد لكل مشكلة حلا ، فباستطاعتنا أن ننتقل من هذا البيت وان نجد بيتا لايعرفنا فيه أحد ، وستة جنيهاتك ستكفينا وتزيد بل سوف اقتصد لك منها • أما أسرتى فأنا أدخر كل مليم احصل عليه من أجل هـــذه الساعة ، ثم اشارت الى حليها وقالت ، سأبيع كل هذه الحلى وسأعطيها لأسرتى،فما عليك الا أن تقول نعم كى تتم هذه المعجزة الجميلة ،سأعيش لك لن أغادر البيت أبدا ، لن افتح نافذة ، جربنى يافؤاد لترى كيف سأكرس حياتى من أجلك وأجعلك سعيدا ، ويوم ان تمل عشرتى ،

أو يوم ان يرزقك الله بابنة الحلال ، التى تحقق آمالك فى الزواج وانجاب الاطفال ، فسوف أفسح لها الطريق فى غير شكوى أو تململ. صدقنى يافؤاد اننى سأفعل ذلك فحسبى ما أكون قد نلت من سعادة الى جوارك • وترقرقت الدموع فى عينى فؤاد حنانا وتأثرا من هـذه العاطفة الصادقة التى هزته من الاعماق وهم أن يقول لهـــا شيئا يوافقها به ، فاذا بنظرة تحين منه الى الساعة فانتفض جســـده من الجزع وثارت فى نفســـه طبيعة رجل البوليس فاذا به ينقلب على الفور رجلا آخر ويصيح بها : يخرب بيتك يا أزهار يخرب بيتك ، لم يبق الا خمس دقائق على موعد العمل ، وأنا لم ألبس ملابسى بعد • وأسرعت أزهار فى لهفة تعاونه على ارتداء ملابسه وهو مافتىء يرعد ويبرق ، اذ لم يبق على موعد استلامه العمل سوى دقيقتين • وفتحت أزهار حقيبة نقودها وأخرجت منها جنيها وقالت له « اركب تاكسى » وكاد فؤاد أن يستشيط غضبا من هذه الحركة ، ولكنه كان فى هذه اللحظة مشغول الذهن بفكرة وجوب الوصول الى القســـم بأسرع وقت ، ولذلك فقد أخذ منها الجنيه ووضعه فى جيبـــه وهو يقول : يظهر ان ليست هناك طريقة غير ذلك ، ومن حســـن الحظ أن اليوم هو أول الشهر وسأعيده اليك عند عودتى ، اذ يجب ان تنتظرى عودتى لنستأنف المناقشة فى مشروعنا، وأسرع يعدو وهو يغمغم لقد انتصرت علىَّ ، لقد انتصرت علىَّ •

٦

لم تكن أحداث مصر السياسية تشغل اصحابنا فى الجامعة ، على الرغم من أن هذه الأحداث كانت شغل كل من فى مصر ، بعد ان صدر قرار من مجلسى النواب والشيوخ بتفويض الحكومة ، لمفاوضة الحكومة البريطانية فى مقترحاتها التى عرضتها على حكومة اليد الحـــديدية المستقيلة لأنهاء الاحتلال ، وعقد أتفـــاق شريف وطيد يوطد عرى الصداقة بين البلدين • هز فوزى ومحيى وبقية الصحب اكتافهـــم

وهم يطالعون هذه القرارات فى الصحف ، فقد كانوا يؤمنون بأن ما أصبحت تحتاج اليه مصر هو روح جديدة وحياة تقوم على الايمان والعمل • وفكر محيى وفوزى فى ان يقوما بمناظرة فى جمعية الشبان المسلمين للبحث فيما يجب ان تكون عليه حركة البعث الجديدة وبناء نهضة مصر المقبلة ، أتأخذ بالمدنية الشرقية أم الغربية ؟ وأدرجت المناظرة بالفعل فى برنامج الجمعية الشهرى ، وبدأ أصحابنا يكرسون كل جهدهم للدعاية لهذه المناظرة وحشد المعارف والاصدقاء لشهودها، وعندما جاء أخيرا اليوم الموعود ، ووصل فوزى ومحيى وفكرى وخالد الى مقر الجمعية حيث ستلقى المناظرة ، طالعتهم مظاهر النجاح آخذة شكل الهرج والمرج والزحام على الباب الخارجى ، وعندما وصلوا الى قاعة المحاضرات ووجدوها تغص بالحاضرين الذين تدوى أصواتهم كما لو كانت خلايا النحل ، والدخان يؤلف فى سماء الصالة سحابة كثيفة ، حتى شعروا أنهم نجحوا فى مشروعهم ، فقد كان هذا الاقبال هو مظهر تطلع الشعب ، والشباب بصفة خاصة الى حياة جديدة وأفكار جديدة •

على أن مفاجأة فوزى الكبرى التى غمرته بالسعادة بمجرد اعتلائه المنصة ، كانت رؤيته لآمال وهى تجلس فى الصف الأول بين الحاضرين ، آمال بكل حيويتها ورشاقتها وهندامها وابتسامتها الفاتنة التى تكشف عن أسنانها اللؤلؤية • وكانت صديقتها فتحية تجلس الى جوارها ، وشابة أخرى صغيرة يبدو عليها أنها طالبة ، وكان هؤلاء الثلاثة هم كل ممثلى الجنس اللطيف فى هذا الحشد من الجمهور على الرغم من ان محيى قد دعا كل طالبات الجامعة • ولم يكن فوزى يفكر فى شىء من ذلك فقد كانت آمال عنده تساوى الدنيا كلها فى هذه اللحظة ، وعندما ابتسمت له لم يتمالك نفسه من الاحساس الشديد بالخجل ، فاحمر وجهه ولم يستطع أن يرد عليها تحيتها فقد كان يعرف ان الانظار مسلطة عليه فى هذه اللحظة • كان فوزى يعلق على انتصاره فى المناظرة آمالا كبارا ،

أما الآن وقد جاءت آمال لشهود المناظرة فقد تحولت المسألة عنده الى مسألة حياة أو موت ، اذ لايجب ان تراه آمال الا منتصرا ، انها فرصته الكبرى ليريها كيف سيحرز اعجاب الجماهير ، لكى تعرف أنه ليس الشاب الصغير الذى تتصوره ·

وسارت المناظرة فى طريقها ، والطرفان يتبادلان النجاح ، فاذا تكلم محيى صفق له الحاضرون وتصوروا أنه انتصر ، فاذا قام فوزى ليرد عليه انتزع منه النصر ، لكى يعود محيى فيبلغ ذروة النجاح ،على أنه كان من الواضح منذ وقت مبكر ان الجماهير اذا كانت تعجب بقدرة محيى وبلاغته فقد كانت عواطفها مع فوزى ، ولذلك فقد استقرت الكرة نهائيا معه·كانت وجهة نظر محيى كما لخصها رئيس المناظرة فى ختامها تقوم على أن لاسبيل لنهضة الشرق الا بأن يأخذ بالحضارة الأوروبية ، وما تقوم عليه من علوم وفنون ومصانع وما يترتب على ذلك كله من أنظمة فى السياسة والاجتماع ، ولم ينازع فوزى فى وجوب الأخذ بالعلوم والصناعات الأوروبية ، ولكنه لم ير فى ذلك انطواء تحت علم ما يسمى بالمدنية الغربية ، فالعلوم والصنائع كلها قد نشأت فى الشرق وعنه تلقاها الغرب ، فاذا عاد الشرق يقتبس من الغرب فانما هى بضاعتنا ردت الينا ، والعلم لايمكن ان يكون الا علما لايصح وصفه بالشرقية أو الغربية فهو انسانى ، وانما ما أنكره فوزى كل الانكار هو الأخذ بما يمكن أن يعد روح المدنية الغربية وهو الايمان بالمادة واهدار كل القيم الروحية والدينية وتحويل الحياة بين البشر الى صراع وحرب افناء ، فليست المدنية الأوروبية شيئا غير ذلك ·

وعند هذا الحد وقف كل من فى القاعة الا نفرا يعد على الأصابع وهو يصفق امعانا فى التأييد واظهار الاعجاب ، وعندما توالى جمهور الحاضرين بعد ذلك يساهمون فى المناظرة لم يعد هناك حاجة لأخذ الاصوات فيمن يؤيد فوزى أو يؤيد محيى ، فقد كان التيار جارفا والشعور واضحا ·

وعندما انفرط عقد الاجتماع أقبل الحاضرون على محيى وفوزى

مهنئين فقد كان نصيب محيى من امتاع الجمهور بهذا العرض الوافى للقضية لايقل عن نصـــيب فوزى ان لم يزد ، ولم يكن هنـــاك من هو أسعد من فوزى فى هذه اللحظة وقد رأت آمال أى شـــاب هو ، وشهدت انتصاره على رؤوس الاشهاد • واستطاع فوزى ان يتخلص أخيرا من الزحام الذى أحاط به ، وأن يقترب من آمال التى مدت له يدها مصافحة بحركة رسمية فقد كانت تعلم ان الانظار اصـــبحت مسلطة عليها فى هذه اللحظة ، وقالت آمال ووجهها يطفح بالبشر :

ـ مبروك يا استاذ فوزى على النجاح الباهر ، ولكنى لا أكتمك اننى منضمة الى الاستاذ محيى وأوافقه على قوله من انك كســـبت الجولة بالتهويش والمغالطة واستغلال الناحية العاطفية فى الجمهور وحساسيته من ناحية الدين •

ورد عليها فوزى دون ان تتبدد ذرة من سعادته : على كل حال أنا واحد من هذا الجمهور وعواطفه عاطفتى ، ومشاعره مشـــاعرى ولست أحب ان أكون شيئا غير ذلك ، ثم التفت الى صـــديقه محيى وقال له : لاشك يامحيى انك كنت رائعا • واندفع يعانق صاحبه فى حرارة وصدق • قال محيى ولكن مافائدة الابداع والروعة مادمت قد خسرت الجولة ؟ فرد عليه فوزى مبتســـما : لاتنس انك أنت الذى أصررت على اختيار هذا الجانب رغم تحذيرى لك من أنه لن يرضى الجماهير • فأجابه محيى فى عصبية ظاهرة : ولو أعيدت المناظرة من جديد لما رضيت بغير هذا الطرف منها • وحول فوزى دفة الحـديث نحو آمال فقد كان مافى نفسه من سعادة غير قابل لأن يعـــكر لأى سبب من الأسباب وسألها قائلا : ولكن ما هذه المفـــاجأة الجميلة ؟ لست أعرف كيف أشكرك على هذا التشريف • والتفت صوب فتحية وقال لها : وقد زادت سعادتى بتشريف فتحية هانم ، فظهر الخجل على وجه فتحية وقالت له : لاتعكس القضـــية فنحن الذين يجب أن نشكرك على أمتع ليلة قضيناها منذ أمد بعيد ، وأنا أخالف آمال فيما ذهبت اليه ، وأرى انك قد فزت بجدارة ولم يكن فيمـــا قلت أى

تهويش وأرجو ان لايؤاخذني الأستاذ محيي • فقال لها محيي ضاحكا: خذى راحتك فأنا أعلم انني خسرت الليلة •

واستبد الفرح بفوزى ان تنتهي الليلة بهذا النجاح الساحق في جميع الاتجاهات بالنسبة له ، وعاد يقول لآمال : ولكنك لم تقولي لي كيف جاءتكم فكرة الحضور ؟ فقالت آمال : الحق انها فكرة أخي رياض ، ألم تلاحظ أنه لم يحضر ؟ وامتقع وجه فوزى من فرط التأثر بمجرد هذه الاشارة فقد شعر بمدى التقصير المعيب الذى تردى فيه وهو لايلحظ غياب رياض عن المناظرة فقد انسته رؤية آمال كل شيء عما عداها ، وسأل فوزى آمال فى لهفة وخجل عن سبب تغيب رياض عن حضور المناظرة ، مع أنه كان من أشد المتحمسين لشهودها ووزع الكثير من تذاكرها ، فقالت آمال : لقد شعر قبيل الظهر بوعكة ففكرت فى قياس حرارته فوجدتها ٣٩ فحتمت عليه ان يرقد ويلازم الفراش، فأجابني بأن ذلك مستحيل فلا مناص من شهود المناظرة ، فوعدته اذا هو قبل ان يلازم الفراش ان أنوب عنه فى حضورها أنا وفتحية ، وبهذا الشرط فقط قبل ان يرقد فى الفراش ، وأرجو ان يكون حضورى وصاحبتي فتحية يساوى حضور صاحبك رياض ، قالت ذلك وغمزت بعينيها • ومن جديد احمر وجه فوزى وقال : آن حضورك هو ذروة سعادتي ، ولكنك ازعجتني على رياض ويجب ان نذهب اليه على الفور • فقالت آمال لاداعي للانزعاج أكثر مما ينبغي فالمسألة تتصل باللوز وهو معتاد على ذلك من حين لآخر ولابد انك تعرف ذلك أنت نفسك ؟ فهل تحب ان تذهب اليه ، أم تقبل دعوتي ودعوة فتحية انت ومحيي لنذهب الى السنما سويا ؟ وكاد فوزى يطير من الفرح لفكرة الذهاب معها من جديد الى السنما بعد ان رأته في هالة نجاحه ، على ان فرحته لم تدم طويلا ، اذ نظرت آمال الى ساعتها وقالت : ياخسارة لقد جاوزت الساعة العاشرة ، ونظرت صوب محيي فوجدته كان قد ابتعد عنهم هو وفكرى وانشغل فى حديث مع الشابة الصغيرة التى كانت تجلس الى جوارها ثم اردفت قائلة : وهاهو محيي غارق

مع تلميذتى فاطمة الفيلسوفة ، والله يعلم كيف سيكون بقدرتنـــا ان ننتزعه منها وبعد كم من الزمن نســتطيع ان نخـلص من عشرات المعجبين المتربصين بكم • ومع ضياع فكرة المشروع الذى أســعده ، أحس بالخجل وتأنيب الضمير على ايثاره الذهاب الى السنما عن عيادة صديقه المريض ، فقال لآمال : على كل حال ان التفكير فى الســنما ورياض مريض هو تفكير خاطىء واتصــور اننـا يجب ان نبادر اليه لزيارته • وضحكت آمال فى خبث وقالت : لزيارته ؟ أم لكى نحدثه عن نجاح الأستاذ فوزى الساحق هذه الليلة؟ ولم يعرف فوزى اذا كانت آمال تسخر منه ، فقال لها وقد اكفهر وجهه : اتسخرين منى يا آمال؟ فقالت آمال فى دهشة : أنا أسخر منك؟ ثم أردفت بالانجليزية «لاتكن أحمق، الا تستطيع ان تشعر كم أنا فخورة بك؟ والتهب وجه فوزى هذه المرة بنيران الخجل السعيد ، ولم يعرف بماذا يجيب على هذه العاطفـة الجميلة ، فتشاغل بالنظر ناحية محيى فوجده بالفعل فى حديث حار مع هذه الطالبة التى اسمتها آمال فاطمة ، وكان فكرى ينظر اليهـا باعجاب وقد التف حولهم عدد آخر من الشــباب الذى كان لايزال يتسكع فى القاعة ، وتوجه فوزى صوب محيى ليستخلصه من ايدى المعجبين ، فلم يكد يقترب من محيى حتى قال له محيى : تعال يافوزى اعرفك بالآنسة فاطمة الطالبة بالمدرسة السنية ومن أشد المتحمسات لوجهة نظرى ، ومعنى ذلك انها بالاضافة الى الآنسة آمال ، تجعــل أغلبية الجنس اللطيف معى هذه الليلة • فقال فوزى : ويكون انتصارك بذلك ساحقا ، فليس يعنينا فى كل مانقول أو نفعل الا وقعــه على الجنس اللطيف ، ولا قيمة لأى نصر لايبــاركه الجنس اللطيف • وتضرج وجه فاطمة خجلا وقالت : عفوا يأأستاذ فوزى ، اننى اهنئك على المهارة التى استطعت بها ان تكسب الجمهور الى صفك ، ولكنى اشاطر الأستاذ محيى رأيه ان لامجال هناك للتحدث عن مدنية شرقية الا فى بطون التاريخ والمتاحف والآثار ، اما الآن فلا حضارة الا حضارة الغرب ، وحياتنا كلها تقوم على أساس حضارة الغرب ونظمه هــذه

الملابس التى ترتديها هى ملابس غربية ، انك تفكر بطريقة غربية ،
وقطع فوزى على فاطمة سيل تدفقها رغبة منه فى الاسراع بالخروج ،
وان كان هذا لم يمنع اعجابه بها ، وقال لها مبتسما : على كل حال
يا آنسة فاطمة اعتبرونى مغلوبا ، وأنا منضم الى .... ولم يكمل
فوزى عبارته اذ لاحظ وجه فاطمة وقد امتقع وحولت وجهها عن باب
صالة الاجتماع الذى كان فى مواجهتها ، ولفتت حركتها انظار الجميع
فالتفتوا بحركة لاشعورية نحو الباب وكان فكرى أول من هتف باسم
القادم الجديد ، وكان هذا القادم هو فؤاد عبد السميع . وازداد وجه
فاطمة اكفهرارا عندما علمت انهم يعرفون بالذات فؤاد الكونستابل
واستأذنت من الجميع على عجل قائلة انه لم يعد بقدرتها ان تمكث
أكثر مما مكثت . ولم يفت الجميع ان يلاحظوا ان فاطمة اشاحت
بوجهها حتى لاتنظر صوب فؤاد ، الذى اصفر وجهه بدوره عندما رآها
لأول مرة . وقص فؤاد على فكرى وأصحابه الذين كانت علامة
الاستفهام عما يمكن ان يكون بين فؤاد وفاطمة ، لاتزال مرتسمة على
وجوههم ، كيف انه اطلع على المناظرة فى الصحف ، فقرر ان يحضر
لسماعها واطفاء شوقه لمرآهم، ولكن ضغط العمل فى القسم حال بينه
وبين تحقيق هذه الأمنية فى الوقت المناسب ، وان كان قد حقق قسمها
الأهم وهو ان يراهم.ولكن كان من الواضح ان فؤاد ظل متأثرا بمقابلته
غير المنتظرة مع فاطمة .

واعتذر فكرى عن الذهاب مع محيى وفوزى مع آمال وصديقتها
لزيارة رياض مؤثرا ان يصطحب فؤاد معه الى البيت ليقف على أخباره
بصفة عامة ، وليعلم السر فى هذا الانزعاج الذى بدا على فاطمة من
ناحية وعلى فؤاد من ناحية أخرى ، ولم يكن صاحباه باقل لهفة منه
على معرفة هذا السر ، ولذلك فقد قبلا اعتذاره .

٧

كان أول ما قاله فؤاد لصاحبه فكرى بمجرد ان استقر بهما المقام
فى شرفة بيت البحر هو ان سأله عما اذا كان قد لاحظ هذه الفتاة

التى انصرفت بمجرد دخوله هو · وأجابه فكرى بأن الجميع لاحظوا ان لابد ان يكون بينهما علاقة من نوع ما فهى لم تستـــطع ان تخفى تأثرها لمرآه · وأطرق فؤاد برأســه وقال : لم يكن من برنامجى أن اصدع رأسك انت بالذات بانباء المشكلة التى أصبحت غارقا فيها الى الأذقان ، ومع ذلك فلست أعرف لى صديقا غيرك ، ولست أعرف أى انســـان آخر يمكن ان أبوح له بسرى غيرك · ويظهر ان الظروف نفسها قد جاءت بى الى مناظرة الليلة لكى التقى بفاطمــة وتلاحظون ذلك ، حتى يصبح لامناص من مكاشفتك بكل شىء · وقال فكرى على الفور : أنت تعلم يافؤاد معزتك عندى ، ولا يوجد أى شىء اتردد فى صنعه مساعدة لك فى أى مشكل لاخراجك منه · فقــال فؤاد بعــد أن تنهد : سترى ان مشكلتى بعد ان تسمعها بدون حل · كل الذى أرجوه منك الآن يافكرى ان لاتحتقرنى ، اذا علمت أننى وقعت فى حب راقصة ·

وظهرت الدهشة على وجه فكرى لهذه المباغتة ، فقد كان متهيـأ لأن يسمع شيئا يتصـــل بفاطمة ، فاذا بفؤاد يبعـــده عن هـــذه الناحية ، وقد كان عهده بصديقه انه محافظ ، وكان يتصور أنه قد يقع فى حب فتاة كفاطمة ، أما ان يقع فى حب راقصة ، فقد كان هذا شيئا جديدا ، ولا يمكن الا أن يكون من تأثير حياة البوليس عليه · وأسرع فكرى يقول : ولكن مادخل فاطمة فتاة الليلة بحبك للراقصة؟ فأجاب فؤاد بأن فاطمة هى أخت هذه الراقصة · ودهش فكرى أن يكون لهذه الفتاة المثقفة المتعلمة أخت راقصة ·

وقص فؤاد قصته على فكرى منذ وقع بصره لأول مرة على أزهار ، الى ان أصبح يقيم معها منذ شهر اقامة دائمة فى بيت جديد نقل اليه حيث تتصور صاحبة البيت انها زوجته ·

فقال فكرى :

ـ وهل من أجل ذلك حنقت عليك أسرتها ؟

ـ هذا أحد جوانب المشكلة ، فقد كانت أزهار تعمل فى كازينو شهرزاد لتنفق على أسرتها وتعليم اختها وأخيها اذ ليس لهم عائل غيرها بعد وفاة والدهم ، فلما ان سكنت معى انقطع دخلها من الرقص بطبيعة الحال ، فضلا عن اننى قد حرمت عليها ان تتصل بأسرتها على أى وجه من الوجوه • فقال فكرى وقد بدأت القصة تشوقه جدا بعد أن شاهد أحد بطلاتها الليلة •

ـ ولكن من أين تعيش اذن أسرة صاحبتك ، وكيف تمضى فاطمة فى مواصلة تعليمها ؟

ـ ان المشكلة لم تصبح حادة بعد من هذه الناحية ، فقد كانت أزهار قد ادخرت خمسين جنيها دفعتها لأمها قبل ان تجىء لتسكن معى ، كما أسلمتها كل ما كان لديها من حلى • وتساءل فكرى فى دهشة :

ـ أفهم من ذلك ان صاحبتك قد ضحت بأهلها وثروتها وحليها لكى تعيش معك وتكون لك وحدك ؟ •

ـ وهذا هو الجانب الآخر من المشكلة فلو انى طلبت من هذه الفتاة يافكرى أن تلقى بنفسها من النافذة لما ترددت لحظة واحدة ، اننى لم اتصور فى أى وقت من حياتى ان تتعلق امرأة برجل الى هذا الحد الذى لا أكاد أصدقه • وضحك فكرى وقال :

ـ ولكن أين المشكلة هنا ، فما من رجل الا ويتمنى ان يوفق لامرأة تخلص له هذا الاخلاص ، ولست أعرف مادمت تحب هذه المرأة أنت نفسك حتى رضيت أن تعيش معها ، لماذا لاتتزوجها وتحيا معها فى الحلال بدلا من هذه العيشة التى تسبب لك كل هذا الارتباك • ورفع فؤاد حاجبيه فى دهشة وقال لفكرى :

ـ ماذا تقول ؟ اتزوجها ؟ وانت من ينصحنى بذلك فكرى عبد الحميد ابن الشيخ الجليل عبد الحميد خطاب المرشح لمشيخة الأزهر ؟ واحس فكرى بشىء من الامتعاض لاستنكار صاحبه ، وقال له :

ومالى لا أنصحك بذلك أليس ذلك افضل من ان تعيش معها في الحرام ؟ فما دمت تحبها ومن الواضح انك لاتستطيع الاستغناء عنها ، فلم يبق أمامك الا ان تتزوجها ، ولست أرى فى ذلك أى مانع شرعى أو خلقى ، بل لعل مالا يليق هو معاشرتك لها الآن على هذه الصورة • وأطرق فؤاد رأسه فى خجل وقال :

ـ الحق اننى وصفت لك رفيقتى بأنها راقصة لأهون عليك الأمر، ولم يكن بوسعى ان أقول لك الحقيقة مرة واحدة ، فاما وقد حدثتنى عن زواجها فقد وجب ان تعلم ، اننى تعرفت بها فى احد بارات شارع المغربى حيث كانت تعمل به شبه بغى رسمية، ولقد صحبتنى الى بيتى أكثر من مرة على هذا الأساس وفى كل مرة دفعت لها أجرها • وقد حرر لها آكثر من محضر كان آخرها اتهامها بالسرقة ، وان كانت التهمة لم تثبت عليها •

وظهر الاشمئزاز على وجه فكرى ، فقد كان هذا الحديث شيئا لاعهد له بسماع مثله من قبل ، وبادر يقول لفؤاد :

ـ وكيف سمحت لنفسك بأن تعيش فى بيت واحد مع امرأة من هذا الطراز ، وأنت الذى كنا نضرب المثل بعقله وفضيلته ؟ • وتنهد فؤاد وقال :

ـ هل أدركت الآن عمق المشكلة التى ترديت فيها ؟ لاتتصور أنه من السهل على ان اتخلص منها فضلا عن ان أطردها ، فان ذلك من أشق الأمور ، ليتنى استطيع ان أصور لك السعادة التى أعيش فيها مذ أقامت هذه المرأة معى ، ليخيل الى أحيانا اننى أعيش فى حلم أخشى ان استيقظ منه ، لقد أصبحت أزهار بالنسبة لى زوجة وأختا وأما وجارية كل هؤلاء مجتمعين فى شخصها • لقد كان بيتى كبيت أى انسان أعزب قذرا غارقا فى الفوضى ، فأصبح الآن نموذجا على النظافة والنظام • كان مرتبى لايكاد يكفينى بعد أن أرسل جنيهين منه لأمى ، فهل تصدقنى اذا قلت لك اننى أصبحت بهذا المرتب وكأننى أغنى الأغنياء ، فأنا الآن آكل ثلاث وجبات كاملة فى البيت ، وفوق ذلك

فقد أصبح لدى فى البيت حصالة استطاعت ان توفر فيها خلال الشهر الماضى خمسين قرشا • وأصبحت ملابسى نظيفة دائما أنظر كيف يلمع الحذاء وكيف تلمع الزراير وكيف يلمع الحـــزام ، ان جميع زملائى باتوا يسألوننى كيف استطيع تلميع الزراير الى هذا الحد • وأسرع فؤاد فحل بعض أزرار سترته العسكرية وكشف لفكرى عن قميصه الداخلى ، وقال له انظر الى أى حــد قميصى نظيف ؟ ودهش فكرى بالفعل لنصاعة القميص وبياضه ، بينما مضى فؤاد يقول : وهى التى أصبحت تكوى كل ملابسى ماعدا البدلة العسكرية ، وهى التى تطهو الطعام ، وكم اتمنى لو كان باستطاعتى أن أدعوك عندى لتشــــهد بنفسك قدرتها على حذق الطهى ، أما سعادتى بجسدها وفتنته فلن أستطيع ان أحدثك عن هذه الناحية حتى لا أخجلك • وحار فكرى ماذا يقول لصاحبه ، ولم يلبث ان قال له فى عصبية :

ــ لقد حيرتنى معك ، فأنت تصف صاحبتك حتى لتجعل منهــا شيطانا ، ثم تصفها حتى لتجعل منها ملاكا ، ماذا استطيع أن أقول لك ؟ فقال فؤاد :

ــ الحمد لله انك أصبحت تلمس الآن مشكلتى • ان أزهار بطبيعة الحال ليست ملاكا كما أنها ليست شيطانا، انها فتاة عاثرة الحظ أوقع بها أحد أقربائها ثم طمع فيها الرجال بعد ذلك ، فسارت فى هــذا الطريق باعتباره الطريق الوحيد الذى كان مفتوحا أمامها ، ولم تلبث أن انحدرت حتى القاع قبل ان أقابلها وهذه هى القضية فى اختصار• فقال فكرى :

ــ أنا بطبيعة الحال ليس لى تجارب فى موضوع النساء من أى نوع كان ، ولكنى طالما سمعت الاجماع على ان المرأة التى انحدرت الى القاع لايمكن أبدا ان ترتفع عنه ، ولو فعلت ذلك لفترة وتحت مؤثر خاص ، فلا يمكن الا ان تغلب عليها طبيعتها من جديد ، ولذلك فانصــحك يا فؤاد ان تتخلص من هذه المرأة بأسرع ما تستطيع ، يجب ان تفكر فى عائلتك وأسرتك ، ومســتقبلك هل قررت أن تبقى طول حياتك كونستبلا ؟ فأجاب فؤاد :

ـ هذا هو ما أفكر فيه بالليل والنهار ، وما جعلنى أقول لك فى بداية الحديث ان مشكلتى بغير حل ، فأنا أحبها ولم أعد أتصور كيف أستطيع الحياة بدونها ، ومع ذلك فهذه المعانى التى ذكرتهـــا أنت نفسك تنغص على حياتى ، اننى قد أضربها أحيانا وأنا فى قمة سعادتى بها ، اذ يداخلنى الشك ان كل هذا الذى تفعله نحوى هو تمثيـــل فى تمثيل ، وانها لاتكاد تظفر بى زوجا لها ، حتى تعود سيرتها الأولى.

واذ أحس فكرى ان مشكلة صاحبه بغير حل فقد آثر ان يكف عن ابداء أى رأى ولم يلبث ان عاد بخواطره الى فاطمة أخت أزهار فقـــد بدأ يحس بالاشفاق نحوها ان تكون فتاة فى مثل هذه الشخصية مضطرة أن تعيش من كد أخت لها بهذه الصورة غير الكريمة ، فقال لفؤاد :

ـ حدثنى عن فاطمة ماهو موقفها من ذلك كله ، ماهو رأيهـــا فى مسلك أختها ؟ فقال فؤاد :

ـ لقد كانت صغيرة لاتعرف شيئا من ظروف الدنيا ، وشـــبت فوجدت أزهار هى التى تنفق عليها وتشجعها على المضى فى التعليم ، وعندما كبرت وأصبح فى استطاعتها ان تقدر عمل اختها المشـــين كان الوقت قد فات ولم يكن فى وسعها ان تفعل شيئا فرضيت بالأمر الواقع ، يساعدها على ذلك أن ظل بيتهم نظيفا لايعرف أحد من جيرانه الا أن أزهار تعمل ممرضة ، فقد كانت بدورها شديدة الحرص على ان تظل عائلتها مستورة . ولقد حدثتنى أزهار انهـــا عندما أخبرت أهلها انها ستطلق الرقص لتعيش معى تصوروا أننى سأتزوجهـــا فأقبلوا عليها مهنئين ، فلمـــا ان علموا أن لن يكون فى الأمر زواج ، قالت لها فاطمة أنهم عاشوا لايتدخلون فى حياتهـــا ولايسألونهـــا كيف تعيش راضين منها بأنها أختهم التى تضحى من أجلهـــم ، فأما بالنسبة لهذا الموضوع الجديد ، فاذا كنت أحبها وأريدها ان تعيش معى ، فليس هناك مايسعدهم اكثر من ذلك شريطة ان أتزوجهـــا ، اما أن تضحى بعملها فى الكازينو وتتخلى عنهم لكى تعيش مع انسان لايراها جديرة بأن تكون زوجة له ، فمثل هذا الانسان لن يتورع عن

ان يطردها فى أى وقت يشاء بعد أن يكون قد شبع منهـــا • ودهش فكرى وقـــال :

ــ وهل قالت لك أزهار ذلك كله ؟

ــ انها لاتستطيع أن تخفى عنى شيئا ، ولقد طلبت منها أن تقص كل ما قاله لها أهلها عنى كلمة كلمة ، فلم يكن بوسعها أن تكـــذب على • وران على الصديقين صمت عميق اشعارا بأنهما قالا كل شيء ، وقد تجلت المشكلة أعقد من ذنب الضب على ما قال فكرى ، والذى لم يلبث ان قال :

ــ ان كلمتى الأخيرة لك هى اما ان تبادر بزواج هذه الفتاة ، واما أن تبادر بقطع العلاقات معها ، فمن انظلم لها ولأهلها أن تتركها معلقة هكذا • وقال فؤاد بعد أن أطال التفكير :

ــ اتسمح لى يافكرى ان أريك اياها ليكون حكمك عليها شاملا ؟ فظهر الارتباك على وجه فكرى واحمر وجهه ، بينما أسرع فؤاد يقول له وقد احمر وجهه خجلا كذلك :

ــ لاتتصور اننى سأورطك معى اننى أقدر ظروفك ، وليس يصح لى أن أحرجك فلن احضرها الى هنا بطبيعة الحـــال اذا وافقت على اقتراحى ، كما اننى لن أدعوك لدخول بيتى ، بل سأحضرها ذات يوم نتفق عليه الى كازينو الحمام هنا أمامكم ، ثم أجيء فأدعوك لتراها • فقال فكرى وقد سرى عنه :

ــ لا مانع عندى فى ذلك ، والحق انك جعلتنى شديد الشـــوق لرؤية هذه المرأة التى فتنتك الى هذا الحد ، والتى تعمل كل هـــذا من أجلك •

الفصل الخامس

١

أعلن الصحب حالة الطوارىء بمناسبة قرب موعد الامتحـــان ، وكان اصحابنا قد اضاعوا العام الدراسى فى حيـــاتهم الخاصـــة وغرقوا فى المحاضرات والمناظرات والمناقشات ، والمغامرات والمناوشات العاطفية فكان من الطبيعى وقد دهمهم امتحان آخر السنة ان ينسوا كل شىء الا الاستعداد لاجتياز عقبته ، وعلى ذلك فلم تتم هذه المقابلة التى اتفق عليها بين فكرى وأزهار ٠

ونجح الصحب بما يشبه المعجزة ، فانتقلوا بذلك من كلية الآداب الى كلية الحقوق حيث يمضون ثلاث سنوات ليصبحوا بعدها محامين٠ على أنه أيا كانت مشاغل فكرى فلم تكن هى التى حالت دون اجتماعه بأزهار ، والتى ما كانت لتكلفه أكثر من بضع دقائق يمضـــيها فى كازينو الحمام ، وانما كان السبب الحقيقى الذى حال دون التقـــاء فكرى بأزهار ، هو استغراق فؤاد من جديد فى أحداث البلد السياسية التى ادلهمت ، فجعلت حالة الطوارىء هى الأصل فى حياة البوليس حيث لايجدون دقيقة واحدة يهرشون فيها ٠ وكان ســـبب ذلك أن المفاوضات بين مصر وانجلترا قد ارتطمت كما هو الشأن دائما حول وحدة مصر والسودان ، فقد رفض رئيس الحكومة وزعيم الأغلبيـــة خوفا من الرأى العام والمعارضة ، ان يفرط فى هذه الوحدة ، فكان أن أعلن فشل المفاوضات ، ومع اعلان فشلها بدأت المؤامرات على زعيم الأغلبية ، فخشى أن يقال كما أقيل من قبل فآثر ان يقدم استقالته ٠ وقبلت الاستقالة وعهد بتأليف الوزارة الجديدة الى أحد وزراء حزب

الأقلية الذين اشتهروا بالعداء للشعب ، واستخـــدام سلطة وزير الداخلية فى تزوير الانتخابات ، واستعمال كل صنوف الضــغط والاكراه لتحقيق أهداف سياسية معينة ، فلا عجب أن قابل الشعب تأليف وزارته منذ اليوم الأول بالوجوم .

وبادل رئيس الحكومة الجديد الشعب عواطفه ، فجـــاء خطاب تشكيل وزارته مليئا بالانذار والوعيد لكل من يفكر فى معارضـــة حكومته . وأعلنت حالة الطوارىء ودعى فؤاد كغيره من رجال البوليس للمرابطة الدائمة فى الأقسام، وكلما أمل فؤاد أن تنتهى حالة الطوارىء اذا بها تمتد وتزداد تفاقما ، ففى كل يوم مناوشة وفى كل يوم صدام، فلا تكاد الحكومة تعلن تأجيل البرلمان شهرا وتغلق أبوابه ، حتى يقرر النواب الاجتماع فى المجلس . فتغلق الحكومة باب البرلمان بالسلاسل وتطلب من البوليس أن يكون على أهبة الاستعداد، فاذا برئيس مجلس النواب يكلف حرس البرلمان ان يحطموا السلاسل وان يفتحوا الأبواب. ويجتمع النواب والشيوخ ويعلنون عدم ثقتهم بالحكومة واستنكارهم لما أقدمت عليه من عدوان . واشتد الصراع بين الحكومة وحزب الأغلبية تسانده عواطف الشعب، وتأزمت الأمور.وهكذا لم يجد فؤاد من الفراغ المادى ما يسمح له بمقابلة فكرى ، بل ان مشكلته مع أزهار اختفت من حياته تحت ضغط الحوادث ، وبعـد أن تحولت أزهار الى عنصر أساسى من حياته لم يعد يفكر فيها ، كما لايفكر الانسان فى قلبـــه أو فى اعضاء جسده الداخلية مادامت تعمل بانتظام .

وكان أصحابنا الخمسة خالد ومحيى وفكرى ورياض وفوزى ، فى نجوة من أحداث البلد السياسية لم تستطع ان تشدهم اليها ، فقد كانوا كبقية طلاب الجامعة قد سئموا المناورات الحزبية ، وأصبحوا يرون الكفاح الدائر حول مقاعد الحكم أشبه بلعبة الكراسى الموسيقية، أى اللاعبين يحصل على كرسى عندما يصفر الحكم ، ولم يكن الحـكم الا الانجليز دائما والسراى فى بعض الأحيان .

على أن أشد الجميع انصرافا عما كان يجرى فى مصر فى تلك الحقبة

هو فوزى ، فقد كان مشغولا بتنفيذ مغامرة ظلت تساوره منذ أمد بعيد ورأى أن الوقت قد حان للاقدام عليها فى هذه الأيام ، ولم تكن هـذه المغامرة شيئا أقل من السفر الى باريس •

بدأت فكرة المغامرة مع صاحب له يدعى الأستاذ حامـد محمود كان رئيسا لجمعية أدبية انضم اليها فوزى ومحيى • وكثيرا ما كان الحديث يدور بينهما حول باريس ، والأساتذة الذين تلقوا العلم فى باريس ، والفن الذى ينبثق من باريس ، والأدباء والشـعراء الذين يفتنون الدنيا من باريس ، والثورة الفرنسية التى اندلعت من باريس، باريس مدينة النور وعاصمة الدنيا كلها • وفى احـدى المرات قال فوزى لصاحبه : لماذا لانسافر الى باريس لنغترف من نورها وعلمهـا وفنها ؟ فقال صاحبنا حامد محمود : ومن أين لنا المال ؟ فقال فوزى : فلتكن لنا عزيمة يتهيأ لنا كل شيء ولنحدد اجلا لتنفيذ عزمنا ليشحذ قوانا ويحفزنا على النجـاح • وحدد الصاحبان عامين كأجل لتحقيق أمنيتهما • وخرج فوزى من هذه الجلسـة وهو مصمم على انفـاذ هذا العزم فراح يقتصد كل قرش يصـل الى يده من أجل السفر الى باريس ، وقد كان هذا أمرا مضـحكا ان تجمع ملاليم وقروش للانفاق على رحلة الى باريس يتحدث الناس عن ضرورة التزود لهـا بالمئات من الجنيهات ، ولكن ذلك لم يؤثر على فوزى الذى راح يجمع المعلومات عن مصاريف السفر ، فعلم ان عشرة جنيهات تنقـله الى باريس على ظهر احدى المراكب حتى مارسيليا ، ومن مارسيليا بالقطار الى باريس • فلما ان اكتمل لفوزى خلال العامين المحددين للسـفر فى نهايتهما الى باريس ، هذا المبلغ شرع على الفور يخرج مشروعه الى حيز التنفيذ ، وكانت هذه الفترة بعد نجاحه فى الامتحان هى الوقت الذى حدده للتنفيذ ، فلا عجب أن كان مشغولا عن كل شيء فى الدنيا الا ان يحقق أمنيته • واذا كان السفر الى باريس احدى امنيات فوزى العامة ، فقد جعلهـا تعرفه الى آمال احـدى أمنياته الخاصـة • لقـد كانت آمال بسنواتهـا الخمس فى انجلترا تؤلف بالنسـبة

له ذروة لايقـــدر على ان يطاولهـــا ، فلو انه ســـافر الى باريس ، فان ذلك سيقربه منها ويجعله يقف معها على قدم المساواة فى هـــذه الناحية ، فاذا شمخت بأنفها وقالت عندما كنت فى لندن ، رد عليها قائلا عندما كنت فى باريس ، وهكذا أصبح الســـفر الى باريس بالنسبة لفوزى ضرورة باعتبـــاره عنصرا يقربه الى آمال وقد كان الاستحواذ على حب آمال له قد أصبح هو شغله الشاغل ٠

٢

وجد فوزى نفسه ذات يوم وقد تهيأ له كل شيء لانفـاذ المشروع العظيم ولم يبق بينه وبين السفر الى الاسكندرية ليستقل منها الباخرة الى مرسيليا الا بضعة أيام ، فرأى ان الوقت قد حان ليزف هـــذا النبأ المثير ، نبأ سفره الى فرنسا الى آمال ، قرة العين ومنية الفؤاد ٠ وقابلت آمال النبأ بما يستحق من دهشة وذهول ، مصحوبين بالتقدير والاعجاب ، ولولا ان فوزى اطلعها على الوثائق التى تقطع بأنه مسافر بعد بضعة أيام لتصورته يضحك منها أو يسخر ، أو لما تصـــورت الأمر الا على أنه محض آمال وأحلام ٠ ولكن الأمر كان حقا ، واهتاجت آمال للنبأ ، واستطاع فوزى فى ظل هذا الانفعال ان يظفر منها بوعد ان تأتى الى بيت البحر لتحتفل بوداعه بالاسلوب الذى يراه جـــديرا بهذه المناسبة الضخمة ، مناسبة الســـفر الى باريس ٠ وكان رياض غائبا عن البيت حيث سافر الى رأس البر ليمضى الصيف مع احـــدى شقيقاته المتزوجات ، فخلا الجو لفوزى وآمال ٠

وجاءت حسب الوعد المضروب ، فى الساعة المحـــددة ، جاءت تختـــال ، مرتدية ثوبا حريريا أصـــفر بلون الزعفران ، وقد رآها فوزى من قبل وهى تعمل فى حياكة الثوب فلم يعجبه اللون الصارخ ولا الطريقة التى كانت تفصله بها ، اما الآن وهو يرى الثوب عليها ، فقد تمنى ان لو كان باستطاعته ان يأكلها أكلا ٠ كان ذراعاها الجميلان يشعان نورا وحرارة، والثوب مشدودا على جسدها محبوكا والمشـــد الذى تلبسه يضفى عليها هذه الرشاقة التى تميزها عن كل من يعرف أو يقابل فى الطريق من المصريات٠وكانت فيما يبدو قد مرت قبـــل

حضورها على الحلاق فقص لها شعرها من جديد (الاجرسون) وفقا لآخر مودة ، وفاض وجهها بالبشر والابتهاج وهي تقبل على فوزى ، وتصور فوزى ان من حقه ان يأخذها بين ذراعيه وينهال عليها لثما وتقبيلا ، أو ليس يسافر الى باريس ، أولم تأت لوداعه ؟ ولكنه لم يجد في نفسه الجرأة على ذلك ، فاكتفى بمصافحتها في حرارة ، واستبقى يدها في يده مدة طويلة بحيث حال بينها وبين ان تصافح محيى ، فضحكت آمال شعورا منها بهذا الوضع ، وقالت وهي تضحك في ابتهاج : كيف حالك يامحيى ؟ لاتؤاخذني يظهر ان فوزى قرر ان لايفرج عن يدى • ورد محيى قائلا : الا ما ابدع منظركما سويا ! ليت لدى آلة مصورة لارسمكما هكذا • وزادت آمال في ضحكتها وقالت في دلال وهي تسحب يدها بشيء من العزم اللطيف : انت دائما تحب المبالغة يامحيى • وانتهز فوزى هذه الفرصة ليمتحن عواطف آمال فقال : ان الانسان لايستطيع أبدا ان يعرف حقيقة مشاعرها ، أو ماذا يدور في ذهنها • وشهقت آمال في احتجاج وقالت : من ، أنا ؟ والله أنا مظلومة ياربى وغلبانة مع الناس الذين لايريدون ان يفهموا كم أنا بسيطة.فقال فوزى : على كل حال هذا ماسوف نعرفه الآن ونتأكد منه، فما هو اقتراحك لاقامة حفلة وداعي هذه الليلة ؟ وتلفتت آمال حولها وسألت عن فكرى فعلمت أنه قد سافر ليمضى مع أسرته بعض الوقت، وقد تريث محيى في القاهرة ، ولم يسافر بدوره في انتظار سفر فوزى الى باريس • وعاتب فوزى آمال انها لم ترد على سؤاله في كيفية الاحتفال بحفلة وداعه ، فضحكت آمال ، وقالت موجهة الحديث الى محيى : ناشدتك الله يامحيى ، هل أنا مسئولة عن الاجابة على هذا السؤال ؟ لقد طلب منى فوزى أن آتى لوداعه ، وها أنا حضرت في الزمان والمكان المعينين ، وأنا اعتبر نفسى تحت الأوامر ، وما على صاحب الجلالة المسافر الى باريس الا أن يأمر فنطيع ، قالت ذلك وانحنت بحركة مسرحية رمز الخضوع والاحترام ، ومرة أخرى تاقت نفس فوزى لو يضمها بين ذراعيه ، ولكن قواه كانت أضعف من أن

تساعده على مثل هذا التصرف ، وخاصـة فى حضرة محيى ، ولذلك فقد اكتفى بأن قال لها لقد اتفقت مع محيى ان يذهب ثلاثتنـا الى الاهرام ، فالجو جميل والليلة قمرية وليس ابدع من هذا المكان نمضى سهرتنا فيه ، ونتنـاول طعام العشاء على شكل (سندويتشات) ستقومين أنت باعدادها ، وقد اشترينا لك كل المعدات اللازمـة من جبنة وتونة ومربى . ودقت آمال بقدميها الأرض اعرابا عن شـدة ابتهاجها ، وراحت ترطن بالانجليزية ، ان هـذا الاقتراح مدهش ورائع ، ويشبه ان يكون حلما ، فطالما تاقت ابان اقامتها فى انجلترا الى تمضية احدى هذه الليالى القمرية عند الهرم ، وهى تطالع الوصف الرائع لها فى بعض الصحف الانجليزية ، وآلت على نفسها أن يكون ذلك هو أول ماتفعله بمجرد عودتها الى مصر ، ولكنه انقضى عليهـا مذ عادت من انجلترا قرابة عامين دون ان تحقق هذه الأمنية . وهنا قال محيى لآمال وهو يغمز بعينيه غمزات ذات معنى : انه يؤسفنى يا آمال ان يكون دورى هذه الليلة هو دور العـذول ، وأرجوك ان تصدقينى اننى تعبت فى اقناع فوزى بضرورة انفرادكما ببعضكما فى هذه الليلة الجميلة ليلة الوداع ، ولكن فوزى لم يشفق على وأصر على أن أقوم بهذا الدور الكريه على نفسى دور العذول . وكانت آمال مذ شرعت تدرك مغزى أقوال محيى قد راحت تلطمه على فمـه بحركة رشيقة لطمات خفيفة اشارة الى رغبتها فى ان يكف عن عبثـه ، ولكن محيى مضى متحدثا بهذا الأسلوب المكشوف ، فـلم تزد آمال على أن قالت له بعد ان توقف عن الكـلام : آه منك أنت يامحيى ! انت ولد شقى ، ومن حسن الحظ ان فوزى ليس شقيا مثلك . ولقد كان فوزى يشعر بالامتنان لمحيى الى أبعد الحدود وهو يهيىء له الفرصة لامتحان عواطف آمال نحوه ، ولكنه لم يستطع ان يفهم من مسلكها وهى تلطم محيى على فمه لتمنعه من الكلام ، وهى تعلق هذا التعليق ، وتنفى عنه الشقاوة ، ماهى حقيقة مشاعرها وما الذى عنته بكل ذلك ، على أنه لم يلبث ان قنع بالأمر الواقع ، ألم تستجب لدعوته ، وهاهى ذى قد

شرعت فى عمل الشطائر التى سيحملونها معهم فى سهرتهم عند الهرم ؟ فما الذى يريده منها أكثر من ذلك ؟ لتعرب له عن حبها له ؟

٣

وقف الثلاثة فى ظل الهرم الأكبر وقد أخذ منهم المنظر الساحر كل مأخذ . وقفوا لاينبسون ببنت شفة ، كما لو كانوا يخشون ان يدنس حديثهم هذا الجلال ، أو ان يهزوا هذه الصورة الرائعة . كان القمر المستدير استدارة كاملة يتألق فى ضوئه الباهر الهادىء الحنون ، وكان القرص يبدو شديد القرب الى النفس ، حتى ليحدث الانسان نفسه أن يمد يده لكى يمسك به ، وليس سوى العقل الذى يرد الانسان عن القيام بهذه الحركة قائلا له : ان القمر بعيد ، بعيد جدا محال ان تفكر فى الوصول اليه ، ومع ذلك فقد كان حديث النفس يشك فى ذلك ويرد على العقل قائلا ، قد يكون قرص القمر بعيدا ، ولكن سحره وأثره أقرب الى النفس وأدنى من حبل الوريد .

ولم يكن فوزى يعرف فى هذه اللحظات ماهى حقيقة مشاعر زميليه ، ولم يعن هو بأن يحدثهما عن شعوره ، والقمر بأشعته الالهية والسكون الرهيب يسيطر على المكان لقد كان يحس كما لو كان قد علا على الزمان والمكان ولم يعد يحس الا بأنه مندمج فى هذا الوجود . وكانت آمال هى التى أخرجت فوزى من ذهوله وشطحته بقولها :

ــ هل سنجلس أم نسير ؟ .

وقال محيى : فلنجلس ، فقالت آمال : بل نسير ، ونظل نسير ، فاذا تعبنا جلسنا . وساروا مبتعدين عن الهرم الأكبر ، وانفتحت الصحراء الكبرى أمامهم وان ظلت الاهرامات الصغيرة والتلال المختلفة تلقى ظلالها هنا وهناك . وعبث النسيم بخصلات من شعر آمال وبطرف ثوبها ، ولولا ان الثوب كان من النوع الضيق لكشف عما فوق ركبتيها ، وبلغت النشوة بفوزى الى الحد الذى جعله لأول مرة يفهم مايقوله الشعراء وما يتردد فى الأغانى من تمنى الحبيب أن يكون

هو النسيم الذى يعبث بشعر محبوبه ، فقد تمنى ان يكون هو هذه الأشعة القمرية التى كانت تلف آمال لفا وتحتويها احتواء • كم من الوقت مضى عليهم وهم يسيرون على غير هدى ؟ ماذا قالوا فى هـــذه المرحلة الأولى من سيرهم ؟ كل ذلك لم يعلق بذهن فوزى فقـــد كان هائما فى هذا الجو السحرى العبق ، لايكاد يفكر فى شيء أو يحس بشيء ، لقد كان يعيش فى دنيا خارج الحواس ، وظل هذا شأنه حتى أخرجته آمال من هذا العالم الأثيرى وعادت به الى دنيا الاحســـاس والواقع اللذيذ عندما فاجأته بوضع ذراعها تحت ابطه بينما وضعت ذراعها الثانى تحت ابط محيى وجذبت الاثنين اليها ، جاعلة من ثلاثتهم كتلة واحدة ملتحمة ، واردفت تقول فلننشد نشيد اسلمى يامصر ، ولم يكن فوزى فى هذه اللحظات يساهم فى انشاد النشيد الذى كان يحبه الحب كله بقدر ما كان يسمعه بوجـــدانه وروحه وبوجوده • لم يكن يتصور آمال فى هذه اللحظات انسانة تغنى، بل كان يتصورها ملاكا هبط على الأرض من عليين ، أو احـــدى ربات الاولمب اللواتى طالما سمع عليهن من أمثال فينوس أو افروديت • وعندما انتهت آمال من ترتيل نشيدها ضغط فوزى على ذراعها بكل قوة وعنف ، حتى لقد أدهشه أنها لم تصرخ من الألم ، ووجد نفسه يقول لهـــا : والآن فلتغنى لنا أغنية انجليزية • وكأن هـــذا الخـــاطر الذى خطر له انعكاسا لما كان يدور فى ذهنها ، اذ أنه لم يكد يسوق الطلب حتى انطلقت تغنى بالانجليزية وكأن الأغنية كانت على طرف لسانهـــا • وتعالى صوتها جميلا أخاذا ، وبدأت معانى الأغنية تتضح مع استرسال كلماتها ، فاذا بقلب فوزى يخفق كأشد ما خفق مذ بدأوا سهرتهـــم هذه الليلة ، فقد تصور أنها تغنى له وحده وتناجيه بأغنيتها ، وترد على سؤاله الحائر الذى يتوق الى جوابه •

كانت الأغنية تقول :

ــ من الذى سرق قلبى وأخذه بعيدا عنى من هو ؟

ــ من الذى جعلنى أحلم به طوال النهار ، من هو ؟



ــ ويلى من أحلام النهار التى لاتصدق أبدا ·
ــ من الذى سرق قلبى وأخذه بعيدا عنى من هو ؟

وعندما انتهت آمال من شدوها أسرع يقسم عليها فى انفعـــال شديد ان تعيدها ثانية وثالثة ورابعة · وضحكت آمال وقالت له : الا تتركنى على الأقل التقط أنفاسى ؟ وصبر فوزى على أحر من الجمر ، واشفقت عليه آمال من عذاب الانتظار فعادت تكرر بصوت أكثر حنانا ورقة : من الذى سرق قلبى من هو ؟ · وعندما اتمت أغنيتهـــا ، لم يتمالك فوزى نفسه ، أن سحب يدها من تحت ابطه وراح يقبلهـــا بشغف ونهم ، بينما راحت آمال تقول فى دلال ومعاكسة قللت من نشوة فوزى : استغفر الله يا أخى استغفر الله · ثم سحبت يدها فى لطف وقالت تغير الموضوع : ألم تشعروا بالجوع ؟ اما أنا فقد جعت ، هلم يامحيى لنجلس ونأكل · وتلفت محيى حوله تمهيدا لاختيار المكان الذى سيجلسون فيه ، فاذا به يكتشف أنهم يقفون فى ذات المكـــان الذى أقاموا فيه معسكرهم منذ بضعة شهور احتفالا بعيد الجهاد ، ولم تكد آمال تقف على هذه الحقيقة حتى أعربت عن سعادتها بهذه المصادفة الجميلة ، وقالت تعابثهم : على كل حال لا أظن ان عددنا الليلة يقل كثيرا عن عددكم فى هذه الليلة التاريخية ؟ وضحك محيى فى خجل ، أما فوزى فقد كان غارقا فى بحر من السعادة جعله لايعى شيئا ممـــا يجرى حوله أو يقال ، الا بمقدار ما يصور مقدار العاطفة التى يحملها لآمال وتحملها آمال له ·

وجلس الثلاثة وراحت آمال توزع الشطائر · وقال فوزى وهو يقضم الشطيرة التى قدمتها اليه فى نهم · لم أكن اتصور انك تغنين بكل هذا الابداع ؟ وضحكت آمال وقالت : انك لم تر شيئا بعـــد · وقال فوزى : منذ الليلة سأظل أطالبك بالغنـــاء كلما التقينـــا · فردت عليه آمال قائلة : شريطة أن تكون مســــافرا الى باريس ، وان تحضر لى معك صحراء الهرم فى ليلة مقمرة · واحس فوزى بشىء من خيبة الأمل من هذا الجواب ، ولم يعرف كيف يرد عليــه ، الى ان

اخرجه محيىمن ارتباكه اذ سمعه يقول : سوف نشعر بوحشة شديدة لغياب فوزى عنا فى باريس ، أليس كـذلك يا آمال ؟ • وردت آمال على الفور قائلة : اننى اتصور ان كل من يعرف فوزى لايمكن الا أن يحس بفراغ اذا غاب عنه • وسرت موجة من الفرح فى جسد فوزى لهذا التعبير ، وقال لها : اذا كان ماتقولينه صحيحا فاسـمعينى من جديد أغنية من سرق قلبى • وضحك محيى من أعماق قلبـه وقال لفوزى : ولماذا لاتسألنى أنا من الذى سرق قلبها وحرمها النوم ، اننى أعرف جيدا هذا اللص وأستطيع ان أدلها عليه ، وأخرجها من حيرتها• وهتفت آمال محذرة فى دلال : محيى محيى ••• ! فقـال محيى : افندم • فقالت آمال بالانجليزية : اسكت • وضحك محيى ملء شدقيه وقال بعد ان رفع يده بالتحية العسكرية ممازحا : سكتنا يا افندم ، ولكنى اتصـور ان من واجبى أن ابلغ عن اللص الذى سرق قلبك • ومرة أخرى قالت آمال بالانجليزية : اسكت • فوضع محيى يده على فمه وقال : وهو كذلك وعلى رأيك «يا داخل بين البصلة وقشرتها....» وران صمت يشوبه شىء من التوتر اللطيف على الجماعة ، ولم تلبث آمال ان قطعت حبل الصمت بقولها : ومتى سيكون موعد السـفر بالضبط ؟ • فأجاب فوزى : بعد يومين • وقالت آمال فى لهفة اسكرت فوزى ، بهذه السرعة ؟ ثم سألت محيى اذا كان سـيودع فوزى فى الاسكندرية، فقال فوزى: لقد رأينا ان نقتصد مصاريف سفر محيى الى الاسكندرية لكى انتفع بها ، ولذلك فسـيكون الوداع فى محطـة القاهرة • فقالت آمال : اذا كانت هذه هى الخطة ، فأرجو ان يسمح لى أنا أيضا بأن أدفع بدل وداع • واحمر وجه فوزى من الخجل وقال لها : شكرا لقد دبرت كل أمورى والحمد لله ولم أعد فى حاجة الى أى نقود مصرية • وكان من شأن هذا الحديث عن النقود والنفقـات أن يعيد الجماعة الى الواقع المادى فاكتشفوا ان الوقت قد أصبح متأخرا وأنه يحسن بهم ان يعودوا ادراجهم الى القاهرة •

ونزل محيى فى الجيزة ليذهب الى بيته بينمـا تابع فوزى وآمال

سيرهما نحو العتبة الخضراء • وقال فوزى لآمال : لا أظنك ستعتذرين اليوم عن توصيلى لك حتى المنزل ؟ فاحمر وجـــه آمال خجلا وقالت : اما زلت متأثرا من عبارتى لك ليلة السنما ؟ ونظرت اليه فى رقة وقالت ما أشد حساسيتك ! اذن فلتعـــــلم ياسيدى انك لو لم تعرض على توصيلى الى البيت لطلبت أنا منك أن تفعل ذلك ، فلست اتصور كيف استطيع ان أعود الى البيت وحيدة بعد هذه السهرة الجميلة، أو كيف اتركك على قارعة الطريق.ودارترأس فوزى لهذه العبارات التى اسكرته، ونظر حوله فوجد انهما وحيدان فى الدرجة الأولى وبابهـــا مغلق ، فأمسك بيدها ونظر الى عينها الصافيتين اللتين كانتا تشعان فى هذه اللحظة انعطافا عليه لايمكن ان يخطىء ادراكه ، وقال لها : هل أنت سعيدة حقا بصحبتى هذه الليلة يا آمال ؟ • فأجابته بالانجـليزية ، وقد انفرجت شفتاها فى ابتسامة عريضة كشـــفت عن اسنانها اللؤلؤية : لاتكن أبله الا تستطيع ان ترى الجواب بعينيك وتحســـه بقلبك ؟ وهم فوزى ان يقول لها العبارة التى تحرقه حرقا من شـــدة الشوق للتلفظ بها : اتحبيننى ؟ ولكن شجاعته خانته للمرة الألف ، وقرر ان يمضى فى انفاذ خطته المرسومة وهى ان لايوجه اليها هـــذا السؤال الا بعد عودته من باريس حاملا لها الهدية التى ســـتكون عربون محبتهما ، اما الآن فليكفه هذا التلميح الذى وصل الى حـــد التصريح : لاتكن أبله ، الا تستطيع ان ترى الجواب بعينيك وتحســه بقلبك ؟

٤

انهالت خطابات فوزى على محيى من باريس تحدثه عن كل شبر فيها ، عن كل حارة وشارع وتمثال وحديقة ، عن اللوفروفرســـايل والفكســـمبورج والتوليرى ، عن الســـوربون ونوتردام دى بارى والبانتيون • وكان يشفع كل خطاب بمجموعة من الصور الشارحـة لينقل احساساته الى محيى وبقية أصحابه ، وكانت خطاباته تلتهب

بحرارة العاطفة والاعجاب بما رأى وشاهد ، فقد وجد نفسه غارقا فى الجمال والنظام والرقى والابداع . كان يصور لهم كيف وقف مذهولا فى ميدان الكونكورد حيث تتوجه المسلة الفرعونية ، شاهدة على أن باريس بكل عظمتها وجلالها لم تجد أروع من المسلة المصرية التى صنعها الفنان المصرى منذ أربعة آلاف من السنين لتزين بها أعظم ميادينها وميادين العالم طرا .

على أنه لا المبانى على روعتها ، أو القصور والمتاحف على فخامتها بالتى أثرت فى نفس فوزى بمثل ما أثر فيه حتى الاعماق شعوره بالحرية والاخاء والمساواة التى تسود الناس جميعا لافرق بين غنى أو فقير ، أو صغير أو كبير ، وكان فوزى يعتبر نفسه أصدق شاهد على ذلك فقد كان طالبا فقيرا اجنبيا لايملك أكثر من ألف فرنك قيمة جنيهاته العشرة ، ومع ذلك فقد استمتع بباريس كأعظم ما يكون الاستمتاع ، لقد شاهد كل مزاراتها ومتاحفها ومعارضها وقصورها فقد كانت مفتوحة للوافدين بالمجان مرتين فى كل أسبوع ، ولقد دخل فوزى مسرح الكوميدى فرانسيز أعظم مسارح اوروبا واستمتع بروائع الفن العالمى بفرنكات قليلة . ودخل الى أوبرا باريس المعتبرة افخم أوبرا فى العالم وقد تصور نفسه اذ دخلها كما لو كانت ليلة القدر قد فتحت امامه ، أو كنز علاء الدين قد أصبح حقا واقعا ، دخلها بفرنكات قليلة وجاس خلال ابهائها ، وامتزج بأصحاب الملايين من روادها دون ان ينظر اليه انسان شذرا أو يشعره انه فى غير مكانه الطبيعى ، لقد عومل فى كل مكان ذهب اليه كما يعامل أى انسان آخر بما يستحق من التجلة والاحترام لمحض أنه انسان . وكان هذا هو ما راع فوزى أكثر من أى شىء آخر فكان لايفتأ يتحدث عنه فى كل خطاب واصفا كيف ان كل شىء فى الدولة انما أريد به خدمة المواطنين الصغار منهم قبل الكبار ، لافرق بين وطنى وأجنبى .

وكان أصحاب فوزى فى مصر يجتمعون فى بيت البحر فيطالعون

هذه الخطابات ويتحسرون ، اذ يقارنون بين الحياة التى يصفها لهم فوزى وما كانت مصر غارقة فيه هذه الأيام حيث كان معلنا فيها مايشبه الحرب الأهلية • لقد انضم حزب الأقلية الذى كان يتبعه رئيس الحكومة الى حزب الأغلبية فى استنكار تصرفات رئيس الحكومة الجديد وعدوانه على الدستور والحريات وكل مقدسات الأمة • وراح زعماء الحزبين يطوفون البلاد منددين بما يجرى ويقع ، وتصدت الحكومة بالجيش والبوليس لهذه الزيارات والجولات ، وكاد رئيس حزب الأغلبية يصاب بضربة سونكى فى احدى المرات لولا ان تلقاها عنه أحد اخوانه ، وسقط عشرات من القتلى ومئات من الجرحى فى طول البلاد وعرضها ، ووصل الصراع الى أشده فى اليوم الذى كان محددا لانعقاد البرلمان بعد تأجيله ، وأهاج الشعب ان عمدت الحكومة الى حل البرلمان من أساسه ، فقامت مظاهرات الاحتجاج فى أنحاء العاصمة وحطم الجمهور الغاضب جريا على عادته مصابيح النور واقتلع الاشجار من الطرق وقلب مركبات الترام واشعل النار فيها ، وخلت الشوارع التى غطيت بشظايا الزجاج وقطع الطوب والأحجار وفروع الشجر ، من كل حركة الا حركة البوليس الراكب وهو يحمل المزاريق ويكتسح الشوارع جيئة وذهابا •

وخيم على العاصمة جو رهيب ، وتدخل الانجليز فوجهوا انذارا الى الحكومة والى رئيس حزب الأغلبية فى نفس الوقت ، معلنين انهم سيكونون مضطرين للتدخل لحماية أرواح الأجانب ، وشفعت انجلترا انذارها كما هى العادة بارسال بارجتين حربيتين الى ميناء الاسكندرية ، ولبس رئيس الحكومة جلد النمر ، فاعتبر ان توجيه الانذار لرئيس حزب الأغلبية تدخل فى شئون البلاد الداخلية ، وان الحكومة وحدها قادرة على حماية الأمن ، وأن الأجانب يعلمون ان ليس لهم صديق فى مصر أكثر من رئيس الحكومة بالذات •

وهدأت البلاد بعض الشيء وساعد على الهدوء ان هذه المعارك نشبت فى خلال العطلة المدرسية، أى فى غياب جيش التحرير، فالطلاب لايزاولون

نشاطهم الا وهم مجتمعون فى مدارسـهم ، اما عندما يتفرقون فى القرى والدساكرفان فاعليتهم السياسية تضعف بل تكاد تنعدم ٠

* * *

وكان فؤاد عبد السميع غارقا فى هذا الخضـم من الحوادث المتلاطمة وقد أدى دوره على الوجه الأكمل بين صفوف أعداء الشعب فقد وعدهم رئيس الحكومة منذ اليوم الأول بالترقيات اذا هم تفانوا فى خدمة الحكومة وساعدوها على حفظ الأمن والنظام ٠ ولم يكن هناك من هو أشد لهفة من فؤاد على الترقية بأى ثمن من الأثمان ، فقـام بواجبه البوليسى ناسيا كل اعتبار أو تعهدات أخذها على نفسه فضرب وطارد واعتقل ٠ وبر رئيس الحكومة بوعده لرجال البوليس ، فقـام بأكبر حركة ترقيات عرفها البوليس فى تاريخ حياته ، وكان من بين الذين حظوا بالترقية ثلاثة من الكونستبلات الممتازين وعلى رأسـهم فؤاد عبد السميع ٠ وكان المأمور أول من أبلغه الخبر بنفسه ، وأنه رقى الى مرتبة الملازم ثان ٠ وكاد فؤاد يجن من الفرح ، وهتف بحياة رئيس الحكومة الذى حقق له أمنيته بهذه السرعة ، فلم يـكن الأمر بالنسبة لفؤاد ترقية عادية ، بل كان بمثابة قفزة ضخمة ، ونقـل له من طبقة صف الضباط الى طبقة الضباط بكل حولها وطولها ٠ لقد كانت هذه الترقية تعنى بالنسبة لفؤاد ، أنه صحح الانحراف الذى ألم بحياته ، ووضع قدمه من جديد على سلم المجد الذى طالما حلم به ٠ وفى غمرة الفرح اتجه بعواطفه نحو أزهار ، هذه الرفيقة العزيزة التى جلبت اقامتها معه هذا السعد ، وقرر ان يطير اليهـا ليزف البشرى السعيدة ٠ كان قد تعود مذ اقامت معه أن يحدثها بكل مايعرض له فى أثناء العمل ، وكان يجد عندها دائما التوجيه السديد ، كم من مشكلة عرضت له فوجد عندها حلا لها فى يسر وسـهولة ، وكم من موقف صعب ذللته له وعاونته على احتماله ٠ لقد كانت له نعم الشريكة والصاحب فحق لها ان تفرح معه بهـذه الترقية ٠ على ان حافزا آخر

فى اعماق نفسه كان يستحثه لابلاغ الخبر بأسرع ما يستطيع الى أزهار ذلك أنه رأى فى هذه الترقية مايدحض مخاوفها التى طالما ساورتها وهو يحدثها عن تفانيه فى تفريق المظاهرات ، وهى تنصحه بوجوب الاعتدال وعدم التعرض للشعب ما استطاع الى ذلك سبيلا خوفا عليه مما قد يصيبه من اضرار ودعاء عليه من الناس ، وهاهى الحوادث تثبت لأزهار عقم مخاوفها فهاهو يحظى بالترقية التى يعتبرها بمثابة بدء الحياة الحقيقية له .

وفوجئت أزهار بفؤاد يدخل عليها وهو محمل باثقال من كل مالذ وطاب من لحم مشوى وفواكه وأعناب ، وشهقت محتجة على هذا الاسراف ولايزال أول الشهر بعيدا . وهتف فؤاد صائحا : هنيئى يا أزهار ، لقد رقيت ، رقيت يا أزهار .

وصفقت أزهار لفرط شعورها بالفرح والانتصار ، وأهوت على فؤاد لثما وعناقا ، وسألته عن مقدار الزيادة فى راتبه ، فاخبرها بأن الزيادة المالية لاتهمه قدر مايهمه انه أصبح ضابطا ، واسترد بذلك كرامته بين اخوانه وأصحابه . أما من ناحية المرتب ، فسوف يزيد فى بادىء الأمر ستة جنيهات . واذ كانت هذه الناحية هى التى تهم أزهار فى الدرجة الأولى ، فقد رفعت وجهها الى السماء وقالت : الحمد لك يارب ان بيضت وجهى ، ووسعت علينا وغمرتنا بهذا النعيم ، ثم التفتت الى فؤاد وقالت : أول شىء يجب أن تفعله عند قبض مرتبك الجديد، ان تضاعف المبلغ الذى ترسله لوالدتك، وان تشترى لأختك الثوب (الملس) الجديد الذى طلبته منك منذ شهور . فقال لها فؤاد : أجل لابد من عمل ذلك كله ، ولكن دعينا الليلة نحتفل بهذا النصر الكبير . هيا بنا نأكل ، وسترقصين لى ، ولنظل ساهرين حتى الصباح ، ومن حسن الحظ ان الغد هو يوم عطلتى ، فلنذهب الى حديقة الحيوانات ، ولنتناول طعام الغداء فى الخارج ، ولعلك تذكرين اننى قلت لك يوما اننى أريد أن أعرفك بصديق طفولتى فكرى ، وهذه أسعد مناسبة استطيع ان أقابله فيها ، وأعرفه بك .

٥

نفذ البرنامج الذى رسمه فؤاد بحرفيته ، ولم يكن هنـــاك من هو اسعد فى الدنيا من أزهار وهى تسير فى اليوم التالى فى حديقــة الحيوانات وقد تأبط فؤاد ذراعها ، بحيث لم يكن يشك من يراهما الا انهما زوجان • وضحكت أزهار بكل قلبها كما لم تضحك من قبل فى أى يوم من حياتها وهى تشهد الاعيب القردة ، وهى تقف أمام الدبة المتثاقلة ، وملأها الذعر ، والسيد قشطة يفتح فاه الضخم كما لو كان ســـيبتلع كل شىء حوله ، واستغرقت فى ذهول لطيف امام حركات الفيل الرشيقة وهو يلتقط بخرطومه القروش التى تلقى له ، أو يحرك جذع الشجرة أو يحمل صاحبه ويركبه على نابيه.وعندما كلت أقدامهما من كثرة اللف والدوران ، جلسا على الحشيش الاخضر وتناولا غداءهما كما كان مقررا من السميط والبيض والجبنة • وتمــــدد فؤاد عقب الغداء فاذا به يستغرق فى نوم عميق لذيذ ، بينمـــا ظلت أزهار الى جواره متيقظة كما لو كانت كلب صيد يسهر على حراسة ســـيده • ومر فى هذه اللحظة فلاح ريفى فاذا به يتوقف ويروح يحمـــلق فى وجه فؤاد ، وامتقع وجه أزهار لهذه الحركة خوفا من ان يكون هـــذا الفلاح أحد معارف عائلة فؤاد الفلاحين أو اقربائه وهو ما كان فؤاد يتقيه أشد تقية ، ولذلك فقد نظرت الى الرجل فى استنكار وغضب، جعل الرجل يثوب الى رشده ويمضى فى طريقه دون أن يقول شيئا ، أو يبدر منه ماينم على أنه عرف فؤاد أو لم يعرفه ، وعن سبب هــذه الحملقة ثم انصرافه دون كلام •

ودب القلق الى نفس أزهار ، ما الذى قد ينجم عن هذا الحادث ؟ وحمدت الله ان فؤاد كان نائما ولم يشهد هذا الذى حدث • وسرعان ماتطورت أفكارها تحت تأثير هذا الحادث ، فسرى التشاؤم الى نفسها. أحقا هى سعيدة كما تحاول ان تؤكد لنفسها ؟ مابالها اذن قد امتلأت رعبا لمجرد ان فلاحا وقف منذ لحظة يحدق فى فؤاد ؟ ماهو سر هذا

الجزع الذى أستولى عليها ، الا ان فؤاد يجعل علاقته بها أمرا محرما، فلا يرتفع بها الى مرتبة الزوجة ، وان كان يحرص على ابقائهـــا فى مرتبة الخليلة ٠

الى كم من الزمن سيظل يراها غير أهل لأن تحمل اسمه ؟ الى كم من الزمن سيظل يشك فى اخلاصها له ولايثق بها حتى ليأبى عليهـــا ان تزور أهلها ٠ ولم تكد أزهار تذكر أهلها حتى تداعت حنينا وشوقا الى رؤياهم ، ولم تتمالك نفسها عن التساؤل عن أحوال أمها ، أعاودتها احدى نوبات الربو خلال الاشهر الماضية ، أم نجاها الله من شر هذا المرض اللعين ؟ وفاطمة اماتزال على العهد بها مجدة فى دروسها ، هل حصل حسن على البدلة الجديدة التى كانت قد اعتادت أن تشتريهـا له فى كل صيف ؟ وسرعان ماوجدت نفسها تقول : ومن أنى له البدلة الجديدة وكل الذى ترجوه ، ان تكون أحوالهم مستورة ، وان تكون النقود التى زودتهم بها لاتزال كافية لسد حاجتهم لبضعة أشـــــهر أخرى ٠ وغمرها القلق من أحوال أسرتها وأحست برغبة لاتقاوم فى ان تطمئن على أحوالهم ، وفكرت انها لن تجد مناسبة خيرا من هــــذه المناسبة لكى تطلب من فؤاد ان يأذن لها بزيارة أهلها ، فان السعادة التى يعيش فيها منذ الأمس تتسع لهذا الطلب ، وتلفتت صوب فؤاد النائم ونادت عليه فى حنان « فؤاد ، فؤاد » وفتح فؤاد عينيه متسائلا والنوم لايزال مستوليا عليه ، وومضـــــت فى رأس أزهار ذكريات الأزمات التى قامت بينهما كلما طلبت منه هذا الطلب وهو ان تزور أهلها ، لقد كان له رد واحد لايعدوه ، وهو ان لامانع عنده ان تذهب اليهم ، شريطة ان لاتعود له ثانية ٠ وسرى الذعر الى قلب أزهار مع هذه الذكريات ، وضنت ان تعكر صفو هذا اليوم الجميـــل بنزاع قد يقع بينهما ، ولذلك فقد قررت ان تعدل عن طلبها على الأقل فى هذه اللحظة تاركة ذلك لبعد عودتهما الى البيت ، ولكن عينى فؤاد كانتا لاتزالان مفتوحتين فى تساؤل عن سبب ندائها له ، فاضطرت أزهار أن تقول له أى شىء يطرأ على ذهنها ، فسألته اذا كانت تنادى له بائع

الكازوزة • فدهش فؤاد لهذا السؤال ، وقال لها : سلامة عقلك ، أولم نتفق على أن نبقى مامعنا من النقود لندفع ثمن القهوة التى سنشربها فى كازينو الحمام ؟ واطرقت أزهار برأسها وادعت انها نسيت ، وازدادت دهشة فؤاد فقد كانت هذه أول مرة تحتج فيها أزهار بعذر النسيان فهى قلما تنسى شيئا ، ولكنه كان سعيدا أن يعود لنومه الهنىء •

وتنفست أزهار الصعداء ان تفادت وقوع الأزمة ولم تتورط فى هذا المكان العام فى اثارة هذا الموضوع الشائك • على أنها وقد اطمأنت من هذه الناحية فلم تستطع ان تسكت أصوات الاحتجاج التى بدأت ترتفع من أعماقها • ماهذا العداء الذى يحمله لأسرتها ؟ ما الذى ينقمه عليهم ، ما الذى ارتكبوه ويؤاخذهم عليه ، أيحملهم مسئولية ما وقع منها ؟ ماذنب أمها بل ماذنب فاطمة وحسن فيما ارتكبته هى من آثام ؟ ولم تقنعها الحجة التى طالما رددها من أنه لايريد ان يجعل من موضوع زيارتها لعائلتها حجة تحتج بها لتخرج من البيت وتتصل بأصحابها القدماء ، فباستطاعته دائما ان يذهب معها بل انها لتتمنى ان يصاحبها ، والى كم من الزمن سيظل يسىء الظن بها ، وعصفت بها الآلام عصفا فهو لايمكن ان يكون قد أحبها ، والا لما ظل يسىء الظن بها الى هذا الحد ، لقد كانت تحب غيرته عليها، وتستعذب حتى ضربه لها من فرط هذه الغيرة ، ولكنها أصبحت تخشى ان لايكون هذا التصرف مبعثه الغيرة ، بقدر ما يكون الباعث عليه اسرافه فى الانانية ، اتكون فاطمة صادقة فى وصفها له بالانانية؟ أوما كان ينبغى عليه هو ان يفكر فى أهلها وكيف يعيشون ؟ وتذكرت ما قاله بالامس من ان راتبه قد زاد ستة جنيهات ، ماذا عليه لو سمح لها بجنيهين ترسلهما الى أمها كل شهر • وسرعان ماجرها ذلك الى هذا التطور الجديد الذى ألم بفؤاد من حيث ترقيه الى مرتبة الملازم ثان ، لقد طغى عليها فرحه بالامس واليوم فلم يسعها الا ان تبادله مشاعره، أما الآن وهذه الوساوس والاحتجاجات تملأ رأسها فقد نظرت الى هذا

التطور وكأنه نذير شؤم جديد ، لقد كان فؤاد الكونستابل يعتبر مجرد تفكيرها فى الزواج منه جريمة لاتغتفر ، فكيف سيكون الحال الآن بعد ان أصبح ضابطا واشتعلت كل امانيه ومطامعه ، هل من المعقول ان يكون فؤاد الضابط أقل تمسكا بما يسميه تقاليد أسرة الشيخ من فؤاد الكونستابل ؟ واصفر وجه أزهار وقد عصرها الألم عصرا لهذه الخواطر السوداء التى انتابتها ، وطفرت الدموع من عينيها وغمرتها موجة من البؤس والتعاسة. ولكنها لم تلبث ان تنبهت لنفسها وخشيت ان يضبطها فؤاد وهى تبكى فيروح يسألها عن علة بكائها ، وهى لاتريد ان تعكر عليه صفو هنائه وسعادته بالترقية ، ونظرت اليه من طرف خفى فلما وجدته لايزال مستسلما للنوم ، اطمأنت واخرجت من حقيبة يدها منديلا فمسحت به دموعها ثم مضت تصلح من شأنها ، فقومت ما فسد من زينتها ، وصبغت شفتيها باللون الاحمر الذى يحبه ، واكتحلت بالاسلوب الذى يعجبه ، حتى اذا اطمأنت الى نفسها ، نظرت الى ساعة يدها فوجدت ان الوقت الذى كان قد حدده للذهاب الى كازينو الحمام تمهيدا لمقابلة صاحبه فكرى قد حان ، فاستعادت بشاشتها وبهجتها وأيقظت فؤاد .

ولكن بيت البحر كان مغلقا عندما ذهب فؤاد اليه بعد ان أقعد أزهار فى كازينو الحمام فى انتظار عودته . وقالت له احدى فتيات الجيران وهى تلوك قطعة من اللادن ووجهها يطفح بالبشر لمجرد تصديها للحديث عن سكان البيت الغائبين ان : سى فكرى وسى محيى قد سافرا الى اسرتيهما وسيعودان أول الشهر وسى فوزى مسافر فى باريز . ودهش فؤاد لأحاطة ابنة الجيران بهذه التفاصيل واضطر ان يعيد النظر اليها محاولا أن يستشف من شكلها وهيئتها أى الغائبين هو الذى أمدها بهذه المعلومات ، ولكن شكلها لم يكن مشجعا فاستبعد الخاطر على الفور ، وتذكر ان جدة فكرى دائمة التردد على البيت للاشراف على حاجيات المنزل ، ولابد ان تكون فتاة الجيران اقتنصت هذه المعلومات منها اقتناصا . ونظر فؤاد الى بنت الجيران

من جديد وهو يبتسم لها ابتسامة ذات معنى ، ثم زاد على ذلك أن غمز لها بعينه ، فترنحت فتاة الجيران من فرط التأثر والانفعال ، وتوقفت عن ادارة قطعة اللادن فى فمها . بينما انصرف فؤاد وهو يفرك يديه فى ابتهاج ، لاستطاعته (دهولة) بنت الجيران المسكينة .

٦

عاد فوزى بعد رحلته التى استغرقت مذ بارح القاهرة حتى عاد منها أربعين يوما . وكانت عودته فى المساء المتأخر فلم يكن باستطاعته ان يطرق بيت آمال فى هذه الساعة المتأخرة من الليل على الرغم من شدة لهفته لرؤيتها . وكان على فوزى ان يقنع هذه الليلة بصحبة والده ، وأن يكون هو وزوجته أول من يواجه حماس فوزى وانفعاله بكل ما رأى وشاهد فى باريس .

والحق ان العلاقات بين فوزى ووالده لم تكن فى أى يوم من الأيام، خيرا منها فى هذه اللحظات ، فمن ناحية كان فوزى يحس بأنه شاكر لوالده الذى أرسل له تذكرة العودة على احدى البواخر فى الدرجة الثالثة بدلا من ظهر المركب التى سافر عليها ، وكان والده مقبلا عليه فى هذه الليلة لم يحاول ان يخفى زهوه وفرحه لقيام ابنه بهذه الرحلة ونجاحه فيها،وعلى الرغم من أنه كان يتعين على والده السيد أفندى على ان يذهب لمقر عمله فى ادارة المعاشات كما هى العادة فى الصباح المبكر ، فقد أبى ان ينام الا بعد ان يستمع قصة باريس كاملة . وكلما توقف فوزى الذى كان يتفجر بالحديث تفجرا ، استزاده والده بالأسئلة . وكان امتع مايطرب له السيد أفندى على ، هو حديث فوزى عن رخص الأسعار فى باريس ، وعن قدرة الانسان الحصول على كل ماهو جميل بأبخس الأثمان . كان يهز السيد افندى على هزا ان يسمع من فوزى أنه كان يتناول وجباته فى مطعم يقوم على الخدمة فيه بعض من حسناوات باريس ، فى مقابل ان يدفع سبعة فرنكات أى خمسة قروش مصرية . وكيف يركب المترو الذى ينقله من أى

مكان فى باريس الى أى مكان آخر بما لايزيد عن مليمين الا قليـــلا ، وكيف كانت الحجرة التى يقيم فيها فى الفندق والمزودة بماء ساخن ، وتلفون ووسائد الفراش من الريش ، بثمانية قروش فقط وهكذا ٠ وامتدت السهرة بالابن والأب حتى كل الاثنان فى نهـــاية الأمر وقد اشرفت الساعة على الثالثة صباحا ، فآوى الوالد الى حجرته ، وآوى فوزى الى فراشه ، ولكن هيهات ان يعرف النوم ســـبيلا الى جفنيه ، كلما تصور أنه لايفرقه الآن عن رؤية آمال الا ان يطلع النهار ويرتدى ملابسه ويستقل الى العباسية الترام ٠ ولم يكن يخشى ان تكون قد خرجت ، فقد كان معتزما ان يتوجه الى العباسية فى الصباح المبـكر جدا حتى قبل ان يستيقظ كل من فى الدار ، ولا لوم عليه أو تثريب أليس عائدا من سفر طويل ، أليس عائدا من باريس ؟ ٠

٧

كاد قلب فوزى ينشق من فرط التأثر عندما وجد نفسه أخـيرا يدق جرس باب بيت رياض ، وأبى الشيطان الا ان يعـــذبه حتى اللحظة الأخيرة ، فاذا به يوسوس له أن آمال قد تكون غائبـــة عن البيت ، ان خطاب رياض الأخير حدثه عن انها لم تشأ أن تقيم طويلا فى رأس البر أو اســـكندرية عند أحد من أخواتهـــا اللواتى اعتدن التصييف فى أحد هذين البلدين ، وانها عادت الى القـاهرة ، ولكن ذلك الخطاب مضى عليـــه أكثر من عشرة أيام ، أو لايجوز ان تكون سافرت هنا أو هناك ؟ وانخلع قلبه لهذا الخاطر حتى كاد ان يقف، ورحمه القدر ففتح الباب وظهرت على عتبته سناء أصغر أخوات رياض وآثار النوم بادية على وجهها واظهر من النوم الاستنكار لهذا الطارق الثقيل الذى ايقظها من النوم الجميل ٠ ولكن الطفلة الكبيرة لم تكـد تر فوزى أمامها ، حتى غمرها شعور بالفرح ، فهتفت منادية باسمه وتعلقت برقبته ، وراحت تمطره بوابل من القبـــلات فى كل أجزاء وجهه ٠ وعلى الرغم من أن حواس فوزى كانت كلها متجهة فى هـذه

اللحظات نحو آمال والاطمئنان الى وجودها أولا وقبـــل كل شيء فى البيت ، فلم يستطع ان لايتأثر بهذا الاستقبال الحـــار البريء وان يتجاوب معه ، ولذلك فقد انزل ما كان يحمل من هدايا وأحمـــــال ليكون بقدرته ان يبادل الطفلة عناقا بعناق ٠ وكأن الفتاة أحســـت بغريزتها ان ليس هناك مايقربها الى نفس فوزى فى هذه اللحظة الا ان تهمس في اذنه بأخبار آل البيت ، فرياض وثريا مسافران ، أما (أبلة) آمال فنائمة فى حجرة الصالون ٠ وسأل فوزى سناء وهو يغلق باب الشقة فى صمت وهدوء ـ وماما ؟ صاحية ولا نايمة ؟ وأجابته بأنها لاتزال نائمة فقد ظلت ساهرة طوال الليل ، ولكنها سوف توقظهـا وتوقظ اختيها هناء وصفاء ، وعليه هو ان يوقظ (أبلة) آمال عندما يدخل الى الصالون ٠ وامتقع وجه فوزى لفـــكرة ان يكون هو الذى يوقظ آمال ، وخفق قلبه ووجد نفسه يندفع لتحقيق الاقتراح فهمس فى اذن الطفلة الصغيرة وقد أوشك صوته ان لايكون مسموعا لفرط حرصه على ان لايسمعه « هل تحبينني ياسناء » وأبدت سناء اندهاشها لهذا السؤال الذى كانت تتصوره حقيقة مقررة ، واطمأن فوزى لهذا الجواب فانتقل خطوة ثانية : وهل تعملين ما أشير به عليك ؟ وجاءه الرد بالايجاب مصحوبا بكلمـــة طبعا ٠ وحزم فوزى أمره ومضى فى مغامرته الكبرى أن يكون هو الذى يوقظ آمال بعد ان اطمأن الى معالم الطريق فقال لها : اذن ماعليك اذا كنت حقا تحبينني الا ان تعودى من جديد لفراشك وتواصلى نومك ، ولا توقظى أحدا فى البيت ، لأننى أريد أن يكون حضورى مفاجأة لهم عندما يستيقظون فيجدوننى فى البيت ٠ وظهر الفرح على وجه سناء لأنها تتآمر مع فوزى لمفاجأة من فى البيت واسرعت تتسحب على أطراف أصابعها تنفيذا للخطة بينما راحت تحبس الضحك وتغالبه وتنظر لفوزى غامزة بعينيها ، انهـــا قد فهمت الدور وانها ستنفذه بكل دقة لاحكام المفاجأة ٠

وهكذا وجد فوزى نفسه أخيرا لايفصله عن آمال الا هــذا الباب الذى كان مواربا باب حجرة الصالون ، وبدأ قلبه يدق فى عنف وهو

يفتح باب حجرة الصالون محاذرا ان يحدث صوتا ، وكان ان صـدم بمنظر آمال التى كانت لاتزال نائمة على حشية موضـوعة على الأرض وقد تغطت بملاءة بيضاء ٠ كان منظرها ابعد ما يكون عن هذه الصورة المرتسمة فى خياله، وكان يضاعف فى صدمته قرب عهده بحسناوات باريس اللواتى كان يراهن فى كل مكان ويتعامل معهن فى المطعم وفى المقهى وعند البدال وفى المترو وفى الاوبرا وفى كل مكان ٠ وكان وجه آمال فى هذه اللحظة يؤلف النقيض لهاته الصور التى لاتزال منقوشة بل ومحفورة فى ذهنه وروحه وكل ذرة فى جسده ، لم يكن قد سـبق لفوزى ان رأى آمال على غرة وهى نائمـة ، لم يرها الا وهى متزينة فى أبهى حللها ، أما الآن فقد كانت راقدة أمامه على طبيعتها ٠ كانت معصوبة الرأس بمنديل من هذه المناديل العادية ، وكان المنديل يخفى كل شعرها الذى يؤلف حول وجهها الهالة التى ألفها فوزى وتعلق بها ، وكانت عيناها مغمضتين فاختفى بذلك لونهما الأزرق الذى كان يفتن فوزى ويسحره ، كما كان فمها الواسع وشفتاها الغليظتان بغير رتوش تجملهما ، يعلوهما ذلك الانف الذى حرص فوزى دائمـا على تجاهله ، ولم يكن ذلك فى قدرته فى هذه اللحظة ٠ وهكذا وجـد فوزى نفسه مصدوما غارقا فى الشعور بخيبة الأمل ، على ان هذا الشعور لم يستمر سوى لحظة عابرة ريثما ينزلق بصر فوزى من الوجه الى الجسد الذى كان مغطى بملاءة بيضاء وكانت اقامة فوزى فى باريس قد زودته بالجرأة، وأرهفت مشاعره واحساسه، ولذلك فقد كانت رؤيته لجسدها فى هذه اللحظة بمثابة نجدة لتعلقه بآمال، فقد أحس كما لو كان هذا الجسد يشع حرارة تلهب حواسه كلها ، وتدفعه دفعا لأن يضمه اليه ويشبع رغبته. وتلفت حوله منصتا فوجد البيت غارقا فى سكون عميق، فقد نفذت سناء كل ما طلب منها بدقة ، ولكنه لم يلبث ان كبح فى نفسه هذه الحركة غير اللائقة والتى قد تفزع آمال فتهب صـارخة ، وتطورت الفكرة الى قبلة يطبعها على فمها ليوقظها بها فى حنان ، وهم بانفاذ هذا العزم فعلا ، ولكن آمال فتحت عينيها فى هذه اللحظة بالذات ، وكأن

هذا الاتون المستعر بالعواطف الجياشة والانفعالات قد ايقظهـــا ٠
ووقعت عيناها على فوزى فاختلجتا غير مصدقتين ماتريا ، واغلقتهمـا
من جديد تصورا منها أنها نائمة تحلم ، ولكن مجرد محاولة الاغـلاق
دلتها على أنها لاتحلم وانها متيقظة ، ولذلك فقد أعادت فتحهمـا فى
دهشة لترى فوزى وهو يبتسم ابتسامة عريضة تنطق بشوقه وفرط
هيامه بها ، فقفزت على التو جالسة فى الفراش وهى لاتزال ملتحفة
بالملاءة بينما كانت تهتف « فوزى ؟ » وأجابهـــا فوزى بالفرنسية ،
« أجل ياعزيزتى » ٠ وقد كفى آمال ان تفتح عينيها الزرقاوين وان
تبتسم له فى شوق وترحاب ، لكى تستعيد الكثير من سلطانها عليه ،
ويذهب عنه أثر الصدمة وخيبة الأمل اللذين أحسهما فى اللحظـــة
الأولى ٠ وعندما مدت آمال ذراعها العـــارية الى فوزى وهى تقول له
« أهلا وسهلا ، حمدا لله على السلامة ، ما هذه المفاجأة الجميـــلة » ،
كانت تتسيطر من جديد على كل حواسه وعواطفـــه ، وبادر الى اليد
التى مدت اليه فقبلها قبلة حارة طويلة ، أودعها حديثه الطويل عن
حبه وهيامه ولهفته وشوقه ، واحس فوزى برجفـة آمال تحت وطأة
قبلته ، وكان من الواضح انها تركت يدها مستسلمـة تحت حرارة
هذه القبلة ، حتى اذا انتهت القبلة وكان لابد لها مهما طالت ان تنتهى،
لم تحاول أن تسحب يدها من يده فابقتها حيث كان يريد أن يبقيها ٠
ونظرا الى بعضهما وتكلمت عيونهما بأفصـــح مايمكن ان تنطق به
الشفاه ، وتم هذا المشهد فى سرعة لم تدع لفوزى فرصـــة للتفكير
فى ان يقول شيئا أو يفعل شيئا ، فقد بدأ يجد نفسه فى تيار لايعرف
الى اين يقوده ولا ماهو مصيره ، فظل حائرا مذهولا مبهـــوتا ، يخفق
قلبه بشدة ، الى ان كانت آمال هَى البادئة كما هى العادة فى السيطرة
على الموقف ، فقد سحبت يدها أخيرا ثم ضمت ركبتيها اللتين كانتا
محجوبتين بالملاءة الى صدرها واحاطتهما بذراعيها واسندت ذقنهـــا
اليهما ونظرت الى فوزى فى دلال وســـحر وقالت له : اظن باريس
لطشتك منا ياعم وانستك ايانا ؟ فأجاب فوزى معاتبا : وهل هــذا

معقول ، لقد كنت أراك دائما أينما ذهبت ، ولقد احضرت لك هدية من باريس لتعلمى خطأ تصورك • وصاحت آمال فى فرح : هـــدية من باريس ، بذمتك يافوزى مع قلة نقودك احضرت لى هدية من باريس ؟ واكتشفت لأول مرة أنه كان يوجد الى جوار فوزى عديد من الربط واللفافات • وسحب فوزى احدى هذه اللفافات بينمـــا أغلقت آمال عينيها فى دلال ودلع وقالت له : لن افتح عينى الا بعد ان تفض غلاف الهدية حتى افاجأ بها • وحدثت نفس فوزى مرة أخرى ان يقبلهـــا ويضمها الى صدره فقد كان كل كيانها يدعوه الى ذلك وكل حركاتها، هذه الجلسة البسيطة المتواضعة على الأرض ، هذه الحركة التى تفيض بالاغراء والتشجيع وهى تغمض عينيها وتخاطبه فى دلع ، ولكنه من جديد تمالك نفسه ، فقد كان يرعبه ان يقـــدم على أمر غير لائق قد يعرضه لما يمس كرامته ، ولذلك فقد اكتفى بأن وضـــع العلبة التى جاءها بها بعد ان فض غلافها الخارجى ، وفتحت آمال عينيها فلم تر سوى العلبة المغلقة فراحت تطالع ماكتب عليها : « مخـــــازن اللوفر الكبرى بباريس » فهتفت قائلة : ياعمرى ياعمرى ، مخـــازن اللوفر مرة واحدة ، وأسرعت فوضعت يدها على قلبها فى حركة رشيقة كناية عن قلبها الذى يخفق بشدة من فرط التأثر ، ثم فتحت العلبة فظهرت فى داخلها حقيبة يد من الحرير الطبيعى بنفسجية اللون ، منقوش على أحد زواياها بالألوان الطبيعية زهور متعددة الألوان ، وانفجرت آمال مهللة مكبرة تشيد بالذوق الرفيع الذى يتجلى فى الاختيار وفى اللون، ومبرزة ان الزهور التى تحلى ركن الحقيبة مرسومة بالزيت أى ليست مطبوعة ، وهو أمر لم يكن فوزى يعرف عنه شيئا ، ومضت آمال تفتح الحقيبة فتتأوه اعجابا وهى تلمس بطانتها الحريرية ، وهى تخرج منها أكياسا صغيرة ومرايا ، ثم بدأت تحتج على فوزى ان يحضر لها هــذه الهدية الثمينة التى لايمكن الا ان تكون قد كبدته الكثـــير ، ونظرت اليه نظرة تدعوه الى تقبيلها ، ولكن فوزى كان قد بدأ يسيطر نهائيا على عواطفه وزال من نفسه كل احساس بالاقتحام والتهجم فقـــد كان

فرحا بما احدثته هديته فى نفسها من أثر وقد قضى هـذا الفرح على كل شعور آخر ، وقالت آمال فى نهاية الأمر : كيف اسـتطيع ان اشكرك على هذه الهدية الثمينة الرائعة انك تستحق عليها بوسة ، وأسرع فوزى يقول : هذه بالفعل مكافأتى التى أحرص كل الحرص على أخذها • وتهيأ الاثنان فى ومضة لتقديم المكافأة واستلامها ، عندما دهمهما صوت والدة آمال وهو يلعلع فى الخارج :

ـ احقا ماتقولونه يا أولاد من ان فوزى عـاد من باريس ؟ وكان هذا الصوت كافيا لأن يرد آمال وفوزى عما هما به ، ولكن فوزى لم يشعر بكبير خيبة أمل لذلك فقد كان حسبه ان آمال تلفظت بالكلمة التى يتوق اليها واعتبرته مستحقا لها وقد أصـبح باستطاعته أن يطالب بها فى أى وقت بعد ذلك •

وقد أسعدته العواطف الصادقة من الترحيب الذى استقبلته به والدة آمال عن كل شىء آخر ، خاصة وقد جاء فى اعقابها بناتها الثلاث سناء وصفاء وهناء ، واشـتعل الجو كله بعواطف الترحيب وابداء الأشواق ، وأبى فوزى الا ان يزيد فى اشتعال الموقف فراح يكشف عن الهدايا التى حملها للصغار الثلاث والتى حرم نفسه الكثير ليكون قادرا على شرائها • وكانت هذه الهدايا ثلاث عرائس كبيرة يمثلن غانيات باريس بملابس لويس الخامس عشر ، حيث وصـلت النساء على مايقولون الى ذروة فتنتهن ، ووصلت الملابس النسائية الى مالا يسامى روعة وجمالا • وصرخ الجميع من الفرح لمرأى العرائس الثلاث وكانت آمال أشد الجميع صراخا وهتافا ، واسرعت فوزعت العرائس الثلاث على كنبات الصالون وهى تشهق وتتأوه من فرط الاعجـاب ، ولكن البنات الثلاث رفضن هذا الاقتراح واسرعت كل واحـدة فخطفت عروستها واحتضنتها ثم راحت تعلق على رموش عينيها ، وعلى جمال ثوبها وانه أجمل من ثوبى العروستين الاخريين •

ومضت الساعات سراعا وفوزى لايكـاد يحس بمرور الوقت ، لقد افطر مع الأسرة ، ومكث حتى تغدى معهم ، ولم ينتبه الا والساعة

أشرفت على الرابعة ، وهنا فقط بدأ يتنبه لنفســـــه ويحس بتأنيب الضمير فقد كان يعرف ان محيى وفـكرى ينتظرانه على أحر من الجمر فى بيت البحر • ونظر فوزى فى أسف لآمال وقال لها يجب ان اتركك الآن لأذهب الى بيت البحر ، فلابد ان محيى عاتب على كل العتب •

فقالت آمال غامزة : لاتخش شيئا من محيى وحسبك ان تقول له انك كنت معى ، انك تعرف شقاوة محيى ، سينهـــال ببعض النكت ولكنه سيفهم • وشدت آمال جسدها فى نشـــاط وهى تودع فوزى وسألته قائلة : ومتى سأراك ثانية لنحتفل سويا بعودتك من باريس ، اننى كما ترى لايوجد ما يشغلنى ويكاد يقتلنى السأم ، ولولا فتحية معى لما علم سوى الله ماذا كان يحل بى ، فهمس فوزى فى أذنها سوف أمضى وقتى كله معك وسنذهب الى السنما والى كل مكان ترغبين فى الذهاب اليه بعد ان تقولى لى ما يجب ان اسمعـــه منك • ولم ينتظر فوزى رد آمال على هــــذا التلميح ومضى يقول : أرجو ان تتكرمى بانتظارى هنا بعد الظهر ، وان تكونى على استعداد لفعل ما أطلبه منك • وتلفتت آمال حولها فلما لم تر أحدا يراقبها أحنت رأسها فى حركة مسرحية وقالت فى دلال « تحت الأوامر يا أفندم » •

الفصل السادس

١

كان فوزى راضيا عن نفسه كل الرضا وهو يعود الى بيتـــه فى ساعة متأخرة من الليل بعد ان أمضى السهرة مع أصحابه الثلاثة محيى وفكرى وخالد ، فقد نقل لأصحابه صورة كاملة نابضة بالحياة عن كل ما رأى أو سمع أو عانى فى باريس ، لم يدع شيئا صغر أو كبر لم يصوره بل يجسده لهم ، بالتمثيل ، بالصور ، بالاقسام المغلظة على صحة مايقول ، حتى مغامرته الرهيبة فى بيت من هذه البيوت التى يطلقون عليهـــا فى باريس اسم « البيوت المغلقة » عندما وجـــد نفسه فجأة وسط اكثر من عشر نسوة عرايا كما ولدتهن امهـــاتهن ، فاحدث ذلك له صدمة نفسية وأحس بالغثيـــان وطلب من زميـــله البلجيكى الذى قاده الى هذا المكان ان يخرجه منه،وحتى يصدق اصحابه هذه القصة أراهم احدى الصور التى أخذت فى بيت من هذه البيوت ، والح عليه محيى ان يزيدهم من تفصيلات ماعاناه فى هذا البيت ولم يبخل فوزى على صاحبيه محيى وفكرى بأدق التفاصيل لأن خالد كان هو الوحيد الذى أزور عن سماع تفاصيل هذه القصة ، ولم يقبل على فوزى من جديد الا عندما سمعه يقول انه لم يكد يرى هذا المشهد حتى طلب من صاحبه وتوسل اليه أن يخرجه فورا من هذا المكان ، ثم راح فوزى يندد بهذه الناحية ، وان هذا الجانب هو الذى يجعله يعتقد ان فرنسا لايمكن الا ان تكون فى طريقها الى الانحلال ، فلا يمكن ان تكون فرنسا العظيمة قد قامت على هذا اللون من الاتجار بالاجساد البشرية كما لو كانت قطيعا من السائمة أو المواشى ٠ وقد أصبح فوزى يعتقد

بعد ان رأى ما رأى فى هذا البيت ان البغايا هن أتعس النســاء على ظهر الأرض وان ليس هناك جريمة يمكن ان ترتكب فى المجتمع اكثر من تحويل نفر من نسائه الى هــذا اللون من العبودية والهــوان ٠
وانتهت السهرة وصحب خالد فوزى حتى باب بيته فى المنيرة ، ومضى بعد ذلك سيرا على قدميه من المنيرة حتى بيتهم فى الحلمية فـلم تكن هناك مواصلات فى هذه الساعة المتأخرة ٠ واذ اخلد فوزى الى نفسه فى نهاية الأمر بعــد ان فرغ من الواجب الأول الذى كان يراه لزاما عليه ، وهو أن ينفض عن نفسه حصيلة ما رآه الى اخوانه ، فقد بدأ يفكر فى انفاذ الخطة التى مافتىء يرسم خطوطها ، وينسج حبالها مذ قرر السفر الى باريس ، وهو ان يكاشف آمال بحبه لها فى خطــاب مكتوب وان يطلب منها ان ترد عليه بخطــاب مكتوب كذلك ، ليكون الخطابان وثيقة على حبهما وتكريسا لهذا الحب ٠ ولكى يجعل لارسال الخطاب منطقا فقد رسم فى خطته ان يسافر الى رأس البر بحجة شوقه لرؤية رياض ثم يبعث اليها من رأس البر الخطاب ، ولكنه أصبح فى عجلة من أمره ، ولم يعد قادرا على ان يؤخر توصيل الخطاب اليهــا أكثر مما تأخر ، ولم يكن مستعدا ان يجازف بارسال الخطاب اليهــا بالبريد ، حقا ان البريد هو أحد مفاخر مصر على مايقول الانجــليز ، وقد لايضيع خطاب فى كل بضعة ملايين ، ولكن من أدراه ان لايكون خطابه هو هذا الخطاب الضائع فى كل بريد مصر ؟ لا انــه يجب ان يقدم الخطاب لها ويسلمه اياها يدا بيد ٠ واختــار لذلك ان يدعوها لتوصيله وتوديعه فى المحطة عند ســفره الى رأس البر ، فاذا لبت الدعوة سلمها الخطاب ، واذا اعتذرت لأى سبب من الأسباب عــدل عن تسليمه لها ٠

وحققت آمال شروط فوزى التى اشترطها بينه وبين نفســه ليسلمها الخطاب فوقفت تودعه بكل زينتها وفتنتها على الرغم من أنه كان يسافر فى الدرجة الثالثة مما جعله هو نفسه يتضايق من أجلها ويزيد فى اكباره لها ٠ وكانت طول الوقت تبتسم له من كل قلبهــا

والسعادة تطفح من وجهها ، وناولها فوزى الرسالة عقب دق الجرس الأول فأخذتها آمال فى صمت كما لو كانت تتوقعها وتعرف محتوياتها ووضعتها فى حقيبتها الجديدة التى حملها فوزى اليها من باريس ٠ وقال لها فوزى هامسا : أرجو أن تطالعى هذه الرسالة بمجرد عودتك الى البيت ، وان أتلقى منك ردا سريعا عليهـــا ٠ ولم تعلق آمال على حديثه عن الرسالة بشىء ، بل طلبت منه أن لايطيل اقامته فى رأس البر فستكون فى انتظاره على أحر من الجمر ، ليحتفلا سويا كمـــا وعدته بعودته من باريس وتشكره على هديته ٠ ولم يعد فوزى قادرا على سماع أكثر مما سمع فقد بلغ به الانفعال مداه واراحه القطار نهائيا اذ تحرك ، ووقفت آمال تلوح له بيدها الجميلة مودعة وقد افتر ثغرها عن أحلى ابتسامة شهدها منها فى يوم من الأيام ٠

٢

حبيبتى آمال

منذ اليوم الذى قال لى فيـــه أخوك رياض ان اختى آمال تبعث بتحياتها اليك من لندن ، وقد خفق قلبى كما لم يخفق من قبل ٠ ومنذ هذه اللحظة أصبح مجرد سماع اســـمك يدفع بقلبى الى الخفقان على الرغم من اننى لم أكن قد رأيتك بعد ٠ وعندما تقابلنا للمرة الأولى ، اتذكرين هذه المقابلة الأولى ؟ اما انا فاذكرها ، انها منقوشـــة بكل دقائقها على صفحة روحى ، كل كلمة خرجت من فمك ، كل حركـــة صدرت من يدك ، حتى حفيف ثوبك الأبيض ذى النقط الكبيرة الحمراء والذيل الفضفاض ، يتراءى أمامى الآن فى هذه اللحظات التى أكتب فيها اليك هذا الخطاب ٠ مازالت كلماتك الانجليزية تطن فى أذنى ، قبعتك ، ذات الحوافى العريضة ، عطرك الذى كنت تتعطرين به ، كل ذلك منقوش ومسجل ، واذ تعاودنى ذكرى ذلك اليوم وكيف انتهى فانى أشعر من جـــديد بالغصة والحسرة التى عانيت منهـــا وأنت تراقصين الدكتور ممتاز ٠ اتذكرين يا قاسية هذا الموقف ، أتتصورين

ان ضحكاتك فى تلك الليلة مازالت وكأنها طعنـــات أحســـها الآن بالرغم من انقضاء هذا الوقت الطويل · اتصدقين انك كنت معى فى كل مكان ذهبت اليه فى باريس ، كم من مرة تمثلت صورتك فى وجه من يحدثننى من النساء ، كم من مرة تصورت اننى اسمع صـــوتك وخاصة عندما كنت اتقابل مع هاته الفتيـــات الانجليزيات اللواتى يعبرن المانش ليقضين عطلاتهن فى باريس ·

وهكذا مذ عرفتك يا آمال وأنت محور تفكيرى بالليل والنهار · كم حاولت ان اردع نفسى عن حب تصورت ان لا أمل فيـــه ، ولكنى لا أكاد أراك ، لا أكاد أســـمع صـــوتك ، لا أكاد انظر الى عينيك الزرقاوين ، او المس يدك حتى تنهار كل مقاومتى واستسلم ، استسلم لهذا الحب الذى يدفىء صدرى وينعش روحى · ولكم هممت أكثر من مرة أن أفاتحك بحبى ، فكان يردنى الخوف من ان تتسرعى فلا تفهمين حقيقة مقصدى ، وان حبى لون من ألوان العبث الذى اعتاده الشبان · ولكنى رحت أراجع موقفك منى ، فوجدتك لم تبخلى على بأرق العواطف والمشاعر ، واسعدتنى بصـــحبتك مما لايكون الا بين حبيبين ، أولم نذهب سويا الى السنما ؟ أولم تحضرى محاضراتى ومناظراتى ؟ أولم نقض سويا أجمل ساعات عمرى عند الهرم ؟ وأخيرا ألم تتقبلى هديتى المتواضعة ، وقلت ما قلت عن نوع المكافأة التى استحقهـــا ؟ فكيف يجوز لى بعد ذلك كله ان أتردد فى مكاشفتك بحبى رسميا ، الا أن يكون ذلك جبنا منى وامتهانا لعاطفتك ؟

ياحبيبتى الغالية

سأنتظر ردك بفارغ الصبر بانقرب من أخيك رياض أحب الناس الى ، ولا أكاد أتسلم هذا الرد حتى أكاشفه بحبنا فقـــد حان الوقت الذى يجب أن يباركه فيه. لقد كان يحز فى نفسى حزا ان أخفيت حبى لك عن رياض ، وان كنت لا اشك فى انه قد حذره · لست أعرف وقد وصلت الى هذا الحد من خطابى لماذا مر فى رأسى خاطر ان اكون واهما فى تصوراتى ، وان ماحسبته حبـــا منك هو شىء غير ذلك ،

فاناشدك الله لو صح هذا ان لاتقولى لى ، اكـــذبى على ترفقى بى ، اتوسل اليك ان تخدعينى اذا كنت لاتحبيننى حتى لا أموت كمدا • وأسفا أيتها الحبيبة الغالية انظرى كيف أضل حبك صـوابى ، فلم أعد أعرف ماذا أقول واصبح حديثى أقرب الى الهذيان • كيف أطالبك ان تخدعينى وان تكذبى على ، مع أننى لم أرسل هذا الخطاب الا لأقف على الحقيقة ، الحقيقة الكاملة السافرة ، لأضع حدا لهذا العذاب الذى أعانيه ، عذاب الشك • هل تحبيننى أم لا ؟ قولى يا آمال ، قوليهـــا صريحة عالية قاطعة وبأسرع ماتستطيعين • اننى ارتجف ، لم أعـــد أعرف ماذا أقول ، فليتولنى الله برعايته •

المخلص الى الابد « فوزى »

ظلت آمال مذهولة مهتاجة العواطف عقب قراءتها هذا الخطاب ، وراح قلبها يدق فى عنف ، وأنفاسها تتصاعد متلاحقة ، وقد غمت عليها حقيقة مشاعرها التى اختلطت وتلاطمت فتحولت الى انفعـــال شديد غير واضح المعالم وان راح يعصف بها عصفا • لم يكن الخطاب من غير شك مفاجأة لها لقد توقعت محتوياته بمجرد تسلمه ، لقـــد كانت فى شوق لمطالعته فلم تكـــد ترجع من المحطة حتى أسرعت الى الى البيت واختلت بنفسها فى حجرة النوم وأغلقت الباب وراءها حتى لايزعجها اخوتها الصغار ، وفضت الخطاب لتطالعه حتى قبـــل ان تخلع قبعتها ، وهاهى ذى تجلس وهى تنتفض وترتجف عقب مطالعتها للخطاب الذى كانت ترجوه وتتمناه وتسعى اليه • ومع ذلك فلم تكن تعرف بعد أن اتمت قراءته ، اذا كانت سعيدة أم تعيسة ، راضية أم حانقة • كان الخطاب يبلور الحقيقة التى كانت تسعى جاهدة لكى لاتواجهها ، وطالما هربت منها ، الا وهى ان الشـخص الوحيد الذى وقع فى حبها خلال العامين اللذين انصرما بعد عودتها من انجـلترا ، هو شاب صغير يصغرها بستة أعوام ان لم يكن اكثر ، وهو لايعدو ان يكون طالبا فقيرا يعيش على مايقـــدمه له والده من مصروف • وهى لاتنسى الخجل الذى تجرعته منذ لحظات من أجله ، وهى تودعه أمام

احدى مركبات الدرجة الثالثة • كان هذا هو مرسـل الخطاب الذى فرغت من مطالعتـه الآن ، أين ذهبت احلامها الكبـار التى كانت تراودها وهى فى طريق عودتها الى مصر ، اين القصور التى بنتها فى الخيال ؟ اين العشاق والعرسان الذين كانت تمنى نفسها بهم، وتتصور ان سيكون من الصعب عليها ان تفاضل بينهم ؟ لقـد ضاع ذلك كله وتبدد وليس سوى فوزى السيد على الذى أحبها واقبل عليها الاقبال الذى يرضى عاطفتها • ولقد أصبح فوزى بالنسبة لها صاحبا يمـلأ نفسها بهجة ، أصبحت تحب حديثه ، تنفعل تحت وطأة عاطفتـه الجياشة بحبهـا • ولكن أهى تحبه الحب الذى يملك عليهـا كل مشـاعرها وحواسها ، الذى يجعلهـا لاتتصور الحيـاة بغيره ؟

وراحت آمال تلتمس من جديد توضيح مشاعرها فطالعت الخطاب مرة ثانية ، وهى تقف أمام كل عبارة وكل كلمة ، فلم تزدها هـذه المطالعة الجديدة الا تعميقا للأحاسيس المتضاربة فى نفسها ، فحرارة الخطاب المتدفقة تلهب جسدها وتشعرها بالنشوة ، وحديثه عن تعلقه الشديد بها واضطرابه من فكرة أن لاتكون تحبه تملأها زهوا واغتباطا، ولكنها راحت تسـائل نفسـها ما الذى يعنيه فوزى بالحب ورغبته فى أن يكرسـه وان يسجـله بالكتابة وان يطلع رياض عليـه ؟ لايمكن ان يكون يعنى به الزواج ففكرة الزواج من فوزى لم تمر لهـا فى خيال وما كان يمكن ان تمر ، وهو الطالب الفقير الذى يصـغرها بهذا العديد من السنوات • هل من المعقول ان تربط مصيرها بمصير هذا الشاب منذ الآن وان تظل تنتظر ، تنتظر حتى يتخرج ويبحث له عن عمل ؟ أو تسد على نفسها منذ الآن فرصتها التى مافتئت تحلم بها من ان يتقدم لزواجها بعض الاغنياء أو أصحاب الجاه والنفوذ ؟ ان هذا لايمكن أن يكون • فما دامت لن تتزوجه ، فمـا هو مآل الحب الذى يريد منها ان تبادله اياه وان تعترف له به كتابة ؟ أيريد منها ان تقول له ، على الرغم من أنها لن تتزوجـه ، فهى على اسـتعداد أن تكون عشيقته ؟ وغلا الدم فى رأس آمال لمجرد مرور هذه الفكرة فى رأسها

وتملكها الغضب ، فقد أساء هذا الشاب الطائش فهم ملاطفاتها له ، وقد تكون تورطت معه فى بعض الالفـــاظ والحركات التى شجعته على هذا الاجتراء ، ولكن الساعة قد حانت لوضع الأمور فى نصابهـــا واعادته الى عقله وصوابه. واسرعت آمال الى أوراق خطاباتها فاخرجت منها واحدا وراحت تخط عليه فى عصبية وقد تملكها غضب شديد : «فوزى ؟ كيف تسمح لنفسك أن تكتب لى مثل هذا الخطاب ، فى الوقت الذى لم أعتبرك فيه فى أى يوم من الأيام الا بمثابة أخى الصـــغير ، ولذلك ارجو ان تعتبر كل صلة بيننـــا قد قطعت وانتهت . آمال » . وأودعت آمال الخطاب أحد الظروف ، وكتبت عنوان أخيها فى رأس البر ثم أضافت « ومنه يسلم الى فوزى أفندى السيد على » ووضعت تحت هذه الجملة خطا بالأحمر لتلفت نظر أخيها حتى لايفتح الخطاب، ولم تعد تبالى لو انه فتح الخطاب فليس فيه مايخجلها أو تخشى من ان يعرف . ولصقت طابع بريد كان معها ونزلت من البيت على عجـــل وألقت بالخطاب فى أول صندوق للبريد صادفها .

ولم تكد تقذف بالخطاب ويستقر داخل الصندوق حتى احست كما لو كانت قد أفاقت من كابوس مخيف، وراحت تسائل نفسها ماهذا الذى فعلته ؟ ولم تستطع ان ترد على نفسها برد واضح ، وعلى العكس من ذلك بدأت تحس بوحدة شديدة ووحشة . لقد كانت علاقتها بفوزى قد بدأت تدفىء حياتها ، لقد بدل صحراء حياتهـــا التى كانت تعيش فيها الى واحـــة وارفة الظلال ، انهـــا لايمكن ان تنـــكر على نفسـها كم كانت سعيدة بالأمس معه ، سعيدة بهديته ، سعيدة بعينيه اللتين يلتهمانهـــا التهـــاما وخاصـــة بعد عودته من باريس . وتصبب العرق من جبينها ، ومرة أخرى سألت نفسها ماهـــذا الذى فعلت ؟ لماذا تسرعت هكذا ، اما كان يمكن ان أعالج الموضوع بطريقة أحسن ؟ وتمنت لو كان باستطاعتها ان تسترد الخطاب ، ولكن هيهات ، فقـد بدأ الخطاب رحلته وقال القدر كلمته ، ومن يدريها ان هذا الذى فعلته ليس الا عين الصواب الجدير بمركزها ومكانتها . ومع ذلك فقـــد

أحست بالضيق والوحدة والوحشة وقفز الى ذهنها اسم صاحبتهـــا فتحية ، واصفر وجه آمال وهى تتساءل أين ضاع هذا الاسم من رأسها قبل الآن ؟ أما كان يجب أن تعرض الأمر عليهـــا ، اما كان يجب ان تستأنس برأى فتحية ؟ اما الآن فلم يبق الا ان تذهب اليها وتحدثها عن تصرف تم وانقضى • ما أحوجها ان تسرع لفتحية ، انها تريد ان تبكى ، تريد ان تبكى •

٣

خفق قلب رياض وهو يقلب الخطاب الذى اسلمه له ساعى البريد منذ لحظات ، والذى كان عليه ان يسلمه بدوره لصاحبه فوزى الذى سبقه الى شـــاطىء البحر ، لقد كان رياض يعرف هــذه الاظرف السماوية اللون والتى اعتادت اخته آمال ان تكتب عليها خطاباتها مذ سافرت الى انجلترا ، وكان من المحال ان يخطىء خطها فقـــد ظلت تراسله وتكتب له بهذا الخط خمس سنوات ، فما الذى كتبته لفوزى، وماذا بينها وبين فوزى ؟ كانت تربية رياض واخلاقه تجعله لايمكـن ان يقدم على فتح خطاب ليس خاصا به ، ومع ذلك فقد تملكه شـــعور جارف ان يفتح هذا الخطاب الصادر من اخته الى صاحبه • انه لم يكن غافلا عن تطور العلاقة بين آمال وبين فوزى ، ولم يكن راضيا عن هذا التطور ، ولكنه لم يعرف كيف يتصرف ، لقد كانت آمال اختـه التى تكبره ، وكانت ثقته بأخلاق فوزى وانه لايمكن أن يقدم على عمل فيه اخلال بالوفاء أو الشرف تجعله يمتنع عن توجيه أى ملاحظة لصديقه حول موضوع علاقته بأخته الكبيرة • اما الآن وفى يده خطاب من آمال فقد تصور ان واجبه نحو اسرته ونحو أخته وصديقه معا ، ان يطلع على فحوى الخطاب فاذا انطوى على ما لايليق ، تصرف بما يمليه عليه الواجب ، اما اذا كان خطابا بريئا فما عليه الا ان يعتذر لفوزى ويدعى انه فتح الخطاب خطأ •••• وتردد بعض الشىء ولكن حب الاستطلاع لم يلبث ان طغى عنده على كل شىء •

وامتقع وجه رياض هو يطالع الخطاب فقد فهم منه الكثير ، فهم منه ان لابد ان فاتح صديقه أخته بعاطفة لم ترض عنها ، فردت عليه هذا الرد الذى أدرك رياض مدى قسوته • وحار رياض ماذا يفعل وكيف يتصرف ، انه لايعرف محتويات خطاب فوزى الذى ردت عليه آمال بهذا العنف ، ورياض لايرضيه بطبيعة الحال ان يفاتح فوزى أخته بالحب من وراء ظهره ، ولولا ان الخطاب كان موجها الى اختـه الكبيرة ، لاطلق لغضبه العنان ، فلو كان الخطاب لثريا مثلا التى يعتبر نفسه مسئولا مسئولية كاملة عنها ، لكان له شأن مع فوزى غير هـذا الشأن • اما بالنسبة لآمال فالوضع متغير بعض الشيء • لطالما أخـذ على اخته نزعتها المتطرفة للاستقلال بتصرفاتها ، وتحررها وانطلاقهـا المبالغ فيه ، فكانت تطلب منه ان لايتدخل فى شئونها ، ولم تكن آمال تعمل حسابا لأحد فى كل الاسرة الا لأختها مفيدة ، وحتى بالنسبة الى مفيدة فقد كان ذلك الى حد معين • وكان رياض يعلم عن يقين ان آمال قد خرجت مع فوزى بمفردها ، وانها ترددت على بيت البحر فى غير مصاحبته اكثر من مرة ، واذن فلا لوم أو تثريب على فوزى اذا كتب لها الخطاب الذى أغضبها الى هذا الحد ، وتلهف الى معرفة محتويات هذا الخطاب.
على ان المشكلة الملحة التى كانت تواجهه فى هذه الساعة ، هى ما الذى سيفعله بالخطاب ؟ لقد احس ان ليس بقدرته ان يسلمه لفوزى لما سيسببه له من ألم وخجل معا ، ولم يكن رياض يحب ان يخوض مع صاحبه فى هذا الموضوع الشائك فى هذه اللحظة التى ينزل فيهـا ضيفا عنده ، وكان يشفق على فوزى من الحرج الذى سيجد نفسـه فيه ، عندما يعرف ان رياض قد كشف سره بهذا الاسلوب ، وكانت الطريقة التى كشف بها رياض السر فى الواقع هى التى جعلته يقرر ان يخفى أمر الخطاب على فوزى ، بعد ان بدأ يحس أنه اقـدم على مالا يليق بفتحه خطابا لم يكن موجها له ، وفكر رياض ان ليس سوى محيى من يحل هذا الاشكال ، فسوف يعرض عليه الموضوع برمته ، ويعهد اليه هو ان يوصل الخطاب لفوزى شارحا له الخطأ الذى وقع

فيه بفتحه اياه • وكان يساعد على هذا الحل ، ان رياض لم يكد يرى فوزى حتى قرر فى غمرة فرحته بلقائه ان يعود معه الى القـاهرة فى الوقت الذى يقرر فيه فوزى هذه العودة •

وظل الصديقان ، رياض وفوزى ، صامتين على خلاف العادة طوال الرحلة من رأس البر حتى القاهرة ، وكان هـذا الصمت من ناحية رياض يحير فوزى أشد الحيرة ويقلقه ، وراح يتسـاءل بينه وبين نفسه ، ما الذى يبقى رياض صامتا لايحير جوابا ، أيعرف ما يعتلج فى نفسه من احزان لعدم تلقيه الخطاب الذى كان ينتظره من اختـه فهو يحترم حزنه ، أم أن عدوى الصمت قد سرت من فوزى الى رياض؟ ايا ما يكون تفسير الصمت الذى التزمه رياض ، فقد جعل فوزى يحس من جديد نحوه، بالحب والعرفان بالجميل فهذه الحساسية التى كان يتمتع بها رياض أزاء مشاعر فوزى هى التى ربطت بينهما بهـذا الرباط القوى • وقد كان مايعجب فوزى فى صمت رياض ، انه كان مريضا لايحتمل وقع حديث من أى نوع كان ، كان يتمنى لو كان يعود وحيدا ولو لم يصحبه رياض ، كان يريد ان يجد الدمع سبيلا الى عينيـه ، فليس سوى الدموع ما تستطيع ان تفرج عنه ما كان يملأه من يأس وقنوط • وكثيرا ما حاول أن ينحى على نفسه باللائمة لهذا التشاؤم الذى لامحل له ، اولا يجوز ان يكون خطاب آمال قد تأخر فى الطريق فلم يصله ؟ حقا انه يعلم ان مصلحة البريد تعمل كالساعة الدقاقة ، وان أى خطاب يرسل فلابد ان يصل الى مستقره فى اليوم التـالى وهو لاينسى ماتنشره الصحف من محاولات افراد من الجمهور لكتابة العناوين على طريقة الألغاز ، ومع ذلك فمصلحة البريد تأبى الا أن توصل الخطابات الى مستقرها ، ومع ذلك فلكل قاعدة استثناء ، وقد تكون آمال تأخرت بعض الوقت قبل ان ترد ، أو ليس من الجائز ان تكون قد مرضت ، وهكذا يروح يبحث عن عديد من الاحتمالات التى تبرر تعطيل وصول الرد اليه ، لكى يعزى نفسه ويقاوم الاحسـاس بالقنوط الذى يستولى عليه بقوة ، ولكن ذلك كله كان بغير جدوى ، فقد كان قلبه يحدثه أنه يعيش فى قلب كارثة عاطفية •

ووصلا أخيرا الى محطة القاهرة ، فسأل رياض فوزى عما اذا كان ذاهبا الى بيت البحر ، فأجابه فوزى أنه متعب ومتوعك المزاج ولذلك فسوف يقصد الى البيت ليأخذ قسطا من الراحة، وسأل فوزى رياض بحركة آلية عما اذا كان ذاهبا الى البيت ، فأجاب رياض بأنه سيقوم بواجب ينبغي عليه ان يؤديه أولا قبل ذهابه ألى البيت، وعض رياض شفتيه بعد التلفظ بهذا الرد والذى كان قمينا لو كان فوزى فى ظروف عادية أن يؤدى الى الوقوف على حقيقة المهمة التى سيضطلع بها ، ولكن فوزى لم يع ما قاله رياض فقد كان يعيش فى هذه اللحظات فى دنيا غير الدنيا ٠

٤

لم يتوجه فوزى ألى بيت البحر الا فى عصر اليوم التالى لعودته من رأس البر ، فاذا به يفاجأ بمحيى وفكرى يستقبلانه استقبالا حارا بمجرد ظهوره فى أول الطريق ، وأحس بلذعة من الألم عندما أدرك انهما يحيطانه بعطف غير عادى لايعامل به الا المنكوبون والمحزونون ٠ وكاد فوزى يصعق عندما علم ان رياض قد جاء لمقابلتهما بالامس عقب وصوله من المحطة ليسلم محيى رد آمال على فوزى الذى كان يحمله فى جيبه طول الوقت ٠ ولم يكن فوزى فى هذه الساعة حريصا على ان يصفى حسابه مع رياض وموقفه منه ، قدر ما كان متلهفا على مطالعة رد آمال ، الذى فهم أنه يوجد مع محيى ٠ وطلب الخطاب بصوت جعله الغضب والانفعال الشديد مخنوقا ، فتراجع محيى بحركة لاشعورية أمام صاحبه وقال له انه يستحيل عليه ان يعطيه الخطاب الا بعد أن يهدأ ، وان ينظر الى الموضوع فى بساطة فلا يهول فيه ٠ وانطلق محيى يذكر فوزى انه طالما حذره من آمال وتمردها ، وانها ليست أهلا لحبه أو عطفه فهى من طراز غير طرازه ، وان خطابها لم يدهش محيى فى قليل أو كثير ٠ ولم يرد فوزى على شيء من ذلك كله ، الا بأن صاح وقد نفد صبره طالبا ان يسلم اليه الخطاب الذى يحاول كل انسان ان يخفيه عليه ٠ ولكن محيى استجمع قوة ارادته يساعده على ذلك فرط

عطفه على فوزى ، وامتنع عن تسليم الخطاب الى فوزى قائلا له : كيف أسلمك الخطاب وانت فى هذه الحالة من التـأثر ؟ وانفجرت براكين الغضب الذى كان يستعر فى نفس فوزى وصاح بمحيى : اتظننى طفلا صغيرا لايقوى على تلقى الصدمات ، اتخشى أن أقع مغشيا على عندما أطالع خطابها ؟ اطمئن ياصديقى فاظنك تعـــلم أن لدى من الغرور والحمد لله ما يجعلنى لا أنهار عندما ترفض فتاة عابثة الشرف الذى أردت أن أضفيه عليها بأن اجعلها موضع حبى وان اتخذ منها زوجـة لى • أرجوك ان تكون على ثقة أن ليس أحب الى نفسى من أن أضع حدا لهذه العلاقة غير الطبيعية التى ربطتنى بآمال ، واذا كنت متلهفا على مطالعة خطابها الذى اصبحت متأكدا من مضـــــمونه ، فليس ذلك الا تلبية لغريزة حب الاستطلاع وتشوقى الشـــديد لأعرف ما الذى قالته لى ردا على خطابى • ونظر فكرى لمحيى وقال له : أولم أقل لك ان فوزى لايخشى عليه من هذا الموضوع ؟ وقال محيى : لست أشك فى ذلك ، ولكن المسألة اننى أريد أن أجنبه المرارة التى سيحس بها بعد مطالعة الخطاب ، ولكن يظهر ان ذلك غير ممكن • ومد يده فأخرج من جيبه خطابا اسلمه الى فوزى الذى خطفه من يده خطفا ، ولكنه لم يكد يستقر فى يده ويطمئن الى أنه أصبح فى حوزته ، حتى راح يتأمله فى بطء مستأنيا فى فتحه • وكان الظرف الخارجى مصنوعا من الورق السماوى اللون وقد كتب عليــــه بخط جميل عنوان رياض ، على ان يسلم الى يده ، ولا يستطيع رياض ان يحتج بفتحه خطأ فقد كان هناك خط أحمر واضح يلفت النظر لوجوب تسليم الخطاب اليه ، ولم تكن هذه سوى ملاحظة عابرة ، فقد كان ما يشغل فوزى الآن فى الدرجة الأولى هو ان يطلع على الخطاب نفسه ، وطالعته صفحة الخطاب وهى لاتحوى سوى سطرين اثنين اسرعت عيناه تلتهم ماخط فيهما ، وظل فوزى مشدوها واجما لعدة ثوان بعد مطالعته الخطاب ، ثم لم يلبث ان راح يتمتم ببضع الفاظ لم يتبين صديقاه حقيقتها فى بادىء الأمر، ولكنه راح يكررها أكثر وضوحا واصفا آمال بالقحة وخطابها بالقحة•

وأسرع محيي يقول بقصد تهدئة فوزى : لاجدال ان أصدق وصف لخطاب آمال هو القحة • وهدأ ذلك بالفعل من حزن فوزى وألمه ، فتنفس نفسا عميقا ثم غرق فى بحر من الصمت • واستأنف محيى الكلام لأنه كان متأكدا أن ليس هناك ما يخفف عنه فى هذه اللحظة الا أن يتولى هو التعبير عما يمكن ان يجيش فى نفسه : لست أعرف كيف سولت آمال لنفسها ان تكتب لك بهذا الاسلوب الجاف الخشن الذى لايعبر بحال عن حقيقة العلاقة بينكما ، لطالما وصفتها بأنها نمرة متمردة ، ولكنها فى هذا الخطاب تبدو لغزا غامضا • ان من كان يراها معك مرة واحدة لايمكن ان يشك فى أنها مدلهة بك • وقاطعه فوزى قائلا : أتذكر ليلة الهرم ؟ فقال محيى : ومالك لاتذكر ماقصصته على من طريقة استقبالها لك بعد عودتك من باريس • وران من جديد الصمت على الاصدقاء الثلاثة ، وكان من الواضح ان القوة الغضبية فى نفس فوزى هى التى أبقته متماسكا حتى الآن ، فاما وقد زالت عنه صدمة المفاجأة ، وتولى عنه صاحبه اظهار الاستنكار ، فقد بدأ الألم ينهشه ويفترسه • وكان فكرى أول من أحس بهذا التغيير ، فهب من جديد الى نجدة فوزى بالحملة على آمال فراح يقول : انها مجنونة ، اقسم بالله العظيم انها مجنونة وستظل طول حياتها تأسف على مافعلته معك مستحيل ان تصادف قلبا مثل قلبك • وانهار فوزى تحت وطأة هذه الكلمات الحانية ، فانهمرت الدموع من عينيه وراح يقول فى اضطراب وتلعثم وقد فقد كل سيطرته على نفسه : أن الذى يحز فى نفسى ، هو اكتشافى اننى كنت محل عبثها ولهوها ، وكانت تخدعنى وتتسلى بعواطفى ، ولقد حذرتنى يامحيى من ذلك ، فتصورت انك قد قسوت عليها ، وهاهى الأيام تثبت صدق رأيك فيها ، ولكن لماذا ، لماذا فعلت بى ذلك ؟ واجهش فوزى فى بكاء حار وصوت مرتفع ، وخف اليه محيى وهو لايقل عنه تأثرا وضمه الى صدره • وقال فكرى : والله انها لاتستحق كل هذا العناء • فرد عليه فوزى قائلا : اننى لا أبكى من ضعف أو ألم ، وانما هو التأثر لهول الخديعة التى كنت

غارقا فيها ، وستراني الآن وقد أصبحت على مايرام وعلى خير ما تحب ان أكون عليه • لقد كنت محتاجا لمثل هذه الصدمة كي اشفى نهائيا من هذا المرض الذى أصابنى ، فليس الحب فى تصورى الا نوعا من المرض لمن كان يريد ان يكرس حياته لخدمة بلاده ، كما آلينـــا على أنفسنا ان نفعل • ليس لدينا وقت لنضـــيعه فى الحب والعشـــق والغرام ، واننى لشاكر وممتن لآمال أن أعطتنى هذا الدرس القاسى الذى سينفعنى ما بقيت على ظهر الحياة •

٥

كان الذى يشغل بال فوزى فى الدرجة الأولى بعد ان أســدل الستار على علاقته بآمال هو تأثير ما حدث على علاقته برياض الذى لم يره منذ وقوع الحادث ، والذى سمح لنفسه أن يفتح الخطاب الخاص به وان لايسلمه اياه ، ويزيد على ذلك كله ان يكتم الامر عنه ، مما جعل الغموض يشوب تصرفاته وليس يعرف فوزى ماهو موقف رياض منه بعد حدوث ما حدث ، أتراه ينقم منه ان خاطب اخته بما خاطبه بهـا وما هو موقف أسرة رياض كلها منه الآن ؟ ايعتبرون ما وقع فضيحة يحملون فوزى مسئوليتها ؟ أوصل الخبر الى مفيدة الكرمانى اختهـم الكبيرة ؟ أهم ناقمون عليه الآن أم يسخرون منه ؟ كانت هــذه هى الافكار والوساوس التى أصبحت تنغص على فوزى حياتــه • وكان يمكن أن تمضى الاسابيع تلو الاسابيع دون ان يفكر فى الاقتراب من بيت رياض ، لولا ان رياض كان هو الذى سعى اليه •

وتعانق الصديقان فى حرارة ، ومضى رياض يقول معاتبا :

ـ أين أنت ياسيد فوزى ، هل قاطعتنا نهائيا ؟ وما ذنبنا يا أخى اذا كنت أنت لاتحسن اختيار من تتجه اليـــه بعواطفك ليكون شريك حياتك ؟ وأوشـكت الدموع ان تطفر من عينى فوزى من فرط تأثره لهذا التعبير الجميل الذى جعله يدرك الكثير من عواطف رياض وانه كالعهد به صديقه الحبيب الذى يؤمن به ويثق باخلاصــه • ومضى

رياض يقول لصاحبه : لقد كنت واثقا من انك ستصل الى هـــذه النتيجة ، ولكنى لم اكن أعرف كيف أنبهك دون أن أجرح شعورك ، ولو كنت مكانك لحمدت الله على ان الأمور وقفت عند هذا الحـــد ٠
وازداد انفعال فوزى وتأثره فتهدج صوته وهو يقول لصديقه :

ـ لقد كانت هى التى دفعتنى دفعا للتصور أنها تبادلنى حبـــا بحب ، كان يستحيل على بعد ان أصبحت تخرج معى وتســـهر ان لايكون بيننا علاقة رسـمية ، وعندما جئت اليك فى رأس البر كان بقصد ان أحيطك علما بما اتفقنا عليه ، فلم اكن اتصور ردها سيكون على هذه الصورة ٠ ان أعز أمنية لى بعد صداقتنا الوطيدة ان أرتبط معك برباط المصاهرة ٠ وقال رياض : وهذا هو عين ما أتمنـــاه ، ولطالما حلمت باليوم الذى أراك فيه واختى ثريا عروسين ٠ ان ثريا يافوزى هى موضع فخارى واعتزازى وهى التى تصلح لأن تكون زوجة لك ، ولكنك مع شديد أسفى ، لم تكـــد تتعرف الى آمال حتى فتنت بمظهرها البراق ، وفتنت بتصرفاتها الانجليزية ، وعبثا حاولت أن ألفت نظرك لبعض الحقائق ، فأشكو أمامك من أنانيتها وعجرفتها ، فقد كنت سادرا فى اندفاعك العاطفى نحوها ، كما هو شأنك فى أى أمر من الأمور ٠ اننى شقيق آمال وأقرب الناس اليها وأعرف أنهـــا لاتقيس الرجل بشخصيته بل بغناه وفقره ، وكثيرا ماحدثتنـــا عن آمالها فى الزواج فلم تذكر سوى الســيارة التى يجب أن تكون عند زوجها ، والفيلا فى الزمالك التى لن تقيم الا فيها ، وعشرات الفساتين التى يجب ان تكون فى دولابها ٠ وقد كان يستحيل عليها ان تقــدر ما تنطوى عليه نفسك من عاطفة زاخرة ، واخلاص لايقوم بمال ٠ وعلى كل حال فانى احمد الله ان لم يقع شىء لايمكن اصلاحه ، ولكى تثق بتقدير أسرتى كلها لك فلست اتحدث عن نفسى ، اذا قلت لك ان ليس فينا من لايرحب بك خطيبا لأختى ثريا ٠ وما كان فوزى يمكن أن يحلم بسماع ماهو اكرم من ذلك أو أرق وأنبل ، ولذلك فقـــد هرع نحو رياض معانقا وهو يقول له : سأظل يا رياض ماحييت مدينا لك بهذا

الموقف النبيل ، وان ما أفخر به الآن واعتز ، هو خروج صداقتنـــا منتصرة من هذه الأزمة العارضة • واحتج رياض على فوزى قائلا : هل أفهم من ذلك ، أنك شككت لحظة واحدة فى هـــذا ؟ لقد أحببتك وصادقتك طوال أربع سنوات كاملة ، قبل ان تتعرف الى آمال ، فما كان لخلاف يقع بينكما ان يؤثر على صداقتى بك ، هذه الصداقة التى أعتز بها وأعتبرها أغلى ما أملك فى هذه الحياة •

وبعد ان هدأت العاصفة بين الصديقين نهائيا ، بدأ فوزى يسأل عن موقف أسرة رياض منه بعد هذا الحادث وما هو تعليقها عليـــه • فبادر رياض الى طمأنة فوزى من أن أحدا لايعرف شيئا عن الموضوع ، فقد حرصت آمال على ان تتكتم كل شيء خاص به ، احساسا منها على ما يظهر أنها لن تجد بين أفراد الأسرة الا من يخطئها وينحى عليهـــا باللائمة فكلنا نشكو من اسلوبهـــا ، وان أى خطأ يقع منك ، بفرض وقوعه ، فهى المسئولة الأولى عنه نتيجة تصرفاتها واندفاعاتها • وابتسم رياض لفوزى ابتسامة عريضة وقال له: ولعل هذا يشجعك على ان تنهض الآن وترتدى ملابسك لنذهب سويا الى العباسية لنتناول طعام الغداء معا، ثم نذهب فى المساء الى سنما حديقة الازبكية لنتناول الخشاف البلدى المعتبر الذى تحبه • وصاح فوزى : أنا أذهب الى العباسية ؟ أذهب الى العباسية وأرى آمال ، هذا من رابع المستحيلات • ونظر رياض فى غضب وصرامة الى فوزى وقال له : ما هذا الهذيان الذى تقوله ، منذ متى وهذا البيت بيتها فلا تدخله لأنك اختلفت معها ؟ أتراك اعتنقت تصورها من أنها كبيرة البيت ؟ وهدأ فوزى من غضب رياض ، وطلب منه ان لاينظر للموضوع من هذه الزاوية التى لايمكن أن تمر له فى خاطر ، ولكن المسألة انه خجل من أن يراها بعد هذا الذى حـــدث • ورد عليه رياض بأن ليس هنـــاك ما يدعو للخجل ، وعلى فوزى ان يقابلها بكل برود كأن لم يحدث شيء •وغمغم فوزى قائلا : لا استطيع، لا استطيع • فضحك رياض وقال : على كل حال اطمئن ياســيدى ، فلن تقابلها فقد سافرت منذ أيام مع صديقتها فتحية الى الفيوم ، ولن

تعود قبل اسبوعين على مافهمت • ولم يكد فوزى يسمع هذه الانباء حتى أحس بموجة من السرور ، وأسرع الى ارتداء ملابسه لمصاحبة رياض الى زيارة اسرته ، فقد كان شديد اللهفة على ان يظهر فى بيت رياض عقب هذا الحادث ، ليكون ذلك بمثابة أسدال الستار عليه نهائيا •

٦

لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء ، عندما سمع فكرى نقرا على باب بيتهم ، فتساءل عمن يكون الطارق فى هذه الساعة المتأخرة ، واذا به يفاجأ عند فتح الباب بآمال وصديقتها فتحية • ورحب فكرى بالزائرتين رغم ما أحس به من حرج بسبب هذه الزيارة المتأخرة • ولم يكن محيى الذى جاء على سماع الأصوات ، أقل ترحيبا من فكرى ، وان كان على خلاف فكرى أدرك على الفور سبب الزيارة ، ومنى نفسه بجلسة ممتعة وحديث أمتع سيشبع فيه كل غرائزه • وبادرت آمال بالاعتذار عن قدومها فى هذا الوقت غير المناسب ، ولكن محيى أسرع الى تطييب خاطرها من هذه الناحية ، وانها على الرحب والسعة فى أى وقت تشاء • ولم يلبث الصمت ان فرض نفسه على جميع الموجودين ، الذين لم يعرف أى واحد منهم ، من أين يبدأ الحديث • واذ سكت جهابذة الكلام ، بادرت فتحية الصامتة بطبعها الى نجدتهم ، ففتحت الحديث بقولها :

ــ ماهى الاخبار ؟

وابتسم محيى فى تخابث وقال : الاخبار عندكم • فاحمر وجه آمال وقالت : لا اخبار عندنا ذات بال ، لقد كنا فى الفيوم وحضرنا منها اليوم عقب العصر • وضاقت فتحية الصامتة بذلك كله ، فقالت: من الخير ان نتحدث بصراحة وندع اللف والدوران ، انك تعرف يامحيى وانت يافكرى ان آمال هى صديقتى الوحيدة فى هذه الدنيا ، ويهمنى كل مايتصل بها ، ولما كانت أحوالها قد اضطربت منذ بضعة

أيام ، فقد اقترحت عليها أن نسافر الى الفيوم لتمضية اسبوعين في الاوبرج لتغيير الهواء والاستجمام، ولكن حالة القلق عند آمال تفاقمت، فاضطررنا اليوم للعودة ، ورأيت ان لاسبيل لوضع حد لهذه الأزمة الا بالالتجاء اليك ، فأنت الوحيد القادر على حل القضية • وابتسم محيي في تخابث واضح وقال : انكم تضفون على شرفا كبيرا ، فما هي ياترى هذه المسألة التي لاحلال لها غيري ؟ ونظرت آمال الى محيي في عتاب ، وقالت له : الا تستطيع ان تبطل هذه الشقاوة ولو للحظة واحدة ؟ هل يمكن ان لاتكون محيطا بكل شيء ؟ انك تعرف لماذا أنا هنا الآن ، ولست اشك لحظة انك الانسان الوحيد الذي استشاره فوزي فيما فعل قبل ان يقدم عليه ، ولذلك فقد جئت أسألك السؤال الذي يسبب لي قلقا شديدا ، هل تعتبرني قد اخطأت مع فوزي في أي تصرف من تصرفاتي ؟ ودخل محيي في صميم الموضوع مباشرة ، فقال لها : ولماذا تبدئين حديثك بالتساؤل عن الخطأ والصواب في تصرفك ، وليس في تصرف فوزي معك مثلا ؟ فقالت آمال : ان فتحية تصر على وصف تصرفي بالخطأ ، ومن ناحيتي فلست واثقة من حقيقة مشاعري وعندي احساس ان خطابي لفوزي كان جافا وخشنا بصورة لم أكن اريدها ، أو أقصد اليها • وقطب محيي حاجبيه وقال : لا أظن ان مسألة كون خطابك جافا أو غير جاف ، هو العنصر المهم في الموضوع ، بقدر ما ينبغي ان يكون السؤال ، أهو يعبر عن حقيقة مشاعرك نحو فوزي ، أو لايعبر ؟ فأسرعت آمال تقول : هذه هي المسألة التي اربكتني والتي ما زالت تربكني ، والحق انني لا أعرف بماذا أجيبك • لقد فاجأني فوزي بخطابه وبالصراحة التي تحدث بها الي ، وطلب مني ردا سريعا فارتبج على ولم أعرف ماذا أقول فوجدتني اكتب هذا الرد في لحظة غضب لا أعرف سببها ، وربما لو ترك لي وقتا أطول للتفكير والتأمل ، فربما كنت اكتب الخطاب بغير هذا الأسلوب • وابتسم محيي معترضا عليها وقال لها : ها أنت من جديد تتحدثين عن الأسلوب الذي يليق والذي لايليق ، مع اننا لسنا في

صدد أساليب ، ولكنا في صدد الوقوف على حقيقة مشـــاعرك نحو فوزى • وأطرقت آمال رأسها وقد تضرج وجههـــا بلون وردى من الخجل ، وقالت له بعد تردد : انك لاحظت من غير شك كم انا معجبة بفوزى ، وأحب الاستماع الى حديثه ، من العبث ان انكر ذلك ، وقد تصرفت معه على سجيتى كما أتصرف عادة مع كل الناس فى بساطة وصراحة ، فاذا به يفاجئنى بهذه العاطفة القوية التى لم أكن مستعدة لها • وتدخل فكرى فى الحديث محتدا ، فحاول محيى ان يسكته فلم يستطع الى ذلك سبيلا بل زاده انفعالا وراح يقول لآمال وهو يصيح : يا آمال هانم نحن لسنا هنا فى انجلترا أو أمريكا ، حيث تستلطف الفتاة شابا فتخرج معه وتصاحبه دون آن يعنى ذلك انها تحبه ودون أن تحس لذلك بأى حرج • انت هنا فى مصر ، فى الشرق ، ولنـــا تقاليدنا وعاداتنا ، وتعلمين ان فوزى بالذات وقف يقول تحت سمعك وبصرك ان لابد لنا من التمسك بعاداتنا وتقاليدنا ، كمصادر لمدنيتنا ، ونحن لايمكن ان نفهم ، فضلا عن ان نسيغ خروج شـــابة مثلك مع شاب وتسهر معه فى السنما ، دون ان يكون معنى ذلك انها تحبه وعلى استعداد ان تتزوجه • واحمر وجه آمال وظهر الغضب على وجههـــا وقالت لفكرى : أرجوك ان لاتخاطبنى هكذا ، انك تعرف اننى دائمـا ضد هذه الآراء الرجعية ، وما كنت لأحترم تقاليد فاسدة ، ولست أرى أى حرج فى ان تصادق الفتاة شابا صداقة بريئة ، ومن ناحيتى ليس يهمنى ماذا يقول الناس عنى مادمت واثقة بنفسى • وزاد هذا الرد فى هياج فكرى ، ولكن محيى زجره وطلب منه ان يسكت مذكرا اياه ان آمال فى بيته فى نهاية الأمر ، وان هذه التقاليد التى يدعو لاحترامها تفرض عليه ان لايخاطب آمال بهذا الاسلوب • وهنا فقط سكت فكرى على مضض بينما مضى محيى فى مناقشته لآمال هذه المناقشة التى أراد لها أن تكون مناقشة منطقية بحتة : أنا أشاطرك الرأى فى أن الانسان لا يجب أن يقيم كبير وزن لما تقوله الناس عنه مادام مطمئنا الى سلامة تصرفه، ولكن المسألة هنا ليست رأى الناس ، بل رأى هذا الصديق المسكين

الذى اخترته ليكون محل عبثك . ووقفت آمال على الفور محتجة على كلمة العبث ، ولكن محيى اسرع فأجلسها واعتذر لها عن هذه العبارة وانه لايقصد من ورائها أى مساس بها وقالت آمال : لم يكن هناك أى مجال للعبث ، لقد تصرفت وفق طبيعتى ولم يكن فى تقديرى فى أى لحظة من اللحظات أن أعبث بعواطف أحد ، والا لكان معنى ذلك اننى فتاة شريرة ، ولما كان هناك أى معنى لوجودى الآن هنا ٠ وقال محيى على الفور : معاذ الله ان يتهمك أى منا بالشر ، انك أخت صديقنا ومحل تقديرنا واعتزازنا ، ولكنا نبحث الموضوع الذى طلبت منا أن نبحثه، ولذلك يجب أن تعرفى أن البحث سيجرنا لقول هذه الكلمة أو تلك ٠ والآن دعينى اسألك ، اما كان من الواجب عليك قبل أن تتعاملى مع فوزى على سجيتك كما تقولين ، ان تعرفى أولا طبيعـــة فوزى وماذا سيكون تأثير تصرفاتك عليه ؟ أو لم تلاحظى كيف ان فوزى شخص مستقيم جدا وصريح وعاطفى ، ألم يســـتوقفك منه أنه يندفع نحو أهدافه فى غير تردد ، ويسمى الاشياء بمسمياتها ؟ ألم تفكرى لحظة ماذا يمكن أن يكون أثر خروجك معه الى السنما ، وسهرك معه حول الهرم ؟ فقاطعته آمال محتجة : لقد كنت أنت معنا ٠ فقال محيى : هذا صحيح ولكن ذهابى معكما كان بناء على طلبه هو ، وكان من الممكن ان تذهبا بمفرديكما لو اختار هو ذلك ٠ وأطرقت آمال برأســـها فدل ذلك على صدق ملاحظة محيى الذى تشجع فمضى يقول فى حماسة : ان فوزى صديقى منذ عشر سنوات وأبرز صفاته ، هو كرهه للنفاق وبعده عن أساليب المجاملة التى اعتادها الناس ، حتى ليتهمه الكثيرون بالخشونة والجفاء ٠ وتقفين أنت منه على طرفى نقيض ، فأنت من غير شك سيدة مجتمع من الطراز الأول وقد حـــذقت فن المجـــاملة فى انجلترا ، وأتصور ان هذا هو أساس المشـــكلة التى كان يجب ان تتوقعيها فى علاقتك مع فوزى ٠ وأطرقت آمال برأسها وقالت : ربما تكون محقا فى هذا الذى قلت ، فأنا لم أحسن التصرف فعلا ٠ وران على الجميع صمت عميق عقب هذا التصريح الذى اكبرها عليه محيى

كل الاكبار · ولم تلبث آمال ان قالت : المسألة أنه أربكني بخطابه فلم أعرف كيف اتصرف · وكان حب الاستطلاع قد تملك محيي الى الحد الذي لم يعد قادرا معه ان لايطلب منها الاطـــلاع على خطاب فوزى اليها ، فقد كان شديد اللهفة ليقف على الطريقة التى بثها بها فوزى غرامه ، ولم يكد يسألها أن تريه الخطاب ، حتى ظهر على وجهها الشك من أنه يتخابث معها ، فلم تتصور ان لايكون فوزى قد أطلعـــه على الخطاب قبل ارساله · ولكن محيى أقسم لها أنه لم يطلع على الخطاب بل لم يقل له فوزى انه سيرسل لها خطابا ، ولولا ردها لما عرف شيئا بشأن هذا الخطاب · وأردف قائلا وهو يغمز لها باحدى عينيه : لقد راحت علينا ياست آمال ، لم يكن فوزى يفعل شيئا لايطلعنى عليه ، ولكن ذلك كان قبل ان يتعرف اليك ، أما الآن فقد أصبح يخفى عنى أسراره على الأقل مايتعلق منها بك · وابتسمت آمال فى رضا وزهو ، وأخرجت من حقيبتها خطاب فوزى ، فكاد محيى يخطفـــه من يدها خطفا ، وراح يلتهم الخطاب بعينيه التهاما وهو يطالعه ويهز رأســـه من حين لآخر هزة الموافقة والاعجاب ، وهتف محيى فى نهاية الخطاب: رائع ، مدهش أنه صورة طبق الأصل من كاتبـــه فوزى ، لاتزويق ولاتزييف ، ملىء بالاغلاط النحوية كشأنه فى كل مايكتب وبه بعض الركة ، ولكنه ينبض بالحياة والصدق ككل مايقول أو يفعـــل · أستطيع ان أؤكد لك انه صادق فى كل حرف قاله لك فى هذا الخطاب، وانى اتصور ان أى فتاة لايمكن الا ان تتيه فخرا ان تكون محلا لمثل هذه العاطفة الصادقة الملتهبة ، الصـــادرة من قلب انســـان كفوزى. وأسرعت آمال تقول : وأكون كاذبة اذا قلت لك اننى لم أشعر بهذا الزهو الذى تتحدث عنه ، ولكننى ارتبكت ، هذا هو ما أستطيع ان ألخص لك موقفى فيه · ثم سألت محيى فى لهفة : هل تألم فوزى من رسالتى اليه كثيرا يامحيى ؟ وهز فكرى كتفيه ورفع ذراعيه فى الهواء استنكارا لهذا السؤال ، ولكن محيى أسرع فسد فمه حتى لايقـــول شيئا ، بينما مضى محيى يقول : لا أظن أننى رأيت فوزى فى حـــالة

حزن كتلك التى رأيته فيها عقب اطلاعه على محتويات خطابك • وكان محيى يعرف أن فوزى قد تغلب نهائيا على الازمة التى سببها ارسال الخطاب اليه ، ولكنه لأمر ما لذ له ، ان يبالغ فى تصوير ألم فوزى ، ليسهم فى بناء هذه الدراما التى كانت تمثل أمامه ، والتى كان يقوم فيها فى هذه الساعة بدور البطولة ، دور حمامة السلام وجامع شمل الأحبة ، اذ لم يعد لديه شك فى أن آمال تحب فوزى وأحس نحوها بالأسى ، وأطرقت آمال برأسها فى خجل وأسى معا وقالت : هذا ما كنت أخشاه ، وهو ما كان ينغص على حياتى فى هذه الآونة الاخيرة، فلم يكن من هدفى ولا هو من مقاصدى أن أحنقه على ، ان فوزى عزيز جدا على نفسى ، وأخشى أن أكون قد فقدت محبته لى نهائيا • ونسى محيى وقد تحرك قلبه شفقة على آمال وهو يحس بندمها الصادق ، أنه كان هو الذى حذر فوزى منها وطالبه بأن لايجاريها فى تقربها منه ، وغلبت عليه روح الرغبة فى استخدام مهارته وقدرته على الجمع من جديد بين المتخاصمين ، وقدر كم سيكون دينه للاثنين عظيما عندما يوفق بينهما ، ولذلك فقد نظر الى آمال مبتسما وقال لها : هل اعتبر نفسى مفوضا منك أن أقول على لسانك كل الذى أراه لازما لمصالحة فوزى ؟ فأسرعت فتحية التى كانت قد عادت الى صمتها بعد أن حركت الكرة وتكلم الآخرون لتقول لمحيى : باستطاعتك أن تقول لفوزى دون ان تعدو الحقيقة أنها مذ أرسلت خطابها له ، وهى تشبه ان تكون مريضة ، ولم يكن باستطاعتى أن أعالجها الا عندما عدت معها من الفيوم لكى نقابلك بالذات ، باعتبارك الشخص الوحيد الذى يستطيع اعادة المياه الى مجاريها • ونظر محيى صوب آمال فوجدها تنظر اليه مؤمنة على كل ما تقوله فتحية ، وان كانت لم تنبس ببنت شفة •

٧

ونجح محيى ، وكان لامناص له أن ينجح ، فقد كان فوزى لايجد علاجا لكرامته التى يحس بأنها جرحت الا أن يجتمع من جديد مع آمال •

والتقى المتخاصمان ، وكان التقاؤهما فى بيت البحر وقد اخلاه لهما محيى وفكرى فى وقت اللقاء • وقالت آمال لفوزى بعد ان هدأت انفعالاتهما بعض الشىء •

ــ هل أصبحت تنظر الى نظرتك الى فتاة شريرة ؟

ــ معاذ الله ان اعتبرك كذلك ، فلم يقع منك مايمكن ان يوصف بهذا الوصف ، لقد تصورت خطأ أنك تبادليننى عاطفة الحب ، فصححت لى هذا الخطأ ، فأى شر فى ذلك ؟

ــ انك شديد الحنق على جدا •

واجابها فوزى بالبرود الذى كان يسود عاطفته فى هذه اللحظة •

ــ انى على العكس من ذلك تماما ، شاكر لك من أعماق نفسى صراحتك ، ومعاونتك لى على وضع الأمور فى نصابها ، وانه ما كان يصح لى بالفعل وأنا الطالب الصغير ان أتطلع الى أستاذة ومدرسة ، وأن أسىء فهم ملاطفتها لى باعتبارى أخاها الأصغر • وامتقع وجه آمال وفوزى يحدثها هذا الحديث الذى يفيض بالمرارة ، وقالت له :

ــ الا تستطيع ان تنسى خطابى اليك وتعتبره كأن لم يكن ؟

ــ هيهات أن يكون بقدرتى أو بقدرة أى انسان ان يفعل ذلك • ان الخطاب معى ، وفى جيبى ليذكرنى اذا أنا أخطأت بحقيقة مكانتى منك التى لايجب أن أعدوها ، وومض فى نفس فوزى ان ينتقم لنفسه منها ، فأضاف قائلا : واذا كان هناك مايدهشنى الآن ، فهو اجتماعنا فى هذه الساعة ، رغم قولك لى اننى يجب ان أعتبر كل شىء قد انتهى بيننا • وفوجىء فوزى بآمال تنخرط فى بكاء مر وتقول له :

ــ انت قاس جدا على ، ولو كنت اتصور انك ستكون بهذه القسوة التى لم أتصور انك قادر عليها ، لما رضيت أن أتقابل معك لكى تعذبنى هذا العذاب وتهيننى هذه الاهانة • وكانت رؤية آمال باكية هو آخر ما كان فوزى يتصور امكان وقوعه ، ولذلك فقد انهارت كل مقاومة له أزاء دموعها ، وأوشك أن يهرع اليها ليضمها بين ذراعيه ويكفكف عبراتها ، وكان يعرف ان بقدرته الآن ومن حقه ان يضمها

الى صدره وان يقبلها وهى تجلس معه وحيدة بعد ان صارحها بحبه ، وهى تتهمه بالقسوة عليها ، ولكنه استجمع آخر مافى نفسه من ارادة، لكى يظل يتصرف فى حدود التعقل وضبط النفس ، واستثار احساسه بكرامته التى يضعها فوق كل اعتبار آخر ، وقال لآمال فى آخر محاولة له للتظاهر بالبرود ، وان كان التغير الذى طرأ على صوته كان كافيا لاشعارها بالانقلاب الذى طرأ عليه :

ــ هل يمكنك ان تقولى لى ، ماذا قلت بحيث يدفعك الى البـــكاء ووصفك لى بما وصفتيننى به ؟

ــ فقالت آمال من خلال دموعها :

ــ أجل انك شديد القســوة على ، اننى اعترف اننى اخطأت فى ارسال الرد على خطابك بهذه الصورة ، وجئت اليوم لكى اعبر لك عن أسفى واعتذارى ، فاذا بك تأبى الا ان تحاول آلانتقام منى واذلالى ٠

وعجب فوزى لهذا التطور الذى اعترى الموقف ، وكيف أصـبح عليه أن يدافع عن نفسه ضد الاتهام بالقسوة والتصرف غير الكريم ، وقد جعله ذلك يسترد من جديد بعض تماسكه ويقرر وجوب وضـع الأمور فى نصابها فقال لها :

ــ أرجوك أولا ان تكفى عن البكاء ، فلست اســـتطيع ان أراك باكية ، وهذا يعقد الأمور ويربكنى ويجعلنـا لانتدبر الأمور بالروية التى يجب ان نعالجها بها ٠ ونظرت اليه آمال من خلال دموعها ، وقد سلطت عليه احدى نظرات الدلال التى كانت تعصف به ، وقالت له :

ــ أرجوك أن لاتحاول أن ترينى مدى ســطوتك ، وقوة ارادتك فلست فى حاجة لمزيد من معرفتى لقوة ارادتك ٠ ولم يستطع فوزى ان يقاوم الأثر الذى أحدثته فى نفسه باشارتها الضمنية الى ضـعف ارادتها بالتحدث عن قوة ارادته ، فابتسم فى ابتهاج ورضا ، وأدرك انه قد خسر المعركة نهائيا ، ولم يبق عليه الا المفاوضـــة فى شروط التسليم ، حتى لايكون بدون قيد أو شرط ٠

وقال لها :

ـ أنك تتحدثين عن القسوة ، أليست لديك أى فكرة عن مـــدى قسوة خطابك ؟

ـ ان سعادتك تنسى شيئا واحدا وأنت تقــول وتعيد وتزيد فى الحديث عن هذا الخطـــاب ، وهو اننى لا أجيد الكتـــابة بالعربية ولا أحسن التعبير بها عن مشاعرى كما تفعـــل أنت ياحضرة الكاتب والخطيب العظيم ، كيف تتصور أن يكون بقدرتى أن أكتب لك خطابا جميلا كهذا الذى كتبته ، اننى أحاول ان أكتب شيئا معينا فاذا بى أقول عكسه تماما ٠ ويجب ان تفسر خطابى على أنه مظهر لعجزى عن التعبير ٠

ولم يكن باستطاعة آمال ان تجد حجة تمحو بها كل أثر لخطابها بالفعل من نفس فوزى ، أقوى وأنجع من هذه الحجة ، فقد وجـــد فوزى فى ذلك التفسير لقصر الخطاب واقتضابه وجفاف الفاظه ، فلم يتمالك نفسه من ان يضحك من أعماق قلبه وقد بدأ قلبـــه يفيض بالسعادة من جديد ٠ ورأى أن يحسم الموقف بأن يطالبها برد السؤال الذى تضمنه الخطاب والذى لم يتلق عليه حتى الآن ردا صريحا مباشرا فقال لها :

ـ أتحبينني يا آمال ؟

ـ الا تذكر قولتى لك ليلة عودتنـــا من الاهرام « لاتكن أبله » الا تستطيع ان ترى ذلك بعينك ٠ ماذا تريد منى ان أقول لك ، أنك تعرف ظروفى العائلية ، ووزارة المعارف واحكامها الصـــارمة التى تقضى بفصل كل مدرسة تتزوج من العمل ، ولعل هـــذا الخوف هو الـــذى أربكنى وحمـــلنى على أن أكتب لك ما كتبت ، أما عن حبى فلا ينبغى لك أن تتشكك فيه ٠ ان باستطاعتك ان تسأل فتحية عندما تقابلها ، كيف عذبتها واشقيتها معى منذ اليوم الذى بعثت فيه بهذه الرسالة اليك ، عندما تصورت أنها قد تفقدنى حبك ٠ وكانت هـــذه الكلمات تنزل الآن بردا وسلاما على قلب فوزى بحيث نسى كل الآلام التى تجرعها ، بل أصبح يحمد هذه الآلام لأنها تضاعف الآن شعوره

بالسعادة اذ يسمع آمال تقول له هذا القول الذى أشـــبه ان يكون موسيقى الهية ، ونظر اليهـا نظرة أودعها كل حبه الصـادق الحـار، وقال لها :

ـ أواثقة أنت يا آمال من أنك تحبيننى بكل قلبك ؟

ـ واثقة ، واثقة ، واليك الدليل ، قالت ذلك وفاجأته بقبلة على شفتيه • ولم تكن هناك عبارات أبلغ من هذه القبلة لافحام فوزى ، ودارت رأسه لهذه القبلة التى طالما تمناها واشتهاها ، وفكر أكثر من مرة أن يختلسها اختلاسا فاذا بها تمنحه اياها ، وتكون البادئة بها • حقا لقد كانت قبلة خفيفة سريعة خاطفة ، ولكنهـــا كانت ترمز الى الرباط الجديد الذى أصبح يربط بينهما ، لقد كانت هذه القبـــلة فى حسابه تساوى العهد والميثاق أن تكون زوجته •

٨

كان الجو متوترا فى قسم عابدين ، كبقية أقســـام البوليس الأخرى لما أذيع من نبأ اكتشاف مؤامرة على قتل رئيس الوزراء ، حيث قبض على شاب سودانى يرتدى زى الخدم وقد اندس فى عربة البولمان بالقطار الذى كان الرئيس يستقله من الاسكندرية الى القـــاهرة ، وعندما فتش الشاب عثر معه تحت ملابسه على بلطة مرهفـــة كان ينوى أن يطيح بحياة رئيس الحـــكومة بواســـطتها • على ان فؤاد عبد السميع كان فى معزل عن التأثر بهذه الاخبار التى يتحدث بها كل من فى القسم، فقد كان غارقا حتى الاذقان كما هى عادة أى ضـــابط نوبتجى ، فى استقبال التبليغات والحوادث الطارئة ، وتحرير المحاضر والمذكرات ، وكان الناظر اليه يراه يضحك لبعض الشاكيات الرقيعات حينا ، ثم لايلبث أن ينخرط فى فيض من الشتائم وأبذأ الألفـــاظ يوجهها الى مجرم يأبى ان يصدع بمـــا يؤمر به ، الى تعنيف لبعض عساكر الداورية الذين لايحسنون التعبير عما يريدون ابلاغـه ، الى استقبال بعض ذوى النفوذ بما يليق بهم من عبارات التمجيد والزلفى.

وفوجىء فؤاد بحشد من الجمهور يتدفق الى الغرفة وسـط صراخ وتجاذب وتدافع وصـياح من كل جانب . ولاحظ على التو دما لطخ كتف أحد الوافدين وصيحات ترتفع من حوله مطالبة بالاسـعاف ، وانسانا آخر يدل مظهره على أنه أحد الأجانب ، وأكثر من شـخص يقبض عليه وهو يحاول التملص منهم ، فيضطرون لجذبه بقوة ليكف عن الحركة فيسبهم ويلعنهم ، وعسكرى الداورية يقف وسط الجميع كالأبله يحمل بندقيته الثقيلة فيكاد ينوء بحملهـا . وصرخ فؤاد مطالبا الجميع بالصمت ، فهدأت الغوغاء بعض الشىء ، وتكلم الخواجة الأجنبى المقبوض عليه بالعربية ولكن فى لكنة اعجمية :

ـ أنا سأخرب بيتكم كلكم ، أنا حماية . وانتهره فؤاد وقد أغضبه منه هذا التعميم فى التهديد بخراب البيوت ، وصاح فؤاد بعسكرى الداورية مطالبا اياه أن يقص عليه ماحدث . ودق العسكرى العجوز الأرض بكعبيه ، ورفع يده بالتحية الى رأسه وشرع يقول ، انه بينما كان واقفا فى الداورية بالقرب من مقهى الباريزيانة ، سمع صفارات تدوى فأسرع الى مكان الحادث فوجد الجماهير ممسـكة بتلابيب الخواجة المقبوض عليه ، بعد أن انتزعوا من يده السـكين التى شرع بها فى قتل المجنى عليه ، فأسرع العسكرى الى أخذ السـكين من يد الجمهور والتحفظ عليها باعتبارها جسم الجريمة . ووضع العسكرى السكين التى كانت ملوثة بالدم على مكتب حضرة الضـابط فى زهو وافتخار وراح يعيد قوله من أنه تحفظ على السكين باعتبارها جسـم الجريمة . وضاق صدر فؤاد عبد السميع بعد ان تعلق العسـكرى بهذه الجملة لايعدوها ، فصرخ فى وجهه منتهرا اياه وطالبا منه بقية القصة . فاستأنف العسكرى حـديثه بعد ان انتهر بعض الموجودين الذين حاولوا ان يسبقوه بسرد الواقعة ، وساعده فؤاد على استتباب النظام :

ـ كان المجنى عليه هذا ، وأمسك العسكرى بتلابيب المجنى عليه الذى كان يقف شاحبا منهوك القوى ، يصرخ ويصيح : الخواجـة

قتلنى ، الخواجة قتلنى · ولكن ربنا قدر ولطف فالسكين لم يصبه الا فى كتفه كما ترى سعادتكم · والتفت فؤاد صوب الخواجة وسأله عن الحكاية ، ولكن الخواجة رد عليه فى صفاقة ، انه لايصح له ان يوجه اليه أى سؤال فهو حماية ، وانه لن يرد عليه ، واذا لم يبادر باطلاق سراحه فسوف يخرب بيته هو أيضا · واضطر فؤاد ان ينتهر الخواجة بشدة وانذره بأنه اذا لم يرد عليه بأدب فلن تهمه جنسيته حتى لو كان انجليزيا وسوف يطلب من العساكر ان تؤدبه ثم يضعه بعد ذلك فى السجن · ونظر الخواجة الى وجه فؤاد مستطلعا اذا كان يمكن ان يقدم بالفعل على ماهدده به ، وكأن نظرته الفاحصة دلته على ان فؤاد انما يهوش ، ولذلك فقد ازداد تحديا وتملص من يد الذين كانوا يقبضون عليه واندفع نحو فؤاد قائلا :

ـ ولا أنت ولا أكبر منك يقدر يرفع ايده على ، أنا حماية ، أنا سأخرب بيتكم كلكم · ولم يتمالك أحد أفراد الجمهور المحتشدين نفسه من أن يصفع الخواجة على قفاه قائلا له ، انه اذا كان البوليس لايؤدبه فهم قادرون على تأديبه · وابتهج فؤاد فى سريرة نفسه للاعتداء على الخواجة ، ولكن عنجهيته كضابط بوليس آذاها ان يعتدى على الخواجة أمامه ، ولذلك فقد سب المعتدى وطلب من أحد العساكر على سبيل التهويش ان يقبض عليه وراح يقول له :

ـ كيف تسمح لنفسك يا أفندى أن تضربه أمامى وفى مكتبى ، اننى أنا هنا الوحيد المسئول عن النظام · وصاح الشاهد محتجا وراح يتملص من قبضة رجل البوليس المتخاذلة التى كانت تمسك به وقال لفؤاد :

ـ أولم تسمع وقاحته وهو يسبنا جميعا مع اننا أمسكناه ، ولولا ذلك لقتل هذا الافندى ؟ وارتفع الصياح واشتدت الجلبة ، وكاد الموقف يفلت من يد فؤاد ، لولا ان مأمور القسم ظهر فجأة على باب الحجرة · ودوى صوت عسكرى المراسلة الواقف على الباب داعيا الجميع الى الانتباه · وكان لظهور المأمور المفاجىء فعل السحر فى

النفوس ، فسكتت الأصوات ، وران السكون كأن على رؤوس الجميع الطير · وتلفت المأمور متفحصا الحشد الذى كان يمـلأ الحجرة حتى استقرت عيناه على الخواجة المتهم فسأله :

ــ انت انطونيو ؟ أدريان أنطونيو ؟

ورد عليه الخواجة وقد أحس بالنصر على الجميع ، قائلا : معلوم أنا انطونيو · ولم يلبث المأمور بعد أن سمع هذا الجواب ، ان طلب من أحد العساكر ان يحضر له كرسيا ليجلس عليه ، فبادره الخواجة بالشكر ، وطلب من سعادته ان يأمر له بكوبة ماء وفنجان قهوة ليعدل به مزاجه الذى تعكر · وأصدر المأمور أوامره باجابة الخواجـة الى طلباته ، ثم طلب من الجمهور الذى لا علاقة له بالموضوع ، ان ينصرف الى حال سبيله ، بحيث لايبقى سوى المتهم والمجنى عليه والشهود · وأسرع الحشد الكبير بعد ان رأوا هذا التحول فى مجريات الأمور ، الى الانصراف خوفا على أنفسهم ، ولم يبق سوى المجنى عليه والشخص الذى ضرب الخواجة باعتباره شاهدا ، كما بقى غلام صـغير ماسح أحذية ، قال انه سيشهد على الحادث فقد كان يمسح حـذاء المجنى عليه عندما وقع الحادث · وقال الخواجة انه يجب وضـع الشخص الذى اعتدى عليه فى السجن ، ولكن فؤاد الذى أحنقه كل هذا الذى جرى انتهره طالبا منه السكوت ، ولم يحاول المأمور ان يتدخل فى هذه الواقعة رغبة منه فى سرعة الانصراف وسـأل فؤاد اذا كان قد استدعى الاسعاف لتضميد جراح المجنى عليه ، فأجابه بأنهم دخلوا عليه قبل مقدم سعادته ببضع ثوان فلم يتهيأ له عمـل شىء بعد · وبادر المأمور فأمر بعمل اللازم وطلب من فؤاد ان يتبعه الى حجرته ، بعد ان كلف بعض العساكر بالتحفظ على المتهم والمجنى عليه · ولم يكد المأمور يجلس الى مكتبه حتى سأله فؤاد الذى كان مذهولا ممـا حدث :

ــ كيف عرفتم سعادتكم بوجود هذا المتهم فى حجرتى ، ومن أين عرفتم اسمه وكل شىء عن الحادث ؟ فأجابه المأمور بأن جناب المفتش

الانجليزى اتصل به وأعلمه بان الجمهور قبض على أحـــد الرعايا الايطاليين فى مقهى البريزيانة وحمله مسئولية وقوع أى اعتداء عليه، وطلب منه أن يبادر بالاتصال بالقنصلية الايطالية لترسل من يتسلمه كالعادة · وصاح فؤاد محتجا : لكن يا افندم هذا المتهم مقبوض عليه وهو متلبس بجناية شروع فى قتل ، ومن حقنا أن نستجوبه ·

ـ أمرنا لله ياسيد فؤاد ، هذا هو حكم الزفت الامتيازات الأجنبية، حضرته حماية ، لايسأل الا بمعرفة القنصلية التابع لها ·

ـ ولكن مستحيل يا افندم نتركه هكذا ، كيف نقول عن انفسنا اننا مستقلون واننا دولة ذات سيادة ، ثم لايكون بقدرتنا ان نقبض على قاتل ؟ ·

ـ هذه هى الدوامة التى تعيش فيها بلادنا ، ألم تسمعنى أقول دائما ، ان من يخلصنا من هذه الامتيازات ، يكون قد حقق الاستقلال الحقيقى لمصر · ولم يلبث المأمور ان ترك هذا البحث الخـــارج عن الموضوع ، وطالب فؤاد ان يسلم الخواجة لقواص القنصلية الايطالية عندما يأتى لاستلامه ، مع صورة من المحضر الذى يجب على فؤاد ان يسرع لتحريره متضمنا أقوال المجنى عليه والشـــهود · وقال فؤاد للمأمور ، وهو يحاول ان يخفى انفعاله وعدم رضائه تحت ســتار من النفاق والتملق :

ـ اننى أعتبر نفسى ياسعادة البك ابنك وتربيتك ، ولقد علمتنى الرجولة ، ولذلك اسمح لى ان تعفينى من هذه المسألة ، وتعهد بها الى صلاح افندى ، فقد تعكر دمى ولم أعد قادرا على متابعة العمل · وأفاد أسلوب النفاق مع المأمور فضحك ملء شدقيه وقال لفؤاد :

ـ وهو كذلك ، ادلع ياسى فؤاد ، ســأعفيك من عمل المحضر · ودق المأمور الجرس وطلب من المراسلة ان يستدعى حضرة اليوزباشى صلاح افندى ، ومضى فؤاد فى دلعه على حضرة المأمور فسأله ، اذا كان لديه مانع ان يأذن له بالانصراف قبل الميعاد ، فقد جاء زميله صاحب النوبة التالية مبكرا ، وتغضن وجه المأمور ، ولكنه لم يلبث أن قال : اذا كان زميلك موافقا على ذلك فلا مانع عندى ·

٩

وخرج فؤاد من القسم وهو يحرق الارم من فرط الغيظ والقهر الذى انتابه من جراء هذا الحادث الذى كشف عن زيف كل مايتشدق به حكام البلاد من حديث عن الاستقلال. ولم يكن هذا الحادث جديدا عليه ، فقد كان قسم عابدين بالذات أكثر تعامله مع الأجانب ، ولكن كانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها اجنبيا يقبض عليه والسكين فى يده يقطر دما ، ثم يكون عليهم ان يعاملوه بكل اجلال واحترام ، ريثما يتسلمه مندوب قنصليته التى سوف تبادر باطلاق سراحه ، كان لم يحدث شيء ٠ على ان فؤاد لم يكد يرى نفسه قريبا من بيتــه الذى أصبح يؤلف بالنسبة له واحة جميـــلة وارفة الظلال ، كثيرة الينابيع ، حتى نسى موضوع الخواجة الأجنبى ومأساة الامتيازات ، وبدأت السعادة تغمره لمجرد تذكره الاستقبال الجميل الذى ينتظره من أزهار التى ستفاجأ بعودته المبكرة على خلاف العادة ٠ وبدأ فؤاد ينظر الى حادث الخواجة من زاوية جديدة طيبة ، فقد كان سببا فى هذه العودة المبكرة ٠ وراح يقفز سلم البيت قفزا ، حتى اذا وصــل قبالة شقته وضع اذنه على الباب متصنتا رغبة منه فى مفاجأة أزهار ، ولكنه لم يسمع صوتا ، فادرك انها لابد ان تكون منهمكة فى اعــداد الطعام ، وفتح الباب فى هدوء ، فما راعه الا ان يرى الصمت يسود البيت ، فأحس على الفور بصدمة شديدة ، فقد كان معتادا منذ شهور الى ان الباب لايكاد يفتح ، حتى تخف أزهار لاستقباله متزينة متجملة، معانقة مقبلة ٠ واندفع نحو حجرة النوم مناديا : أزهار ، أزهار ٠ ولكن لم يكن هناك مجيب ٠ واكفهر وجه فؤاد وقصد المطبخ وهو فى شدة الانفعال فلم يكد يدخل اليه حتى سمع صوتا ينبعث من منور البيت عن طريق شباك المطبخ الذى كان مفتوحا ، ولم يصدق فؤاد أذنيه ، ولكن الصوت لم يلبث ان جاءه من جديد يقضى على كل شك ، وقـــد كان الصوت صوتها ، صوت أزهار تتحدث مع صـــاحبة البيت التى تسكن فى الدور الأسفل ٠ وكاد فؤاد يصعق من هول هذا الاكتشاف فقد كان أشد ماحظره على أزهار أن تكلم صاحبة البيت فضلا عن ان

تدخل الى بيتها وتجالسها • وجاءت ضحكة أزهار الرنانة ، هـــذه الضحكة التى لم تستطع ان تتخلص منها بعد أن أصبحت لها عادة ، والتى تذكر بحياتها التى كانت تحياها • وغلا الدم فى رأس فؤاد ، ولو كانت أزهار أمامه فى هذه اللحظة لمزقها تمزيقا ، وفجر هـــذا الحادث فى نفسه براكين الغيرة التى ظلت تفترسه ، ونيران الشـــك التى مافتئت تعذبه ، فلولم يرجع مبكرا بسبب هذا الحادث العارض لأول مرة فى تاريخ حياتهما ، لما اكتشف ، ما اكتشف • ما الذى تفعله لدى صاحبة البيت ؟ منذ متى تتردد عليها وهو لايدرى ؟ ، أى رجل تقابله لدى هذه المرأة العجوز وابنتها الرقيعة ؟ ياله من مغفل كبير ، استطاعت هذه الساقطة أن تستغفله ، كيف جازت عليه خـــدعتها ، وصدق أن أمثال هذه الحشرات الملوثة يمكن ان تعـــود الى الطريق الصحيح • وراح فؤاد يفكر بسرعة وأنفاسه تتلاحق ، ما الذى ينبغى عليه عمله بعد ان اكتشف ما اكتشف ، وأنها تخدعه بهـــذه الجرأة وتخالف أوامره ؟ انه يتمنى لو كان بقدرته ان يقتلها ، ولكنه ما كان يعرض مستقبله وحياته لأدنى اضطراب من أجل هـــذه الحشرة • والضرب لايشفى غليله ، ولقد كان ضربه لها شرفا ، أما الآن فلم تعد أهلا لهذا الشرف ، انه يجب أن يطردها على الفور بعد ان اتضحت له على حقيقتها غشاشة مخادعة • أجل ، لايجب أن يعيش معها بعد الآن ساعة واحدة ، وعجب فؤاد كيف ظل يعيش معها طوال المدة السابقة • كيف رضى بهذه الحياة الدنسة حتى بعد ان تحقق حلمه المنتظر فأصبح ضابطا ، كيف لم يزل هذا الحادث الجلل فى حياته الغشاوة عن عينيه، فينحيها عن نفسه نهائيا لينصرف الى بناء مستقبل شريف نظيف ؟ ولم يعد فؤاد يطيق صبرا على ابقاء أزهار دقيقة واحدة تحت سقف بيته ، ولذلك فقد أسرع الى شباك المنور ونادى فى عصبية : أزهار • وصعقت أزهار وهى تسمع هذه الصيحة ، وانخلع قلبها ، وأصبحت فى مثل صفرة الموتى ، وهتفت بها صاحبة البيت طالبة منها ان لاتفزع وخاطبت فؤاد قائلة : والنبى يافؤاد افندى لاتغضب على ست أزهار

فنحن الذين عزمنا عليها ان تزورنا ، ولم تنتظر أزهار نتيجة هـذه الوساطة والشفاعة التى كانت تحس بغريزتها أنهـا تزيد الأمور تعقيدا ، وراحت تعدو صاعدة على السـلم وهى تكـاد تنكفىء من الرعب والفزع ، ووجدت باب الشقة مفتوحا فاغلقتـه وراءها ، ولم تنتظر حتى تضع الحقيبة التى كانت تحمل فيها الخضار واللحمـة اللذين اشترتهما ، بل ارتمت على قدمى فؤاد الذى كان يقف وسط صالة البيت فى انتظارها وكأنه القضاء المبرم ، عزرائيـل الذى جاء ليقبض روحها ٠ وقالت له أزهار وهى تقبل قدميه وتتعلق بساقيه :

ـ أنا غلطانة ، أنا مجرمة ، اضربنى بحذائك ، لن أفتح فمى ولن يسمعنى أحد ، اضربنى اضربنى ولكن سامحنى وحياة النبى ٠ ولم يحر فؤاد جوابا على توسلاتها فقد كان ينتفض من الغضب بينمـا انعقد لسانه من شدة الانفعال ٠ وافزع صمته أزهار أكثر مما لو كان استجاب لتوسلاتها وضربها ، ولذلك فقد مضت تفسر موقفها وتدافع عن نفسها :

ـ والله لم يكن لى ذنب فى الموضوع ، لقد خدعونى وغرروا بى ، انتهزوا فرصة خروجى لشراء الخضار واللحمة ، ثم تربصت بى ابنة صاحبة البيت ، فلما عدت من السوق اعترضـت طريقى فى فزع وطلبت منى أن اساعدها على انقاذ أمها التى قطعت النفس ٠ ٠ فدخلت وراءها الى حجرة نوم أمها ، فاذا بهما تنفجران فى الضحك ، وتقولان لى انهما اصطنعتا هذه الحيلة لتتوصلا الى التعرف الى والحديث معى، فليس يصح أن نكون جيرانا طوال هذه المـدة دون ان نتعـارف ، فافهمتهما ان الافندى بتاعى صعب وشديد جدا ولكنهما لم تقبلا منى هذا الكلام ، وأصرتا على وجوب أن أشرب معهما فنجانا من القهوة ٠ وخشيت ان اتشدد اكثر من اللازم لئلا ينفضح أمرنا ، وهذا هو كل ما حدث ، أقسم لك بالله العظيم ان هذا هو ما حدث ، وهذه أول مرة يحدث فيها مثل ذلك ، ولست أقول هذا لأدفع عن نفسى الغلط ، فأنا مقرة بخطئى ، مستعدة لكل ماتوقعه على من عقوبة ، ولكنى أقوله لكى

لاتتصور اننى أخالف أمرك ، أو أننى أفعل شيئا من ورائك ٠

وظل فؤاد يرتجف من الغضب غير قادر على الكلام ، ولكنه نزع ساقه من بين يديها فى عنف وغلظة ، وتعلقت أزهار بساقيه من جديد وقالت له متوسلة :

ــ تكلم ، قل شيئا يافؤاد ، اشتمنى سبنى ، اضربنى ولكن لاتسكت هكذا أن سكوتك هذا يقتلنى ٠ حرام عليك لاتقسو على هذه القسوة ٠ وتكلم فؤاد أخيرا بصوت مخنوق مضطرب :

ــ اجمعى ملابسك فى هدوء وصمت ، واخرجى من هذا البيت حالا ، فلم يعد لك مكان فيه ، ان أمامك خمس دقائق لكى لا أرى وجهك بعدها ٠ وانتزع فؤاد ساقيه فى عنف أشد من المرة السابقة حتى لقد اصطدمت قدمه بذقنها فآذتها أذى شديدا ، ولكن أزهار لم تلق بالا لذلك بل لم تحس بما اصابها وراحت تضرع اليه باكية وتقول :

ــ الى أين اذهب يافؤاد بعد ان لم يصبح لى أحد غيرك فى هذه الدنيا ، ألم اتخل عن أسرتى من أجلك ؟ ام تريدنى أن أعود الى المستنقع الذى خرجت منه ؟ فصرخ فؤاد فى وجهها :

ــ انك لم تخرجى من هذا المستنقع فى أى لحظة من اللحظات ، ربما تكونين قد بعدت بجسمك عنه بعض الوقت ، ولكن روحك لم تخرج من الوحل والطين أبدا ، فما كان لمثلك الا ان يظل طول عمره فى الوحل والطين ٠ والذى يقتلنى الآن قتلا ، انك استطعت ان تخدعينى طول هذا الوقت يافاجرة ، ومن يدرى فربما كنت تسحرين لى ، لكى أظل معصوب العينين ، وأظل أعيش معك فى الخنا ٠ وصرخت أزهار فى صوت مكتوم حرصا منها على ان لايسمعها أحد من الجيران ٠

ــ حرام عليك يافؤاد ، لاتؤذينى هكذا ، اننى أحبك ، وربنا يشهد على حبى واخلاصى لك ٠ وصرخ فؤاد فى وجهها :

ــ اخرصى ، لاتذكرى كلمة الحب على لسانك ، لم أعد أريد ان اسمع كلمة واحدة منك ، لقد انتهى كل شىء بيننا وكان يجب ان

ينتهى منذ أمد بعيد • هيا اخرجى حالا من هنا ، أولم تكونى تريدين رؤية أمك واخواتك هيا اذهبى اليهم • ونهضت أزهار باكية محطمة وقالت له :

ــ انك لاتدرك مقدار قسوتك على اذ تطردنى هكـذا ، ومع ذلك فسوف أطيعك لترى الى أى حد أنا على استعداد لأن أفعل كل مافيه راحتك وهناؤك ، ان قلبى قد أحس منذ أصبحت ملازما ثانيا أنك بدأت ترى فىّ عائقا فى طريق حياتك ، ولذلك فسوف أفســح لك الطريق كما وعدتك ، ولكنى سأظل أحبك ، سأظل مخلصة لك وفية، سواء قدرت منى ذلك أو لم تقدر ، فقد أصبحت أرى فى هذا الاخلاص ينبوع سعادتى • ولذلك أرجوك ان تذكر دائما اننى رهن اشارتك فى أى وقت تشاء ، ماعليك الا ان تدعونى الى جوارك لكى ترانى على الفور الى جانبك •

وأوشك هذا الاستسلام من ناحيتها ان يؤثر من جديد على فؤاده ، ولكن عقارب الشك عادت تذكره بأن ذلك كله ليس ســوى تمثيل رخيص ، أو لم يضبطها فى بيت الجيران فى أول مرة جاء الى البيت قبل الميعاد ؟ ورأى أن رجولته المهددة ببقاء هذه المرأة عنده تدعوه الى التشدد ووجوب التخلص منها الآن والى الابد • وراحت أزهار تجمع ملابسها وهى تبكى فى صمت ، ووضعت حاجاتها فى حقيبتين كبيرتين، ثم رجته ان يأذن لها فى ان تغسل وجهها ، وان تزين وجههـا حتى لايلحظ أحد من الجيران شيئا غير عادى • وبدأت الطريقــة التى تتصرف بها تبعث الخجل الى نفسه من مسلكه ، ولكنه كان يحس أنه قد سار فى طريق لارجعة منه ، ولم تعد المسألة كونها مظلومة أو غير مظلومة ، بقدر ما أصبحت فرصة للتخلص منهـا ، لكى ينصرف الى حياته الجديدة التى تليق بضابط محترم فى البوليس •

١٠

هال فاطمة منظر اختها ، عندما فتحت لها الباب ، فقــد كادت تقع اعياء لولا ان اسرعت فاطمة فاحتضنتها ، وجاء حسن على أعقاب

فاطمة عندما علم بمقدم اخته الحبيبة وراح يقبل فاها ويعانقهـــــا ، اما الأم فقد قرعت صدرها لهفة على منظر ابنتها وأسرعت بهـــــا الى المندرة وطلبت من حسن أن يسرع باحضار قلة الماء لتشرب منها اخته. وشربت أزهار وارتوت ، ولكن هذه المقابلة الحارة هى التى فعلت فى نفسها فعل السحر ، فاستردت انفاسها وعاد الدم الى وجههـــــا . وسألتها الأم عما حدث ، فقالت أزهار :

ـ لقد طردنى فؤاد يا أمى ، ظن بى ســـوءا وكانت الظواهر مع الاسف تعطيه الحق فى ذلك . وقصت على عائلتها القصة بحذافيرها ولم تكد تفرغ منها حتى ثارت فاطمة فى وجهها وقالت ، وهل بعـــد ذلك كله مازلت تدافعين عنه ، فتقولين أن الظواهر تؤيده ؟ أى ظواهر؟ الأنك تخاطبين صاحبة البيت ، وأى شىء فى هـــذا ؟ انه لايريد ان يخطىء أحد فيتصورك زوجته ، خوفا من ان تتمسكى عليه فى أحـد الأيام بذلك ، انه شخص أنانى خسيس ، انه يتقـــاضى منك أقصى مايمكن أن تقدمه امرأة مخلصـــة لزوجهـــا ، دون ان يدفع ضريبة الزوجية ، انه مجرد من كل رجولة وشهامة ، اننى أكرهه من أعماق قلبى واتمنى أن أراه وقد وقع فى شر أعمـــــاله . ونظرت أزهار الى اختها فاطمة فى عتاب وقالت لها :

ـ سأظل مع ذلك أحبه من أجلكم انتم ، أنسيتى يا فاطمـة أنه الرجل الذى حقق لى ماكنت اتمناه من أجلكم وهو ان يتوب الله على من هذه الحياة الممقوتة التى عشتها ، اننى الآن انســـانة أخرى ، حتى عندما أعود الى الرقص ، فسوف أعود له بشخصية جـــديدة وروح جديدة لاتجعلنى أخجل من نفسى ، أو أتصور اننى ألوثكم ، ولولم يكن لفؤاد على من فضل الا هذا لكان جديرا بكل حبى .

ولم تحر فاطمة جوابا ،وانتهزت الأم هذه الفرصة لتصـــــعد بالجماعة كلها الى الدور العلوى ، ولم تكد أزهار تدخل الى حجرة نوم والدتها حتى شهقت فزعا من منظرها ، فقد كانت خالية من السرير، وكانت الحشية موضوعة على الأرض ، وان ظلت المـــلاءة البيضـــاء

النظيفة تغطيها · وسألت أزهار عن السرير أين مستقره ، فأجابها أخوها حسن ، بأنهم قد باعوه ليدفعوا بقية قسط المدرسة الثانى الخاص بفاطمة ، فعضت أزهار على شفتيها وقالت : سامحينى يافاطمة · وأسرعت الأم تدافع عنها قائلة : وماذا كان بوسعك أن تفعلى أكثر مما فعلت ، لقد اعطيتنا كل ما كان عندك ، ولكن مع طول المدة يابنتى نفد ما كان عندنا · فقالت أزهار : أقسم لك يا فاطمة أنك كنت فى رأسى وعقلى وروحى طول الوقت انت وأمى وحسن حبيبى ، وربما هذا الخلاف بينى وبين فؤاد لم يقع الا لهذا السبب ، فقد كان القلق قد بدأ يستبد بى ، واذا كنت قد رحبت بهذه الفرصة التى ارسلها الله ، فذلك لكى أعود اليكم واراكم واعمل من جديد من أجلكم · فسوف أبحث عن عمل منذ الغد ، سأعود من جديد الى كازينو شهرزاد ، لقد قالوا لى آخر مرة وأنا أغادرهم ان فى استطاعتى ان أعود اليهم فى أى وقت أشاء · وتذكرت فاطمة أمرا فأسرعت الى حجرتها وجاءت بخطاب وقالت لأختها : لقد جاءك هذا الخطاب من بورسعيد منذ أربعة أشهر ، ولم نعرف كيف نوصله اليك ، وقد فكرت فى أحد المرات ان أذهب الى فؤاد فى قسم عابدين ليوصله اليك ، ولكن أمى منعتنى من ذلك ، وقد وافقتها بعد ان فكرت قليلا ، اذ لم يكن هناك جدوى من توصيله اليك ، فهو عرض لكى تعملى فى كازينو الفندق الكبير فى بورسعيد ، لا اظنك كنت ستتخلين عن فؤاد لتذهبى وترقصى فى بورسعيد · فقالت أزهار وقد لمعت عيناها : طبعا فى ذلك الوقت كنت سأرفض ، اما الآن فهذا العرض قد جاء فى وقته ، وانى لأرحب كل الترحيب لكى ابتعد عن القاهرة · فقالت فاطمة : ولكن ذلك العرض كان من أربعة شهور ، ولابد أنهم عثروا على راقصة غيرك ، فقالت أزهار : قلبى يحدثنى أن العرض لايزال قائما ، ان الله سبحانه وتعالى الذى لاينسى أحدا قد نظم كل شىء فى ميعاده ·

* * *

وصدق حدس أزهار ، فلم يمض على هذا الحديث سوى اسبوع واحد حتى كان رواد الكازينو فى بورسعيد من السـياح الأجانب العابرين فى القناة ، وبعض أبناء بورسعيد من الأغنياء يقطعون أكفهم من التصفيق اعجابا برقص أزهار الذى رأوا فيه روحا جديدة لاعهد لهم بها من قبل فى رقص أى راقصة أخرى ٠ كانت تفنى نفسها فى الرقص افناء بحيث تستولى على مشاعر كل من يراها ، وكان مدير الفندق ومدير الكازينو أول من أقبل عليها مهنئا بعد رقصتها لأول مرة ، وقال لها مسيو رينيه المشرف على الكازينو :

ـ انت ساحرة يامدام أزهار ، وان شاء الله سـيكون لك عندنا مستقبل عظيم ، وغمز لها بعينيه غمزة لم تكن لتخطىء معناها ، وهى التى أصبحت خبيرة بمثل هذه الشئون وقالت له :

ـ اذا كان مستقبلى العظيم يتوقف على الرقص ، فسترى منـه الشىء الذى يبهرك ، اما ان كان هذا المستقبل يتوقف على أمور أخرى فيؤسفنى أن أقول لك منذ الآن ، ان نقبك على شـونة ٠ ولم يفهم مسيو رينيه ما الذى عنته بهذه العبارة فاكتفى بأن ضحك لها ضحكة بلهاء ، فى الوقت الذى أسرعت فيه الى الحجرة التى خصصت لزينتها، فوضعت فيها صورة فؤاد على مائدة الزينة ، وراحت تناجى الصورة: أرأيت يا فؤاد كيف أنجح فى الرقص ، ذلك اننى أرقص لك ، لك أنت وحدك ، ومهما قسوت على ، ومهما ابعدتنى عنك فسـتظل فى نفسى أنت هو أنت ، فؤاد رجلى ، حبيبى نصيبى الذى علمنى كيف أحب ، وكيف أخلص فى الحب ٠

الجزء الثاني

البراعم تتفتح

الفصل الأول

١

كان اليوم أحد أيام الخريف العادية صحوا مشرقا ، وجمهرة الناس تروح وتغدو على معايشها ، يكدح ويشقى منهم من لم يكن موظفا فى الحكومة ، فقد أنهكت الأزمة المالية الخانقة التجار والزراع والصناع ، فلم يكن عجبا أن لايلمح السائرون فى ميدان عابدين ارتفاع العلم الملكى فوق القصر الوطيد الاركان منذ الصباح المبكر ، ايذانا بحلول جلالة الملك المعظم به • وحتى لو انهم لاحظوا ارتفاعه وخفقانه فوق الصارى الشامخ لما فهموا من ذلك شيئا • وكان أغلب السائرين فى الميدان يخترقونه دائما فى سرعة لايلوون على شىء ، يحذرون من رفع أعينهم الى القصر ، خوفا من أن يصيبهم ذلك بما يكرهون • ومع مضى النهار وحلول العصر ، بدأت تظهر فى الميدان حركات تدل على ازدياد النشاط البوليسى فقد راحت تطوف على الميدان سيارات من مختلف الأنواع ، وكان بعض هذه السيارات مغلقا لاينم عمن بداخله ، وبعضها مكشوفا يستطيع الناظر ان يشهد من بداخلها من ضباط انجليز ومصريين • ومع غروب الشمس بدأت آثار هذه الحركات والمناورات تتضح ، فظهرت جماعات من البوليس الراكب (السوارى) ترابط على مداخل الميدان وتطلب من السائرين فى غلظة أن يسرعوا فى سيرهم وأن لايتلكأوا ، وقد كان ذلك من شأنه ان يستحث الناس على التلكؤ لمعرفة السبب الذى دعا الى هذا التنبيه بكل هذه الخشونة •

وجاء فؤاد عبد السميع على رأس قوة من قسم عابدين لتأخذ مكانها المعد لها بين حفظة الأمن والنظام • وهمس فؤاد فى اذن مأمور القسم الذى كان قد سبقه الى الميدان :

ـ ألم تعلم بعد ياسعادة البك ماهى الحكاية ؟

وأجاب المأمور :

ـ اجتماع ، يقولون ان الوزارة ستجتمع بجلالة الملك • وهز المأمور كتفيه فى غير اقتناع لهذا السبب الذى قيل له فى تعليل اتخاذه هذه الاجراءات المشددة ، على أن الظروف غير العادية التى كانت تسود البلاد ، جعلت المأمور كغيره من بقية الضباط الذين احتشدوا فى هذا اليوم ، يهتمون فى الدرجة الأولى لتنفيذ التعليمات المعطاة لهم بدقة • وقد كان فؤاد يعرف هذه التعليمات ولذلك فقد أخذ عقب هذه المناقشة القصيرة بينه وبين المأمور ، يوزع العساكر التى جاء بها فى مواقع معينة يتمكنون منها من مراقبة الرائحين والغادين • وزحف الظل على الميدان الفسيح وقد أوشكت الشمس على المغيب ، ولم يلبث ان احتوى الميدان الظلام ، الذى لم تغن فى تبديده أنوار القصر التى بدأت تنفذ من حجراته كلها • ثم اضيئت مصابيح القصر التى تعلو اسواره وتلتها أنوار الميدان ، فخفف ذلك بعض ما كان الضباط والعساكر قد بدأوا يحسونه من وحشة • وكانت أنوار القصر بكل أقسامه مضاءة سواء الحرملك أو الخاصة فضلا عن التشريفات ، ولم يبق هناك شك فى أن أمرا جللا يوشك ان يحدث هذه الليلة • واستعاذ رجال البوليس من هذا الذى يوشك ان يحدث، لما سيكبدهم من عناء ومشقة بعد ان كانوا قد بدأوا ينعمون بشىء من الهدوء النسبى •

وباقتراب الساعة الثامنة بدأت سيارات الوزراء وكبار الموظفين تفد الى القصر وراحت اسماء الوزراء المشهورين تتردد على أفواه بعض الضباط ، ومن الضباط الى بعض جماعات من أفراد الجمهور الذى كان لابد ان يتجمع هنا وهناك يدفعه حب الاستطلاع • ولم يز

البوليس الواقف أو الراكب حرجا فى ترك هؤلاء المتفرجين المسالمين، فقد كان الانتظار الطويل قد أرهقهم ، وأوامر الرؤســـاء قد تراخت عنهم ، والمســـافة بينهم وبين أبواب القصر ـ حيث يدخل الوزراء والكبراء ـ جد بعيدة ٠

وكانت لاتكاد عربة أى وزير من الوزراء تقف أمام باب التشريفات الخارجى ، حتى يقفز من السيارة أحد السعاة الجالســـين الى جوار السائق ليفتح بابها ٠ ولكنه كان يسبق عادة بأحد حجـــاب القصر النوبيين الذين يقفون لهذه المهمة ، فيشرع ساعى معالى الوزير المرافق له فى حمل الحقيبة الجلدية الخاصة بمعاليه ، ويسير وراءه ممنيـا نفسه بأن يدخل مع معاليه الى القصر ، ولكن حاجبـا آخر من حجاب القصر يتقدم ليأخذ الحقيبة من يد ساعى معـــالى الوزير ، فما كان للساعى ان ينفذ الى داخل القصر ٠ ويتردد الساعى بعض الشىء فى النزول عن حقيبة معالى الوزير ، ولكن الوزير يومىء له مبتسما فى حزم أن يدع الحقيبة لحاجب القصر ٠ ويسير الوزير منتفخ الأوداج مشدود القامة مرتفع الرأس ، والخطورة تفوح من أردانه ، ويجتاز عتبة التشريفات بعد ان يحيى (والابتسامة لاتفارقه) الحـــارسين الملكيين العملاقين الواقفين على الباب، وينفذ الى البهو الملكى فيرى نفسه وقد غمر بأضواء ساطعة ، وأحد رجال التشريفات يبتسم له فى قامتـــه المديدة ووجهه الحليق المشرق وملابسه الانيقة مرحبا ، فيتقـــاصر الوزير وينكمش بعض الشىء ، ويشع منه التواضع ، فيرد على بسمة رجل التشريفات ببسمة أعرض وأحلى منها ، ويهز اليد التى مدت له فى اشتياق وحرارة ٠ ويسأله رجل التشريفات متلطفا عن صحـــة معاليه الغالية واشفاقه من أن يكون تقلب الجو فى هـــذين اليومين الأخيرين قد ضايقه ، فيرد عليه معالى الوزير وقد شـــاع الرضـــا والاغتباط فى أساريره ، انه قد اعتاد أن يبالغ فى الحيطة ولذلك فقد ارتدى ملابس الشتاء الثقيلة من منتصف سبتمبر ٠ فيهنئـــه رجل التشريفات على هذا الاحتياط الموفق ، ويصـــحبه حتى أول درجات

السلم الملكى الكبير المغطى بالابسطة الحمراء ذات الوبرة السميكة التى تفوص فيها الاقدام ، بحيث تنسى الانسان أنه يسير على الارض ٠

على ان بعض الوزراء المتمرسين يؤثرون استخدام المصعد الكهربائى على الرغم من ان الصعود لدور واحد فقط ، فالدور فى نهاية الأمر مرتفع ، وقد لاحظ الطبيب فى آخر تحليل اجراه له زيادة غير مستحبة فى كمية السكر وان كانت لاتشكل خطرا ولكن الاحتياط أوجب ، أو أن الضغط المرتفع فى الدم يجعل محظورا عليه بذل أى مجهود ٠ ولايكاد الوزير يصل الى الدور العلوى سواء عن طريق السلم الملكى أو المصعد الملكى حتى يقابله حشد جديد من السعاة والحجاب بعد أن يكون قد ظهر بينهم طراز جديد يسمون الشماشرجية يرتدون الأزياء القديمة التقليدية المؤلفة من السراويل والصدارى المزركشة والمطرزة والموشاة بالذهب ، فيزداد تواضع الوزير ولاتعود شفتاه قادرتين على الانطباق فهما فى انفراج دائم عن ابتسامة حائرة قد تضيق وتتسع فى خلجات وتقلصات لامعنى لها ، ولكنها هناك دائما وفى كل الأحوال ٠ ويصل الوزير أخيرا الى حجرة الاجتماعات الكبرى بقصر عابدين ، فيغطى ضوؤها الساطع على كل مامر به من أضواء ، بحيث يعشى بصره لبضع لحظات ، وينتابه شعور بالضياع وهو يدلف الى هذه القاعة الكبرى ، وقدماه توشكان أن تنزلقا على خشب القاعة المصنوع من (الباركيه) الذى يبرق ويعكس الأضواء كما لو كان مرآة ، لولا أن تتداركه السجادة الضخمة الثمينة التى تتوسط القاعة وتقوم عليها مائدة الاجتماعات الكبرى ٠

ولكنه لايكاد يقاد الى مكانه المخصص له على المائدة وقد أعد له كرسى خاص وضعت عليه بطاقة باسمه ، حتى يسترد هدوءه وطمأنينته ويشعر باحساس الباخرة اذ ترسو على الميناء فى شموخ واعتداد ٠ ان مكانه الى المائدة والبطاقة التى تشير الى اسمه تذكره بأنه أحد وزراء الدولة الخطيرين الذين يتصرفون فى اقدار البلد وما اجتماع الليلة الا آية ذلك ٠

على أن هذه المشاعر كانت وقفا على الوزراء الجدد الذين يجتازون هذه التجارب للمرة الأولى ، والا فقد كان هناك نفر من الوزراء العتاة ممن سبق لهم الخدمة تحت امرة جلالة الملك أكثر من مرة ، واجتمعوا في هذه القاعة فى أكثر من مناسبة ، فهؤلاء كانوا أثبت مكانا وأهدأ أعصابا ، ولذلك فقد اعتادوا أن يقصوا على زملائهم الجدد نتفـــا وقصصا مما حدث فى اجتماعات مماثلة . وكانت كل هــذه النتف والقصص تدور بطبيعة الحال حول موضوع واحد وهو مــدى ذكاء جلالة الملك وحزمه وسعة اطلاعه ، وقدرته على مواجهة المشاكل ، ويهز الوزراء الجدد رؤوسهم ايمانا وتسليما ، فقد كانت عظمة المليك حديث الركبان وليس أقطع بعظمته من أنه اكتشف نبوغهم واهليتهم للوزارة من دون العالمين . على ان المجتمعين جميعا فى هذه الليـــلة وبدون استثناء الا من وزير واحد أو وزيرين لايكادون يشيرون الى الغرض الذى اجتمعوا من أجله ، حتى تغشـــاهم موجـــة من القلق وتخفت أصواتهم فى حركة لاشعورية ، ويختلس كل منهم النظر الى أخيـــه اختلاسا ويضطرب حديثهم وتزايلهم الثقة بأنفسهم فاذا بهم يتأثئون ويفأفئون ، فقد كانوا يعلمون انهم اجتمعوا لاعلان الغاء دستور البلاد الذى كسبته بثورتها عام ١٩١٩ ، واستبداله بدستور مسخ جـديد يجعل السلطة التشريعية تحت سلطان السلطة التنفيذية أو بالاحرى تحت سلطان جلالة الملك . ويزداد الشعور بالقلق فى نفس كل وزير على حدة ، وخاصة من لم يتمرسوا منهم على أمثال هــذه المواقف فى تحدى ارادة الشعب . ويأخذ هذا القلق صورة مزيد من الضحكات العصبية وافراط فى اشعال السجاير أو السيجار لزملائهم ، وطلب فناجين القهوة السادة أو المضبوطة من حين لآخر ، والتى كان يلبيها الشماشرجية بأسرع من رد الطرف . ولكن ذلك كله لم يكن ينجح فى رد غائلة القلق والشك الذى بدأ يسيطر عليهم . لاجدال أن رئيس الحكومة قد نجح فى اخماد الحركات الشعبية الجماعية ، ولكن ماهو الرأى فى هذه الحركات الجديدة من محاولات الاغتيالات التى تكررت

على شخص رئيس الوزراء أكثر من مرة ، ثم ظهرت الى جوارها هذه الحركة الجديدة التى بدأت بصفة خاصة تقلق بال زوجات الوزراء وأولادهم ، وهى وضع القنابل هنا وهناك ؟ ولايتمالك أحد الوزراء نفسه وقد هجس فى خاطره موضوع القنابل الا ان يميل على جاره من اليمين أو الشمال سائلا اياه ٠

ـ ألم يتوصلوا بعد لمعرفة العصابة المجرمة التى تضع القنابل ؟

ولما كان معالى الوزير قد بدأ سؤاله متلعثما بصوت خافت فان زميله لايسمع من كلامه بوضوح الا الكلمة الاخيرة «قنابل» فينتفض رعبا بحركة تلقائية ، ويستوضحه وقد امتقع وجهه : أتقول قنابل ؟ ويبتهج الوزير لانزعاج زميله الى هذا الحد ويقول له بصوت واضح ثابت هذه المرة : كنت أسألك اذا كانوا قد وضعوا أيديهم على هذه العصابة المجرمة التى تضع القنابل ؟ ٠ ويذهب الروع عن صاحبه وترتسم على شفتيه ابتسامة صفراء شاحبة ويقول لصاحبه فى استهزاء وقلة مبالاة :

ـ أتسمى هذه قنابل (يا اكسلانس ؟) هذه ألاعيب اطفال ، لقد شرحها لى الرئيس عندما كنت عنده منذ أسبوع وجىء بواحدة من هذه القنابل ٠ ان بعض العاطلين من العمال ، والطلبة الذين فصلوا من مدارسهم يأتون بماسورة صغيرة ويحشونها ببعض البارود ثم يضعونها الى جوار احدى الوزارات لكى تنشر صحف المعارضة فى اليوم التالى بخطوط كبيرة نبأ العثور على قنبلة ثم يهولون فى وصفها٠ وينظر الوزير لصاحبه فى عطف واشفاق ويسأله : اتهتم بهذه المسائل يا اكسلانس ؟ ويبادر معالى الزميل دافعا عن نفسه فكرة الاهتمام فهو انما كان يسأل فقط ٠ ويضع دخول رئيس مجلس الوزراء حدا لذلك كله ، فلا يكاد يهل بطلعته المشرقة وابتسامته الساحرة حتى يسرع جميع الوزراء واقفين للسلام عليه ، وقد امتلأوا ثقة وعزما ويقينا بعظمة الدور الذى يقومون به لاعادة بناء البلاد ٠

ومع مقدم الرئيس تبدأ عجلة الحوادث فى الدوران حسب خطة مرسومة ووقت محدد ، فلا يكاد يأخذ الرئيس مقعده على يمين الكرسى

المخصص لجلالة الملك على رأس المائدة ، حتى يظهر موظف كبير يرتدى ملابس الردنجـــوت كبقية ملابس الوزراء ، وفى يده مظروف كبير يحتوى على نسخة الدستور الجديد الذى سيتشرف بتوقيع جـــلالة الملك ومعالى الوزراء • ولا يكاد الموظف الكبير يخرج نسخة الدستور من المظروف الكبير حتى تشرئب اليها أعناق كل من فى القاعة ابتداء من السعاة والحجاب حتى الوزراء وكبار موظفى القصر المحتشدين ، فقد كان هذا الشيء الذى يخرج من المظروف هو سبب هذا الاجتماع وسبب هذا التوتر الذى يسود البلاد منذ بضعة شهور ، ولايعلم سوى الله ما الذى سينجم من اعلانه • ويقدم الموظف الكبير نسخة الدستور الى دولة رئيس الحكومة الذى تزداد ابتسامته اتساعا وهو يرى الخط الجميل الديوانى المكتوب به نص الدستور ، فلا يتمالك نفســـه من ابداء اعجابه بهذا الخط الرائع • ويسرع الوزراء تاركين مقـــاعدهم ليتفرجوا على نسخة الدستور ويشهدوا هـــذا الخط الجميل الذى اعجب رئيس الحكومة ، وتتصاعد تأوهات الاعجـــاب لروعة الخط وفخامة الورق العجيب الذى كتب عليه ، ولا يتمالك أحـــد الوزراء نفسه من أن يقول لأقرب زملائه وقد زوى مابين حاجبيه وتجلى عليـــه الجد والاهتمام :

ـ ستظل انجلترا فى رأيى يا اكسلانس تنتج أفخر أنواع الورق فى الدنيا كلها ، انها دولة عجيبة ، انظر بالله عليك مدى نعومة الورق، ومدى نصاعته ، وهذه التموجات العجيبة فى بنيته • وتشاء الظروف أن يكون المتحدث اليه أحد دهاقنة الوزراء فاذا به يفيض لزميـــله فى المعلومات ويقول له :

ـ هذا ورق أسمه (بارشمان) وهو يصنع خصيصا لكتـــــابة المراسيم والأوامر الملكية • ولكننى شهدت ورقا من صنع الألمان يفوق هذا النوع بكثير •

وكان رئيس الوزراء مذ أبدى ملاحظته على جمـــــال الخط وهو منهمك مع بعض الوزراء فى مناقشة حول أى الخطوط أجمل النسخ

أم الثلث أم الفارسي ؟ وانتهى الكل بالاقرار أن الخط الديواني الذي كتب به الدستور يفوق كل هذه الطرز • ولكن الموظف الكبير الذي تقبل ثناء الرئيس والوزراء عليه بالشكر ، أبى الا أن يظهر علمه بالخطوط وأسرارها بأكثر مما يعرف الوزراء فقال :

ـ سيبقى الخط الكوفي الذي انقرض استعماله ، هو ذروة ماوصل اليه فن الخط العربي من جمال وكمال • والتقط أحد الوزراء الجالسين بعيدا من هذا النقاش كلمة الكوفي ، فسأل زميله متباسطا: كلمة الكوفي هذه ، تذكرني بالكوفية ، اتظن (يا اكسلانس) ان هناك علاقة بين الكلمتين ؟ وهكذا تشعب الحديث حول الخطوط وجمالها ورداءتها ، واستعاد بعض الوزراء ذكرياتهم في المدرسة معا وكيف كان الشيخ حتاتة مدرس الخط يعاقبهم • ومن ذكريات التلمذة بدأ البعض يستعيدون أحاديث الشيطنة التي كان بعض الوزراء يقومون بها ، ولم يكن يعرف سوى الله ، الى أي المسالك والدروب كان يمكن أن تصل الذكريات بمعالي السادة الوزراء لولا أن قطع تيار الحديث اصوات هرج ومرج خارج القاعة ايذانا بمقدم جلالة الملك • وانعقدت الألسنة على الفور واكفهرت الوجوه ، ووجفت القلوب وقد أدرك الجميع ان الساعة قد اقتربت ، ساعة اجتماعهم بجلالة الملك • وفتح باب مكتب جلالة الملك المتصل بقاعة الاجتماعات الكبرى ، وظهر شيخ وقور سمح الوجه هو كبير الامناء ، وأعلن مقدم جلالة الملك • وكأن الوزراء الذين استذكروا ماضيهم منذ قليل ، قد ارتدوا بالفعل الى هذا الماضي تلاميذ صغارا وقد دخل عليهم أحد عتاة المفتشين ، فحبسوا انفاسهم وسرى التوتر في اجسادهم وجلا من جلالة الملك القوى الصارم •

٢

ودخل جلالة الملك ، مرفوع القامة عريض المنكبين ، مقطب الوجه صخري الملامح مبروم الشنب على طريقته التي اشتهر بها ، وكان وجهه

الاحمر ينبيء عن صحته وحيوته ، ورقبته الغليظة تتحدث عن قوته البدنية • وحيا جلالة الملك الحاضرين بايماءة من رأسه وحركة خفيفة من يده ، بينما اسرع كبير الامناء الشيخ فجذب كرسى صاحب الجلالة الملك الموسوم بالتاج الى الوراء قليلا ليمكن صاحب الجلالة من الجلوس، حتى اذا أخذ جلالته مكانه أمام الكرسى ، رده كبير الامناء الشيخ الى الأمام قليلا فجلس عليه صاحب الجلالة بحركة آلية • وأشار الى الوزراء بحركة خفيفة من رأسه ، ان يجلسوا فجلسوا محاذرين ان يحدثوا صوتا أو حركة • وخف عنهم الروع بعد ان استقروا جالسين ، وزال التوتر بعض الشيء ،ولكن بعض دهاقنة الوزراء وصلوا الى حد التحديق فى وجه جلالة الملك دون خوف أو وجل • وساد الصمت لحظة، تنحنح على أثرها جلالة الملك مسلكا حنجرته ، التى لم ترجع الى طبيعتها بعد هذه الرصاصة الملعونة التى اطلقها عليه أحد الأمراء فى شبابه قاصدا قتله • وخرجت كلمات جلالته الأولى تدل على الجهـــد الذى بذله لاخراجها :

ــ كل شيء معد يادولة الباشا ؟

وأجاب دولة الباشا ، بان كل شيء معد وليس ينقصه الا تفضل جلالته بالتوقيع على نسخة الدستور بيده الكريمة • وتلفت جـلالة الملك صوب أحد الجالسين على المائدة فى مكان ثابت على ما يظهر فى كل مرة ، وقال له :

ــ أما زلت متمسكا ياباشا برأيك من عدم وجود صيغة دستورية تحظر على مجلس النواب اسقاط الوزارة ، وان يكون ذلك من حق صاحب العرش وحده ؟

واسرع الباشا الذى توجه اليه الملك بالحديث قائلا :

ــ استغفر الله يامولانا ، ما أنا الا مستشـــار حكومة جلالتكم وخادمكم فى كل الاحوال ، وليس يكلفنا الأمر اذا شئتم الا أن نحذف المادة التى تخول مجلس النواب نزع الثقة من أحد الوزراء أو الوزراء مجتمعين من الدستور لكى تتحقق رغبة جلالتكم • ولكنى عملت فى

حدود الخطة التى رسمت لى من ان الدستور الجديد ، يجب أن يظل بالرغم من كل التعديلات التى سندخلها عليه ، محتفظـــا بالمبـــدأ الأساسى فى الديموقراطية بمعناها المتعارف عليـــه ، والتى تتلخص فى مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب • ولذلك أبقينا هذه المسئولية ، ولكن بعد أن فرضنا عليها من القيود مايجعل ممارستها شيئا صعبا جدا • وتدخل رئيس الحكومة فى هذا الحوار الدائر بين مستشار الحكومة القضائى وصاحب الجلالة الملك ، ونظر الى جلالة الملك فى ثقة وهدوء وابتسامته الساحرة لاتفارقه وقال :

ـ ارجو ان يسمح لى مولانا ان اكرر ماتعهدت له به فى آخر مرة تشرفت فيها بالمقابلة السنية ، وهى أننى اعتبر نفسى مســئولا عن البرلمان القادم الذى سيكون كله من رجال جلالة الملك المخلصــين ، ولن يسمع عنه الا كل خير ، وسيكون رهن اشـــارة مولانا • ولكنى سمحت لنفسى ، بعد اذن جلالتكم ، ان أوافق مستشار الحـــكومة القانونى على رأيه من وجوب تضمين الدستور نصا يقرر مســئولية الوزارة أمام البرلمان ، حتى يكون من المستطاع الدفاع عن الدستور الجديد ، وان كل ما طرأ عليـــه من تعـــديلات قد تناولت الفروع والحواشى دون الجوهر • فقال الملك :

ـ وهو كذلك ، على بركة الله •

وأسرع كبير الامناء فوضع نسخة الدستور أمام جـــلالة الملك وفتحها حيث يجب أن يوقع جلالته ، بعد أن بين له ذلك الموظف الكبير المختص • وغمس كبير الأمناء الريشة الذهبية فى المـداد الخاص • ولكن جلالة الملك كان قد استأنف الحديث ، فتوقف كبير الامناء عن القيام بأى حركة ريثما يفرغ من كلامه •

ـ أنك تعرف يادولة الباشا أن الجماعة الذين يسمون انفســهم حزب الأغلبية ، ويحتكرون لأنفسهم حق التكلم باسم الشـــعب قد اتعبونى كثيرا ، وأنا غير مستعد أن أخوض تجربة جديدة فاشلة،وهذا ما كان يجعلنى أتصور أننا مادمنا قد اعتزمنا تغيير الدستور فليكن

تغييرا عاما شاملا لايسمح لهم فى كل الاحوال باللعب بأذنابهم ، وعلى رأى مثل أولاد البلد الى ينقرص من التعبان يخاف من الحبـــــل ·
وابتسم الوزراء اعجابا بقدرة جلالة الملك حتى على استيعاب الأمثال البلدية ، ونظر بعضهم الى بعض يومئون برءوسهم ان ماسمعوه قد فاق كل حسبانهم ·

وهمس أحد دهاقنة الوزراء وعتاتهم فى أذن جاره : أرأيت ؟ وهز جاره رأسه فى اجلال وخشوع مؤمنا وموافقا · على أن صوت رئيس الحكومة ، لم يلبث ان استرعى اهتمامهم وهو يقول :

ـ اننى أحمد الله يامولانا ان تم كل شىء على الوجـــه الأكمل ، بحيث يجىء اعلان الدستور هذه الليلة ختام مرحلة وايذانا ببدء مرحلة جديدة تنعم فيها البلاد بالاستقرار · وكان آخر نجاح حققنـــــاه هو اتصال المندوب السامى بى بالامس ، وابلاغى انه تلقى تعليمات من وزارة الخارجية البريطانية ، بعد اطلاعها على الدستور الذى كنا قد سلمنا اليهم نسخة منه · وتقضى هذه التعليمات بما سبق أن أعلنه رئيس الحكومة الانجليزية ، من ان انجلترا تقف فى موضوع الدستور الجديد على الحياد ، باعتباره من شئون مصر الداخليـــة · وتوقف الملك الذى كان قد تسلم الريشة الذهبية ليوقع بها على الدستور وقال لكبير وزرائه وقد غام وجهه بعض الشىء :

ـ وهل تسلمت من المندوب السامى خطـــابا أو مذكرة مكتوبة بهذا المعنى ؟

فقال رئيس الحكومة والابتسامة الساحرة لاتفارق شفتيه :

ـ انها فى الطريق فقد افهمنى المندوب السامى أنه أصدر أوامره ـ بناء على طلبى ـ ان ترسل الى ·

وتجلى الاهتمام فجأة على وجه جلالة الملك ، ووضع الريشة التى كان سيوقع بها أمامه ثم قال :

ـ فى هذه الحالة استحسن تأجيل توقيع الدستور هذه الليـــلة الى باكر ريثما تتسلم هذه المذكرة ·

وبوغت رئيس الوزراء بهذا النطق الكريم الذى يفسد عليه كل خططه بشأن اعلان الدستور هذه الليلة ، ولكن لم يظهر على وجهه أى تأثير ، واتسعت ابتسامته واكتست بشىء من الصفرة وقال فى صوته الهادىء :

ـ نحن تحت أوامر مولانا الملك فى كل مايشير به أو يأمر ، ولكن انفضاض مجلس الوزراء فى هذه الليلة ، بعد ان عرف الآن وشاع سبب الاجتماع ، بدون ان تتفضلوا جلالتكم بتوقيع الدستور ، من شأنه أن يحدث بلبلة كبيرة فى الأفكار ، مما قد يؤثر على مركز الحكومة التى يجب ان تبدو دائما قوية بفضل مؤازرة جلالة الملك لها . وقد كنت دعوت مراسلى الصحف الانجليزية والاجنبية بصفة عامة للاجتماع بى هذه الليلة فى دار مجلس الوزراء ، لأسلمهم نسخا من الدستور عقب تفضل جلالتكم بالتوقيع عليه ، ولقد تلقيت من مكتبى اشارة قبل تشريف جلالتكم تفيدنى ان المراسلين قد اجتمعوا بالفعل فى انتظار عودتى من القصر . واضطربت حالة الملك العصبية بعض الشىء فيما يبدو ، فقد بذل محاولة جديدة لتسليك حنجرته واخراج صوته قبل ان يكون باستطاعته استئناف الحديث ، ولم يلبث ان قال :

ـ أنا أقدر طبعا ان تأجيل توقيع الدستور هذه الليلة قد يحدث بلبلة فى الدائرة الضيقة جدا التى عرفت بأننا سنوقع الدستور هذه الليلة ، ولكنى اتصور يادولة الباشا أن هذه البلبلة وسط هذه الدائرة الضيقة جدا لمدة أربع وعشرين ساعة ، خير ألف مرة من ان نجازف باصدار الدستور قبل ان نكون متفقين تماما مع الانجليز عليه وتكون تحت يدنا وثيقة مكتوبة بهذه الموافقة . ولم يتمالك الوزراء أنفسهم هذه المرة من احداث أصوات تدل على مدى اعجابهم بحنكة جلالة الملك وشدة حذره فى المسائل السياسية . وراح كل وزير يومىء لصاحبه فى الجانب المقابل من المائدة بحركات تدل على فرط هذا الاعجاب وان تظاهر بمحاولة اخفائها حتى يراها جلالة الملك .

وعلى الرغم من أن رئيس الحكومة بدأ ينزعج من هـــذا التطور المفـــاجيء ، فقد حرص كل الحرص على ألا يظهر شيء من ذلك على وجهه ، الذى كانت البشاشة تتجلى عليه كما لم تتجل فى أى لحظـة سابقة على هذه الليلة • وراح يقول لجلالة الملك فى صوت أوشـــك البعض ان لايسمعه لفرط ما أودعه فيه رئيس الحكومة من هدوء :

ـ أرجو أن يتأكد مولاى من ان موافقة الانجليز لم تعد محل شك، وقد سألنى فخامة المندوب السامي عما أذا كنت أحب أن أتوجــــه لمقابلته لابلاغى نص رسالة وزارة الخارجية شخصيا ؟ ولكنى اكتفيت بالمخاطبة التلفونية منعا للقيل والقـــال ، وطلبت منـــه زيادة فى الاحتياط ارسال مذكرة مكتوبة بهذا التبليغ • ولا أظن ان جـلالتكم تتصورون أن المندوب السامى يكذب على ؟ وفوجيء الحاضرون بجلالة الملك يضحك ضحكة متحشرجة أثارت القشعريرة فى بدن من كانوا يسمعونها للمرة الأولى من الوزراء ثم اردف قائلا عن المندوب السامى :

ـ ويكذب على أبيه اذا لزم الأمر •

وارتج على الوزراء هذه المرة فلم يعرفوا كيف يتصرفون فى هذه الحالة التى يتعلق فيها الموضوع بالهجوم على المندوب الســـامى ، فاكتفوا بأن حبسوا انفاسهم بينما مضى جلالة الملك المعظم فى حديثه قائلا :

ـ أنا يادولة الباشا لست مستعدا أبدا للمجـــازفة مع هؤلاء الانجليز ، اسألنى انا عنهم وما بليت به منهم ومن سياســـتهم التى تتغير فى كل يوم واحيانا فى كل ســـاعة ، مادام الأمر يتعلق بمـــا يسمونه مصالح الامبراطورية ، فهم على استعداد أن يكـــذبوا على أنفسهم وعلى الله نفسه، اسألنى أنا عنهم وأنا اصطلى بنيران سياستهم المتقلبة كالحرباء منذ اثنتى عشرة سنة •اننى أنصحك أن تسمع كلامى وترجيء توقيع الدستور الى الغد ، ريثما تتلقى المذكرة المكتوبة التى تثبت عدم اعتراضهم •

وتدخل وزير العدل قائلا :

ـ اذا أذن لى مولاى فان لدى اقتراحا قد يحل الموقف ٠

فظهر الرضا على وجه جلالة الملك مما دل على أن وزير العدل كان محل الحظوة وقال له :

ـ قل يا باشا ، تكلم فأنت دائما حلال العقد ، وأنا ممنون جدا من مخك ٠

واحمر وجه وزير العدل من هذا التقدير السامى الذى غمره به جلالة الملك على رءوس الاشهاد ٠ وظهر الحسد على وجوه بعض دهاقنة الوزراء ، بينما ظهر الاعجاب على وجه الوزراء الجدد ، وحرصوا على ان يرى وزير العدل اعجابهم بما نال من تقـــدير هو اهل له ، وقال وزير العدل أخيرا :

ـ ربنا يحفظ لنا جلالتكم ويديم عطفكم علينـــا الذى نفخر به ونعتز ٠ أما اقتراحى الذى أعرضه على انظار جلالتكم فهو ان تتفضلوا برفع الجلسة مؤقتا بينما يعمل دولة الرئيس على الاتصال بالمندوب السامى ويطلب منه ارسال المذكرة المكتوبة حالا ٠

وكان هذا الاقتراح بالفعل مظهرا جديدا على ان وزير العدل حلال العقد ، فقد أخذ به وســـارت الأمور على مايحب رئيس الحـــكومة ويشتهى ٠

ووصلت فى فترة تأجيل انعقـــاد المجلس مذكرة دار المندوب السامى متوجة بشعار الامبراطورية من صورة الاســـد وكلمتى الله والملك ، مشفوعة بتحيات المندوب السامى الشخصـــية ٠ وكانت المذكرة تتضمن الرد المتفق على أنه يعنى موافقة الانجليز على اعلان الدستور الجديد بعد الغاء دستور الشـــعب ، وهو أنهم يقفون على الحياد فى هذه المسألة ٠

ووقع جلالة الملك الدستور أخيرا وقد حبس الجميع انفاسهم فى هذه اللحظة التاريخية ٠ ولم يكد جلالته يفرغ من التوقيع حتى أعاد القلم الى كبير الأمناء والتفت صوب رئيس حكومته قائلا :

ـ مبروك يا باشا ٠

ولم يسع صاحب الدولة الا ان يقف من على كرسيه اجـلالا وان ينحني قائلا :

ـ مبروك يا جلالة الملك ، ربنا يطيل فى حياتكم ويجعل أيامكم كلها أيام يمن وسعادة لهذه الأمة ، وان يجعل هذا الدستور فاتحـة خير على البلاد ٠

ووقع رئيس الحكومة بدوره على الدستور ، ثم راح الموظفـون يحملون نسخة الدستور من وزير الى آخر ليمهرها بتوقيعـه ، وقد بدأ احساس الوزراء بأنفسهم وخطورتهم يصل الى الذروة فى هـذه الساعة ٠ وكان كل وزير لايكاد يفرغ من عملية التوقيع حتى يبادر من سبقوه مهنئا ومباركا أسوة بما فعل جلالة الملك ، ثم لايلبث ان ينخرط فى استئناف الحديث الذى لم يتوقف لحظة واحدة ، حول اعجابهم بقوة شكيمة جلالة الملك وحرصه على أن لايدع أمرا للظروف، فبفضل قوة الشكيمة هذه وخبرته الطويلة وحنكته ، أصبح الطريق معبدا أمام الدستور الجديد لكى يتم اعلانه وتنعم البـلاد فى ظله بالرفاهية والاستقرار والديمقراطية الصحيحة التى لاتشوبها شائبة٠

٣

انصرف الوزراء من اجتماعهم التاريخى العظيم فى العـاشرة والنصـف ، وأذن المأمور ، بعـد أن أذن له رؤسـاؤه ، لتابعيه بالانصراف ، على أن يعودوا فى الصباح المبكر فقـد أعلنت حالة الطوارىء مع اعلان الدستور الجديد ٠

واحس فؤاد الذى كان قد أنهك من التعب بجوع شـديد ، فاشترى جبنا وزيتونا ومخللا ورغيفا من الخبز (آلفينو) ليأكـله بمجرد عودته الى البيت ٠ وفتح باب شقته فى لهفة من فرط جوعه ، وامتدت يده بحركة آلية الى مفتاح النور فى الصـالة ليديره ولكن النور لم يضىء ، وتذكر فؤاد أن المصباح الكهربائى كان قد حرق منذ أيام ونسى ان يشترى مصباحا جديدا ٠ وأسرع الى حجرة النوم فأضاء

مصباحها وتلفت حوله ليضع لفافة المأكولات التى يحملهـا ، وأسرع فقضم لقمة كبيرة من الرغيف الفينو الذى كان يحمله ، ولم يجد سوى الكنبة ليضع الطعام عليها فقـــد كان الكرسى الوحيد الموجود فى الحجرة غاصا بالملابس التى استلمها من الكواء قبل خروجه • ونسى جوعه فى لحظة من الاهتمام المفاجىء بالاطمئنان على ملابسه ، التى استلمها دون ان يعدها اذ كان فى عجلة من أمره • وعد الأقمصة فاذا بها ثلاثة مع أنه متأكد انه سلم الكواء أربعة • وسرعان ما اكتشـف أن القميص الناقص هو الجديد الذى اشـتراه أخـيرا • وراح يبحث فى انحاء الحجرة عن القميص عله يكون لم يرسله الى الكواء فلم يعثر عليه ، وطاش عقله • وفكر أن يبادر بالنزول لسؤال الكواء ، ولكنـه لايمكن الا أن يكون قد اغلق محله فى هذه الساعة ، فيجب ان يرجىء سؤاله حتى الصباح ، ولكنه لن يكون فاتحا كـذلك فسوف يذهب فؤاد الى عمله قبل السادسة • وخطر فى ذهنه ان ينكر الكواء ان يكون قد استلم منه أربعة قمصان ، فغلا الدم فى عروقه وأقسم أنه لو فعل ذلك فليخربن بيته ويحطمن حياته • وذكر فؤاد نفســـه بوجوب التعقل وعدم الهياج قبل الأوان ، وتذكر أنه جائع ويجب ان يأكل أولا ، ولكن بعد ان يخلع ملابسه • وخلع السترة العسكرية وعلقها على مسند الكرسى ، ثم خلع البنطلون وراح يرتبه فى نظـــام فوق السترة • ولكنه لم يكد يخلع القميص حتى أزعجته رائحـــة العرق المنبعثة منه وراعه ما لاحظه على ياقته وأكمامه من قذارة وأحس ببعض الراحة عندما تذكر أنه سيلبس فى الصباح أحد هذه الاقمصـــــة النظيفة • ومع تذكر الاقمصة النظيفة ، عاودته ذكرى القميص الناقص واستبد به القلق من جديد ، ولكنه استجمع كل ارادته لكى يرجىء هذا الموضوع المزعج حتى يقابل الكواء • ولما كان الجو لايزال دافئا فقد بقى فؤاد بملابسه الداخلية • وتوجه أخيرا صوب الكنبة ليتناول عشاءه ، وفتح اللفافة فتساقطت منها قطرات من مياه الجبن والزيتون والمخلل وأحدثت بقعة كبيرة مزعجة على الكنبة • وامتدت أصابع فؤاد

فى محاولة فاشلة لمسح البقعة واصلاح ما فسد ، ولكن المحاولة انتهت بأن زادت الطين بلة • ورأى فؤاد أن يجيء بجريدة قديمة يفرشهـا على الكنبة ليصونها من التلوث بأثار الطعام • وتنفس الصعداء رضاء بهذه الفكرة الموفقة فكرة الاستعانة بصحيفة لحماية الكنبة • ثم شرع فى ازدراد طعامه، وقد جعله الجوع يسرع بالتهام بضع لقم كبيرة• ولكنه لم يكد يسد صرخته الأولى للطعام حتى بدأ يأكل فى تثاقل وحزن وكآبة وقد طغى عليه الشعور بالوحدة•وتحولت الكآبة الى غصة فى حلقه فشرق ، وأسرع نحو الحنفية ليشرب ويزيل الغصة • ووضع فمه على الصنبور وراح يكرع من الماء لايعرف كم شرب منه ولا متى يتوقف ، وعلى أية حال فقد توقف فى اللحظة التى تصور فيها انه لايمكن الا ان يكون قد شرب كمية ضخمة • وعاد الى حجرة النوم مجتازا الصالة فاذا قدمه تتعثر فى احد المقاعد الذى كان قد انقلب ولم يعده الى وضعه الصحيح • وانفجرت براكين الغضب التى كانت تعتمل فى نفسه منذ أمد بعيد ويحاول ان يكبتها ويقمعها • ولأمر ما انهالت هذه البراكين من الغضب على أزهار فهى المسئولة عن هذا الذى يعانيه الآن ، فلو أنها أطاعته وسمعت كلامه ولم تتصرف بهذه الحماقة فتتحدث الى صاحبة البيت ، لظلا يستمتعان بالهناء الذى كانا يعيشان فيه حتى الآن • وتداعت الصور فى ذهنه ، صور هذا النعيم الذى عاش فيه مع أزهار • تراءت له وهى ترتدى جلبابه وترقص له كلما طلب منها ان تفعل ذلك ، وكيف كان ينقض عليها كالوحش الكاسر فى ختام الرقصة ويحملها الى الفراش • وعربدت الغريزة فى جسده ، واشتد به الضيق فاسرع نحو النافذة ملتمسا بعض هواء الليل البارد • وبينما كان يفتح النافذة ، اذ وقع بصره على ساعة يده ، فادهشه انها لم تتجاوز الحادية عشرة الا ببضع دقائق • ووجد نفسه يتساءل : ما الذى يحبسه الآن فى البيت ؟ ما الذى يجعله هكذا يعيش فى الوحدة والكآبة فى الوقت الذى يستطيع ان يمضى سهرة حمراء ، يقصد عقبها فورا الى استلام عمله

فى القسم ؟ وقفز اسم بيت مدام سيمون الخياطة الى رأسه ، فما فتىء صلاح بك يحلف عليه بعد أن رقى الى رتبة اليوزباشى ونقل الى قسم الموسكى ، أن يعاود زيارة البيت فمدام سيمون تسأل عنه ، وصاحبته سميرة هانم متيمة بحبه • وقد شجع فؤاد على التفكير فى الذهاب الى بيت مدام سيمون ، أنه أصبح يداينها بالفعل • ألم يتستر عليها عندما وقعت فى يده شكوى من مجهول تقول ان من تدعى مدام سيمون الخياطة تدير بيتها للدعارة السرية بين علية القوم ؟ ألم يسلم هذه الشكوى الى صلاح بك دون ان يثبتها فى الدفتر لتأخذ اجراءاتها ؟ وشكر له صلاح بك هذه العناية ، وحمل أنباء نشاطه لمدام سيمون ، وحالت المشاغل بين فؤاد وبين تلقيه الشكر من مدام سيمون ، وقرر فؤاد ان ليس أنسب من هذه الليلة من تقاضى حقوقه •

٤

استقبل فؤاد فى بيت مدام سيمون بالترحاب الذى هو أهل له بعد ان قدم الدليل على معاونته لاستمرار هذه المؤسسة على أداء عملها الاجتماعى فى الترفيه عن علية القوم رجالا ونساء • وأبى الحظ اللعين الا أن تكون سميرة هانم هى المستعدة ساعة وصوله لتعاطى الهوى• ولم يكن باستطاعة فؤاد أن يرفض رفقتها خاصة وقد اقبلت عليه كما لو كانا عاشقين متيمين منذ أجيال • ولم يفاجأ فؤاد هذه المرة بأسلوب سميرة هانم التى لم تقنع الا بعد ان أفرغ محتويات محفظة نقوده بين يديها متوسلا اليها أن تدع له بعض القروش وان تكتفى بالجنيه • وراحت سميرة هانم تتحدث عن قلبها الذى يجعلها تقبل منه هو دون الناس جميعا هذه المعاملة غير الكريمة والتى تجعلها تتصور فى نفسها أنها مومس مأجورة •

وتكررت سهرات فؤاد لبيت مدام سيمون وكان من الممكن أن يتحول بيتها الى موطنه المختار كما هو شأن صلاح بك ، وأن يظل حكرا على سميرة هانم رفيقته الجديدة ، لولا أنه مرض • وقد حدث أن أصيب

بهذا المرض من قبل عندما كان طالبا فى مدرسة البوليس ، ولكنه فى ذلك الوقت لم يحزن كما حزن فى هذه اللحظة فقد رأى فى اصابته ، مظهر التدهور الذى آل اليه ، بعد أن اصبح أحد حماة المأخور الذين يتناولون طعامهم وشرابهم فيه بالمجان ٠

ورقد فؤاد فى فراشه بعد أن شفى من مرضه وهو يجتر حسرته على أيامه مع أزهار وكيف كان عنوان الاستقامة فى عمله والنظافة فى ملبسه وتصرفاته كلها ٠ وكان يتشاغل بالمطالعة فى مجلة الصباح ، واذا به يقفز من الفراش فجأة فقد رأى صورة أزهار تملأ صفحة كاملة من صفحات المجلة ٠ وكادت الصورة تتمثل له فى هذه اللحظات بشرا سويا ، وتصور عينيها تعتبان عليه مافعله معها ٠ كانت الصورة تظهرها بملابس الرقص الخليعة التى تكشف عن بطنها وسرتها وفخذها الذى برز من خلال الثوب وقد مدت ساقها الجميلة وقدمها العارية الى الامام بينما ألقت بذراعيها الفاتنين فوق رأسها فازدادت بهذه الحركة طولا على طول ٠ وكانت الوقفة كلها وقفة دلال واغراء بدت له فى هذه اللحظة فاضحة فاحشة جعلت الدم يتصاعد الى رأسه ، وبادر لمطالعة ماكتب فوق الصورة وتحتها ٠ كانت الكلمات تشير الى أن أزهار نجمة الرقص الشرقى تواصل نجاحها الكبير بين رواد الفندق الكبير فى بورسعيد ، سواء من الأجانب الذين يعبرون القنال أو من المصريين الذين يكتظ بهم الكازينو كل ليلة ، والجميع يتحدثون عنها كخليفة لبديعة مصابنى ٠ وقد سأل مندوب الجريدة مدير فرقة بديعة لماذا لايلحقونها بالعمل فى الفرقة ، فأجابه بأنهم عرضوا عليها ذلك أكثر من مرة فاعتذرت مدعية أنها لاتحب العمل فى القاهرة ٠ ويتحدث الكثيرون أنه لابد ان يكون وراء رفض هذا العرض ، الذى تتمناه أى راقصة ، قصة غرام مع فارس أحلام فى بورسعيد ٠ وانفعل فؤاد انفعالا شديدا بعواطف متضاربة متلاطمة ، وراح يحدق فى صورة أزهار النابضة بالحياة والتى جعلت جسده يشتعل بالرغبة اشتعالا ، ثم لايلبث ان يستقر بصره على عبارة فارس الاحلام فى بورسعيد

فيمتلىء شعورا بالغيرة والكراهية · ومن جديد انفجر بركان غضبه عليها فهى ليست سوى افاقة مجرمة ، ألم تقل له أكثر من مرة أنها لن تسمح لانسان غيره ان يتصل بها ؟ فما هذا الفارس الذى يتحدثون عنه ، وأنه سر بقائها فى بورسعيد ؟ وقذف فؤاد بالمجـــلة بعيدا عن يده ، ونظر اليها فى نهاية الحجرة وصورة أزهار مقلوبة رأســا على عقب ، وكأن حركة قذف المجلة قد هدأت منه بعض الشىء وأعادته الى عقله ، فقد ارتفع من أعماقه صوت خافت راح يقول له :

ــ مالك أنت وأزهار وبأى حق تنقم عليها ان تفعل ماتشاء بنفسها فضلا عن ان تحاسبها ؟ ألم تطردها طرد الكلاب من بيتك ؟ ألم تتضرع اليك بأن تبقيها وان تسامحها ، فأبيت الا أن تمضى فى اذلالهـــا ؟ ما الذى كان يدفعها الى خيانتك بعد أن ضحت من أجلك بما ضحت ، ما كان أهون عليها فى أية لحظة ان تتركك وتعود الى فنها الذى يحقق لها الشهرة والمجد ، ولكنها آثرتك على ذلك كله فأبيت الا أن ترفض النعمة ، فما الذى تريده منها الآن ؟ ليس من حقك أن تفكر فيهـا · ليس من حقك ان تغار عليها · يجب ان تدعها وشأنها · ولكن هــذا الصوت لم يكن له من أثر فى نفس فؤاد الا أن يزيد تعلقه واشتغاله بحقيقة عواطفه نحو أزهار بعد أن ثبت له الآن انه يحبها من غير شك ولا يستطيع الحياة بدونها ·

واستعاد فؤاد المجلة وراح يتأمل من جديد فى الصورة ــ مرخيا لعواطفه وغريزته العنان ــ هذان الذراعان طالما التفتا حول عنقه ، هذا الصدر الناهد طالما حاول ان يذوب فوق صدره · وثار فؤاد ووصف نفسه بالجنون اذ يتخلى عن هذا الكنز من المتعة والحنان والحب الذى كان مبذولا له وطوع بنانه ·

وتضاعف احساس فؤاد بمرارة الواقع الذى يعيش فيـــه وهو مريض مكتئب النفس ولم يستطع أن ينفس عما يحس به من ضـــيق هذه المرة الا بأن يهوى على صورة أزهار لثما وتقبيلا · وراح يهتف بها هذا الهتاف الذى ظل كامنا يتردد فى حنايا نفسه مذ طردها وهو يكابر ويقاوم نفسه لكى لايعترف به :

ـ أزهار ، أزهار ، عودى الى أننى أحبك ، أن حياتى قد تحولت الى شقاء من بعدك . وتذكر فؤاد أنها قالت له وهو يطردها ، انه اذا فكر فى دعوتها لتعيش معه فلا يجب ان يتردد لأنها ستكون رهن مشيئته . ولم يكد الامل يومض فى نفسه ، حتى أسرع هو نفسه لاطفاء ضوئه ، فقد قالت أزهار هذا القول وهى تتردى فى مهاوى اليأس ، اما الآن وقد أصبحت المجلات تنشر صورها ، ومئات المعجبين يحيطون بها كل ليلة على ماتقول المجلة ، فلا يمكن الا ان تكون قد نسيته ، ومن الأكرم له أن يكف عن التفكير فيها وان يطوى صفحتها الى الابد . وعاد صوتها يلح عليه : اذا فكرت يوما فى دعوتى اليك فلا تتردد فسوف البى نداءك .

وقرر فؤاد أن يكتب اليها فلا ضرر من التجربة ، بل على العكس قد تفيده فى اثبات كذبها وزيف ادعاءاتها . وأسرع على الفور فاحضر (بلوكنوت) ثم راح يكتب وهو جالس على السرير : «عزيزتى أزهار»، ولم تعجبه كلمة عزيزتى فنزع الورقة ثم استهل القول بكلمة «حبيبتى ونور عينى أزهار » ورضى عن نفسه لتسجيل هذه العبارة ، فما دام قد قرر ان يصالحها ، فيجب ان ينسيها جفاءه السابق ، وأن يحرك عواطفها . ومضى فى خطابه كاتبا « لست أعرف من أين أبدأ الحديث معك ، هل أبثك أشواقى ولواعج فؤادى ، أم أبدأ بالاعتذار عما وقع منى ؟ ام اسألك عن احوالك التى لا أشك انها أصبحت على خير مايرام والمجلات تنشر صورك وتتحدث عن استمتاعك بالحياة مع فارس الاحلام اياه ... » وتوقفت يد فؤاد عن الكتابة عندما وصل الى هذا الحد ، وسأل نفسه ، أمن الصواب ان يثير فى هذه اللحظة الحديث عن فارس الاحلام ؟ ومزق الخطاب ، وشرع فى كتابة نص جديد . « حبيبتى ونور عينى أزهار » وتوقف من جديد عن الكتابة وقد بدأ الشك يساوره فى صواب هذا الذى يفعل ، انه لايعرف حقيقة عواطف أزهار بالنسبة له فى هذه اللحظة ، فهل يجوز له أن يحدثها وأن يسجل فى كتاب حبه لها ؟ انه لن يتزوجها ولو انطبقت السماء على

الارض ، فما كان له أن يربط مصيره بمصير بغى سابقة ، فلماذا يكتب لأزهار خطابات قد تتخذ سلاحا ضده فى يوم من الأيام · لا أنه لن يكتب ، ومادام الأمر لايعدو ان يكون مجرد تجربة وامتحان لعواطفها، فليكن الاجراء فى هذه الحدود ، واستقر رأيه على ان يبعث اليهـــا ببرقية ، موجزة لاتحوى سوى عبارة واحدة قصيرة ، « احضرى حالا »

٥

كان كابريه فندق البيت الحديد فى بورسعيد قد أوشك على تمام سهرته المعتادة فى نصف الليل ، عندما جاءت التعليمـــات بوجوب الاستعداد لجولة جديدة تبدأ فى الواحدة صباحا لاستقبال الســياح الذين سيهبطون الى المدينة من السفينة الضـــخمة فيكتوريا التى وصلت الى بورسعيد فى طريقها الى سيدنى باستراليا وكان يتعـين عليها ان تنتظر طلوع النهار ، قبل أن تشرع شركة القنال فى تمكينها من عبور القنال · واستيقظت مدينة بورسعيد عن بكرة أبيها كما هى عادتها ، وتحول ليلها الى نهار وفتحت جميع المتاجر أبوابها وراحت نواقيس عربات الحنطور تجلجل ، وأصوات حوافر الجياد تتصاعد فى ايقاعها الرتيب الموسيقى وهى تقرع الارض الصلدة ، رائحة غادية بين الميناء وفنادق المدينة ومتاجرها ، حاملة السياح الفرحين بهـــذه الفرصة التى أنزلتهم الى الارض لينعموا بمباهجها التى لاتتاح لهم فى سفينة حتى ولو كانت عروس البحار ·

ولم تكن هناك أى صعوبة فى اعادة مشاهد المتنوعات فى كازينو البيت الحديد ، باستثناء رقصة أزهار التى لم يكن مضمونا فى كل الاحوال اعادتها ، فقد كان ذلك يتوقف فى الدرجـــة الاولى على حالة مزاجها وهل هو رائق ، أم ان عفريتها ـ كما يقول المسيو رينيه مدير الكابريه ـ حاضر ؟ وكان هذا المزاج المتقلب هو الذى يحول فى نظر المسيو رينيه ، بين أزهار وبين أن تكون احدى ملكات الرقص الشرقى، ان لم تكن ملكته الوحيدة بغير منازع · كانت أزهار اذا رقصت بمزاج،

أسكرت عقول رواد الكابريه من الاجانب والمصريـــين ، وحملتهم على الشرب والانفاق الكثير توددا لها ورغبة فى الحصول على حظوتهـــا ورضائها • وكانت أزهار تشجع هذا التودد والتقرب لها وتستثيره وخاصة فى نفوس السياح العابرين للقناة ، فقد كانت آمنة مطمئنـة أن الامر معهم لن يتجاوز هذه المداعبات العلنيـــة التى كانت أزهار تتقنها وتبرع فيها ، لأنهم كانوا يعودون بعد المشهد فورا الى سفينتهم، التى لن تلبث ان تبعدهم عن مصر الى حيث لايعودون ثانية • وتبدع أزهار فى رقصها وعبثها ودلعها حتى لتحول رواد الكابريه جميعـــا الى شعلة من الهوس والجنون • فى هذه اللحظات كان المسيو رينيه نفسه ، يكاد يجن من فرط افتتانه بأزهار وينسى أنه مدير الكابريه ، ويتمنى لو استطاع ان ينتزعها من بين احضان الجمهور لكى يهرب بها الى حجرته الخاصة ، ويطفىء نيران رغبته المشتعلة الى هذه السمراء اللولبية ، التى تكاد تفقده رشده • ولكن مسيو رينيه لم يستطع أن يشبع رغبته من أزهار لافى هذه الساعات التى تتجلى فيها كشيطان من الفتنة ، ولا فى ساعات نحسها عندما تتحـول الى مخلوق آخر ، فتستولى عليها الكآبة وتصبح متبلدة ، تخاطب فلا ترد على مخاطبها ، تلمس باليد فلاتكاد تحس • فى أمثال هـــذه النوبات التى كانت تعتريها من حين لآخر ، كانت أزهار تمتنع عن الرقص ، ولايفلح فى حملها على الرقص أى وعيد أو ترغيب • وكان مسيو رينيه يعزو هذه الحالة الى مايقول به خدم الكابريه من ان عليها (عفريت) • ولقـــد فكر مسيو رينيه أن يتخلص منها أكثر من مرة عندما تعتريها هـــذه الحالات ، ولكنه لايكاد يهم بانفاذ عزمه حتى يزول العفريت فجأة كما جاء فجأة ، وترقص أزهار فى الليلة التالية وتبدع وتخلب الالباب ، بحيث ينسى قراره فى وجوب طردها • وعلى هذه الوتيرة سارت الامور مع أزهار منذ التحقت بالعمل فى الكابريه ، حتى أصبح هذا الشذوذ مألوفا ، ورضى مسيو رينيه بناء على طلب الجماهير بأزهار على عيبها • واشتهرت فى الكابريه بأنها أزهار أم عفريت ، وأصبح من المألوف ان

تسمع الساقى يخاطب زميلا له قائلا : العفريت حاضر اليوم أو غير حاضر ؟ ويرد عليه زميله ، بواقع الحال ، ويعرف كل من يستمع الى هذا الحديث انه دائر حول أزهار ٠

دار ذلك كله فى رأس المسيو رينيه ، وهو فى طريقه نحو غرفة أزهار ليعلم اذا كان العفريت حاضرا أم غير حاضر ، بالنسبة للحفلة التى ستبدأ ٠ والفى مسيو رينيه باب حجرة أزهار مفتوحا على خلاف العادة ، فاستعاذ بالله من هذه الطلائع التى لاتبشر بالخير ، ولم يكد يلقى بنظره داخل الحجرة ، حتى وجد أزهار مرتدية ملابس الخروج ، وتجمع ملابسها فى سرعة ولهفة وتدس بها فى حقيبة مفتوحة امامها٠ واصفر وجه المسيو رينيه لهذه المفاجأة وهتف بأزهار فى فزع :

ــ ماذا تفعلين ؟ ولم تكد أزهار تراه حتى وثبت اليه وتعلقت بعنقه وهى تصيح فى فرح جنونى :

ــ مسيو رينيه ياحبيبى ، ياحبيبى يامسيو رينيه ، وراحت تمطره بوابل من القبلات فى جبهته وخده وفمه ، وكل مكان من وجهه ٠ وذهل الرجل لهذه المفاجأة اللذيذة غير المتوقعة ، وتمنى ان يكون عفريتها قد اهتدى وحملها على أن تلبى دعوته للحب أخيرا ٠ على ان حيرته ودهشته لم تطولا كثيرا فقد بادرت أزهار عقب هذه العاصفةالاولى من القبلات بقولها :

ــ أنا مسافرة يامسيو رينيه ، أنا مسافرة ٠

ودارت رأس الرجل المسكين تحت وطأة هذه المفاجآت وصرخ فى وجهها مستنكرا :

ــ مسافرة ؟

ــ اجل مسافرة ياحبيبى يامسيو رينيه ، يامعبودى يامسيو رينيه، خذ اقرأ هذه البرقية ، ومدت يدها الى المسيو رينيه ببرقية فؤادناسية من فرط فرحها ، انه لايقرأ العربية ٠ وسألها فى جفاف وشدة عما فى البرقية ، ولم تلق أزهار بالها للكيفية التى خاطبها بها فقد كانت فى دنيا ثانية ، وتلت عليه ماجاء فى البرقية من دعوة فؤاد لها للعودة الى

مصر حالا • ونظر اليها مسيو رينيه شذرا وهو يكاد يسحقها بنظراته وقال :

ــ ومن يكون سى فؤاد هذا ؟ ونظرت اليه أزهار فى عتاب وقالت له :

ــ كيف تسألنى عن فؤاد ولطالما حدثتك عنه ، فؤاد عبد السميع، الملازم ثان فؤاد عبد السميع ، أليست لك عينان ؟ الا ترى هــــذه الصورة على مائدة زينتى دائما ؟

وانفجرت مراجل غضب مسيو رينيه ، وصاح فيها بلكنته الاجنبية ولكن بكلام عربى جعل أزهار لأول مرة تحملق اليه فى دهشة وغرابة:

ــ اسمعى يا امرأة ، نحن هنا لسنا خدامين لأبيك ، أو عيالا تلعبين معهم فى الحارة ، انت هنا فى مكان عمل ، وانت مرتبطة بعقد يلزمك بالعمل ، ولن أسمح لك ان تتخلى عن العمل بهذه البساطة • وشخط فيهــا مسيو رينيه داعيا اياها أن تسرع بلبس ملابس الرقص وان تستعد لأداء نمرتها • ولكنه لم يكد يتم كلامه حتى كانت الدهشة قد زالت عن أزهار ووقفت فى وجهه متحدية اياه ، وكأنها نمرة هائجــة وصرخت فى وجهه :

ــ ما هــــذا التخريف الذى تنطق به ؟ أقول لك خطيبى فؤاد عبد السميع يدعونى الى جواره ثم تحدثنى عن الشغل والعقد والزبائن؟ اصح لنفسك ياحضرة المدير ، لقد تعاقدت معــكم لمجرد ان خطيبى غضب على وابعدنى من جواره ، أما الآن وهو يطلب منى أن أعود اليه، فلا توجد قوة فى الدنيا تستطيع ان تحول بينى وبين الذهاب اليــه وحالا • وازداد هياج المسيو رينيه وقال لها :

ــ العقد هو العقد، وأنا متمسك به وانت تعرفين ان رجال البوليس هنا جميعا اصدقائى ، سأمنعك من السفر ، ساحبسك اذا لزم الأمر ، الدنيا ليست فوضى ، يجب ان تزاولى عملك حتى نجــد بديلة لك • ووضعت أزهار يدها فى وسطها وقالت :

ــ أجاد أنت فيما تقول يامسيو رينيه من أننى يجب أن أنفــذ

العقد ؟ وجحظت عيناها فى تحد حتى أصبح شكلها كريهـــا ، ثم قالت : وهو كذلك ، لاتلومن الا نفسك ، لن اسافر ، سأبقى وسأنفذ لك العقد ٠ وأسرعت تخلع معطفها فى عصبية ، بينما أفاق مســيو رينيه تحت وطأة منظرها ورنة صوتها ، وراح يذكر عشرات الحوادث المؤسفة ، والازمات التى سببتها له عندما حاول فى بادىء الأمر أن يكرهها على الرقص ٠ وأسقط فى يده وأدرك انه خاسر القضـــية لامحالة ، وان عواقب هذا الاستسلام الظاهرى من ناحية أزهار ستكون وخيمة ٠ ان قيمة أزهار لاتتجلى كراقصـــة مبدعة الا عندما ترقص بمزاجها ، أما اذا رقصت بغير مزاج فان ضررها يصبح أشد من نفعها للمحل ٠ وتنهد مسيو رينيه وقال لها : معك حق لقـــد غلبتنى على أمرى انك لاتساوى مليما واحداً اذا لم ترقصى بمزاجك ٠ وران الصمت عليهما ولم يلبث ان سألها ، عما تقصده فى هذه الساعة من جمـــع حوائجها ، فأجابته انها تتجهز للسفر فورا ، فهز المسيو رينيه كتفيه فى يأس وقال لها : وهل يوجد انسان واحد عاقل فى بورســـعيد يتصور انه بالامكان السفر الى القاهرة بعد منتصف الليل ؟ وصدمت أزهار بهذه الفكرة التى لم تكن تتوقعها ، فكرة تعذر السفر فى هــذه اللحظة وسألته وقد اعترتها خيبة أمل شديدة :

ـ الا توجد قطارات تسافر الى القاهرة الآن أو سيارات ؟

وصاح مسيو رينيه فى وجهها : سيارات ، بعد منتصف الليل ونحن لانجد سيارات تذهب اليها بالنهار الا بمشـــقة شديدة ؟ ٠ واسقط فى يد أزهار وقد استحضرت هذه الحقيقة التى أنســـاها الفرح اياها ، وهى تعذر السفر من بورسعيد ليلا ٠ وبدأ مسيو رينيه يحس نحوها بشفقة وهو يرى مدى التعاسة التى ارتسمت على وجهها ، وقد كان لها عليه فى نهاية الأمر تأثير خاص ، فقد كان يكبر فيها هذا الوفاء لهذا الذى تسميه لأول مرة خطيبها ، وقد كان يدرك أكثر من أى انسان آخر كيف فشلت كل المحاولات لشراء حبها الجســدى ، واقترب منها وراح يربت على كتفيها ويقول :

ـ كونى عاقلة يا أزهار وتصرفى تصرف العقلاء ، ان القطار لايقوم من بورسعيد الى القاهرة الا فى الساعة السادسة صباحا فيوصلك الى القاهرة بعد أربع ساعات ، وسيكون فى استطاعتك أن تبرقى لهذا الذى حلا لك ان تسميه الآن خطيبك لكى ينتظرك على المحطة ، وأنا متأكد انه ليس خطيبك بل رفيقك ، ولن يرضى أن يتزوجك والا لكان تزوجك منذ أمد بعيد •

ووجدت أزهار نفسها مرغمة على مواجهة بعض الحقائق ، ما الذى كانت ستفعله بالفعل لو انها سافرت الآن الى القاهرة ؟ الى أين كانت ستروح ، وأين كانت ستلقى فؤاد ، انه لايمكن ان يكون فى البيت الذى طردها منه فمعرفتها بطباعه تؤكد لها انه لابد قد انتقل الى بيت جديد لاتعرف عنوانه ، ومن الحماقة ان تزعج امها واختها فى هــذه الساعة المبكرة من الصباح لتقول لهم انها جاءت لتتركهم من جـديد لفؤاد • وسرت فى جسدها رعدة اشمئزازا مما كانت ستقدم عليه بغير تدبير أو تفكير ، اتكون مجنونة كما يصفها دائما المسيو رينيه ؟ انها يجب ان تنتظر للصباح حتى لو كانت هناك قطارات توصلهــا الى القاهرة فى الحال ، فانها يجب أن تبرق لفؤاد ان ينتظرها على المحطة ليقودها الى بيته الجديد • ونظرت الى مسيو رينيه فى اعتذار وقالت له انه محق فى وجوب انتظارها حتى الصباح ، فالصباح رباح كمـا يقولون والنهار له عينان ، وشكت له من انها منفعلة جدا لاتعرف كيف تقضى هذا الوقت الذى لابد من انقضائه قبل طلوع النهار • وانتهز المسيو رينيه هذه الفرصة ليقتنص منها ماعجز حتى الآن عن اقتناصه ، فقال لها :

ـ المسألة بسيطة جدا ، تعال نصعد الى حجرتى ونجعلها حفــلة وداع حتى الصباح فنشرب ونسكر ، وتمنحينى هــدية الوداع ، فلا أظن القسوة تبلغ بك ان تتركينى دون ان تودعينى وداعا أذكره لك على مدى السنين • وضحكت أزهار ضحكتها الخليعة الرنانة التى أصبحت علما عليها وقالت له :

ـ آه منك يانمس ، أتتصور أن أفرط في جسدي الآن بعـــد ان رضي عني في الوقت الذي حافظت له عليه وأنا يائسة من حبه ؟ ان هذا لايكون أبدا ، دعني اذهب اليه يامسيو رينيه برأس مرتفعـــة • وهز مسيو رينيه رأسه اسفا وحسرة عليها وقال لها :

ـ والله انك لمجنونة اذ تضيعين فنك وجمالك وشبابك مع هــذا الانسان الذي لا اشك لحظة في انه لايستحقك ، وسوف يطردك كما طردك أول مرة ، وعندها لن تجدي المسيو رينيه مستعدا لقبولك من جديد ، انه حرام عليك يا أزهار ان تدفني فنك وان تقبري مواهبك من أجل انسان واحد مهما كان هذا الانسان رفيقك أو خطيبك أو حتى زوجك • انك يجب ان تكوني لفنك ولجميع عشاق هذا الفن • اسمعي نصيحتي يا أزهار واعقلي وارجعي عن غيك • واسرعت أزهار تقول له:

ـ اسكت ، اسكت يامسيو رينيه انك لاتعلم أي جحيم تعيش فيه المرأة عندما لاتكون ملكا كما تقول لرجل واحد ، وتكون ملكا مشاعا للجميع • انني لم احس بنفسي حرة في يوم من الايام الا عندما اكون بين احضانه هو ، ولايمكنك ان تتصور الاحساس بالذل والقهر الذي كنت اتجرعه في أعماق نفسي وانا اتنقل بين احضـــان الرجال ، بين احضان كل من يدفع الثمن ولو كانت نفسي تعـــافه ، حتى ولو كان حيوانا أو خنزيرا ، حتى لو كان مجرما قاتلا تقطر يداه دما والنقــود التي يعطيني اياها مسروقة من هنا أو هناك • وغطت أزهار وجههـــا في ألم ولم تلبث ان همت واقفة وقالت : ذاك ماضي قد مات وانقضى، وأنا الآن سعيدة ، سعيدة كما لم أكن كذلك في أي يوم من الأيام ، ولست أعرف كيف أعبر عن هذه السعادة • ولم تلبث عينـــاها ان برقت وقد تذكرت شيئا ، فالتفتت الى مسيو رينيه وقالت له : أكنت تقول ان هناك سفينة دخلت الميناء وستقام حفلة عندنا ؟ فقال لهـــا المسيو رينيه : لقد بدأت الحفلة بالفعل ألست تسمعين هذه الموسيقى الراقصة التي تسبق بدء عرض النمر ؟

ووثبت أزهار عن الارض في فرح وقالت : اذن سأرقص الليلة

كما لم أرقص فى أى يوم من أيام حياتى الماضية ، اذهب يامسيو رينيه الى الصالة وترقب موعد رقصى ، ففى نفسى من السعادة مايكفى لاسعاد الألوف ، وليس سوى الرقص ماسوف أعبر به عن سعادتى ، سأرقص شكرا لله الذى كرمنى وردنى من جديد الى رجلى ٠

وانطلق مسيو رينيه وهو يهز كتفيه أسى وحسرة على هذه المجنونة ٠

٦

لم يكد فؤاد يتسلم برقية أزهار حتى كان ينطلق الى المحطة مستقلا احدى سيارات الاجرة وطالبا من سائقها ان ينتظره على باب المحطة فقد كان موعد القطار قد اقترب جدا ٠ ولم يفكر فؤاد لحظة واحدة مذ جاءه التلغراف ماهى خطواته المقبلة ، لقد أصبح كل همه أن يجىء بأزهار أولا وقبل كل شىء ، أزهار التى قدمت الدليل الذى لايجحد على انها تحبه فى اخلاص وعنف ، فها هى ذى تترك فنها وشهرتها ومورد رزقها ورزق اسرتها من اجله هو ، هو من دون الناس أجمعين ، وراح فؤاد يغمغم بينه وبين نفسه انه يحب أزهار جدا ، انه يعبدها عبادة ، ولو طلبت منه اليوم ان يتزوجها لتزوجها على الفور وليكن ما يكون ٠ لقد كان مهتاج العاطفة لايكاد يصدق نفسه ، وان أزهار ستكون له بعد قليل ٠ وعندما دخل الى المحطة كان القطار قد شرع يدخل اليها ، وازدحم الرصيف بالحمالين والمستقبلين ، وساد الهرج والمرج ، وارتفعت الصيحات المعتادة وجلجلت الزغاريد فى ناحية ، بينما ارتفع النواح من بعض الجوانب فقد كان القطار يحمل فى عربة خاصة جثة احد الموتى ، وتلاطمت الاجساد وارتطم الناس ببعضهم ابان الزحام دون ان يعنى أحدهم بالاعتذار أو قبول الاعتذار فالكل مندفع الى هدفه ٠ ولعل فؤاد كان اكثر الجميع انعزالا عن كل شىء يجرى حوله الا ان يراها ، فلم يحس بالهول الذى كان يحيط به وتحول الى عينين متطلعتين الى نوافذ القطار بحثا وراء عينى

أزهار النجلاوين • ولقد رآهما على الفور بمجرد أن هدأت حركة القطار ، رأى أزهار بعينيها وابتسامتها الحلوة تبدد ظلام حياته من احد نوافذ القطار ، فاسرع يعدو كالمجنون نحو النافذة التى كانت تطل منها ، وهتفت أزهار فى حنان باسمه ، وهتف فى نشوة باسمها وأمسك بيدها التى مدتها اليه من النافذة فانهال عليها تقبيلا غير متأثم او متحرج من أن يراه أحد ، وأوشك أن يخرجها من نافذة القطار فى حركة جنونية كما لو كان يريد ان يقتلعها اقتلاعا ، على أن بعض الانظار لم تلبث ان سلطت عليه ، بعد أن أدرك القريبون منه انهم يشهدون شيئا غير عادى ، وهنا فقط بدأت عواطفه تهدأ بعض الشيء ويثوب اليه رشده ، وساعدته أزهار فى السيطرة على نفسه بأن شرعت تناوله حقائبها الكثيرة الفاخرة • وخف أحد الحمالين لاستلام العفش ، بينما أسرع فؤاد من جديد ليستقبلها على باب عربة القطار ، وراح يزاحم الجماهير المحتشدة أمام الباب فى انتظار النازلين من أحبابهم ، وهبطت أزهار فى نهاية الأمر من القطار الى الرصيف ، ولولا ان فؤاد كان قد استفاق بعض الشيء لنفسه ، لحملها بين ذراعيه وراح يروى ظمأه لتقبيلها وعناقها •

ولقد أروى فؤاد هذا الظمأ بمجرد عودته الى البيت فى صحبة أزهار ، ولم يفق لنفسه ويعود لآدميته الا بعد ان وجد نفسه يتقلب فى نهاية الأمر على فراشه ، وأزهار التى أرضته واسعدته الى جواره• وبدءا يتعاتبان ويتشاكيان ويتباكيان ، وعرف فؤاد أن فارس الاحلام التى أشارت له الصحيفة لم يكن الا اياه هو ، وأن صورته لم تكن تفارق مائدة زينتها • ولم يكن فؤاد فى هذه اللحظة فى حاجة الى دليل ، فقد كان مجرد وجودها الآن الى جانبه يغنى عن كل دليل • وقالت أزهار وقد بدأت حقائق الحياة تواجههما :

ــ لابد لى من الذهاب الآن الى أمى واخوتى فأنا شديدة الشوق اليهم ، ويجب ان ان تسمح لى بالمبيت عندهم الليلة لكى أنظم شئونهم، ولقد استطعت هذه المرة أن أوفر فوق ماكنت أرسله لهم مائة جنيه ،

سأودع ثمانين منها باسم اختى فاطمة ، أما العشرون فسأحتفظ بها لأنى أريد أن نشترى لبيتنا الجديد بعض الامتعة والأثاث • وقال فؤاد وقد اطرق برأسه :

– انني شديد الخجل من اسرتك ، ولولا ذلك لذهبت معك اليهم، فأنا دائما أحرمهم من مصدر رزقهم • فقالت له أزهار :

– انك لاتعرف أمي انها بهذه الجنيهات التى سأعطيها لهم قادرة على ان تعيش بها عامين بغير مورد آخر ، واذا كانت آمالى فى الحياة تتلخص فى ان أرى فاطمة وحسن فى أرقى المناصب فان أملها هى الوحيد ان تطمئن الى سعادتى أنا •

– ان فاطمة تكرهنى جدا ، وسوف تزداد كراهية لى •

– لاتشغل نفسك بشىء من ذلك ، سوف تحبك فاطمة عندما تعرفك كما اعرفك ، عندما تعرف طيبة قلبك وتقتنع بحبك لى • وعلى كل حال فسوف تحصل على البكالوريا ان شاء الله هذا العام وتحقق أمنيتها الكبرى فى دخول كلية الطب • وأمسك فؤاد بيد أزهار، وقال لها :

– أزهار أنا على استعداد أن اجعلك زوجتى ، الآن اذا شئت •

فأسرعت أزهار تعانقه فى حنان وقالت له :

– انك تعرف اننى أخذت على نفسى عهدا ان لا احدثك فى هذا الموضوع ، ومع ذلك اكون كاذبة اذا لم اقل لك ان هذا هو منتهى أملى فى الدنيا وذروة سعادتى ، ولكنى ماكنت لأتزوجك هكذا خطفا وانت فى لحظة رضا على وانفعال ، أننى أخشى ان تكرهنى ان أنا فعلت ذلك ، ان الوقت امامنا لايزال طويلا للتفكير فى الزواج •

٧

أمضى فوزى مع بقية اصحابه موسما دراسيا حافلا بالنشاط الأدبى والاجتماعى ، فمن محاضرة القاها عن رحلته فى باريس فى الجمعية الجغرافية ، الى مناظرة مدوية جديدة حمل فيها على خلاف

ما كان يتوقعه كل انسان ، لواء الدعوة الى العروبة فى مواجهة الدعوة الى الفرعونية التى كان من غلاة المتحمسين لها ، حتى لقــــد اطلق على نفسه يوما اسما فرعونيا ودعا المصريين الى التســـــمى بالاســـماء الفرعونية • وكان الانتصار الى الأخذ بالحضارة العربية كاســـحا ، باعتبارها الأساس الذى تبنى عليه الوحدة العربية ، التى أثبت فوزى أنها أصبحت ضرورة ملحة لاتستطيع مصر الحياة بدونها •

واشترك محيى فى مناظرة دافع فيها عن حق المرأة فى المساواة المطلقة ، مناصرا بذلك زميلتهم فى الكلية مشـــــيرة التى حملت لواء الدعوة •

وهكذا مضت أيامهم وهم غارقون فى كل شيء ، الا موضـــوع دراستهم القانونية • ودهمهم قرب الامتحان ، واكتشف فوزى وليس بينه وبين الامتحان سوى شهرين ، أن كراريسه الجامعية بيضاء من غير سوء ، أو بالاحرى بيضاء بكل سوء فقد كان هذا البياض لايعنى سوى شيء واحد وهو الرسوب آخر العام • حقا كان باستطاعته ان يذاكر من الكتب المطولة ، ولقد كانت هذه هى فكرته عندما امتنع عن تسجيل حرف واحد مما يقال فى المحاضرات ، ولكنه وقد بدأ يهتم بالدراسة اكتشف،هو واخوانه، أن للاساتذة بدون استثناء آراء خاصة أثبتوها فى المذكرات التى كانوا يلقنونها للطلبة • وكان فـكرى هو الوحيد من بينهم الذى أثبت مذكرات كاملة بقدر الامكان ، ولم يكن باستطاعة الثلاثة أن يذاكروا من مذكرة واحدة ، ولذلك فقـــد فكر فوزى ان لامناص له من محاولة نسخ المذكرات كلها بالكامل ، وقـــد كان هذا يبدو عملا شاقا ومتعذرا فى هذه الفترة القصـــيرة ، ولكن آمال لم تكد تسمع بالفكرة حتى تحمست لها أشد التحمس ، ففوزى يجب أن يعمل المستحيل لكى ينجح ، فلم يعد باستطاعتهم ان يضيعوا سنة من حياتهم • وأخذت على عاتقها أن تنقل له كل الدروس الماضية، وما عليه الا أن يحضر لها مذكرات فكرى لكى تنسخها له كامـــــلة واقبلت آمال على العملية فى حماسة وجلد لم يكن فوزى يتصور امكان

توافرهما فيها • وبدأ فوزى يرى فى مساهمتهـــا أول ثمار حبهمـا وتعاونهما على بناء مستقبلهما معا • وكان فوزى يساهم بنصيب فى عملية النسخ ، ولكن شتان مابين الجزء الذى تولته آمال وهذا الجزء الذى تولاه هو ، لقد كان الفرق يشبه هذا الذى يقوم بين الســموات والارض هذه بصفائها وتلك بترابيتها ، أو كالفارق بصفة عامة بين القبح والجمال • كان القسم الذى ينقله فوزى مشوشا مضـــطربا وبخط لايكاد يقوى على قراءته الاه ، بينما كانت آمال تنسخ القسم الذى وقع من نصيبها ، وهو القسم الأكبر ، بطريقة مثالية رائعة • بدأت بأن اشترت كراسات جامعية فاخرة تباع فى المكتبات الافرنجية وما كان فوزى أو أى طالب جامعى آخر يحلم فى كتابة المذكرات على مثلها • ثم راحت تكتب بخط بديع متناسق ، كاتبة العناوين بالخط الأحمر ، وواضعة خطوطا مزدوجة تحت رؤوس الموضوعات ، وبذلك أصبحت مذكرات فوزى تحفة ومتعة للعين ، قبل ان تكون ســلاحا ناجعا للمذاكرة •

وشعر فوزى بعرفان الجميل والتقدير العميق لما بذلته آمال من جهد لتعوض عليه مافاته طوال العام •

كانت آمال تقضى الساعات الطوال فى قسمها الداخلى بالمدرسة وهى تقوم بعملية النسخ ، بحيث تنام باقى زميلاتها وتظل ســاهرة، عاكفة على اتمام المهمة التى اخذت على عاتقها ان تتمها • ولفت هــذا التصرف من جانبها أنظار الجميع ولم يكن بوسعهـــا ان تخفى عنهن حقيقة ماتفعل • وبدأت النكات والدعابات تنهـــال من كل جانب على هذا الحبيب الخائب الذى يترك حبيبته تكتب له دروسه • واقترح عليها البعض ان ترتدى بدلة وتتوجه يوم الامتحان لتمتحن بدلا عنه ، وألح الجميع على ضرورة رؤية صورة (ننوس عينـــه) الذى أدخل آمال كلية الحقوق على غير ميعاد • وكانت آمال تســتعذب هــذه المداعبات ، فقد كان يسرها ان يكتشف الناس أنهـــا تحب ، وكانت تنقل انباء هذه المداعبات لفوزى وهى سعيدة راضية ، ولم يكن فوزى

يقل سعادة عنها فقد كان بوده أن تعرف الدنيا كلها علاقته بآمال ، فهى فى نظره العلاقة الشريفة التى ستنتهى حتما بالزواج • وقد كانت العلاقة بينهما فاضتوشاعت بين كل من يعرفهما باعتبارهما خطيبين، ومع ذلك فلم تكن خطوبتهما قد أعلنت رسميا ، ولم تلبس الدبــلة أو يلبسها هو • كان لايزال باقيا أمامه بفرض نجـــاحه فى امتحان آخر العام ، عامان آخران يقضيهما فى كلية الحقوق فيما لو ســارت الأمور رخاء ، ولما كانا لن يتزوجها قبل التخرج بأى حال من الاحوال، فقد كان لايزال الوقت امامهما متسعا لاعلان الخطوبة •

ثم وقع حادث جعل فوزى يصر على وجوب جعل خطوبتهما رسمية على الأقل بين أفراد العائلتين • كان فوزى قد قدم آمال لدرية هانم زوجة أبيه ، كما قدمها لوالده باعتبارها شقيقة صاحبه رياض الذى كانا يعرفانه جيدا ويعرفان الصلة القوية التى تربط بينه وبين فوزى• وقد رحب بها الاثنان ترحيبا مشوبا بالتحفظ ، فقــد كانت الحرية التى تتصرف بها آمال شيئا جديدا فى محيط أسرة فوزى المحافظة ، ولم يشفع كثيرا لتردد آمال على فوزى تلميحه بأن آمال هى خطيبته التى سيعلن خطبتها فى الوقت المناســـب • على أنه لا والد فوزى أو زوجته ، فكرا فى الاعتراض على مايفعله فوزى فقد كان قد استطاع نهائيا ان يكسب لنفسه الحرية المطلقة فى تصرفاته • فلمـــا بدأت ما أسماها فوزى معركة نسخ المذكرات ، كان لامناص من التقاء آمال بفوزى بصورة منتظمة لتسلمه مانسخته ولتأخذ منه مايجب نسخه ، وتراجع معه بعض ما أغلق عليها نقله • وسارت هـــذه العملية فى بادىء الأمر سيرا عاديا ، فـلم تكن آمال تمكث مع فوزى الا وقتـــا قصيرا ، وكان ذلك كله يتم فى وقت مناسب وحيث لايكون والده فى البيت • وذات ليلة ولم يكن باقيا على اتمام نسخ المذكرات كلهـــا الا بضـــع ساعات ، تملكت آمال الحماســـة وقررت ان تبقى مع فوزى فى حجرته حتى تفرغ نهائيا من كتابة آخر سطر من المذكرات• وراح فوزى يملى عليها وهى تكتب ونسيا نفسيهما تمـــاما ، بحيث

سرقهما الوقت فلم يتنبها الا وقد عاد والده بعد انتهاء سـهرته فى المقهى ، وكان قد اضطر للعودة المبكرة بعض الشيء لعارض اصابه ٠ وعلم والده بمجرد دخوله البيت ومقابلة زوجته له ان آمال موجودة مع فوزى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل يكتبـان فى المذكرات ، أو هكذا يقولان ٠ ولم يقل والد فوزى شيئا أو يعلق بشىء وأغلق على نفسه باب حجرته بعد ان فرغ من تناول عشـائه ٠ وتنفس فوزى الصعداء فقد ظل خلال الفترة التى أعقبت مجىء والده فى قلق شديد لما يمكن ان يحدث ، وأدرك الحرج الذى يسببه لوالده الرجل المحافظ الوقور عندما يسمع بوجود فتاة فى حجرة ابنه قبيل منتصف الليل٠ وكان أخشى مايخشاه أن يقول والده شيئا ، أو يتصرف تصرفا يمس احساس آمال أو مشاعرها ، وعندها لم يكن يعلم سوى الله ماذا كان يمكن ان يقع من خلاف عنيف بين الابن وأبيه ٠ ولكن الله سلم وتصرف السيد افندى على فى حكمة ورزانة فلم يقل شيئا مخليـا بين فوزى وبين ضميره ٠ ولم يستطع فوزى أن ينام هذه الليلة بعد أن انصرفت آمال وصاحبها حتى استقلت سـيارة اخذتها الى بيتهـا فلم يكن باستطاعتها ان تعود الى المدرسة فى هذه الساعة المتأخرة ٠

واستقر قراره على وجوب تفادى وقوع مثل هذا الموقف الحرج فى المستقبل ، وذلك لايكون الا باعلان خطوبتهما رسـميا لعائلته وعائلتها٠فكتب لها خطابا قال لها فيه «ليس يكفى ان نكون فضلاء ،بل يجب أن نتصرف تصرف الفضلاء ، ولاينبغى ان نلوم والدى أو زوجته اذا ظنا بنا كل سوء ، وما كنت أعرضك للتقولات أو المساس بسمعتك عن قرب أو بعد ، ولذلك فلم يعد أمامنا مناص من اعلان خطبتنا » ٠

وعرفت آمال خط فوزى على الفور بمجرد استلامها خطابه بالبريد المستعجل ، وخفق قلبها من شدة الانفعال خوفا من ان يكون قد حمل لها ما يكدرها فقد كانت تحس بغريزتها ان ليلة الأمس لابد ان يكون لها معقبات ، ولم يكن باستطاعة آمال رغم شديد تلهفها على مطالعـة الخطاب الا ان تبقيه مغلقا حتى تفرغ من اعطاء دروسها كلها فقـد

كانت متهيبة مما يكون قد احتوى عليه • وظهر عليهـــا الارتبـــاك والسرحان فى دروسها فراحت الطالبات يتغامزن عليها ، ولكنهـــا لم تعر ذلك أدنى التفات فقد كانت مهمومة الخاطر مما يكون قد احتواه الخطاب • ولم تكد تفرغ من دروسها حتى أسرعت الى حجرة نومهـــا فى الداخلية ، وفتحت خطاب فوزى وراحت تطالعه ، حتى اذا اطمأن خاطرها ان الخطاب لايحوى شرا بل على العكس يتضمن عرض فوزى عليها اعلان الخطوبة رسميا ، راحت تعيد مطالعة الخطاب وتقف أمام بعض فقراته •

« ان الفارق الوحيد بين أى علاقة آثمة بين الرجل والمرأة وأخرى شرعية ، لايعدو ان يكون الفارق بين السر والعلن ، ولست أعرف وقد تعاهدنا على الوفاء والحب ، وقد صحت عزيمتنا على أن يكـــون مآل علاقتنا هو الزواج ، فلماذا لانعلن عن ذلك بما جرى عليــــه العرف والتقليد فى اعلان الخطوبة ، الحق اننى بدأت اشعر اننا تأخرنا كثيرا فى القيام بهذه الخطوة وحملنا جميع من يحبوننا ويحترموننا عنـــاء كبيرا » ووجدت آمال نفسها عقب مطالعتها الخطاب فى صميم المشكلة التى حرصت مذ أحبت فوزى على تجاهلها ونسيانها لأنها لاتعرف حلا لها ، وهاهو فوزى يأبى الا أن يضع العقدة امام المنشار ، تصورا منه أنه سيحلها مع انه بهذه الطريقة يقطعها • وعاودت آمال كل الخواطر التى راودتها وهى تتلقى خطاب فوزى الأول فى الصيف المـــاضى • ولكن العلاقات بينهما كانت قد تطورت بحيث لايمكن ان تسمح بثورة من الغضب كتلك التى غشيتها فى المرة السابقة ، لقد كانت علاقتها بفوزى قد أصبحت جزءا من حياتها لاتستطيع الاستغناء عنه بحـــال من الاحوال • كانت تعد الساعات التى ستراه بعـــدها ، ولاتحس بالامن والطمأنينة النفسية والبهجة الا وهى معه وبجواره • أصـــبح حبه لها هو الذى يرطب حياتهـــا وهى تزحف نحو الثلاثين بخطى سريعة • وكانت قد راضت نفسها على ان تستمتع بهذه العلاقة وأن تحياها ، دون ان تتساءل عن مآلها وهدفها النهـائى • كانت تكتفى

بأنها سعيدة بهذه العلاقة ، وساعدتها طبيعتها المتحررة التى اكتسبتها من الاقامة الطويلة فى انجلترا ، على ان لاتعبأ بما يمكن ان يقال عن هذه العلاقة أو توصف به · ولكن هاهو فوزى يأبى الا أن يخرجها من غفوتها بأسلوبه العنيف الذى تنكره منه وتحبه من أجله فى الوقت ذاته ، ويفرض عليها مواجهة الواقع · وساءلت آمال نفسها فى صدق وأمانة هذا السؤال الذى مافتئت توجهه لنفسها مذ صارحها فوزى بحبه لها ، أهى تحبه ؟ ولم تستطع الرد على السؤال وقد التزمت أن تكون صادقة مع نفسها · واختلطت عليها المشاعر والأحاسيس · انها لاتستطيع ان تقطع بأنها تحب فوزى ، وان كانت قادرة على ان تقطع انها لاتسطيع ان تخسره · ولم تكد فكرة عدم استطاعتها ان تخسره تسود الموقف حتى تشبثت بها وقررت أن تكون تصرفاتها مستندة الى هذه الحقيقة الثابتة ، « **انها لاتستطيع ان تخسر فوزى** » ·

وقررت ان تناقش الموقف مع فوزى فى صراحة وصدق كما ناقشته مع نفسها وان تدع له هو ان يفصل فى القضية ، سوف ترضى بحكمه فيها ، انها تثق برجولته ، تثق بنبل اخلاقه ، ستصارحه بكل شىء ، شريطة ان لاتخسره ، فهى لاتستطيع ان تخسره ·

٨

اختارت آمال ساحة الهرم لبحث مشكلتها مع فوزى ، فهى تعرف أنها اسرت لبه فى هذا المكان وهى تغنى له « من سرق قلبى » وهو احسن مكان تنفرد فيه معه بعيدا عن الدنيا كلها ، ان باستطاعتها ان تعتمد على سحر الهرم فى دراسة مستقبل علاقتها مع فوزى · ولم يوافق فوزى على الذهاب معها الى الهرم بغير امتعاض واحتجاج ، فقد كان يريد ان يسمع منها كلمة الموافقة على اعلان الخطوبة وهما فى البيت ليسرع فيزف البشرى لوالدة آمال ولرياض ولكى يتلقى بركتهما ، فقد كان يحس بالقلق الذى يخامر والدة آمال ، وكان يحس بعدم الرضاء الذى يجيش فى نفس رياض لعودة العلاقات بين فوزى وآمال وزيادة توثقها دون أن تأخذ صورة محددة · ولكن آمال طلبت منه أن يتريث

فلا يخبر أحدا حتى يتفاهما ، وكانت كلمة التفاهم هذه تحنقه ، فقد كان يتصور انهما متفاهمان على كل شيء ٠

ووصلا الى صحراء الهرم ولم تكن الليلة من الليالى القمرية فكان الجو معتما ، كانت السحب تغطى الجزء الاكبر من السماء فاختفت النجوم الزاهرة ، وأحس فوزى لأول مرة كما لو كان الهرم يجثم على أنفاسه ٠ ولم يكن فى ساحة الهرم سوى جنـــدى البوليس وبعض خفراء الآثار الذين نظروا للعاشقين شـــذرا ، ولكن فوزى وآمال لم يأبها لذلك ، فقد كان من المعتاد ان يغشى ساحة الهرم هذا النوع من العشاق دون ان يتعرض لهما متعرض ٠ وسارا فى الطريق المظلم نحو الهرم الثالث يتحسسان طريقهما بصـعوبة ، وكانت آمال هى التى افتتحت الحديث ، بعد أن ضغطت على ذراع فوزى الذى كان تحت ابطها :

ـ لا أظنك يافوزى قد اصبحت فى حاجة لتعرف مدى تعلقى بك واعزازى لك؟ لقد أصبحت تدرك مقدار حرصى على ارضائك واستعدادى لأن افعل أى شيء تطلبه ... وقطع عليها فوزى استرسالها فى الحديث الذى لم يعجبه وقال لها :

ـ اجيبينى على موضوع اعلان خطبتنا فى اختصــار ، هل لديك مانع ؟

وغمغمت آمال قائلة :

ـ انك تجعل مهمتى صعبة جدا ، اننى اريد ان اتحـــدث معك بصراحة وانت تملأنى خوفا من هذه اللهجة التى تخاطبنى بها ، أرجوك يافوزى ان تكون طويل البال وان تسمع لى حتى أقول لك كل مايدور فى نفسى ٠ ولكن فوزى لم يزدد الا قلقا من جراء هذه المقدمات ولذلك فقد اسرع يقول لها فى انفعال متزايد :

ـ انك تمزقين أعصابى بهذا الاسلوب الغــــامض ، أرجوك ان تتكلمى باسرع ماتستطيعين ، وان تجعلى كلامك صريحا وواضـــحا ٠ فقالت له آمال :

ـ وهل تعدنى ان لاتغضب ؟

فقال لها فوزى وهو فى شدة الغضب :

ـ أعدك • فامسكت آمال بيد فوزى التى كانت شديدة البرودة من الانفعال ورفعتها الى فمها وقبلتها ثم قالت له وقد اطمأنت الى الظلام الذى كان يسيطر على الدنيا :

ـ أرجوك أولا ان لاتتصور اننى لم أفكر فى موضوع خطبتنـــــا وضرورة اعلانها رسميا أكثر من مرة قبل ان اتسلم خطـابك ، وفى كل مرة بحثت فيها الموضوع بينى وبين نفسى لا أجدنى متحمسة لهذه الخطوة والا لكنت انا الذى فاتحتك فى الموضوع • وقال فوزى فى اقتضاب :

ـ واذن ؟

واسرعت آمال تقول فى صوت خافت :

ـ أننى آسفة جدا •

ولم يستطع فوزى ان يصدق اذنيه فقال لها وهو مبهوت :

ـ آسفة ؟ أقلت آسفة ؟ آسفة على أى شىء ؟

وتعلقت به آمال وقالت :

ـ لقد وعدتنى ان لاتغضب ووعد الحر دين عليه ، أقصد ان أقول لك ان عرضك الخطوبة على يشرفنى كل الشرف ، ولكنى لا أستطيع قبوله •

ومرة أخرى تولى فوزى الذهول لهذا الذى يسمع ، واستجمع آخر مابقى فى نفسه من قوة ارادة وسألها :

ـ هل استطيع ان أعرف الاسباب؟• وارتبكت آمال ولم تعرف من أين تبدأ حديثها وأوشكت ان تلوذ بالصمت عن ذكر الاسباب ، ولكنها قررت ان لاترجع القهقرى لقد آلت على نفســـها ان تخاطب فوزى بصراحة ، وبصراحة سوف تكلمه ، ولذلك فقد اندفعتتقول بسرعة وكأنها تتلو قطعة محفوظات لكثرة ماكررتها بينها وبين نفسها :

ـ أولا لأنى لا أتصور اننى احبك ، وثانيا لأننى اكبرك فى السن

بسبع سنوات ، وثالثا لأن ظروفى المعاشية تحول بينى وبين الزواج فانت تعلم اننى أفقد وظيفتى بمجرد الزواج ولا أستطيع ان أتخلى عن مسئولياتى حيال أسرتى • وشعرت آمال عقب القائها هذه التصريحات بأن فوزى يترنح فخافت عليه من الوقوع فاسرعت واحاطته بذراعها لتساعده على حفظ اتزانه ، بينما مضت تقول كما لو كانت تصحح خطأ وقعت فيه :

ـ وهذا لايعنى ان هذه كلمتى النهائية فى الموضوع ، ولو كانت كذلك لما جئت بك الى هنا لنتفاهم ولنتدارس الأمر فى روية ، وأنا مستعدة كل الاستعداد ان اقتنع بخطأ رأيى •

ولم يرد عليها فوزى بكلمة واحدة ، فقد كان لايزال مصعوقا تحت أثر عبارتها الأولى من أنها لاتحبه ، لقد كانت هذه الجملة وحدها تؤلف بالنسبة له سكينا حادا غاص فى قلبه • صميم قلبه • وأحس فجأة بالوحشة والظلام المحدق بهما ، وانكر على نفسه ان يكون مع امرأة لاتحبه فى هذا الجو المريب ، فقال لها بصرامة :

ـ فلنرجع •

وقالت له آمال فى لهفة وجزع :

ـ ولكنك لم ترد على ماقلته لك • وكرر فوزى كلمته فى صرامة أشد من قبل « فلنرجع » فقالت آمال فى عناد :

ـ لن نرجع حتى نصفى الموضوع ، فرد عليها فوزى وقد اشتعل غضبا :

ـ وفى أى شىء نتكلم هل تركت سبيلا للكلام ؟

ـ ماهو رأيك فى اننى أكبرك سنا ؟ ماهو رأيك فى اننى أخسر وظيفتى بمجرد الزواج ؟

فقال فوزى فى مرارة واستهجان ، لو ان اسبابك اقتصرت على هذين السببين لكان من المستطاع تفنيدهما ، فاما وقد قلت انك لاتحبيننى فأى مجال للقول بعد ذلك ؟

وقالت آمال وقد اطرقت رأسها فى حزن :

ــ لقد حنثت بعهدك عندما قلت لى انك لن تغضب ، فهــا أنت غاضب وحانق على لمجرد اننى لم احسن التعبير وانتقاء الكلمــات ٠ وانفجر فوزى يضحك فى هستيرية جعلت جسد آمال يرتجف ، ولم يذهب عنها الروع الا بعد ان توقف فوزى فجأة عن الضحك وقال لها فى خشونة :

ــ لقد جازت على هذه اللعبة ، لعبة القول بأنك لاتحسنين التعبير مرة ، ولن تجوز على مرتين ٠ لقد احسنت التعبير فعبرت بأبلغ عبارة وأوجزها ٠ قال ذلك وابتعد عن آمال ، ولكنها لحقت به وتشبثت بذراعه وهتفت به :

ــ أرجوك يافوزى ان تترفق بى ، اننى اعترف لك أننى مذ عرفتك وأنا لا أعرف حقيقة مشاعرى حيالك ، اننى أحب دائما ان أكون معك وان أكون محل رضائك ، أحب الاستماع الى حديثك ، وأنا فخورة بحبك لى ، ولست أعرف اذا كان هذا هو الحب ٠ وقد تكون هذه هى امارات الحب ، ولذلك فدع هذا الموضوع جانبا وتعال نناقش السببين الآخرين ٠ وانفعل فوزى من جديد وقال لها :

ــ لو انك وقفت عند حد هذين الاعتراضــين ، لما كان فى الرد عليهما أية صعوبة فانا لا أحس أننى أصغر منك سنا ٠ أننى اشــعر دائمــا اننى أنا الأكبر والأقوى ، والمســألة مسألة شــعور واحساس ٠ وانت تعرفين ان لك اخوات اصغر منك سنا ، هناك ثريا بالذات وارجو ان لايغضبك أن أقول لك انها اجمــل منك ، وهى المرشحة الطبيعية لتكون خطيبتى ، ولكن الذى حدث انك أنت التى استأثرت باهتمامى وحركت عاطفتى ٠ فالمسألة ليست مسألة عـدد السنوات ولست اشترى عمارة للاستغلال ، أو سيارة لأعرف بعد كم من السنوات ستستهلك ، وانما هى مسألة تجاوب عاطفى لاعلاقة لها بالسن أو الجمال أو الغنى والجاه أو أى عنصر آخر ٠ اما عن التمحك بالظروف العائلية ، فاسمحى أن أقول لك أنها علة سمجة ، فقــد عاشت اسرتك بدون مساعدتك ، وهى التى تولت تربيتك وتعليمك

ولن يضيرها فى قليل أو كثير فقدان بعض الجنيهات التى أصبحت تدفعينها لهم كل شهر بعد عودتك من انجلترا • وعلى أية حال أنت تعرفين ان حرصى على سعادة أسرتك لايقل عن حرصك ان لم يزد ، وقد كنت أتصور اننا عندما نضع أيدينا فى أيدى بعض سنكون أكثر قدرة على تكريس حياتنا من أجل اسعاد هذه الاسرة التى اصبحت اعتبر نفسى أحد أفرادها منذ أمد بعيد •

وفوجىء فوزى وقد وصل الى هذا الحد من حديثه بآمال تقبله بحرارة وتقول له :

ـ وهل بعد هذا الكلام الجميل النبيل يمكن ان أرفض طلبك ؟ اننى خطيبتك يافوزى كما تريد وتحب • ولم يشعر فوزى بذرة من الابتهاج لهذا القول ، كما لم يحس بطعم القبلة ، وعلى العكس احس لذلك كله بانقباض فى نفسه • ولذلك فقد قطب حاجبيه وقال لها فى جفاف :

ـ حذار من ان نكرر ما سبق ان وقعنا فيه من خطأ ، ان هذه لحظة حاسمة ، وما دمنا قد تكلمنا بصراحة فلا يليق بنا أن نعود لنخفى رأسينا فى الرمال • لقد قلت لى بعد تفكير طويل بينك وبين نفسك ، انك لاتحبيننى ، وقد حان الوقت لأخاطبك بنفس الصراحة • فأنا أيضا لا اعرف اذا كان ما أحمله لك من عاطفة هو هذا الحب المشبوب الذى يبدو انك تفتقدينه فى علاقتك معى والذى يحس الانسان معه انه لايستطيع الحياة بدونه ، انك عندما تتنكرين لى كما فعلت الآن ، وكما فعلت من قبل ، أحس اننى قادر على الانطلاق فى الحياة بغيرك ، اشعر كما لو كنت •••• وصرخت آمال قاطعة عليه عباراته القاسية :

ـ لاتكمل يافوزى لاتكمل ناشدتك الله ، كفى ماقد قلت ، انك تقتلنى قتلا بكلامك ، انك تهدم فى نفسى اجمل ما أعتز به فى هذه الدنيا وهو حبك لى ،أتوسل اليك ان تعفينى مما تريد ان تؤلمنى بقوله• وتهاوت آمال على أحد الاحجار المتناثرة على الطريق • بعد ان أصبحا

يقفان في ظل الهرم الاكبر ، وراحت تبكي وتقول في بكائها :

ـ لم أكن أبدا اتصورك بهذه القدرة على القسوة والفظاظة ، لقد أدميت قلبي وجرحت كبريائي ، لقد نجحت في اذلالي واشعاري بأنك قادر على تحطيمي كما لو كنت حشرة ، وقذفته بعباراتها الانجليزية التي كانت تنال منه « وحش ، ما انت الا وحش » ولم يشعر فوزي لأول مرة حيال دموعها بأي عطف أو اشفاق بل ازداد قلبـــه تحجرا وتجلت له عبارتها بالانجليزية من وصفه بالوحشية تمثيلا سمجا ، ولذلك فقد رد عليها بجفاء أشد :

ـ صدقيني ان هذه المواقف كلها تجارب جديدة بالنســـبة لي ، فلست أعرف الآن اذا كان هذا الذي تفعلينه هو شيمة النساء جميعـــا أم أنه أمر قاصر عليك ، ألم تقولي أنت منذ لحظات في بساطة ودون تأثم أو تحرج انك لاتحبينني ، فلماذا اذا حاولت بدوري أن أحلل لك عواطفي اعتبرت ذلك مني قسوة ووحشية ؟

فقالت آمال وقد ارتفع نشيجها بالبكاء ، وبدا ماتعانيه من الألم واضحا في صوتها ٠

ـ ذلك انك تتمسك بكلمة خرجت من فمي ، فتحاول الانتقـــام لنفسك بكل الاسلحة فتارة تحدثني عن ثريا الأجمل مني فتجاوزت لك عنها وتجرعتها ، ثم انتقلت تحـــاول أن تقيم الدليل على أنك لم تحبني في يوم من الايام ، كل ذلك لتنتقم ولتحقرني في نظر نفسي ، في الوقت الذي تنسى فيه أنني الآن معك مستسلمة لك ، مســـتعدة لفعل كل شيء لارضائك ، تنسى كل الذي أقوله لك من سعادتي كلما كنت معك ، من افتخاري بحبك فما هو الحب الا هذا ؟ وتميز فوزي غيظا وازداد عنادا وقال لها :

ـ فلماذا اذن قلت لي انك لاتحبينني ؟

فقالت آمال وقد توقفت عن البكاء وامتلأ صوتها حنانا :

ـ لأسمع منك مايضاعف حبي لك ويزكيه في نفسي ، والا فلماذا جئت بك الى هنا ، أي الى أحب مكان الى نفسك ، أليس لكي تقنعني بأننا نحب بعضينا ؟

وارتبج على فوزى ولم يعد يعرف ماذا يقول وما الذى تقصده بكلامها ، بينما مضت آمال فى حديثها وقد بدأ يسيل رقة وحنانا وعذوبة ٠

ـ فوزى ياحبيبى ، ما الذى تريد منى ان أقوله أكثر من ذلك ، الا تتخلى عن كبريائك ولو مرة واحدة ؟ وراح فوزى يجمع شتات نفسه وعواطفه ثم قال لها :

ـ فى الحقيقة لقد أربكتنى ، لم أعد أعرف ماذا اقول أو كيف أتصرف ، لقد فقدت الثقة فى نفسى ، فقدت الثقة بحبنا ٠ واحتجت عليه آمال وقد نهضت من جلستها واقتربت منه وأمسكت بوجهه بين يديها وقالت له :

ـ اخص عليك ، أبعد كل هذا الذى قلته لك تقول هذه الكلمة المخيفة من انك لم تعد واثقا بحبنا ؟ انظر الى يافوزى انظر الى عينى ان حبنا فى هذه الساعة أقوى منه فى أى وقت مضى ، والتصقت به ، وبدأ فوزى يتداعى وقال لها :

ـ مادام هذا قولك فلا يعود لى اختيار ، لقد كتبت اليك خطابا وأنا فى انتظار رد كتابى عليه بالقول أو الرفض ، فاذا ماجاءنى الرد بالقبول فسأعتبر الأمر منتهيا وأعلن خطبتنا ٠

وقالت آمال وقد ازدادت التصاقا به ٠

ـ اكتب ما تشاء وسأوقع لك عليه مغمضة العينين : وقربت فمها من فمه ، ولكنه انفعل من جديد تحت تأثير كلامها فانتزع نفسه منها وقال :

ـ لا يا آمال ، نحن لانبرم عقد بيع أو نحرر كمبيالة ، ان الأمور العاطفية لاتعالج بهذا الاسلوب ، يجب ان تأخذى وقتك وان تراجعى نفسك ، وتفكرى فى خلوتك على مهل ثم تكتبين لى بما استقر عليه رأيك النهائى بعيدا عن أى مؤثر ، أما الآن فحسبنا ما قلناه وما أمضيناه هنا ولننزل الآن الى البلد ٠ فقالت آمال وقد عادت الى التعلق به وتقريب فمها من فمه ، وقد امعنت فى الدلال والاغراء :

– لن أتحرك من هنا ولن ننزل الى البلد الا بعد ان نشهد الله أننا صرنا خطيبين • انني لا استطيع ان أراك لحظة واحدة غاضبا على ، انني أحبك ، أحبك انت خطيبى وحبيبى معا •

ولم يستطع ان يقاوم اكثر مما فعل ، فأحاط خصرها بذراعيه وضمها الى صدره وهو يقول لها : يالك من طفلة كبيرة ، وغمغمت فى أذنه : اتحبنى ؟

ولم يجبها بسوى قبلة قوية عنيفة حاول الاثنان ان يفنيا نفسيهما فيها •

الفصل الثانى

١

كانت اصابع مأمور قسم عابدين منهمكة فى فتل طرفى شاربه ، فى الوقت الذى كان ضباط القسم الثلاثة الذين جمعهم من دون بقية الضباط باعتبارهم موضع سره قد بدأوا يضيقون ذرعا لتعليق المأمور اياهم على احر من الجمر قبل أن يطلعهم على السر الذى جمعهم من أجله ، والذى حرص على ان يشعرهم بخطورته ، فطلب منهم قبل ان يفاتحهم ان يقسموا له على الكتمان ، ثم زاد على ذلك فأمر عسكرى المراسلة ان لايسمح لأحد بالاقتراب من الباب · وتضايق السباعى افندى المعاون وقد طالت فترة الانتظار وأصابع البك المأمور لاتنفك تبرم فى أطراف الشارب ، فسأل المأمور فى تبرم :

ـ خيرا ياسعادة البك ؟

وكأنما كان المأمور فى انتظار مثل هذه الاشارة لتساعده على بدء الحديث ، فكف عن برم طرفى شاربه بعد أن نظر اليهما فى رضاء واطمئنان انهما لم يعودا دون شارب المليك المفدى نفسه بحيث يقف عليهما الصقر ، وخفض صوته وهو يتكلم حتى أوشك حديثه ان يكون همسا ·

ـ لقد عهد الى بمأمورية بالغة فى الدقة ، يجب ان ننفذها بنجاح وان تظل سرية بيننا والا سببت لدولة رئيس الحكومة كثيرا من المشاكل سنكون نحن أول من يدفع ثمنها بالنقل الى قنا واسوان ، ان لم يكن بالاحالة الى الاستيداع ، اما اذا نجحنا فالترقية تنتظرنا جميعا · وهتف فؤاد عبد السميع عندما سمع كلمة الترقية ·

– حتى انا ياسعادة المأمور ؟ وابتسم المأمور ونظر الى فؤاد نظرة ذات مغزى وقال :

– حتى أنت ياسيد فؤاد ٠

وقال فؤاد :

– لامؤاخذة ياسعادة البك ، ولكن ماهو الضمان ؟

– وظهر الضيق على وجه البك المأمور وقال لفؤاد :

– مش عيب ياولد يافؤاد تقول لعمك اللى رباك هذا السؤال ، لقد اقسم لى معالى وزير المواصلات وهو الذى عهد اليه رئيس الحكومة بالاشراف على عملية الانتخاب كما تعلمون ، اننا لو نجحنا فى مهمتنا فسوف يرقى كل من اشترك فى العملية ٠ وهم فؤاد ان يتكلم من جديد ، فقاطعه السباعى افندى المعاون قائلا :

– الا تنتظر اولا ياسى فؤاد حتى نعلم ماهى هذه المأمورية ، أم أن مجرد التلويح لك بالترقية قد اصابك بالسعر ؟ ثم التفت الى المأمور وقال له : الحق ياسعادة المأمور ، اننا تعبنا جدا من هذه المأموريات الخاصة ، التى تتم دائما على حساب أعصابنا وقد تنتهى بنا الى أن تكون على حساب حياتنا نفسها ، وربنا يغنينا عن الترقية التى لاتجىء بالطريق الطبيعى ٠ أنسيت ياسعادة البك ماذا قلت لى أنت نفسك ، عندما كدت أفقد حياتى أبان ثورة العنابر ، ولولا أن تحركت فى اللحظة المناسبة لأودت قطعة الحديد بحياتى بدلا من العسكرى الغلبان عبد التواب ٠ فقال المأمور :

– أعوذ بالله وهل هذا يوم ينسى ، لقد كاد رأسى يشدخ لولا ان الله سلم ٠ على أن المأمورية التى عهد لنا بها اليوم لاتنطوى على أية مخاطرة أذا تواصينا على الكتمان وأجدنا تمثيل بعض الادوار ٠ وضحك المعاون فى سخرية وقال :

– تمثيل ؟ هل سنمثل احدى الروايات المسرحية ؟ فقال المأمور وقد غمز بعينيه موافقا :

– شيء قريب من ذلك ، ولكن تمثيلنا سيكون على مسرح الحياة

نفسها • وطلب من الضباط الثلاثة بحركة لاشعورية ان يزدادوا قربا منه وبدأ يقول فى صوت خفيض :

ــ تعلمون ان الاتفــاق قد تم بين حزب السراى وحزب رئيس الحكومة على تقسيم الدوائر الانتخابية فيما بينهما ، وقد تمسك الاستاذ رمزى بك سكرتير حزب السراى بدائرة عابدين باعتبارها دائرة القصر ، ولكن رئيس الحكومة كان قد وعد محسوبه رمضان باشا خيرى بالدائرة ، وعبثا حاول دولة الرئيس ان يثنى رمزى بك عن دائرة عابدين فلم يفلح • وقد كادت تحدث أزمة بسبب هذا الموضوع ، واضطر دولة الرئيس الى الرضوخ فى النهاية حفظا على تضامن الحزبين وتعاونهما ، ولكن دولة الرئيس مصمم على اسقاط رمزى بك وانجاح رمضان باشا فى دائرة عابدين ، على شرط أن لايحس احد أن للحكومة دخلا فى الأمر ، وقد أوعز دولة الرئيس لرمضان باشا ان يرشح نفسه مستقلا عن الاحزاب • حتى لايتهم بأنه نقض الاتفاق ، والمطلوب منا الآن ان نعمل على اسقاط رمزى بك وانجاح رمضان باشا ، الذى سيكون مديرا لحزب رئيس الحكومة بمجرد نجاحه على مافهمت •

وهنا قال المعاون وقد مط شفتيه وسرح ببصره :

ــ هذه مسألة شائكة ياحضرة المأمور ، وأناشدك الله أن تخرجنى من الموضوع •

فقال المأمور :

ــ ليته كان فى استطاعتى انا نفسى أن أخرج من الموضوع ، ولكن رمضان باشا رشح نفسه بالفعل ولو سقط الآن فقنا أو اسوان فى انتظارنا ، وانتم تعلمون ان « ابو السباع » لايرحم ، بل والويل كل الويل اذا خرج هذا السر من بيننا بعد ان عرفناه ، فالمسألة ياسباعى أنه لم يعد لنا اختيار الا أن ننفذ ما أمرنا به • وظل ضابط المباحث بدوى أفندى الذى كان حاضرا الاجتماع ساكتا فى انتظار ما يستقر عليه الرأى ، بينما أسرع فؤاد قائلا : ــ

ـ اما أنا فأريد الترقية وأنا على استعداد أن أفعل كل ما تأمر به سعادتك . وبادر المعاون قائلا : كلنا نريد الترقية ، ولكن المسألة هى كيف سيكون باستطاعتنا ان ننجح رمضان باشا دون ان يشعر بذلك رمزى بك ويشكونا للسراى ، وعندها تكون آلطامة الكبرى ، ان سعادتك تعرف ان مقاطعة الشعب للانتخابات قد دوختنا وقطعت قلبنا فى المرحلة الاولى ، كيف اضطررنا لحشد الخفراء والعساكر للادلاء بأصواتهم نيابة عن الناخبين ، ونظر المعاون الى ضابط المباحث ومضى يقول :

ولولا ان انجدنا بدوى افندى بحشد المشبوهين والمتشردين لما وجدنا عددا يقوم بتمثيل عملية الانتخاب، فكيف سيكون فى استطاعتنا ان نفعل شيئا من ذلك فى المرحلة القادمة دون ان ينكشف أمرنا ، واننا نسعى لانجاح رمضان باشا واسقاط رمزى بك وهو رجل السراى .

فقال المأمور :

ـ هنا موضع الحذق والمهارة وما سوف نستحق الترقية من أجله ، لقد منحنى معالى الوزير (كارت بلانش) لانفاق ما أشاء من المصاريف السرية التى ستوضع تحت حسابنا ، وكل الذى اشترطه معالى الوزير ألا نقدم على عمل يمكن التمسك به واثباته علينا ، فيؤدى ذلك الى احراج وزير الداخلية وبالتالى احراجنا نحن . وعلى هذا فيجب ان نقابل رمزى بك كلما جاء الى القسم بالتجلة والترحاب وأن نتظاهر ببذل كل شىء من أجل خدمته وانجاحه ، أما فى يوم الانتخاب فيكون لنا شأن آخر . فاعترض المعاون قائلا :

ـ ياافندم أرجوك أن تتبين صعوبة الموقف يوم الانتخاب ، فقد علمت أن رمزى بك قد بدأ اتصالاته بالمندوبين الخمسينيين الذين يربو عددهم على خمسائة ، وهو يعد كل مندوب يقابله بخمسة جنيهات يدفع نصفها الآن والنصف الثانى يوم الانتخاب ، ولابد انه سيطالبنا يوم الانتخاب بأن نحشد له هؤلاء المندوبين الخمسينيين ، فكيف يكون

فى استطاعتنا ان نطلب منهم انتخاب رمضان باشــا وان يبقى ذلك سرا على رمزى بك ؟
فقال المأمور :

ـ أرجوك أولا ألا تصدق حكاية دفع النقود هذه بالفعل ، فالأغلبية الساحقة من المندوبين هم من حزب الاغلبية بالرغم من كل الجهــود التى بذلناها للحيلولة دون ذلك ، وهم بدورهم يقاطعون الانتخابات ولن يشترك منهم فى عملية الانتخابات النهائية الا العدد القليل جدا ، واذا كنت قد سمعت عن بعضهم أنه أخذ نقودا ، فقد فعلوا ذلك على سبيل التضليل ، وأستطيع أن أؤكد لك أنه لن يشترك فى عمليــة الانتخاب سوى مندوبى السراى من الحجاب وموظفى الخاصة نزولا عند حد الأوامر التى صدرت لهم ·
وهنا قال المعاون :

ـ ان سعادتك تؤكد رأيى من ان المسألة ستكون صعبة جــدا ، فماذا باستطاعتنا ان نفعل مادام المندوبون سيقاطعون الانتخابات ، هل سيكون بقدرتنا ان نلبس العساكر من جديد جلاليب ثم نطلب منهم انتخاب رمضان باشا دون ان يعلم رمزى بك ؟ فرد عليه المأمور بأنه وضع خطة محكمة تقوم على أن يحضر رمضان باشا يوم الانتخاب خمسين رجلا من رجاله ليقوموا بعملية الانتخاب بدلا من المنــدوبين المقاطعين · ومضى المأمور يقول :

ـ والآن وقد عرفتم الخطة بحذافيرها ، فليكن فى علمكم أن تسرب شيء منها سيضرنا جميعا ، لأن وزير الداخلية سيقول أنهــا مجرد تخرصات وأوهام المعارضة ثم يأذينا لكشفنا اياه ، فأوصيكم بالكتمان· وأنا طبعا لم آخذ هذه المأمورية على عاتقى الا وأنا متأكد من تعــاونكم معى وكتمانكم السر ، ولقد أعطيت اسماءكم جميعا لمعــالى الوزير · ونظر المأمور الى فؤاد وقال له : اما أنت يافؤاد فأنا معتمــــد عليك بالنسبة لنقطة كوتسيكا فى معروف ، لست أريد أن يحدث فيهــا ماحدث فى الدور الأول من اضطرابات واصطدامات ، أريدك أن تعالج الموضوع بحكمة وبراعة · فأجاب فؤاد :

ـ ربنا يستر ياسعادة المأمور وأبيض وجهك ، لقد كان مافعله أبوبكر ضابط النقطة فى المرة السابقة سوء تصرف لايمكن أن أقع فيه ان شاء الله ٠

فقال المأمور :

ـ وهل هو سوء تصرف بعقل ، الله يخرب بيته ، خمسة قتلى ابن الكلب ؟ لولا قوة شكيمة رئيس الحكومة لكان الآن فى حديد ولدخلت أنا فى سين وجيم ، فقد حاولت النيابة التدخل فى الموضوع ولكن الرئيس منعها من ذلك ٠ فرد ضابط المباحث قائلا :

ـ ومع ذلك فقد نقل أبو بكر الى نقطة قليوب ظلما وعدوانا ٠

وهنا احتج عليه المعاون قائلا :

ـ اتعتبر النقل الى قليوب عقوبة مقابل قتل خمسة اشخاص ؟

فقال بدوى افندى ضابط المباحث :

ـ خمسة ولاعشرة ولاحتى مائة ، ألسنا ننفذ أوامر ، ما ذنبنا نحن ؟

فقال فؤاد :

ـ على كل حال ان نقله الى قليوب هو انقاذ له ، فلو ظل فى مكانه لانتقم منه الاهالى والتفت الى المأمور وقال له : ادع لى ياسعادة البك ان يسترها الله معى وأن أبيض وجهك ٠

فقال المأمور لست اشك فى نجاحك ، فانت تربيتى ٠

٢

عاد فؤاد عقب الاجتماع الخطير الذى عقد فى حجرة المأمور الى بيته الجديد فى الحلمية الجديدة ، ومع اقترابه من البيت نسى كما هو شأنه دائما متاعبه فقد كان يفكر فى أزهار التى ستكون فى انتظاره ٠ كانت حياته قد بدأت تستقر من جديد بعد أن عادت اليه أزهار ، وقد استأجرا بيتا جديدا ، ودفعت أزهار ما أبقته معها من نقود كقسط لأثاثات جديدة فاخرة ، بينما قسط باقى الثمن على عدة

شهور فأشبها فى بيتهما الجديد أن يكونا عروسين وقد زفا حديثا ، وعلى كل حال فقد كان هذا هو تصور الجيران وهم يرون الأثاث الجديد يدخل مع السكان الجدد ٠

وقابلته أزهار كخير مايحب أن تقابله به ، وكانت حوادث الانتخابات وما صحبها من عنف ومعارك بين الشعب والبوليس قد زاد من خوفها عليه ، فزادت حرارة لهفتها فى لقائه كلما عاد من الخارج ورأته سليما معافى ٠ وعاونت أزهار فؤاد كما هو شأنها دائما فى خلع ملابسه ثم قادته الى الحمام وهو مستسلم لها فغسلت له رأسه ووجهه وقدميه ، وأبدلت ملابسه الداخلية بأخرى نظيفة ، ثم ألبسته الجلباب الذى لم يكن يرتاح الا فى لبسه ، وهكذا خلق فى لحظات خلقا جديدا ، بحيث أصبح بينه وبين دنيا البوليس قارات ومحيطات ٠ واسترخى فؤاد على المقعد الطويل (شيزلونج) الذى جاء مع الاثاثات الجديدة ، وأشعل سيجارة ليتكيف بها بعد الأكلة الدسمة التى فرغ منها لتوه ، وصبت له أزهار فنجان القهوة الذى أصبح لايتصور الحياة بدونه ، بل لايتصور ان فى الدنيا كلها ماهو ألذ منه فى هذه المناسبة بالذات ٠ وقص على أزهار السر الذى أفضى به اليهم المأمور فقد كان لايخفى عنها شيئا من مشاكل العمل ويستأنس برأيها دائما ٠ وشرح لها خطة العمل والترقية التى تنتظره عند نجاح العمل ٠ وأسرعت أزهار تقول له :

ــ يغنينا الله عن الترقية اذا كانت تعرضك لأى مخاطرة ، انك لاتعرف القلق الذى أصبحت أعيش فيه مذ تغادرنى فى الصباح حتى تعود لى ثانية ، بعد ان قتل مساعد الحكمدار فى ميت غمر بواسطة الاهالى الثائرين على الانتخابات ٠ فرد عليها فؤاد قائلا : ان الحالة فى القاهرة ليست بهذا السوء ، فالحكومة مسيطرة جدا على الموقف ٠

ــ وهل نسيت ماحدث فى العنابر وما وقع فيها من قتلى وجرحى؟

ــ حادث العنابر لايمكن أن ينسى ، ولكنه حادث استثنائى ، والحق أنه لولا عبقرية هذا الرجل الشيطان رئيس الحكومة لكان

حادث العنابر قد تحول الى مجزرة ، تصورى يا أزهار ان العمال يومها كانوا يستعملون خراطيم الماء المغلى فيقذفون بالماء على بعد خمسين مترا ، وأحيانا مائة ٠ وحار البوليس ماذا يفعل فى هذا السلاح الذى لم يستعد له ، فما كان من رئيس الحكومة عندما عرض عليه الأمر ، الا أن أمر شركة المياه بأن تقطع الماء عن حى بولاق كله ، وبهذه الوسيلة فقط حرم العمال من هذا السلاح الرهيب وأسقط فى يدهم وأمكننا ان نتغلب عليهم ٠ وامتلأت أزهار جزعا من هذا الحديث فاقتربت من فؤاد وأمسكت بيديه وراحت تمرغ وجهها عليهما وتقول له :

ـ وحياتى عندك يافؤاد لاتعرض نفسك للخطر ، لاتعتد على أحد، فكر دائما كلما هممت بان تضرب إنسانا ، انه قد يكون أخى حسن ، فلابد أنه يسير الآن فى المظاهرات ، بل فكر انه قد يكون صاحبك فكرى أو أحدا من اخوانه ، مادام الشعب قد قاطع الانتخابات فاترك الناس وشأنهم ، وابعد عن المشاكل والمتاعب ٠ فرد عليها فؤاد قائلا :

ـ ليته كان باستطاعتى ذلك يا أزهار ، ولكنك لاتعرفين حياتنا فى البوليس ، يجب ان ننفذ كل ما يطلب منا ، وأن ننفذه بحماس والا اعتبرنا مقصرين فى واجباتنا ، لقد عهد الى المأمور بأشق جزء فى عملية الانتخابات ، وهو أن أشرف عليها فى حى معروف ٠ فشهقت أزهار من الرعب وقالت :

ـ هذا الذى قتل فيه خمسة يوم الانتخاب الماضى ؟

ـ هو بعينه ٠

ـ لسنا فى حاجة الى الترقية اننا سعداء كما نحن الآن ٠

ـ ان المسألة لم تعد مسألة ترقية ، فأنا اذا لم أنجح النجاح المطلوب فسأنقل الى قنا ٠

ـ فلننقل ، وأى شىء فى هذا مادمنا معا فسنعيش فى سعادة ٠

ـ وهل ترضين أن أعود كونستبلا كما كنت ؟

ـ لايرضينى طبعا لأنى اعلم ان ذلك يؤلمك ، أما بالنسبة لى

فمادمت باقيا لى فليس يهمنى منصبك أو مركزك أو عملك ، أنت لى كل شيء فى الدنيا وسلامتك عندى اغلى من كل شيء ٠

٣

بكر الاستاذ رمزى بك يوم الانتخاب فراح يمر على لجـــان الانتخاب التى لم تكن قد بدأت عملها بعد وكان يقوم على حراســته ثلة من رجال البوليس باعتباره مرشح الحـكومة الرسمى فى دائرة عابدين ، وخوفا على حياته من الجمهور الثائر الذى وصل به التوتر فى هذا اليوم الى أشده ٠ وقوبل رمزى بك فى كل مكان حل به من ضباط البوليس بالتجلة والاحترام اللائقين بالنائب المقبل للدائرة ، ولأنه سكرتير حزب السراى فى الدرجة الاولى ٠ كان رمزى بك متأكدا ان اعلان نيابته عن دائرة عابدين مسألة ساعات ، فقد كانت العملية الانتخابية شكلية بحتة ، وكان الاتفاق بين الحزبين على توزيع مقاعد البرلمان هو فى الحقيقة ارادة ملكية ، ولم يسمع أن منافســه طوال الايام السابقة على الانتخاب ظهر ولو مرة واحدة ، أو أبدى أى نشاط من أى نوع كان ٠ وكان ذلك من شأنه ان يطمئن رمزى بك الى أبعــد الحدود ومع ذلك فقد بدأ القلق يتسرب الى نفسه عندما مضت ساعة من النهار دون أن يظهر أحد من رجاله فضلا عن الناخبين الذين دفع الكثير من النقود لاستجلابهم وأسرع الى مأمور القسم فزعا وطلب اليه أن يقوم باجراءاته فورا ، وأقام المأمور الدنيا واقعدها ، فراح يشخط وينطر ويصدر الأوامر هنا وهناك ، ويفتل شاربه من حين لآخر اظهارا لشدة بأسه ، ثم عاد الى مكتبه واستدعى السباعى افندى المعاون وأمطره بوابل من التعليمات على مرأى ومسمع من رمزى بك ٠ وكانت هـــذه التعليمات تقضى بوجوب جمع مشايخ الحارات ، وتزويدهم بالعساكر اللازمة والطواف على بيوت المندوبين الخمسينيين واحضارهم بالقوة ، والدخول معهم الى داخل حجرة الانتخاب والتأكد من اعطاء اصواتهم لسعادة رمزى بك شفويا ٠ وهنا قال المعاون الذى كان يقف على غير

العادة مشدود القوام أمام حضرة المأمور اشعارا بقوة النظام فى هذا اليوم العصيب :

ـ وماذا نفعل فى حالة ما لو تجرأ أحد المندوبين فتحدانا وأعطى صوته لرمضان باشا ؟ فنظر له المأمور فى عتاب وقال له :

ـ وهل مثلك وأنت الضابط المجرب الممتاز يسأل مثل هـــذا السؤال ؟ ان من يتجرأ على فعل ذلك يجب ان تجعل منـــه عبرة لمن يعتبر ، يجب أن تأمر العساكر فتضربه على رؤوس الاشهاد ، ليعلم الجميع أن هذا هو جزاء من ينتخب رمضان باشا • انك تعلم الاوامر المعطاة لنا من وزير الداخلية ، ان الاتفاق قد تم تحت اشراف مولانا ان تكون هذه الدائرة من نصيب رمزى بك ، وقد تعهدنا بذلك كمـا تعرف • وعظم حضرة المعاون مؤديا التحية بشدة وخرج بهمة ونشاط بعد ان قال للمأمور انه سينفذ تعليماته بكل دقة • وذهب الروع عن رمزى بك بعض الشىء وشكر للمأمور حسن همته واجتهـــاده ، وأنه لن ينسى له هذه المعاونة الصادقة • واعترض المأمور على هذه التحية ، فهو انما يؤدى واجبه ولا زيادة ، فكل رجال البوليس خدام جـــلالة الملك بصفة خاصة ، ثم زاد المأمور على ذلك قوله ، على أن مايضاعف فى سعادته هو أن اتيحت له خدمة المحامى العظيم رمزى بك نور الذى طالما سمع عنه وتمنى أن يراه • واحمر وجه رمزى بك نور خجـــلا ، بينما كان المأمور قد بدأ يعرض عليه أنواع المشروبات، وما اذا كان يفضل فنجانا من القهوة أو الشاى ، ولكن رمزى بك سأل اذا كان من الممكن أن يحصل على فنجان من الينسون لتهدئة اعصابه • ولم يكن المأمور ينتظر الا ذلك لكى يحضر الينسون على الفور فى فنجان المأمور الخاص • ومع فنجان الينسون وزوال التوتر عن اعصاب رمزى بك ، راح يشكو للمأمور كيف كشفت له هذه الانتخابات عن مأساة مصر الخلقيـــــة وعن ضياع الضمائر التى تحولت الى سلعة ، فقد اضطر أن ينفق حتى الآن خمسمائة جنيه ثمن أصوات مائة مندوب ، فالتعليمات المعطاة لهم من الحزب تقضى بمحاولة اقناع اكبر عدد ممكن بالفعل للاشـــتراك

فى الانتخابات ولو عن طريق المال ، ومع ذلك فلم يظهر فى الافق حتى الآن أى مندوب ممن تسلموا النقود واقسموا على المصحف أنهم سينتخبونه . وسأل المأمور رمزى بك فى اهتمام عن وكلائه ومعاونيه لكى يشتركوا مع مشايخ الحارات فى جمع المندوبين ، فرد عليه رمزى بك بأن هذه هى احدى جوانب المأساة التى حدثه عنها ، فقد ظل جميع معاونيه ووكلائه ساهرين معه حتى الساعة الثانية صباحا، وهم يأخذون منه نقودا لتوزيعها باليمين والشمال ، وعند الصباح لم ير أحدا منهم . ووضع رمزى بك فنجان الينسون الذى كان قد فرغ منه على مكتب المأمور وأطلق لنفسه العنان فراح يسب ويلعن فى هذا الشعب وانه قطيع من المواشى والغنم . وقال المأمور يهدىء سعادة رمزى بك :

– لاتشغل نفسك بشىء من ذلك سعادتك نائب الدائرة على كل حال ، ثم طلب من رمزى بك ان يسلمه كشوف من دفع لهم نقودا ليتولى هو احضارهم فورا . وهنا لم يتمالك رمزى بك نفسه فوقف وقد بلغت به العصبية مداها وانفجر يقول :

– ألم أقل لك ياسعادة البك ان هذا شعب من المواشى والغنم ، لقد كانت هذه القوائم كلها مع شخص كان يتظاهر بأنه من أشد الناس حماسة لى ، وكان هو الذى يتولى احضار المندوبين واقناعهم بانتخابى واعطائهم النقود وتحليفهم اليمين ، وقد اختفى اليوم فلم أره ، وعندما ذهبت الى دكانه فى حى معروف وجدته مغلقا وعندما سألت عنه فى البيت قيل لى أنه سافر البلد . وظهر الغضب على وجه المأمور وعاتب رمزى بك على أنه لم يقل له هذه الاخبار منذ البداية . فأجابه رمزى بك بأنه خجل من أن يقول له كيف كان مخدوعا طول الوقت بهذه البساطة . وسأل المأمور عن اسم هذا المجرم الذى نصب على سعادته فأجابه بأنه يدعى الشوادفى وهو حلاق فى حى معروف ، وكتم المأمور ضحكة سخرية كادت تنطلق منه رغم انفه ، فقد كان الشوادفى معروفا لكل رجال القسم بأنه أحد فتوات حزب الاغلبية

فى معروف ، وعجب كيف لم ينبه أحد رمزى بك الى ان الرجل كان يخدعه • وضغط المأمور على الجرس الموضوع على مكتبه ، وطلب من عسكرى المراسلة بكل قوة ان يبلغ السباعى بك المعاون ان يحضر له الشوادفى الحلاق من تحت الأرض فى خلال ربع ساعة ، وأكد على عسكرى المراسلة أن يكون احضار الشوادفى من تحت الأرض فى أقل من ربع ساعة ، وأسرع عسكرى المراسلة يبلغ السباعى بك بضرورة احضار الشوادفى من تحت الأرض •

٤

بينما كان هذا يجرى فى القسم حيث المقر الرئيسى لعملية الانتخابات ، كان رمضان باشا ينفذ فى هدوء الخطة التى اتفق المأمور معه عليها فكان يطوف على لجان الانتخاب فى سيارته الباكار السوداء وكان يسير خلفه سيارة نقل تحمل خمسين فلاحا من رجاله ، وقد ارتدوا أحسن ماعندهم ، وراحوا يدخلونهم فى كل لجنة فرعية على حدة فيدلون بأصواتهم منتحلين اسماء المندوبين المتغيبين احتجاجا على هذه الانتخابات ، وفى كل لجنة كان مشايخ الحارات يؤكدون ان هؤلاء هم المندوبون أصحاب الحق فى الانتخاب •

ووصل رمضان باشا فى تجواله الى نقطة كوتسيكا فى حى معروف حيث كان فؤاد عبد السميع مسئولا عن سير الأمور ، وكاد فؤاد ان يضحك وهو يرى رمضان باشا لأول مرة ، فقد فوجىء برجل أقرب ما يكون الى الكرة، قصير القامة يحمل كرشا متكورا امامه بصورة توجب الرثاء•وكان رأسه الصغير يتطوح ذات اليمين وذات اليسار ويروع الانسان من هذا الرأس شارب ضخم لم يعن الباشا بتنسيقه أو مراعاة النسبة بينه وبين الرأس الصغير.وكان سعادته يتنفس بصوت عال بحيث يسمع الانسان شهيقه وزفيره ، ولم يذكر فؤاد وهو فى حضرة هذه التركيبة العجيبة الا أن هذا هو رمضان باشا الذى يتحدثون عن غناه وأنه محسوب رئيس الحكومة ، وأن نجاحه فى الانتخابات معناه

أن يرقى فؤاد عبد السميع الى رتبة الملازم اول · وانحنى فؤاد على اذن سعادة الباشا وطلب منه أن يطمئن فقد عمل الترتيب اللازم لانجاح سعادته وأن عليه ان يهتم باللجان الاخرى · وابتسم رمضان باشا لفؤاد وقال له ان رجاله قد فرغوا من انتخابه فى اللجان الاخرى ولم يبق الا هذه اللجنة ، وطلب منه أن يفسح لهم الطريق ليدخلوا · ولكن فؤاد قال له ان ذلك يخالف الخطة التى رسمها وطلب من رمضان باشا ان يكل الأمر اليه · ولكن الغضب ظهر على وجه رمضان باشا وأصر على وجوب دخول الفلاحين لينتخبوا فى هذه اللجنة · وظهر فى هذه اللحظة رمزى بك فى عربته ووراءه عربة أخرى لم تكد تقف حتى نزل منها أحد مشايخ الحارات وستة مندوبين خمسينيين · وروع رمزى بك من منظر الفلاحين الذين حشدهم رمضان باشا لينتخبوه ، وصاح محتجا ان هؤلاء الفلاحين لايمكن ان يكون لهم حق الانتخاب وادخالهم لينتخبوا جريمة تزوير ، وطلب من فؤاد عبد السميع باسم الحكومة وباسم جلالة الملك ان يضبط هذه الواقعة · ورد فؤاد بأن هؤلاء الفلاحين لم يطلبوا ان يدلوا بأصواتهم ، ولكنهم جاءوا ليقوموا بدعاية لرمضان باشا ، فصرخ رمزى بك قائلا ان هذه جريمة أخرى ، فقانون الانتخاب صريح فى حظر المظاهرات أمام لجان الانتخاب · فقال فؤاد : وهذا هو عين ماكنت أقوله لرمضان باشا · والتفت فؤاد صوب رمضان باشا وقال له :

ـ والآن أرجوك ياباشا ان تأمر رجالك بالانصراف والا فسأكون مضطرا ان أتخذ ضدهم بل وضد سعادتك اجراءاتى ، ان تعليماتى صريحة فى وجوب أن تجرى الانتخابات فى نزاهة وحيدة مطلقة من رجال البوليس · وذهل رمضان باشا وهو يسمع هذا الكلام ونظر الى فؤاد شذرا دون ان يعرف كيف يتصرف ، بينما قال رمزى بك لفؤاد :

ـ بمثلك ياحضرة الضابط تعتز الأمم ، اننى اشكرك على قيامك بواجبك ، وسأبلغ وزير الداخلية شكرى لموقفك · ثم ألقى رمزى بك نظرة احتقار على رمضان باشا ، وأدار له ظهره ودخل الى مقر اللجنة

وفى أثره هؤلاء الستة من المندوبين الذين جيء بهم مقبوضا عليهم ليصوتوا له كما وعد المأمور ان يفعل • ولم يسع رمضان باشا الا ان يسرع شاكيا للمأمور من تصرف فؤاد واحراجه له على رؤوس الاشهاد وهو يقسم ان يخرب بيت فؤاد •

وجاءت أخيرا ساعة فرز الأصوات فى ساعة مبكرة من الليل ، وكان رمضان باشا برجاله الذين دار بهم على اللجان ، قد استطاع أن يظل على قدم المساواة تقريبا مع رمزى بك الذى ظل متفوقا عليه ببضع أصوات ، فلما لم يبق من صناديق الانتخاب سوى صندوق حى معروف وهو الذى تصدى له فيه هذا الضابط الملعون ، فلم يمكنه من ادخال رجاله ، أيقن رمضان باشا بالسقوط المحقق ، فاسرع يخاطب معالى الوزير شاكيا له ماحدث وأنه اذا لم يتدارك الامر فقد أصبح سقوطه محتما ، وذلك بسبب تدخل ضابط قذر أحبط الخطة المدبرة فى آخر دقيقة • واستدعى المأمور من قاعة فرز الاصوات وحدث هرج ومرج ، ولكن عندما عاد رمضان باشا وهو شاحب الوجه الى قاعة الفرز كانوا قد فتحوا صندوق نقطة بوليس كوتسيكا الخاص بحى معروف ، وفوجيء رمضان باشا برمزى بك يحصل على سبعة عشر صوتا ، بينما حصل هو على مائة وعشرين صوتا • وهو اكتساح لم ينعم به فى لجنة أخرى • وعبثا كان رمزى بك يصرخ ويسب ويلعن ، ويصف مايجرى أمامه بأنه تزوير فاضح واجرام ، وأنه لابد ان يبطل هذه الانتخابات • وأظهر المأمور شديد أسفه وانزعاجه لهذه النتيجة غير المتوقعة ولكنه راح يذكر رمزى بك ، أن هذه هى اللجنة التى اختصها بالثناء عليها وعلى الضابط الذى يشرف عليها • وانفجر رمزى بك هادرا :

ـ لقد كانت هذه خطة جهنمية ومؤامرة قذرة لتنويمى وخداعى ، اقسم بالله العظيم غير حانث ان هذه الاصوات ليست سوى أوراق وضعت فى الصندوق فى آخر دقيقة • فقال له المأمور ان من حقه اثبات هذا القول فى المحضر ليكون محل تحقيق عند نظر الطعن •

ولكن رمزى بك كان قد ضاق بذلك الخــداع ذرعا فخرج من القسم مندفعا نحو قصر عابدين وهو يقسم بالله انه لابد أن يشكو لجــلالة الملك ، وان رئيس الحكومة قد خان العهد والميثاق ، وانه سـيخرب البلد وسيحولها الى فوضى ان لم يتدارك جلالة الملك الأمر بحــكمته ، وكلام غير ذلك كثير لم يعن أحد بتقصيه ، فقد كان كل من فى القسم من الضباط يهنىء بعضهم بعضا لنجاح رمضان باشا كمــا تقضى تعليمات وزير الداخلية ورئيس الحكومة ٠ وقد تعهد لهم رمضــان باشا بشرفه ، ان ترقيتهم التى وعدوا بها آتية لاريب فيهــا ٠ وكان اعجاب رمضان باشا بفؤاد شيئا لايكاد يوصف ، وظل يروى لأصحابه ولرئيس الحكومة نفسه عندما قابله كيف خدع هو نفسه بمظهر فؤاد فظنه عدوا له ودسيسة من حزب الاغلبية ، فى الوقت الذى كان يسرق له النصر من رمزى بك ٠

٥

على الرغم من أن خطوبة فوزى بآمال قد أصبحت رسمية فى الأوساط العائلية ، فقد ظلت الخطوبة تنقص علامتها المميزة وهى لبس دبل الخطوبة ، فقد رئى تأخير هذه العلامة الظاهرة أطول مدة ممكنة نظرا للظروف الخاصة التى كانت تكتنف طبيعة عمل آمال ، والخطر الذى يتهددها بفقدان هذه الوظيفة . ولكن الأقدار لم تلبث أن جعلت لبس الدبل أمرا لازما ، وضرورة لا محيص عنها، على الأقل من وجهة نظر فوزى ، فقد كان أشد ما يحرص عليه هو المحافظة على كرامة آمال ، وصيانة سمعتها من أن يخدشها قيل وقال . وكان الحادث الذى عجل بهذه الخطوة السعيدة فى تقدير فوزى ، هو أعظم رزء أصيبت به أسرة رياض كلها ، الا وهو وفاة أختهم الكبرى درة العائلة وموضع فخارها واعتزازها ، مفيدة الكرمانى، تلك التى رعت الجميع بعد وفاة والدها وواصلت مهمة والدها فى ان تجعل من عائلة الكرمانى طليعة الأسر المتعلمة المثقفة فى مصر .

ماتت مخلفة وراءها ابنتها الطفلة نادية ، بعد مرض أضناها وأضنى معها كل أفراد أسرتها باستثناء زوجها شوقى بك نصار .

وتركز ثقل الفجيعة لأمر ما ، فى شخص آمال فأصيبت بانهيـار عصبى، وأصبحت شاردة اللب لاتأكل أو تنام أو تتكلم، وأنذر الأطباء بأن حياتها فى خطر ، وأشاروا بوجوب تبديل الهواء والجو والبيئة ، ولو أمكن السفر الى خارج القطر فأن ذلك يكون أفضل وانجع للشـفاء .

وخفت فتحية صديقة آمال الوفية للنجدة ، فقد اقترحت أن تسـافر مع آمال الى لبنان ، على أن يصحبهما فوزى ، وكان لديها من المدخرات ما يقوم بنفقات الرحلة لثلاثتهم .

ولم يكن هناك مناص من تقبل الاقتراح باعتبـاره الحل الوحيد لانقاذ آمال على ما قرر الأطباء.وسرعان ما نفذ بالفعل، ولأول مرة احس فوزى بحكمة الدهور التى تقول ان مصائب قوم عند قوم فوائد ،وان المسرات والافراح تنبثق دائما من الأحزان والآلام : لقـد تمخضت رحلة لبنان عن فترة مترعة بالسعادة فى حياة أصحابنا الثـلاثة : آمال وفوزى وفتحية ، قلما صادفتهم فترة مثلها فى حياتهم الماضية.

حل المصيفون الثلاثة بطريق الصدفة البحتة فى بقعة من أجمل بقاع لبنان فى قرية تسمى المروج بالقرب من ضهور الشوير وعلى حافة غابة من غابات الصنوبر أطلق عليها اسم غاب بولون تيمنا بالاسم الفرنسى الشهير . ولم تحتج آمال لغير ثلاثة أيام فى هـذه البيئة الجديدة لكى تشرع فى استرداد صحتها والصعود من جـديد من حضيض الهاوية التى كانت قد اندفعت اليها بسرعة عجيبة .

ولم يمض أسبوع حتى بدأ أصحابنا يحسون كما لو كانوا يعيشون فى الجنة ما بين ظل ممدود وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة : عاشوا بين أحضان الطبيعة الأم الرؤوم ، بين أشجار الصنوبر وخرير المياه ، بين قمم الجبال وسفوح الوديان ، ووقفوا كل مساء معقودى اللسان مشدوهين ، والشمس تأخذ طريقها نحو

الأفق بعيدا بعيدا حتى المغيب فى أحشاء البحر ، وهى تغير اثواب الكون فى سرعة عجيبة ، ما بين حلل ذهبية وأخرى حمـراء قانية ، وثالثة بنفسجية ثم حمراء باهتة ، وهكذا تتتابع المشـاهد والألوان والصور ، وأصحابنا لايحيرون جوابا فقد كان الذى يرون فوق الكلام وفوق التعبير ، بل وفوق الشعور والاحساس . كانوا يقفون وقد نسوا كل شىء الا احساسهم بالوجود الذى هم فى صميمه ومن صميمه . وتغيب الشمس ويسكن الكون ، وتتسلل الكآبة الى النفس عقب المغيب ، ولكن سرعان ما يأتى المساء بجماله وسحره فالنجوم التى تبزغ ، والجو الذى يرق فوق رقة ويصفو ، والقمر الطالع ، كل ذلك يذكرهم أن كل غروب انما هو ميلاد شروق من نوع جديد ، فينطلقوا بين الربى والآكام طارحين كل القيود ، مرددين كل أنواع الأغانى والأناشيد ، لايحسبون حسابا لأحد ، فليس ثمة أحد سواهم فى هذه اللحظات ، ليس سوى الطبيعة وهم من دون العـالمين . ويظل ذلك شأنهم حتى يحين موعد عودتهم للفندق ليتناولوا طعام العشاء ، فيذكرون من جديد أنهم ما يزالون يعيشون فى الدنيا . وكانوا يغنون أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب معا وكأنها أصبحت أناشـيد ، وتتجاوب الأشـجار والغابات والمياه والسموات والأرض بهذه الأغانى ، ولم يكن فوزى يسمح فى ليلة من الليالى بالعودة الى الفندق ، قبل ان تغنيه آمال بالانجليزية أغنيته المحببة ، « من هذا الذى سرق قلبى » .

ومضت ايامهم كما لو لم تكن من العمر ، يتنقلون أحرارا طلقـاء بين مصايف لبنان من جبل صنين الشامخ بثلوجه ، حتى زحلة بينابيعها ونهيراتها ومن صوفر وعالية حتى دمشق الفيحاء ، بغوطتها وانهارها الجارية ومسجدها العتيد . ولقد تأثر فوزى بعمق هذه الوحدة بين البلاد العربية كما عاشها ومارسها فى هذه السفرة . لقد تناظر من قبل فى الوحدة العربية وأخذ جانبها على خلاف ما كان كل انسان يتصور ، ولقد نجح هذا الجانب من المناظرة ، ولكنه قال

ما قال ليلتئذ ترديدا لما يسمع من حين لآخر فى الخطب والأشعار والمقالات، ولما طالع فى كتب التاريخ والجغرافيا ، وتأثرا بدينه الاسلامى الذى كان أقوى عنصر يطبع حياته ويوجهها ، أما الآن فقد كان يستمتع بثمار هذه الوحدة القائمة فعلا بغير حاجة الى تبشير أو خطب ومحاضرات . لقد ركبوا القطار من محطة القاهرة كما لو كانوا يركبونه للاسكندرية ، وسار بهم القطار عبر مدن فلسطين وقراها كما لو كانوا يجتازون ريف مصر ، ولعل التغير الذى لاحظوه فى لهجة محدثيهم فى فلسطين ، هو دون التغير فى اللهجة الذى كانوا يحسونه لو أنهم ساروا بقطارهم الى الصعيد جنوبا بدلا من الاتجاه صوب الشمال ، ووجدوا فى طريقهم نفس المآكل ، نفس النقود ، نفس العادات والتقاليد ، نفس القلوب الطيبة الكريمة السمحة ، وفى بيروت ودمشق رأوا السيارات الخاصة وسيارات التاكسى وهى تنقل من يشاء الى حيث يشاء ، الى عمان أو الى القدس أو الى بغداد .

على ان أعظم ما استوقف أصحابنا فى رحلتهم وترك فى نفوسهم أثرا لا يقل عن أثر احساسهم بوحدة العالم العربى ، هو رقى القرية اللبنانية بحيث يصلح أى بيت فيها أن يكون مصيفا لأى عائلة مصرية مهما بلغ رقيها وغناها . وكثيرا ما استأجرت هذه الأسر بيوت فلاحين بسطاء للاقامة فيها خلال الصيف ، ذلك ان البيوت مبنية من الحجر الصلد والجو نظيف لاتراب فيه ، فكل شىء فى داخل البيت نظيف كأنظف ما يطمع فيه الانسان ، ولما كانت الطبيعة كما تتجلى من نوافذ اى كوخ من هذه الأكواخ ، هى هذه الطبيعة الجميلة الغناء فان كل ساكن فى أحد هذه البيوت ، يحس كما لو كان يعيش فى أعظم الحدائق وأكثرها فتنة .

وسألت آمال فوزى :

— لماذا هذا البون الشاسع بين القرية اللبنانية والقرية المصرية والتى تشكل فى حياة بلادنا نقطة الحزن والأسى على الرغم من كل

ما يقال من دعاوى التقدم والنهوض الذى يقال لنا أن لم يسبقه مثيل ، الى كم من الزمن ستظل قريتنا مبنية من الطين وماء الشرب بها ممزوجا بالطين ، وفلاحنا يمضى حيـــاته فى قاعة واحدة مع المواشى ؟ .

وتدخلت فتحية فى الحديث فقالت :

ـ انهم يعيبون علينا فى مصر أننا لا نكاد نتعلم ونسكن المدينة ، حتى ننسلخ عن الريف ونهجره وننسى كل من فيه ، بل ونتنكر لأهله فى اغلب الأحيان : وهذا حق ، ولكنى أعتقد ان الذنب ليس ذنبنا ، فالهوة بين ريف مصر ومدنها شىء لا أظن ان له مثيلا فى اى بلد متحضر . ففى المدينة الماء والكهرباء والطب والدواء والتعليم والسينمات والمسارح وكل مقومات المدنية بل وآخر صيحات المدنية أما ريفنا فانه يخلو من أبسط مطالب الحيـــاة ، من الماء الصـــالح للشرب ، من بيت يصلح لايواء انسان . ولم يستطع فوزى أن يرد على هذا الذى قيل وأحس أنه غارق لأول مرة فى صميم مشــكلة لاتجدى فيها شقشقةاللسان، ولذلكفقد رحبكل الترحيب بعودة آمال الى الكلام وقد تملكتها الحماسة :

ـ لو كانت القرية المصرية كهذه القرية اللبنانية ، لأصبح ذهابنا الى الريف متعة من أجمل المتع . ان أحب شىء الى الانجليز والينا عندما كنا فى انجلترا هو قضاء فترة من الوقت فى الريف . ولقد كنت أتصور أن ذلك أمر خاص بانجلترا باعتبارها أرقى بلاد العالم، ولكن هأنذا أرى الريف اللبنانى يذكرنى بجمال الحيـــاة فى الريف الانجليزى بين أحضان الطبيعة ، وقد تحولت القرى الى مصايف. والتفتت الفتاتان نحو فوزى وقد بدا يلفت نظرهما أنه كان ساكتا لم يتكلم على خلاف العادة . والحق أن فوزى كان فى دوامة تحت وطأة هذه الملاحظات التى كانت تؤرقة هو شخصيا وتحز فى نفسه حزا ، منذ اللحظة الأولى التى طالعتهم فيها البلاد العربية بهــذا المستوى الارقى من حيث الحياة والنظافة والذى وصل القمة فى

لبنان . مستحيل ان يكون الشعب اللبنانى فى مجموعه ارقى من الشعب المصرى فى مجموعه بما يساوى هذا الفارق الضخم بين القرية المصرية والقرية اللبنانية فالشعبان من أرومة واحدة ويعيشان فى ظل ظروف اجتماعية واحدة ، فما هو السر اذن فى هذا الخلاف الذى يبدو للوهلة الأولى تباينا ؟ ولأول مرة فى حياته وجد فوزى نفسه يحاول أن يغوص الى أعماق مشكلة غير مكتف بأن يقول كلاما عابرا أو ملاحظات سطحية ، على أنه لم يلبث أن قال لصاحبتيه :

ــ الا تلاحظون أن الفلاح اللبنانى اذا أراد ان يبنى لنفسه بيتا، فليس أمامه الا هذا الجبل لينحت فيه بيته ، أو ليقتطع من أحجاره ما يبنى به البيت ؟ والحجر بطبيعته نظيف ، ولعلكم ترون الجو هنا نظيفا الى أبعد الحدود فاجسامنا تظل نظيفة وملابسنا لا تتسخ . والآن قارنوا ذلك بموقف الفلاح المصرى فليست أمامه مادة يبنى بها بيته سوى الطين . ولو أراد ان يبنى بيته من الحجر لما استطاع الى ذلك سبيلا ، فالدلتا فى حقيقة تكوينها ليست سوى بركة من الطين المترسب ، فلا فضل للفلاح اللبنانى اذا هو بنى بيته من الحجر ، ولا منقصة للفلاح المصرى اذا هو بنى بيته من الطين ، فذلك حكم البيئة التى تفرض نفسها على الانسان فرضا . فقالت آمال مقاطعة اياه :

ــ ومهمة الانسان الحى أن يتغلب على صعوبات بيئته وان يقاومها ويتحرر منها ، والا كان مؤدى هذا الذى تقول ، انه قد كتب على فلاحينا أن يعيشوا فى الطين الى الأبد ، وان تظل القرية المصرية هى نقطة الأسى والعار فى بلادنا ؟ .

فقال فوزى :

ــ لم اقصد الى شىء من ذلك ، وانما أردت فقط أن أبين لكم حقيقة المشـــكلة ، وان أضيق من هذا الفارق بين الفلاح المصرى والفلاح اللبنانى ، وأعتقد انه ما لم نمد فلاحنا بماء صالح للشرب وخال من الطين فسيظل يشرب طينا ويستحم بالطين ويغســـل

ملابسه فى ماء كالوحل ، وخاصة اذا تذكرنا كم هو فقير ومحروم من نعمة التعليم ، ومالم تهيىء الدولة للفلاح مادة أحسن من الطين ليبنى بها بيته ، وتجعلها فى متناول يده بأرخص من الطين ، فسيظل يبنى بيته من الطين وهكذا : واسرعت آمال تقول :

— أخشى ان يكون ما قلته فى بادىء الأمر هو الصحيح ، وانه سيستحيل علينا أن نرى القرية المصرية فى مثل هـذا المسـتوى للقرية اللبنانية ، بل كهـذه القرى الفلسطينية التى زرناها .

وقال فوزى :

— لا مستحيل على الأرض ، أنهم ينسبون هذا القول لنابليون ولست أعرف اهو قائله أم لا ، ولكنى أتصور أنه قول حق ، فحيث توجد الارادة ويعقد الانسان — أى انسان — العزم على ان يحقق شيئا فلابد أن يحققه . أليسوا يقولون فى الانجليزية التى تحذقينها: حيث توجد الارادة يوجد الطريق ؟ .

وقالت فتحية :

نحن فى حاجة الى مائة سنة . ورد فوزى عليها .

— بل نحن فى حاجة الى اخلاص وصدق .

٦

لم يعد اصحابنا من لبنان الا وقد استردت آمال كل صـحتها ، وعادت كما كانت مرحة طروبا ، تقفز وتثب فى سيرها كما لو كانت فراشة ، وتختال كما لو كانت طاووسا . وزاد وزن فتحية ، ولم تر فى ذلك حرجا ، بل لقد وجدت فى ذلك علائم الصحة بطبيعتهـا المصرية الأصيلة . أما فوزى فقد كانت السعادة التى افعمت نفسـه والنشوة التى تملكته فى ربى لبنان وفى أحضان الطبيعة شيئا لا عهد له به من قبل ، الا أن تكون رحلتـه الى باريس ، وهذه الرحـلة القصيرة من قبل بين اطلال الكرنك ووادى الملوك وخزان اسوان. واختلطت ذكريات هـذه الرحلات الثلاث وتفاعلت فى نفسـه فى

غموض ، وغمره احساس خفى ان روحه حبلى بشىء خفى لا يعرف ما هو ، وأنه يوشك ان يعانى مخاضا من نوع ما .

على ان هذا الشعور لم يلبث ان تبدد بمجرد وصوله الى القاهرة ، وسط حرارة الاستقبال الذى استقبلوا به من الأسر والمعارف والأصدقاء . لقد كان تأثير هذه الأسابيع الستة التى امضوها فى لبنان على الذين لم يسافروا لا يقل عن تأثيرها فى الذين سافروا : فالأسرة التى تصورت يوما أن حياتها قد آذنت بالزوال بعد وفاة عميدتها الكبرى ، قد عادت تنبض بالحياة والحيوية كأشد مانبضت فى أى يوم من الأيام . وهؤلاء الذين تحدثوا فى حزنهم عن سخافة الحياة وتمنوا الانتحار ، قد أصبحوا أشد حرصا على الحياة من أى يوم مضى . الذين لطموا الخدود وشقوا الجيوب وأعلنوا انهم يستحبون العمى على النور ، عادت أعينهم تسطع بالنور وتلمع كما لم تلمع من قبل ، وسرت دماء العافية فى الشرايين فاكسبت الوجوه أشراقا وصحة وبهاء . والأسرة التى امتازت كلها وانفردت من بين عديد الأسر بالمرح والطرب والنزعة للانطلاق ، لم تستطع ان تتغلب على طبيعتها ، فضربت عرض الحائط بكل تقاليد الحزن البالية التى تمد فى الأحزان رياء وأدعاء ، وتطيل فى أيامها منذ أيام الفراعنة ، فلم تكد الأربعون تنتهى ، حتى عادت الأسرة بكل افرادها الى ما الفته من ادارة (للجرامافون) ، والشدو بالأغانى والتردد على السنمات . وكأن فاجعة الموت قد ضاعفت فى نفوسهم حب الحياة والأقبال عليها . ولم يكره فوزى هذا التغيير الذى اعترى الأسرة كما لم يكره التغيير الذى طرأ على آمال ، وقد انتقلت من الأنهيار العصبى الى استمتاع بالحياة ، بل لعل ما كان يربطه بهذه الأسرة ، هو تمردها على التقاليد ، واقبالها على الحياة فى صراحة واستقامة بعيدا عن كل نفاق . وأدرك فوزى ان تيار الحياة هو الأصل المتدفق وهو الأقوى والأبقى والأخلد ، هو الحقيقة الوحيدة

التى تأخذ العديد من الصور والأشكال . ومن يدرى فقد يكون الموت نفسه هو أحد صور الحياة .

وكانت المشكلة الوحيدة التى أحس فوزى بوجدانه انها تفرض نفسها وسط هذا الجو الجميل ، هى مشكلة رحلته مع آمال ، فمن المستحيل اخفاء مثل هذا العمل الضخم عن اسماع الناس ،ولابد أن ستحاك الأقوال والقصص والحكايات حول مادار بينه وبين آمال . ولم تكن آمال هذه المرة أقل احساسا منه بخطورة هذه المشكلة والتى لم يكن لها حل ، الا ان يخطوا الخطوة التى أخروها حتى الآن ، وهو ان تعلن الخطبة رسميا على رؤوس الاشهاد ، وأن يلبس فوزى آمال الدبلة وتلبسه الدبلة ، فى حفلة تعد خصيصا لذلك . ولم يجد فوزى أى صعوبة فى اقناع أسرة رياض بهذه الخطوة ، فقد كانوا جميعا يرحبون بجرعة من المسرات الرسمية ، لتعيد التوازن بعد هذه الجرعة الضخمة من الأحزان . ولم يدع الى الحفل سوى أفراد أسرة رياض ولم يكونوا على كل حال بالعدد القليل : وكانت فتحية هى الشخص الوحيد الذى شهد الحفلة من غير أفراد الأسرة من جانب آمال التى كانت لاتزال حريصة على ان تبقى الموضوع فى أضيق نطاق . واشترك من جانب فوزى أصدقاؤه الثلاثة محيى وفكرى وخالد أمين ، ولم يشأ فوزى ان يزعج والده أو زوجه بالدعوة لهذا الاحتفال ، فقد كان يعرف أن أباه — وان لم يقل له — غير راض عن السير فى هذا الطريق ، وكثيرا ما كان يتساءل من ورائه ، مالذى يعجبه فى آمال ؟ واقبل الحاضرون الى الحفل الصغير يلتهمون أكداس الجاتوة والشطائر والفطائر التى ساهم فوزى مع آمال وفتحية فى شراء بعضها وصنع البعض الآخر . وكان ما يعنى فوزى من ذلك كله هو أنه ألبس آمال الدبلة وألبستة الدبلة وقبلها كما يحدث فى السينما أمام الجميع باعتبارها خطيبته .

وكان يمكن ان تمضى الليلة لطيفة خالية من أى انفعال أو شىء

يستوقف النظر ، فقد كان جميع من فى الحفلة لا يرون فيها جديداً فلم تكن تزيد عن مجرد كتابة شهادة ميلاد لمولود قد ولد بالفعل من قبل وأخذ مكانه فى الوجود . ولكن أحد الأفراد الذين دعوا الى الحفلة على دهشة من فوزى وعجب ، أبى الا أن يضفى على الحفلة الخاملة نوعا من الحيوية والانفعال ، وان يفتح المجال لعديد من المواقف المتناقضة وعلامات الاستفهام ، وكان هذا المدعو هو شوقى بك نصار زوج المرحومة مفيدة ، وقد كانت دعوته مثار دهشــــة فوزى فقد كان يتصور ان هذا هو آخر انسان يمكن ان يدعى لمثل هــذا الحفل . لقد كانت الأسرة كلها تصب عليه جام اللعنات أثناء مرض مفيدة ، ووصفوه بكل الموبقات ، ووصلوا الى حد اتهامه بأنه السبب فى موت فقيدتهم الغالية . وكانت آمال قبل انهيار أعصابها خلال مرض أختها الطويل أشد الناس نكيرا عليه .

كان هذا هو شوقى بك نصار الذى تصــور أن من واجبه باعتباره أكبر الموجودين سنا ، أن يتولى ازجاء التهنئة الى الخطيبين ، وراح يثنى عــلى آمال ويتحدث عن نضجها وكمال شخصيتها ، وكيف أنها صورة من أختها الراحلة . وتمنى لها كل نجاح وتوفيق سواء فى حياتها الخاصة أو العامة . وعرج شوقى بك على فوزى فأشار الى أنه لم يتشرف شخصيا بالتعرف عليه قبل هذه الليلة ، ولكنه سمع الكثير من الثناء عليه ، وعما ينتظره من مستقبل كريم أن شاء الله ، وختم الخطيب المتبرع خطبته اللطيفة بالدعاء للخطيبين بالتوفيق . وكانت آمال أشد الجميع تأثرا بخطاب شوقى بك الذى لم تكن تتصور أنه منتبه الى فضائلها وامتيازها كل هــذا الانتباه ، ولذلك فلم يكد يفرغ من كلمته ، حتى اندفعت اليه والدموع فى مآقيها من فرط التأثر وراحت تشــد على يده فى حرارة لتعبر له عن شكرها . ولم يتمالك شوقى بك نفسه وقد غلبته روح الابوة الا أن يقبل آمال فى جبهتها فى حنان ، ولم يجد فوزى ما يشــكو منه فقد نال بدوره مثل هذه القبلة الأبوية على جبهته .

ولم ينته الحفل ويتفرق المشتركون فيه ، الا بعد ان صفى كل خلاف بين الأسرة وبين شوقى بك على المسائل المالية التى ترتبت على وفاة المرحومة مفيدة ، فاستقر الرأى على أن يتنازل الجميع عن نصيبهم من ميراث المرحومة لابنتها نادية ، وان يعهد بنادية الى حضانة خالتها آمال ، على أن يدفع الأب فى مقابل ذلك مبلغا محترما ، وقد قبل شوقى بك ذلك كله ، مرضاة لآمال فقد كان يستحيل عليه ، على ما قال ، أن يجد لابنته حاضنة أو مربية تفضلها ، كيف لا وهى صورة طبق الأصل من اختها المرحومة .

٧

نزل فؤاد من سيارة الأجرة التى اقلته الى سراى رمضان باشا خيرى فى الزمالك ، فاذا به يفاجأ بها شعلة تتوهج وتحيل الميدان الذى تقع عليه الى نهار ساطع : وكانت اصوات الموسيقى تنفذ الى خارج الدار فتختلط بأصوات السيارات الدائبة الحركة امام السراى والمنادون والخدم والسعاة والحجاب والسائقون يتحلقون فى حلقات بجوار البيت وفى طول الميدان وعرضه يتحدثون ويعلقون على انباء سادتهم الذين اوصلوهم للاحتفال بنجاة رمضان باشا خيرى من القنبلة التى اكتشفت على سور قصره وكان هناك حشد فى ناحية من السور واحد العساكر يشير بيديه لمن حوله على مكان معين . واستنتج فؤاد ان ذلك لابد أن يكون حيث عثروا على القنبلة . وخرج من القصر سرب من الخدم النوبيين يحملون صوانى عليها أكواب من الشراب المختلف الألوان ، ما بين اصفر واحمر وبنفسجى ، ولم يحتج من فى الميدان على كثرتهم الى ان يتكأكأوا وينقضوا على الشراب ، فقد كانت الكميات وافرة . وكان من الواضح أن هذه ليست أول مرة يطوف فيها السفرجية حاملين هذه الأكواب . وسرى شعور بالغبطة فى نفس فؤاد لهذا المظهر الذى استقبله فى عمله الجديد ، فقد عهد الى فؤاد بحراسة

رمضان باشا خيرى عقب اكتشاف هذه القنبلة . وقد هنا الكثيرون فؤاد على هذه الحظوة فقد كان رمضـــــان باشا هو الذى اختــــاره بنفسه من بين ضباط مصر كلها ، لأنه لم ينس براعته ابان معركة الانتخابات ، ولما كان رمضان باشا قد أصبح مديرا لحزب الحكومة وصديقا لرئيسها ، فقد كانت حراسته أعظم شرف يمكن أن يطمع فيه ضابط من الضباط ٠

وأعاد فؤاد عملية التفتيش على ملابسه وهيئته ، لقد كانت أزهار قد ألبسته حلته الجديدة التى فصلها عقب ترقيتـه الى الملازم أول ، وعملت بهمة كما هى عادتها فى تلميع الزراير والنجوم حتى تحولت كلها الى شعلة مضيئة تحت انعكاس الأنوار واطرق فؤاد بنظره نحو الحذاء مستطلعا خبره ، فقد كان هو الذى مافتئت أزهار تحذره من أن يتسخ ولذلك أصرت على ضرورة ان يستعمل سيارة أجرة ، ليبقى الحذاء نظيفا ولامعا كما أعدته ٠ وارتفعت يده ، بحركة تلقائية الى طربوشه تتحسس وضعه وانه يميل بالزاوية القانونية ٠ وانتهى فؤاد من رحلته التفتيشية آمنا مطمئنا الى أنه على خير مايرام . ولم يبق الا أن يشد قوامه ويرفع رأسه ويشيع البهجة فى وجهة ، ويدخل لمقابلة الباشا الخطير الذى حدد له هذه الساعة لمقابلته ٠ وسار فؤاد بخطى عسكرية نحو باب القصر ، وقد كان جسمه الرياضى لايزال يروع الناظر اليه رغم البدانة الخفيفة التى بدأت تطرأ عليـه ، تحت تأثير الهناء الذى أصبح يعيش فيه ، وأكسير النجاح العجيب الذى نقله من كونستابل الى ملازم أول فى بضعة عشر شهرا : ولم يكد العسكرى المخصص من الأصل لحراسة القصر يراه حتى توقف عن شرب كوب الشربات الذى كان فى يده وناوله لأقرب انسان اليه ، وحيا الضابط فى سرعة ولهفة ، وهو يبتسم ابتسامة اعتذار لشربه الشربات ، فلا شك ان حضرة الضابط خير من يقدر المناســـبة السعيدة التى تستوجب شرب شربات . وسأله فؤاد بطريقة آلية عما اذا كان معالى الباشا فى الداخل ، فأجاب بعد أن دق الأرض

يقدمه اظهارا للهمة والنشاط ، وتكفيرا عن ضبطه متلبسا أثنــاء العمل بشرب الشربات :

ـ جوه يا أفندم ، ودولة رئيس الحكومة كان هناوانصرف منذ قليل ، يا أفندم ٠

وصعد فؤاد درجات السلم الرخامية ، وكان من الواضح أنه قد مضى على الحفل مذ بدأ زمن طويل فقد كان باب القصر مغلقا ، والنور يسطع من خلال زجاجه ، وأصوات الموسيقى قد كفت عن العزف . ودق فؤاد الجرس فانفتح الباب على الفور وظهر على عتبته خادم يرتدى زى الشماشرجية فقال له فؤاد :

ـ أنا الملازم أول فؤاد عبد السميع ، جئت بناء على تكليف من وزارة الداخلية لمقابلة معالى الباشا . فرد عليه الخادم النوبى بعد أن رحب به قائلا ، أن معالى الباشا قد سأل عنه أكثر من مرة ، وعمــا اذا كان قد حضر ، وأحس فؤاد بالزهو أن يكون قد أصبح مهما الى هذه الدرجة ، ونفذ الى داخل البهو فأعشى الضوء بصره للوهــــلة الأولى ، ولكنه لم يلبث ان أعتاد الضوء الشديد ، وذهب عنه الروع الذى صدمه فى بادىء الأمر ، فوجد نفسه غارقا وسط طوفان من الجاه والثروة والجمال وكل مظاهر السعادة : كان هناك حشد من عليه القوم مصريين وأجانب رجالا ونساء ، وهم جميعا بملابس السهرة. ولم يكد المقام يستقر به حتى استأنف الاوركستر عزفه ، وتحول وسط البهو الى حلبة رقص وقد تزامل كل زوجين ووقفت البقية تحيط بالحلبة بغير رقص . وعرض الشماشرجى عــلى فؤاد أن يجلس على أحد الكراسى ريثما يحضر له ما يعن له من مشروبات ، وسأله اذا كان يؤثر الويسكى أم الشمبانيا ، ولكن فؤاد اعتذر عن قبول شىء فى هذه المرحلة ، فقد كان يجب أن يقابل رمضان باشا وهو فى كامل وعيه خصوصا وهو يقوم الآن بعمل رسمى ، ولذلك فقد شكر الشماشرجى ، وقال له أنه سيفعل ذلك فيما بعد ٠

وجلس فؤاد على اقرب مقعد خال وراح يراقب ما يجرى حــوله

وهو فى شدة الانبهار من هذا الذى يحيط به : كانت هـذه أول مرة يشهد فيها حفلا ساهرا على هذا المستوى الرفيع، ولذلك فقد ظل زائغ البصر لايكاد يستوقفه ظهر فاتن لاحدى السيدات ، ويعجب الى أى حد تريد أن تكشف من جسمها ، حتى يخطف بصره عقد من اللؤلؤ أو من الماس على نحر سيدة اخرى • وينشـــغل بمحاسن الفـــاتنة الجديدة والعقد يكاد يلتهم قطعة من نحرها ، بينما يتمنى فؤاد لو التهم العقد والسيدة معا . على أنه لايلبث أن يرى أحد الوزراء المشهورين فيعود الى واقعه ويعتدل فى جلســــته ولا يذكر الا أنه ضابط قد جاء الى هذا المكان فى مهمة رسمية • ولكن الوزير الخطير سرعان مايرده الى جو الحفلة وما فيه من تحرر ، اذ يرى الوزير وهو يتمايل طربا على نغمات الموسيقى وقد تأبط تحت ذراعه غادة هيفاء • وساد المكان على حين فجـــأة هرج ومرج ثم اخلى وســـط البهو من الراقصين ، ولم تلبث أن برزت من بين الحشد ، وكأن الأرض قد انشقت عنها ، حورية من حوريات الجنة ، فلابد أنهن على هذه الصورة والشاكلة ، أو هكذا بدأ الأمر لفؤاد فى هـــذه اللحظة . وقد استقبلت الحورية من الجميع بتصفيق حاد ، ثم راحت تهز جسدها هزا عنيفا على نغمات الموسيقى التى بدأت تشتد وتعنف ، وتذكر فؤاد هذه الرقصة الجديدة التى يتحدثون عنها ويسمونها الشارلستون ، فلا بد أن تكون هى هذه الرقصة التى لم يشهد لها مثيلا فى عنفها من قبل . وأن هو ألا بعض الوقت حتى نزل الى الحلبة راقص آخر صفق له الحاضرون أشـــد من تصفيقهم للراقصة الفاتنة التى سبقته .

وعلى الرغم من أن هذا الراقص الجديد قد أثار فى نفس فؤاد فى بادىء الأمر شيئا من السخرية لبـــدانته ، الا أنه لم يلبث ان استولى على اعجابه لخفة حركته وقدرته على تحريك جسمه بسرعة تشبه سرعة زميلته ، ثم راح يحرك نصفه الأســـفل فى حركات لولبية متناسقة مع تحركات شريكته ، وأمســـك الراقص يدى



الراقصة ودخلت رقصتهما فى مرحلة عنيفة ذكرت فؤاد بحركات مبيض النحاس ، وبدأت حركات الفتـــاة الحورية تفيض خلاعة ودلالا وبدأ لعاب فؤاد يسيل على هذه الفاتنة التى أصبحت تمثل أمامه قطعة من القشـــدة التى لا يستطيع الانسان الا أن يلتهمها التهاما . كان شعرها ذهبيا أصفر وقد صففته حول رأسها ووجهها كما لو كان نيرانا تتقد اتقادا . وكان وجهها الأبيض يكاد يحجب ضوءه كل ما فى القصر من أضواء . واذهلته عينـــاها الخضراوان وفمها القرمزى وفتنه جسدها الرشيق . وظلت فكرة الحورية تتردد فى ذهنه فقد وصفت الحوريات بأنهن الياقوت والمرجان ، وقد كانت هذه الراقصة كأنها قدت من ياقوت ومرجان وقشدة وعسل مصفى من غير شك . وشعر فؤاد بيد توضع على كتفه ، وانتفض من هول المفاجأة وأحس كما لو كان قد ضـــبط متلبســـا بجريمة فعل علنى فاضح . ولكن الروع ذهب عنه بعض الشىء عندما سمع صوت رمضان باشا يرحب به ، فقد كان هو الذى وضع يده على كتفه . وبذل فؤاد جهدا كبيرا ليمنع نفسه عن الضحك وهو يفاجأ بمنظر رمضان باشا فى ملابس السهرة وقد زاد كرشه بروزا وتكورا ، ورأسه اهتزازا وشاربه ضخامة . ولكن الفرحة التى كانت تشيع فى وجه رمضان باشا لرؤية فؤاد أنسته كل شىء الا أن هذا الباشا رجل طيب رغم غناه الطائل ومنظره الباعث على الرثاء .

وقال الباشا الطيب :

ـ لقد ضبطتك وانت غارق فى الأعجاب بفيفى وهى ترقص الشارلستون ، ولست ألومك فهى تبهر كل من يراها فى هـــذه الرقصة وخاصـــة مع محسن بك ، أنك تعرف طبعا محسن بك ابن رئيس الحكومة ؟ وبهت فؤاد لهذا السؤال المفاجىء ، فهو لم يكن يتخيل أن هذا المشعوذ الذى كان يتلوى أمامه كما لو كان مبيض نحـاس هو ابن رئيس الحكومة الذى ملأ البلاد رعبا .

وحار بالأكثر من تكون فيفى هذه التى يتحدث عنها رمضان باشا بهذا الأسلوب ، ووفر عليه رمضان باشا عناء الاجابة فقد مضى يقول له :

ـ ألم يخبروك أننى طلبتك بالاسم لتتولى حراستى أنا وابنتى؟ لقد طلبت منهم ان يبلغوك ذلك ، سوف نتكلم طويلا فيما يجب عمله، أما الآن فيجب ان تأخذ حظك من هذه الحفلة ابتهاجا بنجاتنا . وهنا فقط تذكر فؤاد الذى كان فى دوامة أنه لم يهنىء سعادة الباشا بنجاته من هذا الحادث المكدر ، فهنأه وتعهد له أنه لن يتكرر أبدا أن شاء الله . وربت رمضان باشا على كتفه وقال له :

ـ لست أشك لحظة فى ذلك ، وقد اخترتك وأنا واثق انك اكفأ من عرفت من رجال البوليس أما الآن فعليك ان تعتبر نفسك أحد الضيوف ، وان تأخذ بحظك من الطعام والشراب والمرح . وسأله اذا كان قد شرب شيئا ، فاجابه فؤاد بأن الخادم عرض عليه ، ولكنه لم يكن يسمح لنفسه أن يشرب وهو فى عمل رسمى فضلا عن أنه جاء ليتشرف بمقابلة معالى الباشا . وجره الباشا من يده الى بوفيه فى احدى حجرات القصر . وأوشك فؤاد ان يصعق من منظر البوفيه وما تكدس فوقه من اكوام من المأكولات الفاخرة الشهية ، ما بين ديوك رومية وخراف محشوة ، ولحوم مشوية وأخرى باردة ، وعشرات من أصناف لم تقع عليها عينه من قبل ، ولم يكن يعرف أهى حلوة أو مالحة . وكان كل شيء يبدو له كثيرا حتى يتصوره بالأطنان ، واذهله بالأكثر ان كل شيء يبدو كما لو لم تمتد له يد انسان مع ان البوفيه كان يستقبل رواده من غير شك منذ ساعات . وكان يقف خلف موائد البوفيه خدم يرتدون الملابس المزركشة ، ويخفون لمساعدة كل وافد الى البوفيه حتى لا يجشمونه عناء التعب لغرف ما يحتاجه أو تقطيعه ، وما عليه سوى أن يختار مالذ له وطاب كى يراه جاهزا ومعدا للالتهام :

وطافت فى رأس فؤاد صور البؤس والقحط والاملاق التى

شاهدها منــذ أســبوع فى قريته ، عنــدما استغاثت به والدته لأول مرة واستغاث به عمه وجميع افراد اسرته ، ليتدخل بجـــاهه ونفوذه ليؤخر الحجز عليهم من أجل الأموال الأميرية . كانت حياة البوليس قد أخمدت عواطف فؤاد فتحجر قلبه ولم تعد تستخفه المؤثرات ، وكان قد جف فى نفسه كل تفكير فيما يعانيه النـــاس أو بالأحرى السواد الأعظم منهم من بؤس وشقاء ، ومع ذلك فلم يتمالك نفسه أمام مظاهر البذخ التى صـــادفته مذ وطئت أقدامه عتبة هذا المكان ، والتى تجلت الآن فى الذروة أمام هـــذا البوفيه ، الا ان يعقد المقارنة بين موقفه هذا ، وموقفـــه منذ اسبوع فى قرية الزاوية حيث تعيش أمه وأخته وأسرته ، وحيث بيع القطن بأقل من عشرة ريالات ولم يجد الفلاحون ما يلبسونه أو يقتاتون به فضلا عن ان يسددوا ما هو مستحق عليهم . وقطع عليه رمضان باشا تأملاته التى ومضت فى رأسه قائلا :

ــ والآن اريد أن تثبت لى همتك يا بطل فتنسف ما على البوفيه من أطعمة . قال ذلك واستغرق فى الضحك وأمر لفؤاد بكأس من الويسكى كفاتح للشهية وناوله الكأس بيده وهو يقول :

ــ اشرب وأمرح يابنى ، واستغل كل لحظة من شبابك ، قبل ان تصبح شيخا مثلى فريسة للأطبـــاء يحاصرونك ويحظرون عليك كل متع الحيـــاة ، ويحولونها بذلك الى مجموعة من الحسرات واللهفات ، ويفقدونك الايمان بها . وتناول فؤاد الكأس بعد أن أهوى على يد معالى الباشا مقبلا وشاكرا هذا العطف . ونسى كل شيء عن هذه الخواطر العابرة التى جالت فى نفســـه ، واسرع فافرغ الكأس فى جوفه ولكنه قبل ان يرفعها عن فمه فوجئ بالحـــورية الراقصة والتى اسماها الباشا فيفى وهى تجىء حتى تصبح على بعد خطوتين منه وهى تقول :

ــ ادريس : أدريس الحقنى بكأس شمبانيا فانى أكاد أموت من الظمأ .

وأسكر صوتها الموسيقى فؤاد وجعله يرتعش ، ويعجب لهـذه الطبيعة التى اذا أعطت اسرفت فى عطائها ، فقد كان فى حيرة من أمر هـذه الحورية ، أى شىء فيها اجمـل ، شعرها أم وجهها أم قوامها أو رقصها والآن صوتها . وناداها رمضان باشا :

ـ فيفى ، تعـالى اعرفك بالملازم أول فؤاد عبد السميع الذى سيكون رئيسا للحرس الخـاص بنا : ورفعت فيفى حواجبها فى فتور وتثاقل ، وحدجت فؤاد بنظرة فاحصة متطلعة من عينيها الجميلتين ، وخفق قلب فؤاد وكاد يذوب ذوبانا وهى تمد يدها اليه فى تثاقل وتقول بالفرنسية « تشرفنا » وحار فؤاد ماذا يفعل باليد الممدودة له ولم يتصور بادىء ذى بدء ان يمسك بها ليصافحها خوفا عليها من أن يخلعها ، ولذلك فقد وجد نفسه يمسـك باطرافها وينحنى عليها مقبلا كما لو كان يقبل معبودا فى خشية واجلال ، بينما كان رمضان باشا يقول :

ـ ابنتى فيفى . وضـحك الباشـا واهتز كرشـه ثم قال : أو بلغة البوليس ميرفت رمضان خيرى ، خطيبة ابن رئيس الحكومة محسن بك .

٨

ارقت ازهار لأول مرة الى جوار فؤاد ونال منها السهاد ، لقد قص عليها فؤاد كل ما جرى فى مقابلته لرمضـان باشـا ، وكيف فوجىء بالحفلة المقامة ابتهاجا بنجاته من حادث القنبلة ، ولم يدع بعد ذلك شيئا من التفاصيل لم يقصها عليها فى دقة وامانة شأنه دائما معها ،حتى ارتباكه عندما مدت اليه ميرفت يدها لتصافحه،وحيرته فيما يفعل بهذه اليد الممدودة وكيف انتهى به الأمر الى تقبيلها بدون وعى ، وخشى أن يكون قد ارتكب فضيحة أو أمرا شائنا ، فاذا بهذا الأجراء الذى قام به هو الأمر الواجب فى مثل هذه الظروف فقد رأى الجميع يفعلون مثل ذلك . ولم يفت أزهار ولا هو غاب عن غريزتها

كأنثى وعاشقة لرجلها مقدار الأثر العميق الذى احـــدثته ميرفت فى نفس فؤاد ، وكيف كانت عيناه تلمع وهو يصف لها شكل ميرفت العجيب ، ويصفها بأنها لا يمكن أن تكون انسانة من دم ولحم فهى اما أن تكون حورية أو جنية أو من عرائس البحر . ولم يخفف من قلق ازهار أو انزعاجها ، أن فؤاد كان يتكلم عن ميرفت ويصفها بهذه الأوصاف كما يتحدث الانســان عن النجوم أو الاساطير والأشياء البعيدة المنال ، التى لا يفكر فيها الانسان كشىء يتصل به ، أو يمكن ان تكون له به علاقة علىأى وجه منالوجوه . بل ولم تكن اشارته لخطبة ميرفت بابن رئيس الحكومة الذى تنخلع القلوب لذكره ، أى أثر فى تهدئة ماملأ نفسها من هواجس ، فالمرأة هى المرأة والرجل هو الرجل ، انهما فى حساب الطبيعة مجرد ذكر وانثى . ذلك شىء تعرفه أزهار ليس فقط بغريزتها بل بتجاربها الخاصة . وأحست لأول مرة بلذعة الغيرة الحارقة ، وعبثا حاولت أن تبعد أو تقاوم هذا الشعور الذى طغى عليها ، شعور الخوف من هذه المخلوقة الجديدة التى طرأت فى حياتها مع فؤاد ، وهكذا ظلت طول الليل مسهدة مؤرقة ، فلما لاحظ فؤاد عليها فى الصباح انها متوعكة ذابلة يسألها اذا كانت تحس ألما أو تشكو شيئا ، فأجابته مصطنعة آخر ماعندها من بشاشة :

ـ لا تشغل نفسك ، فانما هى أمور النساء .

الفصل الثالث

١

كان قد مضى على اجتماع مجلس ادارة حزب الأغلبية تحت ادارة رئيسه الزعيم الخطير أكثر من ساعتين قبل ان تصل المناقشات الى ذروتها ، وكان قد تجمع خارج حجرة الاجتماع حشد من انصار الحزب ، ولجنة الطلبة التنفيذية التابعة للحزب، ونفر من مندوبى الصحف .

كان هذا الاجتماع يعتبر من اخطر اجتماعات الحزب فى الآونة الأخيرة ، وقد مهدت صحف الحزب منذ أيام مضت لابراز خطورة القرارات التى ستتخذ فى هذا الاجتماع، وبشرت الأمة أن الحزب قد انتوى ان يضع حلولا ايجابية لحل كل ما تشكو منه البلاد ليس فقط بالنسبة لأزمتها السياسية التى طالت وتعقدت وأوشكت ان تستقر بعد ان اجتمع مجلس النواب الجديد أكثر من دورة ، بل ان القرارات والحلول التى ستبحث ، ستتناول أزمة البلاد الاقتصادية التى هوت بالبلاد الى الحضيض وتجرع الشعب منها الغصص . وكان مما تردد عن الخطط التى قد توضع فى هذا الاجتماع ، أن الحزب الكبير قد يعمد الى الاستعانة بشبكة لجانه المنتشرة فى انحاء البلاد لتأليف جمعيات تعاونية تساعد الفلاحين الصغار على مواجهة التزاماتهم بعد ان ظهر أن بنك التسليف الذى انشأته الحكومة قد اتخذ اداة سياسية فى يد الحكومة لخدمة انصارها . وكان هذا بالفعل هو ما استغرق معظم المناقشات التى دارت فى الجلسة حتى الآن . ولم يكن الرئيس راضيا عن تفرع المناقشات والاشارة

المتكررة اثناءها الى الهند وغاندى وما عمد اليه من غزل القطن بيده ثلاث ساعات كل يوم ، ولذلك فقد اضطر فى نهاية الأمر ان يضرب المكتب بيده فى شدة ويقول :

ـ أظن أنه يجب وضع حد لهذه المناقشات البيزنطية وان نبحث فى المفيد . أن كل اشـارة أو حديث عن الهند وما يتبعه غاندى من أساليب هو اضاعة للوقت ونوع من العبث . أننا فى مصر قد وصلنا الى درجة من التمدن تجعل وسـائلنا لايمكن الا أن تختلف عن وسائل غاندى الذى يقود شعبا بدائيا . ان السبيل الوحيد لتقديم اى معونة للشعب فى مصر لا يمكن الا ان يكون عن طريق الحكم واستلام مقاليد الأمور ، ولذلك يجب ان نبحث الآن الوسائل التى ترغم الملك على تسليمنا الحكم . اننى أرى أننا صبرنا طويلا على الانجليز وقد حان الوقت لاعلان الحرب عليهم ، فهـذه هى الطريقة الباقية أمامنا لاسقاط الحكومة . وأسرعت أغلبية الحاضرين الى تأييد الرئيس ، وكان اكثر الجميع حماسـة الدكتور باهر والأستاذ الويشى ، وقال الأستاذ الويشى :

ـ لقد كان هذا رأيى منذ البداية ، لقد أضعنا على البلاد وقتا ثمينا .

وتصدى الأستاذ سيدهم سكرتير الحزب لايقاف هذه الموجة التى تهدد فى نظره الحزب بأشد الأخطار وتعرقل من جديد فرصة وصوله الى الحكم ، فى الوقت الذى يهدف فيه الجميع الى الوصول الى الحكم . فقال فى حديثه المتلهف دائما :

ـ ان وطنية دولة الرئيس هى الشعلة التى تضىء للبلاد طريقها، وأنا متفق كل الاتفاق معكم فى هذا الرأى . واصدار بيان بمهاجمـة الانجليز مسألة لاتكلف الحزب الكثير . ولكن من ناحية اخرى أرى أنه يجب أن نتصرف بحذر ، والا نظهر بمظهر المهيجين الذين لايجيدون حذق الوسائل الدبلوماسية . أن هذا السلاح يا اخوانى هو ما يحاربنا به اعـداؤنا ويجعلون من الانجـليز حـلفاء لهم .

الرأى عندى أنه يجب أن نكون منصفين وان نعطى الوزارة الانجليزية الجديدة فرصة لدراسة الأوضاع عندنا ، لاتنسوا أنها لم تل الحكم الا منذ بضعة أسابيع .

وفتح فكرى بك عبد المتجلى زعيم سوهاج عينيه مثبتا بذلك انه كان يسمع كل مايدور حوله رغم تصور الكثيرين انه كان يغط فى نوم عميق وقال :

ــ اذا كنا لم نر خيرا على يد حكومة العمال فهل نطمع فى الخير على يد حكومة المحافظين ؟ وارتفعت أصوات اغلبية الحاضرين منادية بوجوب أصدار بيان باعتبار الانجليز مصدر نكبة البلاد . وضحك الأستاذ سيدهم ضحكته القصيرة السريعة الساخرة وقال :

ــ ياخوانى ، انتم تعلمون شدة تطرفى ضد الانجليز ، وهم اذا ارادوا ان يهاجموا حزبنا ضربوا بى المثل فى شدة العداء للانجليز، ولكنى أنبهكم أننا لو خطونا مثل هذه الخطوة فى هذين اليومين بالذات ، فان ذلك قد يؤخر وصولنا الى الحكم ، ارجوكم ان تستمعوا الى فان لدى معلومات خاصة أريد أن أنقلها اليكم أفلا تعطونى الفرصة :

وكان لكلمة المعلومات الخاصة فعل السحر فى نفوس الأعضاء جميعا اذ ران عليهم الصمت وتطلعوا صوب الأستاذ سيدهم فى الوقت الذى صاح فيه الرئيس :

ــ معلومات خاصة ؟ وما الذى اخرك حتى الآن يا سيدهم لتفضى الينا بها ؟ فضحك الأستاذ سيدهم ضحكته القصيرة السريعة الساخرة وقال :

ــ والله كنت فى انتظار انتهاء المناقشات حول غزل القطن بأيدينا وارتداء ملابس كوم النور ، وانشاء الجمعيات التعاونية . وقاطعه الرئيس قائلا فى رضاء عن نفسه واختيال :

ــ تلك مسألة قد حسمتها نهائيا ، نحن قد وصلنا فى مصر

الى درجة كبيرة من الحضارة والمدنية ، بحيث يصبح الحديث عن معزة غاندى وتعريه من الملابس مسألة لاتتناسب مع ظروفنا .
دعنا اذن من ذلك وادخل بنا فى الموضوع الأساسى ، ما هى هذه المعلومات الخاصة التى لديك ؟ وكيف وصلت اليك ومتى ؟ وما هو تقديرك لأهميتها ؟ كل هذه عناصر يجب أن تكون واضحة امامنا لنستطيع ان نقدر حقيقة الموقف . أننا الآن فى اجتماع خطير والأمة فى انتظار ما يطمئنها على مستقبلها على أحر من الجمر .

اشرأبت الاعناق نحو الأستاذ سيدهم الذى اخرج فى هذه اللحظة علبة صغيرة من جيبه أخذ منها قرصا أسرع ببلعه ثم أخذ وراءه جرعة من الماء من كوب كان أمامه ، معلنا من خلال ضحكته القصيرة السريعة الساخرة ، ان ضغط الدم زاد عليه فى اليومين الأخيرين . وقال له الرئيس فى عجلة :

ـ سلامتك يا سيدهم ، انك تجهد نفسك أكثر مما ينبغى ولاتعيش بنظام فى أكلك وشربك ونومك .

فقال الأستاذ سيدهم :

ـ وهل يقاس ما نبذله من جهد بما تضحى به دولتك من أجل الأمة ؟

ولم يعجب الدكتور باهر تبادل المجاملات بين رئيس الجماعة وسكرتيرها فى هذه اللحظة التى يتلهفون فيها على معرفة ما عند سيدهم من معلومات خاصة ، فقال :

ـ ارجو أن تقول لنا يا سيدهم مالديك من معلومات خاصة .

وتنحنح الأستاذ سيدهم وأطلق ضحكته القصيرة السريعة الساخرة اشعارا بخطورة ما سوف يقول :

ـ لقد تناولت بالأمس طعام العشاء مع المستر سمارت .

وسكت الأستاذ سيدهم وسط آلصمت الرهيب فقد كان يعلم انه قذف بقنبلة ، وسيطر على جو الجلسة لأول مرة منذ بدات شعور بالأهمية والخطورة ، وكان الرئيس هو أول من عبر عن

انفعال الجماعة كلها فقد تلاشت الابتسامة من وجهه وقال :
ـ كيف لم تخبرنى يا سيدهم بهذا الخبر حتى الآن ؟ فقال الأستاذ سيدهم فى حديثه الملهوف ·

ـ ألم أقل لدولتكم منذ اكثر من اسبوع ان مستر كامبل قال لى انه سمع من المستر سمارت انه يرغب فى مقابلتى ؟ فقال الرئيس وقد بدأت الابتسامة تعود على استحياء الى وجهه :

ـ صحيح قلت لى ذلك ، وطلبت منك أن تعجل بهذه المقابلة، ولكن لماذا لم تقل لى انك قابلته بالفعل ؟ فقال الأستاذ سيدهم :

ـ ان المقابلة لم تتم الا بالامس صدفة فى نادى الجزيرة ، وعندما فرغنا من تناول العشاء حوالى الساعة العاشرة ، اتصلت بدولتكم فاخبرنى خادمكم طه ، انكم دخلتم الفراش فلم أشأ أن أزعجكم · وظهر الارتياح على وجه الرئيس وهز رأسه ونفخ اوداجه وقال :

ـ لست أدرى ما الذى جعلنى أسعل بشدة بعد العشاء ، فرأيت ان آوى الى الفراش مبكرا · كان أبى رحمة الله عليه يقول لى منذ الصغر ـ ومافتئت اعمل بنصيحته ـ « النوم المبكر علاج لكل داء » رحمة الله عليه . واحس الرئيس بوجوم فى جو الجلسة ، فتذكر خطورة ماهم بسبيله ، فرأى ان يرجىء محاضرته عن النوم المبكر وفوائده التى لاتحصى الى مناسبة اخرى ، واستدرك قائلا :

ـ وهو كذلك ، وهو كذلك . قص علينا ماذا جرى فى موضوع هذه المقابلة منذ البداية حتى النهاية ، وأرجو ياسيدهم ان تكون دقيقا فلا تخف عنا أدق التفاصيل لكى يستطيع جميع الأعضاء ان يكونوا على نور ، وان يكونوا لأنفسهم فكرة واضحة .

وقص الأستاذ سيدهم على الأعضاء قصة مقابلته للمستر سمارت كاملة ، أبتداء من لون البدلة التى كان يرتديها وعدد السجاير التى

شربها وأصناف الطعام التى تناولاها وتعليقه على كل صنف منها ، ثم مضى الأستاذ سيدهم معلقا على المقابلة بقوله :

ــ ولا أكتمكم الحق يا أخوانى أننى ضقت ذرعا بالتحفظ الشديد الذى لاذ به المستر سمارت معى فى بداية الجلسة ، بحيث لم يخرج الحديث عن المجاملات العادية والحديث عن الجو ، والسؤال عن صحة دولة الرئيس وعن حياد الانجليز بالنسبة لشئون مصر الداخلية ، ورأيت نفسى مضطرا للاحتداد عليه ، وضحك الأستاذ سيدهم ضحكته القصيرة السريعة الساخرة وقال :

ــ لاتؤاخذونى يا أخوانى ، لقد كنت اعلم أننى قد أسبب أزمة باحتدادى عليه ، ولكنكم تعرفون طبعى ، أنا رجل صعيدى لا أحب اللف أو الدوران .

وقال الرئيس على الفور :

ــ ولا يهمك ، عفارم عليك يا سيدهم ، خيرا ما فعلت ، والآن قل لنا بالضبط ما حدث وصف لنا ماذا كان رد الفعل الذى ظهر عليه ، فالمسألة خطيرة ويجب ان نلم بكل دقائقها . وقال الأستاذ سيدهم :

ــ قلت له فى حدة ، لقد سئم الشعب المصرى هذا الحديث عن حياد الانجليز . ان هذا الحياد ليس فى حقيقته الا تأييدا لكل ما يحدث فى البلاد ، فما كان القصر أو الحكومة تجرأ على الأقدام على أمر تعلم أنه لايحوز رضاء الانجليز . والأمة تحمل الانجليز مسئولية حكم البلاد بالحديد والنار طوال هــذين العامين ، اللذين أوشكت ان تخرب فيهما البلاد ، وهنا فقط خرج المستر سمارت عن تحفظه وقال لى بصراحة !! يجب ان تعطوا وزير الخارجية الجديد فرصة ليقف على حقيقة الموقف ويدرس المشكلة .

وانفجر غضب الرئيس وراح يقول فى انفعال شديد :

ــ دراسة ، دراسة فلقونا بدراسة الموقف والألمام بحقائق الأمور ، لم يعد باستطاعتنا أن نصبر يوما واحدا أكثر مما صبرنا ،

لقد أوشكت البلاد ان تخرب ياسيدهم لقـــد جاع الشعب وانتهكت حرماته كلها ومقدساته ، حتى أعراض الناس لم تسلم من هـــذا الحكم الغاشم أنا لم أعد أطيق الانتظار ، لابد من مهاجمة الانجليز في صراحة وقوة وليكن ما يكون .

وطلب الأستاذ سيدهم من دولة الرئيس أن يهدىء من غضبه ، حرصا على صحته التى هى أغلى ما تملكه البلاد : ان كل شىء يمكن أن يعوض ، وأن يتدارك الا صحة دولة الرئيس . ومضى يقول ان ثورته على المستر سمارت عندما فاه بهذا القول لم تكن أقل من ثورة الرئيس الآن ، مما أضطر المستر سمارت أن يتفوه ببعض عبارات لها كل الخطورة ، فقد كانت تنطوى على تلميح صريح بقرب سقوط الحكومة . وضحك الأستاذ سيدهم احدى ضحكاته القصيرة السريعة الساخرة اشارة للشعور بالفوز والنصر . ومرة أخرى تعلقت الأبصار بالأستاذ سيدهم فى انتظار ماسوف يقوله ، وارهفت الاسماع وتشاغل الأستاذ سيدهم من جـــديد فى اخراج زجاجـــة من جيبه وصب منها بعض نقط فى كوبة ثم اضاف اليها قليلا من الماء وشربها فى صمت دون أن يشير هذه المرة لنوع العلة التى يشرب من أجلها هذه النقط . ولم يعلق أى انسان حتى ولا الرئيس نفسه على هذه الحركة بشىء ، فقد كانوا قد تحولوا جميعا الى كتلة من الترقب لما سوف يقول تفصيلا لهذا الذى أوجز ، واستأنف الأستاذ سيدهم فى اللحظة المناسبة القول :

ـ كان ما قاله المستر سمارت ، انه كانت هناك محاولات طوال الأسبوع السابق لتحديد موعد يقابل فيه رئيس الحكومة المندوب السامى ، وكان رئيس الحكومة شديد اللهفة على تمام هذه المقابلة ، وبينما كان يتوقع تحديد موعد المقابلة ، أعلن بالأمس صباحا هذا الخبر الذى طالعناه جميعا من أصابة المندوب السامى بالبرد ، واضطراره لملازمة الفراش بضعة أيام لم يحددها الأطباء . وعلى

ذلك فقد توقفت جميع المقابلات ، وتوقف معها بالتالى كل حديث عن أمكان مقابلة رئيس الحكومة للمندوب السامى .

وصرخ المصرانى بك وهو يقسم بالله العظيم ثلاثا انه لم يكد يطالع النبأ فى الصحف حتى أدرك على الفور ان مرض المندوب السامى مرض سياسى ، ثم تذكر انه قال ذلك للمناديلى باشا زميله الحاضر فى الجلسة فأشتد صخبه وراح يستشهد بالمناديلى باشا على صحة ما يقول ، ولم يكن من المستطاع تهدئته بعض الشىء الا بعد أن اكد المناديلى باشا أن المصرانى بك قال له بالفعل ان قلبه يحدثه ان مرض المندوب السامى هو مرض سياسى . وسرت موجة من الارتياح فى نفوس المجتمعين لما اعتبروه خبرا يبشر بالخير ، وبينما كان الدكتور باهر يتسار مع الأستاذ الويشى كان الرئيس يقول وقد ارتسم الجد على وجهه ولمعت عيناه وراح يضغط على الحروف :

ـ اذا كانت هـذه الوقائع صحيحة ، وهى صحيحة من غير شك ، فاننى أراها ياجماعة بالغة الأهمية والخطورة ، فالمندوب السامى لا يتمارض ليمتنع عن مقابلة رئيس الحكومة الا اذا كان فى الجو شىء . واسرع الأستاذ سيدهم يقول بعد ان ضحك أحدى ضحكاته القصيرة السريعة الساخرة :

ـ ارأيتم الآن اننى كنت محقا عندما طلبت منكم التريث قبل اصدار اى بيان بمهاجمة الانجليز ؟ وكان الدكتور باهر أحد الأعضاء الذين لم يعجبهم هذا التحول فقال ، انه لم ير فى هذا الذى قيل اى جديد يخالف ماسئموا سماعه خلال العامين المنصرمين ، وانه يجدر بالحزب ان يكف عن التعلق بالاوهام . واحتج الأستاذ سيدهم على عبارة الأوهام لما تنطوى عليه من مساس به ، فبادر الدكتور باهر الى القول انه لايقصد ، وما كان يمكن ان يقصد المساس بأخيه وزميله فى الجهاد الاستاذ سيدهم وانما قصد الى وجوب تنفيذ اقتراح الرئيس القاضى بمهاجمة الانجليز فورا وعدم التوقف عن

هذه السياسة لأى سبب من الأسباب ، فقد قامت قوة حزب الأغلبية فى البلاد على أساس محاربته للانجليز والوقوف للقصر بالمرصاد ؛ وكل مهادنة لأحدى الجهتين تكون دائما على حساب شعبية الحزب، وتضعف فى نظر الناس الفوارق بينه وبين بقية أحزاب الاقلية . وغضب الرئيس لهذا الاستطراد من الدكتور باهر وأحس فيه تعريضا بسياسة الحزب وقال فى حدة :

ـ لا يادكتور باهر من فضلك ، هذا كلام لا يقال ، أنا أكثركم رغبة فى مهاجمة الانجليز ، وأنا صاحب الاقتراح ، لقد عشت طول عمرى فى الجهاد ، وصحتى لاتجود الا على الجهاد ، ولكن الجهاد وأنت سيد العارفين كالحرب ، والحرب خدعة وتكتيك ، ومن العبث ان نهاجم الانجليز فى لحظة يرتد الهجوم علينا ولا يعود الا بالنفع على الحكم الحاضر ، سوف نهاجم الانجليز عندما نفقد كل أمل فى اسـقاط الحكم الحاضر الا عن هذا الطريق ، واعتقـد ان المعلومات التى عرضها علينا الآن الأستاذ سيدهم بالغة الأهمية والخطورة ، أم أنكم ترون غير ذلك يا جماعة ؟ وصاح العدد الأكبر من الحاضرين فى صخب :

ـ فعلا ... فعلا ، معلومات خطيرة جـدا : ومضى الرئيس يقول :

ـ والرأى عندى أن تنشر جريدة الكفاح غدا ان مجلسنا قد اجتمع ، حيث عرض علينا السكرتير تقريرا خطيرا يتضمن معلومات بالغة الأهمية تتصل بالموقف الحاضر ستهتز لها البلاد فرحا فى القريب العاجل . ثم يكتب بحروف كبيرة خبر اعتذار المندوب السامى عن مقابلة رئيس الحكومة . وتلفت دولة الرئيس صوب الأستاذ سيدهم مؤكدا عليه « بحروف كبيرة يا سيدهم » وسأل الأعضاء عما اذا كانوا يوافقون على ذلك فأجاب الجميع بالموافقة ، وزاد المعصرانى بك ان هذه ستكون ضربة معلم ستزلزل الأرض تحت أقدام رئيس الحكومة . وتساءل المناديلى باشا اذا كان يحسن

ان تكتب بالأحمر ، فاجاب الرئيس طبعـــا بالأحمر ، بالأحمر يا سيدهم .

وسكت الرئيس قليلا ثم نظر صوب الأستاذ سيدهم نظرة ذات معنى ومضى يقول فى بطء اشعارا بخطورة ما يقول « وفى اليوم التالى ينشر فى نفس المكان ، وبنفس الحروف الكبيرة ولون الحبر الأحمر نبأ مقابلتك للمستر سمارت وتناولك معه العشاء ، بغير حاجـــة لذكر نادى الجزيرة . ولمعت عينا الرئيس وتحركتا فى محجريهما بسرعة ، اعجابا بفكرة اغفال ذكر نادى الجزيرة كمكان للمقـــابلة التى تمت ، وابدى جمهرة الحاضرين أعجابهم بهـذه الترتيبات وما تنطوى عليها من براعة وحنكة سياسية . واكد المصرانى بك ان سيكون لها أعظم الأثر فى ادخال الطمأنينة الى قلوب انصارهم الذين نفد صبرهم ، وبدأ الكثيرون منهم يتسللون الى حزب رئيس الحكومة ، ليكون باستطاعتهم الحصـــول على قروض من بنك التسليف ، أو ايقاف نزع ملكيتهم . وقال شيخ العرب :

ــ عسى يادولة الباشا ان يكون الله قد اذن بالفرج ، فأنالأحوال ساءت جدا ، لقد بدأ الموظفون الذين كانوا من أشد أنصارنا يتنكرون لنا خوفا من بطش الحكومة ، ان جميع مصالحنا أصبحت معطلة .

ولم يكد شيخ العرب يتحدث عن المصالح المعطلة ، حتى أنطلق كل من فى الجلسة يروى من انباء الاضطهاد الذى وقع عليه أو من يلوذ به ، وضعف الروح الحزبية وتراخى الأعضاء وفتور حماس الجميع ، وأزعج ذلك كله دولة الرئيس ، فأسرع يقول :

ــ خلاص ، خلاص انتهينا ، سيزول كل ذلك فى القريب العاجل، واحسب اننا نستطيع أن نفض الجلسة الآن ؟ اليس كذلك ؟ والتفت الىالأستاذ سيدهم وقالله !! لاتضيعوقتنا ياسيدهم ، أسرعالىجريدة الكفاح لتنفذ ما اتفقنا عليه . واطلق الأستاذ سيدهم ضحكتهالقصيرة السريعة الساخرة اشعارا لقلقه هذه المرة وقال :

ــ ان المشكلة التى يجب ان ندخلها فى حسابنا يا جماعة ، ان

المستر سمارت ، أشار لى من طرف خفى بلباقة ، أنه يحسن ان لاينشر شىء عن مقابلتنا وأن تظل فى طى الكتمان حتى يكون من المستطاع تكرارها ، وقد أدركت منه أنه تورط معى فى افشــاء هذا السر الذى قصصته عليكم ، أفلا ترى يا دولة الباشا ان النشر بهذا الأسلوب قد يغضب المستر سمارت ويحرجه ، فنفقد بذلك صداقته ؟

واستشاط الرئيس غضبا وضرب المكتب بشدة جعلت الأوراق تتطاير من فوقه ، وظل يخبط على المكتب فى ثورة وهياج :

ــ اسمع يا سيدهم ، أنا عشت طول عمرى راجل دوغرى ، ولايهمنى فى ساعة الجد احـــد حتى ولو كان أبى أو أخى ، فليذهب الى جهنم المستر سمارت ، ومن هو أكبر من المستر سمارت لعنة الله عليهم اجمعين . هذه الاخبار التى ذكرتها لنا يجب ان تنشر ، يعنى يجب ان تنشر ولو انطبقت السماء على الأرض وبحروف كبيرة وخط احمر . ان ما قلته لنا حقائق مادية والحقائق هى الحقــائق .

ألم تقابل المستر سمارت وتتناول معه طعام العشاء ، حدث هذا أم لم يحدث ؟

وأصفرت ابتسامة الأستاذ سيدهم بعض الشىء وهو يقول :

ــ حدث طبعا يا دولة الباشا . فأجاب الرئيس :

ــ خلاص ، وهل نشرت دار المندوب السامى بيانا أعلنت فيه نبأ مرضه واعتكافه وبالتالى اعتذاره عن المقابلات الرسمية وغير الرسمية ، حدث هذا أم لم يحدث ؟

ــ حدث طبعا يا باشا ، وقد طالعنا ذلك كلنا فى الصحف .

ــ وهل قال لك المستر سمارت ان رئيس الحكومة كان قد طلب مقابلة المندوب السامى قبل هذا الاعتكاف أم لم يقل ؟

ــ قال لى طبعا ، وقد نقلت اليكم ما حدث بكل دقة وهنا انتفض الرئيس فى عزم وقوة وهتف قائلا :

انتهينا ، لا محل اذن للتردد فى ذكر الحقائق ، الحقائق هى

الحقائق . لقد عشت طول عمرى قاضيا اتقصى الحقائق ، الحق يا سيدهم يعلو ولا يعلى عليه . لا ينبغى بحال ان نتردد فى ذكر الحقائق ، أننى مسئول يا سيدهم ، مصير الشعب أمانة فى عنقى ، لقد جاعت الناس وبلغت الأرواح الحلقوم ، الشعب يضرب ياسيدهم ويجلد ويعذب فى كل مكان ، ان مسئوليتى خطيرة ، هذه المعلومات التى ذكرتها الآن يجب ان تنشرها يا سيدهم وبحروف كبيرة وباللون الأحمر ، ان الشعب فى حاجة الى ما يطمئنه الى مستقبله .

وقال الأستاذ سيدهم :

ــ أنت تعرف يادولة الباشا أننى تحت أمرك فى كل ما تقول أو تفعل ، أننى مثلك صحتى لاتجود الا على الكفاح ، والله ما أحلى أيام الكفاح أيام المنفى فى سيشيل ، أننى اتمنى والله يا جماعة لو عادت هذه الأيام ، مرحبا بها . وبادر الرئيس يقول وقد امتلأ ابتهاجا :

ــ بارك الله فيك ياسيدهم ، بارك الله فيك ، هذه هى الروح التى يجب ان نمتلىء بها جميعا هذه الأيام ، أننى احس بالقوة والشباب يدبان فى أوصالى : أسرع ياسيدهم الى الجريدة يجب ان يكون النشر بالبنط العريض باللون الأحمر ، ولاتنس أن تظل على اتصال بى بالتلفون . ولكن الأستاذ سيدهم أجابه بأنه يحسن عدم استعمال التلفون هذه الليلة فلا بد ان الحكومة بالمرصاد لتسقط أخبار قراراتهم ، ويحسن كتمانها حتى تكون المفاجأة كاملة فى الصباح . وأثنى الرئيس على دقة الأستاذ سيدهم وبعد نظره وأعلن ان لاداعى للاتصال به تلفونيا ، وسوف يطالع الموضوع فى الصحف فى اليوم التالى ومثل الأستاذ سيدهم لايحتاج الى توصية. وأمن الحاضرون على قول الرئيس ، وأثنى عدد كبير منهم على الأستاذ سيدهم ، وقدرته العجيبة ، على أن يجمع بين صفتى قوة الشكيمة والمرونة السياسية التى لاحد لها ، والتطرف والاعتدال،

والكتابة البليغة والخطابة الساحرة ، وضحك الأستاذ الويشى وقال لزملائه :

حرام عليكم لقد اخجلتم تواضع الأستاذ سيدهم .

٢

لم يكد سكرتير الرئيس الخاص يحس بقرب انتهاء الجلسة حتى بدا يستعد لادخال بعض من تسمح الظروف بادخالهم لمقابلة دولة الباشا ، ولكنه لم يكد يظهر على عتبة باب حجرة الاجتماع حتى صرخ فيه الرئيس :

ـ لا أستطيع مقابلة أحد ياسى فريد ، أنا متعب جدا ياسى فريد، الم تكفك هذه الجلسة التى استمرت خمس ساعات ؟ أنا مرهق جدا لن أقابل أحدا ، قل للصحفيين ان المجلس اتخذ قرارات خطيرة ستعرف فى حينها ، ولا تزد على ذلك كلمة واحدة ، هل سمعت ؟ قرارات خطيرة ستعرف فى حينها ، ولا تزد كلمة واحدة ، أفهمت ؟

واحس الأستاذ سيدهم بشىء من خيبة الأمل على وجه فريد، فاشفق عليه وقال له :

ـ من هم الذين فى الخارج يا فريد ؟

فذكر فريد اسماء بعض أعضاء الهيئة الكبار ، وبعض الشخصيات الأخرى ، والأستاذ سيدهم يهز رأسه بدون تعليق ، حتى اذا ذكر أن أعضاء لجنة الطلبة التنفيذية من بين المنتظرين منذ العصر ، ظهر الاهتمام على وجه سيدهم ، وسأل فريد اذا كان الأستاذ وحيد رئيس اللجنة معهم ، فرد فريد بالايجاب ، فنظر الأستاذ سيدهم صوب الرئيس وقال له :

ـ أرجوك ياباشا من أجل خاطر سيدهم ، ان تقابل أعضاء اللجنة التنفيذية لا نريد ان نغضبهم يا باشا ، وأنت تعرف شدة حاجتنا اليهم . واحتج الرئيس على سيدهم انه مرهق جدا ،

ولكن الأستاذ سيدهم ضحك احدى ضحكاته القصيرة السريعة الساخرة وقال :

ـ وهل هذه أول التضحيات أو آخر التضحيات التى تقدمها لهذه الأمة يادولة الرئيس ربنا يبقى لنا حياتك . لقد كان من الممكن أن أنوب عن دولتكم فى مقابلتهم ، ولكنى يجب أن أسرع الى الجريدة لأنفذ ما اتفقنا عليه ، وسوف أسلم عليهم فى طريقى واطلب منهم ان لايمكثوا طويلا مع دولتك . وتنهد الرئيس مستسلما وقال : أمرنا لله، ثم اذن لفريد ان يدخل الطلاب . وهتف الرئيس بفكرى بك عبد المتجلى الذى لم ينصرف مع بقية الأعضاء فى انتظار انصراف الرئيس ، وكان يهوم على مقعده :

ـ يا فكرى بك ، يا عبد المتجلى بك ، خليك معانا ، سوف أقابل اخواننا الطلاب ، أنت تعرف يا فكرى بك أهمية الطلاب لحركتنا ، انهم جيشنا وعدتنا .

وأجاب عبد المتجلى بك :

ـ أنت دائما تتحدث بلسان زعيمنا الراحل رحمة الله عليه ، كان يقول لى دائما يا فكرى الطلبة جيش هذه الحركة .

ودخل الطلاب ، فأسرعوا يقبلون يد الرئيس ، ثم يصافحون فكرى بك ، وانشرح صدر الرئيس لمرآهم وتجلى السرور على وجهه وراح يقول لهم :

ـ بارك الله فيكم ، بارك الله فيكم ، خيرا ان شاء الله ، خيرا ان شاء الله ، ثم استطرد قائلا ، !! أنا رجل صريح لا أخشى فى الحق لومة لائم ، هل تتصورون يا أبنائى أننى كدت اعتذر عن مقابلتكم لولا ان شفع لكم الأستاذ سيدهم ، فلا اكتمكم اننى غير راض عن الطلبة فى هذه الأيام ، أنا صريح يا أبنائى .

واصفر وجه وحيد رئيس لجنة الطلبة وقال :

ـ معاذ الله ان نكون قد فعلنا مايغضبك يا دولة الرئيس .

قال الرئيس .

ــ الجامعة ، الجامعة يا وحيد ، أيرضيك هذا الموقف السلبى الذى اصبحت تقفه من قضـــايا البلاد ؟ لقـــد انقضى الآن اكثر من شهرين على افتتاح الجامعة ، دون أن تعبر بأى أسلوب من الأســاليب عن احتجاجها على شىء مما يقع فى البلاد ، أهـــذا يصح ويليق لقـد كان الطلاب دائما فى الطليعة ، منذ سنة ١٩١٩ وهم جيش الأمـــة ، ماذا يكون حال أمة يتقاعس جيشها ؟

وأسرع وحيد يقول يسانده بعض زملائه :

ــ نحن لسنا نائمين يا دولة الرئيس ، وستسمع فى القريب العاجل كل مايسر دولتكم ٠

فأجاب الرئيس :

ــ متى ذلك بعد خراب مالطة ؟ لقد تأخرتم ، تأخرتم كثيرا جدا، اننى لم أتردد شخصيا فى تعريض نفسى للموت أكثر من مرة لا أظنكم نسيتم ماجرى لى فى المنصورة عندما أراد أحد العســاكر أن يطعننى بالسنكى ، ولولا ان تلقى احد زملائى الطعنة بيده لكنت الآن فى عالم آخر ، ماذا تريد الأمة منـــا أكثر من ذلك ؟ دعونى اخاطبكم بصراحة يا ابنائى ، ان موقف الطلبة لايعجبنى ابدا ٠ وهم اكثر من طالب ان يتكلم ، ولكن وحيد رئيس اللجنة طلب منهم أن يدعو الأمر له ، وقال للرئيس :

ــ يجب ان اعترف ان دولتكم محق كل الحق ، كما هو الشأن دائما ، ان دولتكم لاتنطقون الا بالحق ، وانه لشرف كبير نعتز به ان توجهوا لنا اللوم والعتاب فنحن نعلم مقدار الحب الذى تكنونه لنا ، والحق أننى شديد الخجل من موقف زملائى طلبة الجامعة ، ولست أعرف أى روح شريرة تلك التى سرت فى صفوفهم فملأتهم جبنا وتقاعسا . أننى اعتقد يا دولة الرئيس أن هذا الاتحاد الذى انشأوه هو المسئول عن هـذه الروح الخبيثة ، فقـــد غرق الطلاب فى الألعاب الرياضية ، والرحلات والحفلات ، وما يجريه الاتحاد من محاضرات ومناظرات وانشغلوا بذلك عن قضية البلاد الكبرى ،

وهذا هو السبب الذى جئنا للتشرف بمقابلة دولتكم من أجله ، فقد قررنا أن نرشح انفسنا جميعا لعضوية الاتحاد لنستولى عليه ونقوده ونوجهه سياسيا ، وقد جئنا لنرجو دولتكم ان توصى علينا جرائد الحزب ليساعدونا بطريق غير مباشر فى هذه الانتخابات باسلوب نتفق عليه معهم : ورفع صبرى الطالب بكلية الآداب وعضو اللجنة يده مستئذنا الرئيس فى ان يقول كلمة . وانطلق الرئيس مشجعا :

ــ قل يابنى ، قل تكلم ، قل كل ما فى نفسك ، ليس أحب الى من الاستماع للشباب ، الشباب هم عدة الأمة وجيشها : ومضى صبرى يقول :

ــ وأرجو ان تأذنوا لى أن اخاطبكم بصراحة لتضعوا أيديكم على حقيقة العلة التى صيرت الجامعة الى ما وصلت اليه . فقال الرئيس :

ــ لست أريد سوى الصراحة ، لقد عشت طول عمرى رجلا صريحا . فأسرع صبرى يقول :

ــ ان الصعوبة التى أصبحنا نلقاها فى الجامعة ، هى ان الكثيرين من الطلاب أصبحوا يهزون أكتافهم كلما دعوناهم الى مظاهرة أو أضراب ، بحجة ان الكفاح اليوم لم يعد موجها للانجليز لتحرير البلاد ، بقدر ما أصبح يهدف فى الدرجة الأولى الى الوصول الى كراسى الحكم ، وصاح الطلبة فى وجه زميلهم صبرى محتجين فى الوقت الذى كان فيه وجه الرئيس قد امتقع وظهر عليه الغضب ، وانتهز صبرى هذه الفرصة لكى يقول كل ما عنده مما يردده الطلاب وبدأ يعتقد فى صحته :

ــ يقول طلاب الجامعة ، ان السياسة المصرية قد تحولت الى مهاترات ومنازعات بين الأحزاب مما أضر بقضية البلاد وتأخر بها كثيرا ، وهم يقولون .... وقطع عليه الرئيس كلامه وقد استشاط غضبا ، فى الوقت الذى وصل الأمر ببعض زملائه أن يضعوا أيديهم

على فم صبرى ليحولوا بينه وبين هذا الكفر والتجديف ، وارتفع صوت الرئيس حادا ممتلئا بالغيظ :

ــ هذه هى الدعايات المسمومة التى يسلطونها عليكم ، هــذه هى خديعة أعداء الشعب لبلبــلة أفكاركم فيدعون ان القضــية قد تحولت الى قضية صراع حول كراسى الحكم . ان للأمة دستورا حصلت عليه نتيجة جهادها وتضحياتها ، والدستور هو ســلاح الأمة فى كفاحها ضد الانجليز ، ومعناه حكم الأمة لنفسها بواســطة زعمائها المخلصين الذين تثق بهم ، فكل انحراف عن هذا المبدأ وهو أن تتولى الأغلبية حكم البلاد ، هو عدوان على الدستور وبالتالى على الشعب وارادة الأمة . والانجــليز يعرفون ذلك ، والملك يعرف ذلك وأحزاب الخوارج على الأمة كلها تعرف ذلك ، فاتحدوا جميعــا وتكتلوا ليحولوا دون ممثلى الشعب وحكم البلاد لأنهم يعرفون ان فى ذلك نهايتهم ، هذه هى القضية يابنى ألخصها لك فى عبارة قصيرة « دستور أو لا دستور ، شعب أو لا شعب » ورضى الرئيس عن هذه العبارة فطلب من وحيد وبقية الطلاب ان يكرروها معه ليطمئن أنهم فهموا القضية .

وردد الطلبة فى صوت جماعى « دستور أو لا دستور ، شعب أو لا شعب » ورضى الباشا بعض الشىء واطمأن لحفظ الطلاب القضية فى بساطتها ونصاعتها وسأل عن اسم الشاب المتكلم فقيل له انه يدعى صبرى ، فالتفت اليه الرئيس باسما وقال له :

ــ افهمت حقيقة القضية يا صبرى ، عليك الآن ان تحفظها جيدا ، اننى أحب الصراحة ولم يغضبنى ان تكلمت بصراحة ، فقد أتحت لى فرصة تعليمكم حقيقة القضية ، أعدها عــلى مسمعى لأعرف مقدار حفظك لها . وقال صبرى فى برود وتثــاقل : دستور أو لا دستور ، شعب أو لا شعب .

وتشجع أحد الطلبة لما قاله الرئيس عن حبه للصراحة فقال للرئيس :

ـ وما رأى دولتكم فى هـــذا المشروع الجديد الذى يسمى مشروع القرش ؟ وهتف الرئيس فى دهشة بالغة متسائلا :

ـ مشروع أيه ؟

وكرر الطالب قائلا « مشروع القرش » وظهر الاستهجان على وجه دولة الرئيس وقال :

ـ ما معنى مشروع القرش !! ؟ هل تعنى بالقرش القرش الذى نعرفه أى عشرة مليمات ، ام تتكلم عن ســمك القرش الذى يقولون عنه ؟

وابتسم الطالب وقال : مشروع القرش الذى تنشر عنـه جريدة الأهرام كل يوم تقريبا ، وكتب عنه رئيس تحريرها مقالا افتتاحيا يوم الأربعاء الماضى . فقال الرئيس وقد ظهر التغضن على وجهه :

ـ أنا لا أطالع جريدة الاهرام ، وانصح كل وطنى أن لايطالعها ، وأوصيكم يا أبنائى أن لا تطالعوها .

وأجاب الطالب : عفوا يا دولة الرئيس انك تعلم اننـــا ابناؤك المخلصون ولايمكن ان نعصى لك أمرا ، ولكنا لا نستطيع ان نقـــول ذلك للطلاب لأنهم يقولون أنهم لايستطيعون الاستغناء عن مطالعـــة أكبر جريدة فى البلاد تمدهم بالاخبار العالمية . فقال دولة الرئيس ســـاخرا :

ـ يا سلام يا سيدى على أكبر جريدة فى البلاد ، أننى انا ، وانا من انا بكل مسئولياتى وتاريخى ، قد استغنيت عن مطالعة هـــذه الجريدة ، فهل ترانى نقصت شيئا ؟ يجب على ابناء الأمة المخلصين، الا يطالعوا سوى صحف حزبنا الناطقة باسمنا ، وان تكون لهم بى فى ذلك أسوة ، فانا لا اطالع الا جرائد الحزب ، هل أطلعتم على جريدة الكفاح الصادرة هذا الصباح ؟ هل اطلعتم على البرقيات التى وصلت الى من طول البلاد وعرضـــها مؤيدة ومصـــممة على الكفاح ؟ لقد ملأت البرقيات ثلاث صفحات كاملة .

وهنا تدخل الطلاب وقالوا انهم اطلعوا جميعـــا عليها ، وزاد

عليهم الأستاذ وحيد ان هذا نصر لا مثيل له فى التاريخ ومضى الرئيس يقول :

ـ هذه هى الأمة على حقيقتها ، هذه هى روح الأمة القوية الباسلة ، لقد سلطوا عليها كل صنوف الايذاء والارهاق ، لقد أجاعوها لكى تستسلم جعلوا قطنها يباع بجنيه القنطار ومع ذلك فهى تقف صامدة لاينال منها وعد ولا وعيد ، وهى لاتنى تؤيدنا بالليل والنهار ، وتلتف حول زعامتها ضاربة عرض الحائط بكل المحاولات الدنيئة التى تبذل لحملها على الانفضاض من حول زعامتها ، وعلى كل شاب منكم أن يتشبع بهذه الروح ، ولن يتحقق له ذلك الا بمطالعة صحف الحزب المخلصة ، اما مطالعة الاهرام فماذا تفيدكم الا أن تبلبل افكاركم وتصرفكم عن قضية البلاد الحقيقية كما لخصتها لكم ، ونظر الرئيس صوب وحيد مستحثا اياه على تكرار القضية ، فصاح الطلاب : دستور أو لادستور ، شعب أو لا شعب • ومضى الرئيس يقول : هذا هو مفتاح كل قضية ، عضوا عليه بالنواجذ يضىء لكم الطريق • والتفت الرئيس صوب وحيد وسأله قائلا :

ـ والآن ما هى حكاية هذا المشروع الذى ذكره أخينا ؟ مشروع القرش ؟ ماذا تعنى هذه الكلمة يا وحيد ؟ فاجاب وحيد وقد ظهر الامتعاض على وجهه :

ـ انه تقليعة جديدة من هذه التقاليع التى مافتئوا يطالعوننا بها . فقد دعا طالب فى كلية الحقوق اسمه فوزى السيد على جميع أفراد الأمة أن يتعاونوا ويتضامنوا لتحقيق ما أسماه استقلال مصر الاقتصادى ، عن طريق أن يتبرع كل منهم بقرش فى العام يخصص لبناء مصانع شعبية تكون مملوكة للشعب فى مجموعه ، وقد قابل جمهرة الطلاب المشروع بالسخرية ، وندد به الأساتذة وكل المشتغلين بالاقتصاد ، فما سمع أحد ان المصانع تبنى بجمع القروش ولاتكون مملوكة لأحد . فقال الرئيس :

ـ ان المسألة اخطر من أن تعالج بهذه البساطة يا وحيد ، ان قلبى يحدثنى ، وقلب المؤمن دليله ، ان هـــذه مؤامرة جديدة ، ودسيسة يراد بها صرف جهود الشباب عن قضية البلاد الحقيقية، دستور أو لا دستور شعب أو لا شعب ، أننى أعرف الاعيب رئيس الحكومة جيدا ، ولابد ان يكون هذا الطالب الذى ينادى بهـــذا المشروع أحد صنائعه ، ما هو اسمه ؟ فأجاب أحد أعضاء اللجنـــة : انه طالب نكرة لاحول له ولا قوة ، وعلى كل حال فليطمئن دولة الباشا فقد مات المشروع فى المهد ، ولم يتجاوب معه أحد . وهنا صاح صبرى عضو اللجنة :

ـ يا جماعة ، يا جماعة لا يصح أبدا ان تخفـوا الحقائق عن دولة الباشا ، انه يجب ان يعرف كل شىء لكى يعالج الأمور بحكمته. ان مشروع القرش يا دولة الرئيس بدأ يلقى نجاحا كبيرا فى صفوف الطلاب الذين بدأوا يتجاوبون معه ، وقد شـكلت للمشروع لجنـــة من طلبة الجامعة والمدارس العليا وتولى عميد كلية الطب نفسه رئاسة هذه اللجنة التى أصبحت تضم عددا من الأساتذة الى جوارالطلاب. وصرخ الرئيس قائلا :

ـ الم اقل لكم ان قلب المؤمن دليله ولا يمكن ان يخطئه ابدا ؟ لو لم يكن المشروع بايعاز من الحكومة لما ترأســـه عميد كلية الطب بنفسه ، أو لم تصدر الحكومة قوانين تحظر على الطلاب الاشتغال بالسياسة ، فكيف سمحت بقيام هذا المشروع اذا لم يكن خدعة يراد بها صرف الطلاب عن قضية البلاد الأساسية ؟ فقال صبرى :

ـ يا باشا ان المشروع بعيد كل البعد عن السياسة . انه محاولة قومية لمعالجة مشكلة البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، فلو أنه كان فى مصر الآن مصانع تكفى لغزل الجزء الأكبر من قطننا ، لما تدهورت اسعاره الى هذا الحد واشرف فلاحونا عـلى الموت جوعا : فرد الرئيس على صبرى بعصبية وقال له :

ـ أسمع ياسى صبرى ، يظهر انك محب للجدل ، ولقد أطلت

بالى عليك ولكنك تتمادى ، هل تعتبرنى زعيمك أم لا ؟ فقال صبرى: طبعا زعيمى يا دولة الباشا ، فرد الرئيس قائلا : انتهينا يجب ان تسمع ما أقوله لك ، فانا اعرف فى هـــذه الأمور اكثر منك ، هذا المشروع دسيســـة على الشباب ، وهو أحد الاعيب رئيس الحكومة التى أعرفها جيدا ، أليست الدعوة اليوم انه رب الاقتصاد، وأنه سيعالج أزمة البلادبالوسائل الاقتصاديةالفنية ، وها هو المشروع يزعم انه سيحل القضية المصرية عن طريق الاقتصاد . صدقونى يا أبنائى ، اننى أعرف الاعيب أعداء الشعب ، يجب ان تحاربوا هذا المشروع ، وانقلوا عنى انه دسيســـة ، وأنا أشكركم أن لفتم نظرى اليه لأتخذ مع اخواننا الطرق اللازمة لمحاربته :

ولم يدع دولة الرئيس ابناءه الطلبة ينصرفون الا بعد أن عاهدوه على أن يقفوا لكل مشروعات اعداء الأمة بالمرصاد ، وبعد أن وعدوه بأنه سيسمع من الجامعة انباء تسر بعد ان سلحهم بالمعرفة الحقة لطبيعة القضية ، وانها دستور أو لا دستور ، شعب أو لا شعب . انسان واحد خرج من مقابلة الرئيس وقد انهدم آخر ما بقى فى نفسه من ايمان بالزعيم المقدس ، وقرر أن يكون أول ما يفعله فى الصباح المبكر هو ان يذهب لفوزى السيد على وان يكون من أشد العاملين غيرة على انجاح هذه الفكرة الجديدة الصالحة ، فكرة مشروع القرش ، التى تدعو لتصنيع البلاد من خلاله حركة تعاونية شعبية جامعة .

٣

ساد الفزع والاضطراب من جديد دوائر الحكومة فقد اكتشفت قنبلة من النوع الخطر بالقرب من دار رئيس الحـــكومة ، بالرغم من الحراسة الشديدة والرقابة الصارمة على كل المنطقة التى تقع فيهـــا دار رئيس الحكومة فى الزمالك ، وكان الوزراء ورجال العهـد الكبار أكثر الجميع فزعا ، فاذا كان المجرمون الآثمون قد استطاعوا بالرغم

من كل شيء ان يضعوا بالقرب من دار رئيس الحكومة هذه القنبلة الشديدة الانفجار والتى أكد جميع الفنيين انها لو لم تكتشف فى الوقت المناسب لأحدثت كارثة ، فماذا يمكن ان يصيبهم هم اذا لم تضاعف الحراسة عليهم بالليل والنهار ؟

وكان رمضان باشا خيرى من أشد الجميع رعبا وفزعا ، فقد سبق ان عرف الجناة طريقه بالفعل ووضعوا له قنبلة ، واذا كانوا قد فشلوا فى المرة الأولى فان ذلك من شـــأنه ان يحفزهم على تكرار المحاولة بضراوة أشد ، ولم يجد رمضـــان باشا ما يفعله الا أن يلوذ بفؤاد عبد السميع الذى أصبح يثق به ويحبه ، فطلب منه ان يجعل اقامته الدائمة عنده فى القصر حتى يشرف على الحراسة ليلا كما يتولاها نهارا . وعبثا راح فؤاد عبد السميع يبين لمعالى الباشـــا تعذر ذلك عليه من الناحية العملية ، وأنه يستحسن ان يستعان بضابط آخر للحراسة ليلا . لقد أصم رمضان باشا اذنيه عن ان يسمع أى شيء الا أن يلبى فؤاد رغبته فهو لا يمكن ان يثق بأحد سواه ، ويضع حياته وحياة ابنته فى يده . ولم ير الباشا اى سبب يدعو فؤاد لعدم انتقاله للسكنى فى القصر فهو أعزب غير متزوج ، واقامته فى القصر ستوفر له الراحة فضلا عن المصاريف. وقد كانت الصعوبة الكبرى التى تحول دون تنفيذ هذا المشروع وهو مالم يستطع فؤاد أن يصرح به للباشا هو علاقته بأزهار ، وأن هـــذه الاقامة الدائمة فى القصر ستباعد بينه وبينها . عـــلى أن رمضان باشا استطاع ان يجعل هذا الذى بدأ فى نظر فؤاد صعبا ومتعذرا ، أمرا سهلا ومستساغا ، بل ومندوبا ويضحى من أجله بكل شيء ، عندما لوح له بأنه لو قبل ذلك فسيطلب من رئيس الحكومة ان يرقيه الى رتبة اليوزباشى .

وعندما حدث فؤاد ازهار بهذا التطور الجديد امتقع وجهها ، وخفق قلبها بعنف وهى تحس بالكارثة التى كانت تتهددها مذ تولى فؤاد حراسة رمضان باشا توشك ان تحل بها نهائيا بعد ان يقيم

فى القصر بصفة دائمة . كان فؤاد لاينفك يحدثها عن ميرفت ابنة الباشا احاديث يندى لها الجبين من حيث الاستهتار والانحلال نتيجة ثروتها الكبيرة التى ورثتها عن أمها واطلاق أبيها الحبل لها من ناحية اخرى باعتبارها ابنته الوحيدة التى لم يرزق غيرها ، والتى تؤلف بالنسبة له بعد وفاة أمها كل ما يربطه بالحياة . لقد حدثت أزهار غريزتها بأن شخصية ميرفت جديرة بأن تنتزع منها فؤاد فى يوم من الأيام على صورة من الصور ان لم يكن بالزواج فبالمخادنة، وهاهو فؤاد يحدثها عن اقامته بالليل فى قصر الباشا حيث قد لاتجد ميرفت فى بعض الليالى من يسليها غيره . وارتج على أزهار ولم تعرف ماذا تقول أو كيف تتصرف ، وأحس فؤاد بما انتابها من ارتباك واضطراب فقال لها :

ــ أننى حزين من غير شك لحرمانى من حياتى الجميلة معك ولكن ذلك ليس الا لفترة ريثما أحصل على الترقية واصبح يوزباشيا ، ثم أطلب اعفائى من هذه المأمورية ، وعلى كل حال فسأعمل الترتيب كى أبيت هنا معك مرة كل أسبوع ، كما سوف أمر عليك أكثر من مرة خلال الأسبوع بالنهار ، فقد قال لى انه سيضع سيارة تحت تصرفى . انك تعلمين يا أزهار أننى لم أعد أستطيع الاستغناء عنك ، وقد أصبحت اتفاءل بك واعتبرك مصدر سعدى . من الذى سيصدق عندما أحصل على الترقية الجديدة ، أن هذا اليوزباشى كان كونستبلا منذ خمسة وعشرين شهرا ؟ أننى أكاد أجن يا ازهار من فرط الفرح ، ادع الله لى أن يحقق سريعا هذه الأمنية ، ولاتنسى انه سيصبح بقدرتك أن تمضى وقتا أطول فى زيارة أسرتك والمبيت معهم فى بعض الأحيان وهكذا سنكون جميعا سعداء. ما أجمل يا أزهار أن أكون يوزباشيا ، أتتصورين ماذا يعنى أن أكون يوزباشيا ؟ لا يبقى بعد ذلك سوى خطوة لأكون صاغا أى واحدا من كبار الضباط ، ضابط عظيم كما نقول عندنا .

وظلت أزهار واجمة وفؤاد يثرثر بهذه الكلمات ويرسم الخطط

ويطلق لآماله العنان . لقد أصبح حديثه يملؤها حزنا وكآبة ، بعد
أن تغير وأصبح شخصا جديدا . حتى تصريحه لها بأن سيكون
بقدرتها أن تزيد من اتصالها بأسرتها لم يسعدها ، قدر مادلها على
ضعف حبه لها والذى كانت تقيسه بمقدار غيرته العنيفة عليها
ورغبته فى ان لا تشغل فى الدنيا بانسان سواه : وافزعها هذا السعر
الذى أصابه نتيجة هذه الترقيات المتوالية والمترقبة ، وشعرت
بقرب النهاية فسألت دموعها فى صمت ، ولم تلبث الدموع ان تحولت
الى نشيج بالبكاء . وهرع فؤاد نحوها وقد انعصر قلبه من فرط
الحزن لبكائها وقال لها فى دهشة وهو يعانقها ويقبلها :

ـ اتبكين ياأزهار فى الوقت الذى يجب أن تكونى فيه اسعد
الناس ، والرجل الذى تحبينه ويحبك يوشك ان يصبح يوزباشيا ،
مالذى تخافين منه ؟ أتتصورين أنه يوجد شىء فى الدنيا يمكن ان
يؤثر على حبى لك ؟ تكلمى يا أزهار ، قولى ما الذى يبكيك ؟

وتكلمت أزهار فى نهاية الأمر بعد ان استجمعت كل ارادتها
لتخفف بعض ما كانت تشعر به :

ـ انك تعرف يا فؤاد اننى ربطت سعادتى بسعادتك فكل
ما يسعدك يسعدنى ، ومادام يسرك ان تصبح يوزباشيا ، فانه يسرنى
من غير شك . ولكنى لا أكتمك أن قلبى منقبض واحس أننى أوشك
ان افقدك الى الأبد ، وضحك فؤاد ملء شدقيه وقال لها وقد وضع
يده على فمها : كيف يطاوعك قلبك على ان تقولى هذا الكلام الفارغ؟
واخرج من جيبه ما كان قد أعده ليكون آخر سلاح يقضى به على
كل مقاومة لفكرة انتقاله ، ويطيب خاطرها به فى نفس الوقت ،
ولم يكن هذا الذى أخرجه من جيبه الا خاتما ماسيا اشتراه لها
بعشرين جنيها قبل الحضور الى البيت على أن يدفع ثمنه بالتقسيط ،
وشهقت أزهار وهو يزلق الخاتم فى أصبعها :

ـ ما هذا يا فؤاد ؟

ـ خاتم ياحبيبتى ليكون دليلا لك على ان حبى لك يزداد يوما بعد يوم .

وابتسمت أزهار تحت تأثير هذه الكلمة الحانية والحـــركة اللطيفة ، على انها لم تلبث ان قالت له :

ـ أنك تعرف يا فؤاد اننى عشت معك لا أطمع فى شىء الا حبك لى ، ولقد بعت كما تعرف كل ما كان يتجمع عندى من حلى ليكون باستطاعتى أن أعيش بجوارك ولك ، فارجوك ان تذكر دائما ان كنوز الدنيا كلها لا يمكن ان تعوضنى عنك اذا فقدتك .

ومرة أخرى طلب منها فؤاد ، الذى كانت الدنيا لاتكاد تسعه من الفرح ، ان لاتحدثه عن فقدها اياه ، وراح يعجب من اين جاءتها هذه الفكرة ، واكد لها ان هذا البعد سيؤجج نيران حبه لها اكثر واكثر ، وسوف ترى بنفسها عندما يسرع الى احضانها ليطفىء نار الشوق ويسد جوع نفسه لوصالها . وابتسمت ازهار فى حزن وقالت له :

ـ ليس باستطاعتى أن افعل شيئا يقف فى طريق مستقبلك ، أو أن اقف به مشيئة القدر ، اننى راضية بما يرضيك ، وقد فوضت امرى لله .

٤

لم يكن قلب أزهار يكذبها وهو ينذرها بأنها توشك ان تفقد فؤاد بعد ان ينتقل للاقامة الدائمة فى بيت الباشا ، لقد استهوت ميرفت فؤاد منذ اللحظة الأولى التى رآها فيها ، وكانت اقامته السابقة فى قصر الباشا نهارا قد هيأت له الفرصة لأن يراها كثيرا . ولقد صدمته فى بادىء الأمر تصرفاتها نتيجة طبيعته الريفية ، فاستهجن هـــذه التصرفات ، ولكن الاستهجان خف على مر الزمن نتيجة الاعتيـــاد ، وبدأت لاتمثل فى نفسه الا الحورية التى راعته منذ اللحظـــة الأولى والتى يعتبر التمتع بها لونا من الوان الدخول الى الجنة . وراودته

نفسه اكثر من مرة ان يوثق صلاته بها ، ولكن فكرة كونها خطيبة ابن رئيس الوزراء كانت دائما تعيده الى صوابه ، وتجعله يرتعد من فكرة تطاوله عليها حتى فى خياله • وهكذا كانت خطبتهـــا الى ابن رئيس الحكومة هى الحائل الوحيد بينه وبين ان يرفع كل تكليف بينها وبينه • اما الآن وقد بدأ يأوى الى القصر بالليل فقد بدأ يرى من مباذل ميرفت فوق ما كان يتصور ، اذ قلما عادت من الخارج قبل الثـــانية أو الثالثة صباحا ، وغالبا ماتكون مخمورة وفى حالة مزرية • وكثيرا ما أقيمت السهرات فى القصر نفسه فكان يشهد الأسلوب الذى تمضى به لياليها ، حيث تتألف شلتهم من بعض الشبان الرقعاء ، ولم يكن فؤاد يجسر على أن يعتبر ابن رئيس الحكومة واحـــدا منهم ، وكانوا يمضون الوقت فى رقص ولعب ورق وشرب ، يتبادلون القبلات بغير حساب ، فمحسن يقبل صديقاتها والآخرون يقبـــلون ميرفت أمام خطيبها • وعندما يرقصون أحيانا وقد استبد بهم السكر لايعود فؤاد يعرف عند أى حد يمكن ان ينحدروا اليه • ولقد كان من شأن ذلك كله ان يطمع فؤاد أكثر وأكثر فى أن يكون واحدا ممن يســـتمتعون بجمالها • ولم تعد فكرة كونها خطيبة ابن رئيس الحكومة تملؤه فزعا، وان ظلت تضفى عليها حصانة من نوع ما •

وفوجىء فؤاد بميرفت فى احدى الليـــالى وقد جاءت بمفردها على خلاف العادة تقود سيارتها بنفسها ولما ينتصف الليل • كان رمضان باشا قد آوى الى فراشه كما هى عادته منذ الحادية عشرة ، وأغفت مدام بلانش وصيفة ميرفت فى انتظار استيقاظها فى ساعة مبكرة من الصباح لتساعد ميرفت فى خلع ملابسها بعد انتهاء سهرتهـــا • أما الخدم والشماشرجية فقد ناموا جميعا منتهزين فرصة عدم ســـــهر ميرفت فى البيت لكى يحظوا بقسط كبير من الراحة • وهكـذا كان السكون يخيم على القصر ، ولم يكن متيقظا الا فؤاد بعـــد أن عاد من جولة تفتيشية حول البيت ولم يكن قد خلع ملابسه بعد ، ولم تكـد ميرفت ترى فؤاد أمامها حتى صاحت فى وجهه نافثة غضبها :

ـ المجرم السافل ، سأعرف كيف أربيه ، أمثلى يعامل هــذه المعاملة ؟ قالت ذلك وأسرعت الى جناح الضيوف حيث كان فؤاد قد أصبح يقيم بصفة دائمة ، واستلقت على المقعد الكبير بحجرة النوم فى تعب واعياء ، وتبعها فؤاد وهو يبتسم ابتسامة تخفى قلقه فقد كانت هذه أول مرة تتصرف حياله بهذا الاسلوب • وسألها عمن كدرها هذا التكدير وتصفه بالاجرام والسفالة ، فقالت له :

ـ ومن يكون غير محسن ، محسن ابن الزفت رئيس الحــكومة بتاعتكم ، الذى لولا أبوه ما كان يساوى نكلة • واصفر فؤاد ونسى كل شىء الا أنه ضابط بوليس يسب أمامه ابن رئيس الحكومة ورئيس الحكومة نفسه ، وتلفت حوله بحركة لاشعورية ، بينما مضت ميرفت تقول :

ـ حضرته الدهل العبيط أبو كرش ، تضحك عليه صــاحبتى سوسو وتنسحب معه من السهرة على رؤوس الاشهــاد تاركا اياى وسط تغامز جميع أفراد الشلة • أمثلى يعامل هذه المعاملة ؟ أنا ميرفت رمضان خيرى ؟ ياويله منى • على أنها لم تلبث ان قالت : فلتأخــذه ، فلتأكله ليتها تخلصنى منه ومن ســماجته الى الابد ، والله العظيم والله العظيم وحياة تربة ماما ، لولا خاطر بابا والحاحه على ماقبلته أبدا خطيبا لى ولا ليوم واحد •

ولاذ فؤاد بالصمت لايحير جوابا بعد أن أصبح الموضوع شائكا الى هذه الدرجة ، وماتت من جديد فى نفسه كل نازعة أو رغبة فى ان يستمتع كغيره بحلاوة ميرفت • ونظرت ميرفت لفؤاد من رأسه حتى قدميه وهو واقف أمامها صامتا لايتكلم ، وكأنها تنظر اليــه للمرة الاولى ، وأعجبتها قامته الفارعة وجسمه القوى ، وفحولته الريفية ، وضايقتها البلادة والحيرة اللتان ترتسمان على وجهه وصاحت به :

ـ مالك تقف هكذا كاللوح لاتحير جوابا ، اليس لديك ماتقول ؟ ألم تتنبه بعد الى أنى أحادثك ؟

ورد عليها فؤاد وقد احمر وجهه خجلا لما وجهته اليه من اهانة ،

وان كان قد تجاوز عنها فهى فى حالة سكر بين كان يزيد من جمالهـا غير العادى • وقال لها :

ـ يافندم اعرف طبعا انك تكلميننى ، وأراك ثائرة •

ـ اذن قل لى رأيك فى محسن خطيبى وتصرفه •

ـ استغفر الله يافنـدم من أنا ، حتى أقول رأيى فى ابن رئيس الحكومة ؟

ونظرت اليه ميرفت فى دهشة وقالت :

ـ من أنت ؟ ألست رجلا ؟ ألست انسانا ، أليس فى رأسـك مخ ، أليس فى وجهك عينان ؟

ـ طبعا أنا رجل وفى رأسى مخ ولى عينان ، ولكنى رجل بوليس ، وأنا فى هذا البيت بصـفتى موظفا ، وليس من حقى أن أتدخل فى هذه المسائل الخصوصية •

وضحكت ميرفت ضحكة خليعة وقد ظهر أثر السكر عليها وقالت:

ـ ولكنى انا سمحت لك ياحضرة الضابط بالتدخل ، والآن قل لى ما رأيك فى محسن ، أتريد أن أصدر لك أمرا كتابيا ؟ وضـحك فؤاد لأول مرة لجمال النكتة ثم قال لها :

ـ لا أظن أن الأمر يحتاج الى الأمر الكتابى ، فمحسن بك رجل عظيم ، حسبه أنه ابن رئيس الحكومة •

ـ طظ ياسيدى فى ابن رئيس الحكومة وفى رئيس الحكومة نفسه• أنا اسألك عن رأيك فى محسن كانسان ، كبنى آدم ، فى ثقل دمه فى كرشه ، فى ترهل جسمه ، فى تصرفه معى بنذالة عندما يتركنى أنا خطيبته، وينسحب مع احدى صويحباتى بدون استئذان • أهذا يصح ويليق ياحضرة الضابط ؟ ولم يحر فؤاد جوابا ، ولاذ بالصـمت • فقالت له ميرفت :

ـ طبعا لاترد لأنك جبان وخواف لقد ملأ رئيس الحكومة قلوب الناس بالرعب والفزع خوفا من بطشه وجبروته ، فكيف بـكم انتم يارجال البوليس وانتم عدته وأدواته لارهاب الناس والبطش بهم ،

كان يجب أن لا اطلب رأيك فلست سوى واحـــد من عبيد رئيس الحكومة • ومدت ميرفت ساقيها وحركت قدميها على المقعـد الطويل الذى كانت راقدة عليه ، فكشفت هذه الحركة من خلال ثوبها القصير عما جعل رأس فؤاد يدور ويزن ، ولذلك فلم ير حرجا فى أن يلبى طلبها المفاجىءوهو أن يخلع لها الحذاء .وتضافرت عوامل سكرها والرغبة الجامحة التى جاشت فى نفسه عقب هذه النظرة الخاطفة الى مافوق ركبتيها ، فى نسيان ماوصفته به من أنه من جملة العبيد • على أنه لم يقدم على خلع حذائها الا بعد ان تلفت حوله مرهفا السمع واطمأن الى السكون الشامل فى القصر وأنهما فى خلوة كاملة • ومع ذلك فقد حرص أشد الحرص وهو يخلعها الحذاء ان لاتمس يده ساقها ، فلأمر ما ذكر مكانه من والدها وأنه يستظل ببيته • وعاوده شبح رئيس الحكومة وأن هذه الفتاة فى نهاية الامر هى خطيبة ابنه ، فحرص على ألا يتورط بقدر الامكان • وهزت ميرفت ساقيها بعد ان خلع لهـــا الحذاء وقالت والآن عليك بالجورب ، اخلع لى الجورب •

وازدرد فؤاد ريقه وقال لها :

ـ أرجوك ياميرفت هانم أن تدعينى وشأنى ، اننى ضابط صغير ولست مستعدا أن أزج بنفسى فى مغامرات لاقبل لى بها ، سوف أوقظ مدام بلانش وصيفتك لتساعدك على خلع ملابسك بعد ان توصلك الى حجرتك • وضحكت ميرفت وقالت :

ـ ياللمسكين لقد امتلأ قلبه رعبا ، لاتخف سوف اشفق عليك ، لقد سليتنى وأشعر أن اعصابى قد هدأت • اننى لست سكرانة كما تتوهم ، لقد كنت غاضبة ، وقد زال غضبى الآن • عاونى على الصعود الى حجرتى • ورحب فؤاد بهذه الفرصة للتخلص من هـــذا الموقف الحرج وساعدها على الصعود • وبعد لأى أوصلها الى حجرة نومها ، ثم اتجه نحو باب الخروج وهو يلهث من شدة الانفعال والحرج الذى كان يحس بهما والصراع الذى كان يدور فى نفسه ، وسألته ميرفت :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

ـ أقوم بواجبى فى الطواف حول البيت ٠

ـ أتعرف أنك أول انسان عرفته يتصرف معى بهذه الكياســـــة ولا يحاول ان يستغل الفرصة التى منحتها له ، أرجوك ان تصدقنى هل تحتقرنى ؟

ـ معاذ الله ٠

ـ الاتراني جميلة ؟

ـ انك أجمل من رأيت فى حياتى ٠

ـ اذن فلنكن أصدقاء ، لقد أحببتك ، لم أكن اتصور أنك بكل هذه الكياسة أنت جنتلمان يافؤاد أكثر ألف مرة من هـــــذا الطور محسن ٠ واحمر وجه فؤاد خجلا وقال لها مغمغما :

ـ العفو يامبرفت هانم ٠

ـ الا تستطيع أن تنسى أننى خطيبة ابن رئيس الحكومة، أو أننى ابنة رمضان باشا ؟ الا تستطيع أن تنظر الى باعتبــــارى ميرفت فقط ، فيفى ؟

ونظر اليها فؤاد فى تردد وقد لمعت عيناه بلهيب الرغبة ، ولكنه ظل صامتا متلجلجا ٠ وخطر على ميرفت خاطر فأسرعت تقول :

ـ سأعطيك صورتى كعربون على صداقتنا الجديدة ، وأخرجت احدى صورها من أحد الادراج وطلبت منه قلمـــــا وكتبت على ظهر الصورة « الى صديقى الجنتلمان المـــــلازم أول فؤاد عربون المودة والصداقة ـ فيفى » ٠ وعندما مدت ميرفت يدها بالصورة الى فؤاد ، أمسك بكفها الجميل وراح يقبله فى حرارة مستفرغا فى هذه القبلات كل مافى نفسه من شوق اليها ورغبة فيها ٠ وسحبت ميرفت يدها من يده وهى تبتسم فى رضا ، وقالت له : تصبح على خير يافؤاد ، اننى شاكرة لك جدا ، وسيتضاعف شكرى اذا تفضلت فأيقظت لى مــدام بلانش لتساعدنى على خلع ملابسى ٠ ودهش فؤاد لهذا التبدل الذى طرأ عليها ، وكان من الواضح أنها قد استفاقت تماما من الســـكر وأصبحت مسيطرة على نفسها ٠ وقصد فؤاد الى حجرة مدام بلانش

لايقاظها ، وراودته نفسه فى الطريق أكثر من مرة ان يعود الى ميرفت لينعم بهذا الجمال المبذول له والذى طالما تمناه وتشهاه ، وعجب من نفسه كيف أضاع فرصته المحققة عندما كانت فى حجرته ، وكان كل شىء فيها يناديه بعامل رغبتها فى نسيان مافعله خطيبها ، ولكنـــه لم يلبث ان استرد توازنه وقال لنفسه :

ـ لقد أحسنت التصرف ، فما كنت لأرضى منها بنزوة عابرة قد تجر على بعض المتاعب ، واذا كان ولابد ، فليكن حبا حقيقيـــا ينتهى بالزواج فالزواج وحده هو الذى يستحق المغامرة ، أما دون ذلك فلا. وذهل فؤاد من خيـــاله وكيف جمح به ، هل من المعقول ان يتزوج ميرفت رمضان خيرى باشا ، خطيبة ابن رئيس الحكومة ؟ ان هـــذا مستحيل ، لابد انه قد فقد صوابه ، أو أنه جن ، ولكن لا انه لم يجن، انه فى كامل قواه العقلية . وطرق باب مدام بلانش لتستيقظ وتعاون سيدتها ميرفت هانم فى خلع ملابسها .

٥

لم يكد فؤاد يعود الى بيته في موعده الاسبوعى ، ويأوى الى عشه حيث كانت فى انتظاره أليفته الوفية المخلصة ، حتى نسى كل شىء الا أنه سعيد كأسعد مايكون انسان على ظهر الارض وقد اجتمع له الشباب والصحة والحب والحظ الحسن . وراح فؤاد يعبر عن هذه السعادة وهو يتناول الحمام البارد بعد أن كاد ينسى هذه العادة التى شب عليها فى بيت الباشا ، حيث الماء الساخن دائما فى الحنفيات . واسترسل فى غنائه وقد راق له صوته ، وعجب من قدرته على اطراب نفسه الى هذا الحد .

وفى حجرة النوم كانت أزهار تعد له سترته العســـكرية التى سيرتديها بعد ان عادت من لدن الكواء . وكانت قد فرغت لتوها من اعادة تركيب الزراير والنجوم النحاسية على كتف السترة العسكرية، ثم شرعت تفرغ محتويات السترة القديمة لتنقل مافيها الى السترة

الجديدة ، واذا بها تعثر فى جيب السترة على شيء جعل قلبها ينصدع حتى قبل ان تعرف كنهه وحقيقته • وعندما بدأت اصابعها تتحسس هذا الشيء وتدرك عن طريق اللمس أنه صورة ، بدأ قلبها يدق بعنف، وأخرجت الصورة وأطلت عليها ميرفت بعينيها الجميلتين ووجههـا الفاتن وشعرها الذهبى • وكان كل ما يتصل بالصورة يتحدى أزهار، جمالها ، اسرتها ، غناها ، نفوذ أبيها وجاهه • واصفر وجه أزهار وكاد قلبها ينخلع وهى تطالع ما كتب بظاهر الصورة وترنحت وأوشكت ان تسقط من فرط التأثر والاضطراب لولا أنها أسرعت فأمسكت بشباك السرير • واندلعت النيران فى صدرها أشبه بالاعصار والجائحة التى تدمر كل شيء وتقتلع كل شيء ولاتبقى على شيء • واختلط الأمر عليها فلم تعرف أهى غاضبة ، أم حزينة ، أم خائبة الأمل ؟ أهذا الذى يعتلج فى نفسها خوف وجبن ، أم شجاعة واستبسال ؟ أهى قادرة على مواجهة كل شيء وتحدى كل شيء ؟ وكانت هناك حقيقة واضحة وهى ان النيران تتقد فى نفسها وأنها تحترق من الألم وجسمها يهتز بصورة مفزعة وقلبها يوشك ان يقف • وظلت متشبثة بالصورة وكأن يدها ماتت عليها وبدأت الافكار تنوشها ماذا تفعل بهذه الصورة ، أتعيدها فى الجيب القديم ، أم تنقلها الى الجيب الجديد ؟ أتشعر فؤاد أنهـا رأتها وتحاسبه الحساب العسير الذى أجهدت نفسها طوال الاشـهر الماضية والاسابيع الاخيرة بصفة خاصة ان تتحاشاه ، أم تواصـل خطتها فى الاحتمال والصبر الجميل الى نهاية الشوط ؟ وانتابهـا الدوار ، ومرة أخرى تشبثت بشـباك السرير خوفا من الوقوع • وناداها فؤاد من الحمام مبديا دهشته لتأخرها عليه بالمنشفة ، لقـد كانت هذه أول مرة ينتهى من حمامه ويكف عن الغناء دون أن يرى أمامه أزهاره تنشفه وتجففه بأسلوبها وطريقتها الخاصة التى تنعشه فوق انعاشه وتبهجه فوق بهجته • وردت عليه أزهار فى صوت أنكره فؤاد لفرط جفافه واختناقه بأنها قادمة • وكان عليها الآن ان تتصرف بسرعة ووجدت نفسها تتصرف بغير وعى فمزقت الصورة ووضـعت

مزق الصورة فوق السرير لتكون أول شيء يقع عليـــه بصره بمجرد دخوله الحجرة . وذهبت اليه أخيرا تحمل المنشفة وقد سادتها روح التحدى والرغبة فى الاصطدام به . وذهل فؤاد لمرأى وجهها الأصفر وجسدها الذى ينتفض ، وسألها فى جزع عما بهـــا فلم تحر جوابا وظل بدنها يرتجف وشفتاها تختلجان بصورة تلفت النظر . وأسرع فؤاد فارتدى القميص والسروال ولحق بها بعد أن كانت قد سبقته الى حجرة النوم دون ان توجه له كلمة واحدة . ولم يكد ينفذ الى حجرة النوم حتى وقعت عينـــــاه على الصورة الممزقة ، وأدرك كل شيء فى ومضة وهرع نحو الصورة الممزقة وقد أعماه الغضب فراح يصـــيح وهو يقلب فى مزق الصورة :

ـ كيف تتجرئين يامجرمة على فعل ذلك ؟

وانفجر البركان ، الذى تصور فؤاد أنه قد خمد منذ أمـــد بعيد وراح يقذف بالشرر والحمم :

ـ أنا مجرمة ؟ أتسبنى يافؤاد من أجل هذه العاهرة ؟

وصاح بها فؤاد صيحة مخيفة « اخرصى » ولطمها لطمة عنيفـة ، كما لم يلطمها من قبل . وتقلصت عضلات أزهار وجحظت عيناها ، ولو كان لها مخالب لكانت الآن مشرعة مرهفة على استعداد أن تمزق من يعترض سبيلها وصاحت فى وجهه وقد تملكتها لأول مرة هستريا لم يتصور فؤاد أنها يمكن ان تطرأ عليها :

ـ وتضربنى من أجل هذه العاهرة ، ابنة القواد ؟

وذهل فؤاد من هول الانقـــــلاب الذى طرأ على أزهار ، وأدرك بغريزته مغبة معالجتها بالعنف فى هذه اللحظة . لقد كان عهده بهـا اذا ضربها أسرعت تقبل يده . واذا رفع صوته عليهـــا ان تخرص ثم تظل تترضاه حتى يرضى . اما أن تصرخ فى وجهــه اذا صرخ ، وأن تتحداه بهذه الصورة ، فشيء جديد لاعهد له به من قبل . والأحجى أن يصانعها ويعالجها باللين والرفق ، خوفا من أن تحدث له فضـــيحة ، وبدأ يخاطبها فى صوت يغلب عليه العتاب :

ــ ماذا أصابك يا أزهار هل جننت ؟ ألا تعرفين صورة من هــذه، وبنت من هذه ؟

ــ وكيف لاأعرفها ياسعادة اليوزباشي وقد وصــــفتها لى عشرات المرات ، أولم توقع على الصورة بتوقيعها الكريم ؟ أليست هى المحروسة (ننوسة عين أبوها) ميرفت رمضان الوارثة الكبــــيرة وابنة الثرى الأمثل والباشا الكبير مدير حزب رئيس الحكومة ؟

ــ فكيف اذن تفوهت بهذه الالفاظ البذيئة ، وأنت الذى عهدتك مؤدبة مهذبة ؟

وهدأت حدة أزهار ،وقد بدأ مسلكه الجديد يؤثر عليها وقالتله:

ــ وهل جئت بهذه الالفاظ من عندى ، ألم تكن هى ذات الالفاظ والنعوت التى مافتئت ترددها على مسمعى كلما تحــــدثت عنهم ؟ ألست أنت الذى وصفتها لى اكثر من مرة انها لاترقى الى مكانة عاهرة محترفة ؟ ألم تكن أنت الذى وصفت لى أباها أكثر من مرة بأنه ...

وقطع عليها فؤاد الكلام حتى لاتعود لوصف رمضان باشا بما وصفته به ، وقال لها وقد تملكه الخجل واسقط فى يده :

ــ لست أنكر اننى قلت ذلك ، ولكنى قلته على سبيل المباسطـة بينى وبينك ، لا على سبيل الجـد واليقين • وعادت الثورة الى نفس أزهار كأشد ماكانت وصاحت به من جديد :

ــ ومنذ متى اكتشفت انها فى الحقيقة ربة الصون والعفــاف ، وأنها لاتستحق هذا الوصف ؟ أمنذ أهدتك الصورة عربونا على المودة والصداقة ؟ أو منذ اقنعتك حلاوة شفتيها بطهرها ؟

وضحك فؤاد فى عصبية وقد أدرك أن الغيرة تعصــــف بنفس أزهار ، وأنها السبب فى هذا الانقلاب فقال لها مصالحا :

ــ أهدئى أرجوك يا أزهار ولاتجعلى الغيرة تفسد علينا حياتنــــا الجميلة التى عشناها معا • لقد اعتبرتك دائما امرأة عاقــلة ، ولولا ذلك لما ارتضيت أن أعيش معك طوال هذه المدة التى عشتها معك •

واندفعت أزهار كما لو كانت طوفانا يتدفق بعد انكسار سد كان يخزن الماء :

ـ والعقل عندك أن أضحى بكل شيء فى الحياة ثم لاتضحى أنت بشيء ؟ العقل عندك أن أهجر من أجلك اسرتى التى هى كل مالى فى هذه الدنيا ، وان أهجر من أجلك فنى لأعيش لك وحدك ؟ العقل عندك أن أكون خادمة لك مدى الحياة بغير أمل أن أرقى الى مرتبة زوجتك الشرعية فى أى يوم من الأيام ، فى الوقت الذى تفعل فيه أنت ما تشاء وتحب من تشاء ؟ أهذا هو العقل فى حسابك ؟

وبهت فؤاد لهذه المواجهة التى لم تطف له فى خيال ، ولم يتصور فى لحظة من اللحظات أن يكون بقدرة أزهار ان تواجهه بها ، وثارت فى نفسه عنجهيته الريفية ، فما كان يسمح لامرأة أن تتحداه وتقف منه موقف الند وتناقشه الحساب ، فصرخ فى وجهها طالبا منها ان تكف عن مخاطبته بهذه اللهجة ، معلنا اياها أنها حتى لو كانت زوجته، لطردها على الفور اذا خاطبته بهذا الاسلوب من التحدى .

وكانت أزهار قد عادت من جديد الى هدوئها بعد أن أفرغت كل ما كان فى نفسها ، وأدركت واقعها المر وأن علاقتها بفؤاد قد اقتربت من نهايتها ، وقالت له ردا على تنمره :

ـ اطمئن ياسعادة البك اليوزباشى ، فلن أنتظر حتى اللحظة التى تطردنى فيها ، وسأخلى لك البيت . ولاتظن أن هذا القرار من وحى الساعة ، بل لقد كان يراودنى طوال الاسابيع الماضية عقب ترقيتك الجديدة الى رتبة اليوزباشى وشعورى بأننى أصبحت شيئا غير مرغوب فيه ، لايربطك بى الا العادة وطيبة قلبك . ولقد حاولت أكثر من مرة ان أخدع نفسى وأتجاهل هذه الحقيقة فقد كنت أجبن عن مغادرتك وانت لى كل شيء فى الدنيا ، أما الآن فلم يعد مناص من ذلك .

وفوجيء فؤاد مرة أخرى بهذا القرار من أنها لن تبقى فى البيت ، لقد كان يتصور أن مجرد التلويح بذلك سيجعلها تثوب الى رشدها ، وتخر راكعة على قدميه كما فعلت من قبل ، فاذا بها تعلنه بأنها

ستهجره • وزالت عن فؤاد كل عنجهيته ، ولم يعد يذكر الا السعادة المترعة التى تمتع بها مع أزهار ، والا تضحيتها من أجله بالفعـــل • على أن ماجعل قلقا خفيا يستولى عليه وهى تنذره بتخليها عنه ، انه كان قد اعتاد ان ينظر اليها كتعويذة ، وأن مالاقاه من نجاح فى الحياة كان على وجهها ، وخاف أن يتحول عنه الحظ اذا هى غادرته ، فتقدم نحوها وأمسك يدها فىحنان وقال لها :

ـ لاتكونى مجنونة يا أزهار ، أقسم لك أنه لايوجد بينى وبين هذه الفتاة أى علاقة •

وضحكت أزهار فى سخرية ومرارة وقالت له :

ـ فلماذا اعطتك صورتها ياحضرة (الجنتلمان) ؟ ألتبحث لهـا عن عريس ؟ ولماذا احتفظت بالصورة ، ولماذا وصفتنى بالاجرام عندما مزقت الصورة ؟ وتلعثم فؤاد وازدادت رغبته فى مصالحتها فقال لها :

ـ لقد كان هذا خطأ منى اعتذر لك عنه ، لقد فوجئت فارتبكت ، وأنت تعلمين كم يداينني هذا الرجل رمضان باشا الذى رقانى مرتين حتى جعلنى محل حسد جميع رجال البوليس•ألم أقل لك انه أصبح يعاملنى كما لو كنت ابنا له ، أما نظرتى لابنته فيفى فلا تعـــدو ان تكون ••••• وقطعت عليه أزهار حديثه قائلة له :

ـ لاتعدو ان تكون نظرتك الى اخت لك ؟ ! وفر على نفسك ما تظن انك تخدعنى به • لقد أعتذرت لى وما كنت اطمع فى شىء أكثر منذلك، لقد هدأت نفسى تماما وعدت الى هذا التعقل الذى أحببته منى ، عدت كما تعرفنى أزهار التى أحبتك وستظل تحبك كما لم تحب امرأة رجلا من قبل ، والمستعدة بأن تضحى بنفسها من أجل سعادتك ومن أجل ذلك فسوف أفسح لكالطريق بعد أن بدأت امرأة اخرى تنفذ الىقلبك، وأصبحت تتخيل السعادة الى جوارها بأكثر من جوارى • واحتج عليها فؤاد وخبط كفا على كف وقال :

ـ ياسبحان الله كل هذا من أجل صورة ؟ صورة لم تكتب عليها

كلمة واحدة عن الحب ، بل عن الصداقة والود ، وقالت له أزهار في صوتها الحزين :

ـ لاتحاول يافؤاد ان تخدعني وتخدع نفسك ، أفتحسب انني لم أشعر بالتبدل الذي طرأ عليك مذ بدأت صلتك بهذا الباشا ؟ لقد أصبحت تنقم على كل شيء في هذا البيت الذي كنت سعيدا به وتعتبره جنة الله في الأرض ، أنسيت كيف بدأت تصفه بالضيق ، وتتحسر لأنه لاتحيط به حديقة ؟ أنسيت احاديثك عن حياتنـــا وكيف بدأت تصفها بالفقر والضنك ، مع اننا كنا ســـعداء عندما لم يكن راتبك الا جنيهات قليلة ، فكيف يكون ضنكا وقد تحول الراتب الى عشرات الجنيهات ؟ لايافؤاد انك لم تعد فؤاد المجاهد المكـــافح ، لقد أدارت رأسك الترقية تعقبها الترقية ، لقد اشتعل طموحك ولم تعد تعرف أين تقف ، وعندما تهديك ميرفت صورتها مشفوعة بودها وصداقتها ، فما الذي يمنع ان تفكر في زواجها وتصبح بذلك صهرا للباشا الكبير؟

وصرخ فؤاد في وجهها ولكن في استحياء :

ـ أتتصورينني الى هذا الحد مجنونا بحيث اطمع في الحلول محل ابن رئيس الوزراء ؟ ألم أقل لك انها مخطوبة لمحسن بك ابن رئيس الحكومة ؟

فابتسمت أزهار في حزن وقالت له :

ـ ما أسهل أن تفسخ الخطوبات ! وما أسرع مايســـقط رئيس الحكومة ، ثم لايبقى سوى اليوزباشي فؤاد عبد الســـميع الموفور الشباب صاحب الجسم الرياضي . والأب لايرد لابنته طلبـــا ، ان رغباتها عنده مقدسة فما الذي يحول دون زواجك بميرفت في نهـاية الأمر ؟ أناشدك الله يافؤاد أن تصارحني ، أليس هذا هو ما أصـــبح يدور في رأسك ؟

واصفر وجه فؤاد وأزهار تطالعه كما لو كانت تطالع كتـــابا مفتوحا ، ولم يستطع الا ان يحني رأسه مقرا بذنبه . ومحت هـــذه الحركة وما صحبها من شعور بالانكسار آخر مابقي في نفس أزهار

من موجدة عليه ، ولم يبق فى نفسها الا الحب العارم لهذا الانسان الطيب القلب ، فهتفت فى وجهه بحنان :

ـ فؤاد ....

ولم يكن فؤاد ينتظر غير ذلك النداء الذى أدرك معه أنها قد سامحته ، لكى يندفع اليها ويرتمى بين احضانها باكيا وهو يقول :

اقسم لك يا أزهار اننى لم أحب فى حياتى كلها الا أنت ، وأعترف لك اننى تطوحت كثيرا مع الآمال والاحلام ، ولكنك أعدتنى الآن الى صوابى فلا تتخلى عنى ولاتتركينى ، وأعدك أننى لن أذهب من الساعة الى بيت الباشا ، سأعود الى قسمى الليلة بالذات واطلب منهم نقلى من هذه المأمورية الملعونة ، التى تجعلنى احس احيانا اننى قد بعت نفسى لهذا الرجل وصرت عبدا له . سأطلب من المأمور أن يعيدنى كما كنت الى القسم ، وسنرجع كما كنا سعداء . واحاطت أزهار عنق فؤاد بذراعيها ، وقد بدأت دموعها تنحدر فى صمت وقالت له :

ـ ليت اختى فاطمة تراك الآن وأنت على هذه الصورة لتعرف لماذا أحببتك فلا تلومنى بعد اليوم على حبى لك ، ليتها معنا لتدرك مقدار طيبة قلبك والتى تجعلك تتأثر من أجلى وتتصور انك قادر على أن تضحى بكل شىء من اجلى . لو لم أكن عاقلة يافؤاد كما وصفتنى لخدعت نفسى وصدقتك ، لتصورت أن ماتعرضه على الآن أصبح ممكنا. أبعد أن أصبح كل شىء فى متناول يدك ، العز ، والجاه ، والسلطان ، والمال ، والجمال ، تتخلى عن ذلك كله من أجلى أنا ؟ أنا أزهار ، أزهار الراقصة ، والتى لم يكن يحلو لك فى غضبك الا ان تصفها بالعاهرة ؟ لايافؤاد هل تتصور أنك ستكون قادرا لوفعلت ذلك أن تنظر الى نظرة واحدة ، وهل يدور بخلدك اننى يمكن أن أبقى الى جوارك لحظة واحدة لأنك تشفق على ، أو لأنك اعتدت على عشرتى ؟ اننى أعرف مكانى ودورى وسوف انسحب من حياتك وأعود الى أسرتى ، سأعود الى فنى فيظهر أن الله قد كتب على أن أكون راقصة ، سأعود الى الرقص ولكنى أعاهدك أمام الله اننى سأظل لك وحدك كما

كنت لك مذ عرفتك ، واذا احتجتنى فستراني الى جوارك مستعدة أن أضحي من أجلك بكل شيء .

وأجهش فؤاد من جديد بالبكاء بينما راحت أزهار تربت على كتفه وتقول له :

سأظل اذكر هذه الدموع الغالية ، ستكون زادي في وحدتي ، ستكون هي التميمة التي تساعدني في ساعات الضــــعف لكي أظل محتفظة بعهدي لك ، لأنها تدلني على انك على الأقل تحفظ لي عشرتي معك . وران الصمت على الاثنين ، ولم تلبث أزهار ان مسحت دموعها وطلبت منه ان يقوم ويغسل وجهه ويلبس ملابسه ويعود الى عمله في بيت الباشا ، ثم أضافت قائلة : ما كانت أزهار بالتي تقف عقبة في سبيل آمالك واحلامك ، وعندما تعود غــــدا ستراني قد أخليت لك الطريق ، وسأعد لك ملابسك وحاجياتك كلها في بعض الحقائب لكي تحملها معك الى بيتك الجديد ، بعد ان لاتعود بك حاجة الى هذا البيت. وتشبث بها فؤاد وغمرها من جديد بقبلاته ودموعه وقال لها :

- كفى عن هذا السخف والحديث عن تركك اياى ، سأذهب كما تقولين الآن الى عملي ، وسأعود غدا لزيارتك بالفعل ، لكي أراك وقد ثاب اليك رشدك ولم يطاوعك قلبك على ترك حبيبك ، انني أقول لك مرة ثانية وأنا جاد فيما أقول انني على استعداد أن أتزوجك اذا كان هذا هو السبيل الوحيد لبقائك الى جواري .

وشكرته أزهار من جديد على هذه الكلمات الطيبة التي أصبحت متأكدة أنه لايقولها الا وهو مطمئن كل الاطمئنان الى أنها لن تســـمع لحرف واحد مما يقول ، ومضت في صمت تساعده على لبس ملابسه الجديدة النظيفة ، وأعادت تلميع النجوم التي ازدحم بها شريط الكتف، وأحس فؤاد بقلبه ينعصر حزنا على أزهار وهو يقبلها مودعا بينما كانت ترتجف بين ذراعيه ، وهو يقول لها انه سيعود اليها في الصــــباح ويجب ان يراها .

وعاد فؤاد بالفعل في صباح اليوم التالي ، ولم يفاجأ بالســكون

الذى كان يرين على البيت ، فقد كان متأكدا من أن أزهار ستنفذ عزمها • وطفرت الدموع من عينيه ، عندما رأى ان أزهار قد برت بوعدها فأعدت له حقائب ثلاثا تحوى كل ملابسه ، وهى كلها فى أحسن حال • وانحدرت دموعه وهو يستقل عربة الباشا التى حملته وحقائبه نحو قصر الباشا مبتدئا رحلته الجديدة ، وطاويا صفحة من حياته وناشرا صفحة جديدة • على أن الدموع التى تحدرت من عينيه لم تكن دموعا مرة ، بل كانت حلوة ، يحليها الأمل الموعود فى أن يصبح زوجا لميرفت فيحظى بالجمال والنسب والغنى والعز والجاه • وظلت الدموع تنحدر لفرط تأثره من فعلة أزهار وكيف حلت له الاشكال الذى كان قد بدأ يعيش فيه بالفعل منذ أسابيع •

الفصل الرابع

١

استيقظت القاهرة ذات صباح لترى الشوارع ومركبات الترام والسيارات العامة وقد غصت بالمتطوعين والمتطوعات من مشروع القرش يحملون الشارات على صدورهم وعلى أذرعتهم ويوزعون طوابع القرش، التى رسم عليها مصانع تشاد وكتب عليها ، تعاون وتضامن فى سبيل الاستقلال الاقتصادى . وأقبلت جماهير الشعب وخاصة فى القاهرة والاسكندرية على ابتياع طوابع المشروع. وكان قد أعلن عن اقامة مهرجان يخصص ايراده للمشروع فى حديقة الأزبكية ، فأقبل عشرات الألوف من طبقات الشعب المختلفة للاحتفال بهذا المهرجان العظيم ، بحيث اختفى كيان الحديقة وتحولت الى كتلة بشرية حية تمثل كائنا عملاقا له مائة ألف عين ومائة ألف ذراع قادر على فعل كل شىء ، لايقف فى سبيل ارادته شىء .

وكانت جميع الهيئات من حكومية وشعبية ، قد تسابقت للمساهمة فى هذا المهرجان ، فاحتشدت موسيقات الجيش بأنواعها ، والبوليس ، وموسيقات الفرق الأهلية ، وقد جاءت كلها متطوعة . وغصت الحديقة بالبهلوانات والحواة ومروضى الحيوانات. كما أقيمت عدة مسارح تمثل عليها الفرق المسرحية ، ويغنى فوقها جميع مطربى مصر ومطرباتها . واقيمت حلقات للشعر والخطابة والزجل لمنح جوائز للمتفوقين . وجاء الشعب يشهد ذلك كله ويدفع قروشه مساهمة فى المشروع .

وكان اليوزباشى فؤاد عبد السميع ، كأى مصرى آخر ، يحس

بالزهو لنجاح المشروع فى مرحلته الأولى مرحلة تجاوب الشعب معه • ولكنه كان يحس فوق ذلك بزهو مضاعف ، باعتبار ان قادة المشروع من الطلبة هم من أصدقائه أو معارفه ، ولذلك فقد طلب من ميرفت أن تصحبه الى مهرجان القرش • وكانت ميرفت قد توثقت علاقتها بفؤاد بحيث أصبحت خطيبته غير الرسمية أو بالاحرى خطيبته الفعلية • ولم يكن باستطاعة والدها كما كان فؤاد يتوقع أن يقف فى طريقها أو يعترض مشيئتها ، ولذلك فقد بدأ يخرجان سويا ، ويسهران سويا فى داخل البيت وخارجه • واعترضت ميرفت على فكرة ذهابها الى مهرجان مشروع القرش ، فهى تكره زحام الجماهير ، ولاتحب هذه المسائل البلدى • ولكن تاثير فؤاد كان قد بلغ الحد الذى يستطيع معه ان يحملها على فعل اشياء لم تتعود أن تفعلها من قبل، فوافقت آخر الأمر على الذهاب معه اكراما لخاطره•ولم يكادا ينزلان من سيارة ميرفت حتى راحا يخوضان وسط الجموع المحتشدة ، وبدأ يعاود ميرفت ضيقها وتبرمها بجماهير الشعب الذى كانت تخاف منه، وتعتبره شعبا همجيا أو بربريا • وانقض عليهما بمجرد اجتيازهما عتبة باب الحديقة ، أحد متطوعى المشروع يعرض عليهما طوابعه ، وابتسم له فؤاد وقال له :

ــ هل تتصور اننا لم نشتر طوابع المشروع حتى الآن؟ اذن انظر، واخرج فؤاد من جيبه حفنة من طوابع المشروع التى ظل يشتريها طوال الأيام الخمسة الماضية ، ولكن المتطوع أبى مع ذلك أن يقتنع فضلا عن ان ينصرف ، بل قال لفؤاد :

ــ مادمت وطنيا غيورا الى هذا الحد وكريما الى هذا الحد ، فما عليك اذا زدت هذه الطوابع التى معك طابعا جديدا ، وأن تضم الى ما أنفقت من قروش قرشا آخر ؟

وضاقت ميرفت بهذا الذى اعتبرته لجاجا وصرخت فى وجه المتطوع :

ـ ألست تفهم عربى ؟ لقد قال لك أنه اشترى ، هيا اتركنـــا وشأننا • وابتسم فؤاد لميرفت وقال لها :

ـ مهلا ياميرفت ، ألست ترينه قد أجابنى ببراعة ، الحق ان هذا مايعجبنى فى هؤلاء الشبان وحماسهم المنقطع النظير • اننى لم استطع أن أتخلص من أى متطوع أو متطوعة الا بعد ان أدفع لهم • واخرج من جيبه خمسة قروش واشترى بها خمسة طوابع جديدة •

وقالت ميرفت فى عصبية :

ـ ألم تقل لى ان معنى مشروع القرش هو أن يدفع كل انســان قرشا فقط ؟

فقال فؤاد هذه هى الفكرة من الناحية النظرية ، أما من الناحية العملية فلا سبيل لتوصيل دعاية المشروع الى القرى التى يسكنها أكثر من نصف الشعب المصرى ، ولو وصلت الدعاية الى هناك ووعاها الفلاحون فهم لايملكون هذا القرش ، وعلى ذلك فيجب ان يدفع القــادرون عن غير القادرين حتى يمكن جمع مبلغ محترم يكفى لانشاء المصـــانع المطلوبة • ووجد فؤاد وميرفت نفسيهما منساقين وسط الجمـــوع لدخول سرادق قريب تنبعث منه أصوات الموسيقى • ولم يكادا يدخلان السرادق حتى كاد فؤاد يصعق فقد شـــاهد على المسرح أزهار وهى ترقص والجمهور يصفق لها لاحكام الايقاع الموسيقى • وســـحب ميرفت من ذراعها بحركة تلقائية ليخرج بها من هذا المكـــان ، ولكن ميرفت تشبثت بالارض وقالت له :

ـ انتظر يا فؤاد ان هذه البنت الراقصة رائعة جدا •

ولم يستطع فؤاد الا أن يستسلم للبقاء خوفا من أن يلفت نظرها لشىء غير عادى ، ولكنه حرص على أن يبقى مستترا فلا تقع عليه عينا أزهار • وانتهت الموسيقى واسدل الستار ، ولكن الجمهور راح يصفق فى حماسة لتعيد أزهار رقصتها ، ورفعت الســـتار وبدأت ترقص ، ولكن الجمهور اكتشف ان الموسيقى تعزف القسم الأخير فصـــاح الجميع « من الأول ، من الأول » •

ومرة اخرى حاول فؤاد ان يجر ميرفت قائلا لها :

ـ ان الحديقة على ماتقول الاعلانات مليئة بكل صنوف المتنوعات، وأنا أريد أن أسمع ليلى مراد • ولكن ميرفت أصرت على البقـــاء حتى تشهد الرقصة من جديد قائلة له :

ـ البنت دى فيها شيء غير عادى ، انها ترقص بكل ذرة بجسمها ، بكل خلجة من خلجات نفسها ، انك تعرف اننى استاذة فى الرقص ، انظر الى جسمها المدهش ، وكيف يطاوع خواطرها مطاوعـــة عجيبة وبدأت الكآبة تتسلل الى نفس فؤاد فهذه المرأة التى تلهب حماســـة الجماهير بهذه الصورة كانت له وحده ، كانت ملك يمينه • وأوشك ان يتنهد فى حسرة ، ولكن ذراع ميرفت الذى كان تحت ابطه والذى كان يضغط على خصره تحت تأثير انفعالهـــا ، كان يذكره بالواقع الأجمل الذى يعيش فيه ، انه يجب أن يتخلى عن هذا الماضى الى الابد وان ينساه ، ولايفكر الا فى مستقبله ، لقد اصبح الطريق معدا لكى يكون زوج ميرفت بمجرد ان تفسخ خطبتها مع ابن رئيس الحـكومة وسميا بعد ان كانت قد فسخت من الناحية العملية ، وشتان بين هذا المستقبل وبين مستقبله اذا ظل مع أزهار • وانطلقت عاصـــــفة من التصفيق تحية لأزهار واسدلت عليها الستار • وخرج فؤاد أخيرا من هذا السرادق مع ميرفت ، وفى نفسه شعور بالنجاة من هذا المأزق • ولكنه فوجئ بفاطمة اخت أزهار تحمل على ذراعهـــا شريط التطوع الاخضر وكانت قادمة فى اتجاه السرادق الذى ترقص فيه اختهـــا • واصفر وجه فؤاد وخفق قلبه رعبا من رؤيتها ، فقـــــد كان يحس باحتقارها له لموقفه من اختها • وقد رأته فاطمة بالفعل وملأت عينيها من منظر ميرفت ، ثم لم تلبث أن أشاحت بوجهها كما هو شأنها كلما صادفته فى طريق وهى تنظر له فى احتقار •

ولم تفت ميرفت حركة فاطمة ، فسألت فؤاد عن شأنه مع هـــذه الفتاة • وتجاهل فؤاد كل شيء ، وسألها أى فتاة تقصد ، فأشارت له الى فاطمة مؤكدة له ، أنها لمحت فى عين الفتاة بريقا غير عادى يدل على

انها تعرف فؤاد ، وتلعثم فؤاد وأصر على انكـاره • وتوقفت ميرفت ، وقالت له : ألم نتفق على ان نبدأ صفحة جديدة ونسدل ســتارا على الماضى شريطة ان لايخفى احدنا عن الآخر شيئا ؟

وأقسم فؤاد بشرفه ، انه لايعرف عن الفتاة شيئا • وكانت هذه أول مرة يقسم فيها فؤاد بشرفه كذبا على مايذكر ، ولذلك فقد أحس بلذعة فى قلبه عقب هذا القسم، ولكنه لم يلبث أن سخر من وساوسه، فقد انتهى به الأمر واختار طريقه فلابد من الوصول الى المراكز العالية، والعالية جدا • ولاسبيل لذلك الا أن يدع جانبا هذه الأوهام الريفية، وأن يتحلى بأخلاق المجتمع الجديد ، مجتمع الكبار والحـكام ، حيث الوصول والنجاح بأى ثمن هو الفضيلة التى لاتعد لها فضيلة • فماذا عليه لو أقسم ألف يمين بالله أو الشرف ، اذا كان ذلك يخلصـه من مأزق ، ويوفر عليه بعض المتاعب والمضايقات ؟ ومادامت ميرفت لن تقابل فاطمة فلا خطر من افتضاح الكذبة • وعلى أية حال فهو لم يكن بينه وبين فاطمة أى علاقـة من أى نوع كان فهو ليس كاذبا • وبدأ فؤاد ينعى على نفسه فكرة المجىء الى هذا المكان ، اذ كان يجب أن يتوقع أنه قد يلتقى مع أزهار ، أو أحد من أقاربها ، فالمهرجان يضم جميع الناس • وقرر أن يبادر بالخروج ، ومهد لذلك بأن سأل ميرفت اذا كانت لاتزال ترغب فى الانصراف ، واجابته ميرفت قائلة :

ـ ان ما رأيته وأراه هو شىء جديد علىّ ، الناس كلها فرحـة مسرورة ومتحمسة ، لم يدر بخلدى أن يكون بقـدرة المصريين ، ان يكونوا كالاوربيين فى القدرة على السرور والابتهاج الجماعى كما أراه الآن • أمتأكد أنت أن الشباب من الطلبة هم الذين فكروا فى هـذا المهرجان ونظموه ، وان كل هؤلاء المتطوعين يعملون تبرعا بالمجـان ؟ وأجاب فؤاد وقد عاد اليه شىء من الحماسة التى كانت قد خمدت بعد رؤيته أزهار ثم فاطمة :

ـ طبعا متأكد كل التأكد • ولم يكد يفرغ من عبارته حتى وجـد نفسه أمام صاحبه فكرى وجها لوجه ، فعادت اليه كل مظاهر السرور

والابتهاج ونسى كل شيء واسرع فهتف باسم فكرى وقدمه الى ميرفت كأعز أصدقائه ، أو بالاحرى صديق طفولته الوحيد واحد المشرفـــين والمنظمين على هذا المهرجان • وأخذت ميرفت ببهاء طلعة فكرى واشراقه كما أخذ هو بجمالها ، وعرض عليها وعلى فؤاد أن يدخلا الى سرادق ادارة المشروع ليسلما على بقية اخوانه فوزى ومحيى وخالد ورياض • وكان جمال وجه فكرى ورقته هو الحافز لميرفت كى تلبى هذه الدعوة، وقد فوجئت بمجرد دخولها بحشد من الفتيـــات والفتيـــان داخل السرادق ، وراح فكرى يقدم لميرفت بعض المتطوعات ، فقدم لهـــا أخته أميرة وآمال ، ومشيرة زميلتهم الطالبة بالحقوق • وأقبلت عليها آمال محتفية بها أكثر من الجميع فقد كانت تتابع أنباء ميرفت من حين لآخر باعتبارها من نجوم المجتمع • وكانت تعرف أنباء حصولها على جوائز الرقص • وابتهجت ميرفت أن تجـــد بين متطوعات القرش من تعلم عنها كل هذه الاخبار والتفاصيل ، وزاد فكرى ميرفت تعريفـــا بآمال وأنها خطيبة فوزى صاحب فكرة المشروع ، وأنها مدرسة وقد تعلمت فى انجلترا • وبدأ المتطوعون من الشباب يلتفون حول ميرفت مبهورين بجمالها • ووصل فوزى ومحيى فقدمهمـــا فكرى لميرفت ، وأحست ميرفت بروح تغمرها فاذا بها تخلع اسورتها الماسية ، وتقول كلاما كثيرا أكثره بالفرنسية وأقله بالعربية ، وفهم الجميع أنهـــا تعبر به عن اعجابها بمشروع القرش ، وأنهـا تتبرع باســـورتها للمشروع •

وبهت الجميع لهذه المفاجأة غير المتوقعة وقال فوزى :

ــ ان هذه عاطفة نبيلة ، وآية جديدة على مقدار القوة الكامنة فى هذا الشعب والتى اذا تحركت فعلت المعجـــزات ، ولكنى أرجوك ان تحتفظى باسورتك ريثما نضع نظاما خاصا لقبول مثل هذه التبرعات العينية ، فليس باستطاعتنا ان نأخذ مالا عن غير الطرق المحكمة التى وضعها الخبراء ، والتى تضمن وصول كل قرش الى مستقره •

فقالت ميرفت :

ـ اذن فلتضعوا هذا النظام الآن ، فلن استرد هـذه الاسورة ، وأسرعت بوضعها على المكتب الوحيد الذى كان موجودا فى السرادق • وعبثا حاول فوزى ان يوسط فؤاد لدى ميرفت لكى تسترد اسورتها ، فقد أكد له فؤاد ان لاطائل من وراء هذه الجهود ، وانهم اذا لم يأخذوا الاسورة فستلقى بها على الأرض •

وكان بعض الصحفيين قد تسامعوا بالخبر وأن ابنة رمضان باشا قد تبرعت بحليها للمشروع ، فاسرعوا يتقصون حقيقة الخبر وانهال المصورون يرسمون ميرفت ، والاسورة • وجاءت فاطمة لبعض الشئون وهى لاتعرف شيئا مما يدور فى داخل سرادق الادارة ، فاذا بمشيرة لاتكاد تراها حتى تقول لها :

ـ لقد ظهرت لك منافسة خطيرة يافاطمة ، فقد تبرعت الآنسة ميرفت بأسورتها الماسية التى قد لايقل ثمنها عن مائة جنيه • وامتقع وجه فاطمة عندما وقع نظرها على ميرفت بجوار فؤاد ، ولم تستطع ان تقاوم رغبة جامحة فى تحدى ميرفت وفؤاد معا ، فهزت كتفيها فى احتقار وقالت :

ـ وأين موطن المقارنة هنا أو المنافسة ؟ أما انا فقد جمعت المائة جنيه التى جمعتها قرشا قرشا ، بالكدح من الصباح حتى المساء أياما متوالية ، متنقلة من مدرسة الى مدرسة ومن بيت الى آخر ، فأين هذا من التبرع باسورة لايمكن ان تكون قد كلفت المتبرع قليلا أو كثيرا ؟ وصرخ أكثر الحاضرين فى وجه فاطمة احتجاجا على تهجمها على ميرفت ، وأسرع البعض يعتذر لميرفت عن فاطمة طالبة الطب بأنها مشهورة بطول لسانها • ووقفت ميرفت مصفرة الوجه مرتجفة البدن لهذا الهجوم غير المتوقع • أما فؤاد فقد دارت الأرض من حوله وكاد يقع مغشيا عليه من هول المفاجأة ، وخوفا من ان يتطور الموضوع ويفقده كل شىء • وكانت ميرفت هى أسرع الجميع الى السيطرة على على أعصابها ، فقالت بالفرنسية مايعنى أنها لاتبالى وأضافت على ذلك قولها :

— على كل حال ، كل واحد يعمل بأصله ·

وأمسكت بيد فؤاد الذى كان حائرا لايعلم كيف يتصرف ، وجرته من يده جرا لتخرج من الحديقة · وجرى وراءها خالد أمين باعتباره أمين الصندوق ليسلمها الايصال الدال على استلامه اسورتها ، فلم تصغ لشيء مما قال ، ورفضت أن تمد يدها لتتناول منه الايصـال ، ولكن خالد أبى الا أن يلاحقهما حتى اضطر فؤاد ان يأخذ منه الايصال شاكرا ، ولم يكد فؤاد يفرغ من قضية الايصال حتى قال لميرفت فى صوت يقطر أسى :

— أنا آسف جدا يافيفى ، ليتنا ماجئنا · فقالت له فى صرامـة رهيبة جعلته ينتفض خوفا :

— شيء واحد هو الذى يهدىء نفسى بعض الشيء ، أن تعترف لى أنك كذبت على ، وان تقص على كل شيء ، لماذا وقفت منى هذه الفتاة السافلة هذا الموقف العدائى ؟ انها لايمكن ان تكون اهانتنى الا بسببك أنت ، فمن غير المعقول أن تعتدى على بغير سبب · لابد ان تقص على كل شيء ، والا فسيكون هذا آخر مابيننـا · واعترف فؤاد بأنه قد كذب عليها فعلا ، وأن قلبها لم يخطئها عندما أحست أن هذه الفتاة تعرفه ، ووعدها ان يقص عليها القصة كاملة بمجرد عودتهمـا الى البيت ·

٢

نجحت أزهار أخيرا فى الانضمام الى فرقة بديعـة ، حيث كانت صاحبة الفرقة تتوق لضمها اليها منذ أمد بعيد · وبدأت أزهار تخلب الالباب من جديد وتستطير شهرتها ، وكانت خاصيتها التى يتحدث عنها الجميع ، أن لديها من التأثير على الجماهير ، ما يجعل كل فرد من المتفرجين يتصور أنها ترقص له وحده من دون الناس اجمعـين · وكان الكل يشعرون بأن وراء هذا الجسد الفائر ، وراء هذا التلوى والتثنى والدلال ، نفسا لاتقل جمالا عن هذا الجسد ، ولم يكن أحـد

يعرف من أين يأتيه هذا الشعور . وكان نجاحها يتجدد كل ليلة ، ولم تعد مطالبة كغيرها من الراقصات بمجالسة الزبائن ، أو ان تفعل ما كانت قد اعتادت تفعله فى بورسعيد من معابثة الزبائن ، فقد كانت مكانتها كراقصة تعتمد على فنها وشهرتها قد أغنتها عن هذا السبيل .

وشهد رقصها فى احدى الليالى أحد اصدقاء بديعة مصابنى وهو يملك كازينو فى بيروت ، فرجاها أن تسمح له باختطاف نجمتها الجديدة . فقالت بديعة أنها لاتمانع فى ذلك ، وان كانت تشك فى ان أزهار ستقبل الاغتراب عن مصر . وتحدث صاحب الكازينو البيروتى الى أزهار ، وعرض عليها ان ترقص فى بيروت مقابل مائة جنيه كل شهر . وكادت أزهار تصعق عند سماعها الرقم فقد كان مرتبها قد وقف عند حد ثلاثين جنيها لاتزيد لأن المفروض أن راتبها الحقيقى انما تتقاضاه من الزبائن والمعجبين عن طريق العمولة على مايشربون ، أو الهدايا التى يقدمونها لها بطريق مباشر . ولما كانت أزهار قد حرمت على نفسها مجالسة أحد ، فضلا عن بذل نفسها لأحد، فقد أصبحت الثلاثون جنيها هى كل مايمكن ان تطمع فيه ولو حلقت الى السماء . وعلى عكس ماتصورت بديعة مصابنى من أن أزهار لن ترضى عن مبارحة مصر ، كانت أزهار شديدة الرغبة فى البعد عن مصر ، فقد كان جرح قلبها لم يندمل ، وما كان ليمكن ان يندمل ، وكان يحز فى نفسها ، أن يحدثها الكثيرون عن قصص فؤاد وكيف أصبح يرى هو وميرفت فى كل مكان ، وبخاصة دور اللهو ونوادى القمار والكباريهات ووافقت أزهار على السفر الى بيروت ، وكان شرطها الوحيد ان تكون راقصة ولازيادة بمعنى ان لايطمع صاحب الكابريه منها فى غير مودة العمل والزمالة . وقبل صاحب الكابريه اللبنانى شرطها وهو يبتسم وأفهمها أنه ما كان ليدفع مائة جنيه فى الشهر من أجل خليلة ، فى الوقت الذى يغص فيه لبنان بالجميلات الفاتنات ، وانما هو يريدها فى بيروت ليحدث بها حدثا فنيا جديدا .

وحملت أزهار النبأ لاسرتها فتعلق حسن برقبتها وقال لها :

– خذينى معك يا اختى سميحة ، لاتتركينى والنبى يا اختى فان حبى لك قد أصبح فوق ماتتصورين · وقالت لها امها فى عتاب :

– وتتركينا ياسميحة وتتغربى فى البلاد البعيدة ، وهل نهـــون عليك ؟ أنسيت اننى أصبحت كبيرة ومريضة وأن الموت قد يأتينى فى أية لحظة ، أأموت دون ان أراك ؟

وصرخت أزهار فى فزع :

– بعد الشر عنك يا أمى ، لا أرانى الله ذلك اليوم ابدا · مادمت قد قلت ذلك فلن أسافر سابقى معك · وهنا تدخلت فاطمة وقالت :

– بل تسافرين يا أزهار ، وألف مبروك عليك · ثم التفتت لأمها وقالت لها ، اتركيها يا أمى تسافر ، أفرضيها لاتزال تقيم مع السيد فؤاد ، أو لم يكن يحرمنا من رؤيتها ؟ ســـافرى يا أزهار ، وانجحى وتألقى واجعلى مجدك ونصرك يعبر لنا البحار من بيروت الى هنا ، حتى نكيد العدا ، فى الوقت الذى لن يلقى فيه فؤاد الا الوكسة والفشل ·

واحتجت أزهار على اختها وقالت لها : أولم نتفق على ألا نذكر فؤاد بخير أو بشر ؟ فلماذا تفتحين موضوعه الآن ؟ فقالت لها فاطمـة ذلك اننى سمعت اليوم أثناء اجتماعنا فى لجنـــة مشروع القرش من فكرى ، ان فؤاد الوصولى قد اتفق نهائيا مع والد ميرفت على خطبتها ، وقد طلب من ميرفت ومنه أن يعطياه مهلة كى يتفق مع صاحبه رئيس الحكومة على فض خطبة ابنه عليها ، مادام قد هجرها نهائيا · واصفر وجه أزهار وحاولت ان تتجلد وتتظاهر بقلة المبالاة وقالت :

لقد كان هذا أمرا متوقعا منذ زمن بعيد ، وقد رضـــت نفسى عليه ، فلا جديد فيه ، يحملك على نقض اتفاقنا وهو ان نمسك عن ذكره · فقالت فاطمة : وكيف أمسك عن ذكره وكل شيء يذكرنى به سواء كنت فى البيت ، أو فى مقر جماعتنا ، وانا اقارن بينــــه وبين زملائه السابقين · هل تتصورين أن فكرى يقول لى ان فؤاد هذا كان زعيم الطلبة فى مدرســـــة المنيا ، وكان هو الذى يقود المظاهرات

ويقذف البوليس بالحجارة ؟ فانظرى اليه الآن وقد تحول الى وصولى حقير ، بينما يحلق كل زملائه واقرانه فى سـماء الوطنية • ليتك يا أزهار كنت معى ونحن نضع الحجر الأساسى لأول مصانع القرش ، والذى قررنا ان يبدأ بغزل الصوف وصنع الطرابيش والقبعـات • ليتك سمعت آخر مانطق به شوقى أمير الشعراء فى الاشادة بمشروعنا قبل ان يبارح الدنيا • لقد كان مهرجانا يتضاءل الى جواره مهرجان الأزبكية ، كان كل شيء حولنا يتحدث عن عزيمة الجيل الجديد الذى تغلب على جميع الصعوبات التى اعترضت سبيله حتى حقق ارادته ووضع الحجر الأساسى لأول مصانع الشعب المملوكة للشعب • ومن الذى فعل ذلك ؟ انهم شباب من سن فؤاد بل وكان يزامل بعضهم ، فاصبحوا تخفق قلوبنا بذكرهم ، آما هو فيتمرغ فى حمأة الوصولية، ويقف مع أعداء الشعب وجلاديه واجهشت أزهار بالبكاء وقالت :

ـ لماذا يافاطمة تعذبيننى بهذه الأقوال ، وتأبين الا ان تذكرينى بتعاستى ؟ ستثبت لك الأيام ، ان فؤاد شـاب طيب وأنه يحبنى ، ولكن ظروفه وبيئة البوليس الثى يعيش فيها ، وعدم قـدرته على نسيان ماضى ، كل ذلك جعله يتصرف معى ، بما يبدو لك انه قسـوة وأنانية • وهزت فاطمة كتفيها يأسا وقالت :

ـ أبعد ذلك كله ، مازلت تتلمسين له الاعذار ؟ انك مخلوقـة عجيبة ياسميحة ، من أى طينة أنت ؟ فتنهدت أزهار ، وقالت : طينة البؤس والشقاء الذى لاقيته فى أول حياتى • ثم نظرت لأمهـا التى كانت تبكى فى هدوء وصمت وقالت لها :

ـ لن أسافر اذا بقيت تبكين هكذا • وصاح أخوها حسن : خذينى معك ياسميحة فانتهرته فاطمة قائلة :

ـ انك لم تعد صغيرا لتتصرف هكذا ، أنسيت أنك اصبحت طالبا فى الثانوى منذ زمن ؟ واقبلت أزهار على حسن تعـانقه وتقول له : ياحبيبى ياحسن • وجففت الأم دموعها وقالت :

ـ بل تسافرين يا ابنتى مصحوبة بالسـلامة ، مادام فى ذلك

مصلحة لك ، وسوف يعينني الله على فراقك • ســـأظل أدعو لك فى صلاتى ان يحفظك الله ويرعاك ، وكل شرطى عليك ان تكتبى لنا فى كل اسبوع خطابا ، وأن تزورينا كل بضعة أشهر • فعانقتها أزهار وقالت لها :

ـ وهل هـــذه شروط يا أمى ، ســـوف أكتب لـكم كل يوم لو استطعت الى ذلك سبيلا • وأخرجت من حقيبتهـــا دفترا للتوفير قدمته هدية منها لأخيها حسن ، وقالت له انها سترسل باســـمه خمسة جنيهات كل شهر ليضعها فى هذا الدفتر علاوة على الخمسين جنيها التى سترسلها باسم فاطمة لتنفق منها على البيت وتدخر الباقى فى دفتر توفيرها • واحتجت الأم بأن هذا القدر كبير جدا ولاحاجة لهم به ، ولكن أزهار قالت لها انها لم تقبل السفر الى بيروت الا ليكون فى وسعها أن تحصل لهم على أكبر قدر من المال ، فمن يدرى ان لاتهجر الرقص نهائيا فى يوم من الأيام ، واسرعت فاطمة تقول :

ـ أويرسل لها السيد فؤاد برقية ، كما فعل فى بورسعيد ، كى تترك كل شىء من أجله وتعود راكبة طائرة • وعانقت أزهار اختهـــا وقالت تعاتبها :

ـ ماهذا الحقد الذى تحقدينه على فؤاد ؟

ـ لأنه اذا كان يحبك كما يزعم فكان يجب ان يتزوجك •

ـ لايمكن ان يكون هذا السبب وحده مايجعلك حانقة عليه الى هذه الدرجة، أنسيت ما أقوله لك دائما من اننى مدينة له برد شخصيتى واعتبارى ؟ واننى مدينة له بنجاحى الذى انا فيه ولو لم أقابله ، لظللت كما تعرفين ، ولا أظنك كنت راضية عما كنت فيه ؟ وسكتت فاطمـة لاتجيب وقد أفحمها كلام أختها كما هى العادة • فأسرعت أزهار تقبلها وتقول : ياحبيبتى يافاطمة • ثم ومض فى ذهنها خاطر ان تكون فاطمة محبة لواحد من هؤلاء الشبان الذين تعمل معهم ، فانتهزت فرصـــة خروج أمها وحسن من الحجرة ، وقالت لها :

ـ والآن ونحن نوشك ان نفترق ، الا تقولين لى من الذى يشغل

قلبك من هؤلاء الشبان الذين لاتفتئين تشيدين بذكرهم ، وتقــارنين بينهم وبين فؤاد ؟

واحمر وجه فاطمة وقالت :

ــ ان مايشغلنى فى آلدرجة الأولى هو كيف أتم تعليمى وأصبح دكتورة ، كيف أكون من أولى فتيات مصر اشتغالا بالطب ، وانتقم لك ولأمى ولأبى ولكل الذين طحنهم الفقر فقسا عليهم المجتمع وتنكر لهم٠

فردت عليها أزهار قائلة :

ــ هذا أعرفه ، وأعرف انك ستحققين هدفك من هذه الناحية ، ولكنى أريد ان اطمئن على قلبك ، فمن الذى يشغل هــذا القلب ، أهو فوزى أم فكرى أم محيى أم واحد لا أعرفه ؟ فقالت فاطمة :

ــ أما فوزى فقد عرفتك بخطيبته آمال وحدثتك عنها وعن قوة شخصيتها ٠ ومحيى شبه خاطب لأميرة أخت فكرى ٠ وهتفت أزهار :

ــ انه فكرى اذن ، أنا متأكدة منذ البداية أنه فكرى ولكنى أردت أن اسمع ذلك منك ٠

ومرة أخرى احمر وجه فاطمة وقالت :

ــ لست أدرى ٠

ــ بل تدرين من غير شك وقلوبنا لايمكن ان تخطئنــا ، اننى متأكدة ان فكرى هو الذى يشغل قلبك ٠ وفوجئت أزهار بفاطمــة تجهش فى البكاء فى حرقة وتقول لها :

ــ أنسيت ان فؤاد هذا المجرم هو صديق فكرى وقد حدثه بكل شيء عنا ، أقصد عنك ؟ واصفر وجه أزهار وهى تدرك لأول مرة سر حقد فاطمة على فؤاد ، وكيف أن ماضيها لايحول بينها وبين السعادة فحسب ، بل لقد بدأ يمتد الى سعادة أختها ، وانخرطت بدورها فى البكاء وعانقت اختها وراحت تقول لها :

ــ سامحينى يافاطمة ، سامحينى يافاطمة ، وامتزجت أنفــاس الأختين ودموعهما وغرقتا سويا لبعض لحظات فى بحر من التعاسة ٠

٣

طرقت آمال باب حجرة الست الناظرة مستأذنة فى الدخول ، لتسلم عليها سلام الوداع بمناسبة انتهاء العــام الدراسى ، ولم تنتظر حتى يؤذن لها فقد دخلت بمجرد طرقها للباب ، ولم تكد الست الناظرة تراها من وراء نظارتها الذهبية ، حتى هتفت بها مرحبة ترحيبا غير عادى :

ــ اهلا وسهلا ، ست آمال ، كل سنة وأنت طيبة ، سنفتقدك بشـــــــدة .

واقبلت آمال تسلم على الناظرة وهى مغتبطة بهذه الحرارة غير العادية فى الحفاوة ، ولم يفتها كيف ضغطت الست النـــــاظرة بصفة خاصة على عبارة سنفتقدك بشدة . وقالت آمال :

ــ انك تعرفين ياحضرة الناظرة كيف تنقضى اشهر الصيف بسرعة البرق . فقالت لها الناظرة الوقور وقد خرجت لأول مرة عن وقارها اذ غمزت بعينيها وهى تبتسم :

ــ أنا لا أقصد غيابك عنا بسبب الاجازة الصيفية ، وانما أقصد بها الاجازة النهائية عن طريق الاستقالة . وامتقع وجه آمال وكاد قلبها يقف من شـــــدة المفاجأة ووقع كلمة الاستقالة على اذنها ، وبادرت تقول وهى متلعثمة :

ــ استقالة ؟ لماذا استقيل يا حضرة الناظرة ؟ مالذى تقصدينه ؟ وضحكت الناظرة ملء شدقيها وقالت :

ــ الله يجازيكى يا آمال ؟ ما هذا الذعر الذى انتابك من الحديث عن الاستقالة ، اننى آسفة جدا ، فلم أكن أقصد ازعاجك ، وانما عنيت الاشارة الى موضوع زواجك فى هـــــذا الصيف : وسرى عن آمال ، وعاد الى وجهها الدم الهارب ، وحلت السعادة محل الفزع ولم تجد ما تقوله الا ان راحت تكرر :

ـ أما انت يا حضرة الناظرة ؟ وضحكت الناظرة من جديد وقالت :

ـ اما انا ؟ ، أما أنا ماذا ؟ لقــد حدثتنى زميلتك فتحية ان الأستاذ فوزى خطيبك قد حصل على الليسانس بمرتبة الشرف ، وانه استدعى للعمل فى أكثر من جهة قضائية . وعبست آمال بعض الشىء وقالت :

ـ هذا صحيح ، ولكنه لم يلب أيا من هــــذه الدعوات ، ولقد صرخ فى وجهى عندما طلبت منه ان يختـــــار بعض هذه الوظائف ، وقال لى انه لا يمكن ان يكون موظفا حكوميا ابدا .

ـ وعلام انتوى اذن ؟

ـ انه لايفكر الآن فى شىء فهو غارق حتى الاذقان فى عملية اتمام انشاء مصنع الطرابيش والاستعداد لادارة آلاته ، ومواجهة مئات المؤامرات والمشاكل التى تثور من ساعة لأخرى لتحول دون اتمام المشروع .

ـ اذن لابد أنه يرنو الى أن يكون مديرا لمصنع الطرابيش ، مادام قد تفرغ له كل هذا التفرغ ؟

ـ حتى ولا هذا ، فهو يقول لى ان مهمته تنتهى بأكمال مصنع الطرابيش ، ولقد عين لادارته بالفعل مهندس من أصحابه ممن تعلموا صناعة الغزل فى أوربا يدعى رجب . أما هو فقد بدأ يرسم الخطط للاكتتاب الجديد لانشاء مصنع قماش البدل الصوفية . وأخرجت آمال من حقيبـــة يدهـــا نموذجا للطابع الجـــديد الذى سيجمعون القرش عن طريقه ، وهتفت الناظرة مشيدة بجمـــال لون الطابع ، وراحت تطالع عليه « مصر فوق الجميع » وقالت الناظرة :

ـ انها عبارة جميلة ، ولكن مالذى يقصده الأستاذ فوزى بها ، أيقصد فوق الجميع ، اى فوق العالمين ، كما يقول الألمان عن المانيا ، أم فوق الاحزاب وفوق الأشخاص ؟ فاجابتها آمال :

ـ انه يقول ان على كل انسان ان يفسرها على هواه ، أما ما يقصده

هو فهى انها فوق الجميع أى فوق الدنيا كلها . وضحكت الناظرة فى سخرية ، وقالت :

ــ اسمحى لى يا آمال ، ان صاحبك هــذا خيالى وعائش فى الاوهام ، انه يذكرنى بهؤلاء العوام الذين يتصورون ان مصر أم الدنيا ، مع أننا فى ذيل الدنيا كلها ، على أية حال يجب يا بنتى ان تعملى لمستقبلك ، ان هذهالأمور يجب ان تتبلور فى وضــع مادى معين يمكنكما من الحياة . وتنهدت آمال وقالت :

ــ يخيل الى ياحضرة الناظرة ان مستقبلنا هو آخر ما يشــغل بال فوزى . تصورى ان الشركة التشيكوسلوفاكية التى كانت تورد الطرابيش الى مصر بعد ان أعيتها الحيل وفشلت كل خططهــا لاحباط المشروع ، بما فى ذلك حملها رئيس الحــكومة على التدخل لايقاف المشروع ، وهنا قاطعتها الناظرة فى دهشة وقالت لها :

ــ وهل تدخل رئيس الحكومة بالفعل لايقاف المشروع ؟

ــ لقد أوعز للمشرفين على المشروع من كبار موظفى الحــكومة بالعدول عن انشاء مصنع الطرابيش ، واقترح عليهم انشاء مصنع لمنتجات الألبان بدلا عنه :

وظهر الاهتمام على وجه الناظرة وقالت لآمال :

ــ فكيف تمكن الأستاذ فوزى اذن من المضى فى تنفيذ مصنع الطرابيش ؟ أنهم يتحدثون عن عنــــاد رئيس الحكومة وصرامته الشديدة فى تنفيذ أوامره .

وهنا ضحكت آمال وانتابها الزهو وهى تقول :

ــ هذه هى شيطنة فوزى التى لاحد لها ، لقد استطاع أن يقابل رئيس الحكومة نفسه ، وأن يقنعه ان انشاء مصنع الطرابيش فى عهده سيكون أكبر مفخرة له وسط الشباب ، فما كان من رئيس الحكومة الا أن انقلب الى أكبر مشجع لانشاء مصنع الطرابيش وغزل الصوف .

ومضت آمال فى حديثها بعد ذلك ، وقد انتابها شىء من الانفعال.

ـ كان من نتيجة ذلك أن فكرت الشركة الأجنبية المحتكرة ان تجرب مع فوزى نفسه ، فعرضت عليه أن تقدم لمشروع القرش على سبيل الهدية الآلات اللازمة لمصنع بطاطين ، وان تتعهد من ناحيتها ان تنشىء فى مصر مصنعا للطرابيش ، وعرضت على فوزى أن يكون مديرا للمشروعين ، فاعتبر ذلك محاولة دنيئة لرشوته ، وثار فى وجه مندوبى الشركة .

وقاطعتها الناظرة قائلة :

ـ لست أعرف أين الرشوة هنا ، بل ان الرفض معناه انه يضيع على مصر مصنعا يجىء اليها بالمجان ، وآخر مضمون النجاح ، فى الوقت الذى يمكن استغلال نقود مشروع القرش فى مشروع ثالث، فهتفت آمال قائلة :

ـ ربنا يبقيك يا حضرة الناظرة ، كأنك كنت معنا ، لقد قلت له ذلك بالحرف الواحد ، وزدت عليه أن عرض ادارة المصنعين عليه ، لايمكن أن يكون رشوة فقد استحق الوصول اليهما بجدارته ولكنه قال لى: ان كل ما يريده هؤلاء الأجانب هو ان يفتوا فى عضدنا ويثنونا عما انعقد عليه عزمنا من بناء مصنع للطرابيش . انهم يخشون نجاحنا فى تحطيم هذه الأسطورة من ان مصر لاتصلح للصناعة . أما عن تقديم مصنع البطاطين هدية ، فيقول لى ان هؤلاء الرأسماليين لايمكن ان يفعلوا شيئا الا بقصد الربح ، فكل مليم يدفعونه لنا لن يلبث ان يستردوه من الشعب المستهلك أضعافا مضاعفة بعد أن يطمئنوا الى أنهم سيظلون محتكرين هذه الصناعة .

وقالت الناظرة

ـ لا يا آمال .. اسمحى لى ان خطيبك هذا تعبان جدا ، انه انسان لايعرف فيما يبدو لى شيئا عن حقائق الحياة . وانا الذى كنت منذ لحظة واحدة أغبطك على هذا الشاب الممتاز ، فاذا بى الآن أرثى لحالك ، انك على هذا المنوال لن تتزوجى هذا العام أو العام القادم وقد لاتتزوجين أبدا اذا ظل يتعلق بهذه الآراء الخيالية .

ومضت آمال تفضي بذات نفسها الى الناظرة وقد سرها ان تشاطرها هذه السيدة العاقلة آراءها فقالت :

ــ ان موضوع الزواج السريع ليس هو الذى يشغلنى الآن فنحن متفقان على وجوب أرجائه بعض الوقت ، ولكن الذى يشغلنى وأصبح يقلقنى فى الدرجة الأولى ، أنه قرر ان يصدر مع بعض اخوانه مجلة وأن ينشىء حزبا ويشتغل بالسياسة ، وهذه مغامرة لايعرف سوى الله ماذا تكون عواقبها • وصاحت الناظرة فى استهجان :

ــ مجلة ؟ حزب ؟ سياسة ؟ ماهــذا الذى تقــولينه يا آمال ؟ اسمعى نصيحتى وأنا مثل اختك الكبيرة ، يجب ألا توافقى على شىء من ذلك كله وان تعارضيه وتصرفيه عن هذا الطريق الوعر ، لايوجد مصرى لايحتقر السياسة بعد أن لم تصبح سوى كذب وخداع وسب وشتائم وتراشق باتهامات الخيانة • أما عن انشاء مجلة فاسأليني عن انشاء المجلات ، فقد كان لى قريب كان مهووسا بالصــحافة باع من أجلها عشرين فدانا وأصدر مجلة ، ولم تلبث أن ضاعت نقوده وبقيت له الحسرة • أما حكاية انشاء حزب ، فلابد انك تمزحين ، فان معنى ماتقولين هو وصف خطيبك بالجنون المحقق أو التخريف • وأحست الناظرة أنها أسرفت فى نعت فوزى بما لايليق ولايصح فاستدركت قائلة :

ــ لاتؤاخذينى يا آمال فليس من حقى أن اكلمك بهذا الاسلوب عن خطيبك ، ولكنك تعرفين صراحتى ، وأنا مشفقة عليك كل الاشفاق من عواقب هذه المغامرات • فقالت آمال :

ــ بالعكس والله يا أبلة الناظرة انك لاتستطيعين أن تتصــورى مقدار سرورى بكلامك ، فان هذه المعانى تراودنى كلها ، وكنت أخشى أن يكون هذا شعورى وحدى ، لقد قلت هذا الكــلام كله لفوزى بل قلت له أكثر منه ، لقد نعته بالغرور ، وان النجــاح الذى لاقاه هو واخوانه فى مشروع القرش قد أدار رءوسهم ، فتصوروا أنهم قادرون على كل شىء • وقالت السيدة الناظرة وقد طرأت عليها فكرة :

ــ ما قولك فى ان تتناولى الشاى عندى انت وخطيبك الاســتاذ

فوزى ، علّى استطيع أن أقنعه بالعدول عن مشروعاته وخططه التى لاطائل تحتها ، فقد استطيع باعتبارى لاغرض لى أو مصلحة أن أنجح، حيث فشل غيرى ٠ وامتلأت آمال رضا بهذا العرض الذى عرضته الناظرة وأدهشها ان تكون الناظرة بكل هذا الاهتمام بمصلحتها وهى التى كانت تعاملها دائما ببرود وتحفظ وفى دائرة العمل فقط ٠

٤

كان فوزى على وعد مع آمال ليذهبا سويا الى السنما ، واستعدت آمال لهذه المقابلة بكل اسلحتها ، فقد كانت قد انتوت ان تبذل جهدا صادقا فى حمل فوزى على النزول عند رأيها ولذلك فقد كوت شعرها عند الحلاق وصففته على آخر طرز ، وارتدت آخر فساتينها وكان من قماش فاخر ، وتزينت وعمدت الى كل ما كانت تعرف أنه يفتن فوزى، فتكحلت اذ كان الكحل يروقه ، وكان يفتنه دائما هـذا العطر الذى كانت متعطرة به أول مرة التقيا فيها ، فتعطرت به ٠ حتى اذا فرغت من زينتها بدت كما لو كانت ملكة أو أميرة من البيت المالك ٠ وجاء فوزى فى الميعاد ، وأخذ بفتنة آمال وزينتها وعطرها وأدركت آمال أنها كسبت الجولة الأولى ، وعليها ان تكسب الجـولة الثانية ابان وجودهما معا فى السنما ، تاركة معركتها الأخيرة الى مابعد عودتهما ، ولكن آمال فوجئت بأخيها رياض يقول لفوزى :

ـ كنت أخشى ان لاتحضر ، ولم اطمئن الا عندما عرفت أنك على موعد مع آمال فعرفت انك لابد ستحضر ، ولولا هذا لجئت اليك فى البيت ، فانا مكلف ان اذهب بك اليهم حيا أو ميتا ، وضحك رياض بينما كانت آمال تصرخ محتجة على هذا القول الغريب :

ـ من هم هؤلاء الذين تتحدث عنهم ، ان نجوم الظهر اقرب اليهم من ذلك انا على موعد مع فوزى وهذا يومى ولن اسمح لأى أحـد أن يتلفه على ، وسأل فوزى رياض عمن يقصدهم فقال رياض لا اظنك قد

نسيت ، انهم خالد وفكري وصبرى وفخرى ونور و ٠٠٠ ، وقاطعته آمال صارخة :

ـ رياض أرجوك ، يجب ان تكف عن هذه المحاولة الفاشـــلة ، ولاتغضبنى عليك ، انظر الى شعرى لقد كلفنى خمسين قرشا ، انظر الى فستانى الجديد لقد سهرت عليه خصيصا لليوم ٠ ولم يأبه رياض لاحتجاجها وقال لها :

ـ لقد رأى فوزى شعرك المكوى وفستانك الجديد ، وأنا واثق أنه قد أعجب بهما أضعاف اعجابى بهمـــا ، انظرى الى عينيه ترينه دائخا ، ولكن المسألة التى أرجوك أن تقدريها يا آمال انه أمامك أنت وفوزى العمر كله لكى ينعم بشعرك المكوى ، وفساتينك التى ستبدعين كل يوم فى صنعها ، أما موعد اليوم فهو حدث فذ لايمكن تأجيـــله وارجاؤه والا كان معنى ذلك اننا غير جادين فى كل مانقول أو نفعل٠ لقد قررت الجماعة ان يكون اليوم هو أول اجتماع للجنة التأسيسية لحركة البعث ، ولم يستطع اخوانى ان يتصلوا بفوزى بالأمس واليوم فكلفونى بمهمة احضاره وقد وعدتهم بذلك ٠ وانفعلت آمال ووجدت فى هذا الموقف الطارىء مايهيىء السبيل لفتح الموضوع الذى كانت تنوى فتحه وأسرعت تقول فى غضب :

ـ انذرك أولا يافوزى انك اذا سمعت لرياض الآن وذهبت معـه فسأكون غاضبة جدا ولست أعرف كيف تستطيع بعدها ان تمحو آثار هذا الغضب ٠ اما بعد ذلك فانى اطلب منك يا رياض وأنت يافوزى قبل رياض ان تكفا عن اللعب بالنار التى ستحرق ايديكم وتحرقنـا كلنا معكم ، وانصحكم جميعا ان تتواضعوا قليـــلا وان تكفـــوا عن التشدق بهذه الكلمات الضخمة التى ليست متناسبة مع ســـنكم وظروفكم ، حدث تاريخى ، لجنة تأسيسية ، حركة البعث ، أرجوك ان تقتصد قليلا فى ترديد هذه الكلمات فانى أخشى ان البيت الذى نقيم فيه قديم ، وقد يخر بنا السقف تحت وطأة هذه الكلمـــات ٠ واكفهر وجه رياض وقال لها :

ـ انى آسف يا آمال ان تتكلمى بهذه اللهجة ، فى الوقت الذى كنت اطمع فيه ان تكونى آخر من يتهكم على جهادنا ، وأنت المثقفة المتعلمة ، والتى ساهمت بالفعل فى اذكاء روح الجهاد ، أولم تحصلى على الجائزة الثانية لجمعك اكبر مبلغ لمشروع القرش ، بعد مبلغ فاطمة ؟ ألم تكونى أنت ومشيرة أول من اقتحم على رئيس حزب الاغلبية داره لحمله هو ومجلس ادارة حزبه على التبرع بمبلغ كبير للمشروع ؟ فكيف تتهكمين بعد ذلك علينا وعلى جهادنا ؟ فقالت آمال: لامحل للمقارنة بين ماتفعلون الآن وبين مشروع القرش ، لقد ساهمت فى مشروع القرش ورحبت به ، لأنه نموذج بالفعل للعمل البناء المنتج من أجل الوطن ، وقد رعته الحكومة وتبناه الشعب فأصبح محل تأييد الجميع ، وهذا مايجعلنى أطالب فوزى ان يمضى فى العمل فى هذا المشروع ويحقق خططه الضخمة التى وضعها · أنه يكون من الحمق ، بل الجنون أن تتخلوا عن المشروع بعد أن استستموه ووضعتم فيه كل أرواحكم · وأسرع رياض يقول لأخته :

ـ كنت أتصور اننى شرحت لك هذا الموضوع بما فيه الكفاية ، اننا لانترك المشروع باختيارنا ، وما كان لنا ان نتركه وهو كما تقولين قطعة من حياتنا · ولكننا نفعل ذلك لانقاذ المشروع بعد أن بدأ حزب الأغلبية يهاجمه علنا ، عن طريق الدس والاراجيف ، والزعم بأن العبث قد دب الى أموال المشروع ، مع أنك تعرفين من غير شك ان هذا هو المشروع الوحيد فى كل تاريخ مصر الحديث الذى لم يدب اليه عبث ولذلك فقد نجح وأنشىء المصنع بالفعل حيث فشلت مئات المشروعات الأخرى ، لامتداد العبث اليها · وليس اسرع من قالة السوء وخاصة عندما يوعز بها حزب قوى مسيطر على البلاد والرأى العام ، ولذلك فلم يعد هناك مناص من البعد عن المشروع لنضمن له السلامة · وقالت آمال على الفور :

ـ هذا الذى تقوله لايعدو ان يكون كلاما فارغا ، تحاولون به تصوير الموقف لتزينوا لأنفسكم الاقدام على مغامرتكم الجديدة تلك

التى تسمونها حركة البعث • ان باستطاعتكم وباستطاعـــة فوزى ، وأنا على استعداد أن أذهب معكم لنقابل رئيس حزب الأغلبية ، انه رجل طيب ، لكى نقنعه بسخافة هذه الشائعات والضرر الذى يحيق بالبلاد من جرائها • المهم هو ان تحسنوا القول له وتبايعـــوه على الزعامة ، بدلا من ان تفكروا كما تنتوون فى تحدى هذه الزعامـة • وتضايق رياض وقال لها :

ــ قلت لك أكثر من مرة ، أن فوزى جلب على نفسه عداء كل القوى فى مصر فالرأسماليون ، والأجانب ورجال الاحزاب كلها لن يغفروا له ولجماعتنا معه ، أننا استطعنا ان نثير حماس الأمة ، وان نجمعها على فكرة واحدة •

ونظرت آمال صوب فوزى الذى كان ساكتا طوال هذه المناقشة وقالت له :

ــ مالك ساكتا لاتتكلم ؟

ــ ان رياض يحسن عرض الموقف عليك فى وضوح •

ــ ولكننى أحادثك أنت، ورياض ليس هو خطيبى الذىاعتبر نفسى مسئولة منه ، واننى أقول لك بكل صراحة وبعيدا عن كل لف ودوران، اننى غير موافقة على هذه الحركة الجديدة. انكم لن تستطيعوا تحدى هذه القوى التى تقولون انها تألبت عليكم ، فكر يافوزى أرجوك فكر اذا كنت تحبنى حقا • وبادر فوزى فأكد لها أن حبه يجب أن يكون فوق كل شك أو ريبة ، وهو اذا كان قد اقدم على ما أقدم عليه من أعمال وما سوف يقدم عليه ، فليس ذلك الا ليكون جديرا بها • وهتفت آمال قائلة بالانجليزية « كلام فارغ » انك لست مستعدا ان تنزل عن أصغر فكرة من افكارك من أجلى ، ولذلك فلن اطالبك بالخروج معى الليــلة خوفا من ان تخذلنى وخير لى ان اسمح لك طائعة مختارة بالذهاب الى اجتماعكم وأن اتجرع فى صبر مرارة الفشل ، ولكنك ســتدفع ثمن ذلك غاليا •

٥

لم يكد فوزى يرى نفسه فى مقر مشروع القرش تحيط به هـذه الصفوة من شباب مصر الذى جاهد فى مشروع القرش وانتصر · لم يكد يرى خالد الطاهر الأمين ، وفكرى المتقد حماسة المشرق الجميل ، لم يكد يرى نفسه محوطا برياض وصبرى الذى مع قرب عهده بصداقته وتعاونه معه فى مشروع القرش فقد بز الأوائل والأواخر فى حماسته ونشاطه وابداعه ، وفخرى الجـــاد الرصـين ، ونور طالب الطب النبيل ، لم يكد يرى هـــذا النفر من الفتيـــات المجـــاهدات وعلى رأسهن مشيرة وفاطمة ، حتى نسى كل المخاوف التى كانت آمال قد استطاعت ان تثيرها فى نفسه ولكنه لم يلبث ان أحس بموجـــة من القلق عندما افتقد الاجتماع صـــاحبه محيى الذى كان متغيبـــا عن الاجتماع ، ومتغيبا عن عمد · لقد أخطره أنه لن يكون معه فى هـــذه الخطوة وان كان على استعداد ان يشاركه فى تحرير المجـــلة اذا هم اصدروها ، اما التشكيل السياسى فهو يعتذر عنه · وكان من شأن هذا الغياب بالاضافة الى حديث آمال ان يحمل فوزى على الامتناع عن المضى فيمـــا كان الكثيرون يلحون فى وجوب المضى فيـــه · وقال للمحتشدين من حوله الذين كانوا يتأججون حماسة ، ويتوقون لأن يخطو فوزى معهم الخطوة الاثيرة الى قلوبهم :

ـ انكم لاتعرفون ما الذى يعنيه ان نقدم على تأليف جماعة البعث فى الوقت الحاضر ، لقد بدأ حزب الأغلبية يهـــاجمنى ويذيع عنى الأراجيف واننى اختلست مشروع القرش ، كل ذلك ونحن مازلنا فى دائرة العمل الاقتصادى البحت الذى لاينافسهم بطريق مباشر ، فاذا بدأنا فى هذا العمل السياسى الذى تقترحونه فسوف يســـحقوننا سحقا · ان جميع القوى التى سكتت عنا حتى الآن كارهة أو متربصة أو طامعة فى ان ننحاز نحوها ، سوف تتكتل ضدنا ، ستحـــاربنا الحكومة ويحاربنا حزب الأغلبية ويحاربنا الانجليز والأجانب ، ونحن

ـ كما ترون ـ صغار فقراء لا مال عندنا ولا جاه أو عصبية أو عزوة من أى نوع كان٠ وهنا قاطعه صبرى الذى كان أشد الحاضرين حماسةمن أجل هذه الحركة الجديدة :

ـ انك تعلم اننى تركت حزب الأغلبية وانضممت اليكم ، لأننى وجدت بين صفوفكم العزم والاقدام ، فلا يجب ان تحاول ان تبث فى قلوبنا الرعب مما قد يقع أو يحدث ٠

وانبرى خالد أمين يقول :

ـ قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ٠

قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان اراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ٠

هذه آيات الله ، وما دمنا نخلص النية فى خدمة بلادنا ولانهدف من وراء ذلك الى مناصب أو مراكز أو جاه أو مال ، فما الذى نخشاه ونخافه ؟ من العبث ان تظل مصر على هذه الحالة السيئة ، من فقدان الثقة والدين والوطنية وروح الجهاد والكفاح، ولابد لنفر من بنيها أن يتقدموا ليحملوا عبء الجهاد فاذا لم نكن نحن فمن ؟ ماهو أخطر مايمكن ان يهددنا فى جهادنا ، أليس هو ان نموت ، وهو كذلك فلنوطد انفسنا على الموت من الآن فى سبيل الله والوطن فلا يعود هناك ما نخشاه فى هذه الدنيا ولايعود لأية قوة على ظهر الأرض ان ترهبنا٠ واغرورقت عينا فوزى بالدموع لشدة تأثره مما قاله خالد ، وكان فوزى يعلم أنه من بين اصحابه جميعا يعنى كل كلمة وحرف مما يقول، ولذلك فقد قال لخالد :

ـ مهلا ياخالد فانك تعرف اننى على استعداد ان أتبعك معصوب العينين ، ولكن المسألة مسألة امكانيات ، ولاتنس ان محيى لايقرنا على هذا الذى سنشرع فيه ٠ وهنا قال فكرى :

ـ دع محيى لى ، ان محيى لايمكن أن يكون بعيدا عن أى عمل نقوم به ، انه متحمس كما تعرف هذه الأيام للاشتغال بالصحافة ،

وسنصدر الجريدة التى تشبع رغبته ، وستراه معنا شاء أم أبى ، ان محيى لايمكن ان يكون الا معنا فى هذه الحركة · وتدخلت مشيرة التى أصبح لها مكانة خاصة فى نفس فوزى بعد وقوفهـــا الى جواره منذ اللحظة الأولى فى مشروع القرش :

ـ ماهذا التردد الذى لم نعهــــده فى خلقك ، أليس يكفيك ان عصارة شباب مصر معك ، ونظرت اليه مبتسمة وقالت ، أليس يكفيك اننى أنا معك ؟ وصفق لها الحاضرون مداعبين ، وقال رياض :

ـ لم يبق أمامك مناص من المضى قدما الى الأمام لتنفيذ ما يراودك منذ سنوات ، ليس باستطاعتك التراجع ، وأرجوك ألا تفكر فى هذه اللحظات الا فيما يمليه عليك واجبك ·

وتبادل فوزى معه النظرات فقد أدرك فوزى ما الذى يعنيه رياض بهذه العبارة ·

٦

عاد فوزى الى البيت ليشرع فى وضع هذا البرنامج الذى عاش فى نفوسهم وأرواحهم أربع سنوات كاملة ، منذ هذه الليـــلة التى اجتمعوا فيها حول الهرم لأول مرة · كانت حياتهم منذ ذلك التاريخ تدور فى فلك هذا البرنامج ، فى الطريق ، فى المدرسة ، فى البيت ، فى السنما ، كانت لبنـــات هذا البرنامج تتكون ، جميع الاقتراحات الاصلاحية التى تغص بها الكتب التى درسوها وامتحنوا فيها ، كان يجب ان تأخذ طريقها سطورا فى هذا البرنامج ، حركات التـــاريخ الكبرى التى هزت نفوسهم ، الثورة الفرنسية ، الوحدة الايطـــالية غار يبـــلدى وماتزينى ، وغاندى ودى فاليرا ، ثورة أمريكـا وحرب تحرير العبيد ، ايمانهم بالشعب المصرى والفلاح المصرى على وجـــه الخصـــوص ، الصـــناعات الثقيلة ، الجيوش ، الطائرات ، التربية، التعليم ، الأزهر ، الفنون ، التمثيل ، الموســـيقى ، الأغانى ؛ المرأة؛ الأسرة ، الطفولة ، الاخـــلاق ، الدين ، محـــاربة الرأســـمالية

الأجنبية التى تحتكر كل شىء فى مصر • الغاء الامتيـازات الاجنبية كل هذه موضوعات طالما تكلموا فيها وتحمسوا لها وقرروا ان يعملوا من أجلها ، وكان يجب ان تجد لها مكانا بين سطور البرنامج •

ولم يجد فوزى أية صعوبة عندما أمسك بالقلم فى هدأة الليـل ليكتب ، بل ولم يجد أية صعوبة فى معرفة من أين يبدأ ، فقد كانت كلمات ماتزينى مؤسس حركة ايطاليا الفتاة ترن فى اذنيه فاستبدل كلمة ايطاليا بمصر وانطلق يكتب « مصر التى علمت الانسانية وأضاءت على العالمين •••••• لن تموت ابدا بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى » •

وارتفعت حرارة فوزى ، وراح يكتب ويكتب راسما برنامجا لمصر المجيدة ، مصر التى يجب ان تكون فوق العالمين • وطلع عليه الفجر وهو لايزال يكتب، وكان قد فرغ من كتابة البرنامج فى كل تفصيلاته. ومع طلوع النهار واجهه السؤال الذى لابد منه لامكان تحويل هـذه الاحلام التى استوحاها بالليل الى حقائق ، ماهى الوسيلة لتحقيق ذلك كله ؟ ولم يتردد فوزى لحظة واحدة وهو الذى يكره كل أسـاليب العنف والثورة والمؤامرات والحروب ، ويؤمن بالسلام والحب والعمل البناء ، أن يكتب تحت عنوان الوسيلة : « أما وسائلنا للحصول على ذلك كله ، فليست حربا أو قتالا ، وليست عدوانا أو صداما ، لكنها تتلخص فى كلمتين ــ الايمان ، والعمل » •

٧

لم يستطع فؤاد عبد السميع أن يغالب الشعور بالانزعاج ، عندما سمع طرقا على الباب ، والتفت بحركة لاشعورية صوب ميرفت التى كانت غارقة فى النوم بملابس السهرة الى جواره على الفراش • وعاود الطارق دق الباب من جديد مفصحا عن نفسه هـذه المرة ، ولم يكن سوى مدام بلانش وصيفة ميرفت التى راحت تقول بصوت خفيض :

ــ ميرفت هانم موجودة عندك يافؤاد بك ؟ الباشا اسـتيقظ من

النوم بدرى . وهتف فؤاد فى اذن ميرفت فى حنان ورقة :

ـ فيفى ، فيفى ، اصحى ياروحى ، الباشا استيقظ من النوم .

وزامت ميرفت ولكنها لم تتحرك ، واضطر فؤاد الى ان يشرع فى هزها ولكن في رقة وهدوء قائلا لها :

ـ اصحى ياحبيبتى لايصح ان يراك الباشا عندى . وصاحت ميرفت محتجة بعد ان استيقظت نتيجة هزه لها وكأن هذه العبارة احنقتها وطردت النوم من عينيها :

ـ وأى شىء أن يعلم الباشا أننى معك ، أليس يعرف انك خطيبى؟

ـ طبعا ياحبيبتى ، ولكنى لا أحب ان يعلم الباشا أن الأمور تسير بيننا على هذا الأسلوب . أرجوك من أجل خاطرى وظروفى ان تنهضى وتذهبى الى حجرتك مع مدام بلانش .

وسألت ميرفت وهى تصعد السلم بمعاونة مدام بلانش عن أبيها، فعلمت أنه لايزال فى الحمام . ولم تكد مدام بلانش تساعد ميرفت على خلع ملابس السهرة وتقرها فى سريرها وتغلق عليها الباب ، حتى وجدت رمضان باشا خارجا من جناحه الخاص بملابسه الكاملة ويتبعه حسنين الشماشرجى . وحيا رمضان باشا مدام بلانش تحية الصباح بالفرنسية ، ثم سألها فى حنان عن ميرفت فطمأنته عليها ، ولكن الباشا توقف في منتصف السلم كما يحدث كثيرا ليقول لمدام بلانش الملاحظة التى لايفتأ يقولها :

ـ أما من سبيل يامدام بلانش لتقلل فيفى من سهرها الليلى ؟ انى خائف كما تعلمين على صحتها . وردت عليه مدام بلانش كما ترد عليه فى كل مرة ، انه يعرف ان لافائدة من التحدث فى هذا الموضوع ، أما من حيث الصحة ، فصحة ميرفت هانم (بومب) والحمد لله .

وتنهد رمضان باشا وقال :

ـ هذا هو المهم ، صحتها يامدام بلانش أعز شىء عندى فى الدنيا .

وأكمل رمضان باشا نزول السلم ، واتجه صوب حجرة الطعام

وطلب من حسنين ان يوقظ فؤاد بك اذا كان لم يستيقظ وان يدعوه ليفطر معه • ولم تمض غير لحظات حتى كان فؤاد يحيى الباشا بالتحية العسكرية كأشد ماتكون التحية قوة وصلابة • ودعاه الباشا ليأخذ مكانه المعتاد على المائدة • وتساءل فؤاد فى أدب جم عن السر فى نزول الباشا الى حجرة الطعام مبكرا ، فأجابه بأن دولة رئيس الحكومة قد أيقظه فى السادسة صباحا ، ليطلب منه ان يقابله فى رئاسة مجلس الوزراء فى الحادية عشرة ، بعد ان يقابل جلالة الملك فى الساعة العاشرة ، وطاف فى نفس فؤاد طائف من القلق الذى لم يعرف له كنها وقال :

ـ خير ياباشا ؟

ـ خير طبعا ، ماذا يمكن ان يكون الا خيرا ؟ انك تعرف رئيسنا وحبه للمفاجآت السارة • لقد رفض ان يقول لى شيئا ، وقد تصورت ان ويصا باشا وزير المواصلات وحبيبه يعرف شيئا ، ولكنه اخبرنى ان الرئيس فعل معه مثل مافعل معى • وقال فؤاد وقد لاح له خاطر :

ـ الا يجوز ياباشا ان يكون الانجليز ، قد وافقوا أخيرا على فتح باب المفاوضات الرسمية مع الحكومة وهو ما كان الرئيس يسعى له فى هذه الآونة الأخيرة ؟ وتوقف رمضان باشا عن الطعام وهتف قائلا:

ـ والله فكرة لقد كان هذا هو أهم مايشغل الرئيس فى الأشهر الأخيرة • ونهض عن المائدة وقد تملكه انفعال من الفرح فراح كرشه يهتز وكذلك شاربه ، ويكرر :

ـ لابد ان يكون الأمر كما ذكرت ، فليس هناك مايدعو لمقابلة جلالة الملك الا ان يزف هذه البشرى ، ويلتمس توجيهاته • وأصدر الباشا أمره لأدريس السفرجي ان يحضر لهما القهوة فى حجرة المكتب، وناول الباشا كما هى عادته لفؤاد سيجارا ضخما من سجائره الفاخرة بينما كان يقول له :

ـ اما اذا صدق حدسك يافؤاد ، وكانت المقابلة بخصوص قبول الانجليز فتح المفاوضات مع الحكومة ، فسأطلب من الباشا ان ينقلك الى ادارة الأمن العام • انت مدهش يافؤاد •

ـ أنا خدامك ياباشا ٠

ـ استغفر الله ،لا تقل هذا انت ابنى ، ربنا يتمم بخـــير ٠ وعاد الباشا للموضوع الذى استهواه ، موضوع فتح باب المفاوضات وقال :

ـ لتكونن ضربة معلم اذا نجح الباشا فى التفاوض مع الانجليز ، ان حزب الأغلبية قد علق كل آماله كما تطالع فى صحفـــه على أن الانجليز لن يتفاوضوا مع دولة الرئيس، فلو بدأت المفاوضات بالفعل، لتكونن هذه نهاية حزب الأغلبية وضحك البـــاشا من فرط السرور والتأثر وفرك يديه ثم راح يضع يده على شاربه المهتز حينا وعلى كرشه المتكور حينا آخر ٠ وقال فؤاد فى تردد وتلعثم :

ـ أظن ياباشا عودة حزب الأغلبية الى الحكم ، مسألة أصبحت صعبة ٠ وصاح الباشا باستنكار :

ـ صعبة ؟ قل مستحيلة ، لقد استقر الدستور الجديد نهائيا ، واستتب الأمن والنظام ٠ أولست ترى الاستقرار الذى تنعم به البلاد كما لم تنعم به من قبل ؟

ـ لولا مسألة استقالة وزير الحقانية وعبد القـادر باشا عيسى وزير الخاجية بسبب حادث البدارى الملعون ، لكانت الوزارة كالحديد٠

وأسرع رمضان باشا يقول فى لهفة وتأكيد :

ـ ولاتزال كالحديد ٠ ان عبد القادر باشـــا عيسى رجل مخرف وباهر باشا وزير الحقانية رجل مغرور ، لم تحـــدث استقالتهما أى تأثير ، بل بالعكس زادت الوزارة انسجاما ٠

ـ ولكن ألا تخشى ياباشا بعد بدء المفاوضات ، ان تتعثر وتفشل فيكون هناك خطر على الوزارة كما هى العادة ؟

ـ وما الذى يجعلها تفشل ؟ انك لاتعرف (ابو السباع) ، لقـد آلى على نفسه عندما يقبل الانجليز التفاوض معـه ، ان يحقق ماعجز ساسة مصر كلهم عن تحقيقه ، ويبرم المعاهدة بين مصر وانجـــلترا ٠ انه رجل جبار يافؤاد ، ألم تر كيف قاوم الشلل الذى اصـــيب به وتغلب عليه ؟ ادع الله ان يحييه مائة سنة لخير هذه البـلاد ٠ ان الله

وحده يعلم ماذا كان يحل بها لو لم يكن فى الحكم فى هـــذه الفترة العصيبة نتيجة الازمة الاقتصادية الخانقة .

وانهالت التلفونات على رمضان باشا ، بعد ان انتشرت أخبـــار مقابلة الرئيس لجلالة الملك ، والجميع يتساءلون عن حقيقة مايجرى . ولم يكن أحد يصدق ان رمضان باشا مدير الحزب لايعـــلم ، فيروح يقسم لهم ، حتى اذا تضايق قرر ان يتوجه الى مجـــلس الوزراء وان ينتظر عودة الباشا من السراى هناك .

٨

هبط رمضان باشا من السيارة يتقدمه كرشه عند سلالم مجلس الوزراء فى لاظاوغلى ، والتف حوله الصحفيون من كل الاحزاب ، وكانوا يحبونه لطيبته ، وسيجاره الفخم الذى كان ينفحهم به فى اكثر الأحيان . وقد بادر الصحفيين قائلا وهو يبتسم ابتسامة غامضة بدت مضحكة مع شاربه الكبير :

ـ ليس عندى من الاخبار اكثر مما عندكم ، نحن جميعا فى انتظار عودة الرئيس من المقابلة الملكية . وقال أحد صحفيى الحكومة :

ـ تصور يا باشا ان البعض بدأ يشيع كالعادة أن دولة الرئيس سيقدم استقالته .

وانفجر رمضان باشا من الضحك من أعماق قلبه حتى تحـدرت بعض الدموع من عينيه وقال :

ـ اعذرهم يابنى لقد أطار بعدهم عن الحكم ثلاث ســـنوات صوابهم . ان الذى يدهشنى فى الموضوع هو كيف انهم لايخجلون من تكرار هذه الاشاعة ، أو قل كيف لايسأمون . وظهر الجد على وجـه الباشا بقدر مايسمح به شاربه وكرشه ثم قال فى حزم : قولوا عنى جميعا ، ان الوزارة لم تكن فى وقت أقوى منها فى هذه الساعة ، وهى متمتعة بعطف جلالة الملك وتأييده ، وربما تسمع البلاد اليوم أو غدا أنباء خطيرة تتصل بقضية البلاد الكبرى .

وأسرع الباشا نحو المصعد الكهـــربائى حتى لايلحف عليـــه الصحفيون ويطلبوا مزيدا من التفصيلات عن هذا الذى أشار اليه ٠ وتكأكأ حشد جديد من النواب والشيوخ ، حول رمضان باشا بمجرد خروجه من المصعد الكهربائى فى الدور العلوى ، وللمرة الثانية سمع رمضان باشا أحد النواب يتساءل عن صحة الاشاعة الجارية من ان الرئيس سيقدم استقالته لجلالة الملك ٠ ولم يضحك رمضان باشـــا هذه المرة ، بل على العكس أحس بالغضب يعصف به وهو يرى أحـــد نواب البلاد يروج الاشاعة التى يطلقها خصوم الحـــكومة فى كل المناسبات ٠ ودخل رمضان باشا وهو لايزال غاضـــبا الى حجرة اجتماعات مجلس الوزراء ، فوجد بها ويصا باشا ، وحافظ باشـــا ، وابراهيم باشا ، وقد أقبل عليه هذان ، الأخيران ، وراحا يناشدانه ان لايكتمهما مايعرفه عن هذه المقابلة مع جلالة الملك ٠ واقسم رمضان باشا ، أنه لايعرف شيئا خاصا فلم يقل له دولة الرئيس الا ان يحضر لمقابلته فى الساعة الحادية عشرة ، وأنه سيقابل جلالة الملك ، وقـــد دعا مجلس الوزراء للانعقاد ٠ ولكنه يستنتج استنتاجا ان الأمر قد يكون ذا صلة بقبول الانجليز فتح باب المفـــاوضات رســـميا ٠ وصاح الوزيران :

– ينصر دينك يارمضان باشا ، لابد ان يكون الأمر كما تقول ٠

ولكن ويصا باشا الوزير الداهية والرجل الثـــانى بعد رئيس الحكومة ، أدار سيجاره الذى يزيد فى ضخامته عن سيجار رمضـــان باشا ، ثم هز رأسه فى هدوء وراح يقول فى بطء :

– حقا ان دولة الرئيس كان مشغولا فى المدة الاخيرة بالاتصالات المستمرة مع المندوب السامى الجديد ، بخصوص امكـــانية فتح باب المفاوضات ، ولكن زميلنا وزير الخارجية اخبرنى بالامس فقط ، ان كل أمل فى امكان الدخول فى مفاوضات قريبة مع الانجليز ، قد انقطع نهائيا على الاقل لبضعة اشهر ٠

وقطع على ويصا باشا حديثه ، دخول مـــدير مكتب الرئيس ،

وهو مصفر الوجه ، مرتعش اليدين والشفتين ، وطلب من أصـــحاب المعالى الوزراء ان يغفروا له اقتحامه الحجرة عليهم وقطعه الحـــديث بهذا الاسلوب غير اللائق ، ولكن مراسل وكالة شركـة اخبار رويتر الانجليزية ، قد اتصل به منذ لحظات ، وسأله عمـــا اذا كان لديه معلومات عن أسباب استقالة دولة الرئيس ، فلما نفى له مدير المكتب أن تكون هناك أى فكرة فى الاستقالة ، وأنهم جميعا فى انتظار عودة دولة الرئيس من لدن جلالة الملك ، عاد مراسل شركة رويتر فأكد له ان خبر الاستقالة محقق ، وأنه كان يظن ان لدى مدير المكتب تفصيلات أكثر لكى يضيفها الى الخبر · وتوقف مدير المكتب عن الحـــديث وهو يلهث من شدة الانفعال ، بينما كان الباشوات الأربعة فى حالة ذهول بدورهم ، ولذلك فقد ظلوا مفتوحى الأفواه يبعث منظرهم على الرثاء ، وهم لايعرفون ماذا يقولون ، أو يفعلون · وفتح باب القاعة ودخل وزير الخارجية وهو فى حالة هياج واضطراب وهو يقول فيما يشبه الصراخ :

ـ أهذا يصح ؟ هل سمع أحد بمثل هذا فى الدنيا كلها ؟ أهـذا يليق ياعالم ، نسمع نبأ استقالة الوزارة من الشارع ؟ انحن وزراء أم طراطير ؟ وعض ويصا باشا على سيجاره فى عصبية ظاهرة وان ظل مظهره العام يدل على أنه اكثر الجميع تمالكا لأعصابه وهـــدوئه :

ـ هون عليك ياباشا ، وقل لنا من أين ســـمعت الخبر ، فمن الواضح ان هناك من نجح فى ترويج هذه الاشاعة بقوة · فأجاب وزير الخارجية وقد زاد انفعاله من جراء هدوء ويصا باشا :

ـ كل الصحفيين الذين فى الخارج ، انظر اليهم ياباشا انهـــم يرقصون هؤلاء الأوغاد · وقال رمضان باشا :

ـ قلبى يحدثنى ، اننا سنضحك كثيرا جدا بمجر عودة الباشا من السراى · اسألونى عن الرئيس ، اننى أعرفه جيدا ، مســـتحيل أن يستقيل ، ويدع هذا البناء الذى سهر عليه وكاد يفقد حياته لتوطيده·

وهنا وصلت الى مسامع المجتمعين أصوات صفافير تؤذن بمقـــدم

موكب رئيس الحكومة ، ونزل صوت هذه الصفارات على الوزراء بردا وسلاما • ونظر بعضهم لبعض نظرة يتجلى فيها الأمل والرجاء ، وكان رمضان باشا هو أول من أفصح عما يداعب نفوسهم من أمل بعــــد سماع هذه الصفارات فقال :

ـ أرأيتم ؟ ألم أقل لكم ان هذه اشـــاعة كاذبة ، هاهو الرئيس يعود من المقابلة بموكبه الرسمى ، وسيندحر الآن مروجو هذه الاشاعة ويموتون بغيظهم •

وهمس حسن باشا فى اذن حافظ باشا :

ـ معقول جـــــدا ، ان دولة الرئيس دقيق جدا فى مســـائل البروتوكول ، ولو كان قدم استقالته وقبلت الاستقالة لما عاد بموكبه الرسمى • وسمع الجميع تصفيقا خفيفا يتصاعد من الخارج ، فاسرع الجميع الى النافذة يراقبون مايجرى ، فألفوا حرس الوزارات يفسح الطريق لدولة الرئيس الذى كان يبتسم ابتسامته الساحرة وصـــاح حسن باشا :

ـ دولة الرئيس يبتسم ياجماعة ابتسامة فوق العـــادة ، لايمكن الا أنه يحمل أنباء طيبة •

وقال رمضان باشا :

ـ ماعلينا من حكاية الابتسامة ، يظهر ان رئيسنا قد ولد بها • ولكن مايملؤنى طمأنينة هو التصــــفيق ، ألم تسمع التصـــــفيق ياحسن باشا ؟

واضطرب السكون فى مبنى الرئاسة ، وساد الهرج والمرج فى الخارج • ولم يكد باب المصعد يفتح ويظهر منه دولة الرئيس بهدوئه واناقته وابتسامته ، حتى صفق المحتشدون فى البهو الكبير ، وهتف أحد النواب « يحيا رجل الساعة » ورد الرئيس على هـــــذه التحية شاكرا • ولم تستطع الجماهير المحتشدة من أصحاب الحـاجات أن لاتسأل دولة الرئيس عن هذه الاشاعة الكاذبة التى يروجها أعــــداء

الأمة المغرضون من ان الوزارة استقالت • وباغتهم دولة الرئيس بقوله :

ـ ان الاشاعة صحيحة من سوء الحظ ، فقد رفعت استقالتى الى جلالة الملك ، وقد تفضل جلالته حفظه الله فقبلها ، وطلب منى الاستمرار فى تسيير دفة الأمور ريثما يتم تأليف الوزارة الجديدة •

٩

كان نبأ استقالة الحكومة ، هو أول نبأ تلقته ميرفت عندما استيقظت من نومها فى الساعة الواحدة ، وكانت مدام بلانش هى من ساقت لها النبأ • ولمعت عينا ميرفت على الفور فى سرور وابتهاج ، فقد كان هذا الخبر يعنى أن سيكون بقدرتها الآن ان تنزوج من فؤاد• ولكنها لم تكد ترتاح لهذا الخاطر ، حتى تذكرت ان والدها لابد أن سيكون فى أشد حالات الحزن • وسألت مدام بلانش عن اخباره ، فقالت لها انه مجتمع مع بعض نواب الحزب فى حجرة المكتب وهو فى أشد الضيق والحزن • وقررت ميرفت أن تخف لمساعدة والدها والتهوين من وقع هذا الحادث عليه • واسرعت فى ارتداء ملابسها بمساعدة وصيفتها ، وزينت وجهها وهبطت كالثمرة الناضجة والزهرة اليانعة تتبختر الى الدور الأرضى • ولم تكد عينا والدها تقعان عليها حتى هتف بها فى حزن :

ـ أسمعت الخبر ياميرفت ؟

ووقف الحاضرون جميعا بمجرد اقتراب ميرفت منهم ، وقد علت وجوههم اشراقة ترحيب للجمال الباهر ، بحيث نسوا فى لحظة كل الهموم والنكد الذى كانوا غارقين فيه • وتزاحم الكل على السلام عليها ، تزلفا لأبيها ، الذى لايتأثر فى الدنيا بشىء قدر تأثره لسعادة ابنته • ولأن جمالها ومجرد لمس يدها ، كان يعد لونا من الوان النعيم• وفاجأت ميرفت الحاضرين بقولها :

ـ مبروك يابابا •

وصاح الجميع فى دهشة « مبروك ؟ » فأجابت ميرفت على الفور وقد لفت ذراعها حول عنق ابيها وقبلته :

ـ طبعا مبروك ، وألف مبروك • ما الذى كان والدى يستفيده من كل هذا الضجيج الذى تسمونه حزبية وســـياسة ؟ لماذا لم يختره رئيس الحكومة وزيرا كبقية الوزراء ؟ لقد اختاره مديرا للحزب لينفق على الحزب من ماله ، فى الوقت الذى يغترف الجميع من مال الدولة• ما الذى استفاده أبى من ادارة الحزب الا وضع القنابل بالقرب من بيتنا ؟ لقد حانت الساعة لكى يتفرغ ابى لصحته • سيكون بقدرتنا الآن أن نسافر الى اوروبا للعناية بصحته • وقال أحد النواب :

ـ ولكن ياميرفت هانم والدك بحكم منصـــبه فى الحزب كان له صوت فى شئون البلاد ، وكان جاهه عظيما جدا • فقالت ميرفت على الفور :

ـ وسيظل بابا له صوت مســـموع ، وجاه عظيم • ان الحزب والحكومة هما اللذان كانا فى حاجـــة الى رمضـــان باشا وليس رمضان باشا خيرى فى حاجة للحكومة • وامتلأ قلب رمضـــان باشا فخــرا واعتزازا ، وهو يرى آيـــات الاعجـــاب مرتســـمة على وجوه الجميع ، وقد راحوا يهنئونه على ابنته الرائعة الجمال ، والتى لم يكونوا يتصورون ان بقدرتها ان تتكلم هكذا كالاســـد • وأحاط رمضان باشا خصر ابنته بيده وقال لهم :

ـ اعملوا معروف لاتحسدونى على مصـــدر سعادتى الوحيد فى الدنيا ، انكم جميعا تعرفون ان الله لم يرزقنى بغيرها ، ولقد عشـــت لها وحدها بعد وفاة المرحومة والدتها •

وقطعت ميرفت على والدها حديثه العاطفى ، وقالت للحاضرين :

ـ واحتفالا بهذه المناسبة السعيدة فانتم جميعـــا مدعوون على الغداء عندنا •

وحاول البعض ان يعتذر ، وان يحتج على تسمية كارثة سقوط الوزارة بالنسبة لهم أنها حادث سعيد • ولكن فكرة الغداء على مائدة

الباشا، في حضرة هذه الرائعة الجمال، لم تلبث ان اسكتت كل معارضة، وخرجت ميرفت لتشرف على اعداد الطعام والمائدة لضيوفها الذين كان يناهز عددهم الثلاثين ٠

ولم تكد ميرفت تخرج حتى عادت المناقشـــة حول احتمـــالات الموقف على اشدها ٠ وأظهر الكثيرون تخوفهم من عودة حزب الاغلبية الى الحكم ، وتحدثوا عن المظاهرات التلقائية التى قامت بمجرد انتشار نبأ سقوط الوزارة ، ولولا أن البوليس نتيجة تعليمـــات تلقاها من القصر ، قمع هذه المظاهرات بشدة ، لما علم سوى الله ماذا يمكن ان يحدث ٠ ولم يكن هناك مايهدىء من روع المجتمعـــين بعض الشىء ، الا تأكيد رمضان باشا لهم ان الوزارة القـــادمة لابد ان تكون من حزبهم ، وان النظام باق كما هو ٠ وكان رمضان باشا لايفتأ يؤكـد على أصحابه وجوب الالتفاف حول رئيس الحكومة المستقيل والتضامن معه، باعتبار ذلك صخرة النجاة ٠ ودخل ادريس كبير السفرجية يعـــلن الباشا وضيوف ميرفت هانم ، ان المائدة قد أعدت ٠ وبينمـــا كان رمضان باشا يجاهد للوقوف على قدميه ، اذا بالتلفون يدق ، وتنـــاول رمضان باشا السماعة فى تثاقل ، ولكنه لم يكد يستمع لمحدثه حتى ظهر الانفعال على وجهه ، واختفت امارات الطيبة المفرطة من على وجهه، وكف كرشه وشنبه عن الاهتزاز ٠ وتوقف جميع الضيوف عن التحرك، فقد أدركوا باحساسهم ، انهم ازاء أمر جلل ورمضان باشا لايفتأ يكرر حاضر يا افندم ، حاضر يا افندم ٠ ووضع السماعة وقال لأصحابه ، انه يجب ان يذهب الى سراى عابدين على الفور ، وان البيت بيتهم ، وستقوم ربة البيت ميرفت بالواجب نحوهم ٠ ولم يكن ضيوف الباشا فى حاجة لكل هذه الاعتذارات ، فقد كان يكفيهم ان الباشا ذاهب الى قصر عابدين ، ولذلك فقد صاح الجميع من هنا وهنـــاك يدعون له بالسلامة ، ويطلبون من الله ان يسمعهم خـيرا ، وألمع البعض الى أن هذه الدعوة لايمكن ان تكون الا للاشتراك فى الوزارة الجـــديدة ، واستحثه الكثيرون على وجوب الاسراع ٠ ولم يكد رمضان باشا يوليهم

ظهره بصحبة فؤاد فى طريقه الى قصر عابدين ، حتى اقبلوا على التهام طعامهم والاستمتاع من حين لآخر بالنظر الى ميرفت رمضـــان خيرى وكل قسمات وجهها واجزاء جسمها ٠

١٠

كان وجه رمضان باشا يطفح بالبشر وكرشه يهتز طربـا عندما عاد من قصر عابدين ، بحيث لم يفاجأ ضيوفه كثــيرا الذين كانوا يحتسون القهوة عندما قال لهم فؤاد :

ـ مبروك ياجماعة ، مبروك ياميرفت ، معالى الباشا ، تقلد وزارة الزراعة ٠

وهلل الحاضرون وكبروا وأقبلوا يعانقون رمضان باشا ويعانق بعضهم بعضا ٠ وعندما سألوا عن رئيس الحكومة الجديد ، كان فؤاد ايضا هو الذى رد عليهم فقد كان رمضان باشا يتلقى تهانى ابنتــه الحبيبة :

ـ عبد القادر باشا عيسى ٠

ووجم البعض ودهش البعض الآخر ، وقال قائل :

ـ ولكن عبد القادر باشــا فى أوروبا الآن ٠ وتولى فؤاد الرد عن الباشا ، فقد كان قد علم منه أنه قد استدعى بالتلغراف ليحضر على عجل ٠ وسأل أحد النواب فى تهيب :

ـ كيف تشكل الحكومة ورئيسها غير موجود ؟ وهنا لم يتمالك رمضان باشا نفسه من معاتبة السائل قائلا :

ـ ماهذا الذى تقوله ياشيخ خميس ؟ أنســيت أن مرجع الأمور كلها هو جلالة مولانا حفظه الله ، انه هو الذى يدير الأمور بحكمته ؟ ولقد كان هو الذى اختار الوزراء بنفسه ، ولذلك فقد هنــأنى ناظر الخاصة بهذا التقدير السامى ٠ ولا اكتمكم ياجمــاعة اننى لم اكن اتصور أن جلالة الملك بكل هذه اليقظة والالمام بما يجرى حتى داخل

حزبنا ، وتقدير الجهود التى نبذلها من أجل سعادة البلاد وخـــدمة جلالته • وأسرع احد النواب معلقا :

ـ ياباشا هذا حفيد محمد على ، كل الدنيا تعرف انه أسد •

ودق التلفون من جديد وكانت ميرفت هى التى تولت الرد هـذه المرة وسرعان ماظهر ان المتحدث هو رئيس الحكومة السابق • وأعطت التلفون لوالدها وانسحبت من الحجرة بعد أن أشـــارت لفؤاد أن يتبعها • وبدأ يترامى للقريبين من التليفون بعض عبـارات مما كان يقوله الرئيس السابق فى التلفون فقد كان يتكلم فى غضب وعصبية:

ـ أصحيح يارمضان باشا ان الوزارة الجديدة قد شكلت برئاسة عبد القادر باشا عيسى ، وانك اخترت وزيرا للزراعة ؟

ـ صحيح ياباشا ، ومبروك علينا كلنا ، فقد اخبرنى سعادة ناظر الخاصة ان كل شىء سيتم بالتفاهم معك باعتبـــارك رئيس حزب الاغلبية •

ـ وهل من مظاهر التعاون معى اختيار الرجل الذى استقال منذ شهرين احتجاجا علىّ ورغبة فى احراجى ؟ معنى هذا اننى لم اخطىء عندما تصورت فى وقتها ان هذه الاستقالة احدى منـــاورات القصر ضدى • ماهذه الفوضى التى اصبحنا نعيش فيها ، الى أى طريق يريد ان يسوقنا ناظر الخاصة ؟

ـ لقد تعلمنا منك يا باشا اننا يجب ان نكون دائما فى خـــدمة مولانا •

ـ ألم نتفق أنا وأنت منذ لحظـــات عندما كنت معى فى مجلس الوزراء ، على وجوب عرض موضوع الاستقالة وما يجب ان تكون عليه سياستنا المقبلة على مجلس ادارة الحزب هذه الليلة ؟ ألم تقل لى أنت نفسك أننا لايجب أن نرضى بغير الأغلبية المطلقة فى الوزارة الجديدة؟ فكيف رضيت بقبول المنصب الوزارى مع أنهم لم يختاروا من الحزب غيرك ، وشمس الدين باشا ؟

ـ لقد أكد لى ناظر الخاصة ان هذا التشكيل مؤقت ريثما يحضر رئيس الحكومة من الخارج ويتفق معك على كل التفاصيل ٠

ـ وهل صدقت انت ذلك كله ؟ فلماذا لم تتصـــل بى على الأقل وتستشيرنى قبل ان تقبل الوزارة ؟

وبدأ صبر رمضان باشا على رئيسه القديم وصاحبه ينفد ، فبدأ شاربه يهتز فى عصبية وهو يقول :

ـ أما زلت يا باشا تستكثر على الوزارة وترانى غير أهل لهـــا ؟ كنت أتصور أنك ستكون أول من يهنئنى فاذا بك تعاتبنى ، وعلى كل حال فانا مدير الحزب ، وقد تصرفت بما رأيته صالحا للحزب والنظام القائم ٠ أكنت تريدنا أن نرفض لكى يعرضـــوا الوزارة على حزب الأغلبية ؟ أننى يا باشا مدير الحزب ، ومن حقى ان اتصرف بما أرى فيه الصالح ٠ واحتد الرئيس السابق كما لم يحتـــد من قبل على رمضان باشا ، متهما اياه بأنه يسعى بهذه الطريقة لتخريب الحزب ولذلك يجب ان يعتبر نفسه مستقيلا ، أو مفصولا من الحزب كمـــا يشاء ، ولم يلبث الرئيس السابق ان اغلق التلفـــون فى وجـــه رمضان باشا مخالفا بذلك كل تقاليده وما عرف عنه من هـــدوء طبع وصبر وجلد ٠ وظل رمضان باشا بعد غلق التلفون فى وجهه فاغر الفم من فرط ذهوله ودهشته ، بينما خف الحاضرون لنجدته فقـــال قائل :

ـ ماذا يريد منا ، أو لا يتركنا وشأننا ؟ أكان يريد منك يا باشا ان ترفض الوزارة وتحرج جلالة الملك فلايبقى أمامه الا ارجاع حزب الاغلبية الى الحكم ؟

وسرت الفكرة فى صفوف الحاضرين من النواب سريان النار فى الهشيم فكاد جنونهم يجن لفكرة عودة حزب الأغلبية الى الحكم وحل البرلمان ، وراحوا جميعا يندون بالرئيس السابق وموقفه غير المفهوم٠ وقال لهم رمضان باشا ، وقد بدأ يتشجع بالتفاف النواب حوله :

ـ تصوروا ياجماعة ان دولته ينكر على قبول الوزارة بدون اذن

منه ويعتبرنى مفصولا من الحزب ؟ وصاح الجميع : انت تفصل من الحزب ؟ والله لايستحق الفصل من الحزب الا هو · الى متى يظل هذا الرجل يتحكم فينا ، الى كم من الزمن يعتبرنا نمرا واحجارا · لقد حان الوقت لكى نعطيه درسا لاينساه ، ليعلم اننا رجال ، الويل له منا اذا حاول أن يرفع رأسه فى مجلس النواب أو أن يعترض على الوزارة الجديدة ·

الفصل الخامس

١

ـ هذه بداية النهاية يادولة الرئيس ٠ كان المتكلم هو فكرى بك عبد المتجلى الذى كان يجلس كعـادته الى جوار مكتب رئيس حزب الاغلبية ، يهوم ويعلق على الحوادث من حين لآخر ، وكان يشـير ببداية النهاية ، الى ماحدث فى مجلس النواب من اهانة للرئيس السابق على يد أحد غلاة أنصاره عندما كان رئيسا للحكومة ، وكيف أنه رأى نفسه مضطرا للاستقالة من رئاسـة الحزب فتولاها الرئيس الجـديد عبد القادر باشا عيسى ٠ وانفرجت اسـارير رئيس حزب الاغلبية وقال :

ـ طبعا طبعا هذه بداية النهـاية ، أتعرف يافكرى بك ان لك سنحات لطيفة جدا ؟ بداية النهاية ، لابد ان اطلب من سـيدهم أن يجعل هذا عنوان المقال الافتتاحى فى جريدة الكفاح غدا ٠

ودخل فريد سكرتير الرئيس الخاص واستأذن للاسـتاذ وحيد رئيس اللجنة التنفيذية للطلبة ٠ واذن الرئيس ودخل وحيد مسرعا وهو متهلل الوجه ، وقبل يد الباشا وبعد ان فرغ من تقبيلهـا بادر يقول فى لهفة :

ـ اسأل الله أن يطيل فى عمركم يادولة الباشا ، فلسـت أعرف ما الذى كان يحيق بهذه الأمة لولا يقظة دولتكم الدائمة ، والهـامكم الالهى ؟ ٠ وافتر ثغر الباشا بالرضا والابتهاج وسأل وحيد عمـا وراءه من أنباء ٠

وقال وحيد وهو لايزال مهتاجا :

– فوزى ، فوزى السيد يادولة الرئيس

– من يكون فوزى هذا ياوحيد ؟

– فوزى السيد على ، سكرتير مشروع القرش يادولة الرئيس »

وظهر التجهم على وجه دولة الرئيس وقطب حاجبيه وقال :

– ماله ؟

– كشف النقاب عن وجهه نهائيا ، وأكد ماقلته دولتكم عنه عندما سمعتم اسمه أول مرة من انه صنيعة السراى ودسيسة على الشباب .

– أن قلب المؤمن دليله ان قلبى لم يكذبنى أبدا ، لقد أحسست منذ الوهلة الأولى ان هذا الولد ألعبان ، ما الذى فعله ياوحيد ؟ .

وعرض وحيد على دولة الرئيس مجلة كبيرة الحجم على خـــلاف المعتاد ، وهى تحمل اســـم البعث . وفتحهـــا وحيد من الوســـط وهو يقول : اتفضل يا باشا اقرأ ماذا كتب ؟ ولكن الباشا لم يزد عن القاء نظرة عابرة على المجلة المفتوحة امامه ، وسأل وحيد :

– ما اسم هذه المجلة ؟ ماهو المكتوب فيها ؟

– هذه مجلة اسمها البعث اصدرها فوزى وأصحابه . وقد فكرت فى ان احضر لدولتك نسخة منها لدى أول صـــدورها ، ولكن فوزى كان لايزال محتاطا فلم يكشف عن ورقه ، اما اليوم فقـــد اسفر عن خيانته فلم يبق مناص من اطلاع دولتكم على حقيقة الموقف ، لنتلقى توجيهاتكم فى الموضوع ، لقد اعلن فوزى عن انشاء حركة ســياسية جديدة اسمها حركة البعث ، حضرته يا باشا يدعو الأمة للالتفـــاف حول لواء هذه الحركة . اسمع ياباشا ماذا يقول : ياشـــعب مصر الخالد ، لقد حانت ساعة الجهاد ، وحركة البعث تدعوكم لعشر سنوات من الايمان والعمل ، وقطع دولة الرئيس على وحيد مطالعته قائلا :

– الله ، الله ، لم يبق الا هذا ؟ لم يبق الا الاطفال والعيال يوجهون النداءات للأمة ، أرأيت ياعبد المتجلى بك ، أرأيت الألاعيب الجديدة ، أرأيت الاسلحة المسمومة التى يسلطها ناظر الخاصة على الأمة وخاصة الشباب الذى كان دائما ابدا غصة فى حلوقهم ؟ لقد جاء بهذا الولد

تصورا منه انه يستطيع بألاعيبه أن يصرف الشباب عن الجهاد الحق ٠
أنا متأكد انه لاتوجد كلمة واحدة فى هذا الكلام الفارغ عن الدستور ، أفيه أى اشارة عن دستور الأمة ياوحيد ؟ وصاح وحيد مهتاجا :

ربنا يطيل فى عمرك يادولة الرئيس ، انك ترى بنور الله ، لاتوجد كلمة واحدة فى هذا البرنامج ، الذى ملأ ثلاث صفحات كاملة ، عن دستور الشعب ٠ وافتر ثغر الرئيس رضا عن نفسه وقال :

ـ لايمكن أبدا ان تخطىء فراستى ، هذه مؤامرة جديدة ، بعـــد ان فشلت مؤامرة شق الحزب وخروج السبعة ونصف ، ففكروا فى التأثير على الشباب لتحويله عن زعامته ، ولكن نجـــــوم الظهر أقرب اليهم ، ان الأمة لاترحم سيكون مصير هذا الولد مصير كل من خرج على اجماع الأمة وهو الطرد من رحمتها ، كما طرد من هم أكبر وأعتى منه، اسمع ياوحيد هذا الولد الذى تتحدث عنه ما اسمه ؟
ـ اسمه فوزى يادولة الرئيس ٠

ـ فوزى هذا يجب ان تحاربوه ، لقد قال لى سيدهم بالامس انه استقال من سكرتارية مشروع القرش ، ولكن هذا لايكفى ، يجب ان تحاربوه ، وأن تفضحوه فى كل مكان ، لقد قيل لى انه سرق مشروع القرش ، فتوقفت بعض الشىء ، أنا قاضى ياعبد المتجلى بك لا استطيع أن احكم بغير دليل ، ولكن المسألة بالعقل ، من أين جاء بالنقود لاصدار هذه المجلة فيجب عليه أن يختار احد أمرين احلاهما مر ، اما ان يكون قد استعمل بالفعل نقود مشروع القرش لاصدار هذه المجلة ، واما ان تكون السراى هى التى تعطيه المال ٠ عليه ان يختار بين أمرين احلاهما مر ، ألست معى يافكرى بك ان عليه أن يختار بين أمرين احلاهما مر ؟ وفتح فكرى بك عينيه وقال :

ـ طبعا طبعا يادولة الرئيس ، ولكنى ارجو ان تسمح لوحيد ان يقرأ لنا بعض ما جاء فى هذه المجلة ليكون حكمنا عليهم دقيقا وصادقا.
ـ نقرأ كلاما فارغا يافكرى بك ؟ نقرأ كلاما نعرف كلنا انه كلام

مزيف وضحك على الذقون؟ اقرأ له ياسى وحيد ، اقرأ لعبد المتجلى بك.
وقرأ وحيد :

ليكن شعارك ، الله الوطن الملك ، ولتكن غايتك أن تصبح مصر فوق الجميع امبراطورية شامخة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الاسلام . وهتف الرئيس :

اسمعت يا فكرى بك ؟ ليكن شعارك الله والوطن والملك ، أرأيت الدجل ؟ مادخل الله فى برنامج سياسى ؟ والوطن فهمناها ، ولكن اية حكاية الملك هذه ؟ لقد فضحوا أنفسهم . اننى لا يمكن أن أصبر على ذلك ، ياوحيد ناد على فريد .

وخرج وحيد لينادى على فريد، بينما طلب فكرى بك من الرئيس ان يسمح له بهذا العدد من جريدة البعث لكي يطالعه على رواقة ، فهو يريد أن يعلم الأساليب الجديدة التى أصبح يخاطب بها الشباب.
ودخل فريد :

ـ أفندم يا دولة الباشا ؟

ـ اطلب لى الأستاذ سيدهم على التلفون وان لم تعثر عليه الآن فابحث عنه الى ان تجده ، وفكرنى عندما اتقابل معه ان نتكلم فى موضوع هذه التقليعة الجديدة ، آل بعث آل ...

سلامات يا بعث .

٢

اعتقل البوليس فوزى ومحيى وحامد محمود رئيس تحرير مجلة البعث بعد صدورها ببضع ساعات ، وانتشر رجال البوليس يجمعون عددها الخامس بعد أن اصدرت النيابة أمرا بمصادرته والقبض على هؤلاء الثلاثة .

وجىء بهم الى قسم عابدين مقبوضا عليهم لتشرع النيابة فى التحقيق معهم . ولم يكن وكيل النيابة المحقق يصدق عينيه وهو يقلب صفحات المجلة ، ولذلك فقد راح ينظر للاستاذ حامد محمود من طرف

خفى مرة ليتأكد اذا كان شخصا طبيعيا أم مجنونا ، فقد كان عـــدد المجلة بين يديه يوشك ان يحرق أصابعه لفرط النار المشـــتعلة على غلافه وصفحاته • وقد كان الغـــلاف يحوى بالفعل صـــورة نيران تشتعل ، وقد شكلت السنة اللهيب صور زعماء مصر الثـلاثة الذين اعتبروا رمزا على ثورة سنة ١٩١٩ سعد وشعراوى وعبد العزيز فهمى، وكتبت السنة النيران تاريخ ١٣ نوفمبر • وفى صـــفحة تالية راح وكيل النيابة يطالع فى دهشة وحيرة « نحن والانجليز وجها لوجه » ويكد ذهنه فى تصوير نوع الجريمة التى يمكن ان يندرج تحتها هذا المقال ، فيرى انه يمكن ان ينطوى على جريمـــــة التحريض على بعض طائفة من الناس ، أليس الانجليز طائفة من الناس ؟ فكل تحريض على كرههم ينطوى تحت هذه المادة • ولكن الانجليز مستعمرون ، هـــذا صحيح ولكن مادة القانون لاتفرق ، انهم ناس فى نهاية الأمر ، وكل تحريض على كراهيتهم هو جريمة بنص القانون•ولكن قلقا يستولى على وكيل النيابة المحقق فقد كان أحد الطـــلاب الذين اشـــتركوا فى مظاهرات سنة ١٩١٩ ، ولكن مادخل هذا بما هو فى سبيله الآن ، انه وكيل نيابة وقد قيل له انه سيحقق مع شبان خطرين ، والبلاد ليست على كل حال فى ثورة • ويقلب وكيل النيابة المحقق صفحات المجلة ، ليرى فى صفحتين متقابلتين صورة ثكنات الاحتلال فى أنحاء القاهرة ، فى المحطة وعند قصر النيل وفى القلعة وقد كتب تحتها وحولها فى حروف غليظة مثيرة : « يا آل مصر ياشباب ، هل أصبحت هذه المناظر لاتزعجكم ، أم ألفتم طعم الذل والهوان ؟ انها ثكنات بريطانية ، انهـا جيوش بريطانية ، حتى قلعة صلاح الدين أصبحت بريطانية ، ما أشبه اليوم بالبارحة ، ولكن ما اعظم الفرق بين جهاد اليوم وجهاد البارحة» • ويهز وكيل النيابة كتفيه فى سخرية وضيق ، وأين نحن من البارحة، لقد تطورت البلاد واستقلت وأصبحت بيد ابنائها ، ألست أنا الطالب الريفى الفقير ، قد أصبحت وكيلا للنيابة ؟ فكيف يقولون ما أشـــبه اليوم بالبارحة ، انهم مغرضون من غير شك ، انهم مهيجون مدفوعون

للاخلال بالأمن كما قيل له • وصادفته فى صفحة اخرى من صفحات المجلة صورة ترمز لمظاهرات عام ١٩١٩ وقد سقط احد الشـــهداء برصاص الانجليز وسالت دماؤه على الأرض وقد كتب تحتها بنفس الخط الغليظ الأسود المثير « فى سبيلك يامصر » وقطب وكيل النيابة المحقق حاجبيه ، ونظر صوب حامد محمود الذى كان يجلس أمامه فى هدوء وقال له : ثورة ، هذه ثورة • أتريدون ان تحدثوا ثورة ؟ انكم تلعبون بالنار • ولم يحر الاستاذ حامد محمود جوابا ، بينمـــا مضى وكيل النيابة يستعرض صفحات العدد ، فاذا به يهتف وقد تملكته نشوة الانتصار ، فقد وجد اعترافا صريحا يؤكد احساســـه الذى استنتجه بقريحته وذكائه ، من ان هذه الشرذمة من الشباب الطائش المأجور تدعو الى الثورة، فقد وجد فى احدى الصفحات بالخط العريض « ياشباب عام ١٩٣٣ كن كشباب عام ١٩١٩ ، كن كهذا الشـــباب الذى أشعل الثورة فى وقت لم تتوقع الناس فيه الثورة ، ثورة جائحة ضد الانجليز والأجانب لاتعرف هوادة ولا لينا لاخـــلاص الوطن من ربقة الاستعمار » ، وضرب وكيل النيابة المكتب بقبضـــته وعض على أنيابه وهو ينظر للاستاذ حامد محمود الجالس امامه ممتقع الوجـــه ولكن فى هدوء وقال له وهو فى أشد حالات الانفعال :

ــ هذا جنون ، اين نحن ؟ أهذا معقول ، أين نحن يا أفندى اليوم من عام ١٩١٩ ، لقد كان الانجليز هم حكام البلد فى هذه الأيام فثرنا عليهم ، أما اليوم فالثورة هى قلب نظام الحكم فى البلاد ، الا تعرفون ان فى البلد دستورا ونظاما ملكيا وحكومة شرعية؟ الا تقول لى من يقف وراءكم ؟ ، من الذى يحرضكم ؟ مســـتحيل ان تجرؤوا بمفردكم على كتابة هذا الذى كتبتم • ولم يحر الاستاذ حامد محمود جوابا ، فقـــد كان لايعرف بماذا يرد على أحاديث وكيل النيابة الغاضب ، وضايق وكيل النيابة صمت الاستاذ حامد محمود ، وقال له :

ــ طبعا تسكت الآن وقد وقعت فى ايدينا ، وأنا متأكد انك ستنكر بعد قليل كل علاقة بينك وبين هذا العدد وأنك لم تره ، وأنك كنت

مريضا • هذا دأبكم تتصرفون أمام القراء كأنكم أبطال ، وتتحولون امامنا الى نعاج • وحاول الاستاذ حامد محمود ان يعترض فصرخ فيه وكيل النيابة طالبا منه ان يصمت، وعاد وكيل النيابة يقلب في صفحات المجلة وقد بدأت خطة التحقيق ترتسم فى ذهنه ، لقد طلب منه ان يصل الى حقيقة هؤلاء الشبان فلا يجعل تحقيقه قاصرا على مجرد المقالات ، بل يجب ان ينفذ الى ماوراء هذه الحركة كلها ، من الذى يمولها ، ماهى اهدافها ؟ اهى جناح متطرف اصطنعه حزب الأغلبية ليهدد به الانجليز بينما يظل يتظاهر بالاعتدال ؟ ام أنهم شيوعيون فوضويون ؟ ومال وكيل النيابة المحقق الى هذه الفكرة الاخيرة ان هؤلاء الشباب فوضويون أو شيوعيون ، فقد كان يعطف فى قرارة نفسه على حزب الأغلبية ، ولا يتصور أن يصل به التهور الى ان يصطنع كما تصورت السراى هذا النفر من الشبان الفوضويين، وكيفما كان الأمر ، فان واجبه الوطنى ان ينقذ البلاد من أمثال هؤلاء الشبان المتهوسين الذين قد يسببون للبلاد بطيشهم كارثة •

وفرغ وكيل النيابة من تأملاته ، ورسم خطته ثم شرع فى التحقيق • وكانت أول مفاجأة فوجىء بها وكيل النيابة المحقق ، أن الاستاذ حامد محمود الذى اختاره فوزى ومحيى ليتولى رئاسة التحرير نظرا لصغر سنهم ، لايحاول ان يتخلص من المسئولية ويلقيها على زميليه اللذين وصفا فى رأس المجلة بأنهما مديرا التحرير المسئولان• ان قانون المطبوعات لايعرف مسئولا سوى رئيس التحرير ، وقد تحمل رئيس التحرير مسئوليته كاملة ولم يحاول التنصل منها • وقرر أمام وكيل النيابة المحقق انه اطلع على كل شىء وأجاز نشر كل شىء ، ايمانا منه بأن مصر يجب ان تهب من سباتها ، وتستأنف جهادها ، حتى تحرر أرضها من الغاصب الأجنبى •

وزادت دهشة المحقق عندما وجد محيى يعترف امامه بدوره بأنه الكاتب لكل حرف فى المجلة ويعتبر نفسه مسئولا عنه • وعلم منه المحقق انهم أصدروا الجريدة بما استدانه فوزى من بنك مصر بضمانة

زميل لهم ، وقدم لوكيل النيابة كل البيانات الخاصة بهـــذا القرض الذى لم يتجاوز مائتى جنيه . وبدأ الشـــك يتسرب الى نفس وكيل النيابة المحقق ، أيكون هؤلاء الشبان الذين يتســـابقون لتحمـــل المسئولية والذين يتطوعون بذكر كل مايتصل بحيـــــاتهم ومصدر نقودهم ، ليسوا بهذا السوء فى نهاية الأمر ؟

وجاء دور فوزى ، وقد كان هو المسئول الحقيقى عن كتابة كل حرف تسأل عنه النيابة ، فلما قال ذلك للمحقق تصور أنه ينافس زميليه فى شرف تحمل المسئولية . وبدأ يحس بشىء من الرثاء لهذا الشباب الطائش المغرور .

وامتد التحقيق حتى الساعة الثانية صباحا ، بعد ان ناقش وكيل النيابة فى كل شىء ، وتقصى كل شىء وقال له المتهمون الثلاثة آمالهم وأمانيهم فيما يحبون أن يروا البلاد عليه ، وأصدر فى نهاية الأمر أمره بحبسهم أربعة أيام على ذمة التحقيق .

٣

واقتيد الثلاثة للمبيت فى سجن القسم ريثما يرحلون فى اليوم التالى الى السجن العمومى ، بعد ان يستكمل وكيل النيابة تحقيقـــه بتفتيش دار الجريدة وضبط أوراق الجماعة . وكان السهر الطويل والتوتر والقلق قد أضناهم وأرهق اعصابهم ، ولذلك فعندما فتح لهم السجان باب السجن وزج بهم اليه فى عنف ، كما هو شأنه مع كل من يوقعه سوء الحظ بين يديه ، وقف الثلاثة مصـــعوقين لايتبينون شيئا من الظلام الذى وجدوا انفسهم فيه فجأة . وأحســـوا للوهلة الأولى بالاختناق . وعندما دوى فى آذانهم صوت المزلاج الحـــديدى يحكم اغلاق الباب عليهم ، تصوروا كما لو كانت سكين المقصـــلة تسقط على اعناقهم أو هكذا كان شعور فوزى على الأقل ، فقد انتفض فى عنف وأمسك بصاحبيه خوفا من السقوط . ووقف الثلاثة طويلا حيث أوقفتهم دفعة السجان الاولى ، والظلام يكتنفهم . وبدأت حواسهم

الاخرى تعمل ، وأدركوا أن الحجرة تغص بالمسجونين من قبلهم ، فالانفاس المتصاعدة تزكم أنوفهم ، والشخير يكاد يصم آذانهم ٠ واعتادت اعينهم الظلام ، وتحرك حامد محمود حركة نحو الامام ، فاصطدمت قدمه بجسم صلب لم يلبث ان وقع على الأرض فأحدث اصطدامه بها رنينا أزعج النائمين ، فارتفعت بعض الاصوات بالاستنكار والسخط ٠ ولكن أصحابنا الثلاثة لم يلبثوا أن أحسوا بسائل قد أريق حول اقدامهم وانبعثت منه رائحة مؤذية جعلتهم يدركون فى غموض حقيقة هذا الذى اصطدموا فيه ٠ ومع سريان السائل المراق فى انحاء حجرة السجن بدأت زمجرة أشد خطرا من مجرد اعلان السخط ، وفوجىء الثلاثة بشبح ينقض عليهم فى الظلام مقسما أن يعجل بأجلهم ، ولكن الشبح توقف وهتف قائلا :

ـ الله ؟ دول افندية ، يظهر زباين جداد ؟ وسأل الثلاثة فى صوت خلا من التهديد : « ايه تهمتكم ، يا افندية ؟ وصاح صائح من احد الجوانب يسب ويلعن ويطلب السكينة فالجميع يريدون النوم ، وأن لم يسكتوا فسوف يشرب من دمهم ٠ ومن الخارج جاء صوت السجان يصخب بدوره ويلعن فقد كان السائل الكريه الرائحة قد نفذ الى الخارج من أسفل باب السجن ٠ وأقسم السجان أنه سيكسر دماغ ابن الكلب ابن ال ٠٠٠٠ الذى عمل هذه العملة ، وناداه بعض المسجونين فى ألفة وتحبب أن يفتح لهم الباب ليتولوا اصلاح مافسد ومسح البلاط ٠ ولكن السجان انتهرهم وطلب منهم الصمت حتى يصبح الصباح وعندها سيعرف كيف يربيهم ٠ وكانت هذه المشاهد والحوادث والاصوات تتوالى على أصحابنا فى سرعة ، وهم لايزالون فى ذهولهم الأول وضيقهم ٠ كانت هذه الدنيا الجديدة التى وجدوا انفسهم غارقين فيها فجأة شيئا لاعهد لهم به من قبل ، ولم تكن صورتها تطوف لهم فى خيال ٠ وناداهم صوت من الظلام :

ـ تعالوا هنا يا افنديات ، عندى مكان تجلسون فيه ، ام ستظلون وقوفا طول الليل ؟

واقترب أصحابنا الثلاثة بحركة لاشعورية فى اتجاه الصـوت ، وتعثر فوزى بانسان راقد على الأرض ، سرعان ما انفجر يصـخب ويسب ويلعن ويقسم بالله العظيم انه سيهشم ضلوع من اعتدى عليه وسيفقأ له عينه . ولكن صوت المتكلم كان ينم عن أنه فى حالة سـكر تجعله لايقوى على الكلام الا بصعوبة ، ولم يلبث ان اعترته نوبة فراح يتقايأ • وابتعد اصحابنا عنه فى ذعر وقال حامد محمود : لابد لنا من الجـلوس • فأسرع محيى يقـول : على الأرض ؟ انى مريض بالروماتيزم ، فما الذى يحدث لى ؟ وقال فوزى مستسـلما : ليس امامنا مانفعله غير ذلك • وتهاوى الثلاثة من فرط الاعيـاء على الأرض الاسفلتية بجوار الحائط الذى دعوا للاستناد اليه • وسألهم الزميل الذى وجه اليهم الدعوة عما اذا كان معهم سيجارة ، فاعتذروا بأنهـم جميعا لايدخنون • ولم يتمالك الزميل الجديد نفسه من ذكر بعض عبارات غير كريمة يعبر بها عن خيبة أمله • وأحس محيى فى مكانه الجديد بحشرة تلدغه فى رقبته ، فتحسس مكان الألم فاذا بجسـم صغير يفعص تحت أصابعه ، ويحس بسائل لزج فيصرخ من الرعب : « بقة » • ولم يكد يتلفظ بالكلمة حتى كان الثلاثة يكتشفون أنهم قد وقعوا في مستودع من البق • وكاد هذا الاكتشاف يخمد انفاسهم من الاشمئزاز والهم والقلق ، فوثبوا واقفـين من الذعر ، وأحس فوزى بأنه يختنق ، وبرغبة حادة فى نفسه تدفعه الى أن يدق رأسـه الى الحائط ، ويظل يدقها حتى تخرج روحه من بين جنبيه ، ويتخلص من هذا الجحيم الذى يعانيه • ومن جديد صرخ فيهم الصـارخون ، يسبون ليلتهم التى لاتريد ان تنتهى على خير ، وانقسم السجناء الى فريقين ، فريق يستشفع باصحابنا باعتبارهم لايزالون خاما لم يألفوا هذه الحياة وقد سجنوا من اجل الوطنية ، وفريق آخر رأى انهم سواء كانوا محبوسين من أجل الوطنية أو غير الوطنية فلا بد من أن يجلسوا ويناموا ليدعوا الآخرين ينامون والا فسوف يسـود عيشـتهم • وسرى الذعر الى افئدة جماعتنا ، خوفا مما قد يحل بهم فى الظلام وهم

وسط هذا الحشد من السكارى والمجرمين ، فأسرعوا يجلسون من جديد على الأرض ، ولكنهم حرصوا هذه المرة على أن يبتعدوا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا عن الحائط خوفا من جيوش البق الكثيفة على هذا الحائط واسندوا ظهورهم الى بعضهم • وكان فوزى أشد الجميع ضيقا فقد كان يثقل على ضميره انه هو الذى ساق صاحبيه هذا المساق ، وزنت رأسه وأحس بالجفاف فى حلقه ، وتملكه الشعور بالاختناق وخال نفسه كما لو كان يطحن طحنا بين شقى رحا • وسأل نفسه : أتكون هذه هى النهاية ؟ وملأته المرارة ان ينتهى على هذه الصورة ، وهو الذى كان يتصور أنه لم يبدأ بعد •

أما محيى فقد كان أبرز مايحس به فى هذه اللحظة هو الاحساس بالغيظ فلم يكن له يد فى هذا الذى حدث ، وفوزى هو المسئول بتهوره عن هذا المصير الذى وصلوا اليه ، فقد كان هو كاتب هذه المقالات السافرة فى دعوتها الى الثورة • وكان يحنق محيى أنه محروم حتى من حقه فى تأنيب صاحبه ، فهو يعلم ان ذلك هو رد الفعل لاتهامه فوزى بالجبن ، وانه يتحاشى مواجهة قضية البلاد الحقيقية والتى تتلخص فى كلمة واحدة وهى الانجليز • وأن واجب كل وطنى يتلخص فى أمر واحد ، أن يهاجم الانجليز فى غير هوادة • وهاهو فوزى يستجيب لتحريض محيى ليرد على تحديه وليثبت له انه ليس جبانا كما زعم • ولكن هذا الذى فعله فوزى هو الى التهور اقرب ، فقد كتب بطريقة سافرة ، تجعلهم يقعون تحت طائلة القانون عن أيسر طريق • ويشتد الغيظ بمحيى ، انه غير مسئول عن هذه المقالات ، ومع ذلك فلم يكن يسعه أن يتنصل منها خوفا أن يكون هو الجبان • وهكذا تحمل مسئولية مالم يفعل • وكان هذا الموقف البطولى يخفف عن نفسه بعض ضيقها وغيظها • أما حامد محمود ، فقد كان اكثر الثلاثة هدوءا ، فهو أكبرهم سنا من ناحية ، وأكثرهم توقعا لما حدث وفهما له • وكان انسانا متصوفا قدريا ينزل عند مشيئة ماتجرى به الاقدار •

وأغفى أصحابنا فى نهاية الأمر ، وامتدت اليهم يد النوم الرحيمة. وعندما تنبه فوزى الى نفسه وجد كل شىء من حوله وفى داخل نفسه قد تبدل • لم يعرف كم مضى عليه من الوقت نائما ، وقد لايعدو الأمر بضع لحظات أو دقائق ، ولكن نور القمر كان يغمر الآن حجرة السجن وهو ينفذ اليها من كوة فى أعلى الحجرة مسلحة بقضبان الحديد الغليظ • وعلى فرط ما أحب فوزى أشعة القمر وما اقترنت فى ذهنه بذكريات سعيدة ، فلم يحدث ان مثلت له أشعة القمر ما كانت تمثله فى هذه اللحظات • لقد كانت بمثابة الأمل والنور والرجاء ، لقد تبدد الظلام من حوله ومن داخل نفسه ، لقد أصبح قادرا على ان يميز كل ما يحيط به • فالحجرة ليست مكتظة بالمساجين كما كان يتخيل، وكان الجميع يفترشون الأرض ولاتسمع منهم سوى أنفاسهم وقد اختفى منها صوت الشخير المزعج • حتى الرجل السكران ، كان متكوما فى وسط الحجرة فى هدوء •

ونظر فوزى نحو أشعة القمر وراح يتتبع مصدرها وهى تنفذ فى لين وحنان وهدوء ، وتاقت نفسه لأن يهم واقفا لكى ينظر الى قرص القمر نفسه ، ولكنه عدل عن هذا التفكير خوفا من أن يوقظ زميليه اللذين كان مستندا اليهما مثل استنادهما اليه •

وعجب فوزى للتغير الكبير الذىطرأ على حواسه وتفكيره ومشاعره. لقد أحس بالخفة تسرى فى جسده وروحه، زال من نفسه كل احساس بالشقاء والبؤس والمرارة•كانتتغمر نفسه سكينة عميقة لاحد لعمقها. فأين هذا من تفكيره فى أن يضع حدا لحياته عندما دخل الى هذه الحجرة المنكودة • وكان معنى هذا الانقلاب فى نفسه ، أنه اذا كان مامر بهم حتى الآن هو أسوأ ما فى الموضوع لهول المباغتة ، فقد زالت الآن المباغتة ولم يعد الأمر بكل هذا السوء الذى صورته الاعصاب المرهقة • ألم يكن هو نفسه الذى حذر اخوانه وهم يدعونه للسير فى هذا الطريق ، ان لاينتظروا من جراء السير فيه سوى الآلام والدموع ؟ ألم يقل لهم أن يعدوا أنفسهم لشتى صنوف المحن والويلات ، وأن

يكونوا على استعداد للتضحية بكل شيء حتى بشرف التضحية نفسها ؟ فأى شيء فيما مربه لايستطاع احتماله ؟ ومرت فكرة الموت فى رأسه وأنه قد يقضى عليه بالاعدام فى هذه القضية ، وعلى الرغم من انه كان يعرف ان لامجال للتحدث عن الاعدام ، ومع ذلك فقد مرت هذه الفكرة فى رأسه فاذا بها تبعث السرور الى نفسه • أجل ما أحلى أن يموت وهو لم يرتكب ذنبا ولم يؤذ انسانا • ما أحلى أن يموت مغمورا منسيا لايحس به أحد فى الوقت الذى يعرف هو انه يموت من أجل مصر • وأيقظه صاحباه من أحلامه اللذيذة وسرعان ما اكتشف أن نفوسهم صفت مثل صفاء نفسه • وأنهم أقدر على مواجهة احتمالات المستقبل أكثر ثباتا •

وأشرق النهار وتدفقت القوة فى عروق فوزى فأمسك بقلم كان لايزال فى جيبه واخرج قطعة من الورق وراح يكتب مقالا للعدد التالى من البعث جاعلا عنوانه « لن نخاف » •

٤

فوجىء فوزى وصاحباه بضابط سجن الاستئناف الذى كانوا قد نقلوا اليه يدخل عليهم مبتسما ، ثم يوجه حديثه الى فوزى معلنا انه يحمل له بشرى سارة • ولم تكن هذه البشرى أقل من زيارة آمال له • ولكن الفرح الشديد الذى تملك فوزى عندما سمع بالنبأ بحيث قفز من فوق الأرض فرحا ، قد خفت وطأته بعد أن قابل آمال بالفعل فقد وجد وجهها مصفرا ، ووجدها مأخوذة من كل مايحيط بها ، تحاول ان تبتسم لفوزى مشجعة فتموت الابتسامة على شفتيها • وكانت تسمع فى دهشة وذهول مايقوله لها فوزى عن سعادته هو وصاحبيه فى هذا السجن ، فهم يعيشون معا فى زنزانة واحدة يقرأون ويغنون ويصلون ، ويتناقشون فى كل شيء • والتفت نحو الضابط شاكرا ، الذى كان قد بدأ يحسن معاملتهم بعد ان تعرف اليهم • وصور فوزى فى غمرة اندفاعه لآمال المعاملة الغريبة التى

عوملوا بها عند وصولهم الى السـجن أول مرة ، وكيف جردوا من ملابسهم ووقفوا عرايا مع بقية المسجونين الآخرين ، وقصت لهم شعورهم ثم زج بهم لتناول حمام بارد . وتدخل الضابط مبديا أسفه واعتذاره عن هذا الذى حدث ، فقد عوملوا كبقية المساجين العاديين حيث يجيئون من الخارج فى حالة شديدة من القذارة فتتخذ معهم هذه الاجراءات . ولو كان موجودا ساعة وصولهم لما حدث شيء من ذلك . وأحس فوزى بعد أن قال ما قال انه ما كان يجدر به أن يقص هذه الواقعة المؤسفة على آمال ، فى الوقت الذى يريد أن يخفف عنها ويصور لها كيف أصبحت حياتهم بعد ذلك مريحة . بل وهانئة . وقالت آمال لفوزى وهى لاتزال مأخوذة :

– أراض أنت يافوزى عن حياتك في السجن؟ فرد عليها فوزى قائلا:

– ان مبعث رضائى اننى كنت أتصور السجن شيئا رهيبا ، ولكننا اصبحنا نعيش فيه سعداء لما نحس به من راحة الضمير . لاتنسى يا آمال أننا قد تصدينا لحمل رسالة ثقيلة ، وكان لابد أن نعمد بالسجن وان نجتاز هذه التجربة بنجاح ، لنحطم سلاحا من أرهب أسلحة قوى الظلام تحاول ان ترهب به المجاهدين وهو التهديد بالسجن . وها قد عمدنا ، واجتزنا التجربة بنجاح ، فليس فى نفوسنا ذرة واحدة من الجزع أو القلق . وهزت آمال كتفيها وقالت:

– أما أنا فاسمح لى أن لا اشاطرك رضاءك وغبطتك ، وانى أرجو ان يفرج عنكم فى المعارضة الآتية بعد اسبوع ، وان يكون هذا السجن هو آخر العهد به . وانضم الضابط الى آمال فى قولها ، ونعى على فوزى ان تكون له مثل هذه الخطيبة المتفوقة فى الشياكة والأناقة وان يتركها الى السجن . وتبسمت آمال لأول مرة ، وتشجع الضابط فقال لها :

– على كل حال ياست هانم السجن السياسى شرف ، وصاحبه ينتقل دائما من السجن الى كرسى الوزارة ، لقد كان مسجونا فى نفس حجرة الاستاذ فوزى وأصحابه ، الأستاذان باهر والويشى



وكنت أنا الضابط عليهما ، وقد أصبحا وزراء بعد خروجهما من هنا بعد أن كان حكم الاعدام يتربص بهما ٠

ولم يطف بخيال فوزى لحظة أنه يمكن ان يؤدى به جهاده الذى بدأه الى الوزارة ، ولكنه رحب بهذه الملاحظة فى هذه الساعة علهـــا تخفف بعض ما كانت تعانيه آمال ٠

٥

لم تكد آمال تفرغ من قص تفاصيل زيارتها لفوزى فى السجن على أسرتها ، حتى احتدم النقاش الذى اصبح يتكرر فى هذه الآونة الأخيرة بينها وبين رياض اخيها ٠ وقد كانت المناقشة فى كل مرة تكشف عن اتساع شقة الخلاف بين مايمثله فوزى وما يعبر عنه رياض أصـدق تعبير ، وبين آراء آمال وافكارها ٠ وتدخلت الأم كما هو شأنها فى هذه الأيام الأخيرة لتفصل بين المتنازعين وقالت لآمال :

ـ شوقى بك نصار زوج اختك المرحومة ، يريد ان تخاطبيه فى التلفون لتتكلما بخصوص حاجات نادية التى ستشترونها غـــدا ٠ وظهر الامتعاض على وجه آمال وقالت :

ـ ولكننا اتفقنا على كل شىء ، فسأقابله غدا على باب شيكوريل الساعة الرابعة بعد الظهر ٠ وقال لها رياض :

ـ انه رجل (لكاك) فلا تسألى عليه ٠

ولكن حب الاستطلاع عند آمال ورغبتها فى مخالفة أخيها جعلاها ترتدى قبعتها وتسرع بالنزول لتخاطب شوقى بك فى التلفون ٠

وطلب منها شوقى بك الذى كان قد علم من نادية ابنته انهـــا ستذهب الى حديقة الحيوانات ان تاذن له فى مصاحبتهما ، وترددت آمال فى بادىء الأمر ، ولكنها بعد قليل لم تجد مايدعو لهذا التردد ، فمن حق نادية ان تستمتع بصحبة والدها فى بعض المناســـبات وجاءت سيارة شوقى بك فى اليوم التالى فى الساعة العاشرة حسب الميعاد ، وانطلقت بثلاثتهم نحو حديقة الحيوانات ٠ ولم يكن هناك من

هو أسعد من نادية الصغيرة وهى تعدو فى ممرات الحـديقة ، وتثب وتصرخ من شدة الفرح ٠ وكانت تعدو أحيانا مخلفة أباها وخالتها وراءها ، فتناديها آمال محذرة ومنذرة ، ولكن الطفلة الشقية تضاعف عدوها ازاء هذا التحذير ، فيضطر أبوها وآمال ان يعدوا لملاحقتها ٠ وهكذا أصبح الاهتمام بنادية عنصرا يوحد لأول مرة بين مشاعر آمال وشوقى بك نصار ٠

وقالت آمال وقد اقتربت الساعة من الواحدة ، انها يجب ان تعود بنادية الى البيت ، استعدادا للذهاب الى شيكوريل فى الموعد المتفق عليه ٠ واقترح عليها شوقى بك ، أن يتناولوا الغـــداء فى جزيرة الشاى ثم يتوجهوا من الحديقة الى شيكوريل ٠ وعندما حاولت آمال ان تعتذر اذا بشوقى بك يفاجئها بقوله :

ــ الى متى يا آمال هانم تقيمين هـــذه الحواجز بينى وبينك ؟ أتعتبرينها جريرتى ، ان توفيت اختك رحمة الله عليها ؟ أو لاتعلمين اننى كنت أوثر أن أفتديها بنفسى ، فأموت أنا وتبقى هى من أجل خاطر نادية ؟ فلست فى نهاية الأمر سوى رجل كبير فى الســــن ٠ وتأثرت آمال بهذه العواطف الرقيقة التى عبر عنها شوقى بك ، فى الوقت الذى كانت تتصوره غير قادر على ابداء مثل هـذه العواطف ، ووجدت نفسها منساقة لأن تقول له :

ــ الأعمار بيد الله ياشوقى بك ، وربنا يطيل فى عمرك من أجل نادية ، ونظرت اليه مبتسمة وقالت له بطبيعتها المجاملة ، ثم من هذا الذى يقول انك رجل عجوز ، أنك لاتزال شابا ٠ وضحك شوقى بك بملء شدقيه سرورا وقال لها :

ــ لا يا آمال هانم لاتبالغى ، لقد تركنا الشباب منذ أمد بعيد ، ولكن أن تقولى اننى مازلت بكل صحتى فهذا صحيح ، اما الشـــباب فلا ٠ لقد تخطيت الخمسين يا آمال هانم ٠

ولم يعد هناك أى معنى بعد هذا التبسط فى الحديث بين الاثنين، ان تمانع آمال فى تناولهما الغداء سويا فى جزيرة الشـــاى ٠ وكان

منظر البحيرة الرائع حيث تقع جزيرة الشاى ، ذا تأثير خاص فى نفس آمال ، ولطالما قالت لفوزى فى المرات التى جلسا فيها سويا ، أنها من اجمل بقاع الدنيا ، فهذه الأسراب العائمة من الأوز والبط ، تتخللها هذه البجعات الكبار ، تفتن اللب بمنظرها المتناسق المتساوق، وكأنها نغم موسيقى يرتفع وينخفض ويدق ويغلظ ولكنه موزون دائما • وأوراق البشنين تسبح على سطح الماء حول البط والأوز ، والصخور الصناعية تحدق بالبحيرة والماء ينساب منها فى جداول وشلالات ، محدثة أجمل النغم • ولم تقتصد آمال فى اظهار مشاعرها، والتعبير عن اعجابها بالزهور الحمراء والصفراء والبنفسجية والوردية وهى تتألق فوق الاشجار الباسقة ، أو تتدلى منها فى الماء ، مؤلفة فى ضوء الشمس الساطعة اطارا حيا للمنظر فى مجموعه•ولم تكن نادية أقل منها ولعا بعشق جزيرة الشاى ، فقد كانت هوايتها المفضلة ان تلقى بقطع الخبز للبط ، وكثيرا ما كانت تغافل خالتها ووالدها وتلقى للبط والأوزبقطع اللحم • وكان يطربها ويطرب رفقاءها الكبار كيف يتجمع البط ليلتقم ما يعطى له ، وهو يهز ذنبه ويشرئب برأسه استعدادا ليلقف مايقذف له به ، حتى اذا لم يجد مايلقى اليه عاد ليسبح فى الماء ، وكأنه دمى خشبية أو كاوتشوكية ذات جمال زخرفى وقد صبت كلها فى قالب واحد •

***

وبعد أن نعم الثلاثة بغدائهم ، قصدوا مخازن شيكوريل ، وابتاعوا لنادية ، اكثر مما كان متفقا على ابتياعه ، فقد راح شوقى بك على خلاف العادة ينفق بسخاء لم تكن آمال تتصور انه قادر عليه ، لفرط ماتحدثوا عن بخله •

وبينما كانت آمال فى طريقها الى الخارج ، لمحت قبعة جديدة جميلة خطفت بصرها ، فأبت الا ان تجربها ، وأعجبت بشكلها وهى ترتدى القبعة ولم تتمالك نفسها فاختالت بضع خطوات • وأطرى شوقى بك جمال القبعة ، أو جمالها على آمال ، ولكن آمال لم تلبث ان

نبذت فكرة شراء القبعة ، عندما علمت من البائعة أنهـــا واردة من باريس وان ثمنها هو ثلاثة جنيهات ، ولم يكن مع آمال سوى جنيهين اثنين . وعرض شوقى بك عليها ان تتقبل القبعة هدية منه فتسمح له بدفع ثمنها ، كتعبير عما يحسه نحوها من شكر لما تبذله من عناية برعاية ابنته نادية . ولكن آمال لم ترض منه بهذا القول ، فليست نادية سوى ابنتها التى تجود من أجلها بالنفس والنفيس ولاتسمح بعبارات الشكر تزجى لها بسبب هذه الرعاية ، فكيف بقبول ثمن لها . وحاول شوقى بك ان يحتج على هذا الجفاء الذى قابلت به هـــديته ، وان هذا لايتفق مع مايجب ان تعامله به باعتباره اخا اكبر ، ولـــكن آمال اصرت على موقفها فى حزم ، ورجته أن يكف عن كل حديث فى هذا الموضوع .

٦

لم يكد فوزى يفرغ من معانقة أبيه ، الذى اغرورقت عيناه بالدموع لفرط تأثره مما حاق بولده وعودته بعد ذلك سالما ، حتى أسرع يحلق ذقنه التى كانت قد طالت فى السجن اذ كان محظورا عليهم حلقها . ولكنه أبقى شاربه الذى كان قد نما بدوره ، بعد أن أصبح فى حاجة الى ان يبدو كبيرا فى السن وهو يخوض كفـــاحا سياسيا على رأس جماعة .

وعندما توجه فى نهـــاية الأمر لزيارة آل رياض الذين كانوا قد سكنوا بالقرب منهم فى المنيرة ، كان وجهه يتألق بالسعادة والبشر ، والدنيا لاتكاد تسعه وقد خرج من محنته الأولى فائزا منصـــورا . واستقبل فى بيت رياض بعاصفة من الفرح ، فأقبـــل عليه الجميع يقبلون ويعانقون . وكانت آمال هى الوحيدة بين الحشد الذى اجتمع حوله لاتبدى مثل مايبدون من حماسة ، وان حرصت ان تغلف تصرفها بغلاف من المداعبة والمزاح ، فراحت تقول لاخواتها الصـــغيرات ان لايأكلوا فوزى كله ، وان يبقوا لها بعضا منه . وصافحته فى حرارة،

وقبلته فى حرارة أكثر ، ولكن مجرد هذا الترتيب فى التقبيل بعد المصافحة ، جعل فوزى يحس بما فى تصرفها من تكلف • وأحاط الجميع بفوزى وعلى رأسهم رياض وأطلق فوزى لنفسه العنان فراح يثرثر واصفا كل ماعاناه ولاقاه فى السجن ، والسامعون من حوله يصفرون حينا ويحمرون حينا آخر ، ويبدو عليهم الاشمئزاز طوال القصة ، حتى اذا جاء الى الفصل الأخير فصل افراج محكمة الجنايات عنه وعن زملائه بخمسة جنيهات على سبيل الكفالة لكل منهم ، وكيف ترك جهابذة المحامين الذين جاءوا للدفاع عنهم مهمة المرافعة للاستاذة مشيرة زميلتهم فى الدراسة وحدها ، ولم يحتج الأمر لغير عبارات قليلة لتفرج المحكمة عنهم ، صفق الحاضرون • وتولى رياض وصف الحماسة التى كانت تملأ الجمهور الذى احتشد لحضور الجلسة ، وكيف حمل فوزى ومحيى وحامد على الاعناق بعد الافراج عنهم ، وكيف تعالت الهتافات ، بحياة العدل وبحياة مصر ومجدها ، وارتفاعها فوق العالمين • وتدخلت آمال قائلة :

ــ ولكن هذا الافراج لايعنى ان القضية حفظت ، فستكون هناك محاكمة ويصدر حكم • فأجابها فوزى بأن هذا صحيح ، ولكن وصف التهمة قد تضاءل الى حد أصبح الأمل كبيرا جدا فى البراءة •

وانتهزت آمال فرصة انفرادهما ، لتسأله عما اذا كانت تجربة السجن قد اقنعته بوجوب الابتعاد عن هذا الطريق المحفوف بالمكاره والمخاطر ، وانه من الخير ان يعود لمشروعه الكبير مشروع القرش الذى أعلى من اسمه وأحاطه بالكرامة ؟ فقال لها فوزى :

ــ ولكنى استقلت من مشروع القرش كما تعلمين • فردت عليه آمال بأنها كانت بالأمس فقط مع رئيس المشروع الذى أصبح مديرا للجامعة ، وكان متلهفا على سماع نبأ الافراج عنه ، ليسحب استقالته، ويستأنف العمل فى ادارة الاكتتاب الجديد • فقال فوزى :

ــ ولكن ما العمل فى تهجمات حزب الاغلبية علىَّ ، محاولتهم المساس بأمانتى ؟

ـ كل ذلك قد تبدد الآن وزال بعد سجنك واعتقالك ، اذا كان لهذا السجن خير فى نظرى ، فهو أنه بدد ما كان حولك من اشـاعات وأقاويل ، وأصبح الطريق أمامك معبدا لاستئناف عملك فى مشروع القرش · ولكن فوزى قال لها فى محاولة لاقناعها :

ـ لم يعد بقـــدرتى يا آمال ان أعود الى الوراء فأحبس نفسى فى دنيا الاقتصاد ، بعد ان خرجت الى دنيا الكفاح السياسى الحر الطليق، ان اخوانى سيرون فى ذلك جبنا منى وخوفا نتيجة سجنى · وما كنت لأرضى ان أوصف بالجبن بأى ثمن من الاثمـــــان · وأسرعت آمال تقول له :

ـ اما أنا فاتصور ان ماتقوله الآن هو الجبن ، فانت خائف ممـا قد يقوله عليك البعض · ألست مقتنعا بأن العمل البنـــاء فى ميدان الاقتصاد والتعليم والتوجيه ، كفيل بأن يحقق لمصر كل آمالها ؟

ـ مقتنع تماما ·

ـ اذن كيف تحجم عن عمل ما أنت مقتنع به خوفا مما قد توصف به من أنه تراجع ؟

ـ ذلك اننى متأكد ، أن خصومنا لن يهيئوا لنا فرصة العمــــل فى مشروع القرش كما عملنا بالامس · لقد تركونا فى بادىء الأمر إستهانة بشأننا ، أما اليوم فالجميع قد تألبوا ضدنا · وقد لاتتصورين أنت ذلك ، ولكنى أحسه وأدركه · ان حزب الاغلبية يتهمنـــا بأننا صنائع السراى ، والسراى أصبحت تعتبرنا صنائع حزب الاغلبية · والانجليز يتصوروننا شيوعيين · لم يبق لنا اختيار يا آمال نحن الآن فى صميم المعركة ، وليس ينفع فى أى معركة سوى الثبات · حتى التقهقر بانتظام ، لابد له من قدر من الثبات ·

ـ وأين انا من ذلك كله ؟ ألم تفكر فى لحظة واحدة ، أليس لى عليك حقوق ؟

ـ انك خطيبتى ، وسنكون زوجين ان شاء الله · ونحن متفقـان منذ البداية أننا لن نتزوج عقب تخرجى مباشرة ، فمــا عليك الا أن

تعطيني فرصة ، يجب أن تتذرعي بالصبر عاما آخر أو عامين ، سأكون في ختامهما قادرا على أن أهيىء لك البيت الذي تطلبين ٠

وقالت آمال في عصبية وضيق :

ـ ولكن كيف وماهو السبيل الى ذلك ؟ ان هـــذا الطريق الذى تندفع فيه بغير نهاية ٠ لقد قال لى الكثيرون ، ان الانجليز سيقتلونك حتما ٠ وان كانت معرفتي بالانجليز تجعلني استبعد حدوث ذلك ، ولكن القوى الاخرى قوة حزب الاغلبية ، قـوة القصر ، قد تدبر لك مكيدة ، قد توقعك في مصيبة ، لايمكن ان يسمحوا لك بالاستمرار هكذا في التحريض على الثورة ٠

ـ هذا صحيح ، ولكن لم يعد بوسعي أن أنكل الآن ، انك تنسين انني لست بمفردي ٠ اننا جماعة وقد اختاروني رئيسا لهم مع انني لست بأحسنهم ٠ انني أعتبر خالد أمين من اعظم النماذج البشرية ، وقد كان من أشد الجميع حماسة لاختياري رئيساً ، فكيف استطيع ان اتخلى عن هؤلاء وان أخذل ثقتهم بي ؟ لا يا آمال لم يعد باستطاعتي أن اتراجع ٠ وارجوك ان تملأي قلبك بالايمان،وأنه لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا ، ولن يكون الا الخير ان شاء الله ٠ لقد كشفت لى هذه المحنة عن كثير من القوى الكامنة التي لاتنتظر الا من يحركها لكي تنطلق ٠ لقد بدأت النيابة معنا التحقيق وهي تريد ان تسحقنا سحقا ولكنها اجتهدت في النهاية للبحث عن تهم تافهة لتوجهها الينا، حتى تحول التحريض على قلب نظام الحكم وهي جناية خطيرة ، الى تهمة تحسين المظاهرات وهي جنحة تافهة ٠ ولقد كسبنا محبة رجال السجن ، وها أنت تحدثينني عن عطف الجميع على ٠ اننا لسنا وحدنا يا آمال ، ان مبادئنا ستنتصر ولكن الأمر يحتاج الى صبر ٠

وهزت آمال رأسها في انكار ويأس وقالت له :

ـ خلاصة الموضوع انك لم تعـــد تحبني ، ولم يعد بقدرتي أن أحولك عن أية فكرة من افكارك ٠ وهرع فوزي نحوها في شوق وضمها الى صدره وهو يقول :

- لاتلفظي هذه العبارة ، من انني لم اعد احبك ·
واختفت الأزمة بين الخطيبين مؤقتا في قبلة طويلة ·

٧

لم يتردد فكري في تلبية دعوة صديق طفولته فؤاد عبد السميع لشهود حفلة زفافه على ميرفت ابنة رمضان باشا خيري على الرغم من اعتراض محيي · كان محيي يرى فؤاد اسوأ نمـــوذج للشـــباب الوصولي الذي باع ضميره · ولكن فوزي لم يقر محيي على هذا الرأي، فما دامت علاقته بفكري تمثل جانب الخير فيه ، فلاينبغي بحال اغلاق هذه الكوة ·

ولم يكد فكري يقترب من قصر رمضان باشا ، حتى أهلت عليه الأضواء والزينات وترامت الى اسماعه اصوات الموسيقى وهي تعزف بكل لسان · وخيل اليه وهو يواجه القصر في نهاية الأمر انه في يوم الحشر ، فالاضواء الساطعة والحركة الصاخبة ، والعساكر الرائحـة الغادية ، ومئات السائقين والمنادين ، وأبواب السيارات التي تغلق في عنف ، فكأنها طلقات رصاص تساهم في الاحتفال ، كل ذلك أصاب فكري برجفة أعقبتها وحشة ، وتمنى لو أصـــاخ لرأي محيي فهو في هذا المكان أبعد مايكون عن جوهم الذي يعيشون فيه · ولكن لم يكن هناك سبيل الآن للتراجع فقد وصل الى باب القصر بالفعل · ولم يلق احد بالا للبطاقة التي كان يحملها ويتصور انه لن يستطيع الدخول بغيرها ، ووجد نفسه يسير وسط تيار من علية القوم وكبارهم رجالا ونساء ، مصريين وأجانب·وان هي الا لحظات ، حتى كان في بهو القصر الكبير الذي كان يعج بالانوار والصخب والبشر والموسيقى · وأحس فكري بنفسه ضائعا وسط هذا العالم الغريب عنه كل الغرابة · لقد حرص على أن يرتدي حلته الجديدة الكحلية اللون ، وكان حذاؤه يلمع، وقميصه وربطة عنقه من أرقى طراز وأغلاه ، ومع ذلك فقد بدا كمـا لو كان فقيرا متسولا في هذا الجو ، فقد كان الجميع يلبسون ملابس

السهرة الفاخرة • وقد زاد في ارتباكه أن يري نفسه وقد أحيط بالظهور والصدور العارية ، حيث يتألق النساء الفاتنات تألقا ، وان كان بعضهن قبيحا ، لولا هذه الاثواب الزاهية ومراوح ريش النعام والحلى والجواهر • راحت هذه الاسراب من الحسناوات والقبيحات الصبايا منهن والعجائز ، يرحن ويجئن في اختيال ، تنتهب اجساد الفاتنات منهن أبصار الرجال ، وأبصار بعض النسوة لاتقل نهما لانتهاب الرجال وخاصة من شباب ضباط البوليس ، الذين كانوا يملأون الحفلة بملابس التشريفة المزركشة والمقصبة ، وبعضهم يجر السيوف جرا الى جانبه •

ولم يتنفس فكرى الصعداء ويطمئن بعض الشيء الى انه ليس غريبا جدا عن الحفل ، الا بعد أن اكتشف وجود بعض أعيان الريف وهم يرتدون الجلاليب الجوخ ويضعون على رأسهم الطرابيش • وبدأ يتفحص بعد ان استقر به المقام وجوه من يحيطون به من الرجال، فاكتشف وجود سائر الوزراء الذين كان يرى صورهم في الصحف • وقد كان كل وزير يحيط به حشد من الرجال والنساء ولاسيما الاجنبيات منهن ، ولم تخل هذه الهالات حول الوزراء من فاتنة يختصها الوزير برعايته والتفاته • وكان صوت فؤاد هو أول ما أبهج فكرى وبدد عنه الشعور بالضياع والغربة :

ــ اهلا وسهلا ، ما أسعدنى يافكرى بتلبيتك دعوتى •

واقبل نحو الصديقين اللذين تعانقا فى حرارة عدد من ضباط البوليس ، وقد استوقفتهم حرارة هذا العناق الذى لم يحظ به انسان آخر • وعرفهم فؤاد بصاحبه فكرى عبد الحميد المحامى وصديق طفولته • وصافح جميع الضباط بلا استثناء فكرى مرحبين به ، بينما انبرى أحدهم قائلا :

ــ الأستاذ فكرى زميل الأستاذين محيى وفوزى ؟

ونظر له فؤاد فى حزم وصرامة ، وطلب منه أن يكف لحظة عن أعمال البوليس السياسى القذرة • واحتج الضابط المتكلم ، وأقسم

انه لم يقصد أى سوء أو تعريض ، وانه شديد الاعجاب بهذه الجماعة وحماستها واخلاصها العجيب • وتغامز عليه الجميع ، بينما كان فؤاد يدعو الله أن يقى الجماعة شر ذلك الاعجاب • وأسرع فسحب فكرى من وسط هذه العصابة من الضباط على حد تعبيره ، وقاده ليسلم على عروسه •

وبدأ فكرى يشعر بالامتنان لفؤاد الذى ازال وحشته ، وغمره بهذه العاطفة الصادقة • ودخل فكرى صحبة فؤاد الى حجرة جانبية ، فبهره بمجرد دخوله ماتصوره أطنانا من الورود والزهور والرياحين ، البيضاء والصفراء والحمراء ، والتى لم تستطع رغم جمالها وكثرتها ، أن تحجب جمال الزهور البشرية التى كانت تختال بين الزهور اختيالا ، وهى تفيض بالجمال والحيوية والنضارة التى تهز النفس هزا • وكانت عروس فؤاد جالسة على عرشها تشع جمالا وبهاء ونورها يكسف باقى الأنوار • وكان ذيل فستانها يغطى مساحة كبيرة تحت قدميها ، وحبات اللؤلؤ (والترتر) تضوى فى انحاء الفستان ، وتعكس الاضواء فتخطف الابصار وتأخذ باللب • وافتر ثغر ميرفت وهى ترى عريسها فؤاد مزدانا فى بدلة التشريفة ، وهو رغم سمار لونه مشرق الوجه قوى العضلات ، ممتشق القامة فارعها • لقد كان منظره فى هذه اللحظة يؤكد لها حسن اختيارها ، وليس أدل على ذلك من نظرات الحسد التى كانت صواحبها يرشقنها بها •

وكان التاج الذى يعلو كتفه ، يعلن عن الوثبة التى وثبها مذ عرفته ملازما أول • انه من صنعها وعمل يديها • وأحست لذلك بزهو ورضا • ولم تتمالك نفسها عندما وقع بصرها على صديقه فكرى ، من أن تبتسم اكثر واكثر • لقد كانت وسامته التي تصل الى حد الجمال والفتنة تحمل أى أنثى فى ظل أى ظرف من الظروف ان تبتهج بمرآه • وصافح فكرى اليد الجميلة التى امتدت له بينما كان فؤاد يقول لها :

ـ هذا هو فكرى الذى طالما دوشتك بالحديث عنه ، لقد قابلته من

قبل فى مهرجان القرش ، ألا تذكرين ؟ ورحبت ميرفت بفكرى أحسن ترحيب ، وقالت له ، انها لولم تكن مسافرة فى اليوم التالى هى وفؤاد لتمضية شهر العسل فى النمسا ، لدعته لتناول الغداء معهما فى اليوم التالى • ولم تقنع ميرفت الا بعد أن أكدت لفكرى ان ذلك سيكون أول شيء تفعله بمجرد عودتهما • وحصلت من فكرى على الوعـــد بتلبية الدعوة بكل سرور واعتزاز • وبدأ فى الخارج هرج ومرج ، وعزفت الموسيقى السلام الملكى ، بأقوى مما عزفته فى مناسبة ســـابقة • وسرعان ماترامى الى الاسماع ان رئيس الحكومة عبد القادر باشـــا عيسى قد شرف الحفل كما كان منتظرا ومتوقعا •

واستأذن فؤاد من عروسه وسحب فكرى طالبا منه أن يقدم له معروفا ، بأن يجلس مع عمه الشيخ عوضـــين ، الذى يحس بالعزلة والوحشة • وكان الشيخ عوضين عم فؤاد يجلس على أحـــد الأرائك المبثوثة فى أركان البهو الكبير وهو مرتد عباءة جديدة فوق جلباب من الجوخ وقد تعمم بعمامة وأمسك فى يده مسبحة يسبح عليها وهو مغلق العينين • ولم يكد فؤاد يقدم فكرى لعمه الشيخ عوضين ، ويعرف انه ابن الشيخ عبد الحميد خطاب حتى تهلل وجهه بالفرح والسرور كمـا لو كان قد وجد نفسه أخيرا • وانطلق فؤاد بعد أن اطمأن على عمـــه وصديقه ، ليمثل فى حضرة رئيس الحكومة ، الذى كان قد وصل الى منتصف البهو ، ورمضان باشا الى جواره يتفجر بالسعادة والبهجة ، والوزراء والنواب والشيوخ يحيطون بهما •

وتلفت رمضان باشا حوله متسائلا :

ـ أين فؤاد ؟ اين العريس ؟

وهتف فؤاد الذى كان قد اقترب فى هذه اللحظة معلنا عن وجوده، وانفرجت الدائرة حول الرئيس لتمـــكن فؤاد من التشرف بلثم يد الرئيس وتلقى تهنئته ، بينما راح الجميع يسمعون رئيس الحـــكومة الثناء على فؤاد ، وكيف أنه من شباب مصر الذين تعتز بهـم • وكان الجميع يقولون فى ذلك ويعيدون ، ليكسبوا رضاء رمضان باشـــا

خيرى من ناحية ، ورضاء فؤاد نفسه الذى أصبح يطلق عليه بلغة سباق الخيل أنه (الفافورى) أى الحصان الجدير بالمراهنة عليه ٠
وقاد رمضان باشا رئيس الحكومة الى حجرة العروس ، فهبت واقفة بمجرد رؤيتها رئيس الحكومة ونزلت من عرشها ، وثنت ركبتيها فى انحناءة تقليدية ، تحية لرئيس الحكومة الذى احتضنها بين ذراعيه وقبلها فى جبينها قبلة أبوية ، وهو يهنئها ويتمنى لها أطيب التمنيات ٠

***

وبينما كان شيخ الأزهر يقوم باجراءات عقد الزفاف ، وهو يلفت النظر بوجهه الابيض المشرق ولحيته الكبيرة المستديرة ، وعمامته الضخمة ، وشاله الكشمير الفاخر ، وقد تشابكت يد فؤاد فى يد رمضان باشا خيرى فى حضرة رئيس الحكومة ، كان المدعوون ينتهزون غياب كل الأطراف الهامة عن الانظار مؤقتا ، لكى يعلقوا على مايجرى أمامهم وحولهم ٠ ووصل الهمس الذى كان المدعوون يتهامسون به الى اذن فكرى الذى كان غارقا فى الحديث مع الشيخ عوضين ٠ وكان بعض هذا الهمس يدور حول تنكر رمضان باشا لرئيس الحكومة السابق وتصديه لمهاجمته فى مجلس النواب كلما جاءت مناسبة ، والبعض الآخر يدور حول فؤاد نفسه ، وكيف أن تخطيه جميع ضباط مصر بهذا الاسلوب بحيث يقفز فى ثلاث سنوات من كونستابل الى صاغ شىء لايحتمل فالضابط الاصيل لايرقى من درجة الملازم ثانى الى ملازم أول الا بعد ان يكفر من طول الانتظار الذى كان قد يزيد احيانا على ست سنوات ٠
وانقطع حبل هذه الأحاديث مع عزف (الاوركستر) أحد الأدوار الموسيقية ايذانا بانتهاء العقد وظهور الابطال على المسرح من جديد ٠ وساد الهرج والمرج ، وظهرت ميرفت والى جوارها فؤاد وهما يطوفان بالمدعوين مسلمين وشاكرين ، حتى اذا وصلا الى الشيخ عوضين وفكرى قال فؤاد لميرفت وهو يقدم لها عمه :

– عمى الشيخ عوضين الذى كان لى نعم الوالد بعد فقد والدى ·

وطيبت ميرفت خاطر الشيخ عوضين ببعض كلماتها الرقيقة · ولم يفت الشيخ عوضين رغم سنه وظروفه أن جمال عروسة ابن اخيه شىء فوق العادة لم يستطع أن يجد له شبها الا فى هذه الصور التى يسمونها فى بلادهم (السنيورة) ولم يتمالك نفسه عن القول :

– انت حلوة جدا ياميرفت هانم ·

وشكرته ميرفت ضاحكة وقد ابهجها الثناء يأتيها من هذا المصدر غير العادى ، وانطلقت مع فؤاد ليتما جولتهما بين المدعوين ·

وتنهد الشيخ عوضين متحسرا وهو يدرك بعد الشقة بين ابنته مبروكة التى كان يمنى نفسه بزواجها من فؤاد ، وكان على استعداد ان يكتب لها فدانين من الافدنة الخمسة التى يملكها ، وبين ميرفت ابنة الوزير ، ومع ذلك فلم يستطع ان لاينفس عن نفسه ببضع كلمات يقولها لفكرى فقال له :

– والله يا ابنى يافكرى ، الشغلة دى كلها لم تكن على مرامى ، مالنا نحن وهؤلاء الناس الكبار · أيرضيك يا ابنى يافكرى ان لاتحضر أمه أو اخته حفلة زواجه ؟ ولم يحر فكرى جوابا بينما تنهد الشيخ عوضين وقال :

– على كل حال ياسيدى ربنا يفتح عليه · وعلى رأى والدته لسنا نريد من أولادنا الا أن يكونوا سعداء هانئين ماداموا يذكروننا · فعسى أن يظل فؤاد يذكرنا ولاينسانا بعد أن أصبح رجلا كبيرا من الحكام ·

وطمأن فكرى الشيخ عوضين ، أن فؤاد ابن حلال ومستحيل أن ينسى أحدا من أقاربه فضلا عن امه واخته وعمه ·

وطاف الخدم يحملون اكوابا من الشربات ، وفى أعقاب الشربات طاف خدم آخرون يحملون علب الملبس الفضية والتى نقش على كل علبة منها اسم العروسين فى صورة قلب · ولم يكد فكرى يفرغ من شرب كوبة الشراب ، ويأخذ علبته ، حتى صمم على الانصراف ، وعبثا حاول الشيخ عوضين ان يثنيه عن عزمه ويقنعه بوجوب الانتظار حتى

تناول العشاء وسماع ام كلثوم · ولكن فؤاد لم يسمح لفكرى بالانصراف الا بعد أن قاده الى البوفيه ، الذى لم يكن رئيس الحكومة قد افتتحه بعد · ولم يدهش فكرى لفخامة البوفيه وما احتواه من اصناف الطعام والحلوى والفواكه ، فقد كان مارآه من ألوان البذخ حتى الآن يجعله لايستغرب شيئا ، بل جعله يزداد يقينا بما بدأ فوزى يردده فى اجتماعاتهم الخاصة ، من أن مشكلة مصر الحقيقية التى تعرقل ، وستظل تعرقل حل قضيتها ، هو هذا الفارق المخيف بين السواد الأعظم من الشعب وماهو عليه من فقر مدقع ، وبين الغنى المفرط للقلة الحاكمة واصحاب النفوذ ، والتى تجعلهم من حيث لايشعرون أو يشعرون حلفاء طبيعيين للانجليز · وأكل فكرى ما قدمه له فؤاد من أطعمة فلم يكن باستطاعته ، ان لايتأثر بهذه العناية التى يختصه بها فؤاد ·

وحدث فؤاد فكرى ، كيف فكروا فى بعض المرات فى اعتقاله عندما رأوه يواصل اصدار مجلة البعث بعد اعتقال محيى وفوزى ، فتصدى لهم فؤاد ونصحهم بعدم الاقدام على ذلك · وجاء الافراج عن فوزى ومحيى ، فكفوا عن هذا التفكير · وتوقف فكرى عن تناول الطعام وقد امتقع وجهه من فرط التأثر وقال :

ـ على أية حال اننى متضامن مع اخوانى ومستعد لتحمل نصيبى من المسئولية ·

وأسرع فؤاد يقول له فيما يشبه ان يكون اعتذارا :

ـ اننى لا انصحك بشىء أو أشير بشىء ، وانما أردتك فقط ان تعلم اننى لايمكن حيثما كنت ، أن أنسى صداقتى بك التى اعتز بها كل الاعتزاز ، وما بقيت فى ادارة الأمن العام فلن اتأخر عن القيام بأى خدمة يكون فى مقدورى أن اتقدم بها اليك والى اخوانك · فقال فكرى :

ـ هذا هو ما أشكرك عليه ، وماجعلنى أجىء الى هذه الحفلة ، فقد شكرنا لك جميعا توصيتك ضابط سجن الاستئناف على اخوانى ، مع

أننى لم اكلمك فى هذا الموضوع خوفا من احراجك ٠ وبادر فؤاد يقول لفكرى فى لهفة :

– أرجوك يا فكرى ان لاتتردد فى أى لحظة من أن تطلب منى أى شىء ، وكن على ثقة انك ستكون صاحب الفضل علىّ اذ تهيىء لى فرصة القيام بعمل كريم ، وسط هذه الدنيا الجديدة التى أصبحت مندفعا فى تيارها ولست اعرف الى أين ستقودنى ٠

ولم يخرج فكرى من القصر الا بعد أن زوده فؤاد بعلبتين اخريين من الملبس هدية الى صاحبيه فوزى ومحيى ٠

٨

أبى القدر الا أن يحمل الى أزهار فى بيروت نبـــأ زواج فؤاد من ميرفت بعد أيام قليلة من وقوعه ، وأن يبلغها الخبر على يد صـــديق جديد لها ٠ لقد تصور هذا الصديق ان هذا الخبر من شأنه ان يفسح الطريق أمامه نهائيا للظفر بقلبها ، والرضا به زوجا لها ٠

ولم يكن هذا الصديق الجديد لأزهار الا أحد أعيان مدينة حلب السورية ، وكان يدعى رشاد أفندى السمان ، ويمتلك أحد مصـــانع النسيج ، كان رشاد افندى فى منتصـــــف العقد الخامس من عمره متوسط القامة ، بدينا فى غير ترهل ، أصفر الشعر أبيض الوجـــه مستديره ، له شارب كبير ضخم مفتول ، ولكنه لم يكن يعيبه اذ كان متناسقا مع الوجه وحجمه ٠ وقد كان أنيقا فى ملبسه ، اضفى عليه الشيب المبكر فى شاربه وفى فوديه وقارا ٠ ولم يكن الناظر اليه من وجهة النظر المصرية يأخذ عليه ، سوى طربوشه المفرط فى الطـــول واللون القاتم والزاوية المنحرفة التى يلبســــــه بها على عادة بعض السوريين واللبنانيين وعندما حاولت أزهار بعد أن أصبحت صديقته، ان تطلب منه تغيير الطربوش ، فكان يعلق اجابتها الى طلبها على قبولها الزواج منه ٠

وكان رشـــــاد أفندى قـــد فتن بأزهار بمجرد ان رآها لأول

مرة على احد مسارح حلب ، وقد جاءت اليهـــا فى جولة مسرحية . وعندما انتهت رحلتها فى حلب وعادت الى مقرها الرئيسى فى بيروت، وجد نفسه يشد الرحال اليها . والتقى بها فى الكازينو الذى تعمل فيه وتعرف اليها ، ولما تصور انها راقصة تلبى نداء المال والذهب ، فوجىء بتحفظها وتمنعها ، فظن المسألة فى بادىء الأمر دلالا وصنعـة حذقتها ، ولكنها لم تلبث ان أطلعته على سرها ، وانها متعلقة بانسان آخر أرته صورته بالفعل . ولم يصدق رشاد افندى ذلك كله ، وحمله على محمل المناورات . فبدأ يسأل عنها ويتحرى عن سلوكها ، فاذا به يتأكد ان هذا هو مسلكها مع الجميع . وبدأ ينظر اليهـــا بمنظار جديد ، وزاد غرامه بهـــا ، فعرض عليها الزواج مادام الزواج هو طلبتها . ولكنها اصرت على اعتذارها . على أنها لم تستطع ازاء هــذا العرض الكريم وهذه المتابعة ان لاتشعر نحو رشاد افندى بانعطاف كبير وعرفان بالجميل . وهكذا توطدت الصداقة بينهما فاصبح كلما جاء الى بيروت وكثيرا ما كان يجىء ، يخف الى زيارتها ، ويستمتع مع سائر الجمهور برقصها الفاتن ، ثم يزيد على الجمهـــور جلســـاته الخاصة معها .

وذات ليلة أشترى مجلة مصرية تسمى مجلة العروسة ، فاذا به يعثر على صور حفلة زفاف فؤاد عبد السميع على ميرفت ابنة رمضـــان خيرى وزير الزراعة . وكانت أحدى الصـــور الثلاث تضم رئيس الحكومة والعروسين ووالد العروسة . والثانية التى استغرقت صفحة كاملة من المجلة تمثل العروسين وهما جالسان فى الكوشة وأحدى الراقصـــات تميل عليهما ، ومن حولهما باقة من الفتيات الحسان يقمن بدور وصيفات الشرف . أما الصورة الثالثة فكانت لميرفت بمفردها وهى بثوب الزفاف الذى جىء به من باريس وتكلف مائة جنيه ، وقد كتب تحت الصورة عبارات كثيرة تشيد بميرفت بأعتبارها أحدى نجوم (الهاى ليف) والتى تعتبر نموذجا للجمال والشياكة ، والتى حصلت على عديد من الجوائز فى رقص الشارلستون بصفة خاصة .

ووجد رشاد أفندى فى هذه الصور بغيته ، فليس هناك شك فى ان هذا الخبر سينسف آخر ما بقى فى نفس أزهار من أمل ، ان يؤدى وفاؤها الى زواجها من فؤاد فى نهاية الأمر . وكان من الواضح ان فؤاد لايمكن أن يفكر فيها الآن بعد أن أصبح صهرا لأحد الوزراء ، وزوجته آية من آيات الجمال ، وبعد أن أصبح فى مركز كبير من مراكز البوليس على ما تقول المجلة .

وحمل رشاد أفندى المجلة فى يده واتجه صوب مسرح الامبسادور ، الذى كان يعلم أن أزهار سترقص فيه هذه الليلة ، مساهمة منها فى حفلة خيرية . وانتظر على أحر من الجمر نزول الستار ، وضايقه لأول مرة الحاح الجماهير على أزهار ان تعيد الرقص ، ولم يلبث فى نهاية الأمر ان دخل الى مقصورة ازهار تحت المسرح وهو يتألق من الفرح والسعادة . وأحست أزهار التى استقبلته بوجه يفيض بالبشر ، بعد أن أصبحت ترى فيه صديقها الوحيد فى غربتها ، أحست بأنه يحمل شيئا غير عادى ، فقد اكتفى على غير العادة بكلمات قليلة لتصوير مدى ما احرزته من نجاح هذه الليلة . وسألته اذا كان يشاركها فى شرب فنجان من القهوة ، ولكن رشاد أفندى رد عليها وقد لمعت عيناه بشعور غامض ، ضاعف فى احساس أزهار انه يحمل سرا :

– دعينى من قهوتك ياست أزهار واطلبى لى كأسا من (العرق) :
وضحكت أزهار وقالت له :

– أيسعدك نجاحى الى هذه الدرجة فتريد أن تحتفل به ؟ غالى وطلب رخيص . وبينما كانت أزهار تصدر أوامرها لاحضار القهوة وقنينة من العرق ، استلفت رشاد أفندى صورة فؤاد عبد السميع ، وقد أبت ازهار الا ان تحضرها معها لتضعها على مائدة زينتها ، وظهر الغضب على وجه رشاد أفندى وصاح قائلا :

– هل أحضرت معك هذه الصورة ؟ والله ان فؤاد هذا انسان لايستحق شيئا من هذا الذى تفعلينه من أجله .

ـ ولكنى أفهمتك يارشاد ان هذه الصورة هى تعويذتى التى تحمينى من الزلل ، وتحفظ لى احترامى لنفسى . وتوقفت أزهـــار عن الحديث ونظرت الى رشاد أفندى فى عتاب واسف وقالت له :

ـ أنا أعرف ان هذا القول يضايقك ولكن ألم نتفق على ذلك ؟

ـ اتفقنا نعم ، ولكن الليلة جد عنصر جـــديد ، من شـــأنه أن يجعلنى فى حل من نقض الاتفاق . وامتقع وجه أزهار وأحســت فجأة بشعور غامض يقبض قلبها ، وينتشر الضباب فى تفكيرها . وبدأ صدرها المرتفع المنخفض ينم عن اضطرابها ، وسألت رشاد أفندى فى لهفة :

ـ ما الذى جد ؟

ـ حتى أشرب أولا كأس العرق ياست أزهار . وعبثا حاولت أزهار ان تقف منه على مايعنيه بكلامه ، حتى جاء الخـــادم أخـــيرا بالقهوة ، وقنينة العرق . وأسرع رشاد فصب لنفسه كأســـا ، بينما جمدت أزهار فلم تمد يدها الى فنجان القهوة . ولم يشـــأ رشـــاد أن يبقيها معلقة أكثر من ذلك ، فأخرج المجلة من جيبه فى صمت وفتحها حيث توجد الصور .

ولم تكن أزهار فى حاجة لغير لمحة سريعة لتدرك ما تعنيه الصور . وغامت الدنيا فى عينيها ، وراح قلبها يدق فى عنف . وعبثا حاولت ان تسيطر على عواطفها وان تحاول مطالعة ماكتب تحت الصور . ودارت رأسها وهوت على الأرض فاقدة الوعى ، كما لو كانت كتلة من الحجر . وذعر رشاد أفندى وصرخ ، وجاءت نجاح وصيفة أزهار على صرخته ، فلم تلبث ان صرخت بدورها . وجاء خدم المسرح وموظفوه ، ثم جىء بطبيب كان بين المتفرجين ، وسرعان ما طمأنهم بأنها حالة اغماء لا تلبث أن تزول .

وحملت أزهار الى بيتها فى عربة رشاد أفندى . ولم ينصرف الطبيب الا بعد ان وضعها فى فراشها لتستيقظ فى هدوء ، واعدا ان

يأتى لزيارتها فى اليوم التالى . وعندما فتحت أزهار عينيها اخيرا ، وقعتا على وجه رشاد أفندى الواله ، والذى هتف صارخا :

ـ الحمد لله ، الحمد لله ، لقد كدت أموت من الرعب :

وابتسمت له أزهار وسألت عن وصيفتها نجاح . وجاءت نجاح تحمل لها فنجانا من الشاى كما أمر الطبيب ، وتعاونت نجاح مع رشاد أفندى حتى أجلساها على الفراش . وشربت أزهار الشاى وبدأ الشراب الساخن يحدث أثره فى انعاشها ، فنظرت الى رشاد أفندى فى حنان وقالت له :

ـ سامحنى على ما سببته لك من ازعاج .

ـ بل سامحينى أنت على ما وقع منى ، لقد كنت أنانيا لم افكر الا فى نفسى . تصورت ان هذا الخبر ، يحقق لى السعادة التى ما فتئت أنشدها .

ـ أو تظن اننى لا أعرف عاطفتك الغالية واعتزبها ؟ ان حبك لى هو أنيسى فى غربتى ، وهو الذى يخفف آلامى ووحشتى . ولكنه القضاء والقدر الذى لا نملك حياله دفعا ولا صرفا .

ـ أكتب علينا أن نعيش فى هذه التعاسة وهذا الشقاء ؟

وأمسكت أزهار بيد رشاد أفندى ورفعتها الى فمها وقبلتها فى حنان وقالت .

ـ من الذى قال اننا تعساء ، ان الصداقة البريئة التى تجمعنا معا ، هى أغلى وأدوم من أى اتصال جسدى قد يحصل بيننا ثم لا يلبث أحدنا ان يزهد الآخر : اننا لسنا تعساء يارشاد ، فأنا أحس بفخار ونشوة ، أن اظل أمينة للرجل الذى أحببته ، بالرغم من هجره لى ، وايثاره امرأة اخرى على ، وأنت يجب أن تكون راضيا عن نفسك وأنت تصادقنى لوجه الله .

ـ هذه فلسفة لا استطيع ان أجاريك فيها ، او أن أسيغها . ان الصداقة مفهومة بين رجل ورجل ، أما بين الرجل والمرأة ، فليس سوى الحب هو الرباط الوحيد الذى يربطهما . اسمعى

ياأزهار لقد وفيت لصاحبك حتى أصبح زوجا لغيرك، فدعينا نتزوج نحن ايضا .... ووضعت أزهار يدها على فمه لتمنعه من الاسترسال، ثم راحت تمسح وجهه بيديها فى حنان وترجوه أن لايضغط عليها فى هذا الوقت بالذات وهى جريحة ، وفى حاجة لأن تخلو الى نفسها. وطلبت منه أن يتركها ويعود لرؤيتها فى الصباح ليراها فى صحة أحسن ، وعاطفة اهدأ .

وانصرف رشاد أفندى بعد ان قبلها فى خدها كما اعتاد ان يفعل. ولم تكد أزهار تجد نفسها وحيدة ، حتى طلبت من وصيفتها نجاح ان تغلق عليها الباب وتذهب هى لتنام :

وانخرطت أزهار فى البكاء وظلت تبكى وتبكى وتبكى .

الفصل السادس

١

كان لابد لحركة البعث ان تسرى فى أوصال البلاد فلا تظل وقفا على العاصمة ، وبدأ قادتها ودعاتها يطوفون أرجاء البلاد . وكان فوزى أحد المتجولين فى الوجه البحرى حيث اصطحب معه نفرا من لابسى الأقمصة الخضراء الذين اتخذت منهم حركة البعث حرسا لها ضد العدوان المستمر على اجتماعاتها من شباب حزب الاغلبية ، وغرسا للروح العسكرية فى صفوف الشباب وهو ما كانت تفتقده البلاد . فكان منظر هؤلاء الشباب بزيهم العسكرى الأخضر ، يلهب المشاعر بالحماسة ، ويشيع فى نفوس الشباب أملا ورجاء .

وانتهى المطاف بفوزى فى تجواله ومن معه فى مدينة الاسكندرية. واستقبله شباب المدينة واحرارها بما كان يحب ويأمل ، بل وفوق ما كان يأمل . وأعلن عن عزمه على القاء محاضرة فى ادارة جريدة البعث حيث اتخذتها حركة البعث مقرا لها . وأعلن البوليس منع المحاضرة: وجاء مأمور قسم المنشية على رأس شرذمة من رجال البوليس لتنفيذ أمر المنع . ورابط عساكر البوليس حول دار الجريدة للحيلولة دون القاء المحاضرة : وانصاع فوزى للأمر الصادر بمنع المحاضرة ، ولكنه لم يفهم كيف يحال بينه شخصيا وبين دخول الدار التى يعتبر صاحب الحق فى دخولها باعتباره مديرا للجريدة . وعبثا حاول ان يفهم المأمور ان الأمر الصادر بالغاء المحاضرة لا يمكن أن يعنى بحال منعه من دخول ادارة الجريدة . ولكن المأمور أصر واشتد فى موقفه ، وزجر فوزى وطلب منه الابتعاد عن المكان والا القى القبض عليه .

واحس فوزى بالمهانة التى لم يحس بمثلها فى يوم من الأيام ، فقد كان يحنقه أشد الحنق أن يتحكم فيه بدون سند من المنطق أو القانون . وغلا الدم فى عروقه ، وقرر أن لاينصاع لهذا الرأى بغير ان يظهر الاحتجاج عليه بطريقة عملية . وراح يسائل نفسه الى كم من الزمن يظل أصغر فرد فى البوليس ، يستطيع أن يتحكم فى الناس لمجرد كونه رجل بوليس؟ ألم يحن الوقت لكى يتعلم الشباب ان لاينصاع الى الأوامر الظالمة ، وأن يقاومها ؟

وسرعان ما حزم فوزى أمره وقرر القيام بحركة يقتحم بها الدار. فتراجع مبتعدا عن الدار ونظم أصحابه لابسى الأقمصة الخضراء ، وجعل على رأسهم صاحبه ناجى . وطلب منهم أن يتبعوه فى طابور ليخترقوا حصار البوليس ، وان يحتملوا ما يقع عليهم من ضرب وايذاء حتى يتمكنوا من دخول الدار ، ليكون ذلك احتجاجا على البوليس واحباطا لخطته . وكان الجمهور قد بدأ يحتشد لمشاهدة هذه الحركات التى تجرى أمامه . وكان لون الأقمصة الخضراء كفيلا بأن يجتذب الانظار . وشرع عدد من شباب الحركة الذين كانوا قد توافدوا لسماع المحاضرة يهتفون بشعارات الحركة « الله أكبر ، والمجد لمصر » « مصر فوق الجميع » وفى ظل هذه الحماسة التى اشتعلت ، تقدم فوزى على رأس الطابور ، وبدأ ينشد نشيد اسلمى يا مصر اننى الفدا والجميع يرتلونه معه ، وراحت الجماهير تصفق .

ولكن فوزى لم يكد يقترب من نطاق البوليس الذى كان قد أصبح يقف فى حالة استعداد وتحفز فأشرع عصيه ، حتى بدأ الخوف يتسلل الى قلبه ، وهتف به هاتف من أعماقه أن ما تفعله الآن جنون وتطرف لايليقان بك ، فلن يكون بقدرتك محاربة البوليس ، ولا قبل لك بمقاومة الدولة بهذه الشرذمة التى تسير خلفك والمجردة من كل سلاح ، ولكن هذا الصوت لم يكن له أى أثر الا اشاعة الارتباك فى نفسه ، فقد كان قد أصبح غير قادر على التراجع بحال. كان يحس بنفسه كما لو كان راكبا قطارا لا سبيل الى وقفه ، فأعين

الجماهير التى تراقبه كانت بمثابة السياط التى تلهب ظهره وتدفعه دوما الى الأمام . وكلما تخيل ضحكات السخرية والاستهزاء التى ستنهال عليه ، فيما لو توقف الآن وعدل عن خطته ، كلما أحس بأنه مغلوب على أمره ولا مناص له من التقدم . ان سخرية الجماهير أقسى من هذه العصا التى ستنهال على رأسه . ومضى فى طريقه . لم يعد يفكر فى شيء أو يحس شيئا أو يسمع شيئا : وبدت صورة المأمور وكأنها عملاق زحم الفضاء ، ولم يلبث أن تحول الى مجرد عينين تنظران فى دهشة ، ورأى عصا تنهال عليه ، ولكنه لم يحس بأى ألم ، لقد طاشت ، ثم ثانية وثالثة ، ولم يكن يعرف لماذا لاتصيبه هذه العصى فقد كان لايحس لها ألما ، ثم رأى منظرا ملأه بالسعادة وأشعره أن جهده لم يضع سدى ، فقد تكالب أفراد من الجمهور على رجال البوليس ليحولوا بينه وبين العدوان .

واستوقفه شاب قمحى اللون فارع القامة يخف لنجدته ، ويمسك بيد العسكرى الذى كان ينهال عليه بالعصى التى لم تكن تقع عليه اذ لا يحس لها ألما . واشتبك العسكرى مع هذا الوافد الجديد وتشاغل عن فوزى الذى وجد نفسه حرا طليقا لا يعوقه عائق عن بلوغ الدار ، بعد أن أصبح كل عسكرى من عساكر البوليس مشغولا بواحد من أفراد الجمهور أو ذوى الأقمصة الخضراء .

على أن هذا التفوق لم يستمر سوى بضع ثوان ، ارتفعت بعدها أصوات فزع من الجمهور وساد اضطراب شديد وأسرع الكثيرون يفرون . وشاهد فوزى رتلا من اللوريات المحملة بالعساكر وقد بدأ الجنود يهبطون منها وينهالون على المحتشدين بالضرب فى قسوة وعنف . وخلت الساحة فى أقل من لمح البصر الا من فوزى وهذا النفر من ذوى الأقمصة الخضراء ، وهذا الشاب القمحى اللون الذى كانت الدماء تسيل من جراحه . وصبت القوة القادمة جام غضبها على فوزى ومن كان معه وتصدى لها ناجى رفيق فوزى بالمقاومة الباسلة ، ولكن ذلك لم يكن له سوى نتيجة واحدة وهى

اشتداد ضراوة الجنود . وجاءت لحظة تصور فوزى أنها النهاية ، وهو يرى أحد العساكر يهوى بعصا غليظة على رأسه .

وحمل فوزى الى قسم المنشية حملا كما لو كان متاعا من الامتعة . وكان العسكرى الذى يحمله يجلد به الأرض من حين لآخر . وفى القسم تسامع محامو الاسكندرية الأحرار بما حدث فخفوا لنجدة فوزى ومن معه ، وحالوا بذلك بين البوليس وبين أن يجهزوا عليهم عقابا لهم على اجترائهم : ودعى الطبيب الشرعى ليثبت ما فى فوزى وبقية أصحابه من أصابات ، وسجل الطبيب الشرعى فى جسد فوزى بضعا وعشرين اصابة . وسألته النيابة عمن أحدث به هذه الاصابات ، وقرر فوزى ان يستعمل الأسلوب الغاندى ، انه لن يكسب شيئا من معاداة البوليس ، وخير له ان يعلن صفحه وتسامحه مع الذين آذوه ، فهم مواطنون مثله ، وهم ضحية العدوان مثله .

ولم يكن لهذا الموقف من تأثير على سير الاتهام بطبيعة الحال ، فقد انتهى التحقيق بتوجيه عديد من التهم اليه كالاعتداء على البوليس ، وتأليف مظاهرة غير مشروعة . ولم يكن شىء من ذلك كله يشغل فوزى ، قدر ما كان يشغله أن يكون قد تسبب برعونته فى ايذاء صاحبه ناجى، حيث رأى عشرة من رجال البوليس يفترسونه وينهالون عليه ركلا بالأقدام وضربا بالعصى الثقيلة . وكان فوزى يتصور ان ناجى لو قتل فسيكون هو قاتله ، ولو أصيب بعاهة لايبرأ منها ، فسيعيش طول حياته معذبا . واتهم نفسه بالجنون ان يقدم على ما أقدم عليه ، ولذلك فعندما قيل له ، ان ناجى بخير وانه سليم معافى بعد ان ضمد له رجال الاسعاف جروحه ، لم يتمالك فوزى من أن يسجد لله بروحه شاكرا .

٢

كان ناجى يقف فى سجن القسم وكأنه المارد الجبار ، وكل من فى السجن يكاد يجن من فرط الأعجاب به وما أبداه من شجاعة وقوة

خارقة ، جعلت بعض الشباب يذكر اسم شمشون الجبار ، والبعض يذكر هرقل ، ومن لا يعرف سوى عنترة بن شداد يشبهه به .
وراحت القصص تحاك حول ما فعل ، كيف أمسك بعسكريين فى آن واحد ودق رؤوسهما الى بعضيهما والقى بهما على الأرض .
أو كيف تترس باحد العساكر ليصد به الضربات القاتلة التى بدأت تنهال عليه : والحق ان الناظر اليه فى السجن وهو يقف بوجهه الشركسى وراسه المعصوب ، وقد تمزق قميصه الأخضر فكشف عن صدره القوى الغزير الشعر ، وعضلاته المفتولة المتوترة ، كان لايمكن الا أن يتصوره أحد أبطال الاساطير من الياذة هوميروس .

على ان الجميع اذا كانوا معجبين بناجى ، فقد كان هو معجبا بالشاب القمحى اللون الذى ساهم معهم فى المعركة ، ولذلك لم يكد يفرغ من التحقيق ويعود الى السجن ، حتى أسرع يسأل الشاب القمحى اللون الفارغ الطول عن اسمه ، واجاب الشاب :

ـ بهاء عبد القادر .

ـ ما مدرستك ؟

ـ رأس التين .

ـ مالذى جعلك تخوض المعركة الى جوارنا ؟ .

ـ احساس بالظلم الواقع عليكم ، لقد اهاجنى رؤية البوليس يعتدى عليكم ، اننى أكره البوليس انه عدو الشعب .

وزج فى السجن بوافدين جديدين ، عامر ولاشين من أعضاء حركة البعث فى الاسكندرية ، ولم يكادا يريان بهاء حتى هتفا باسمه وسلما عليه .

وعرف الجميع أن بهاء كان من بين أشد متطوعي مشروع القرش حماسة . وعاد ناجى وقد ازداد اعجابا بهذا الشاب النابه ، يسأله :

ـ أكنت فى مشروع القرش ؟

ـ أجل ، وكانت حماستى له بعد مقاطعة حزب الاغلبية له ،

اشد من حماستى له فى عامه الأول . واضاف عامر على ذلك قوله :
ـ تصوروا انه كان يأبى الا ان يلقى محاضرة على كل مواطن يرفض تحت تأثير الدعايات الخبيثة ان يبتـاع طوابع المشروع .
وانطلق بهاء يقول :
ـ لقد احفظنى هجوم حزب الاغلبية المغرض على فوزى السيد على سكرتير المشروع ، فقررت ان ازداد تمسكا بالمشروع الذى أومن بصلاحيته لبلادنا .
ـ وهل لم يسبق لك ان رأيت فوزى السيد على ؟
ـ لا
ـ أليست لديك فكرة أين هو الآن ؟
ـ لقد انقطعت اخباره عنى منذ استقال من مشروع القرش .
وفوجىء بهاء بأن الشخص الذى تطوع للدفاع عنـه ، هـو فوزى السيد على . وذهل لهذه المصادفة العجيبة ، وسأل عما يفعله فوزى السيد على ، وعن حقيقة هذه الأقمصة الخضراء وما ترمز اليه . وانطلق الجميع يحدثونه فى حماسة شديدة عن أهدافهم ومراميهم فى أعداد الشباب اعدادا عسكريا ليكون قادرا على تحرير البلاد من الانجليز وبناء نهضتها وبعث مجـدها كزعيمـة للعرب والمسلمين والشرق .
وهتف بهاء
ـ ان هذا هو عين ما يجيش فى نفسى . ولمعت عينا بهاء وأوشك ان يقول شيئا لولا ان فتح باب السجن ، ونادى السجان بهاء وأعلنه أنه قد اطلق سراحه . وأمسك به العسكرى ليجره الى الخارج ليغلق الباب ، ولكن بهاء انتزع يده من العسكرى السجان طالبا منه ان ينتظر ، وعاد الى الجماعة وقال لهم :
ـ اسمحوا لى باحدى هذه الشارات .
ونزل له ناجى عن شارته ولبسها بهاء فى عروة سترته ، ولم يكد يفعل حتى أقبل عليه ناجى معانقا ، ومتمنيا ان تجد فيه حركة البعث مجاهدا تعتز به . وهتف به عامر ولاشين .

ـ نحن كل يوم فى هذه الدار التى جرت المظاهرة أمامها ، تعال أنضم الينا واملأ استمارة العضوية . فقال بهاء وهو يخرج من باب السجن الى الحرية :

ـ بل سأملأ الاستمارة فى القاهرة . والى أن املأها فى المركز العام ، فعدونى منكم ، أنا معكم ... المجد لمصر ... مصر فوق الجميع ، مصر فوق العالمين .

٣

بينما كان فوزى فى الاسكندرية ، يعالج عقابيل هذا الحادث الجديد ، تقابل شوقى بك من جديد مع آمال وابنته نادية فى جزيرة الشاى ، وقد أصبحوا يختلفون اليها كل اسبوعين . وكانت نادية قد بدأت تفرغ للعبتها المحببة عقب الأكل ، وهى أن تشرع فى أطعام البط والاوز . وكان شوقى بك وآمال قد شرعا يشربان فنجان القهوة ، عندما فاجأ شوقى بك آمال بقوله :

ـ ما هى حكاية الأستاذ فوزى الجديدة فى الاسكندرية ؟ هل صحيح ما يقال عن وجود علاقة بين حركته فى الاسكندرية وما وقع من تصادم عنيف بين البوليس والعمال فى القاهرة ، والذى اعتقل فيه أحد النبلاء ؟

وبوغتت آمال بهذا السؤال ونظرت الى عينى شوقى بك فى شيء من الشك ، على انها لم تلبث أن غضت من بصرها وتنهدت ، ثم طلبت منه ان يعفيها من هذا الحديث فى هذا الموضوع الذى يؤلمها التكلم فيه أشد الألم . ولكن شوقى بك لم يلب رغبتها ، بل لقد شجعه هذا الجواب على ان يمضى فى أسئلته :

ـ ارجو أن يكون سليما معافى لم يصب بسوء ، فقد علمت ان البوليس اعتدى عليه اعتداء وحشيا ، ولم أطالع فى الصحف اذا كان قد افرج عنه .

ـ أجل لقد افرج عنه ، وقد أرسل الى برقية يطمئننى فيها على نفسه ، وان اصاباته والحمد لله كانت سطحية . وهزت آمال كتفيها ومطت شفتيها وقالت :

ـ لقد أصبح الآن متهما فى ثلاث قضايا ولم تمض عليه بضعة شهور .

ـ لقد تتبعت بدقة اخبار الأستاذ فوزى فى الصحف ، بسبب اهتمامى بك وكونه خطيبك : ولذلك فانى أفهم أن القضيتين الأوليين لايخرجان من كونهما تهما صحفية ، أما ما حدث فى الاسكندرية ، فيبدو انه قد بدأ يفكر فى استعمال العنف ومقاومة السلطة .

وأسرعت آمال تصحح له :

ـ ان الفكرة ليست مقاومة البوليس ، بقدر ما هى محاولة للاحتجاج عليه ، فقد اخبرنى أخى رياض ان فوزى يحاول أن يطبق فكرة احتمال العذاب والألم التى يدعو اليها غاندى ، ليكون ذلك أكبر حافز للآخرين للنسج على منوالهم . وضحك شوقى بك وقال :

ـ لا تؤاخذينى يا آمال هانم ، فأنت تعرفين مقدار احترامى واجلالى للأستاذ فوزى . ولكنى أتصور أنه قد جاوز كل الحدود ويوشك ان يفقد صوابه . هل يوجد عاقل يفكر فى مقاومة السلطة، انك تعرفينه طبعا أكثر من أى انسان آخر ، أهو ذو ميول شيوعية أو فوضوية ، أو هو من هذا الطراز الذى يسعى للشهرة بأى ثمن ، حتى ولو كان انحرافا ؟

وتنهدت آمال وقالت :

ـ ألم أرجك يا شوقى بك ان لاتحرك شجونى بهذا الحديث حتى لا تعكر صفو هذه الجلسة ؟

ـ ولكن المسألة يا آمال ليست مسألته ، انها مسألتك فى الوقت ذاته ، مسألة مستقبلك وسعادتك .

ـ ان هذا آخر شىء يفكر فيه . قالت ذلك آمال وتنهدت فى حرقة .

فقال شوقى بك وقد بدا صوته يفيض بالحنان والرقة :
ـ ولكنك يجب أن تفكرى فى نفسك، انك ما تزالين فى عز شبابك، ولك مركز مرموق فى التدريس ،فلست اتصور أن تضيعى حياتك مع شخص مغامر ، واستدرك شوقى بك وقد أحس انه قال ماليس من حقه أن يقوله :

ـ عفوا يا آمال ارجو ان تسامحينى فقد زل لسانى بهذه الكلمة التى لا أقصد معناها ، وعذرى اننى شديد الغيرة على سعادتك .

وهزت آمال راسها فى حركة غامضة ، ولم تلبث ان نهضت واقفة ، واستأذنته ان تذهب الى (التواليت) ، لتصلح من شأنها . وانتهز شوقى بك فرصة غيابها لكى يقول لنادية ، أنه قد احضر لها عروسة كبيرة تغمض عينيها وتفتحهما . وتعلقت الطفلة بعنق أبيها وعتبت عليه أن لم يحضر معه العروسة، فأوعز لها ان تطلب من خالتها أن يذهبوا الى البيت لاحضارها . ولم تكد آمال ترجع من (التواليت) بعد أن أعادت زينتها الى كمالها ، حتى هتفت بها نادية :

ـ ماما ، ماما ، بابا اشترى لى عروسة تفتح وتغمض ، وهى عنده فى البيت ، فلنذهب لاحضارها . ووجمت آمال لهذه المفاجأة ، ونظرت الى شوقى بك فى عتاب فقد أدركت ان ذلك من تدبيره . ورد شوقى بك على نظرتها بابتسامة تضمنت شبه اعتراف ، وقال لهـا :

ـ ارجو ان لا تؤخذينى فلست أرى فى طلب نادية شيئا غريبا أو شاذا ، فالبيت بيتك فى نهاية الأمر .

وترددت آمال لا لشىء الا لأن فكرة استدراجها لم تعجبها ، ولكن لم تكد نادية تتعلق برقبتها وتلحف فى الرجاء ، حتى لم تجـد نفسـها قادرة على أن تخيب رجاءها ، خاصـــة وقد وجدت فيها تنفيسا عن عامل السخط الذى كان يعتمل فى نفسها ضد فوزى .

٤

ووقفت بهم السيارة أمام فيللا شوقى بك نصار فى المعادى . كان آخر عهدها بهذا البيت ابان مرض أختها ، وكانت هذه أول مرة تعود الى البيت ، وقد ظلت مشفقة طوال الطريق من وقع هذه العودة على نفسها . وتمنت لو لم تلب الدعوة ، ولكن السيارة لم تكد تقف فى الشارع الهادىء أمام السياج الأخضر المحيط بالفيللا، وينفذ أريج الزهور الى انفها ، حتى أحست بانتعاش ، ازال مخاوفها على الفور .

كانت تتصور أنها ستجد حديقة البيت وقد ذوت وجفت ، بعد ان فقدت عناية أختها ، فما راعها الا ان رأت الحديقة مزهرة مونقة كأحسن ما كانت فى يوم من الأيام . وأخرج شوقى بك من جيبه مفتاح الفيللا ووضعه فى قفل الباب الثقيل المصنوع من خشب الأرو ، وعاود آمال الأثر الذى طالما أحدثه هـذا الباب الفخم فى نفسها ، لقد كان يذكرها ببيوت انجلترا ، ويجعلها تحن الى ان يكون لها بيت مثله ، وان تسكن فى المعادى التى تعتبر قطعة من انجلترا .

وفتح الباب وهب عليها هذا النسيم الرطب الذى طالما استقبلها من قبل وأنعشها ، وغاصت قدماها فى السجادة الثمينة التى طالما أعجبتها ، وأبهجها ان ترى خشب الأرضية (الباركيه) يلمع كما كان شأنه دائما فى حياة أختها . وألقت نظرة عابرة على المرآة الكبيرة الموضوعة على المدفأة فى مدخل الباب ، واطمأنت الى هيئتها وزينتها. ومال بها شوقى بك الى الصالون ، ولكن نادية راحت تصيح مطالبة اباها بأن يحضر لها العروسة على الفور ، ولم يستطع شوقى بك أن يهدىء من لهفة ابنته ، الا بعد ان نادى على الست أم على الخادمة المسنة التى خدمت المرحومة ، وطلب منها ان تحضر العروسة . وجاءت أم على تحمل العروسة وخطفتها نادية من يدها ، وراحت تثب على الأرض من فرط سعادتها بالعروسة ، بينما كانت الست

أم على ترحب بآمال وتعبر عن سرورها وسعادتها برؤيتها فى بيتها ، وهو ما كانت ترجوه وتؤمل فيه منذ زمن بعيد . واحمر وجه آمال لكلام الخادمة الغامض وما يحمله من معان ، ورأت ان تغير موضوع الحديث ، فسألتها عن حالتها ، فردت عليها الخادمة فى حزن :

- وهل بعد المرحومة مفيدة هانم ومعروف مفيدة هانم لنا حال ؟ ان حالنا أصبح من بعدها عدم ، والله ياست آمال ، ياريت تستخيرى الله وتفتحى بيت أختك ، من أجل خاطر ست نادية .

وذهلت آمال من هذه المفاجأة . وصرخ شوقى بك فى وجه أم على طالبا منها ان تكف عن تخريفها ، وكلامها الفارغ ، وزاد على ذلك أن أمرها بأن تمشى من امامهم . وخرجت أم على ، وهى تغمغم وتبرطم وتحتج على أحوال الدنيا التى تجعل كلمة الحق لا تعجب أحدا .

والتفت شوقى بك نحو آمال التى كانت لاتزال ممتقعة الوجه، ورجاها ان لاتؤاخذ الخادمة العجوز ، فهى قد أصبحت لاتعرف ماذا تقول ، وهو لايبقيها الا اكراما لذكرى المرحومة اختها ، ولأن نادية تألفها . وسمعت نادية اسمها يتردد ، فجاءت وهى تقفز من الفرح وبدأت تمسك بيد آمال وملابسها لتلفت نظرها الى جمال عروستها ، وهى تغمض عينيها وتفتحهما ، ولكن آمال كانت مشغولة عن نادية وعروستها ، بما أثاره كلام أم على . وقد كانت آمال متأكدة أن أم على لم تلق هذا الكلام عفو الخاطر ، فهو كلام معد ومدروس، وقد دبر كل شىء بمهارة كى تستدرج ليقال لها هذا الاقتراح . ولم تستطيع آمال ان تكذب على نفسها . لقد بدأت تدرك أن وراء ملاطفات شوقى بك منذ أمد بعيد غرضا معينا وهاهو قد قرر أخيرا ان يفصح عن هذا الغرض بهذا الأسلوب .

وبدأ يدهش آمال ان الاقتراح لايثير غضبها فضلا عن اشمئزازها، وعزت ذلك الى شعورها بالنقمة ضد فوزى وسخطها عليه، مما يجعلها فى حالة غير طبيعية . وقطع عليها شوقى بك سلسلة أفكارها وتأملاتها ، وهو يسألها بصوت يفيض رقة وحنانا ، عما اذا كانت

تحب تناول الشاى فى الحديقة ، أو تفضل تناوله كما كانت المرحومة تفعل فى الشرفة العلوية ؟ واستولى على آمال حب الاستطلاع لتفقد احوال البيت الذى لم تدخله منذ وفاة أختها فقالت :

ــ بل لنتناوله فى الشرفة العلوية ، فقد كانت المرحومة لاتؤثر عليها مكانا آخرا . وكانت نادية أكثر الجميع سرورا بهذا الاقتراح، فقد راحت تجر آمال من يدها وتقودها نحو الدور العلوى وهى فى شدة الفرح ، مما جعل آمال تشعر بشىء من خيبة الأمل أن تكون نادية سعيدة الى هذا الحد لمحض كونها فى بيت أبيها .

وارتقت آمال السلم الخشبى الجميل المؤدى الى الدور العلوى، والقت نظرة عابرة على البهو فوجدت كل شىء فى مكانه ، البيانو والزهريات النحاسية الجميلة التى كانت تلمع كما لو كانت ذهبا ، وجميع قطع الأثاثات فى أمكنتها المعتادة . المقاعد الوثيرة أمام المدفأة، السجاجيد الثمينة ، اللوحات الزيتية التى كانت أختها تعشقها . ودهشت آمال ان يكون ذلك من عمل الخادمة أم على ، ولم تلبث ان أرجعت الفضل لصاحب الفضل ، فلولاه ولولا ما طبع عليــــه من وفاء لما كان هناك سبيل للمحافظة على كل شىء بهذا الأسلوب. وابتسمت آمال وهى تتمثل انه لابد ان يكون قد بذل جهدا غير عادى بمناسبة استدراجه لها ، فلم يعد لديها أدنى شك انها قد استدرجت .

وفتح شوقى بك باب حجرة النوم لينفذا منها الى الشرفة وهو يقول :

ــ اننى لا استعمل هذه الحجرة ، وهى لاتفتح الا لتنظف . اننى انام فى حجرتى الشرقية ، واتناول الشاى فى الحديقة او فى الصالون: واخذت آمال بمرأى الحجرة الفاخرة والتى أشترتها اختها من (بنترومولى) بثلاثمائة جنيــه ، فى الوقت الذى يتجهز فيه الآخرون بثلاث أو أربع حجرات لاتكلفهم مائة جنيه . وزينتهـــا فوق ذلك بالستائر الحريرية والأغطية الوردية ، فأصبح للحجرة جو سحرى غامض يجعل الانسان يسبح فى عالم من الخيالات والاحلام . لقد

كانت قد نسيت تماما ، هذه الحجرة التى كان يتحدث عنها المتحدثون. وأذهل آمال انها لم تحس فى جو الحجرة بأى احســـــاس مؤلم أو موحش ، ولم تتمالك نفسها أن سخرت بالوساوس والهواجس التى تساور بعض ضعاف النفوس وعصبيى المزاج ، فها هى ذى لاتشعر نحو حجرة أختها الا باحساس الاعجاب ، والرغبة فى امتلاكها. ووجدت آمال فى الشرفة مائدة عامرة بكل أصناف الفطائر الحلوة فضلا عن (طورطة) مغطاة بالشيكولاته والقشدة . وتحفزت روح آمال المتمردة ، لتثور على هذه المحاولة المكشوفة ... ولكن التفاتة حانت منها فى هذه اللحظة الى شوقى بك فوجدته ينظر اليها فى عينين تفيضان حنانا رغم اختفاء بريق الشباب منهما . ولاحظت كما لو كانت تنظر اليه لأول مرة أنه يرتدى بدلة ثمينة من القماش الصوفى الفاخر ، محكمة التفصيل عليه . وان حذاءه من النوع الانجليزى الغالى : وجلست الى مائدة الشاى وقد بدأ السكون الذى يحيط بالمكان يغشى أعماق نفسها . ونظرت الى الحديقة وازهارها اليانعة واحست بالرضا.

وسألت شوقى بك بطريقة آلية عن عدد قطع السكر التى يحبها فى فنجانه ، ولم تعن بسماع جوابه فقد كانت تعرف الجواب بحكم تجاربها السابقة ومخالطتها له فى الآونة الأخيرة ، وقدمت له فنجان الشاى فى الوقت الذى كانت تنتهر فيه نادية فى حب وحنان ان تنتظر حتى لاتلوث ملابسها بالشيكولاته والقشدة .

٥

كان أول ما فعله فوزى بمجرد عودته من الاسكندرية أن بعث الى آمال يخبرها ، انه قادم لزيارتها . وكانت دهشته عظيمة عندما قيل له ان آمال قد جاءت بنفسها لتقابله ، ولم تشأ ان تنتظر ذهابه اليها . وأدهشه بالأكثر ما قالته له زوجة أبيه من أنها جالســة فى الصالون وأنها اعتذرت عن مقابلته فى حجرته كما كانت تفعل دائما .

ولم يكد فوزى يلقى نظرة على آمال الجالسة فى الصالون والتى لم تتحرك لرؤيته ، حتى أحس أنها قد انتوت شرا . لقد كان وجهها متجهما ، والتوتر يتجلى فى كل حركاتها . على أن ما استوقفه فى الدرجة الأولى ، هو عدم لبسها جوربا كما تقضى الموضة الحـــديثة والتى حذرها من اتباعها . ولم تتردد آمال فى الماضى فى ارضائه فلم تمارس هذه الموضة مع شديد حرصها دائما ان تكون على آخر موضة. وكأن آمال قد خشيت أن لايلحظ فوزى هذا التبدل فوضعت ساقا فوق أخرى ، وابتسم فوزى فى تسامح وقال لها :

ــ ما الذى أعجلك فى الحضور فلم ترتد الجورب ، أم ان الدنيا حـــر ؟

ــ لا هذا ولا ذاك ، اننى لم ارتد جوربا لأن هذه مقتضيات الموضة وقد سئمت رجعيتك .

ولم تكن هذه أول مرة تتحدث فيها آمال عن رجعية فوزى فطالما شكت منها ، ولكن فى تحبب ودلال وخاصة بعد ان أصبحا خطيبين رسميين . ولكن كانت هذه أول مرة تقذفه بوصف الرجعية كما لو كانت تسبه أو تشتمه . فبهت ولم يحر جوابا ، بينما مضت آمال تقول فى تحد لا مبرر له :

ــ بأى حق تطالبنى أن اطيعك وأنفــذ لك كل ما تريد منى وتشتهى ، دون ان تكلف خاطرك ان تنفذ لى بعض ما أريد واشتهى ؟.

ــ ما الذى طلبته منى مما يمكن تنفيذه ولم أنفذه .

ــ ليس هناك شىء لايمكن تنفيذه ، انك تعرف ما أعنيه جيدا .

ــ اتقصدين دورى الذى اقوم به فى حركة البعث ؟

ــ ولست أعنى سواه . وقد جئت لأقول لك انه بمجرد انتهائى من الامتحانات ، فسأسافر الى الاسكندرية ، واستمتع بحريتى كاملة على شاطىء البحر ، وألبس ما يروق لى أن ألبســـه من أنواع (المايوهات) . وعليك ان تفكر فى خلال هذه المدة وان تختار ، بين هذا الذى تسميه حركة البعث وبينى .

ـ اتعنين ماتقولين ؟

ـ واعنى كل حرف فيه ، فعندما رضيت بك خطيبا ، لم تكن حركة البعث جزءا من الصفقة . لقد أصبحت غارقا حتى الاذقان فى السياسة ، وليس هناك ما هو أبغض الى نفسى من حديث السياسة . وهكذا ضاع كل انسجام بيننا . وأى سياسة تلك التى تشتغل فيها ، ان الناس تشتغل بالسياسة ليصبحوا نوابا وشيوخا ووزراء ، أما أنت فشغل السياسة عندك سجون ومحاكمات . ولقد كنا نقول فى بادىء الأمر أنك تدخل السجن من أجل كتابتك مقالات صحفية ، أما الآن فقد أصبحت تسجن لأنك اعتديت على البوليس ، ومن يدرينا غدا ما هى خطوتك التالية ، فقد يبدأ التفكير فى الاغتيالات وما يتبعه من مشانق . لا يا سيدى اننى لست مهيأة لهذا الطراز من الحياة وخير لك ان تبحث عن غيرى ، أن مثلى الأعلى فى الحياة ليس هو أن أحمل اليك فى السجون عواميد الطعام ، وان اجرى وراءك فى المحاكم والنيابات .

وصعق فوزى وأحس بالقهر لهذا الهجوم الساحق الذى فوجىء به بهذا العنف . وكان اشد ما يؤلمه ويحز فى نفسه ، انه اذا كانت خطيبته وأقرب الناس اليه ، قد بدأت تسىء الحكم على تصرفاته بهذا الشكل ، فكم بالأحرى يكون حكم الآخرين عليه . لذلك فقد ظل صامتا لاينطق ، بينما راح ينظر الى آمال فى أسى وحيرة وعتاب . وكأن سكوته ، هذا قد أرضى آمال بعض الشىء وهدأ من ثائرتها . وكان من أثر ذلك أن طمع فوزى فى أن يحاول ترضيتها واقناعها بصواب مسلكه ، فقال لها :

ـ يجب ان تكونى على ثقة يا آمال اننى أقدر شعورك ، واعرف مدى الآلام التى اسببها لك من حين لآخر عندما تفاجئين بأنبائى المحزنة من وجهة نظرك . ان كل زوجة وخطيبة تحب زوجها أو خطيبها لا يمكن الا أن تتألم لما يصيبه من عنت . فأنا خير من يفهم سر غضبك وثورتك ، ولكنى أطمع منك أنت المثقفة المتعلمة ان

تكونى اكثر ادراكا للواجب الملقى على عاتقنا . محال ان تظل الحياة فى مصر تسير على هذا النهج من الضياع وفقدان الثقة بالنفس ، والرضاء بما نحن فيه من ذل وهوان باعتبار ان ذلك هو حكم القدر ، من المحال ان يبقى الشباب هكذا بعد ان فقد الثقة بزعمائه ، كافرا بكل القيم ، قعيد السنمات والملاهى ونهبا للعربدة والتخنث . فلابد من عمل شيء لاصلاح هذا الحال ، ولاتنسى اننى لست بمفردى فى هذه الحركة ، بل يزاملنى فيها من هم اكثر تضحية منى ، ذلك انهم يضحون فى صمت وخفاء ، أما أنا فتسلط على الاضواء وهم أحق بها منى . انظرى الى هذا الرفيق ناجى الذى كاد يفقد حياته دفاعا عنى ، وغيره من الجنود المجهولين .

وقطعت عليه آمال حديثه .

ـ لا دخل لى بشيء من ذلك ، فليتول ما تسميه الجهاد من يشاء ولكن بعيدا عنى .

ـ ولكن اى انسان آخر سيتولاه ، فلا يمكن بدوره الا ان يكون له أم أو أخت أو زوجة أو خطيبة . فماذا يكون حال المجتمع ، اذا حالت كل أم أو أخت أو زوجة بين من تحب وبين العمل لخير البلاد والشعب ، خوفا عليه من الأذى ؟

واقترب فوزى من آمال وقد أطمعه سكونها ، وامسك بيدها فى عطف ومحبة ، ولكنها نزعتها منه فى عنف . وضحك فوزى ولم ييتئس ومضى يقول :

ـ لقد كنت فى انجلترا ، ورايت كيف لايخلو بيت من بيوتها من شهيد مات فى الحرب دفاعا عن بلاده ، أو طالبا للعلم والمعرفة فى ركن من أركان العالم ، فوق قمة جبل أو فى أعماق بحر أو عند خط الاستواء . الا يجدر بك أن تكونى كواحدة من هؤلاء الانجليزيات ؟ واذا كان الأمر يبدو لك صعبا فى هذه الآونة ، فانك لن تلبثى ان تألفيه وتتذوقى ما فيه من سعادة ، عندما يجيء اليسر بعد العسر .

وانفعلت آمال من جديد كأشد ما يكون الانفعال فصرخت فى وجهـه :

ـ لست أريد يا سيدى ان اعتاد هذا النوع من الحياة ، لقد قلت بالضبط الأمر الذى يجعلنى أريد أن اتخذ قرارى قبل ان اعتاد هذا اللون من الحياة . عليك ان تختار بين حركة البعث وبينى .

ـ ولكنك تدركين عندما تضعين الأمور على هذه الصورة اننى لن اتخلى أبدا عن هذا الجهاد الذى بدأته مع اخوانى ، حتى نصل به الى نتيجة ناجحة أو نهلك فى سبيله وحتى لو قدر لنا أن نموت فان قلبى يحدثنى ان جهادنا لن يذهب هباء ، سوف يخرج من صفوفنا من يحول كل أحلامنا الى حقائق .

وهزت آمال كتفيها فى سخرية وقالت له :

ـ حسبك غرورا ، أما حان الوقت الذى تكف فيه عن ترديد هذه الكلمات الجوفاء التى لا معنى لها ؟ واندفع فوزى نحو آمال والشرر يتطاير من عينيه لهذا التحقير والازدراء ، وحدثته نفسه ان يلطمها على وجهها وأن ينهال عليها بالضرب حتى يشفى غليله فيها وقابلت آمال ثورته واندفاعه نحوها بتحد ، ونظرت اليه فى استهانة واستفزاز ، محرضة اياه بنظرتها اليه أن يضربها ، لتجعل من ذلك ذريعة شرعية للانفصال . وكان من شأن هذه الرغبة القوية الواضحة التى تجلت على وجهها ، أن ترد فوزى الى صوابه ، فاذا به يسيطر على اعصابه لأول مرة فى حياته ، ويقول لها فى هدوء :

ـ من الواضح انك جئت اليوم تعتزمين امرا . انك تعرفين حماقتى ، وسرعة تهيجى واندفاعى ، ولكنى سأثبت لك اننى قادر فى الوقت المناسب ان أسيطر على أعصابى ، ولن احقق لك بغيتك التى تقصدين اليها وهو ان أضربك . لا لن اضربك ، وسـوف اسامحك وأنسى كل الذى قلته . وسخرت آمال من جديد منه كأشد ما تكون السخرية وقالت :

ـ بركاتك يا سيد غاندى .

ومرة أخرى نظر اليها فى غضب وهو ينتفض لأمعانها فى اهانته، ولكن بقية فى نفسه من تعقل ، جعلته يتراجع الى الوراء خطوة ، كأنه يريد أن يضاعف الحواجز بينه وبينها . ثم قال :

ــ لست أرى أى مبرر لهذا الشجار بيننا ، فلسنا زوجين بعد ، حتى تطالبينى بالطلاق . ولم نحدد يوما للزواج يتعين علينا الغاؤه . انك حرة تفعلين ما تشائين . أما أنا من ناحيتى فلست اعتبر نفسى حرا ، وسأظل مقيدا امامك بعهدى بالزواج منك ، ولن أحل نفسى من هذا العهد أبدا . وردت عليه آمال وقد زال عنها الغضب وشعور التحدى .

ــ وهل الزواج عندك مجرد كلمة تقولها ، أم هو مسـئولية والتزامات ؟ تتزوجنى بأى شىء ، وتنفق على من اى مورد ؟ اننى أريد اذا تزوجت ، أن أستقيل من العمل وأن يكون لى بيتى واولادى واتمتع بحياتى ، ولا سبيل الى ذلك ما دمت سائرا فى هذا الطريق. لقد قضى الأمر وعقدت العزم ، وعليك ان تختار « أما أنا وأما حركة البعث » . وارتسمت على شفتى فوزى ابتسامة ساخرة مرة وقال لهـا :

ــ ان هذا القرار اقدم عهدا مما تظنين ، ليست هذه أول مرة اسمعه منك ، انك لم تحبينى فى أى يوم من الأيام ، ولو أحببتنى لأعانك هذا الحب على تحمل كل هذا الذى تشكين منه ، بل وحملك على أن تزدادى لى حبا . ولو كانت المسألة بينى وبينك مسـألة حب فحسب لانقطعت علاقتى بك منذ أمد بعيد ، ولكن المسـألة اليوم هى مسألة ارتباطات وتعهدات أمام الناس . المسألة هى مسـألة سمعتك وسمعتى . فلست أريد ان يتهمنى انسان كائنا من كان اننى نكثت بالعهد وغدرت بالفتاة التى خطبتها طوال خمس سنوات. انك تعلمين ان ألسنة السوء قد اعتادت أن تلوك سيرة الفتـاة التى تفسخ خطبتها ، وما كان لى أن أسبب لك شيئا من ذلك . انك حرة تفعلين فى نفسك ماتشائين . أما انا فسأظل متمسكا بعهـدى وعلى

استعداد ان اتزوجك لو شئت فى هذه الساعة ، أو فى أى وقت تشائين . وهزت آمال كتفيها وقالت :

ــ ان هذا لا يحل المشكلة ٠

ــ وعلى أية حـــال ليس عندى ما أقوله لك أكثر من ذلك ، فلن افسخ خطوبتنا ابدا ، أما انت فتصرفى كما تشائين ٠

وقامت آمال غاضبة وانصرفت لأول مرة فى تاريخ حياتهـــا مع فوزى دون ان تقبله أو حتى تصافحه ٠

ودخلت عليه درية هانم زوجة أبية متسائلة عما جرى ، فقال لها :

لقد تخلت عنى أخيرا ، لقد هجرتنى ، انها لم تحبنى فى يوم من الأيام ٠ كان يجب أن أدرك ذلك منذ ردت على خطابى الأول لهـــا ٠

الجزء الثالث

الثمر

الفصل الأول

١

كان شهر العسل الذى قضاه فؤاد عبد السميع مع ميرفت فى أوروبا هو ذروة ما يمكن ان تمنحه الحياة لانسان من سعادةعندما تغمره بالنجاح وتحقق الاحلام ، وما يفوق الاحلام · فقد تزوج بأجمل فتاة من فتيات المجتمع ، وأصبح صهرا لوزير ، وضابطا بادارة الأمن العام فى رتبة الصاغ ، فلا عجب اذا أطغاه هذا النجاح وأدار رأسه كما هو الشأن دائما ، فلم يعد يتحرج أو يتأثم من فعل شيء ، واعتبر كل القيم التى عاش عليها فى الماضى منكرا بغيضا يجب أن يكفر عنه بفعل كل المحرمات فى الدنيا ، باعتبارها مفتاح السعادة والنجاح · وهكذا اندفع وراء زوجته ينافسها ويزيد عليها فى كل شيء فاذا شربت كأسا شرب أربعا ، واذا سهرت فى لعب الورق حتى الثانية سهر حتى الرابعة والخامسة وحتى طلوع الشمس . واذا استهترت وعبثت بعض الشيء ، جعل من نفسه العبث نفسه والاستهتار كله ، فقد كان لابد أن يشتهر بسرعة فى الوسط الجديد بالتفوق ، وأن يثبت جدارته ، وأن ليس فيه مسحة من الأخلاق الريفية ، التى قد يتصور البعض انها لاتزال عالقة به ·

ومن هنا كان سقوط وزارة عبد القادر باشا عيسى ، بعد مرحلة طويلة مؤلمة من النزع ، وسلسلة من اللطمات المهينة والأزمات التى انهالت على الوزارة وسيدها الأكبر جلالة الملك من الانجليز ، أول حادث مكدر فى حياة فؤاد عبد السميع منذ أمد بعيد .

لقد كان الحديث يدور قويا حول قرب نهاية الملك المريض ،

وعجل ما فعله الانجليز معه بتفاقم المرض ، وسقطت الوزارة ، ووجد فؤاد نفسه صهر الوزير السابق بدلا من الوزير القائم . وفى بادىء الأمر لم يشكل ذلك كبير خطر على فؤاد فى وظيفته ، فقد ظل حيث نقله حموه ضـابطا فى ادارة الأمن العام بالداخلية . ولكن الوزارة الجديدة وزارة بسيم باشا السعيد ، لم تكد تمضى فى تحقيق برنامجها المرسوم بالغاء النظام القائم بدستوره الزائف وبرلمانه ونوابه وشيوخه ، معبدة بذلك الطريق لعودة دستور الأمة وبالتالى حزب الأغلبية الى الحـكم ، حتى بدأ القلق والجزع يدبان الى نفس فؤاد . لقد بدأ يطالع فى التقارير السرية مايدور فى أروقة حزب الاغلبية من اعتباره نموذجا على الفساد الذى استشرى فى البلاد ، وتصميم حزب الاغلبية عـلى ان يكون هو وكثيرون من أمثـاله ، أول من يكنسـون من الحكومة بمجرد تولى حزب الاغلبية مقاليد الحكم فى البلاد .

وتعددت مظاهر رغبة الشعب فى الكفاح لاسترداد حقـوقه المغتصبة ، ووصلت هذه المظاهر الى ذروتها فى تمرد أكبر صـحف حزب الاغلبية عليه تحت قيادة كاتب الحزب الأكبر ، الذى أخذ على رئيس حزب الأغلبية تقاعسه ، عن قيادة البلاد فى طريق النضال ضد الانجليز الذين كانوا يعترضون جهارا على عودة دستور الأمة .

وانحاز الملك المريض لأول مرة فى تاريخه الى جانب الشعب ضد الانجليز انتقاما لنفسه من الاهانات التى وجهوها اليه ، فأعلن عن رغبته فى ان يرى الدستور الذى ارتضته البلاد لنفسـها يحكم البلاد من جديد . وسارع وزير خارجية انجلترا ، صـمويل هور فاعترض على عودة هذا الدستور ، بحجة ان التجربة قد أثبتت عدم صلاحيته للبلاد . وكان ذلك تدخلا سافرا فى شأن من أخص شئون البلاد الداخلية التى طالما زعم الانجليز أنهم لايتدخلون فيها ، فكان هذا الاعتراض بمثابة عود الثقاب الذى أشعل روح المقاومة فى البلاد .

***

وحل يوم ١٣ نوفمبر وهو يوم عيد الجهاد وسط هذا الجو المشحون بالتوتر والقلق الشعبى وكانت هذه فرصة أصحابنا فى جماعة البعث لكى يعتلوا التيار ، فقرروا ان يعقدوا احتفالا جامعا يدعى اليه ألوف من الشعب . وشجعهم على ذلك أن قبـــل كاتب حزب الاغلبية الكبير ، أن يخطب فى احتفالهم بعد أن خرج على حزبه وتبعه الألوف من الذين اعتادوا الاعجاب بقلمه وعقله وصلابته . كما لبى دعوة الجماعة نفر من اقطاب السياسة الكبار ليخطبوا على منبرها فى هذا اليوم . وهكذا راح شباب البعث يستعدون لاجتماعهم الكبير الذى سيكشفون فيه عن مدى ما وصلت اليه حركتهم من نجاح وتغلغل فى وجدان الشباب رغم كل الظروف المعاكســـة التى اكتنفتهم فى العامين السابقين . ودلت المقدمات على ان الاجتماع سيكون بالفعل نصرا كبيرا ، فقد تهافتت الجماهير على الحصول على بطاقات الدعوة الى الاجتماع ، حتى لقد تغير مكان الاجتماع أكثر من مرة ليتناسب مع الألوف التى بات من المنتظر ان تشترك فيه . وفاجأت الحكومة الجماعة فى صبيحة يوم الاجتماع بالذات ، بالاعتراض على اقامته بعد أن كانت موافقة عليه ضمنيا . وعبثا حاول قادة الجماعة أن يحتجوا ، وان يتصلوا بالمسئولين للعدول عن هذا الاعتراض الذى يتناقض مع دعوى الحكومة ، أنها جاءت لاطلاق الحريات الحبيسة ، فقد كان التوتر قد بدأ يستولى على الجميع وخشى حزب الاغلبية نفسه من مغبة هذا الاجتماع فاوعز الى الحكومة ان تمنعه .

وتوجه فوزى مع نفر من أصحابه الى مكان الاجتماع بناء على طلب البوليس ليوقع بالعلم على منع الاجتماع ، وكان عليه ان يجتاز كوبرى (أبو العلا) ليصـــل الى مكان الاجتماع ، فاذا بكردون من البوليس يسد مدخل الكوبرى . ونزل فوزى من السيارة التى تقله ، لكى يطلب من ضابط البوليس أن يسمح له بالمرور ، فاذا بالضابط يصدر أمره بضربه والقبض عليه واقتياده الى قسم بولاق .

وان هى الا لحظات حتى وجد فوزى نفســه قعيد حجرة مأمور قسم بولاق مقبوضا عليه فى انتظار ما يفعله به المأمور وأى تهمـــة سيوجهها اليه هذه المرة .

وأصيب فوزى بصدمة عنيفة من جراء هذا التطور السريع المفاجىء، ولم يستطع بعد أن افاق قليلا من الصـــــدمة التى أصيب بها ، أن يقاوم الشعور باليأس الذى استولى عليه . الا ما أعظم الفارق بين الأحلام والحقيقة ، بين ما كان يجيش فى نفسه بالأمس وبين ما يحس به اليوم . كان يتصور كيفية أصحابه بالأمس انهم وضعوا أقدامهم نهائيا على سلم النجاح ، فأصبحت حركتهم أحد العناصر المؤثرة فى الرأى العام ، تقف على قدم المساواة مع اعرق الاحزاب عندما تحتشد الألوف لسماع خطباء جماعة البعث وكبار الشخصيات التى ارتضت ان تخاطب الشعب من فوق منبر الجماعة . لقد تبدد ذلك كله كما تتبدد الأحلام ، وها هو فوزى يواجه الحقيقة المرة ، وأثر العصا الذى ضربه بها أحد العساكر يلهب ظهره ، بل ويلهب روحه كلها بالألم المعنوى ، لما ترمز اليه من استهانة البوليس به ومدى ما هو عليه من ضعف وهوان ، لم تستطع كل فلسفته وكل تمسحه بمبادىء غاندى ان تسعفه فى هذه الأزمة . لقد ضرب لغير هدف الا الرغبة فى تحقيره ولقد جىء به الى هـــذا المكان فى انتظار مصير مظلم لأن الحكومة لاترى فيه الا هلفوتا ، ووجد نفسه يذكر كلمات آمال وهى تندد به وتنذره بأن حياته لن تعـدو أن تكون اضطرابا رخيصا بين التردد على السجون وتلقى العَلَق على يد رجال البوليس .

وتلفت فوزى حوله وقد هاله الظلام الذى يسود الحجرة رغم ان الوقت كان لايزال نهارا ، لقد مزقت الوحدة والشـعور باليأس أعصاب فوزى ، ونفذ الظلام الى نفسه . يجب ان ينفض يديه نهائيا من هذه الحياة التى غرق فيها منذ عامين ، ليته سمع كلام آمال ، ليته ظل فى عمله البناء فى مشروع القرش .

وظهر فكرى فجأة على باب الحجرة بعد أن تصور فوزى أنه لم يعد يوجد فى الدنيا انسان واحد يهتم به . وكان وجه فكرى يفيض بالبشر والبسمة الوضاءه ، ولكنها لم تنفع هذه المرة فى التخفيف بعض الشىء عما كان يعانيه فوزى . وفى أثر فكرى جاء المأمور مصحوبا بنفر من أخوان فوزى ، واعتذر المأمور له عما أسماه غلطة، فالضابط الذى كان يرابط على رأس الكوبرى ظنه يهم بالاعتداء عليه ، فقد كانت مظاهرات الطلبة التى انطلقت منذ الصباح جعلت التوتر يصل منتهاه بأعصاب رجال البوليس . واعتذر المأمور مرة أخرى عن احتجاز فوزى فى القسم هذه المدة الطويلة ، ورجا أن لا يكون أحد فى القسم قد كدر خاطره، أو ناله بسوء . وكان الذى يعنى فوزى من ذلك كله أنه سيخرج حرا طليقا ، وأنه لن ينام فى السجن هذه المرة ، ولن تحاك ضده جريمة جديدة يتهم فيها بأنه أعتدى على البوليس وتجمهر فى الطريق العام .

وخرج فوزى مع صاحبيه وبقية الأخوان ، وهو يحس بالاحتقار لنفسه لما غمره من شعور بالفرح لمجرد اطلاق سراحه ، فكأنه رضى من الغنيمة بالاياب ، وكأن فشل مشروعاته ، الغاء الاجتماع الذى علقت عليه الآمال ، ضربه ، حجزه فى القسم ، كل ذلك لا يســـاوى شيئا بالقياس الى انه حر طليق سينام فى بيته هذه الليلة بدلا من السجن . لقد فشل ، يجب أن يعترف بأنه فشل وينسحب من هذه الحركة نهائيا ، فهو أعجز عن أن يمضى فيها ، ولابد انه ينطوى على نقص من نوع ما ، هو السبب فى هذا الفشل .

وجلس فوزى فى السيارة التى قادته وبقية الجماعة الى مركز حركتهم ، وهو ساكت واجم على خلاف عادته ، شارد الذهن ، ولذلك لم يسمع الانباء الخطيرة التى كان يقصها عليه شكرى ، هذا الشاب الجامعى الذى يتأجج حمـــاسة وايمانا واستعدادا للتضحية بكل شىء . كان شكرى يحدثه عن قيام طلاب الجامعة لأول مرة منذ بضع سنوات بمظاهرة عارمة ، انحدرت من الجامعة نحو القاهرة

عن طريق كوبرى قصر النيل ولم يتعرض لها البوليس . وعندما مرت المظاهرة أمام ثكنات الانجليز فى قصر النيل ، ارتفعت أصوات الطلاب تهتف بالانجليزية على سبيل التحدى منادية بسقوط المستر هور وزير خارجية انجلترا .

وتحدث شكرى عن الخلافات التى أوشكت أن تمزق المظاهرة لولا ان نجح طلاب البعث والاحزاب المعارضة ان ينقذوا الموقف فى النهاية ، فقد حاول طلاب حزب الاغلبية أن يسيطروا على المظاهرة وان يجعلوها تهتف بحياة رئيس حزب الاغلبية ، ولكن طلاب البعث والمستقلين أصروا على ان تكون الهتافات قومية . وحاول طلاب حزب الاغلبية ان يجعلوا المظاهرة تنتهى فى مسيرها عند سرادق حزب الاغلبية حيث يحتفل الحزب بعيد الجهاد ، ولكن بقية الطلاب نجحوا فى قيادة المظاهرة الى قصر عابدين حيث تفرقت من هناك .

ولم يكد شكرى يتم روايته عن مظاهرة طلاب الجامعة حتى راح فكرى ومحيى يحدثان فوزى عن الجموع التى قصدت مكان الاجتماع الخاص بالجماعة ، وعن مقدار شعورهم بالغضب وخيبة الأمل كلما قال لهم البوليس ان الاجتماع قد منع ، وكيف ثار أعضاء الجماعة عندما بلغهم نبأ الاعتداء على فوزى وكيف سارع فكرى بالاتصال بفؤاد عبد السميع محتجا . وتدخل محيى فى الحديث مسجلا شكره لفؤاد لأول مرة فقد كان هو الذى حمل مأمور قسم بولاق على المبادرة بأطلاق سراح فوزى والاعتذار اليه .

وظل فوزى فى نجوة من هذه الأحاديث كلها، فقد كان الاحساس بالمرارة يملأ عليه كل نفسه فلا يجعله يتذوق شيئا ، فضلا عن أن يقدر ما فى هذه الانباء التى تقص عليه من خطورة ، وأنه يوشك أن يتداعى فى ذات اللحظة التى يجنى فيها ثمار جهاده وجهاد زملائه ، يقظة عامة شاملة ، وسريان الروح فى أوصال البلاد وهو ما سعت اليه حركة البعث منذ يومها الأول .

على أن فوزى لم يكد يصل الى دار الجماعة حتى ذهل لمرأى

الجموع من الشباب المتحمس الذين تغص بهم الدار حتى لتوشك أن تشتعل من فرط التهاب مشاعرهم بالثورة . ولم تكد أعينهم تقع عليه حتى ضجوا بالهتافات مهللين مكبرين معبرين عن فرحتهم بعودته اليهم سالما . ووجد فوزى نفسه وقد نسى فى لحظات كل الآلام والمحن التى تعرض لها . لم يعد يذكر الا شيئا واحدا أن أمامه شباب ثائر ولابد من أن يغذى ثورته . فراح يخطب فى هذه الجموع. ومن الظلم أن يسمى هذا الذى كان يقوله خطابا ، فقد كان شيئا الى الصراخ والانفعال أقرب . راح يكرر بلا وعى كلمات الثورة ، وسقوط الانجليز ، وسقوط الحكم الغاشم الذى يكبت الحريات ، ويعتدى على الشعب ، ويحكمه بغير دستور أو قانون . ثم راح يهتف فى عصبية ، مصر فوق الجميع ، مصر فوق الجميع .

وارتجت جدران الدار تحت وطأة هتاف جموع الشبان . وظلت الدار تمتلىء وتفرغ ، وفوزى ومحيى وصبرى وخالد ، وفكرى وبقية الصحب يخطبون ويتكلمون ويهتفون ويناقشون ويحتدون ويصخبون ويفعمون النفوس بالثورة .

٢

كان اليوم التالى للحوادث السابقة هو ١٤ نوفمبر عام ١٩٣٥ ، وكان صباحه جميلا مشرقا . لم تعبأ الطبيعة بهذا الذى تناقلته الالسنة عما حدث فى الليلة الماضية من اضطرار حزب الاغلبية الى العدول عن سياسته فى تأييد الحكومة وانضمامه الى صفوف المعارضة لها ، وكيف تعرض البوليس للمحتشدين فى اجتماع حزب الاغلبية وأطلق النار على الجمهور مما أدى الى سقوط أحد العمال صريعا فنودى به شهيدا ، ولا كيف سرى الخبر وازداد التوتر وتحدث الجميع عن الانفجار الذى يوشك ان يقع ، لم تعبأ الطبيعة بشىء من هذا الذى يتهامس به الناس ، فأشرقت الشمس على المدينة العظيمة وسرت الحركة فى أحيائها ، كل يسعى الى رزقه كما هى عادته :

وجلجلت أجراس الترام وأبواق السيارات ، وارتفعت صيحات الباعة ينادون على بضائعهم . ان المدينة العظيمة تتثاءب وتتمطى ويدب النشاط الى أوصالها كشأنها فى كل يوم .

وقصد الموظفون الى دواوينهم ولحق بهم أصحاب الحاجات ، وفتح التجار حوانيتهم واستقبلوا عملاءهم . كل شىء يوحى بأنه يوم كبقية الأيام : ولكن صيحات باعة الصحف كانت أشد ارتفاعا وهى تعلن عن حوادث الأمس الجسام ، وتهافت الجمهور على شراء الصحف ، كان يسجل أمرا غير عادى .

وكان قلب الدولة الخفاق فى وزارة الداخلية ينم بدوره على ان الجو ينذر بأحداث ، فالتعليمات الصارمة كانت قد صدرت أن لا يتكرر هذا الذى حدث بالأمس . وتلقى الموظفون الانجليز بالذات تعليمات ان يثأروا للأسد البريطانى الذى أهين بالأمس والطلاب يهتفون بسقوط وزير خارجية انجلترا . ان هذا يجب ان لا يتكرر ثانية بأى حال من الأحوال .

واذا كان قلب الدولة الخفاق فى وزارة الداخلية يتربص الدوائر لقوى الأمة الزاحفة ، فان قلب الشعب الخفاق فى الجامعة كان لا يقل تحفزا وغليانا .

بدا الطلاب يتجمعون منذ الصباح المبكر والطليعة من بين صفوفهم معتزمة ان تحدث فى هذا اليوم حدثا ، لابد من الاضراب ، لابد من التظاهر ، لابد من الثورة احتجاجا على ما حدث بالأمس من اعتداء البوليس على قوى الشعب بشتى الصور والأشكال . وذابت الخلافات بين الطلاب ، لقد أصبحوا شبابا ثائرا ، وعلى قلب رجل واحد ، لاتسودهم الا فكرة واحدة ولا يجمعهم الا هدف واحد ، أن يردوا لمصر كرامتها التى أهدرت ، أن يعلوا من جديد شأن هذا الشعب ، وأن يرفعوه عليا فوق الأحزاب ، فوق الأشخاص ، فوق الجميع .

وارتفعت صيحة مجلجلة « مصر فوق الجميع » فزمجرت الجموع مرددة الهتاف ، وتجاوبت الشمس المشرقة والسموات

الصافية والأرض الطيبة بهذا النـداء واهتزت مياه النهر الخـالد ورددت الاهرامات شاهدة ومؤكدة « مصر فوق الجميع » •

ولم تلبث جموع الطلاب أن تحولت الى احدى ظواهر الطبيعة الغاضبة التى لايمكن أن ترد أو تقاوم واشبهوا بحرا هائجا متلاطما تصطخب فيه الأمواج العاتية وتفزع لمرآه أضخم السفن •

وتدفقت الجموع فى شارع المدارس قاصدة ميدان الجيزة ، فقد كان البوليس يسد الطريق المؤدى الى قصر النيل . واقتلع الطلاب فى سيرهم الأشجار ومزقوها فروعا وتسلحوا بها ، ولكن فريقا آخر لم تكفه فروع الشجر سلاحا ، فتسلح بأسياخ الحديد التى تؤلف سياجات هذه الأشجار . ولكن هذه كلها لاتصلح الا أن تكون أسلحة دفاعية يدافع بها عند الالتحام ، فلا مناص من أسلحة أخرى تصلح للدفاع والهجوم ، وكان الزلط وقطع البازلت التى ترصف بها الطرق أعظم سلاح يحقق هذه الغاية . وكان يحيط بالجامعة أكوام من هذه القذائف الخطيرة فأختفت فى ومضة عين وامتلأت بها الجيوب والحقائب .

وسارت الجموع أشبه الأشياء بحمم البراكين التى تكتسح فى طريقها كل شىء وتغرق كل شىء . ولم يكن بوسع البوليس الا أن يتراجع أمام هذا القضاء والقدر • وزمجرت الجموع من جديد هاتفة وقد اطغاها هذا النصر ، يسقط هور ، تسقط انجلترا ، مصر فوق الجميع .

ووصلت الأنباء الى وزارة الداخلية بهول المظاهرة الجامعية وان بوليس الجيزة لم يسعه الا أن يفسح لها الطريق والا حدثت مجزرة. واعطى الحكمدار الانجليزى أوامره الصارمة ان لاتصل المظاهرة الى قلب القاهرة بأى ثمن من الاثمان . وانتقل ضباط ادارة الأمن العام جميعا الى ميدان العمل ، وأدركوا بنظرة ، صدق بوليس الجيزة وان لاسبيل لتفريق هذه المظاهرة بالأساليب العادية ولا مناص من اطلاق النار والدخول فى معركة • وأشفق ضباط ادارة الأمن العـام

من تحمل المسئولية ، فقد كانوا يدركون من اين تهب الريح . وفكروا فى ان يحتالوا على أيقاف المد وحبسه فى نطاق الجيزة ، وذلك بفتح كوبرى عباس .

ونفذت الفكرة على الفور ودارت المحركات ، والضباط يستحثون العمال فى لهفة ان يسرعوا فلم يبق سوى ثوان قبل ان تصل جموع الطلاب . وتنفس الضباط الصعداء وهم يرون هذا الطريق الحديدى ينكسر ثم ينحرف ويدور على نفسه ليبتعد عن أصوله قاطعا الطريق البرى ليهيىء السبيل للطريق البحرى .

ووصل نفر من كونستبلات الانجليز على استعداد للبطش بجموع الطلاب ، فاذا كان الضباط المصريون يترددون ، فالانجليز موجودون فى البوليس لهذا الهدف . وقيل لهم انه قد تغلب على الأزمة بفتح الكوبرى وأحس الانجليز بشىء من خيبة الأمل ، فقد كانوا يريدون أن يعطوا هؤلاء الطلاب درسا لاينسونه أبدا ، حتى لا يفكروا ثانية فى الهتاف بسقوط انجلترا ، ولكن الجميع فوجئوا بعجلات الكوبرى تتحرك من جديد ، لتعيد غلق الكوبرى واعادة الطريق بحيث يسمح للمظاهرة أن تمضى قدما للامام . واكتشف الضباط أن طلبة الهندسة قد وصلوا الى مركز الالات التى تحرك الكوبرى وتولوا هم اعادة غلقه . وأسقط فى يد رجال البوليس المصريين وهم يرون الجموع تشرع فى التدفق بمجرد أن التحمت أول أجزاء الكوبرى . وان هى الا لحظات حتى عاد الطوفان من جديد ، واشبه الكوبرى غابة متحركة لكثرة ما كان عليه من الألوف الذين يحملون عصيا وأخشابا وفروع شجر .

ومن جديد تراجع رجال البوليس المصريون امام سيل العرم فهم لايريدونها مجزرة . وخرجت طلائع المظاهرة من عنق الزجاجة وبدات تنساح فى الميدان الفسيح أمام الكوبرى وتجاوب البر الشرقى بهتاف اليوم «يسقط هور ، مصر فوق الجميع» وسقط على الفور فى أعقاب الهتاف ، عشرات من هؤلاء الهاتفين المتقدمين ، سقطوا

برصاص الانجليز الذين لم يترددوا فقد كانت هذه فرصتهم لاعطاء الدرس الذى يريدون اعطاءه . ولم يضربوا فى الهواء للارهاب والانذار لم يضربوا فوق الرؤوس أو تحت الأقدام كما تقضى دائما التعليمات، بل لم يحاولوا حتى ان يضربوا فى السيقان ، بل ضربوا فى المليان ، ضربوا فى الصدور وفى النحور والقلوب . وهكذا تهاوت الطليعة كلها فى ميدان كوبرى عباس ، وأذهلت المفاجأة غير المتوقعة الصفوف الأولى فكان رد الفعل ذعرا لاحد له . وانتقل الذعر بأسرع من البرق حتى اذا وصل الى المؤخرة التى كانت لاتزال حرة طليقة ولم تعبر الكوبرى بعد ان أسرعت تفر لاتلوى على شىء . أو تفكر فى شىء . وكما تأخذ موجات المد برقاب بعضها فقد أخذت موجة الجزر مداها . وفى ثوان كان الكوبرى قد أصبح قاعا صفصفا ، خاصة وقد استأسد رجال البوليس عندما رأوا الموجة تنحسر ، فانقضوا على الصفوف المتراصة فوق الكوبرى فعجلوا باجلائهم عنه .

وفرك الانجليز يدهم تصورا منهم أنهم قد كسبوا المعركة نهائيا ولم يطف فى خيالهم أنهم انما بدأوا المعركة .

٣

كان بين الذين سقطوا مع الطلقات الأولى عبد المجيد مرسى ، وعبد الحكم الجراحى . ولفظ عبد المجيد مرسى أنفاسه ليكون أول المسجلين بدمهم احتجاج مصر لكرامتها . ورأى شكرى عضو جماعة البعث رجل البوليس الانجليزى الذى أردى زميله، وكان يحمل فى يده حديدة ووجد نفسه يتساءل لماذا قد حمل هذه الحديدة معه؟ أليس لكى يجعل منها سلاحا يدافع به عن نفسه واخواته؟ وهو يستطيع بضربة منها أن يهوى على يد هذا الانجليزى الذى كان لايكف عن اطلاق مسدسه فيزيد من عدد المصروعين بطلقاته ، واندفع شكرى لمجرد مرور الخاطر فى رأسه بدون وعى فعاجل الانجليزى الذى لم يكن متنبها لوجوده خلفه بضربة على يده التى تطلق الرصاص .

وصرخ الانجليزى من المباغتة . ولمح انجليزى آخر شكرى وهو يضرب زميله فصرخ فى وجهه ، وحرك شيئا انبعث منه نار ودخان ، ولابد أن يكون هذا الشيء مسدسا فلم يكن لدى شكرى وقت لمعرفةذلك لأنه وقع فجأة على الأرض . وعندما تنبه وجد نفسه طريح الأرض على ظهره ، وعيناه تتطلعان الى السماء . وراعه من السماء شدة صفائها وزرقتها . طالما أعجبته زرقة السماء ، ولكنه لم يرها فى يوم من الأيام بكل هذا الابداع . والشمس الا ما أجمل الشمس وما تبثه الى جسده من حرارة فى هذا اليوم القر . لقد تذكر الآن أن اليوم شديد البرد ، لماذا لم يلبس المعطف كما طلبت منه والدته؟ ليته سمع كلامها ، فهو يشعر الآن بقشعريرة شديدة .

وبدأ ذهنه يعمل بسرعة ويتساءل فى دهشة ولكن ما الذى أوقعه على الأرض ، ان أحدا لم يمسه ، وهو لا يحس الآن بأى ألم . ولكن ما هذا السائل الذى ينحدر على فخذه وبطنه ؟ وحرك رأسه يمنة ويسرة فى محاولة لاكتشاف ما حل به ، فوقعت عيناه على جسد عبد المجيد مرسى بالقرب منه . ومن جديد أحس شكرى بدافع يدفعه للاقتراب من زميله . ووجد نفسه غير قادر على الحركة الا أن يزحف زحفا على وجهه ، فزحف وهو فى أشد الدهشة وبدأ يدور فى ذهنه أن يكون قد اصيب بعيار نارى ، لابد ان هذا الشيء الذى حركه الانجليزى فى وجهه كان مسدسا وقد انطلقت منه رصاصة مستقرة الآن فى جزء من جسده . وأدهشه أنه لم يحس بأى ألم ، وما يعنيه الآن هو أنه لايزال حيا قادرا ان يزحف . وظل يزحف حتى لامس زميله عبد المجيد مرسى . وأنكر عليه الرجل الانجليزى الذى أرداه ، ان يكون لايزال حيا ، وهو الذى تجرأ على ان يضرب زميله بحديدته . فأسرع نحو شكرى ليرديه عن قرب ، والتقت عينا شكرى بعينى هذا القاتل ، وطالع فيهما نهايته المحتومة فأغمض عينيه وسرح بذهنه الى والدته ، كم سيحزنها ان تسمع بخبر موته ، ولكن سيعزيها أنه مات من أجل مصر . ومرت ثوان ولم يتلق شكرى الضربة المرتقبة ، وفتح عينيه من جديد ، فوجد

الانجليزى ينظر الى بحيرة الدم التى كان عبد المجيد مرسى يسبح فيها ، والتى كان شكرى قد أصبح غارقا فيها ، باشمئزاز . ولاح التردد فى عينى الانجليزى القاتل ، لقد كفاه أن وجد واحدا من هؤلاء الطلاب قد فارق الحياة بالفعل ، فرأى ان لايعجل بموت الآخر وان يتركه ليموت ببطء فقد كان الموت مرسوما على وجه شكرى .
وهتف شكرى وقد أدار له الانجليزى ظهره نهائيا :
ــ شكرا شكرا لك يا عبد المجيد ، لقد انقذتنى من موت محقق، سأظل مدينا لك بحياتى . ولكن هل سأعيش ؟ ما هذا السائل الذى لاينفك ينحدر منى ؟ لابد أن يكون هذا دمى . وغامت الدنيا فى عينيه وهوى فى غيبوبة عميقة .

٤

بينما كان هذا المشهد الذى لم يستغرق سوى بضع ثوان ، يجرى فى يمين الميدان أمام كوبرى عباس ، كان البوليس يحاصر نفرا آخر من الشبان فى الجانب الأيسر ، وكان فى وسطهم شاب طويل اسمر يصيح فىحالة هستيرية بعد ان جن‌جنونه لمرأى‌زملائه واخوانه يقعون صرعى أمام عينيه . وعبثا حاول أخوانه ، الذين كانوا ينادونه بسعد ، أن يهدئوا من غضبه وثورته ، خوفا عليه وعلى أنفسهم مما قد يصيبهم من جراء تهوره ، فقد كان يسب رجال البوليس ويلعنهم ويطلب منهم ان يلحقوه بأصحابه . وكانت مفاجأة للطلاب جميعا عندما وجدوا أحد ضباط البوليس يقبل على سعد فيحتضنه فى محاولة لتهدئته . ولم يكن هذا الضابط سوى فؤاد عبد السميع ، الذى راح يرجوه وبقية اخوانه ، أن ينجو بأنفسهم خوفا عليهم من القتل أو الاعتقال وكفى ما قد حدث . ورفض الشباب أن ينصرفوا الا بعد ان ينقلوا اخوانهم الجرحى والقتلى الى القصر العينى . وأقسم لهم فؤاد انه سيقوم بذلك وسيطلب الأسعاف . وكان فؤاد شديد اللهفة على أن يساعد الجماعة على الهرب ، ومن حسن الحظ ان المفتش الانجليزى ومن معه بعد ان فعلوا فعلتهم وتبدد الطلاب ،



أسرعوا يبتعدون من المكان ليبشروا رؤساءهم انهم قد نفذوا التعليمات ، وأعطوا الطلاب الدرس الذى لن ينسوه ٠

واذ خلا الجو من الانجليز ، فقد أصبح هم الجميع حتى ضباط البوليس أنفسهم ، ان ينقلوا الجرحى ٠ واستوقفت احدى السيارات الخاصة ، ونقل فيها عبد الحكم الجراحى فانطلقت تعدو به فى محاولة لانقاذ حياته ٠ ولم يجد الطلاب سيارة أخرى لينقلوا عليها عبد المجيد مرسى وشكرى . وظهرت فى الميدان احدى عربات الكارو فلم يجد الطلاب مناصا من استعمالها ووضعت عليها جثة عبد المجيد مرسى الذى تصوروا أنه قد يكون فى حالة اغماء ولم يمت بعد . ووضع الى جواره جريح ثان ، ثم وضع شكرى فوقهما . وبدأت العربة رحلتها نحو القصر العينى ، وكأن حركتها العنيفة الرجراجة ، قد اعادت شكرى الى صوابه فاذا به يفتح عينيه ، فيرى هذا النفر من الشباب وعلى رأسهم سعد يحيط به ، وتتملكه الحماسة فاذا به يهتف من أعماق قلبه « يسقط هور ، تسقط انجلترا ، مصر فوق الجميع » ، وعبثا حاول اخوانه أن يحملوه على الكف عن هذا الصياح ليدخر ما بقى لديه من دم وحيوية ، ولكن شكرى راح يرد على ذلك بهتافه المستمر، «نموت وتحيا مصر» ٠

* * *

وبدأت مشاهد ثورة سنة ١٩١٩ تعود من جديد للظهور ، فقد مات عبد المجيد مرسى ومات عبد الحكم الجراحى بعد أن ارسل خطابا الى رئيس وزراء انجلترا كتبه بدمائه ، وهو يفيض بالتحدى وختمه بالنداء المدوى مصر فوق الجميع .

وأقيمت للشهداء الجنازات ، وسارت مصر كلها فيها بزعمائها وكبارها تحت مختلف البنود والأعلام ، أو وقفت على جانبى الطريق تذرف الدموع السخينة وتقسم ان تنتقم للشهداء ٠

ومن القاهرة أمتدت الحركة الى الريف ، ومن الشباب الى العمال ، الى الموظفين . ومن صغار الموظفين الى كبارهم . ثم جاء فى خاتمة المطاف القضـــاة والمستشارون يعلنون احتجاجهم مع المحتجين ، ويسـيرون فى جنازات الشـهداء بملابسـهم الرسمية وأوشحتهم الخضراء ، ويعلنون انهم سيضربون عن العمل اذا لزم الأمر .

التهبت مشـــاعر مصر كلها من أصغر طالب فيهـــا حتى أكبر راس وهو ملك البلاد . وأسقط فى يد الانجليز ، ولم يرغبوا ان تتجدد ثورة سنة ١٩١٩ فتراجعوا وتخلوا عن وزير خارجيتهم الذى سقط هذه السقطة ، وأعلن خلفه ان انجلترا لايمكن ان تتدخل فى شئون مصر الداخلية ، وان الشعب المصرى حر فى اختيار الدستور الذى يرضـــاه .

وهكذا انتصرت ارادة الشعب المصرى ، ولم يذهب بددا ذلك الدم الغالى المهراق ، ولا ذهبت عبثا أرواح الشهداء .

على أن اسعد من فى مصر هذه الأيام ، كان هو شباب البعث فقد رأوا فى هذه الأحداث نصرا مضاعفا لهم ، فهو انتصـــار لهم كمصريين ، وانتصار مباشر لدعوتهم ، كانت صرختهم هى أول ما قرع الاسماع « يا شباب عام ١٩٣٣ كن كشباب عام ١٩١٩ ، كن كهذا الشباب الذى اشعل الثورة فى وقت لم يتوقع الناس فيه الثورة ثورة جامحة ضد الانجليز والاجانب لا تعرف هوادة ولا لينا الا خلاص الوطن من ربقة الاستعباد . »

وما أعظم استجابة الشباب الى هذه الصيحة بعـــد عامين من اطلاقها ، ولقد كان شباب البعث هو الطليعة ومن ساهم مباشرة بدمه فى اشعال نارها . واذن فلم تكن صرختهم كما حلا للكثيرين فى ذلك الوقت أن يقولوا عنها انها صرخة فى واد ، بل لقد أوشكت الصرخة أن تذهب بالاوتاد .

٥

كان عرض حقائق ما يجرى فى مصر ويقع من حوادث ، على الرأى العام الانجليزى احدى الوسائل التى استخدمها الشعب المصرى فى جهاده من أجل الحرية والاستقلال . وأحس الشعب المصرى وقد بدأ يخوض المعركة ضد الانجليز بضرورة وجود مندوبين عنه فى عاصمة بلادهم . وتقاعس حزب الأغلبية عن أن يقوم بهذا الواجب ، فقررت حركة البعث أن تقوم بهذا الدور قدر طاقتها . فأوفدت فوزى ومحيى الى لندن لهذا الغرض ، على ان ينضم اليهما خالد أمين الذى كان قد سبقهما فى بعثة دراسية للحصول على درجة الدكتوراه .

وتألف من الثلاثة وفد ، راح يجوب لندن ، ويذرع انجلترا محاضرا أو داعيا ، متحدثا مع بعض النواب واللوردات وحاصلا منهم على تصريحات لتأييد عدالة القضية المصرية ، وكان هذا النشاط يجد صداه فى الصحف المصرية على أوسع نطاق ، ويثير الحماسة بين صفوف الشباب .

وكان يتولى قيادة الجماعة فى مصر فى هذه الفترة ، فكرى عبد الحميد ، يعاونه صبرى عبد الوهاب .

وكان أعضاء الحركة من طلاب الجامعة الذين شهدوا ملحمة كوبرى عباس، لا يفتأون يلهجون بالدور الرائع الذى قام به فؤاد عبد السميع فى ذلك اليوم حيث حمى سعدا ، وكان صاحب الفضل الأول فى انقاذ حياة شكرى الذى ظل يصارع الموت بضعة أسابيع لفرط ما نزف منه من دماء .

وكان فكرى يذكر له بدوره ، كيف سهل اجراءات سفر محيى وفوزى الى انجلترا عندما قصده لهذا الغرض فى وزارة الداخلية . ولذلك فقد قررت الجماعة أن تشكر فؤاد عبد السميع بطريقة رسمية ، وأن توفد فكرى بالذات للقيام بهذه المهمة لا باعتباره صديقا لفؤاد ، ولكن باعتباره مندوبا عن الجماعة كلها .

وقبل فكرى فى سرور الاضطلاع بهذه المهمة ، وقصـد قصر رمضان باشا خيرى الذى كان آخر عهده به ، حفلة زفاف فؤاد .

صعد فكرى درجات السلم فى قصر رمضان باشا خيرى فى الساعة التى حددها له فؤاد ليتقابلا ، ولم يستطع فكرى أن لايؤخذ بعظم الفارق بين الحالة التى كان عليها القصر عندما زاره فى المرة الأولى وبين هذه المرة . كانت المرة الماضية عيدا ومهرجانا فكان القصر يسبح فى الأضواء والموسيقى ومظاهر الأبهة والعظمة ، أما هـذه المرة فقد كان يخيم على القصر سكون غير عادى جعل فكرى يتصور ان القصر مهجور ، فلم يجد على الباب بوابا فضلا عن العسكرى الذى اعتاد ان يقف حارسا على البيت فى الزمن القديم . ولولا تأكده من أن فؤاد قال له انه سيكون فى انتظاره لتخيل انه لن يجـد فى البيت أحدا .

وعندما قابل فكرى فؤاد فى خاتمة المطاف كاد أن ينكره لفرط نحوله وما تجلى عليه من ذبول وكسوف بال على غير ما كان يعهده فى صاحبه من فتوة وتفجر بالحياة مفرط .

وتناولا الشاى فى شرفة القصر المطلة على الحديقة ووجد فكرى نفسه مضطرا ان يسأل عن ميرفت هانم واذا كان سيسعد بالسلام عليها ، وتنهد فؤاد واجاب صاحبه :

ــ انها مسافرة .

ــ فى العزبة ؟

ــ بل فى أوروبا . لقد سافرت مع والدها منذ خمسة أشهر ولم يعودا الى الآن .

ولم يتمالك فكرى من ابداء دهشـته لبقائهما فى أوربا كل هـذه المدة الطويلة ، خاصـة وقد انقضى الصيف منـذ أمد بعيد ، وعاد جميع المصطافين من أوروبا . وتنهد فؤاد من جديد فى حرارة وقوة ، ثم راح يحدث صاحبه فى مرارة :

ــ كنت تحدثنى منذ قليل كيف أن اخوانك قد أوفدوك الى

لتشكرنى على ماوصفوه بأنه موقف كريم ، ولو علموا الحقيقة لأدركوا أننى أنا الذى كان يجب أن أسعى اليهم شاكرا أن حركوا فى نفسى بقية ما فيها من نوازع طيبة . لقد أصبحت أكره هـــذه الحركات الشعبية بعد أن أصبحت انتمى بدمى ولحمى الى هذه الطبقـــة التى تكره الشعب ، اننى ارى فى هذه الانتفاضة التى تسود البلاد خطرا يتهدد مستقبلى ، ولكنى نسيت ذلك كله عندما وجدت الشباب يتساقط تحت رصاص الانجليز ، وعندما وجدت صاحبكم ســعد يسبنا ويلعننا ويطلب منا ان نلحقه بأصحابه . تذكرت أيامنا الماضية يا فكرى ، فلم يعد فى رأسى الا ان انقذ سعد هذا وفى غمرة الحماسة التى تملكتنى وجدتنى أعمــل عــلى نقل الجرحى والمصابين الى المستشفى ، ولأول مرة فى هذه الليلة يا فكرى نمت نوما عميقا لم أنمه منذ شهور ، فى هذه الليلة عافت نفسى الخمر والقمار والسهر ووجدتنى أعيش مرة أخرى فى طهارة ماضينا . ولكن ذلك لم يدم مع الأسف أكثر من يوم واحد عدت بعدها الى ممارســـة الحياة المستهترة التى أصبحت غارقا فيها . وتوقف فؤاد عن الحديث ونظر الى عينى فكرى فى حزن وأسى وقال له وهو يتنهد :

ــ انك الوحيد يا فكرى الذى استطيع أن أبثه حزنى وهمى ، لقد كان زواجى من ميرفت أعظم نكبة اصابتنى فى حياتى .

ــ أحسبك تبالغ فى الأمر باعتبارك ضابط بوليس على الأقل ، انك محسود من جميع زملائك وزوجتك أحدى فاتنات النســاء ونجوم المجتمع .

ــ لست أعرف اذا كنت ستصدقنى فيما أقوله أم لا ، ان قلبى يحدثنى اننى أوشك أن أقع فى كارثة . وسكت فؤاد وسكت فكرى وخيم على الاثنين سكون دام لحظة ريثما استجمع فكرى قوته ليقول له :

ــ لاتجعل الأوهام تسيطر عليك ، لايوجد أى مبرر لهذا الشعور .

ــ ان ما اقوله لك ليس وهما انه احساس عميق يتملكنى . الا

ليتنى ظللت فؤاد الكونستابل ، فؤاد الكونستابل الذى كانت سعادته الكبرى تتلخص فى ان يرقى الى مرتبة الملازم ثان ، والذى كان يتلمس طريقه نحو هذه الترقية من خلال الجد والاستقامة والتفانى فى العمل . أتذكر أزهار يا فكرى وحديثى لك عنها ؟ يجب أن أعترف لك اننى لم اذق معنى السعادة الا معها ، مع أزهار التى كان يحلو لى دائما أن اصفها بالبغى . الا ما أشوقنى الآن الى يوم واحد من أيامها بل الى ساعة من النعيم الذى عشت معها فيه . لم أكن ايام أزهار أعرف الخمر ، لقد حرمتها على وصدعت بأمرها . لا اذكر اننى لعبت الورق ولو على سبيل العبث ، وما أكثر ما صلينا معا فى بعض المناسبات شكرا لله على ما أفاضه علينا من نعم . أتتصور هـــذا يا فكرى ؟ طالما صليت مع أزهار شكرا لله . وقال فكرى :

ــ ما جدوى نواحك الآن على الماضى ، لقد كنت تصبو دائما أبدا للترقى ولقد نلت ما تريد . ورد فؤاد فى سخرية وقال :

ــ بل نلت فوق ما أريد وما طاف بخيالى فى يوم من الأيام وذلك هو سر نكبتى ، لقد تطلعت الى فوق بأكثر مما ينبغى حتى خلعت رقبتى من فرط التطلع . مالذى تظنه قد بقى فى من هذه الفضائل التى عرفتها عنى والتى زكتها فى أزهار ؟ أرجوك ياصـــديقى ان لاتفزع مما سأقصه عليك وان لاتحتقرنى . قد تتخيل اننى أصبحت اشرب الخمر ولكن يجب أن تعلم اننى أصبحت مدمن خمر أى أن جسمى قد تسمم ، والويل لى اذا توقفت عن تعاطيها . قد تتصور اننى أتسلى بلعب الورق ، ولكن الحقيقة اننى أصبحت محترف قمار أجيد سائر ضروب الحيل والغش . واعترض فكرى على صاحبه لأنه يبالغ فى تصوير حياته بهـذا اللون القاتم ، وهز فؤاد رأسه فى حزن واستطرد قائلا :

ــ بل ان ما قلته لك دون الحقيقة التى لا أستطيع أن أقولها لك دفعة واحدة .

ألم يعن لك أن تتساءل ما الذى تفعله زوجتى الآن فى أوروبا ؟

انها تحيا حياة الكبريهات وعلب الليل ، انها تنتقل بين أحضان مختلف الرجال الذين يراقصونها ويعجبون برقصها ، وأظنك لم تنس ان زوجتى أحدى (شامبيونات) الرقص . واحتج فكرى على فؤاد وأنكر عليه أن يتحدث عن زوجته بهذا الاسلوب ، فليس يليق به أن يشهر بالمرأة التى تحمل اسمه حتى امام صديقه . وضحك فؤاد ضحكة هستيرية وقال :

ــ جميلة جدا حكاية ــ تحمل اسمى هذه ــ لقد نسيتها من فرط ما تعودت ان أكون أنا الذى قد اشتهر باسمها . ان الناس لاتتحدث عنى الا اننى زوج ميرفت هانم ابنة رمضان باشا خيرى . ألم تطالع فى صحف حزب الاغلبية ومجلاته الحديث الدائم عنى باعتبارى الكونستابل الذى ترقى فى غفلة من الزمان ليكون زوجا ومحسوبا لرمضان باشا ؟ ورد عليه فكرى قائلا :

ــ على أى حال لا يصح لك أن تسىء الظن بزوجتك بدون مبرر، أنسيت انها تعيش فى اوروبا فى رعاية والدها وكنفه ؟

واطلق فؤاد من جديد احدى ضحكاته الهستيرية ليقطعها فجأة ويقول :

ــ لقد كان أبوها هذا الذى تتحدث عنه ، يصعد كل ليلة الى حجرة نومه ، لتعود هى مخمورة من الخارج لتنام فى أحضانى عندما كنت أتولى هذه المأمورية التعسة ، مأمورية حمايتهم .

ــ اذن لم يكن يصح لك ابدا أن تتزوجها ما دامت هذه اخلاقها وهذا سلوكها .

ــ هذا كلام تستطيع أن تقوله أنت وأن تنفذه بسهولة ، لأنك أنت من انت ، ولقد أصبحتم جميعا تعيشون فى عالم من المبادىء والمثل ، أما أنا فضابط البوليس الذى تتلخص الدنيا عنده فى الترقى الى درجة اعلى ، رجل البوليس حيث طاعة الرؤساء مقدسة . أكان باستطاعتى أن أقاوم اغراء الجمال والحسب والنسب والبيوتات العالية ؟ أكان باســـتطاعتى أن أقاوم الترقية بعد الترقية تتلوها

الترقية ؟ وتوقف فؤاد فجأة عن الكلام وقد جحظت عيناه واضطربت أنفاسه وراح جسده يرتجف ، وأقبل عليه فكرى فى عطف يسأله عما ألم به ، فرجاه فؤاد ان يأذن له فى أن يشرب كأسا من الويسكى ليستطيع أن يسترد اتزانه فهذا هو اثر الادمان الذى حدثه عنه . وهذه أول مرة يمضى عليه هذا الوقت الطويل دون أن يشرب ، فقد كان قد عاهد نفسه أن لايشرب فى حضرته . وقال له فكرى وقد هالته حالته :

ــ بل خذ راحتك يا صديقى ، واذا شئت فانا على استعداد ان انصرف ، فقد طالت الجلسة أكثر مما ينبغى . ولكن فؤاد رجا صاحبه أن لايتركه فهو يحس براحة نفسية اذ يخاطبه . وقام فؤاد وعاد بعد ان شرب كأسا من الويسكى وحمل معه الزجاجة . ولم يلبث ان عاد الى حالته الطبيعية وقال لفكرى :

ــ ها أنت قد رأيت بعينى رأسك طرفا من المأساة التى أصبحت أعيش فيها .

ــ على أية حال لايزال لك جانب مشرق فى الحياة ، فقد حدثتنى فاطمة عندما قابلتها فى القصر العينى وهى تشرف على رعاية صاحبنا شكرى ، أن اختها أزهار لاتنفك تظهر تعلقها بك ، وأنها ما زالت تحمل لك هذا الحب القديم .

وظهر الألم على وجه فؤاد وقال :

ــ لقد وضعت يدك على الجرح الذى لايندمل ، أن هذا الأخلاص الذى تحمله لى أزهار هو احد العوامل التى تسمم حياتى وتنوء بها نفسى . ليتها كانت أشر مما هى عليه ، ليتها كانت حقا وصدقا العاهرة البغى التى تصورتها ، اذن لعشت رخى البال لايعذبنى ضميرى . أما الآن وأنا أرى مقدار اخلاصها لى على البعد ، وأنا لاأشك لحظة فى طهارتها على الرغم من ظروفها وبعدها عنى ، فى الوقت الذى لا أستطيع أن أحس بنفس الشعور بالنسبة لزوجتى ؟ فان ذلك هو ما يمزق أعصابى وينهش قلبى نهشا . هل تتصور أن أزهار لم تقطع

عنى رسائلها بالرغم من اننى لا أرد على خطاب واحد من خطاباتها ، فى الوقت الذى لم ترد زوجتى فيه على خطاباتى التى استعجلها فيها للعودة . دعنى أطلعك على خطاب أزهار الذى كتبته لى بمجرد علمها بزواجى ، ان هذا الخطاب لم يفارقنى مذ تسلمته . وأبدى فكرى دهشته وهو يرى فؤاد يخرج من جيبه خطابا مطويا وقال له :

– كيف تجازف بحمل خطاب صاحبتك ، الا تخـــاف من ان تعثر عليه زوجتك ؟

وقال فؤاد فى مرارة :

– واين هى زوجتى لتعثر عليه يا صديقى ؟ وعلى كل حال اطمئن فنحن اذا كنت لم تعرف من طبقة (الهاى لايف) ولكل منا استقلاله الكامل ، ليس لأى منا ان يدخل حجرة الآخر بغير استئذان ، ولا محل لدخولها فى غيبة الآخر . اما عن تفتيش الجيوب فهذا عمل لايقدم عليه سوى الهمج والسفلة من القوم ولسنا منهم والحمد لله . فأرجو ان تطمئن من هذه الناحية . والآن اسمع ماتقوله أزهار ، ثم استدرك قائلا: بل ليتك أنت يافكرى تتفضل فتقراه لى، فما اجدر كلماتها الصادقة ان تجرى على لسانك الصادق . واخذ فكرى الخطاب من فؤاد وراح يطالعه :

فؤاد يا حبيبى

أخيرا تزوجت يا فؤاد ، بينما كان الأمل الكاذب يراودنى انك لن تقدم على هذه الخطوة . ولكن أكان فى قدرتك أن لاتتزوج ابنة الوزير الجميلة الفاتنة والتى يستطيع أبوها ان يصل بك الى اعلى الدرجات ، وتستطيع هى ان تمنحك الولد ؟ لقد أغمى على بمجرد مطالعتى النبأ ، وتمنيت على الله لويميتنى ويريحنى من هذه الدنيا ، ولكن الله لم يستجب لدعائى وها أنا مازلت على قيد الحياة . ان قلبى ينز بالألم والحسرة والغيرة والدم ، وأحس احيانا كما لو كنت أريد أن أقتل احدا او أقتل نفسى ثم لا البث أن أفيق من هذه النوبات الهستيرية فلا ارانى اتمنى لك الا السعادة والهناء . وكأن القـــدر

العابث يريد ان يتسلى على ، فبعث الى برجل كريم يحبنى الحب العميق ، ولكن هيهات أن يكون بقدرتى أن أبادله حبا بحب فقلبى وقف عليك وحدك ، ومع ذلك فان الرجل لم ييأس فأصبح موقفه منى كموقفى منك حيث أعيش بدون أمل ، وبالرغم من كل شيء فما أسعدنى بأن أظل وفية لك حتى النهاية ، افراحى فى أحزانى ، وسعادتى وليدة شقائى ، وانت أنت محور حياتى ومبعث رجائى ، أيا كان تصرفك معى وجفاؤك لى . ودمت لمن ستظل مخلصة لك الى الابد والمستعدة دائما أن تفديك بروحها · (أزهار) ·

وأخذ التأثر من فكرى كل مأخذ ، فلم يستطع ان يحبس دمعة تسللت من عينيه ، وفرح فؤاد بهذه الدمعة فنهض من مكانه وأسرع يقبل فكرى ويقول له :

ــ ما أعجزنى يا فكرى عن شكرك لهذه الدمعة الغالية التى لا أستطيع أن أذرفها . لقد نضبت دموعى وتحجر قلبى ، فلم يعد يخفق لهذه العواطف النبيلة . وقال فكرى :

ــ الحق ان أزهار اثبتت بهذا الوفاء النادر اصالة طبيعتها الكريمة ، اننى أتصور أن حياتك تنصلح كل الانصلاح ويزول كل هذا الذى تشكو منه ، لو انك طلقت زوجتك خاصة وانكما لم ترزقا أولادا ، ثم تزوجت أزهار . ورد عليه فؤاد فى حزن وأسى :

ــ هيهات يا صديقى أن يكون ذلك فى قدرتى ، أو أن أسمح أن أقدم عليه لو كان فى قدرتى · ان أزهار تحب فىّ فؤاد الكونستابل الذى عرفته ، والذى كان يتقاضى راتبه فيحمله لها كل شهر · ولو راتنى الآن لانكرتنى بعد أن أصبحت عبدا لآفاتى ونقائصى · أو لم ترنى الآن كيف أعب من هذا الويسكى عبا ولولا ذلك لما استطعت ان امضى معك فى الحديث . كيف أستطيع أن استغنى عن سكنى هذا القصر بعد ان اعتدت حياته حيث يخدمنى فيه خمسة من الخدم ؟ كيف أستطيع ان أستغنى عن السيارة التى تقف بسائقها رهن مشيئتى ؟ لقد أصبحت حياة القصف واللهو فى دمى ، لم أعد

أستطيع الاستغناء عن السهرات والقمار والنساء . ان أزهار لايمكن ان تحبنى بصورتى الجديدة ، ان أزهار تحب انسانا قد مات وانقضى .
ورأى فكرى نفسه مضطرا من جديد أن يحتج على هذا اللون من التسليم بالضعف والخور فقال لصاحبه :

ــ ما هذا الخور والتردى فى مهاوى اليأس الذى اصبحت غارقا فيها ؟

ان هذا لا يليق بك ، انك مازلت فى ريعان الشباب ، ولا يزال باستطاعتك ان تكيف حياتك كما تشاء ، بل وان تبدأها من جـــديد اذا لزم الامر . باستطاعتك ان تعود الى الطريق المستقيم ، لا أن تستسلم وتدمر حياتك بهذا التخاذل .

ولمعت عينا فؤاد وقال :

ــ هذا صحيح ، يجب ان لا أستسلم وأعدك يا فكرى أن افعل ذلك ، وسوف الجأ اليك لمساعدتى ، شريطة ان اظل محتفظا بوظيفتى كضابط البـــوليس ، فهذا هـــو الخيط الذى يمكن أن يربطنى من جديد بالحياة الشريفة النظيفة ، ويظل يمنحنى القدرة على فعل هذا الذى تطلبه منى .

ــ ما هذه الهواجس السخيفة التى أصبحت تراودك ؟ ألست ضابط بوليس بالفعل ؟ ألم احضر اليك بالذات موفدا من اخوانى لأشكرك على عمل جليل قمت به وانت ضابط بوليس ؟

ــ وهذا هو مايملأنى بالرعب خوفا من أن لا أكونه فى يوم قريب . انك تعرف ان معنى عودة دستور سنة ١٩٢٣ واجراء انتخابات على اساسه ، وهو مابات وشيكا بعد سقوط وزارة بسيم باشا وتولى ماهر باشا الوزارة ، أن يعود حزب الأغلبية الى الحكم ، وســـيكون همهم الاول الانتقام ممن يسمونهم رجال العهد البائد ، وانا عـــلى رأس القائمة ، انهم يتحدثون فى اروقتهم عن ارجاعى كما كنت كونستبلا .

ـ وهل هذا معقول ؟ كيف يكون باستطاعتهم ان ينزلوا بصاغ الى رتبة الكونستابل ؟

ـ بجريمة المحسوبية ، جريمة قفزه من كونستابل الى صاغ فى ثلاثة اعوام . آه يا فكرى يا صديق طفولتى ، لقد أصبحت أعيش فى دوامة . لقد تحولت حياتى كما ترى الى جحيم ، ولم يبق لى الا نعمة الخمر فهى التى أدفن فيها أحزانى .

وصب فؤاد لنفسه كأسا كبيرة من الويسكى شربها فى جرعة واحدة . وران الصمت والاحساس بالكآبة على الصاحبين . وأخيرا نهض فكرى قائلا :

ـ أحسب انني يجب أن أنصرف ، اننى ادرك الآن من غير شك انك تجتاز محنة ، وأرجو ان تكون على ثقة يا فؤاد ان ليس هناك شيء أستطيع أن أساعدك به أتأخر عن القيام به .

ـ اذن فلتدع لى فى صلاتك احيانا . وثمة خدمة اخرى أرجو ان تؤديها لى ، اننى أتابع بافتخار واعتزاز انباء اصحابك فى لندن، وما يفعلونه بها رغم امكانياتهم المحدودة . وأنا اتابع أنباء الاكتتاب الذى فتحتموه لهم فى الصحف ، فأرجو أن تقبل منى هذه العشرين جنيها على سبيل التبرع . وهتف فكرى صائحا :

ـ عشرون جنيها ؟ هذا مبلغ ضخم جدا ، اننا نتلقى التبرعات بالقروش وعشراتها .

وابتسم فؤاد فى مرارة وقال :

ـ أتخشى يا فكرى من نقودى أن تكون ملوثة ، بعد هذا الذى حدثتك عنه من أحوالى ؟ أرجوك ان تطمئن انها ليست من نقود الباشا ولا من نقود القمار ، انها من مرتبى الخاص . لقد احتجزتها لهذا الغرض منذ أعلمتنى أنك ستشرفنى بهذه الزيارة .

ـ اذن ليكن التبرع بنصف المبلغ .

ـ ارجوك يا فكرى ان لاتحرمنى من السعادة الوحيدة التى بقيت لى وهى أن أظل أوهم نفسى اننى منكم رغم انحرافى وســوء

طالعى ، واذا كتبت لأصحابك محيى وفوزى وخالد فاقرئهم منى السلام ، وقل لهم اننى ككل مصرى آخر اقدر جهادهم .

وظل فكرى يردد طوال عودته الى دار الجماعة وهو يحمل فى جيبه هذا المبلغ الضخم الذى يعتبر أكبر مبلغ تلقوه من أى انسان « يا خسارتك يا فؤاد ، يا خسارتك يا فؤاد » .

٦

عاد فوزى ومحيى من هذه الرحلة التى قاما بها الى انجلترا مخلفين خالد أمين ليتم ما سافر من أجله ، وهو الحصـــــول على الدكتوراه · وقد كانت مزاملة فوزى لخالد أمين فى انجـــلترا قد كشفت له عن الكنوز الروحية التى لاحد لها والتى ينطوى عليها خالد أمين . لقد كان يرى طرفا منها فى مصر ، أما فى انجلترا فقد أطلق لطاقته الروحية العنان . لقد أبى الا أن يظل لابسا طربوشه المصرى حيث سار وانى ذهب . وأبى الا ان يمضى أيامه صــائما مصليا ، وكان اكثر الثلاثة تفانيا فى العمل وصبرا عليه · وتعلق فوزى بخالد أمين كما لم يتعلق بانسان من قبله ، حتى لقد احس وهو يفارقه فى لندن ، أنه قد ترك قلبه معه .

وعاد الصاحبان محيى وفوزى ، فلم يكادا يقتربان من ميناء الاسكندرية حتى بدأ يشهدان مظاهر أزدهار حركة البعث بعد ان بدات تعمل فى جو نسبى من الحــرية . كانت الوزارة التى الفهـا باهر باشا عقب استقالة وزارة بسيم باشا ، وزارة صديقة لحركة البعث . ولذلك فقد استقبل الصاحبان من عرض البحر بمجموعة من الزوارق المليئة بالمجاهدين من ذوى الأقمصة الخضراء ، بينمــا احتشد على رصيف الميناء عدد كبير من انصار الحركة ومشجعيها . ومن الميناء الى اجتماع حافل أقيم فى احد المسارح . ومن محطة الاسكندرية حتى القاهرة جاءت وفود فى كل المحطات التى وقف عليها

القطار تحيى وتشهد الدنيا بهتافاتها المدوية ، مصر فوق الجميع ـ
على مدى سريان الروح حتى عمت جميع القرى والدساكر ٠

وكانت المفاجأة الكبرى فى محطة العاصـمة حيث شهدت جوا عاصفا من الحماسة ، لم يكن فوزى أو محيى يتصور ان الأمور يمكن ان تصل اليه حتى فى خيالهم . وكان مايشغل بال فوزى وهو يرى هذه الاستقبالات الحافلة ، هو وقع ذلك كله على آمال لو أتيح لها ان تراه . ليتها كانت حاضرة لتشهد انه لم يكن ماجنا أو عابثا ، وان ماتخيلته من أنه يوشك أن يدمر نفسه ويدمرها معه ، لم يكن سوى هواجس لا اساس لها من الصحة .

ـ ولم تكن هذه أول مرة ، أو أول موطن يذكر فيها فوزى آمال ويتمنى لو تراه . بل ان هذا الخاطر صاحبه فى كل مكان ذهب اليه فى انجلترا ، مذ وطئت اقدامه عتبتها حتى لقد هجس فى نفسه هاجس أن الحافز الأكبر الذى دفعه للسفر الى انجلترا ، ليس هو الجهـاد والكفاح ، بقدر ما هو الرغبة فى أن يرى البلاد التى عاشت فيها والتى كونتها ، وان يصبح اذا عاد ندا لها واكثر من ند . كان كلما طالع الصحف المصرية وهى تنقل انباء نشاطهم ، كيف خطب فوزى فى جامعة كارديف فى مؤتمر للطلاب ، كيف رأس المستر لانسبورى زعيم العمال اجتماعا خطب فيه فوزى ومحيى ، يسائل نفسه ماهو وقع ذلك كله على آمال ٠ وهكذا كان طول الوقت يعد نفسه لمقابلته المقبلة مع آمال كيف سيتذاكران سويا الأماكن التى عاشت فيها ، كيف سيحدثها عن أدب الانجليز المفرط ، عن ديمقراطيتهم الأصيلة ، وكيف سمحوا لهم فى كل مكان ان يندوا بالسياسـة الانجليزية ، وان يهاجمـوا زعماءهم ويتحدثوا عن قرب سقوط الامبراطورية البريطانية لتلحق كل الامبراطوريات الدارسة . وكيف لم يجدوا من سامعيهم الا كل تشجيع وترحيب . أجل سوف يحدثها عن الأثر العميق الذى احدثته زيارته لانجلترا فى نفسه ، حيث يتمتع الانسان الفرد بأعظم ضمانات يتمتع بها الفرد فى أى مكان آخر فى العالم ٠ كيف تتحطم سلطة الدولة

كلها على عتبة اى مواطن فلا تستطيع أن تقترب منه أو تمس حقوقه الا اذا ارتكب جريمة توقعه تحت طائلة القانون ، الذى هو من وضعه بواسطة نوابه المختارين منه . سيحدثها كيف ضاعف ذلك فى ايمانه بأنه لم يكن مخطئا عندما قرر ان يكرس حياته ، من أجل حياة مماثلة للفرد المصرى . ان المصرى ليس دون الانجليزى ، ومن حقه ان يتمتع بما يتمتع به الانجليزى . سيحدث آمال بذلك كله وسوف تستمع اليه الآن وهى ترى بشائر النجاح ، وهى ترى التبرعات تجمع على نطاق شعبى لمساعدة الوفد المجاهد فى لندن .

عندما تطالع وصف الاحتفالات التى قوبل بها فى الاسكندرية وعلى طول الطريق . ولابد أن رياض سيحدثها بذلك كله ، فقد كان على رأس من استقبلوه فى عرض البحر . ومع ذلك فليتها كانت هنا فى المحطة لترى ما حدث بعينها . لقد انقضت نهائيا الأيام السود ، وأصبح الجو معبدا لأن يمارس مهنته كمحام بنجاح ، فيفتح بيتا ويكون أسرة .

بهذه الروح وبهذه الآمال قصد فوزى الى بيت صاحبه رياض مؤملا اصلاح ما فسد ، وواصلا حبل ما انقطع بينه وبين آمال ، فاستقبل كما اعتاد ان يستقبل به من كل أفراد العائلة بالترحاب الصادق والفرح لمرآه ، ابتداء من الأم حتى أصغر أخوات رياض . وان كان قد لاحظ لأول مرة ، ان الفتيات الصغيرات لم يعدن صغيرات ، ولذلك فلم يبادرن لتقبيله وعناقه كما كن يفعلن من قبل ، وان كان ذلك قد جعله يحس انهن أكثر احتفالا به مما كن فى اى وقت من الأوقات .

وكانت آمال هى الشخص الوحيد الذى لم يظهر فى الميدان ، وعندما سأل عنها فوزى ظهرت الحيرة على وجوه الجميع ، وقالت الام وفى صوتها رنة أسى : انها فى حجرتها . وطرق فوزى الباب مستأذنا للدخول عليها ووقف فى انتظار الجواب ، وسمع الاذن

بالدخول أخيرا ، فاندفع فى شوق ولهفة ليعانقها ، فمدت له ذراعها بحركة أوقفته بعيدا عنها ، وقالت له فى كثير من البرود :

ـ حمدالله على السلامة . وأسرعت نحو حقيبة يدها فاخرجت منها علبة سجائر تناولت منها لفافة اشعلتها وشرعت فى تدخينها ، نافثة الدخان بحركة لم يخف على فوزى معناها ، وهى انها تتحداه بما تفعل . وأحمر وجهه ولم يحس بالغضب بقدر ما أحس بصدمة شديدة من خيبة الأمل ، وتمنى لو لم يدخل ، بل لو لم يجىء ، وفكر فى أن ينسحب احتجاجا على هذا التصرف الذى قابلته به ، ولكنه وقف حائرا مرتبكا مترددا ، ولم يلبث أن قال لها فى تلعثم :

ـ أرى انك اصبحت تدخنين ؟

ـ انني حرة افعل ما اشاء .

وحانت من فوزى التفاته حوله لأول مرة فوجد صورة شوقى بك نصار معلقة فوق سريرها ، فامتقع وجهه لرؤية الصورة وسألها فى ذهول عن سر وضعها فى هذا المكان ، واسرعت آمال فى اهتمام وقد احمر وجهها تقول له :

ـ هذه الصورة ملك لنادية وقد طلبت منى ان تعلق صورة أبيها فوق السرير فوجدت ان ذلك من حقها . وكأنها احست بعد أن قالت ما قالت ، انه لايحق له سؤالها عن شىء ، وما كان لها أن تفسر له شيئا . فأردفت تقول :

ـ يجب أن تعرف أن كل مابيننا قد انتهى ، ولم يعد لك الحق فى أن تسائلنى عن أى شىء . وبسطت له كفها ليرى أنها لم تعد تلبس دبلة الخطوبة .

وجلس فوزى لأول مرة مذ دخل الحجرة ، فقد كان انتهاء ما بينهما بهذه البساطة التى تتصرف بها شيئا فوق احتماله . وتركته آمال فى الحجرة وخرجت . ودخل رياض على آثارها ، وعندما وجد صديقه واجما ، لم يزد على أن جلس الى جواره واجما

بدوره . وخيمت عليهما الكآبة . وتحـــدث فوزى أخيرا فى بطء وصوت لايكاد يسمع :

ــ لقد عرفت من غير شك قرار أختك ؟

ــ لقد خلعت دبلة الخطوبة منذ اليوم الأول الذى أبحرت فيه مسافرا الى انجلترا .

ــ يا للسخرية ، ويالبلاهتى . لقد تصورت أن هذه الرحلة قد تقوى من جديد ماوهن بيننا من صلات .

ــ لقد أعلنتنا آمال بفسخها خطبتها معك ، منذ اليوم الذى قابلتك فيه عقب عودتك من الاسكندرية . وافهمتنا انكما تشاجرتما، وأنها تعتبر الخطوبة مفسوخة ، ولكنها ستظل تلبس الدبلة ريثما تهيىء أذهان كل معارفها وأفراد اسرتها لهذه الخطوة . ولقد رجوت أن يتكفل الزمن باعادة المياه الى مجاريها ، وأملت كما أملت أنت ، أن يكون النجاح الذى أصبحت تلاقيه ، من شأنه أن يغير نظرتها للأمور ، ولكنك لم تكد تشرع فى رحلتك الى انجلترا حتى خلعت الدبلة نهائيا . ومن الواضح أنها شديدة الحرص على قطع كل صلة بهذا الماضى . ونظر فوزى الى صاحبه وقال :

ــ شد ما أنا حزين يا رياض ؟

ــ ولست أقل منك حزنا ، وليس يخفف من هــذا الحزن أننى طالما توقعت هــذه النتيجة ، فهى فى نهاية الأمر أختى التى اعزها وأتمنى لها كل خير وسعادة ، ولم أكن اشك انك خير من يوفر لها السعادة الروحية التى ستفتقدها طول حياتها . ووقف فوزى وقال لصــاحبه :

ــ هلم نحادث والدتك .

وكانت الأم جالسة فى الخارج حيث تركها ، وقد انصرف بقية أولادها ليخلوا الجو للحـــديث الحزين المرتقب . وانحنى فوزى على يد السيدة الجليلة وقبل يدها ، فطفرت الدموع من عينيها وراحت

تربت على ظهر فوزى فى حزن وأسى ، دون ان تنبس ببنت شفة ٠ وقال فوزى :

ــ كل الذى يهمنى فى هذه الساعة ، أن لا أكون فى نظركم قد نكثت بعهدى أو قمت بما يسىء اليكم أو اليها . وقالت الأم :

ــ معاذ الله يابنى أن تكون قد فعلت مايعاب عليك . اننا جميعا نقدرك ونعزك ، ومهما حدث فسأظل أعدك واحدا من ابنائى . الله يعلم ان معزتك فى نفسى كمعزة رياض سواء بسواء وتنهد فوزى ارتياحا فقد أزال هذا التصريح عبئا ثقيلا عن كاهله ٠ لقد كان واثقا انه لم يعد يحب آمال ، وان كل الذى اصبح يربطه بها ، هو خشيته من أن يتصرف تصرفا يلام عليه من أسرة رياض أو من معارفه . ووجد نفسه منساقا تحت شعوره بعرفان الجميل لهذه الأسرة ان يقول لرياض ووالدته :

ــ وانى اعاهدكم من جديد على ان لا أفكر فى الزواج ما بقيت آمال بغير زواج . وسأكون علـى اسـتعداد فى أى وقت وآن ان أتزوجها فى سرور وسعادة اذا هى أبدت رغبتها فى ذلك فى أى وقت٠ ومرة أخرى طفرت الدموع من عينى والدة رياض وراحت تدعو الله أن يحقق لفوزى أمانيه جزاء وفاقا على بره وحنانه .

وخرج فوزى من بيت رياض ، وهو يحس بخفة ونشوة . لقد كان خطأ منه أن يفكر فى الزواج فما كان لمجاهد أن تكون له زوجة وولد ٠ لقد أصبح الآن حرا طليقا من كل قيد أو التزام ، أصبح مطلق التصرف فى حياته وحريته ، سيهبها من أجل مصر ، من أجل بلاده من أجل هذا الشعب ٠

٧

جلس رمضان باشا خيرى وابنته ميرفت فى شرفة قصرهما القبلية ، بعد ان عادا من رحلتهما الطويلة فى أوروبا ، يحتسـيان القهوة عقب تناول الأفطار فى سعادة وابتهاج . وكانت الساعة قد

جاوزت العاشرة وبدات الشمس الساطعة التى حرماها فى أوروبا تغمرهما بالدفء والحنان . وأحدث رمضان باشا صوتا مرتفعا وهو يرشف قهوته ، فهتفت ميرفت بأبيها محذرة ، ولكن الرجل ضحك من تحذيرها ، وطلب منها ان تدعه الآن وشانه فهما ليسا فى أوروبا، وهو يجلس فى عقر داره حيث لاسلطان لأحد عليه . ولكن ميرفت احتجت عليه بأن هذه المسألة تتعلق بالذوق والآداب العامة التى لاتقتصر على مكان دون آخر ، والتى يجب ان يعتادها الانسان المتمدن ، ولطالما افهمته ان أحداث الأصوات أثناء الطعام أو الشراب لايليق بمكانته . ولكن اباها ظل متمسكا بحقه فى ان يرشف فنجان القهوة بالطريقة الوحيدة التى تجعله يتذوقها ويستطيبها ، ما دام فى بيته .

وأضطرت ميرفت ان تهز راسها فى يأس ، ثم قالت وهى ضاحكة:

ـ لا فائدة .

وأمن رمضان باشا خيرى على قولها ان لاجدوى من جهودها وراح يقهقه قائلا :

ـ الفلاح هو الفلاح ولو أصبح باشا . وعلى فكرة ، اننى انذرك ان حكاية الرجيم القاسى ، التى فرضتها على ، قد انتهت بعودتنا الى مصر . وعبثا حاولت ميرفت ان تقنع أباها ان هذا الرجيم هو من أجل صحته ، فقد رد عليها منكرا فائدة الصحة اذا لم يكن بقدرة الانسان ان يأكل ما يشاء . واستسلمت ميرفت وتنهدت قائلة للمرة الثانية :

ـ لا فائدة .

وسأل رمضان باشا ابنته محاولا توجيه تيار الحديث الى الموضوع الذى كان يشغله بالأكثر مذ عاد الى مصر :

ـ هل طالعت الصحف ؟ واجابت ميرفت فى سأم :

ـ طالعت العناوين الكبيرة فلم يستوقفنى شىء .

ــ كيف تقولين لم يســــتوقفك شيء ، وهم يتحدثون عن قرب توقيع المعاهدة بين مصر وانجلترا .

ــ وما أهمية ذلك لنا ؟

ــ ان معنى نجاح المفاوضات بعد وفاة الملك الكبير من ناحية ، وتسنم الملك الصغير العرش من ناحية أخرى ، ان البلاد ستصبح حكرا لحزب الاغلبية الحاكم يفعل فيها ما يشاء دون ان يجد له رادعا من انجلترا . وقالت ميرفت :

ــ أرجــوك يا بابا لاتحشرنى فى مســـائلك الســـياسية التى لا تهمنى فى شيء والتى أكرهها من أعماق قلبى لأنها تجعلك فى بعض الأحيان مشغولا بها عنى . انظر كم كنا سعداء فى أوروبا ، ليتنا ماعدنا . وصاح ابوها فى وجهها محتجا :

ــ أكنت تريدين أن أموت من بردها وأدفن فى ثلوجها ؟ واندفعت ميرفت تعانق اباها فى عاطفة صادقة وتقول له :

ــ طالما حذرتك ان لاتلفظ هذه الكلمة القبيحة كلمة الموت . ألف بعد الشر عنك يا (دادى) يا حلو يا قمور .

ولف الرجل ذراعه حول خصر ابنته ، التى جلست على مسند مقعده فى حب وحنان . ودخل فى هذه اللحظة ادريس يحمل فى يده آلة التلفون وقد أمسك بالسماعة فى يده الأخرى .

ــ فؤاد بك يرغب فى مخاطبة سعادة الهانم . وتثاءبت ميرفت وقالت للخادم :

ــ قل له أنى مازلت نائمة .

وتدخل ابوها معترضا على هذا التصرف وملفتا نظرها الى انه لايليق ان تعامل زوجها بهذا الأسلوب . ولكن ميرفت هزت كتفيها فى سخرية ولوت بوزها وقالت :

ــ لقد أصبح ثقيل الدم جدا منذ عودتنا من أوروبا . واصرت ميرفت على ان لاتكلم فؤاد ، وطلبت من ابيها ان يتولى مخاطبته هو اذا كان مشفقا عليه الى هذه الدرجة . وأمسك رمضان باشا

سماعة التلفون من يد الخادم وحيا فؤاد متلعثما ، وكان ما حدث قد ترامى الى سمع فؤاد ، ولذلك فقد ثار فى وجه الباشا بانفعال ان يكون هذا هو موقف ميرفت منه فى الوقت الذى يحتاج فيه الى تشجيعها ، بعد أن حلت به هذه المصيبة ، واصفر وجه رمضان باشا وهو يسمع كلمة مصيبة ، وحاول ان يفهم من فؤاد ماذا حدث ولكن موقف ميرفت من فؤاد ، كان قد زاده ارتباكا فوق ارتباك ، ولذلك فقد اكتفى بالقول انه فى طريقة الى البيت بسرعة . وعتب رمضان باشا على ابنته مسلكها من فؤاد ولكن العناد تجلى على وجهها وقالت لأبيها :

حضرته اصبح يتظاهر بالغيرة على آخر الزمن ، لقد تأذى من تقبيلى لمحسن خطيبى السابق عندما تقابلنا معه بالامس عقب عودتى من أوروبا فى نادى الجزيرة .

ــ انت تعرفين يا ميرفت يا حبيبتى اننى أطلقت لك الحرية ، ولم يحدث فى يوم من الأيام ان حدثتك عما يليق وما لا يليق . ولكن حرصى على سعادتك وهنائك يحتمان على ان اذكرك اننا لسنا فى فى اوروبا الآن ، نحن فى مصر فكيف تقبلين خطيبك السابق امام زوجك ؟

وصاحت ميرفت فى انفعال قائلة :

ــ بابا أرجوك ، أنت تعرف أن محسن رغم ثقل دمه فهو أحسن زميل لى فى الرقص وفى لعب البكاراه . واذا كنت أنت أيضا ستلبس لى على آخر الزمن عمة شيخ الاسلام ، فلم يبق أمامى الا ان أترك لكما البيت .

وامتقع وجه رمضان باشا لدى سماعه هذا التصريح الغريب الذى ذهل له ، ولم يلبث ان قال لها :

ــ اهذا جزاء حبى لك يا ميرفت ان تطعنينى بهذه الكلمة ، لمن تتركين البيت ؟ وما قيمة حياتى اذا أنت تركت البيت ؟ اخص عليك يا ميرفت ، ما كنت أتصورك بهذه القسوة على أبيك ؟ وعادت

ميرفت تحيط عنق أبيها بذراعيها وتقبله فى رأسه وفى جبهته بينما كانت دموع التأثر تنحدر من عينيه ، وقالت له معتذرة :

ــ سامحنى يا بابا ، لست أعرف كيف أفلتت منى هذه الكلمة التى لا معنى لها ، فليس باستطاعة أى منا أن يعيش بدون الآخر . ولكن المسألة ان فؤاد قد بدأ يثير أعصابى مذ عدنا من أوروبا ، فلا يفتأ يتحدث عن ضرورة تغيير سلوكى ، وبدأ يتشدق بكلمات لا أفهم منها شيئا عن الاخلاق والفضيلة . لقد نشأتنى يا بابا فتاة عصرية (مودرن سبور) ، وعندما تزوجنى فؤاد واخترته زوجا لى ، فذلك لأنه كان يعرف عنى كل شىء ، ويعرف مدى رفعى التكليف بينى وبين أصحابى من الرجال ، فكيف يحق له اليوم ان يعترض على قبلة بريئة لمحسن الذى كان خطيبى وطالما قبلنى ؟ أى ضرر حدث من هذه القبلة ، هل أكلنى أم أخذ منى قطعة ؟ وقال رمضان باشا وقد تهدج صوته :

ــ اسمعى يا ميرفت ، انك تعلمين أنه لا يهمنى شىء فى الدنيا الا ان أراك سعيدة ، فافعلى كل شىء يجعلك سعيدة ، واعلمى اننى اذا أبديت لك أى ملاحظة ، فليس لى من وراء ذلك أى هدف الا خوفى عليك وحرصى على سعادتك ، وخشيتى من أن يؤذيك كلام الناس . وهزت ميرفت كتفيها وقالت بالفرنسية مايفيد ان كلام الناس لايهمها . ثم اضافت قائلة :

ــ ان لنا حياة واحدة لنحياها فى سعادة ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، واذا اهتم الإنسان بكلام الناس عاش طول عمره فى شقاء وحزن . ان شعارى كما قلته لك دائما ان أى دقيقة تمر دون ان نستمتع فيها بوجه من الوجوه لاتعد من العمر . وعانقت ميرفت اباها من جديد وقالت له :

وربنا يخليك لى يابابا ياحلو يانونوس .

وقطع الحديث صـــوت باب القصر يفتح ثم يغلق فدل ذلك على

وصول فؤاد • وان هى الا لحظات حتى دخل عليهما فؤاد بالفعل ، وقد ظهر على وجهه الهلع والفزع بينما كان يقول :

ـ مصيبة ياباشا ، مصيبة يامرفت وقعت على رأسى لقد أحالنى رئيس الحكومة الى المعاش •

وابتسمت ميرفت ابتسامة صفراء وقالت له :

ـ أهذه هى المصيبة التى ازعجتنا بالحديث عنها ؟ حضرتك حزين جدا على القروش التى كنت تتقاضاها كمرتب ، ام على ضرب السلامات طول النهار والخضوع الأعمى لرؤسائك الذى طالما شكوت منه ؟ وزاد رمضان باشا على ماقالته ابنته فقال فى جفاف وغلظة :

ـ الحق يافؤاد انه ما كان يصح لك ان تزعجنا هكذا بدون مقتض ، وان تسمى هذا الذى حدث مصيبة ، انك تعرف ان الحكم لايدوم لأحد ، وسيجيء دورنا ونعود غدا للحكم وتعود الى رتبتك بل الى ماهو أعلى منها كما فعلنا لك فى السابق •

وأصيب فؤاد بخيبة أمل شديدة من جراء هذا البرود الذى قابل به الاثنان النبأ الذى كان يعتبره كارثة فى حياته ، وراح يقول لهما فى دهشة :

ـ أهذا هو شعوركما ازاء اجراء اعتبره قد حطم حياتى ومستقبلى؟
وغضب رمضان باشا واحتد على فؤاد قائلا :

ـ ماذا تريد منى أن أفعل ياسيد فؤاد ؟ أتريدنى أن أبكى والطم الخدود ؟ او تريد من ميرفت ان تمزق ثيابها ؟ وأى جديد فى هذا الخبر ، كان من الأمور المقررة أنه لايكاد حزب الأغلبية يلى الحكم حتى يضطهد رجالنا ، هذا هو حال الاشتغال بالسياسة يوم لك ويوم عليك • ألم ترنفسك كيف كنت وزيرا فى يوم ، ثم خرجت من الوزارة فى أقل من لحظة وعلى غير انتظار ؟ وصاح فؤاد محتجا :

ـ ياباشا لامحل للمقارنة بينى وبينك ، انك رجل وزير والوزراء يتبدلون ، وأنت فى نهاية الأمر رجل غنى لاتهمك الوزارة ، ولكن أنا

من أكون أنا اذا لم أكن موظفا ، ماهى حيثيتى ، ماهو اعتبارى ؟ ورد عليه رمضان باشا فى احتداد :

ــ انك زوج ابنتى ، انك صهرى ، أولا يرضيك هذا ؟ ألا يكفيك ؟

وأسرع فؤاد يقول فى لهفة :

ــ وهذا هو عين ما أخشاه وأفزع منه . فقد عشت حتى الآن يشار الى باعتبارى زوج ابنتك ومحسوبك ، ولم يكن الرؤساء يتحدثون عنى الا بهذه الصفة ، ولم تكن الصحف تشير الىّ الا على هذه الصورة . ومن ناحيتى لم يكن ذلك يسبب لى أى غضاضة ، مادمت فى نهاية الأمر موظفا أزاول عملى ، اما الآن وقد أصبحت بلا عمل ، فلن يكون لى صفة فى الحق والواقع الا اننى زوج ابنتك . وعند هذا الحد من الحديث تدخلت ميرفت وراحت تخاطب فؤاد فى ازدراء وشماتة :

ــ ولكن يافؤاد بك عبد السميع ، اذا كان لايرضيك أو يعجبك أن تكون زوج ابنة رمضان باشا ، فنحن نعيش فى دنيا الحرية وليس هناك ما يجبرك او يضطرك ان تظل موصوفا بهذه الصفة التى تكرهها الى هذا الحد . ماعليك الا أن تتلفظ الآن بكلمة واحدة ، لترى نفسك حرا من هذه الوصمة التى تنظر لها بهذه النظرة . وأحس فؤاد فى هذا التحدى بذل شديد فهوى الى احد المقاعد وقال لميرفت :

ــ ميمى ياحبيبتى ، لماذا كل هذه القسوة ؟ لماذا تحمليننى معانى لايمكن ان اقصدها ؟ ان المسألة بالنسبة لى هى ان الوظيفة كانت هى الخيط الوحيد الباقى لى ليحفظ على اعتبارى ومكانتى فى المجتمع . ان ضابط البوليس لاعمل له خارج الوظيفة . فأسرع رمضان باشا يقول له :

ــ باستطاعتك ان تتولى عنى ادارة الاطيان وتقوم بما لا أقوم به فى الوقت الحاضر فتزور الأرض من حين لآخر وتشرف على تحصيل الايجارات وتراجع الحسابات . وأنا واثق انك لو فعلت ذلك فسوف

يتضـــاعف ايرادنا فالجميع اليوم ينهبوننـــا • وقال فؤاد فى أسى وحسرة :

ــ ليتنى ياباشا أصبحت قادرا بالفعل على فعل ما تقترحه على ، لقد كانت الوظيفة الحكومية هى التى تحتم على ان استيقظ فى نهاية الأمر لأذهب الى عملى الذى كان يلزمنى القيام بواجبات معينة ظلت تحفظ على كيانى من الانهيار ، أما الآن وقد أصبحت عاطلا تمـــاما ، فما الذى سيحول بينى وبين مواصلة الليل بالنهار فى لعب الورق وشرب الخمر ، والعربدة بغير حدود أو سدود ؟ لقد ضعت يا باشا ، لقد ضعت • وانخرط فؤاد فى بكاء مر ، بينما وقفت مـــيرفت وقد تملكها الغضب وراحت تقول :

ــ ومتى تحرك ضميرك ضد ماتسميه سكرا وعربدة وقمارا ؟ أليس هذا هو ماكنت عائشا فيه طوال الأعوام الماضية ؟ أليست هذه الحياة هى التى جعلت منك صاغا بعد ان كنت كونستابلا ؟ فما هو سر هذه الثورة السخيفة التى تتظاهر بها الآن ؟ اننى اظن ان معاشك الذى سوف تتقاضاه هو أضعاف مرتبك ككونستابل ، أليس كذلك يابابا ؟ ونظرت باحتقار الى فؤاد الذى كان قد سحق سحقا تحت وطأة هذا الهجوم والاذلال ، ومضت تقول :

ــ اسمع يافؤاد اذا كان أسلوب حياتنا لم يعد يعجبك أو يرضى ضميرك الفلاحى كما بدأت تكرر على مسامعى هذه الأيام ، فما عليك الا أن تطلقنى وتنصرف الى حال سبيلك ، وعلى رأى بابا باب بيتنـــا يتسع لمرور الجمل •

وخرجت ميرفت غاضبة تاركة وراءها فؤاد المذهول ووالدها الذى غضب لغضبها • وقال رمضان باشا :

ــ ماهذا الذى قلته يافؤاد ؟ هل جننت ؟ ما هذا التعريض بمـــا تسميه حياة السكر والعربدة ، ماذا تريد منا ؟ اننا نعيش كما يتفق مع مركزنا ، وكما عشت أنت دون ان ترى فى ذلك غضاضة أو حرجا، فما الذى جد ؟ لولا اننى احببتك يافؤاد واعتبرتك دائما كابنى لمـــا

سامحتك على مابدر منك • هيا اذهب وصالح ميرفت ، اننى اعرف انك تحبها ، وأعرف انها تحبك كذلك ، أولم تفضلك على مئات الشبان الذين تمنوا زواجها ، أولم تفضلك على ابن رئيس الحكومة ؟ فمن الخير أن لاتنسى ذلك فى أى لحظة من اللحظات • ولست فى حاجة ان اذكرك بأنها كل شىء لى فى الحياة ، ولست أطالبك لكى أكون راضيا عنك وثروتى كلها تحت تصرفك الا أن تكرس كل جهدك فى اسعادها ، وان تتحاشى كل ما من شأنه ان يكدر خاطرها • هيا اذهب الآن ولاتدعنى أراك الا بعد ان تكون قد صالحتها •

وأحس فؤاد ببلادة تطغى عليه وروح الاستسلام تسيطر على كل خلية من خلايا جسده فقام فى تثاقل وهو منكس الرأس ، منهار الارادة ، ليستغفر ميرفت ويصالحها ويترضاها بعد أن أصبحت وظيفته حقا وصدقا ، انه زوج ميرفت هانم •

الفصل الثاني

١

كان هناك احساس غامض يسيطر على فوزى انه يبدأ فصلا جديدا من حياته ، وهو ينتزع نفسه انتزاعا من الجو السعيد الذى كان غارقا فيه منذ بضع ساعات · كانت الساعة قد دقت مؤذنة بانتصاف الليل ، وكان من المحال عليه أن يحمل هذه الأسرة الكريمة من عناء السهر اكثر مما حملها · حقا لقد كان الجميع يطالبونه بالبقاء ، وأن يقص عليهم المزيد من مغامراته وقصصه ، ما رآه فى باريس ولندن ، وما عاناه فى المحاكمات والسجون ، ولكنه أحس أخيرا أنه أسرف فى ثرثرته بما فيه الكفاية وفوق الكفاية لجلسة واحدة · وكان يجب عليه أن يعود الى بيته · ولم تكن هذه العودة الى البيت تكلفه هذه المرة اكثر من خمس خطوات يقطعها على شرفة السلم ، فقد كانت هذه السهرة الممتعة فى الشقة المقابلة لشقتهم فى بيت المنيرة · ولم تكن هذه الأسرة التى سهر معها سوى أسرة شريفة هانم أخت درية هانم زوجة أبيه · ولقد عاد من انجلترا فوجدهم قد جاءوا ليسكنوا الى جوارهم ، بعد وفاة رب الأسرة لتتعاون الاختان وليشرف والد فوزى ما استطاع الى ذلك سبيلا على بعض أعمال الأسرة التى فقدت عائلها ·

وعجب فوزى لنفسه كما لم يعجب من قبل عندما أوى لحجرته وبدأ فى عملية خلع ملابسه ، كيف يعتذر عن الذهاب الى دار الجماعة وهو لم يفعل ذلك منذ سنوات ، كيف حاول أن يموه على صاحبه محيى عندما أبدى دهشته لتخلف فوزى ، وكيف استأذن محيى فى

أن يمنحوه أجازة هذه الليلة دون ان يقول له سببا مقنعا ، الا أنه يحس ببعض التعب والحاجة الى الراحـــة • وكان مايدهش فوزى بالدرجة الأولى فى هذه اللحظة ، أنه كان يحس بنفسه سعيدا منتشيا بنفس القوة التى يحس بها عندما يخطب الجماهير •

وراح يستعرض ما حدث فى هذه الليلة ، مذ دعته شريفة هانم ليتناول عندهم فنجانا من الشاى ، ثم مقدم بناتها وابنها ســـامح ، وكيف بدأ يستطيب الجلسة بشكل غير عادى ويمتد به الحـــديث ساعة بعد اخرى ، وينسى واجبه الذى أوشك ان يكون مقدسا وهو ذهابه الى دار الجماعة لمقابلة الوافدين الذين لاينقطعون فى أى يوم، والذين يصرون على مقابلته ، وتلقى مبادىء الدعوة منه مباشرة • أى سر حمله على ذلك ؟ لاشك أن لشخصية شريفة هانم التى طالما هزت نفسه هزا مذ رآها للمرة الأولى أثرا فى هذا الشعور الذى يتملكـــه الآن ، انه لايزال يذكر عنـــدما رآها لأول مرة ، وكان صبيا وقد جاءت تفرش بيت والده الجديد استعدادا لزفاف والده على اختهـــا • لقد اخذ يومها كأقوى مايمكن ان يؤخذ صبى بجمال ســـيدة كبيرة يحف بوجهها المشرق الجلال والوقار • ومضت السنون ، وســـيرة السيدة الفاضلة تترامى الى سمعه من حين لآخر ، يشيد بهـــا والده أو زوجه ، وهم يتحدثون عن وفائها العجيب لزوجها الراحل الذى تركها فى ميعة الصبا ، وذروة الجمال ومع ذلك فقد أبت أن تتزوج من بعده ، ورفضت عروضا من اغنياء وكبراء فتنوا بها ، لمجرد رؤيتها فى البنك أو فى المجلس الحسبى ، حيث كانت الظروف تضـــطرها للاختلاف الى هذين المكانين للاشراف على مصالح أولادها •

وبدأت سجاياها تتجلى فى أروع مظاهرها وهى تدبر المـال الذى خلفه لها زوجها ، والمال الذى آل اليها من ميراثها عن أبيهـــا لتهيىء لأبنائها حياة كريمة كأحسن ماتكون الحياة• فأصبحت علما على مايمكن إن تصل اليه النساء من وفاء وعفاف وحكمة وتدبير ، أو هكذا كان

يسمع الحديث دائما عنها . أكانت مجالسته لها هى سر استمتاعه بالسهرة والحافز له على عدم الذهاب الى دار الجماعة ؟ لقد كان يشعر فى عينيها حنو الأم الذى حرمه منذ أمد بعيد ، وكانت لاتنفك تظهر عطفها وحدبها عليه بطريقة أثرت فى نفسه أعمق تأثير . لطالما سمع من والدة رياض انها تعتبره كابنها ، وحاول خلال السنوات الماضية أن ينظر لها بهذا المنظار ،ولكن قلبه لم يخفق أبدا كما خفق الليلة تحت تأثير حنان شريفة هانم التى لم تتلفظ مرة واحدة بما يفيد أنه ابنها ، بل لم تتلفظ بلفظ واحد خلال حديثه الطويل ينم عن استهجـــان أو تشجيع ، لم تحاول ان تتعمق فى صحة تصرفاته أو خطئها ، لقد كانت تستمع اليها وهو يقصها كما هى ، تحزن اذا حدثها عن ضيق وقع فيه ، وتفرح عندما يقص خبرا أصابه . لم توجه اليه نصـــيحة واحدة مما اعتاد الكثيرون ان يوجهوا اليه ، أن يكف عن هذا الشيء أو ذاك ، او ان يهتم بهذا الشيء أو ذاك . لقد كانت تستمع اليـــه بوجهها المشرق وهذه الابتسامة الرقيقة الغامضة لاتفارق شفتيها تلك الابتسامة التى ذكرته بابتسامة موناليزا الخالدة ، فى صـــورة ليوناردى فنشى .

ومن شريفة هانم انتقل فوزى وهو يستعرض حوادث الليلة ، الى ابنها سامح الطالب فى كلية الحقوق ، لقد أحس فوزى انه أحـــدث تأثيرا عميقا فى نفس سامح مما رجا معه أن يضمه الى حركة البعث . وليكونن ضمه الى الحركة اذا تحقق مغنما كبيرا فهو ليس مجرد طالب أو شاب . لقد كانت عيناه تشعان ذكاء ونبوغا ونضجا مبكرا لايتوفر فى الشباب . ان فوزى يعرف نبوغ سامح فقد شـــاءت ظروف غير عادية أن يكون هو الذى يحضر احتفال تخرجه من روضة الاطفـــال نيابة عن العائلة كلها ، وان يكون من حظه ان يتلقى أول شهـــادات تفوق سامح فقد كان أول المتخرجين من هذا المعهد الجـــديد ، الذى كان ينشأ فى مصر لأول مرة . ولقد كانت اخبار سامح تترامى اليه بعد ذلك ، كبقية اخبار اسرته ، وهى تشيد بتفوقه المســـتمر فى

مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى ، وهاهو يجلس معه لأول مرة بعد أن اصبح طالبا فى كلية الحقوق ، فيحس فوزى له بهيبـة رغم حداثة سنه ، كما لم يحس بازاء أى شاب آخر ممن يتوافدون عليـه كل يوم بالعشرات من كل طراز • أيكون طمعه فى أن يكسب سامح الى الحركة هو الذى أقعده ، وحال بينه وبين الذهاب الى دار الجماعة؟

ولم يحتج فوزى وهو ينتقـل بذاكرته الى استعراض بقيـة الجالسين فى السهرة ، للوقوف طويلا أمام اختى سامح تاتا وديدى ، فقد كانتا أصغر من ان تشغلاه ، ولم يبق من الجالسين الا وفاء ابنة شريفة هانم الكبرى • ولم يكد فوزى يذكرها حتى اشتد خفقان قلبه، وأحس بفشل محاولته خـديعة نفسه ، وتأخير شخصيتها وهو يستعرض جلسائه فى هذه الليلة ، فقد كان يعرف منذ البداية ، أن لابد ان تكون وفاء هى صاحبة الأثر الأكبر فى هذا الانقلاب الذى طرأ على حياته هذه الليلة ، وأشعره أنه بصدد افتتاح فصل جـديد فى حياته •

لم تكن وفاء جديدة عليه ، فقد شاهدها عندما شرع يتردد على أسرة زوجة أبيه • وكان لها من العمر سبعة أعوام عندما كان عمره ضعف هذا القدر • ولم تمثل فى نظره سوى طفلة لايمكن ان تتجاوب مع عواطفه ، وان كانت قد حفرت فى نفسه ، اشراقة روحها واستدارة وجهها الجميل ، وطابع الحسن فى ذقنها ، وفيض انوثتها بالرغم من طفولتها •

ومرت الأيام وشغل فوزى فيما شـغل فيه من انهمـاك فى التمثيل ، واستغراق بعد ذلك فى مشروع القرش ، وعلاقتـه بأسرة رياض وخطوبته لآمال التى حجبت عنه أى اشتغال بفتاة غيرها ، ثم كانت صدمة آمال وتخليها عنه ، وما أصدره من قرار وعهد اخـذه على نفسه ، أن ينصرف نهائيا عن كل تفكير فى الزواج ، فمـا كان باستطاعته أن يجمع بين حياة الجهاد وبين متطلبـات الأسرة من استقرار والتزامات مالية • وقد غفر فوزى لآمال انصرافها عنه ، بعد

أن بدأ يعتقد انه لايمكن ان توجد امرأة ترضى به زوجا فى مثـــل ظروفه ، حيث لايستطيع أن ينفق عليها ، وحيث ينفق الجزء الأكبر من حياته مسجونا أو متجولا ، أو مواصلا العمل بالليل والنهار .

وفوجىء فوزى بأسرة شريفة هانم وقد جاءت تسكن الى جوارهم ، وبدأ يرى وفاء التى لم تعد هذه الطفلة أو القطيطة كما كان يسميها ، بل لقد شبت عن الطوق ، وتفجرت أنوثتها التى أحس بهـــا فوزى مبكرا ، ووصلت الآن الى ذروة نضجهـــا . وأحس فوزى فى المرات القليلة التى رأى فيها وفاء انها لم تكتمل جسديا فحســـب ، بل ونفسيا وعاطفيا .

وطرح فوزى على نفسه وهو جالس فى هذه الليلة عقب سهرته الطويلة معها ، السؤال الذى حاول أن يتفاداه ، فقد كان خجلا من نفسه . أتكون وفاء هذه هى حبه الأول الذى ظل كامنا فى نفسه دون أن يعرف ؟ أكان يحبها طول الوقت مذ عرفها طفلة ، وظل حبها فى خفايا الشعور يأســـا من ان تتجـــاوب مع حبه لصغرها ؟ أكانت مغامراته العاطفية مع آمال فى الدرجة الأولى ، ومحاولاته الفاشـــلة مع غيرها من فتيات صادفهن من حين لآخر ، لاتعدو ان تكون جمـــلا اعتراضية بين المبتدأ والخبر ، وبين المسند والمسند اليه ؟ وفى جملة أكانت علاقته المستفيضة مع آمال ، ليست سوى انحراف عن الطريق المرسوم له منذ الأزل ، وهو ان يحب وفاء ؟ ولم يستطع فوزى أن يرد على هذه التساؤلات بالايجاب ، فقد كان أقوى من احتمـــاله ، ان يكون الأمر كذلك بالفعل . لقد كانت نفسه جريحة بعد صدمة آمال، ولم يكن مستعدا ان يبدأ مغامرة جديدة يمنى فيها بالفشل كما منى حتى الآن . ان تصميمه قاطع وقراره نهائى ان لايفكر فى الزواج ، ومستحيل ان يكون قد أحب وفاء .

وراح يستعرض موقفه منها وموقفها منه . لقد كانت اكثر الجميع صمتا وهو يقص عليهم حديثه . ولم يعد رد الفعل طوال الســـهرة بضع غمغمات وتمتمات لم يتبين منها شيئا ، سوى فى مرة واحـــدة

عندما سمعها تقول بوضوح لم تخطئه اذنه « المجرمون » • وكان ذلك تعقيبا على قصه حادثة ضربه فى الاسكندرية • وبدأت هذه الكلمة تدوى فى نفسه وتملأ عليه كل كيانه ، كانت تمثل بالنسبة له أغنية أو نشيدا عذبا ، « المجرمون » يالها من تميمة وتعويذة تحصنه ، « المجرمون » ماله يرى فى هذه الكلمة نجدة الهية جاءت لاسعافه ؟ أى شىء فيها يفتنه كما لم تفتنه كلمة من قبل « المجرمون » ؟ ولم يلبث فوزى ان استفاق لنفسه وقد أمعن فى جعل وفاء محور تفكيره وتأملاته فى هذا الليل المتأخر ، واذا به يحس بشىء من الرهبة وشىء من الشعور بالأثم •

كانت وفاء فى ظل أمها تمثل له البراءة المطلقة والصفاء والطهارة، وكان يرى نفسه بماضيه وحياته أشبه بالعاصفة الصاخبة ، المحملة بالاتربة والرمل • وليس من حقه ، أن يعكر صفو حياتها باكداره • يجب أن يبتعد بسحبه وضبابه عن هذه الشمس المشرقة المضيئة • يجب أن يدعها ناعمة البال نائمة فى هدوئها وصفائها ، فليبتعد عنها ، وليقم بينه وبينها الحواجز والسدود • انها شىء يخالف آمال، انها لعبة سريعة العطب ، لتكونن جريمة مابعدها جريمة أن يحاول التسلل الى حياة هذه العذراء تحت أى اسم أو أى ستار من حديث عن الحب أو الزواج ، فليس فى قلبه مكان للحب وهو لن يتزوج ، فلا يصح له بحال أن يفكر فيها ، بل لقد كان خطأ منه أن يسهر هذه السهرة ، يجب ان ينسى كل شىء عن وفاء •

وضحك قلبه من هذه القرارات التى لاتجد من ينفذها • كيف ينساها وصورتها لاتكف عن مبارحة ذهنه ، ان طابع الحسن فى ذقنها يفتنه ، ان جمالها الهادىء يغمر روحه بسكينة لم يحس بها حيال أى انثى قبلها • يجب أن يعترف بالحقيقة التى يحاول طمسها، انه يحب وفاء ، لقد كان يحبها دائما ابدا ، لاشك أن حبه لها الكامن فى اغواره هو الذى وقف حاجزا بينه وبين آمال ، انه يحبها ، انه يحبها •

٢

كان شباب البعث يشعرون أن حركتهم قد وجدت صـــداها فى الوجه البحرى . ولكن الوجه القبلى كان فى حاجة الى مزيد من الجهد، حقا لقد تألفت لهم شعب فى اسوان وقنا وبعض عواصم الصـــعيد الأخرى ، ولكن ذلك كان دون الغاية . وفكروا فى القيام بحملة واسعة النطاق لغزو الصـــعيد كله بمبـــادئهم وافكارهم ، ليس فقط فى بنى سويف أو المنيا وأسيوط ، ولكن فى كل المراكز والمدن والقرى بل والعزب . واذ كان الصعيد يتألف من هذا الشريط على جانبى النيل ، فما عليهم الا أن ينظموا حملة تبدأ من الشلال وتنتهى عند الجيزة .

واختار فوزى ان تكون الرحلة سيرا على الاقدام حتى لاتكلفهـــم كبير مال من ناحية ، وحتى يحققوا بغيتهم من الوصول الى كل قرية من ناحية اخرى . وليكن السير على الاقـــدام مظهر عزيمتهم وقوة ارادتهم ، وتضامنهم مع الفلاحين فى آلامهم ومتاعبهم . اجل لتكونن رحلتهم سيرا على الاقـدام ، لينتقلوا من قرية الى أخرى ، شـــاربين مما يشرب منه الفلاح . طاعمين مما يطعم منه ، صـــابرين على كل مايصبر عليه ، صالين حر الصعيد فى شهور الصـــيف ، وزمهرير الليالى ، ملبين دعوة الفلاحين للمبيت فى بيوتهم اذا هم دعوهم لهذا المبيت ، ونائمين فى العراء اذا فاتتهم الدعوة أو نبذهم الناس تحت تأثير أى عامل من عوامل الجهل أو التعصب التى تعانيها البـــلاد . عاملين فى الحقول مع العاملين احيانا ، حاملين شكاوى الشـــاكين للسلطات ، وناشرين من خلال ذلك كله دعوتهم الى تحرير الشـــعب المصرى من ربقة الفقر والجهل والمرض عن طريق تحرير مصر من ربقة الاستعمار والاستغلال .

ووقع الاختيار على فوزى باعتباره صاحب الفكرة ليكون على رأس المسافرين . بينما تعهد بقية الصحب أن يعملوا فى القاهرة ليكونوا ردئا للمسافرين ينشرون أخبارهم ويمدونهم بالمال والزاد والرفاق

من حين لآخر • وعهد الى محيى وصبرى بقيادة الحركة فى القاهرة •

ولم تكد الحركة تذيع بيانا فى الصحف بالمعانى المتقدمة ، حتى قامت قيامة الحكومة ، ورأى فيها صاحب الدولة رئيس حزب الأغلبية، محاولة لبلبلة افكار الشعب فى الصعيد ، ونشر المبادىء الشيوعية الهدامة بين صفوفه • وكانت فكرة السـير على الاقدام بالأقمصة الخضراء تزيد فى خطورة هذه الحركة ، فقد كان هذا الزى الاخضر يجذب أنظار الشباب كما لو كان مغناطيسا • وبالرغم من أن حزب الأغلبية الحاكم ، فكر فى أن ينشىء لنفسه كتائب من شباب الاقمصة الزرقاء ، ولم يكد يؤلف هذه الكتائب بالفعل حتى زاد عدد المنضمين اليها على بضعة ألوف فى القـاهرة وحـدها ، فى الوقت الذى لم يتجاوز فيه ذوو الاقمصة الخضراء بضعة مئات فى مصر كلهـا ، فسرعان ماثبت أن الاقمصة الزرقاء هى أكبر نكبـة حاقت بحزب الأغلبية ، فقد اندس بين صفوفها كل عاطل وكل متشرد وكل مجرم، اذ وجدوا فى هذه الكتائب ما يحميهم من تدخل البوليس ، ويجعلهم فى منأى عن مطاردته لهم • وسرعان ما أصبحت هذه الكتائب علما على الفوضى والانتهاك الصارخ للقانون والأمن العام ، وتحول البوليس الى أكبر ناقم على هذه الفرق الزرقاء • وكان من شأن ذلك أن ارتفعت أسهم الكتائب الخضراء التى كانت تضم الشباب الجـامعى المثقف المؤمن ، والذى يؤمن بسيادة القانون والنظام وتقديس حقوق الفرد والانسان • والآن وقد أعلن عن سفر هـذه الكتيبة الخضراء الى الصعيد ، فقد وجد فيها رئيس الحكومة وكل رجال حكومته خطرا على كيان حزب الأغلبية نفسه ، وقرروا أن يتصدوا لمقاومتها •

وأوفد رئيس الحكومة مندوبا من البوليس يبلغ جمـاعة البعث انه غير مصرح لهم أن يسافروا بالاقمصة الخضراء ، وانه لامانع من ان يسافروا بملابسهم العادية ، اما الخضراء فذلك محظور عليهم • وأنكرت الجماعة على رئيس الحكومة أن يطلب منهم هذا الطلب الغريب الذى لايستند الى أى قانون ، فقد كان للحكومة كتائبها الزرقاء ، وقام

رئيس الحكومة باعتباره رئيس حزب الأغلبية باستعراضهم وأبدى ثناءه على نظامهم ، فبأى حق يبيح رئيس الحكومة لحزبه ، ما يأباه على الاحزاب الاخرى ؟ ولذلك فقد ردوا على الحكومة منكرين حقها في هذا الطلب ·

واستدعى فوزى لمقابلة وكيل وزارة الداخلية الذى لما لم يجد سبيلا لاقناع فوزى بالعدول عن لبس الاقمصة الخضراء ، مال عليه محذرا بصفة أخوية ان لايزج بنفسه فى هذه المغامرة المجهولة العواقب. وأضاف وكيل الداخلية ناصحا : لاتجعل من نفسك فريسة سهلة فى يد الجماهير المتعصبة فى الصعيد التى يمكن اثارتها ضدكم · ما أسهل أن تصبح صيدا ثمينا لرصاصة من هنا وهناك توصف بأنها طائشة · ان فى الصعيد من المجرمين العتاة ما يمكن ان يؤجروا على قتلكم · وارتجف جسد فوزى لهذا التحذير الذى صور له لأول مرة بعض المخاطر المحققة التى يمكن ان يتعرض لها بالفعل فى هذه الرحلة · ونظر الى وكيل الوزارة دون ان يعرف اذا كان يقول بهذا التحذير كما يزعم بصورة اخوية ، ام هو يقوم به كجزء من مناورة لارهابه· وأيا ما يكون الأمر فقد نجح وكيل وزارة الداخلية فى ادخال الخوف الى نفسه ،وزعزعة ثقته بامكان القيام بهذه الرحلة وسط هذا الجو العدائى الذى تنذره به حكومة الأغلبية ·

وعرض فوزى الموضوع على اخوانه العشرة المسافرين معه وبقية الاخوان المرابطين فى القاهرة · ووجم الجميع بالرغم من ان كل شىء كان قد اعد للرحلة ، واستولت على الجميع الوساوس والهواجس · وانقسم الرأى فثمة فريق يقول بوجوب المضى فى الرحلة أيا كانت العواقب ، فليس يليق بالجماعة ان تتقهقر عن أمر قررت أن تمضى فيه · ورأى آخر يقول ان الظروف قد تغيرت ، فلم يدر فى الحساب ان تتحول الحكومة الى قوة متآمرة · وعلى كل حال فمادامت الحكومة ستضيق الخناق على البعثة المسافرة فان البرنامج الموضوع لها لايمكن تحقيقه ·

وامتدت المناقشة واستطالت ، واستقر الرأى أخيرا على تفويض فوزى فى اصدار القرار النهائى باعتباره سيكون الهدف الأول من كل مؤامرة تحاك لهم • وترك الأمر لفوزى ان شاء مضى واخوانه العشرة فى الرحلة ، وان شاء ارجأها الى أجل قريب •

٣

عاد فوزى فى الليل المتأخر الى بيته وهو مبلبل الخاطر لايعرف كيف يستقر على رأى ، فقد كانت الافكار المتضاربة تتنازعه الى هذا الجانب أو ذاك بغير مرجح • وفوجىء عندما دخل الى بيتهم بشريفة هانم وابنتها وفاء وهما ساهرتان عندهما • ولم يكد بصره يقع على وفاء حتى ومض فى رأسه خاطر غريب ، وهو ان يجعل منها حكما فى هذه القضية وينزل عند حكمها • وكانت هذه أول مرة يدع لانسان غيره أن يبت فى أمر يتعلق به شخصيا ، فكيف بأمر يتصل بمستقبل حركة البعث كلها ؟ وصاح ضميره ينكر عليه هذا الخاطر ، ولكنه أسكت ضميره بأنه كان قد انتوى أن يجرى فى الموضوع استخارة ، فليكن تحكيمه لوفاء هو الاستخارة •

ولم يكن باستطاعة فوزى بطبيعة الحال أن يكشف عن حقيقة مقصده ، ولذلك فقد تظاهر انه يوجه الحديث للجميع بدون استثناء • فعرض عليهم المشكلة ، وأبرز المخاطر التى جسمها له وكيل وزارة الداخلية ، ثم سألهم الرأي اذا كان يمضى فى رحلته أو يؤجلها الى ظروف احسن • وفزع السامعون مما قص عليهم ، وقالت له درية هانم زوجة أبيه :

ـ اننا لم نعتد يافوزى كما تعلم أن نتدخل فى شئونك ، ونحن لاشأن لنا بالسياسة ولانعرف من أمرها شيئا ، فأما وقد سألتنا ، فاننى أنصحك باعتبارى أمك ، ان لاتسافر وتعرض نفسك لهذه المخاطر •

وتلفت فوزى صوب شريفة هانم ملتمسا رأيها ، فوجدها مطرقة

برأسها وقد بدا عليها لأول مرة خلف هدوئها الظاهرى انفعـــال لم يخطئه فوزى فقد كانت شفتها ترتجف • وعندما رفعت رأسها كان وجهها يشرق بابتسامتها الساحرة وقالت له فى هدوء :

ــ صدقت اختى درية يافوزى فى اننا لانعرف شيئا فى هـــذه المسائل ، فأما وقد استشرتنا فلم يبق الا أن نرجوك أن لا تســـافر معرضا نفسك لخطر محقق • لطالما سمعتهم يقولون ان فى الصـــعيد بعض المجرمين الذين يشبهون ان يكونوا وحوشا ، وليس هنـــاك مايمنع بالفعل من الايعاز لبعض هؤلاء المجرمين بالاعتداء عليـكم فى بعض الليالى أو حتى فى وضح النهار • ولم يبق لدى فوزى شـــك فيما سيكون عليه رأى وفاء فهى لايمكن ان يكون رأيها مخالفا لرأى والدتها وخالتها • ومع ذلك فقد كان لامناص له من أن يسمع الرأى من فمها هى ، مادام قد جعل منها استخارته • فسألها وقد خفق قلبه من فرط الانفعال :

ــ وما رأى الآنسة وفاء ؟

ولم تحر وفاء جوابا وبدا عليها الاضطراب • ورأى فوزى نفسه مضطرا الى أن يعيد السؤال وقد طال الصمت • فنظرت اليه وفاء فى حياء وخجل وارتباك وقالت له :

ــ أتكلمنى أنا ؟

ــ طبعا أكلمك •

ــ لارأى لى بعد ان تكلمت والدتى وخالتى •

وأصر فوزى أن يسمع رأيها ، فوقفت وفاء محتجة على الألحاح عليها فى أمر لا شأن لها فيـــه • فقال فوزى : ومع ذلك أريد أن أعرف رأيك فيه •

وسكتت وفاء ولم ترد ، وبدا عليها واضحا أنها تعتزم الانسحاب من الجلسة التى بدأت تضايقها • ولكن أمها طلبت منها أن تقـــول رأيها بمثل ماقالوا من وجوب العدول عن الرحـــلة ، ومع ذلك ظلت وفاء مترددة ، كما لو كانت تحس بغريزتهـــا ، أن فوزى يعلق على

رأيها اهتماما غير عادى . وأهابت أمها بها من جـــديد تستحثها على الكلام ، فقالت وفاء فى هدوء وتثاقل :

ـ لقد اخترت طريقك فى الحياة ، وأنت وحدك الذى تعرف اين يوجد واجبك . ويجب أن تتصرف بما يمليه عليك هذا الواجب .

وصعق فوزى لهذا الرد غير المتوقع والذى جعله يحس بالخجل . وفاء التى لاتزال صورتها ، وهى ذات جدائل تتحدث عن طفولتها ، منقوشة فى ذهنه ، تقول له هذه الكلمة الضخمة ، فترد سؤاله عليه وتتنصل من المسئولية ، وتذكره بواجبه ، هذا الواجب الذى يصيح به أن يسافر . ما أبسط الطريقة التى حلت بها الاشكال . ومع ذلك فلم يشأ فوزى ان يعتبر ذلك حلا نهائيا للموضوع الا بعد ان يزيد الأمر وضوحا ويجلى مافيه من غموض فقال لها :

ـ واجبى يحتم على أن أسافر حيث تنتظرنا المتاعب والمشقات فى أماكن نائية لانعرف فيها احدا بحيث نصبح فريسة سهلة للمؤامرات التى تحاك لنا . وقد لايعود احد منا من هـــذه الرحلة ، أو لا أعود أنا على الأقل .

وقالت وفاء فى بساطة دون ان يظهر عليها انفعال :

ـ لست افهم شيئا عن هذه المخاطر التى تتعرض لها ، ولكننى سمعتك تكرر كلمـــا تحـــدثت معنا قول الله « قل لن يصـــيبنا الا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . وصعق فوزى من جديد تحت وطأة هذه الاجابة ، ولم يلبث ان سرى دم الخجل فى وجهه ، بينما كانت شريفة هانم تندد بابنتها قائلة :

ـ ماهذا ياستنا الشيخة وفاء ؟ ألم يقل ربنا « ولاتلقوا بأيديكم الى التهلكة » ؟ وظهر الغضب على وجه وفاء وتحركت صـــوب باب الخروج وهى تقول فى احتجاج :

ـ لقد رفضت منذ البداية ان اتدخل فيما لايعنينى ولا أفهم منه شيئا ، فأبيتم الا ان أتكلم ، ليتنى ماتكلمت .

واسرعت تعدو خارج الحجرة ومن الشقة كلها ، مخلفة فوزى

وهو أسعد مخلوق فى هذه الدنيا ، اذ عاودته الثقة بالنفس والايمان بالله ، كأقوى ما احس به فى يوم من الأيام · وشعر بنفسه عمـــلاقا جبارا يستهين بكل صنوف المخاطر والمحن · وتداعى الى رأس فوزى ما كان يطالعه من روايات الفرسان فى العصور الوسطى ، وكيف كانت العذارى يهبن منديلهن لواحد من الفرسان فيجعـــل منه لواء وراية يقتتل تحتها ودفاعا عنها ، حتى ينتصر أو يموت · ولقد رأى فوزى فى الدرس آلذى القته عليه وفاء ، المنديل والراية التى سيقاتل فى ظلها · لطالما ردد هذه الآيات التى ذكرته بها · لم يلق خطـــابا أو محاضرة ، أو يكتب مقالا أو يتحدث بحديث ، الا وكرر هذه الآية ومع ذلك فقد كان هذه المرة يحس بأنه يسمعها للمرة الأولى ، « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ·

٤

استدار صاحب المقـــام الرفيع رئيس حزب الأغلبية ورئيس الحكومة ووزير الداخلية فى كرسيه المتحرك خلف مكتبـــه الفخم المذهب فى رئاسة مجلس الوزراء ، ونفخ أوداجه فى شعور بالاهمية والرضاء عن نفسه، وقال لسكرتيره الخاص ناظرا اليه نظرته المعروفة:

ــ لا أريد أن اقابل احدا الآن ، لاتدخل على احد ·

وقال السكرتير الخاص الذى كان فى نفس الوقت احـد اقرباء الرئيس :

ــ أمرك يارفعة الباشا ·

وضحك رئيس الحكومة عقب سماعه عبارة رفعة الباشـــا وهو يسمعها لأول مرة بهذا الايجاز وقال لسكرتيره :

ــ لم تتعود اذنى بعد على حكاية رفعة الباشا هذه ، هل انتهيتم الى ان هذه الصيغة هى احسن اختصار لصاحب المقام الرفيع ؟ ·

ــ الأمر أمركم ياصاحب المقام الرفيع ·

وانفجرت أسارير الباشا عن ابتسامة عريضة وقال :

ـ بيدكم الحق حكاية صاحب المقام الرفيع طويلة لاتصلح فى لغة الخطاب العادى ، لابأس بحكاية رفعة ، وهو كذلك رفعة ، رفعة ٠

ـ كما ترون يارفعة الباشا ٠

وقطب رفعة الباشا وجهه فجأة وظهر الجد المفاجىء عليه ، وأمر سكرتيره ان يطلب من وكيل وزارة الداخلية ومدير الأمن العام ، أن يحضرا معهما كل الأوراق الخاصة باستجواب جماعة البعث ومشروع رد الداخلية عليه الذى سيتلى فى البرلمان هذه الليلة ٠ ورد السكرتير على الفور انه قد سبق فنفذ هذا الأمر والموظفان الكبيران فى طريقهما الى الرئاسة ٠

وفتح الباب الخارجى ودخل منه وسط ضجيج وفى حركة سريعة تغلب عليها اللهفة، معالى وزير المالية صاحب السعادة الأستاذ سيدهم سكرتير حزب الأغلبية بعد أن أصبح بدوره باشا ٠ ورحب رفعة الرئيس بزميله ومعاونه وصاحبه ، الذى جاء ليتداول مع رفعة الباشا فيما ينبغى أن يكون عليه رد الحكومة على هذا الاستجواب الوقح الذى تقدم به نائب فرشوط ، يندد فيه بتصرفات الحكومة وعدوانها على الحريات ومبادىء الدستور الأساسية ، باضطهادها لبعثة جماعة البعث فى الصعيد ٠ وقال رفعة الرئيس :

ـ أريد ياسيدهم أن تعد لنا ردا خشنا على هذا الاستجواب ، أنا رجل صريح وطول عمرى دوغرى ولا أعرف اللف ولا الدوران ، اننى مذ سمعت اسم هذا الولد فوزى لأول مرة وأنا أعتبره العبان ودسيسة على الشباب ٠ وهذه الحركة الطائشة التى قام بها أخيرا وما تثيره المعارضة حولها من ضجيج ، ليس الا جزءا من خطة مرسومة لاحباط المفاوضات الجارية والتى أوشكت أن تكلل بالنجاح ، انهم ياسيدهم يريدون اثارة فتنة فى البلد ، ليتوصلوا من ذلك الى الحيلولة دون ابرام معاهدة الصداقة والتحالف بيننا وبين الانجليز٠ وتدخل سيدهم قائلا :

ـ طبعا طبعا هذه مسألة واضحة كالشمس ٠

واستأنف رفعة الرئيس كلامه :

– ولذلك يجب ان ننتهز فرصة هذا الاستجواب ونظهر بمظهر القوة واستعدادنا للبطش بكل من تحدثه نفسه أن يحول بين الأمــة وتحقيق أمانيها · يجب أن نضع حداً للمؤامرات والدسائس ، وان نضرب بشدة ياسيدهم ·

– طبعا طبعا يارفعة الباشا ·

وضحك رفعة الباشا لسماعه من جديد ، رفعة الباشا ، وقال لصاحبه :

– انت أيضا ياسيدهم اختصرت اللقب الجديد الى كلمة رفعة ، أليس هناك تعبير أجمل ؟ ألست معى فى أن اللقب القديم « صاحب الدولة » كان أفخم ؟

– ذلك لأن الاذن قد اعتادت سماع اللقب القديم ، والجديد دائما له دهشة · لاتتصور رفعتك ، كيف كان وقع هذا الانعام الجديد على رؤساء الوزارات السابقين جميعا وأقطاب المعارضة ، بعد أن لم يعد فى مصر كلها من يحمل قلادة فؤاد الأول الآن غير رفعتك · لقــد أمضوا ليلة كاملة فى كلوب محمد على ، وهم يعيدون ويزيدون بشأن هذا اللقب الجديد ويندون بمجلس الوصاية لمنحه هـــذه القلادة والرتبة لرفعتكم ·

واختفت الابتسامة الرضية التى كانت مرتسمة على وجهه بمجرد الاشارة الى مجلس الوصاية واسرع يقول :

– مجلس الوصاية لاسلطة له ، السلطة كلها سلطتنا ســلطة الأمة · اننا حزب الأغلبية مجلس الوصاية لايمكن الا أن ينفذ مانشير به عليه ، قل لهم ذلك ياسيدهم قل لهم « موتوا بغيظكم » اكتب مقالا اشرح فيه للأمة ان مجلس الوصاية لايعدو ان يكون مجرد صـــورة لاسلطة له السلطة سلطتنا سلطة الأمة · ولاتنس ان يكون عنـــوان المقال « موتوا بغيظكم »ورحب سيدهم بالفكرة اعظم ترحيب ، وهنــأ رفعة الباشا على هذا العنوان للمقال « موتوا بغيظكم » ·

وارتد الحديث بعد ذلك الى الاستجواب فقال سيدهم للباشا :

ـ من رأيى ياباشا ان لانأخذ هذا الاستجواب مأخذ الجد ، بل نحاول ان نسخر من هؤلاء الذين يشغلون مجلس النواب بهذا العبث الصبيانى ، ونقلل ما أمكن من شأن جماعة البعث ، ونتجاهل كل مايقال بخصوصها · ونظر رفعة الباشا الى سيدهم باشا متسائلا، اذا كان هذا هو مايراه · وعاد سيدهم باشا يؤكد لرفعة الباشا ، ان كل هجوم على هؤلاء الشبان التافهين من شأنه أن يضاعف فى أهميتهم ويتيح فرصة للدعاية حول مشروعاتهم ، ويملأ أنفسهم بالغرور والوقاحة أكثر وأكثر · وأمن رفعة الرئيس على قول سيدهم باشا وان ما قال به هو نعم الرأى ·

ودخل السكرتير ليعلن مقدم وكيل وزارة الداخلية ومدير الأمن العام ، وبادر رفعة الرئيس الرجلين بمجرد وقوع عينيه عليهما ان من رأى سيدهم باشا ، أن يكون سبيل الرد على الاستجواب هو التهوين من شأن جماعة البعث ، وأن يقتصر الرد على بضع كلمات · فرد مدير الأمن العام بأن هذا هو عين ما اتفق عليه مع سعادة الوكيل · وراح يتلو على رفعة الرئيس مشروع الرد الذى أعداه :

« لاصحة لما تضمنه الاستجواب من أن اعتداء وقع على مايسمى جماعة البعث فى الصعيد فهم أحرار فى تنقلاتهم فى حدود القانون · وما البوليس الذى يرافقهم فى بعض الأحيان الا بقصد حمايتهم من غضب الأهالى ، الذين يتصلون بالسلطات المحلية محتجين على سماحها لهذه الشرذمة الطائشة من الشباب أن تتطفل عليهم · وتؤكد وزارة الداخلية أنه لولا حماية البوليس لهذا النفر لوقع مالا تحمد عقباه · وهكذا ستظل حكومة الشعب كالعهد بها حامية للحريات ، حريصة على تمتع سائر المواطنين بحقوقهم الدستورية ، حتى ولو كانوا من خصومها ، حتى لو كانوا مجرد حفنة من الشباب الطائش العابث · ولا يسع الحكومة وهى فى موطن الرد على هذا الاستجواب ، الا أن

تسجل أسفها لشغل نواب الأمة بهذه الصغائر فى الوقت الذى يتقرر فيه مصير البلاد » ·

وأسرع رفعة الرئيس وسيدهم باشا فأعلنا رضاءهما عن هـــذا الرد الذى كان من ايحاء سيدهم باشا لمدير الأمن العام فى الواقع · وأثنى رفعة الرئيس على فكرة تفسير الحصار المضروب على الجماعة حتى لايتصلوا بأحد ، انه بقصد حمايتهم ، وتبادل مدير الأمن العام النظرات مع سيدهم باشا وأوشك ان يقول شيئا لولا أن رن جرس التلفون · وعندما رفع مدير الأمن العام ســـماعة التلفون ، علم من السكرتير الخاص لرفعة الرئيس ان المتكلم هو مدير مديرية قنا وقد طلب توصيله بمدير الأمن العام · وسمح رفعة الرئيس لمدير الأمن ان يتـــكلم من مكتبـــه · وسرعان ماســـمعوا من مـــدير الأمن مايفهم منه ان جماعة البعث قد دخلوا مدينة قنا ، ونزلوا فى ضيافة أحد الاشراف بمساعدة شاب من شباب الجماعة فى قنا يدعى جريو ·

ولم يكد سيدهم باشا يسمع هذه الأنبـــاء حتى أسرع فانتزع سماعة التلفون من يد مدير الأمن وقام بمخاطبة مدير قنا :

ــ الو ··· ؟ انا سيدهم · ماذا تقول ؟

ــ يا افندم حكمدار قنا الششنجى بك رأى حقنا للدماء ، أن يسمح للبعثة ان تنزل فى ضيافة السيد صقر احد زعماء الاشراف ، على ان يحاصر البيت بعد ذلك ولا يسمح لأحد بالدخول ، وذلك تفاديا من وقوع اصطدام بين الحميدات والأشراف ، وقد فعل الحكمدار ذلك دون الرجوع الىَّ باعتباره المسئول عن الأمن ·

واستشاط سيدهم باشا غضبا وانفجر فى وجه المدير قائلا :

ــ معنى ذلك ياحضرة المدير ، ان هؤلاء الاولاد يجتازون مديريتى أسوان وقنا كلها تقريبا ، فلا يستطيعون الدخول الى أصـــغر قرية أو عزبة ، فيسيرون فى الطريق العام يحاصرهم البوليس · والبلدة الوحيدة التى يدخلونها هى بلد سيدهم بالذات ! ان هـــذه الحركة مقصودة بها النكاية بى · ولكن هذا بعدكم ، ان هذه مؤامرة ، هذه

دسيسة يراد بها النيل من سيدهم · ولكنى سأعرف كيف أرد عليها·
وترك سماعة التلفون فى غضب فاخذها منه مدير الأمن العام الذى
طلب من مدير قنا أن يلازم مكتبه لايبارحه حتى يتصل به بعد قليل ·
وانضم مدير الأمن بعد ذلك الى المجهودات التى كانت تبذل للتهدئة
من غضب سيدهم باشا · وكان سيدهم باشا ما انفك يخبط كفا
على كف ، ويصخب ويلعن · ثم لم يلبث أن وجه حديثه لرفعة الرئيس
وقد استعاد شيئا من هدوئه الظاهرى :

ـ والله يارفعة الباشا سنظل نتلقى الدروس كل يوم ، ويأتينا
الدليل تلو الدليل انك ترى بنور الله وأن الحجاب مرفوع عنك ·
انظر كيف كنت منذ قليل تحدثنى عن الدسائس والمؤامرات ووجوب
الضرب عليها بشدة ، وأنا استغل قلبك الرحيم وروحك الطيبة
حتى لاتقسو على هؤلاء الشبان ·

وافتر ثغر الرئيس ابتهاجا ورضا وقال للموظفين الكبيرين :

ـ كنت أقول لسيدهم باشا قبل مقدمكما وهو لايوافقنى على رأيى،
اننا يجب ان نضرب بشدة · اننى طالما قلت ان قلب المؤمن دليله ،
وقلبى لا يخطئنى الولد فوزى ده ألعبان ·

ودارت مناقشة حول مايحسن اتباعه بالنسبة لحكمدار قنا ،
ورئى انه لو نقل فى هذه اللحظة لأثار نقله ضجة كبيرة · كما أن
نقله من شأنه ان يقربه الى القاهرة فيكون ذلك بمثابة مكافأة له ·
واقترح سيدهم أن يحال على المعاش فورا ، ولكن مدير الأمن العام
ووكيل وزارة الداخلية نجحا فى حمل رفعة الرئيس ومعالى الباشا
ان يسمحا لهما بالتحقيق فى الموضوع قبل ذلك ، حتى يكون التصرف
على أساس ·

وكان لابد ان يستأنف الحديث مرة اخرى حول موضوع
الاستجواب· فاعلن سيدهم باشا انه يرى الاخذ برأى الرئيس الأول،
وهو وجوب ان يكون الرد على الاستجواب شديدا وخشنا ، بحيث
يجهز نهائيا على هذه الجماعة ويضع حدا لألاعيبها ومناوراتها ·

وسرعان ما كشف مدير الأمن العام عن عبقرية فذة فى أداء المطلوب على وجه السرعة ، فقد أخرج من محفظته الجلدية ورقة مكتوبة بالآلة الكاتبة من حجم (الفولسكاب) وعرض على رفعة الرئيس الاستفادة مما أسماه تقريرا ٠ وخطف سيدهم باشا التقرير من مدير الأمن العام فى لهفة ثم تساءل بعد ذلك عن موضوعه ٠ فأجاب مدير الأمن العام بأنه تقرير تقدم به أحد المرشدين المندسين فى صفوف الجماعة لرئيس القسم المخصوص بالداخلية ٠ ونظر سيدهم باشا الى التقرير المكتوب على الآلة الكاتبة ، فلم يجد عليه أى توقيع ٠ ولكن مدير الأمن العام أفهمه ان أمثال هذه التقارير لاتوقع عادة اكتفاء بأن المرشد يكتب التقرير الأصلى بخطه الذى يعرف منه ومن النمرة المحددة له٠ ثم يكتب التقرير بعد ذلك على الآلة الكاتبة لتوزع منه بعض نسخ على السراى ودار المندوب السامى ٠ ولاحظ سيدهم عبارة فى التقرير مؤشرا عليها بالأحمر فراح يطالعها بصوت مرتفع :

« اليوم اثناء تجوالى المعتاد للحصول على مشتركين جدد لمجلة البعث وتحصيل بعض الاشتراكات وجدت نفسى فجأة بالقرب من ادارة جريدة (دوريانتى) الايطالية فخطر لى أن أقابل مديرها ، لعلى احصل منه على بعض المعلومات عن السياسة الايطالية ٠ ولم يكد مدير جريدة (دوريانتى) يتسلم بطاقتى ويعلم اننى سكرتير تحرير مجلة البعث حتى قابلنى على الفور بترحاب عظيم وراح يثنى على حركة البعث ومحاربتها للانجليز ، وأنه يتابع اخبارها بكل اهتمام ويترجمها الى الايطالية وينشرها فى جريدته ، حيث تنقلها عنها شركة الأنباء الايطالية وتوزعها فى انحاء العالمين ٠ فعرضت عليه ان يرسل لنا جريدته يوميا فى مقابل تبادلنا معه مجلتنا ، فرحب بالفكرة وأصدر أوامره على الفور بتنفيذها ٠ وعند خروجى طلب منى أن أحمل سلامه لشباب البعث ٠

وعندما عدت لدار الجماعة وعرضت ماتم على الأستاذ فوزى ، لم يعترض على شىء مما فعلت » ٠

وتساءل سيدهم باشا عن التقارير التالية لهذا التقرير وعما حدث بعد ذلك ؟ فاعلن مدير الأمن العام أسفه لأن هذا هو التقرير الوحيد الذى أشار فيه المرشد هذه الاشارة ، ولما طالبه رئيس القسم المخصوص بمزيد من المعلومات عن هذه الناحية ، أجاب بأنه لم يعثر على شىء آخر فى هذه الناحية ، بل لقد طلب منه الأستاذ فوزى أن يكف عن التردد على مدير جريدة (دوريانتى) ٠ وهنا انفجر رفعة الرئيس فى وجه مدير الأمن العام وصاح غاضبا :

ـ اذن ماقيمة هذا الكلام الفارغ وأى شىء فيه ، ولماذا صدعت رؤوسنا بما جاء فيه ؟ ان هذا التقرير قاطع ببراءة الجماعة فمن الواضح ان المرشد هو الذى قام بهذا الاتصال من تلقاء نفسه ، وليس فى الاتصال فى نهاية الأمر بجريدة تصدر فى وضح النهار مايعيب ، وانطلق الأستاذ سيدهم فى احدى نوباته من الضحك العصبى السريع الساخر وقال :

ـ والله العظيم يا باشا انت لابد أن تكون من أولياء الله الصالحين. الا تستطيع ولو للحظة واحدة ان تتجرد من شعور القاضى وعدالته ونزاهته ؟ نحن يارفعة الباشا لسنا الآن فى محكمة ولسنا بصدد محاكمة متهمين لاتصح ادانتهم الا بدليل قاطع ٠ أنا مع رفعتك فى أن هذا التقرير لايصلح لشىء ، ولايدل على شىء لو كنا فى محكمة ٠ ولكنا هنا يارفعة الباشا فى مجال العمل السياسى ، الذى نهدف من ورائه الى مصلحة البلاد العليا ٠ وفى سبيل المصلحة العليا يجب ان يضحى بكل الاعتبارات الاخرى ٠ ومصلحة البلاد تتطلب منا فى الوقت الحاضر الضرب على يد العابثين بشدة ٠ ان المعارضة كما قلتم رفعتكم تتكتل وتبذل المستحيل للحيلولة دون ابرام المعاهدة ، فيجب ان نضرب ضربة تنخلع منها القلوب ، ليكن ردنا على الاستجواب هذه الليلة بمثابة انذار للجميع ، واستعدادنا للبطش بكل من تحدثه نفسه ان يرفع رأسه ضدنا ٠

ودخل السكرتير يذكر رفعة الرئيس بموعد السكرتير الشرقى

لدار المندوب السامى ، وأن الدار قد اتصلت به وأعلمته ان المستر سمارت فى الطريق • وكان هذا كافيا لوضع حد لكل حديث حول موضوع الاستجواب ، وأسرع رفعة الرئيس يقول لسيدهم باشا :

تصرف كما ترى فى كيفية الرد على الاستجواب ، اذ يجب ان استعد لمقابلة المستر سمارت • لابد أنه جاء يحمل الى الايضاحات التى طلبناها بخصوص مسألة الثكنات التى سنتولى بناءها لهم ، وبذلك يكون كل شيء أصبح معدا للسفر الى لندن وتوقيع المعاهدة •

ولم يكن لهذا الحديث عن قرب السفر الى لندن لتوقيع المعاهدة، كبير أثر فى هذه اللحظات لتخفيف ما كان يعتلج فى نفس سيدهم باشا من انفعال • وخرج يهرول يتبعه وكيل وزارة الداخلية ومدير الأمن العام ، وكل الذى يشغله ، هو كيف يرد على هذه المؤامرة الدنيئة التى استهدفت المساس بكرامته ، وهى تمكن جماعة البعث من الدخول الى مدينة قنا من دون بلاد الصعيد قاطبة •

٥

فض رفعة الرئيس مساء ذلك اليوم على ملأ من النواب الذين احتشدوا لسماع رد الحكومة على أول استجواب يقدم لها فى مجلس النواب ، مظروفا ضخما قدمه له مدير الأمن العام فى حركة مسرحية بعد أن أخرجه من حقيبته الجلدية • واخرج رفعة الرئيس من المظروف الرد الذى كتب له • ثم راح يهز رأسه وينظر للأعضاء وعلى شفتيه ابتسامته الشهيرة انذارا للمعلومات الخطيرة التى يوشك ان يدلى بها • وتعلقت أعين النواب بالأوراق الموجودة بين يديه وأرهفت الاسماع • وشرع الرئيس أخيرا يتلو فى صوته الرفيع الحاد الرنان: « ثبت لوزارة الداخلية ان جماعة البعث تعمل لحساب دولة أجنبية ».

ولم يكد رفعة رئيس الحكومة ووزير الداخلية وزعيم حزب الاغلبية يقذف بهذه العبارة حتى توقف قليلا ليعطى الفرصة للنواب أن يستوعبوا خطورة هذا الذى قاله لهم • ووجم النواب بالفعل ، وجم

الانصار قبل الخصوم ، فقد كان رئيس الحكومة يقول قولا كبيرا ويدمغ نفرا من شباب الأمة بالخيانة • وحبس النواب أنفاسهم فى انتظار سماع تفصيل هذا الذى أجمل فى هذه العبارة القصيرة الخطيرة •

ومضى رفعة الرئيس فى تلاوة بقية الرد الذى أعد له • ولكنه كلما مضى فى التلاوة ، كلما بدأ الشك يساور الجميع فى صحة هذا الاتهام • لقد بدأ الرد يتهافت ويناقض بعضه بعضا • فقد كان الاجراء الذى رتبه رئيس الحكومة على هذه الواقعة الخطيرة انه قرر « منع هذه الجماعة عن مزاولة نشاطها فى القرى دون المدن ، وأن البوليس بذل النصح لرئيس الجماعة ان لايرتدى القميص الاخضر فى تجواله ، ولكنه أبى أن ينتصح » • ومضى رئيس الحكومة يقول فى رده ، « أن شيئا من الاضطهاد المزعوم لم يقع على الجماعة ، وأن جميع الاجراءات التى قام بها البوليس انما أريد بها حماية الجماعة» • وأنهى رفعة الرئيس بيانه ، وتلفت حوله بوجهه المشرق والمترع بالسرور والرضا فى انتظار سماع ما اعتاد عليه من تصفيق مدو وهتاف متواصل ، ولكن شيئا من ذلك لم يقع لأول مرة فى تاريخ حياته • وسرعان ماغاضت الابتسامة من وجهه ، وظن أن الاعضاء الذين كانوا واجمين ، يتصورون ان الرد لم ينته بعد ، ولذلك فقد أشار اليهم بيده مايدل على ان الجواب قد انتهى ، ثم رأى ان لايدع مجالا للشك فى انتهاء الجواب فقال لهم :

ــ خلاص •

وشرع يهبط من فوق المنبر فسمع تصفيقا خفيفا فعادت الابتسامة الى وجهه فقد كانت هذه طلائع التصفيق الذى سيتحول الى عاصفة ، ولكن مرة اخرى خاب أمل الرئيس فقد هدأ التصفيق وساد المجلس الوجوم من جديد • وكان الرئيس قد أدرك مقاعد الوزراء فسأل سيدهم باشا :

ــ ايه الحكاية ياسيدهم ؟ النواب مالهم ؟

ونظر سيدهم حوله فى قلق وانزعاج وقال :

ـ لست ادرى يارفعة الباشا ، يظهر اننا اخطأنا التكتيك ٠

ولم يلبث رد الفعل ان ظهر فى المجلس ، فعلى الرغم من ان نائب فرشوط مقدم الاستجواب كان غائبا بسبب المرض فقد تبنى الاستجواب أحد نواب المعارضة ٠ وكان قطب المعارضة الوطنى ، والصحفى المشهور هو أول من علق على رد رئيس الحكومة ، فبين كيف ان التهمة التى وجهها رئيس الحكومة لهذا النفر من الشباب تهمة خطيرة لايمكن للمجلس ان يقتنع بما قيل له فيها بغير دليل ٠ واذا كان رئيس الحكومة يرى ان لايعرض مالديه من أدلة ومستندات فى جلسة علنية ، فليس هناك مايحول دون عقد الجلسة سرية لتعرض الحكومة فيها مالديها من مستندات ٠

ووثب رئيس الحكومة ليقول فى غضب ، ان الحكومة قد قالت كل ماتسمح لها به الظروف للادلاء به ، وهى ليست على استعداد للادلاء بمزيد من التفصيلات حرصا على سلامة البلد ، لافى جلسة علنية أو سرية ٠ وعلى نواب الأمة أن يثقوا برئيس الحكومة وتقديره لهذه الأمور ٠

وصفق هذه المرة فريق كبير من نواب حزب الأغلبية فى محاولة لتدارك الموقف الذى ظهر بجلاء انه يندفع نحو التدهور ٠ واعتلى المنبر نائب أبدى دهشته من أن تسمح الحكومة لفريق ثبت لديها أنه يعمل لحساب دولة أجنبية ، أن يجوس خلال القرى دون المدن ، وتساءل ، أمعنى ذلك ان أهل القرى أكثر حصانة من التأثر بدعاية هذا النفر من أهل المدن ؟ ثم راح يبدى دهشته من العلاقة بين ان يكون هذا النفر يعمل لحساب دولة أجنبية وبين أن يطلب منه أن يخلع أقمصته الخضراء ثم يتجول بعد ذلك كما يريد ! هل خطر التأثير الاجنبى كامن فى لون القميص فقط ؟

وتوالى نواب المعارضة وبعض المستقلين على المنبر وهم جميعا يضيقون الخناق على الحكومة ، كيف وقد ثبت لديها كما تدعى أن

هذا النفر يعمل لحساب دولة أجنبية لم تقدمهم للمحاكمة لكى يلقوا جزاءهم • واضطر رئيس الحكومة أن يقف ثانية وثالثة ليؤكد فى غضب أنه يجب على النواب ان يثقوا به • ووقف نائب حكومى يذكر المجلس بماضى رئيس الحكومة الحافل فى القضاء وما اشتهر به من عدالة ونزاهة ، وانه لايمكن ان يكون قد قال ماقال ، الا وهو متأكد من هذا الذى قال • وأعلن ثقته المطلقة بالرئيس • وتقدم اقتراح من عدد كبير من النواب بقفل باب المناقشة والانتقال الى جدول الاعمـــال • وهمّ رفعة الرئيس ان يعترض على ذلك وان يتمسك بوجوب الحصول على ثقة المجلس ، ولكن الاستاذ سيدهم ، أقنع الرئيس انه من الخير الاكتفاء بقرار الانتقال الى جدول الاعمال لوضع حد للمناقشة والتوتر الذى ساد المجلس •

وسرت أخبار ما حدث فى مجلس النواب فى البلاد مسرى النار فى الهشيم ، ونشرت الصحف العربية والافرنجية تفصيلا دقيقا لكل ما دار فى مجلس النواب من مناقشات • وأحس الكثيرون بموقف الحكومة المهزوز • وأجمع الكل على ان رد الحكومة بهذا الأسلوب كان غلطة سياسية • وهز أنصار الحكومة اكتافهم فى حيرة ، فما دام قد ثبت للحكومة خيانة هذا النفر ، فلماذا لم تقدمهم للمحاكمة ، وكيف ما زالت تسمح لهم بمزاولة نشاطهم ؟

٦

وأبرق قادة الجماعة فى القاهرة وعـلى رأسهم محيى الى النيابة العمومية يعلنـون فى تحـد ، استعدادهم للتحقيق معهم • وكانت الصحف تنشر ذلك كله وتعكس مظاهر عطف الرأى العام على جماعة البعث فى شتى مظاهره •

وكان فوزى وصحبه فى قنا أول من أحسوا بموجة العطف التى غمرهم بها الرأى العام • فالبيت الذى كانوا يقيمون فيه ، والذى كان البوليس يحاصره ليحول دون دخول احد اليهم ، امتلأ بالزوار الذين

جاءوا يستنكرون هذا الاتهام ، وتهاون البوليس فسمح لهم بالدخول.
ورجال البوليس الذين اعتادوا ان يكشروا عن انيابهم ، افترت ثغورهم فجأة عن بسمة يشوبها الشك فى صحة الاتهام الذى وجه الى هذه الجماعة والسخرية مما قيل ، فقد كانت صحبتهم الطويلة لشباب البعث وهم يسيرون فى اليوم الواحد عشرات الكيلو مترات تحت وهج الشمس ولفح الرياح الساخنة ، وقد دميت اقدامهم وتورمت ، وهم يأبون الا المضى فى السير ، قد اقنعتهم ان مثل هؤلاء الشبان لايمكن الا ان يكونوا حملة رسالة ، ودعاة ايمان مبرأ من كل شائبة ، والا لما وجدوا فى انفسهم القدرة على احتمال هذا الذى يحتملون ، والذى كان مثار دهشة رجال البوليس واكبارهم ٠

وأحس فوزى واخوانه بعد أن رأوا من مظاهر العطف مارأوا ان باستطاعتهم تجاهل ما حدث ، وان يمضوا فى اكمال برنامجهم ٠ فاستأنفوا بالفعل مسيرهم من مدينة قنا غداة تصريح رئيس الحكومة، ووصلوا فى موكبهم المعتاد حيث يحيط بهم البوليس الراكب فى سياراته وهم يسيرون على الاقدام ، حتى وصلوا مدينة نجع حمادى متمين بذلك اجتياز مديريتى قنا واسوان سيرا على الاقدام ٠ ولكن الأخبار وافتهم فى نجع حمادى بتطور الحوادث فى مصر تطورا عنيفا ، ووجد فوزى ان لامناص له من قطع الرحلة والعودة الى القاهرة بالقطار ٠

كان اخوانه فى القاهرة قد عقدوا اجتماعا عاما فى احد المسارح ، وعلى الرغم من ان الحكومة صرحت بالاجتماع واحتشد البوليس فى مكان الاجتماع للمحافظة على النظام ، فقد هاجم ذوو الاقمصة الزرقاء مكان الاجتماع تحت سمع البوليس وبصره. ولولا استبسال بعض المجاهدين من ذوى الاقمصة الخضراء لجرت فى الجمهور الذى احتشد مجزرة ٠ وعندما وجد البوليس ان الدائرة توشك ان تدور على ذوى الاقمصة الزرقاء اضطر أن يتدخل لاعادة الامن والنظام بعد أن سقط الجرحى من الجانبين ٠

كان الحادث بمثابة وقود جديد ألهب مشاعر الرأى العام، وزاد فى موجة السخط التى بدأت ترتفع ، لقد كان من حق الحكومة وقددمغت جماعة البحث بما دمغتهم به ، من انهم يعملون لحساب دولة أجنبية ، أن لاتصرح لهم بعقد الاجتماع وما كان أحد يلومها، اما ان تصرح بالاجتماع ثم تسمح لذوى الاقمصة الزرقاء تحت سـمع البوليس وبصره ، ان يهاجموا الاجتماع ويعتدوا على المجتمعين ، فقد كان ذلك مظهرا من مظاهر الفوضى التى توشك البلاد أن تتردى فيها ٠

وعاد فوزى الى القاهرة ، وأبرق الى النائب العام طالبا منه أن يحقق معه فيما وجهه اليه رئيس الحكومة مع اخوانه من تهمة ، فاذا لم يفعل لم يبق أمام النائب العام مناص من أن يحقق مع رئيس الحكومة بتهمة السب والقذف ٠ ونشرت الصحف برقية فوزى ولم يحرك النـائب العام ساكنا ٠ وسأل مندوبو الصحف النائب العام لماذا لم يحقق فى برقية فوزى اليه ، فقال لهم بطريقة غير رسمية ، انه لايستطيع أن يحقق مع فوزى لان الحكومة لم تتقدم ببلاغ لاتهامه ، وهو لايستطيع أن يحقق مع رئيس الحكومة لان الاقوال التى قالهـا قد أدلى بها فى مجلس النواب ، ومن المعروف ان النواب فى حصـانة تامة عن أن يسألوا عن شىء مما يقولونه تحت قبة البرلمان ٠ ونشرت الصحف هذه التفسيرات وهذه التلميحات ، بينما مضى فوزى فى تحـديه لرئيس الحكومة فرفع عليه دعوى مدنية يطالبه فيها بتعويض قدره عشرة آلاف جنيه ٠

وهكذا تحولت الضربة التى أريد بها الاجهاز على حركة البعث الى أعظم دعاية لها ، لفتت اليها أنظار من لم يلتفتوا من قبل٠ وهرع عديد من الشبان ينضمون الى الحركة ، وواصلت شركات الأنباء العالميـة نقل أنباء هذا النزاع بين رئيس الحـكومة المصرية وشباب البعث ٠ ونشرت البرقيات فى الصفحات الاولى من صحف العـالم وارتد أثر ذلك كله الى الصحافة المصرية ٠ وفى عشية وضحاها أصبحت حركة البعث على كل لسان وفى كل قلب ، وكان الاستاذ سيدهم باشـا

لايفتأ يقول لسائليه من أنصار الحزب عن سر هذه النكبة التى أصابت حزبهم فى اصطدامهم مع هذا النفر من الشباب :
ـ لقد أخطأنا التكتيك ، لقد أخطأنا التكتيك .

٧

لم تجد الحكومة مناصا فى نهاية الأمر لكى تغطى مركزها وتضع حدا للاصطدامات التى عمت البلاد بين ذوى الاقمصة الزرقاء والخضراء الا ان تصدر أمرها باغلاق دور الجماعة فى طول البلاد وعرضها . وبدأت بين الجانبين معركة جديدة ميدانها المحاكم فقد راح المحامون من أعضاء الجماعة يجوبون محاكم القطر منددين بهذا الاجراء التعسفى. وكاد فوزى يفقد حياته عندما ذهب الى بلدة دمنهور ليترافع فى أحد هذه القضايا ، فاذا بجموع أصحاب الاقمصة الزرقاء تحاصر دار المحكمة وتهيج الشعب ، أو بالاحرى الغوغاء ، ضد الخائن الذى حل ببلدهم . ووقف البوليس يشهد هذه المأساة أو هذه المهزلة دون أن يحرك ساكنا . وراح المحاصرون يطالبون برأس فوزى ، وظلوا فارضين الحصار على المحكمة ودار المديرية طوال ست ساعات .

ونجا فوزى باعجوبة من هذه المحنة . وسقط قتيل من ذوى الاقمصة الزرقاء فى دمنهور ، أثر صدام وقع بينهم وبين مجاهدى حركة البعث .

فجن جنون الحكومة واصدرت قرارها بغلق المركز العام للجماعة فى القاهرة نفسها . وصادرت مجلتها وأنزلت أقسى ضروب الاضطهاد على شبابها ففصلت بعض الموظفين لانتمائهم الى الجماعة ونقلت البعض الآخر الى أماكن سحيقة ، وفصلت خالد أمين من عضوية البعثة فى لندن لغير ذنب جناه .

ووصلت المحنة الى ذروتها وغشى الظلام الحركة ، فلا دار يجتمعون فيها ولا صحيفة يكتبون فيها ، وتوالت القضايا المرفوعة على اعضاء الجماعة ، وأصبح المستقبل قاتما مظلما لايسمح ببصيص من النور . وكان مايزيد الحكومة ضراوة انها كانت بصدد توقيع المعاهدة نهائيا

مع انجلترا ، وكانت تتخذ من ذلك ذريعة للامعان فى القمع والبطش ٠

على الرغم من هذا الجو كان أمر فوزى فى هذه الايام عجبا ، فقد كان يرى الدنيا من حوله تغص بالنور والاشراق ، ولم تستطع كل هذه الاحداث ان تنال من يقينه وايمانه ، وكانت وفاء التى يراها كل يوم تزوده بهذا الايمان ٠ لقد كانت كلماتها له « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » هى المشعل الذى يضىء له الظلمات من حوله ٠ كان بحسبه ان يعود من ملحمة دمنهور ويقص عليها فى حضرة جميع أفراد اسرتها ، تفاصيل هذا الذى وقع ، وكيف تخلى عنه البوليس كله الا ضابطا واحدا ملازما أول هو الذى وقف الى جواره ، فأحضر له وسط الجموع الصاخبة ، احدى سيارات البوليس ونزل فوزى وسط الجماهير المطالبة برأسه ، فلم يتصوروا ان هذا الانسان الذى يتجه نحو العربة وهو يبتسم فى هدوء هو فوزى الذى يريدون تمزيقه ٠ وعندما اكتشفوا الأمر قذفوا السيارة بكل مافى أيديهم من حجارة وعصى ٠ ويتحطم زجاج السيارة ولكنها تكون قد انطلقت فى جنون ، وتضطر الجموع أن تفسح لها الطريق ٠ ويصاب السائق فى رأسه ويصاب الضابط فى يده ولكن فوزى لايصاب بسوء ٠ وتلمع عينا وفاء وتسأله عن اسم هذا الضابط العظيم فيقول لها :

ـ صادق عبد اللطيف ٠

وتقول وفاء انها ستدعو لهذا الضابط فى صلاتها ، ان يحفظه الله ويرعاه ٠ وتؤمن شريفة هانم على قول ابنتها من جدارة هذا الضابط بالدعاء ان يحفظه الله ويرعاه ٠ ويقول سامح اخوها :

ـ ان من عجائب هذه الدنيا ، انه مامن محنة تصيب الانسان ، الا وتكشف فى ذات الوقت عن جوانب مشرقة فى الحياة ٠ ويهتز فوزى لهذا التعليق العميق ، ويحس بالنعمة التى أصبح يعيش فيها مذ جاءت هذه الأسرة الكريمة لتعيش الى جوارهم ٠

وكان ذلك كله يزيد فى تأجج عواطف فوزى نحو وفاء ، وكان يزيدها بالأكثر عدم استطاعته التنفيس عنها ٠ فلم يكن باستطاعته

ان يكلم احدا من اصحابه عنها • لقد راح الوقت الذى كان يقص فيه على محيى كل شىء • ولم يكن من اللائق ان يتحـــدث مع رياض فى الموضوع • على ان مشكلته الكبرى كانت تتلخص فى انكاره على نفسه أن يجعل من وفاء محلا لتأملاته ، فضلا عن ان تكون محلا لمحـــاولاته العاطفية • لقد كان يفزع أشد الفزع من فكرة العبث بما أودعته فيه شريفة هانم من ثقة • كان يجزع من أن يحول هـــذا الحنان والحب الاخوى والبنوى الذى ينعم به فى هذه الأسرة الى خضـــم العواطف الثائرة الاخرى • كيف يمكن أن يعكر على هذا الجمال النائم هدوءه واحلامه ، كيف يسمح لنفسه أن يشيع الاضطراب فى هـــذا النبع الرقراق الصافى •

على ان الحوادث أبت الا أن تطارده ، وان تدفعه دفعا لتحطيم هذه السدود والقيود التى يحاول مخادعا نفسه ان يحيط وفاء بها ، لتردعه عن المضى فى آماله واحلامه ، وذلك على خلاف طبيعته لأول مرة فى حياته •

جاءته شريفة هانم ذات يوم تسأله رأيه فى صديق له يعرفه كل المعرفة ، ويحبه الحب كله مذ كاد يفقد حياته من أجل مصر • فلمـــا سألها عن سبب سؤالها عنه ، أجابته بأن هناك حديثا يجرى حول تزويجه من وفاء ، وأحس فوزى بقلبه يكاد ينخلع من فرط التـــأثر والانفعال • ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفســـــه ، ولم يظهر على وجهه شىء مما يعتلج فى نفسه ، بل لقد ذهب الى أبعد من ذلك فانطلق يحدث شريفة هانم عن أنه لو قدر لوفاء ان تتزوج من صاحبه هـــذا فليكونن معنى ذلك رضاء السماء عنها ، فليس فى مصر كلها شاب يمكن ان يقارن به ، لامن حيث أسرته العريقة الغنية ، ولا من حيث وسامة هذا الصديق وشخصيته المهيبة واخلاقه الملائكية •

وعندما قابل فوزى صديقه وسأله عن هذا الذى قالته له شريفة هانم أكد النبأ فقد سمع آله يتحدثون فى هذا الموضوع ولايدرى عنه هو شيئا ، فقد ترك لهم حق اختيار الزوجة التى تصلح له • وراح فوزى يحدث صاحبه عن وفاء فاذا به يفاجأ بأن يتدفق على لسانه ،

أوصاف لوفاء لم يكن يتصور انه يعرفها · فوفاء فتاة فذة بين الفتيات لم يرها تستعمل المساحيق وأدوات الزينة فى يوم من الأيام ، وان كان يراها دائمة الصلاة والصوم تحفظ آيات من القرآن وتدرس فى مدرسة فرنسية ، وتعزف على البيانو وتجيد اشغال الابرة ، قليلة الكلام ، كثيرة الصمت ، مفرطة فى الحشمة تكره التبرج ، ولم يرها تلبس حليا وتقول انها لاتحبها · على أن أعظم ما يروع فى وفاء هو مايحسه الانسان من شفافية روحها كما تشع من عينيها ، وينطق بها وجهها النضير · وختم فوزى هذه الصورة عن وفاء لصاحبه بقوله:

ــ سوف تقدم لزوجها ليس فقط جسدا لم تمسسه يد لامس من قبله ، بل وقلبا لم يخفق بحب انسان الاه ، حتى ولا فى الخيال والاحلام ·

ونظر صاحبه اليه بدهشة وقال له :

ــ أى صورة رائعة تلك التى رسمتها لهذه الفتاة ، لقد صورتها لى كما لم تكن من هذه الدنيا ، وعلى أية حال فانت تعرف ان الزواج قسمة ونصيب ·

وصدق صاحب فوزى فيما قال فالزواج قسمة ونصيب ، فان هى الا بضع أسابيع بعد هذا الحديث حتى كان هذا الصديق يعلن خطبته، ثم يعقد قرانه بمن أعدها القدر منذ الازل لتكون زوجة له ·

وتنفس فوزى الصعداء لاجتيازه أول اختبار دقيق بين قلبه وواجبه ، فقد أحس فى لحظة بالرضا لو تزوج صاحبه فتاة احلامه ، ايمانا منه انه سيكون اقدر منه على اسعادها ، وهو أجدر بها منه · على أنشريفة هانم لم تلبث أنجاءته من جديد ،حاملة بطاقة أحد الاطباء من سكان مصر الجديدة، كخاطب جديد لوفاء ·ورجته ان يتحرى عنه بفضل ماله من صلات واسعة ومعارف · ولم يستطع فوزى أن يقول لشريفة هانم انها تكلفه مالا يطيق بهذه المهام لأنه هو نفسه واقع فى حب وفاء ويرغب فى الزواج منها ، فقد كان يخجله أن شريفة هانم تعرف من أمره كل شىء · تعرف أنه يعيش فى بيت والده ، وهو من

الناحية العملية لايتكسب مالا بطريقة منتظمة. وكانت قد بدأت تعرف نوع الحياة التى يحياها مما يقصه هو نفسه عليها، وكيف انها حياة أشبه بحياة رجل عصابات، لولا أنها لاتشين صاحبها لأنها فى سبيل الخير العام. ولكنه لم يكن يطمع فى ان تدرك شريفة هانم هذا الفارق المعنوى بين حياته وحياة رجل العصابات، وحتى لو ادركته فمحال ان تتصور ان يكون هذا هو نوع الحياة التى تقدمها لابنتها التى تحبها الحب كله .

وعلى ذلك فقد طوى فوزى جوانحه على مايعانيه ويكابده ، وقرر ان يضطلع بالمأمورية التى عهد اليه بها . واذ كان المرشح الجديد يقطن مصر الجديدة ، واذ كانت إسرة رياض قد أصبحت من سكان مصر الجديدة فلتكن هى المصدر الأول الذى يستقى منه معلوماته عن العريس المرشح .

٨

وصل فوزى الى بيت رياض واستقبل كأحسن ما يكون الاستقبال، وانهال عليه الجميع باللوم والعتاب لانقطاعه عن زيارتهم بضعة شهور. وكان لسان حال الجميع يكاد ينطق ، ان قطار آمال اذا كان قد فاته، فهناك ثريا بكل جمالها ورقة شمائلها وهناك هناء التى بدأت تنضج وتتفتح فتفوق اختها ثريا فى الحيوية وتدانيها فى الجمال . ولكن وفاء كانت قد احتكرت قلبه ومشاعره ، ولذلك فقد أحس بشىء من تأنيب الضمير وهو يستقبل هذا الاستقبال الحافل . وتنفس الصعداء وحمد الله ، أن كانت آمال غير موجودة ، فقد خرجت مع نادية وشوقى بك لعرض نادية على احد الاطباء .

وسأل فوزى أهل البيت عما اذا كانوا يعرفون شيئا عن هذا الطبيب الذى يحمل بطاقته ؟ وفوجىء بالدهشة المرتسمة على وجوه الشابات الصغيرات ، ثم اعقب المباغتة الاولى انطلاقة عارمة ، حيث راح الجميع يتحدثون عنه فى آن واحد ، فمن قائلة انه يملك سيارة.

وأخرى تتحدث عن أسرته العريقة فى الفيوم · وثالثة تتحـــدث عن شياكته واناقته وعن غناه المفرط · وتدخلت الأم فى نهـــاية الأمر فزجرت بناتها منددة بمسلكهن وواصفة اياهن بأنهن بنات آخر زمن، وجيل مفلوت العيار · ثم راحت تحدث فوزى من ناحيتها ، كيف أن كل فتيات مصر الجديدة مفتونات بهذا الطبيب ويحلمن بالزواج منه· وكيف تكتظ عيادته كل يوم بالعشرات منهن متظاهرات بالمرض لمجرد الرغبة فى عرض انفسهن عليه والاستمتاع بالحديث معه · وختمت الأم الوقورة حديثها بأن ذلك كله لايعدو ان يكون مسخرة بنـــات وعلامة على قرب نهاية الزمن ·

وذهل فوزى لهذه الشخصية الجديدة التى جاءت تخطف منه وفاء، وامتقع وجهه وخفق قلبه كما لو كانت خطفت بالفعل · وعاد يحمل لشريفة هانم فى أمانة ودقة ، هذه المعلومات التى ترامت له ، وكيف قيل له ان هذا الطبيب هو فارس أحلام فتيات مصر الجديدة كلهن ·

وعاش فوزى فترة رهيبة من القلق والاضطراب وهو يسمع انباء المفاوضات الجارية حول هـــذه الخطبة الجـــديدة ، وهو يشـــهد الاستعدادات تجرى فى اهتمـــام لاستقبـــال خالة الطبيب وبعض أقاربه ، وكيف أعجبوا بها وبوالدتهـــا ، وان الخطوة التـــالية ستكون تحديد موعد لقراءة الفاتحة · واستسلم فوزى لقدره ، وراح يلوذ بحديثه عن ان الزواج حرام على مثله ، وان وفاء بالذات جديرة بزوج يسعدها من طراز غير طرازه · ولكنه فوجىء بتعثر المفاوضات، فقد كان للطبيب عم بمثابة الوالد ، وعندما سمع العم بجمال شريفة هانم وكان يرغب فى الزواج ، اشترط ان تكون الصفقة مزدوجـــة فيتزوج الطبيب الابنة ويتزوج العم الأم · وقد كان العم يفوق ابن اخيه ثروة وجاها ، فلم يتصور ان يرد طلبه · وكيف يرد زوج يملك خمسمائة فدان من الأطيان الجيدة · وكان هذا الشرط كفيلا باحباط المفاوضات فلم تكن شريفة هانم تطيق الحديث فى هذا الموضوع · لقد نذرت نفسها للوفاء ، نذرت نفسها لابنائها واسعادهم ، وكان

سامح على وشك التخرج من كلية الحقوق بامتياز فيملأ الفراغ الذى خلفه والده ٠ ان أموال الدنيا كلها لايمكن ان تصرفهـــا عن الوفاء بنذرها ٠ وكان فشل المفاوضات هذه المرة بمثابة سوط ألهب عواطف فوزى اكثر واكثر ، وبدأ يرى فى هذين الحادثين نذيرا من القــدر انه يحفظها له ، ولكن عليه أن يخرج من نطاق سلبيته ، وأن يشرع فى الكشف عن عواطفه لوفاء ٠

وقال له ضميره وعقله ابتعد عنها انها ليست لك ٠

وقال القلب اقترب فهى سعادة الدنيا كلها ٠

الفصل الثالث

١

كانت المعركة السياسية بين جماعـــة البعث وبين حزب الاغلبية فى شبه اجازة ، فقد تحدد موعد سفر وفد المفاوضات الى انجـــلترا لتوقيع المعاهدة بصفة نهائية ، ولم تكن نصوص المعاهدة قد اذيعت حتى يمكن مناقشـــتها ، وكانت دور الجماعة مغلقة والجريدة معطلة وفوزى يمارس عمله لاول مرة كمحام بانتظام يدر عليه مالا ٠ وهكذا وجد فوزى من الفراغ والجو ما جعله يجد فسحة من الوقت لكى يقوم بسلسلة من الحركات والمناورات الصبيانية التى ما كان ليســـمح لنفسه بها لولا هذا الحب الذى اصبح يملأ نفسه بصورة لاعهـــد له بها من قبل ٠

وكانت سيارة فوزى التى اصبح يمتلكها احـــدى وسائله التى استعملها ليلفت نظر وفاء اليه ٠ ولم تكن ظروف فوزى تســـمح له باقتناء سيارة ، ولكن صديقه وزميله فى الجهاد خالد أمين قرر ان يشتريها له ٠

كان خالد أمين قد عاد من انجلترا بعد أن حصل على الدكتوراة رغم انف حكومة صاحب المقام الرفيع التى فصلته من البعثة جزاء له على انتمائه لحركة البعث ، فما كان من خالد أمين الا أن ضاعف جهاده العلمى حتى حصل على الدكتوراة فى عامين بدلا من ثلاثة أعوام وهو مالم يسبقه اليه انسان ٠ وعندما عاد الى مصر قرر أن يكرس حياته للجهاد من أجل تحقيق غايات حركة البعث ٠ وكان أول قرار اتخذه أن يكون لفوزى باعتباره رئيسا للجماعة سيارة لتمكنه من مضـــاعفة

نشاطه . وهكذا وجد فوزى نفسه ذات يوم من أصحاب السيارات بفضل هذه التضحية غير العادية التى بدأ بها خالد حياته بعد عودته من انجلترا . هذه السيارة المقدسة ، من حيث الغرض التى خصصت له ، والنقود الثمينة التى أودعت فيها ، هى التى راح فوزى يستعملها فى مناوراته لاجتذاب انظار وفاء الى حبه لها. فراح يكثر من استعمال جهاز التنبيه كلما راح أو جاء . ولكن سواء كانت هذه الحركات قد لفتت انظار وفاء أو لم تلفتها ، فقد بدأ يغيظه منها أنها لاتكاد تشعر ان عنده سيارة ، ولو انها شعرت لما كانت السيارة تؤلف بالنسبة لها أى قيمة من أى نوع كان . لقد كانت تقابله بالابتسام كلما رأته وكانت تجالسه كبقية افراد اسرتها وتتناول معه الغداء والعشـــاء ، وتستمع لأحاديثه كما يستمعون ، وتوجه اليه احيانا بعض الاسئلة أو ترد على اسئلته ، ولكن فوزى كان يحس بوجدانه انها لاتوجه له هذا الالتفات الذى يتمناه . لقد كان يمثل فى نظرها بعض الحقائق المادية التى تحيط بها . انه احد أفراد عائلتها ، بعد ان اتسعت لتقبل فى صفوفها أعضاء جددا مذ جاءوا ليسكنوا الى جوار خالتها . لقـــد أصبح زوج خالتها وابن هذا الزوج ، أعضاء تعاملهم بالاهتمام الذى تعامل به بقية اخواتها .

وبدأ هذا الموقف السلبى يستثير روح الهجوم فى نفس فوزى ، فلا بد أن يقضى على هذه اللا مبالاة الرقيقة اللطيفة التى تعامله بها ، لابد أن يضطرها للاحساس بوجوده باعتباره انسانا يتطلع اليها ، انسانا يحبها .

ومرة أخرى اتخذ من السيارة سبيلا لمناورته الجديدة ، فاقترح على والده وزوجته ، ان يمضوا يوما فى السويس فى (كابينة) أحد اصحابه ، الذى كان يعرضها للبيع وأعطى فوزى أحد مفاتيحهـــا ليستعملها وقتما يشاء . وعرض على زوجة أبيه ان تدعو اختها . ولما كانت السيارة صغيرة لاتتسع لدعوة كل أفراد اسرة شريفة هانم، فيكتفى بعضو واحد من العائلة ، ولتكن وفاء مثلا .

ورحب الجميع بالفكرة ووجد فوزى نفسه ذات صباح ينطلق فى الطريق الصحراوى نحو السويس والدنيا لاتكاد تسعه من الفرح وقد حقق بغيته ، فقد كانت وفاء تجلس وراءه فى المقعد الخلفى بجوار والدتها وخالتها ، أما والده فقد كان يجلس الى جواره • ولم يكن باستطاعة وفاء أن لاتدرك الآن ان فوزى هو قطب الرحى فى هذه الرحلة وواسطة العقد ، فالسيارة سيارته ، وهى لاتعرف الا انها سيارته فقد كانت قصة كيفية امتلاكه لها احدى الوقائع التى اخفاها عن شريفة هانم ووفاء • وكانت فكرة الرحلة فكرته ، (والكابينة) التى يذهبون للاقامة فيها يوما موضوعة تحت تصرفه ، فليس أمامها من سبيل لتجاهل أهميته •

ووصل الركب فى خاتمة المطاف الى شاطىء بحر السويس ، وكان الجو صحوا مشمسا فتسللت اشعة الشمس تدفىء الأجسام التى نال منها برد الصباح فى الطريق • وكان الشاطىء خاليا من أى انسان فالوقت شتاء • وكانت أمواج البحر تهدر بقوة ، واصطدامها الرتيب بالشاطىء وتناثرها وتحولها الى رذاذ ومطر وزبد وفقاقيع ، يجعل لها صوتا يشجى الاذن ويمتع النفس • وامتلأ الجميع حتى والد فوزى الذى كان قد أحيل على المعاش بروح المرح وحب الحياة ، فراحوا يتعاونون على اخراج الشمسية الكبيرة ذات الألوان المبهجة والمقاعد المريحة ويضعونها على الشاطىء على بعد خطوات من الماء •

وفجأة شعر فوزى بارتفاع فى حرارته ووعكة تدب الى جسده ، ودوار فى رأسه • فاستأذن الجماعة فى أن ينام على أحد الأسرة داخل (الكابينة) راجيا اياهم أن لايشغلوا انفسهم به وان يمضوا فى الاستمتاع بيومهم فى أحضان الطبيعة بين الماء والشمس والرمل والهدوء والسكينة •

وجلس القوم بالفعل يتناولون ما أحضروه ليكون افطارا ، واشتغلوا بعمل القهوة والشاى وكان يبهجهم كل البهجة ان يجدوا (الكابينة) مزودة بكل المعدات اللازمة فى المطبخ •

وكان والد فوزى وزوجته دائمى السؤال عن فوزى ، ولكن شريفة هانم كانت اكثر الجميع اهتماما بشـــأنه • وعندما كانوا يبدون انزعاجهم لما ألمّ به من حرارة مرتفعـــة يعود لادخال الطمأنينة الى قلوبهم وان الأمر لايعدو عارضا لايلبث ان يزول • وكانت شريفــة هانم كلما دخلت عليه تعرض عليه أنواعا من الاطعمـــة أو الفواكه أو التسالى التى حملوا منها الكثير ، وكان فوزى يتقبل منها ماتقدمه له واعدا اياها ان يأكله ولكنه لم ينفذ الوعد ابدا ، فقــد بدأ الغيظ والانفعال يتملكانه بحيث يرفعان حرارته اكثر واكثر وبالتالى تسد شهيته للطعام • وكانت وفاء هى السبب فيما استولى عليه من قهر ، فهى الوحيدة التى لم تفكر فى السؤال عنه • وعندما كان الهواء يحمل اليه صوتها أو ضحكتها أحيانا ، كان يوشك ان يتمزق من الضـــيق والكمد ، بحيث لم يلبث ان قرر وجوب العودة سريعا الى القــــاهرة لينفض يده وعواطفه نهائيا من هذه المهزلة التى وجد نفســـه غارقا فيها •

ولم تكد الجماعة تفرغ من تناول طعام الغداء ، وتشرف الساعـة على الرابعة حتى أعلن أنه أصبح فى حالة تمكنه من قيادة العربة وأنه من الخير ان يعودوا الى القاهرة فى ضوء النهار • وعلى عكس الثرثرة التى أغرق بها فوزى الجماعة عند الذهاب ، فقد لازم الصمت المطلق فى العودة ، ومن حسن حظه أن مسلكه لم يلفت نظر الجماعة فقــد عزوا هذا الصمت لحالته الصحية •

وبينما كان الجميع يتحدثون أثناء العودة عن استمتاعهم بهـذا اليوم الجميل ، كان فوزى يسرع نحو القاهرة ليطوى بسرعة صفحة هذا اليوم الذى يمثل فى نظره الفشل والشقاء والتعاسة •

٢

مضى يوم كامل بعد رحلة السويس تعمد فوزى فيه أن لايذهب الى الشقة المجاورة • ولقد كان الجهد الذى بذله لتحقيق هذه الرغبة

من الصعوبة والمشقة بحيث تصور ان هذا اليوم ليس الا دهرا كاملا ، وبدأ يحس بالفخر والاعتزاز لقدرته على السيطرة على عواطفه وكبح جماح نوازعه · ولكن ظهر اليوم التالى لم يكد يحل ويعود من الخارج دون ان يمر على الشقة المجاورة كما كانت عادته فى المدة الاخيرة حتى كانت أنفاسه قد تقطعت وآخر معاقل مقـــاومته قد انهـــار · وراح يخادع نفسه ليبرر ضرورة ذهابه لرؤية وفاء ، فزعم أن مسلكه لن يلبث ان يثير الشكوك ويلفت اليه الانظار · وخير من ذلك أن يصفى اهتمامه بوفاء بطريقة تدريجية فيبدأ بأن يباعد بين فترات الزيارة ، فلاتعود كما كانت كل صباح ومساء ، ثم يزيد بالتدريج المـــدة بين كل زيارة واخرى ، وهكذا حتى ينتهى به الأمر الى القطيعة التامة دون ان يلحظ أحد ، وسوف يتعلل بانشغاله فى الحركة · على أن فوزى ادرك أنه انما يخادع نفسه ، وأنه يجب أن يقـــاوم اكثر من ذلك فلا يذهب وليكن مايكون · وعلى ذلك فقد تناول طعام الغداء مع والده وزوجة ابيه واخويه الصغيرين من أبيه ثم آوى الى حجرته ، واستلقى على الفراش متظاهرا بأخذ نصيب من الراحة · وقد كانت هـــــذه الحركات كلها شيئا جديدا فى حياة فوزى ، فلم يعتد أن يتناول طعام الغداء فى البيت ، فضلا عن أن يرتاح بعد الاكل · وكانت عادته أن لايعود الى البيت الا فى منتصف الليل لكى ينام · ولكنه مذ احب وفاء اصبح يلازم البيت أطول مدة ممكنة ، وأصبحت لديه ساعات للراحة، وموعد محدد يعود فيه الى البيت ليلا وهو الحادية عشرة باستثنـــاء يوم الخميس ·

وراح فوزى يفكر فى ذلك كله وهو راقد على فراشــــه مقهورا وخائب الأمل · لقد كان عهده اذا ازورت عنه آمال أن يحس أنه قادر على أن يمضى فى الحياة غير معتمد عليها ، كانت نفسه تثور وكرامته تهب لنجدته ، أما الآن فقد كان شعوره شيئا يختلف كل الاختلاف ، كان يحس بنفسه ضعيفا غير قادر على المقاومة حتى لقد هم أكثر من مرة ان يهرع الى الشقة المجاورة ، وأن يضع حدا لعذابه ، بأن يصرخ

فى وجه وفاء وأمام أمها واخوتها ، أنه يحبها ، يحبها ، ولا يستطيع ان يعيش بدونها · وفيما هو يجيل فى رأسه هذه الافكار ، اذ سمع صوت أقدام وحفيف ثوب ، فخفق قلبه على الفور وأوشك ان يقف من شدة الانفعال ، فقد كانت هى ، وقد دخلت الى الشـــقة من الباب الخلفى ، كما اعتادت ان تفعل · ووثب فوزى جالسا فى ذات اللحظة التى ظهرت فيها وفاء فى الدهليز المؤدى الى داخل الشقة حيث حجرة خالتها · والتقت العيون ، فابتسمت له كعادتها هذه الابتســـامة الرقيقة البريئة وقالت له بطريقتها العابرة :

ـ ازاى الصحة ؟

واندفع فوزى يقول لها فى غير وعى أو تدبر :

ـ انا مخاصمك ·

ولم يكد فوزى يتلفظ بهذه العبارة حتى عض على شفتيه ، وتمنى لولم يقل هذه الكلمة والتى أشبهت أن تكون سهما ، جعل وفاء تترنح تحت تأثيره وتهتز ، دون ان تدرك عمق الاصابة ومدى نفوذ السهم داخلها · وخطت خطوة واحدة نحو الأمام جعلتها داخل حجرته وسألته فى دهشة :

ـ مخاصمنى انا ؟ لماذا ؟ ماالذى فعلته ؟ وبدأ وجههـــا يمتقع وبدنها يرتجف ·

وأدرك فوزى بعد فوات الوقت هول مافعل ، لقد اعترض طريق هذه العذراء النائم قلبها ، وسيعكر عليها منذ الآن صفو حياتهـــا · وفكر فى أن يتراجع ولكن ذلك كان أقوى من ارادته ، لقد كان يفكر فى أن يذهب اليها ويصارحها بحبه امام الجميع ، وهاهو القدر قد جاء بها اليه ، فلتكن مشيئة القدر ، يجب ان يتكلم وليكن ما يكون · واندفع فى غير روية أو تحفظ يقول لها فى صوت متهـــدج متقطع مضطرب ولكن فى ألفاظ واضحة قاطعة فى دلالتها على معانيها :

ـ انا مخاصمك لأنك لم تسألى عنى عندما كنت مريضـــا فى السويس ·

ـ ولكن ماما كانت دائبة السـؤال عنك وكانت تطمئننى على صحتك ٠

ـ ولكن أما كان يجب أن تطمئنى على بنفسك ؟ لقد كنت طوال الوقت أتوق لرؤيتك ومحادثتك ٠

فقالت له وفاء وقد بدأ الانفعال يتزايد فى نفسها فيصبح اضطرابها ملحوظا :

ـ ومن أنى لى أن أعرف انك كنت تريد محادثتى ؟ ولم يشأ فوزى ان يشفق عليها ، فمضى يضغط عليها فى قسوة ، وقد خال نفسه فى هذه اللحظة نسرا كاسرا بالنسبة لهذه الحمامة الوديعة :

ـ ألم يلفت نظرك اننى لم ازركم طوال الأمس واليوم ، الا يحملك ذلك على التساؤل عنى ؟

وبدأت وفاء ترى فى الحديث على هذا الاسلوب شيئا جديدا لاعهد لها به من قبل فزاد امتقاع وجهها ورجفة بدنها وان ظلت ردودها تتسم بالهدوء والبساطة :

ـ لقد سألت عنك ماما فقالت انك كنت مشغولا ٠

وانفجر فوزى ثائرا :

ـ ماما ، ماما دائما ماما ، ألا تكفين عن الزج بماما بينى وبينك ؟ لماذا لم تسألى عنى بنفسك ؟ لماذا لم تحاولى ؟ وتضرج وجهها حياء وغضت من بصرها لأول مرة وقالت له :

ـ وكيف يجوز لى ان اسأل عنك ؟ ورأى فوزى ان يطلق لعواطفه العنان وقد وصل الى هذا الحد ، فانطلق يقول لها فى صوت جعله الانفعال متحشرجا :

ـ اذن فاعلمى اننى لم أحضر عندكم بالامس لأننى كنت غاضبا عليك لعدم سؤالك عنى ، وقد قررت أن أمتنع عن الحضور الى شقتكم بعد ان وجدتك لاتحسين بوجودى ٠ ان رحلة السويس كلها لم يكن الغرض منها الا ان نمضى سويا بعض الوقت ٠ وتجلت فى عينى وفاء لأول مرة ضراعة ان لايخاطبها بهذا العنف ، فقد بدأت تحس

بغريزتها بعدم قدرتها على احتمال هذا النوع من الحديث واحست بنفسها كما لو كانت ريشة فى مهب الرياح ، وقالت له بآخر مافى نفسها من وعى قبل ان تتداعى نهائيا تحت وطأة الحديث الذى لم تكن تتوقع سماعه :

ـ كيف تقول اننى لم اكن اشعر بوجودك ، ولكن ماذا كان باستطاعتى ان افعل ؟

وقرت عين فوزى بهذا التصريح الذى انتزعه منها ، ونزل عليه بردا وسلاما ، فهدأت نفسه بعد ان قال كل ما كان يتوق لقوله وسمع مالم يكن يطمع فى سماعه ، فابتسم فى ابتهاج وسعادة وقال لها فى رقة وحنان واعتذار :

ـ خلاص ·

واستردت وفاء رباطة جأشها ، وعادت الابتسامة الى وجهها ، وقالت له وهى تتجه من جديد الى خارج الحجرة :

ـ خلاص صالحتنى ؟

ـ نعم ·

ـ وستحضر الليلة لتناول العشاء معنا ؟

ـ وسأحضر مبكرا لتناول العشاء ·

٣

لم تدم هذه العطلة التى كان فوزى غارقا فيها ، والتى هيأت له سبيل التطور بعلاقته بوفاء فقد عاد رفعة رئيس الحكومة من لندن بعد ان وقع معاهدة الصداقة والتحالف مع بريطانيا ، ونشرت مواد المعاهدة فصدمت الاحرار صدمة شديدة ، فلو ان مصر رضيت بمثل هذه المعاهدة منذ عام ١٩١٩ لوفرت على نفسها خمسة عشر عاما من الآلام والمتاعب ودماء الشهداء · كانت المعاهدة تخلو من الهدفين الرئيسيين اللذين حارب من أجلهما المصريون وهما الجلاء ووحدة وادى النيل ، ولو لم تتضمن المعاهدة نصا على تعهد انجلترا ان تساعد

مصر على الغاء الامتيازات والانضمام لعصبة الامم وتطوير جيشـــها ، لما كان فى المعاهدة ما يســـتحق الحبر والورق اللذين أهدرا فى كتابتها • على أن ما ضاعف البلية ، ان رفعـــة الرئيس بدلا من أن يصف المعاهدة بوصفها الصحيح ، من أنها خطوة فى سبيل الاستقلال، فقد أبى الا أن يتحدى ، وأن يعلن على رؤوس الاشهاد أنها معـــاهدة الشرف والاستقلال ، ويتهم من لايقول بقوله بالمروق والخيانة •

ودقت الطبول وزفت البشائر لمقدم الرئيس ومن معه من لندن ، وحشدت الجماهير من الاسكندرية حتى القاهرة على طول طريق مرور القطار ، حتى لقد وقعت مذبحة فى احدى المدن تحت عجلات القطار من فرط الزحام وحماس الجماهير • ولكن الاصوات ارتفعت من كل مكان تندد بالمعاهدة حتى من الذين اشتركوا فى توقيعها • وكان من الطبيعى أن تنشط حركة البعث وسط هذا الجو الحـــافل بالوعى والادراك والنشاط السياسى ، فأعادت اصدار مجلتها ولم يكن بوسع الحكومة أن تصادرها ، فقد كان أحد شروط الانجليز ان يصدق على المعاهدة وسط جو نسبى من الحرية •

وبدأت مجلة البعث تطلق على المعاهدة وصف ، معاهدة الخزى والاحتلال ، وتشتد فى الهجوم عليها•وسرعان ما انتشرت المجلة كما لم تنتشر فى أى يوم مضى • وبدأت الجماعة تصـــدرها مرتين كل اسبوع ثم ثلاث مرات • وأعيد افتتاح دار الجماعة وعقدت الحركة اجتماعات عامة نددت فيها بالمعاهدة وسط الألوف التى احتشدت •

وضاقت الحكومة ذرعا مرة أخرى بجماعة البعث فلم تعد تصرح لها باجتماعات عامة ، وبدأت تلاحق المجلة مابين مصادرة وتعطيل • واستدعى اعضاء الجماعة للتحقيق معهم فيما ينشر من مقـــالات ، واعتقل فوزى أكثر من مرة لما كتب ولكن القضـــاء كان يفرج عنه دائما • وهكذا بدأ الجو يتلبد من يوم لآخر ومن ســـاعة لأخرى ، ولاح على الافق ان الحكومة تتحين فرصة لتبطش نهائيا بجماعة البعث بطشه لاتقوم لها بعدها قائمة ، وخاصة بعـــد أن أقر مجلس النواب

المعاهدة وأصبحت يدها حرة طليقة فى ادارة شئون مصر ، وبعد أن تحول الانجليز الى أكثر الجميع لهفة على بقائها فى الحكم باعتبارها أقدر الحكومات على تطبيق المعاهدة . وكان يضاعف فى قلق الحكومة من جماعة البعث ، أن الملك الجديد الشاب ، بدأ يتمتع بشعبية كبيرة وتلتف حوله القلوب ، وأصبح رمزا لحياة أسعد وأفضل يكون قوامها الشباب ، فكان لابد من القضاء على حركة البعث والاجهاز عليهـــا باعتبارها ، أكبر تجمع للشباب الجديد .

وتعددت اجتماعات المسئولين عن شئون الأمن وفى أروقة حزب الحكومة ، للبحث عما يحسن اتباعه مع جماعة البعث . وكانت أنباء هذا النشاط تصل الى الجمـــاعة فلاتزيدهم الا حمـــاسة واندفاعا واستبسالا فى مقاومة الحكومة والعمل بكل الوسائل على اسقاطها . وبدأ القلق يدب الى نفس فوزى وهو يعيش وسط هذا الجو المشحون بالمخاطر ، وكان مبعث القلق أن الهمس بدأ يجرى بين صفوف الشباب سواء فى صفوف جماعة البعث أو الشبان الاحرار ، بوجوب اغتيال رئيس الحكومة الذى أصبح يرمز عندهم على الخيانة والتفريط فى حقوق البلاد . واستعيدت ذكريات الوردانى قاتل بطرس غالى موقع معاهدة فصـــل الســـودان عن مصر . وبدأ فوزى يحس أنهم على وشك الوقوع فى كارثة .

واصبح أكثر مايشغله ، هو واجبه حيال وفاء اذا وقعت الواقعة وهى لابد آتية ؟ لقد كانت مكاشفته لها بعاطفته لأول مرة تشبه قذف الحجر فى بحيرة هادئة فتضطرب مياهها تحت وقع الحجر ، وتنطلق الأمواج التى تصطدم بشواطئها لترتد عنها مؤلفة أمواجا جديدة ، ثم تهب الرياح لأول مرة على هذه البحيرة فتصطخب مياهها وتضطرب.

لم تكن وفاء بغير عواطف ، بل كانت ذات عواطف ولكن فى حالة سبات وغفوة تحت تأثير عوامل الوراثة والبيئة والتربية وقدوة الام الفاضلة المثالية . فحجبت هذه العواطف حتى عن وفاء نفسها ممـــا أسبغ عليها هذا الهدوء غير العادى الذى لم يشهد له فوزى مثيلا .

ومن الخطأ أن يظن أن وفاء كانت فى حالة كبت لعواطفها ، فقد كانت تعبر عن فيض العواطف التى تزخر بها نفسها فى حبها الشديد لأبيها عندما كان حيا ، ثم حبها لوالدتها واشفاقها بعد وفاة والدها. لقد كانت محبوبة الجميع وتحب الجميع • كانت تدرك كأى أنثى أن مصيرها المحتوم هو الزواج كما تزوجت أمها وخالاتها من قبل ، ولكن ظروفها لم تجعلها فى عجلة من أمرها • لقد كان سنها صغيرا ومزاجها معتدلا ، ونموذج والدتها الكامل يجعلها فى غير لهفة على الزواج • ولما كانت لاتفهم الحب الا على أنه قرين الزواج فلم تبحث عن أيهما • كانت تؤمن فى غير وعى أن الزواج سيجىء اليها فى الوقت المناسب، سيجىء عن طريق احدى الخاطبات أو احدى القريبات ، كما بدأ يحدث بالفعل • وعندما يلوح على الافق الزوج المنتظر فستتولى أمها فحص الموضوع واختيار أحسن الازواج لها • ان والدتها لايمكن ان تخطىء ابدا ، وفى انتظار ما سوف تصدره والدتها من قرارات ، فلم يكن أمامها الا أن تنتظر فى هدوء وحياء وخفر ، مدخرة فى أعماق نفسها ماتملكه من طاقة جبارة من الحب والاعطاء لهذا الزوج المجهول المنتظر•

ولقد اقتحم عليها فوزى هذه الأسوار الطبيعية التى كانت تحصن عاطفتها ، جاءها مستغلا ظروف القرابة والجوار التى مكنته من أن يخلو بها ويفاتحها بحبه مباشرة وعن غير وساطة والدتها • وكانت تعرف من اعزاز والدتها له وصلته الوثيقة باسرتها ، ماجعلها لاتنكر عليه تخطيه والدتها ومخاطبته اياها مباشرة • وعندما تلفظ فوزى أمامها لأول مرة بكلمة الحب ، كان ذلك يساوى تماما حديثا عن الزواج ، فلم يطف فى خيالها ولو للحظة واحدة ان فوزى يعنى بحبه شيئا غير الزواج منها • وسرعان ما رضيته لنفسها باعتباره رجلها المنشود الذى ادخرت له كل ما ادخرت ، بما فى ذلك تجاهلها السابق له ، عندما لم تكن تنظر له بهذا المنظار •

واختلى فوزى بوفاء عندما تأزمت الأمور من حوله ، وشعر أنها تندفع نحو غاية محتومة محفوفة بكل خطر وقال لها :

ـ والآن يا وفاء بعد أن أصبحت على علم تام بحياتى، وانت ترييننى أخرج من السجن لأدخله من جديد ، ألم تمتلىء نفسك خوفا من ربط مصيرك بمصيرى ؟ وأجابت وفاء فى غير تردد :

ـ ليس هناك مايخيفنى فى هذه الدنيا الا أن لاتكون لى ، فما دمت لى فليس هناك فى الدنيا ما يوصف بالخطر ٠

ـ أما أنا فأخاف عليك من الآلام التى توشكين أن تتجرعيها ٠

ـ مادمت تحبنى كما تقول فلن يعرف الألم سـبيله الى ابدا ٠ وأمسك فوزى بيدى وفاء ونظر الى عينيها وقال لها :

ـ قلبى يحدثنى انهم سـينتزعوننى منك عما قريب ليزجوا بى فى سجن قد لا أخرج منه أبدا ٠

ـ لاتوجد قوة تستطيع ان تنتزعك منى لأنك ساكن فى جوانحى٠

ـ قد يقتلوننى ٠

ولأول مرة ارتجفت وفاء وتعلقت به وقالت له فى عتاب ولهفة٠

ـ لاتخرج هذه الكلمة من فمك أبدا ، فلن أبقى على ظهر الحياة دقيقة واحدة اذا مسك سوء ٠

وأمسك فوزى برأس وفاء وأطال النظر الى عينيهـا الجميلتين العسليتين وقال لها :

ـ ايتها العزيزة الغالية ياهدية السماء لى ، أتشاطريننى الرأى فى كفاحى اذن ؟

ـ لاتسألنى عن كفاحك ، ولكن اسألنى عن نفسـك ، فأنا على استعداد أن أتبعك بعد أن صرت لى كل شىء ، وما عليك الا أن تعلمنى ماذا أفعل من أجل هذا الكفاح لأنفذه على الفور ٠ واغرورقت عينـا فوزى بالدموع فقد كانت هذه العاطفة الصادقة شيئا جديدا عليه ، لم يكن يتصور ان بقدرة امرأة ان تفعل هذا الذى تفعله وفاء ، حيث لاترى فى الدنيا شيئا غير رجلها ٠

٤

قفزت ميرفت من سيارتها المكشوفة حاملة مضرب التنس داخل جرابه النفيس وهى تفيض حيوية ونشاطا ، بعد ان زادها التمرين الذى فرغت منه على التو ، مع وحيد بطل التنس المشـــهور ، حيوية وجمالا وفتنة • وسألت ميرفت الشماشرجى الذى قابلها عن والدها فأجابها أنه فى حجرة المكتب مع الشيخ خليل ناظر العزبة •

ولم تكد عينا رمضان باشا تقعان عليها حتى طفح وجهه بالبشر لمرآها واهتز شارباه فى حنان وعطف • ووثب الشيخ خليل واقفـا ومرحبا بسعادة الهانم •

وسألت ميرفت الشيخ خليل ســـؤالا عابرا عن أحواله ولم تعن بسماع جوابه ، اذ كانت متلهفة على ان تزف لوالدها بشرى تسره :

ـ لقد نجحت كما وعدتك ، أخبرنى محسن اليوم أنه مهد الطريق مع والده لتتصالحا •

وعانق الرجل ابنته وهو يدعو الله أن يطيل له فى عمرها ويمتعه بأن يراها دائما سعيدة • وطلب منها ان تقص عليه المزيد ، وكيف سيتم الصلح ، وقالت له ميرفت :

ـ ستذهب غدا الى (كلوب) محمد على حوالى الســـاعة الحادية عشرة ، فترى صاحبك الرئيس السابق يلعب الطاولة مع رفقى باشا، فما عليك الا أن تسلم ثم تجلس لمراقبة اللعب ، وعليك طبعـــا أن تتحمس لصاحبك ، فانت تعلم حساسيته من ناحية لعبة الطاولة • وعندما يفرغان من اللعب تقسم عليهما ان يكونا ضيفيك فى تنـاول طعام الغداء فى أى مكان ، وسيلبيان الدعوة على أن يكون الغـداء فى النادى • ثم ضربت ميرفت فى رقة ودلال أباها على كرشه وقالت وهى تضحك : وعليك البـــاقى فلن اعلمك ماذا تقول أو كيف تتصرف ، والمهم انك يجب أن توطد نفسك كما قال لى محسن على سماع كلمتين خشنتين أو ثلاث من فم الباشا •

وتهلل وجه رمضان باشا بالبشر والابتهاج وقال لها :

– ياميرفت يابنتى كلمتين أو عشر ، المهم ان تعود الميـــــاه الى مجاريها ، فلابد انه سيلعب من جديد دورا فى السياسة ، ويجب ان اكفر عن موقفى معه فى الماضى • لقد قسوت عليه كما تعلمين •

ولم يتمالك الشيخ خليل نفسه من ان يتدخل فى الحديث قائلا :

– أصحيح ياباشا مايقال عن قرب سقوط الحكومة ؟ ما أشـــــد لهفتنا فى البلد لعودة معاليك الى الوزارة لقد كانت أيامها علىّ أيام عز وسعد ، لم تكن كلمتى ترد فى المركز ياباشا •

وأجاب رمضان باشا على تساؤل الشيخ خليل بقوله :

– ربنا يسهل ياشيخ خليل ، لقـــــد بدأت الأزمات بين القصر والحكومة تتعدد • ان مولانا الملك ربنا يحميه لشبابه ، أصبح لايطيق سماع اسم رئيس الحكومة وادعائه بأنه هو ممثل الأمة •

وقال الشيخ خليل :

– عنده حق ياباشا ، هل معقول ياعالم ان يخلع رئيس الحكومة الطربوش فى حضرة جلالة الملك ؟ والله ياباشا الفلاحون الذين نقول عنهم لايعرفون الذوق ، عندما رأوا الصورة انتقدوا الباشا •

وأسرع رمضان باشا يقول :

– قلة حياء ونقص فى التربية ، حضرته يريد ان يسوى رأســـه برأس الملك •

وعلى الرغم من ان ميرفت كانت تقلب فى احدى المجلات مذ بدأت هذه المناقشة فلم تلبث أن ضاقت بها ذرعا فاستأذنت أباها وأعلنته انها ستصعد الى حجرتها لتنال قسطا من الراحة استعدادا لســـهرة الليل حيث سيشتد الصراع بينها ووحيد من ناحية ، ومحســـــن وصافناز من الناحية الثانية • لقد صممت على ان تسترد خسائرها الباهظة خلال الاسبوع المنصرم • واســـتوقفها والدها عندما بدأت تخرج من الحجرة ، وترك المكتب ثم سار معهـــا حتى خارج الحجرة وقال لها هامسا :

ـ الى كم من الزمن ستظلين مقاطعة زوجك ؟ ألا يكفي هذا الاسبوع الذى ظل فيه ملازما حجرته لايبرحها ؟

وهزت ميرفت كتفيها استهانة واستهزاء وقالت :

ـ أليس هذا هو أعظم مايتمناه ، أليس غارقا في الويسكي ؟ ان التعليمات لدى حسنين ان يقدم له كل طلباته ٠

ـ المسألة ياميرفت ليست مسألة وسكي ، انه زوجك في نهاية الأمر ولا يصح ان تتجاهليه الى هذه الدرجة ، لقد كانت حرارته اليوم ٣٨ وعرضت عليه أن أحضر له طبيبا فرفض ٠

ـ طبعا لأنه يعرف أن الطبيب لن يفيده في شيء ، بسبب هذا الزفت الذى أصبح غارقا فيه ٠ كلنا نشرب ، ولكن ليس بهذه الطريقة ٠ انه لم يعد يأكل ، لقد تسمم جسده نهائيا وأصبح مدمنا ميئوسا منه ، حسبه انني ساكتة عنه ومازلت راضية ان يظل زوجا لى بالاسم ٠

ولم يستطع رمضان باشا الا ان يقول لابنته وهو يحاول ان يجعل كلامه كأرق ما يستطيع خوفا من اغضابها :

ـ يجب أن تبذلى جهدا ياحبيبتي لمعاونة زوجك في العودة الى الحياة الطبيعية ، ان هجرك له بهذا الاسلوب هو الذى يجننه ويوشك ان يقتله ٠ وأسرعت ميرفت تقول لأبيها في حدة :

ـ طالما قلت لك أن تدع أمر فؤاد لى ، انك تسرف في تدليله وهذا هو مايفسده ٠ أيرضيك أن يتحكم في ويقول لى انه لم يعد يطيق سماع اسم محسن أو وحيد بطل التنس الذى قلت انت نفسك عنه أنه مهذب جدا ؟ أيرضيك أن يقول لى انه لايحب أن يدخل وحيد هذا البيت ؟ أهذا بيت أبيه ؟ أيرضيك ان يخاطبنى بهذه اللهجة ؟ وهم رمضان باشا ان يقول شيئا ولكن ميرفت قاطعته لتلقى عليه قذيفتها الأخيرة التى كانت تعرف انها ستضمه الى صفها نهائيا :

ـ أيرضيك ان انفذ آخر اقتراحاته التى عرضها على ، وهو ان نستأجر شقة صغيرة وانتقل للحياة معه على معاشه الضئيل الذى

لايكفى مصاريف احدى خادماتى ؟ وذهل رمضان باشا وقال لها :

ـ فؤاد قال لك ذلك ؟

ـ طبعا قاله لى وقد أخفيت عنك الموضوع حتى لا أجرح شعورك وأزعجك وأضايقك ·

وبهت رمضان باشا وراح يغمغم :

ـ لقد جن من غير شك ، معك الحق لقد نفضت يدى نهائيا منه ، تصرفى مع هذا المجنون كما يحلو لك ·

٥

يممت ميرفت صوب الطابق العلوى وقد بدأت بعض الافكار الغامضة تراودها فاتجهت صوب جناح زوجها وطرقت باب حجرة نومه ، وانتظرت فلم تسمع مجيبا ، فأعادت الطرق بغير جدوى ، فظهر القلق على وجهها وحركت قبضة الباب فانفتح الباب ، ووجدت نفسها فجأة تواجه فؤاد الذى كان يجلس على المقعد الكبير فى حجرته وفى يده ورقة يطالع فيها · وقد حذرت ميرفت على الفور أنها لابد ان تكون خطابا · ونظر اليها فؤاد وقد شاعت البلاهة فى وجهه دون ان ينطق كلمة · وبادرت ميرفت فقالت له :

ـ بونسوار يا فؤاد ألم تسمع طرقى على الباب ، كيف حالك اليوم ؟ ولم يحر فؤاد جوابا وظل يتفرس فيها بهذه البلاهة المرتسمة على وجهه · وأحست ميرفت بالضيق وقالت :

ـ اذا كان دخولى قد ازعجك فأنا على استعداد للانسحاب ، لقد جئت لرؤيتك فقد أخبرنى بابا انك مريض ، ولكن من الواضح انك على مايرام وزجاجة الويسكى الى جوارك ·

وظل فؤاد يحدق فى وجهها دون ان يتكلم ، مما أحنق ميرفت فوصفت نفسها بالفرنسية ، انها مجنونة ومغفلة اذ جاءت اليه · وأدارت ظهرها له وهمت بمغادرة الحجرة ، فاذا بفؤاد يصيح بها

طالبا منها أن تنتظر ، واستدارت ميرفت نحوه وقد اســـتبد بها الغضب ، فراحت شفتاها ترتجفان وصرخت فى وجهه :

ـ لست أسمح لك ولا لمن هو أكبر منك ان أخاطبه فلا يجيب ، ثم تصرخ فى وجهى كما لو كنت خادمة عندك • من تظننى ؟ أيكون قد صور لك السكر أو الجنان انك عدت من جديد الى قســـم البوليس واننى احد العساكر ؟

وكان من الواضح ان فؤاد يبذل جهدا كبيرا لكى يستجمع قواه وارادته ، ليعبر عن شىء فى نفسه • وأخيرا قال لها :

ـ هل فكرت فيما عرضته عليك من وجوب مغادرة هـــذا البيت الموبوء ، الى بيت جديد صغير ، نحاول فيه أن نعيش كما يحيا الناس الشرفاء ، فأتعالج من أدمانى وأبحث لى عن عمل شريف ؟ ثم استأنف قائلا وقد تذكر شيئا جديدا ، بينما كانت ميرفت قد أعماها الغضب مما يقول •

ـ ولا مانع عندى فى أن يعطيك والدك فى بداية الأمر مبلغا معقولا من المال شهريا حتى تستقر أمورنا •

وعبرت ميرفت عن غضبها بضحكة ماجنة ، نمت على مافى طبيعتها من استهتار لاحد له ، ولم تلبث ان كفت عن الضحك فجأة واقتربت منه وقد بلغت ثورتها ضده الذروة وقالت له فيما يشبه الصراخ :

ـ اسمع يظهر اننى احتملتك اكثر مما ينبغى ولولا طيبـــة قلب والدى لما كان لك بقاء فى هذا البيت ، كان يجب ان تطرد منه منذ أمد بعيد ، بعد أن اصبحت انسانا خاملا عاطلا لاجدوى منك ، الا أن تكرع الخمر بالليل والنهار • بأى سلطان تتصور انك قادر على أن تنغص على حياتى ؟ ووثب فؤاد واقفا على قدميه وقد اتسعت حدقتاه وأصبح منظرهما مخيفا ، والاحمرار يحيط بهما ويجعلهما كقطعتين من الدم وصاح بها ، وجسده الذى اصبح نحيلا يرتجف :

ـ بسلطة اننى زوجك ، سيدك ، أتسمعين ؟ واذا كان لن يبقى

لى فى هذه الدنيا الا ان اقتلك واقتل نفسى بعد ذلك فلن أتردد اذا ظللت على سخريتك بى واستهانتك بحقوقى الزوجية ٠

ولم تكن كلمة القتل جديدة على مسامع ميرفت فلطالما سمعته يكررها فى الآونة الأخيرة ، ولكن كان من الواضح انها لاتعنى شيئا سوى افراطه فى السكر ، وكان صداها فى نفسها دائما مزيدا من السخرية به ، بعد أن أصبح اضعف من ان يؤذى ناموسة ٠ والخدم هم الذين يتولون خلع ملابسه ، ومساعدته على الرقاد ، أو القيام من الفراش ٠ ولكن كلماته هذه المرة هزتها من الأعماق ، فهذه الوثبة التى وثبها ، وهذه النظرة المخيفة من هاتين العينين اللتين تقطران دما ، كل ذلك جعلها تحار فيما يمكن ان يكون طرأ عليه من تغير ، وظل عقلها يعمل بسرعة٠ولم تلبث عينها أن استقرت على الورقة التى كانت لاتزال فى يده ، فخطر لها أن يكون احد الخطابات التى مازالت عشيقته تبعث بها اليه ٠ فقالت له فى غضب :

ــ يظهر ان عشيقتك القذرة ارسلت لك خطابا جديدا ، فانت لاتتنمر الا مع كل خطاب جديد ، ولست اعرف مادمت تحبها الى هذه الدرجة وتحبك ، فلماذا لاتذهب اليها وتطلقنى بالرغم من الحاحى عليك فى طلب الطلاق ؟ لماذا لاتذهب اليها وتتزوجها وتريحنى من وجهك ؟ أتعرف لماذا ؟ أنا اقول لك ٠ لأنك انسان دنىء حقير ، لم يعد باستطاعتك ان تتخلى عن الكنز المفتوح لك ٠ ولكنى على استعداد ان اسهل لك الموضوع ، كم تطلب ثمنا لتطليقى ، اننى على استعداد أن أدفع لك من أموالى ماتريد ، ، واذا كانت أموالى لاتكفى فان والدى لن يتردد فى دفع أى مبلغ تطلب ٠ وما عليك الا أن تحدد الرقم ٠ قل كم تريد ؟ خمسة آلاف ؟ عشرة آلاف ؟ قل تكلم ٠

ولم يلق فؤاد أى بال لحديثها عن النقود وقال لها :

ــ احذرك ياميرفت اننى مازلت زوجك ٠ ويجب أن تكفى عن العبث بعرضى وشرفى ٠

ومرة اخرى اطلقت ميرفت ضحكتها الخليعة الماجنـــة فى حنق وقالت له :

ـ جميلة جدا حكاية شرفك هذه ؟ ومنـــذ متى بدأ شرفك يزن عليك . وقطبت ميرفت حاجبيها ونظرت اليه فى صرامة وتحـــد ، واستطردت تقول : اسمع حياتى كانت دائما ملكى ولقد عشت طول عمرى اتصرف فى حياتى كما أشاء ، وسأفعل كل مايحلو لى ، وليكن فى علمك اننى عشيقة وحيد هذه الأيام ، كما تحب ان تصف علاقتى به ، فهو على الاقل رجل وليس مخنثا مثلك . واذا لم يعجبك ذلك فما عليك الا ان ترينى عرض اكتافك .

واستولت على ميرفت نوبة من الهستريا فاذا بها تعدو الى الخارج وهى تصرخ ، وهبطت السلم بسرعة وهى لاتزال تصرخ ، وقابلهــا أبوها الذى اسرع يعدو عندما سمع صرختها الاولى ، والتف حولهــا الخدم الذين جاءوا من كل مكان عقب سماعهم صراخها . وارتمت فى احضان أبيها الذى كاد ان يموت رعبا مما يكون قد اصابها ، وراحت تقول له وهى تبكى فى هستيرية وتدق الارض بقدميها :

ـ اما أنا واما هو فى البيت ، لن أبقى فى البيت لحظة واحـدة اذا لم تطرده على الفور .

وكان الذى يهم رمضان باشا هو أن يهدئها أولا وقبل كل شىء فقال لها :

ـ وحياتك يانور عينى لابد ان اطرده وحالا ، كل الذى أرجوه أولا ان تهدئى ، اهدئى ياحياتى ، انك تقتليننى هكذا . وطلب من الخدم أن يسرعوا باحضار بعض الماء لابنته.وجىء بالماء وشربت بعض قطرات منه، وكأن منظر الخدم الذين كانوا يحيطون بها ،وجزع والدها الشديد أعاد اليها شيئا من هدوئها ، فقالت وقد زالت عنها الهستريا وحل محلها العزم والتصميم :

ـ يجب أن يخرج فؤاد حالا من البيت بأى طريقة فلا يمكن ان

يظلنا سقف واحد بعد اليوم • تصور انه يقول لى انه سيقتلنى •
واصفر وجه رمضان باشا وقال لها :

ـ لقد جن من غير شك وسأطلب نقله الى مستشفى المجاذيب فورا • وأهاب بالخدم الذين احتشدوا حوله ان يصحبوه • وكان بعضهم قد حمل مكنسة فى يده بينما كان الطباخ يحمل سكينة ، واقتحم الباشا ومن معه حجرة فؤاد فاذا بهم يرونه طريحا على الأرض فاقد الوعى والزبد يملأشدقيه •

وأحس رمضان باشا ومن معه بشىء من الخجل ، فبينما كانوا يتصورون انهم سيهاجمون حيوانا كاسرا اذا بهم لايلقون الا انسانا مريضا يوشك ان يموت ، فامتلأ قلب رمضان باشا شفقة على المخلوق التعس ، وطلب من الخدم ان يرقدوه على السرير وان يتصلوا بطبيب العائلة ليرى مايراه بشأنه • وأسرع ادريس الى تنفيذ أمر سيده بحمل فؤاد الى الفراش ، وأخذ من يده الخطاب الذى كان معه • وقد كفى أن ينظر رمضان باشا الى الخطاب بنظرة واحدة ، لكى يعلم انه من عشيقته الراقصة • ولم يشأ أن يطالع مافيه فقد كان يعرف القصة كلها ، كان يعرف انها لم تنفك مذ تزوج تلاحقه بخطاباتها التى تشكو فيها من انه لايرد عليها ، وأنها بالرغم من ذلك ستظل تكتب له•

ومزق رمضان باشا الخطاب فى صمت وأعطاه لادريس كى يحرقه كما فعل بخطابات مماثلة له من قبل فى مناسبات مختلفة •

٦

انطلق خالد أمين كالجبار بمجرد عودته من انجلترا ، بعد ان رفض كل الوظائف الضخمة التى عرضت عليه ، وقرر ان يكرس حياته لحركة البعث ، يعيد بناء الحركة وينظم صفوفها وكانت تضحيته وفدائيته التى لامثيل لها تجعل النفوس تنقاد له ، فحققت الحركة على يديه فى اقل من عام ، مالم تحققه فى السنوات السابقة من حيث التنظيم وانتشار اللجان والشعب فى انحاء البلاد •

ووصل خالد أمين فى إحدى جولاته الى المنصورة ، وحال البوليس بينه وبين عقد الاجتماع الذى دعت اليه الشعبة • واحتشـد حوله شراذم من الشباب يدعونه للاجتماع به فى بيوتهم وراح يقول لهم فى ايمانه العميق ان هذا الليل لابد له من آخر ، واقترح عليهم ان يبدأ باطلاع فوزى فى القاهرة على ماجرى ، واتصل خالد بصـاحبه فى القاهرة وشرع يقص عليه تعرض البوليس لهم وتعنته البالغ وكيف انهم يحاصرونه حتى فى هذه اللحظة التى يخاطبه فيها بالتلفون •

وبينما كان فوزى ماضيا فى حديثه مع خالد ، اذ دخل عليه واحد من اصحابه مصفر الوجه وهو يقول فى اضطراب :

ـ مجد الدين عبد الخالق ضرب رئيس الحكومة بالرصاص فى مصر الجديدة ، وقد قبضوا عليه وهو مرتد قميصا اخضر ، وهو يهتف الله اكبر والمجد لمصر •

وصعق فوزى للنبأ وتساءل فى فزع :

ـ وهل مات رئيس الحكومة ؟

ـ لم يصب بسوء •

وذهب الروع عن فوزى وقال :

ـ الحمد لله ، الذى حفظ لنا صفحتنا نقية غير ملوثة بدم •

وتساءل خالد فى الطرف الثانى من الخط عما جرى ، وقص عليه فوزى تفصيل ماحدث ، طالبا منه ان يحتاط لنفسـه ويسرع فى العودة توا الى القاهرة • ولكن خالد لم يكد يسمع النبأ حتى انطلق يهتف ، الله أكبر ، فتح ونصر ، فليسقط رئيس الحـكومة المجرم • وعبثا حاول فوزى ان يهدىء من ثائرة خالد الذى ظل يهتف فى عصبية ولم يلبث فوزى ان سمع صوت دربكة وخبط وصـياح ثم قطعت المكالمة ولم يعد يسمع شيئا • وتذكر فوزى ما قاله له خـالد ، من حصار البوليس له وهو يخاطبه فى التلفون وأيقن ان صاحبه لابـد ان يكون قد أصيب بسوء • على ان سير الحوادث فى القاهرة سرعان ما أنساه مؤقتا مايجرى فى المنصورة فى هذه اللحظة ، فقـد بدأت

الأنباء تترى عن تفاصيل ماحدث وظهر بعض الأعضاء يحملون القصة كاملة :

لقد أطلق مجد الدين ، الذى كان أحد من صحبوا فوزى فى رحلة الصعيد ـ ولكنه لم يلبث ان قدم استقالته بسبب ما من الحركة ـ الرصاص على رئيس الحكومة وهو ممتط سيارته • ولولا أن كانت السيارة تسير بسرعة ونوافذها مغلقة لأصيب رئيس الحكومة حتما •

وتحدث المتحدثون كيف ان مجد الدين راح يهتف بعد اطلاقـــه النار بسقوط معاهدة الخزى والاحتـــلال • وعندما لحق به حرس الوزارات وانهالوا عليه ضربا ، مافتىء يهتف الله أكبر والمجد لمصر • وكاد الضباط يقتلونه قتلا ركلا بالأحذية ، لولا ان انقذه من أيديهم احد الضباط الذى لفت نظرهم الى وجوب الابقاء على حياته لمعرفـــة شركائه •

واغتم فوزى لهذه الانباء كما لم يغتم فى يوم من الأيام ، وسرح بخاطره من جديد عما يمكن ان يصيب صاحبه فى المنصورة ، وعمـــا سيحل بهم جميعا من اذى بعد ان وجدت الحكومة الفرصة التى كانت تتحينها منذ أمد بعيد • وأوصى فوزى اخوانه بعدم المبيت فى بيوتهم لينجوا من الاعتقال الجزافى الذى لابد ان يجرى هذه الليلة ، اما هو فقد توجه الى البيت رغم ان الساعة لم تكن قد تجاوزت التاسعة ، فقد رغب ان يودع وفاء قبل ان يقبض عليه ، فلم يكن لديه ذرة من الشك أنه سينكل به ، وأن الكارثة التى كان يحسها فى الجو قـــد وقعت أخيرا •

ودهش فوزى وهو يحدث وفاء عن الحادث ، ان قابلته بهـــدوء عجيب ، وتصور أنها اصطنعت ذلك أمام والدتها مما جعـــله يزداد اعجابا بها لقدرتها على امتلاك عواطفها ، وكانت دهشته اشد عندما وجدها ، تحافظ على هذا الهدوء وحتى بعد أن أتيحت لهما الفرصـــة لينفردا ، وقالت له وهى تبتسم :

ـ وما دخلك انت بهذا الحادث ؟ شاب طائش حاول أن يقتـــل رئيس الحكومة ثم أنجاه الله ٠

ـ ولكن احدا لن يسأل الآن عن علاقتى بالحادث أو عدم علاقتى به ، لقد كانوا يتربصون بنا منذ أمد بعيد ليبطشوا بنـا ولم يكونوا يعرفون من أين يبدأون ، وهاهو مجد الدين قد زودهم بمـــا كانوا يتلمسونه من ذريعة وعلل ٠ وقالت له وفاء وابتسامتها لم تغض بعد من وجهها :

ـ لماذا تحاول دائما ان تخيفني وترهبني مما سيحل بك ؟ ان قلبى يحدثنى انك لن تمس بسوء ٠ وانتعش فوزى لهذه الكلمات وبثت فى نفسه الطمأنينة وغمغم قائلا :

ـ ربنا يسمع منك ياوفاء ٠

ـ اننى مطمئنة ولست اشعر بأى خوف ٠

وعجب فوزى لهذا الموقف العجيب ، فقد كان يظنها ستكون فى حاجة الى تشجيعه فاذا هى التى تشجعه ٠ ولقـد عاد الى البيت وهو منتو أن يهيب بايمانها بالله ، فاذا هى التى تستثير الايمان فى قلبه ٠ وأمسك بيديها وراح يحدق ، كما أصـــبحت هوايته ، فى عينيهـــا الجميلتين ٠

وتخاطبت روحاهما من خلال العيون بلغة تدرك وتحس دون ان تلفظ ٠

ـ من انت واين كنت مختفية عنى ؟

ـ أنا لك منذ الازل ٠

ـ ولماذا تأخرت على حتى الآن ؟

لتكون أكثر تلهفا لمعرفتى ، وأكثر تقديرا لدورى ٠

وهبط فوزى من هذه الشطحة الروحية الى دنيا الواقع فقال لوفاء:

ـ لست اعرف متى سيجىء البوليس ليقبض على ، ولكنه سيجىء حتما ، فعدينى ان لاتبكى ٠

ـ وحبى لك لن تعرف عينـــاى الدموع اذا قبض عليك حتى تعود الىّ ٠

وعاد فوزى الى حجرته ، ونام كل من فى البيتين ماعـــداه هو ووفاء ، فقد ظلت عيونهما الأربعة ساهرة ٠ فوزى فى حجرته وحيدا ، ووفاء على سريرها بجوار اختها وصاحبتها الوحيدة ، والتى يحلو لها أن تدللها باسم « تاتا » ٠ وقد فشلت تاتا لأول مرة ، ان تحمـــل وفاء على النوم ٠

ومضى الليل الا أقله دون ان يظهـــر البوليس المرتقب ، وبدأت ساعات الصبح تتوالى فى بطء ثقيل دون أن يعكر صفو الســـكون معكر ، ومع ذلك فلم يفكر فوزى فى خلع ملابسه ٠ كان يريح أعصابه أن يراه البوليس اذا جاء مستعدا ٠ وكانت الليلة معتمـــة فلا قمر ولانجوم بسبب السحاب والضباب ، حتى مصابيح الشارع ذات النور الذابل والتى لم تكن تزيد وسط الضباب عن هالات خافتة من الضوء لم تلبث ان أطفئت بدورها ، فأصبح الظلام فى الشارع دامسا والحلكة موحشة ٠ وعبثا تطلع فوزى الذى فتح النـــافذة رغم القر الذى كان يحس به ، عن بصيص من النور بحثا خلف سيارة البوليس التى كان يتصور فى كل لحظة انها قادمة ٠ وبدأت أعصابه تنهك وتكل ٠ ومع تعب الأعصاب يسود التوتر والقلق والخوف ، فأغلق النافذة ، وجلس من جديد على كرسيه الى جوار مكتبه الصغير الذى لازمه مذ كان طالبا فى الثانوى حتى اصبح رئيسا للحركة ٠ وراح يعبث بأوراق قديمة ، ولم يلبث ان نام دون ان يشعر ، نام قدرا من الزمن لم يستطع ان يحدده ، فقد استيقظ على رنين جرس الباب وهو يدوى فى ســكون الليل البهيم ، منذرا بالشر والسوء ٠

وأسرع الى الباب يفتحه ، وكأنما كان يرى ماوراء الباب ، لكثرة ما اعتاد المنظر : ضابط وبعض الجنود والمخبرين بجلاليبهم ومعاطفهم الطويلة فوقها ٠ ولم يكذبه حدسه ، ولذلك فقد قال للضابط ومن معه:

ـ اهلا وسهلا ، لقد كنت فى انتظاركم ٠ فقال الضابط :

ـ هذا يسهل مأموريتنا ، فهيا بنا مادمت لابسا حتى لانضيع وقتا ٠

وفرح فوزى أن يتم الأمر بهذه السهولة فلا يحتاجوا للدخول الى الشقة وازعاج النائمين ٠ ولذلك فلم يعن بأن يأخذ معه شيئا من الملابس ، وأسرع فخرج من الشقة واغلق الباب خلفه فى هدوء ، راجيا أن لايكون والده المسكين قد استيقظ أو اخوته الصغار وامهم ٠

ولكنه لم يكد يشرع رحلته هابطا السلم الى جوار الضابط حتى وجد الضوء ينبثق فى شقة شريفة هانم ، وفتحت شراعة الباب وظهر خلفها وجه وفاء ، وهو يشرق بابتسامة مضيئة ، وراحت تهز له يديها بالتحية غير ملقية بالا الى الضابط والعساكر الذين استوقفتهم هذه الحركة ، وبعثت الأسى الى نفوس بعضهم ٠

وعندما هبط فوزى ومن معه وأصبحوا فى الشارع كان ضوء النهار قد بدأ يبدد الظلمات المدلهمة ٠ ولفح هواء الصباح البارد وجه فوزى فانعشه ، وأحس بنفسه منتشيا هائما فى بحر من السعادة ٠ وعندما قفز بخفة ليركب (البوكس) الذى كان فى انتظارهم ، كان يغمغم : لتجر الحوادث ماشاءت ان تجرى مادام هذا الملاك الى جوارى ٠

٧

وجد فوزى سجن قسم السيدة زينب حيث أودعوه يغص بالمعتقلين من زملائه ومعارفه ، وأزعجه واشعل نيران السخط فى نفسه ، أن وجد بين المعتقلين ذلك المحامى الشرعى الكفيف ، الذى اعتاد أن يزوره فى دار الجماعة مشجعا ومحبذا ٠ ماذنبه يجاء به فى مثل هذا الحادث؟ لقد دل ذلك على أن الحكومة ستخبط خبط عشواء ٠

ودعى فوزى من جديد وقد أصبح الوقت ضحى ، وفهم أنهم سيقودونه طبقا لتعليمات جديدة الى قسم عابدين ٠ وركب من جديد (بوكس) البوليس ٠ واشتدت اشعة الشمس وغلظت فاستحبها فوزى فقد كان البرد يهرأه فاسنانه تصطك وأوصاله ترتجف ٠ وقابل

(البوكس) المنطلق مظاهرات صاخبة تهتف مطالبة بموت رءوس الفتنة .

وانكمش فوزى بحركة لاشعورية ليخفى نفسه من غضب المظاهرات ، وقد كان يعرف ان بحسبه ان تقف السيارة ، وأن يقال للجماهير هذا هو فوزى لكى تمزقه اربا . ولكن من حسن الحظ أن البوليس المرافق لم يفكر فى شيء من ذلك . وابتعدت السيارة عن المظاهرات ، وعندما عاد فوزى ليحدق فى المظاهرات سرى عنه انها كانت تتألف من بعض العاطلين والصبية ، وليس فيهم سوى افندى واحد أو اثنين من محترفى المظاهرات . على ان هذه المظاهرات التى كان من الواضح ان حزب الحكومة قد نظمها ، ولابد انه سينظم ماهو اضخم منها بعد قليل ، قد زادت فوزى يقينا فوق يقين بمدى المحنة التى أصبح يتعرض لها هو وبقية اخوانه .

وكان سجن قسم عابدين مكتظا بصفوة المجاهدين ، الذين اسرعوا يعانقونه وهم يهللون ويكبرون . كان هناك شكرى ومحيى وصبرى وسعد وبدوى وأسعد وعامر وشفيق وابراهيم واحمد ومحمد ومحمود ونظير وعلى ومراد ومصطفى وحلمى وفايز وعمرو وطلعت وأنور وحسن وحسين وتوفيق وصبحى وموسى وحنا وعبد العزيز وعبد الحميد وعبد الخالق وعبد العال كلهم ... كلهم كانوا هناك عشرات وعشرات من هذه الصفوة المختارة من أبناء الجيل ، الذين تصدوا للجهاد من أجل حياة أفضل وأخصب .

وكانت حجرة السجن تغص بهم ولاتكاد تحتمل حرارتهم وحماسهم ، لقد جعلهم اجتماعهم الى بعضهم بهذا الاسلوب أقوياء أشداء اصحاب عزم حديدى . وراح كل واحد يقص على فوزى قصة اعتقاله . كان أصحاب القصص يقولونها فى مرح وسرور وسعادة ، ولكنها بدأت تحز فى نفس فوزى حزا ، ويشعر بأنه يتحمل وزرها على كاهله . آلمه أن يساق شكرى من فراش عرسه ، فلم يكن قد مضى على زفافه سوى اسبوعين ، وأن يغل بالحديد . ونور الذى كان امتحانه النهائى فى بكالريوس الطب بعد أيام . وامتقع وجه فوزى



لهذه القصص فما كان من شكرى الا ان قال له وهو يتوجع ، وقـــد كف عما كان عليه من مرح :

ـ وأين هذا الذى اصابنا ، مما حاق بالدكتور خالد أمين ؟ لقـد رأيته بعينى رأسى هذه مربوطا بالحبال مع اثنى عشر عضوا آخرين، والدم المتجمد يلوث وجهه ٠ وقد علمت انهم جاءوا بهم من المنصورة على هذا الشكل طول الليل ، ولم تكد أبصارهم تقع علينا ونحن نجتاز ميدان باب الحديد ، حتى بادرونا بالهتاف ، الله اكبر والمجد لمصر ، فانهال عليهم الجنود بالضرب ورددنا عليهم الهتاف ، ولكنا ابتعدنا عنهم بالسيارة دون ان نعرف ماذا حاق بهم ٠

وصعق فوزى لهذه الانباء ، ووضع يده فزعا على عينيه ليخفى هذه الصورة المخيفة ، صورة الدكتور خالد أمين حامل الدكتوراه وهو مربوط بحبل مع الآخرين ٠ وحنا صبرى على فوزى وقال له لاينبغى أن تؤلمك هذه الصور ، انهـا الحرب ، ألسنا فى حرب ؟ والمهم هو النتيجة النهائية ٠ وتدخل محيى الذى كان طول الوقت ساهمـــا وساكتا على خلاف العادة فزاد على قول صبرى :

ـ لست اشك لحظة فى ان النتيجة النهائية ستكون فى صالحنا، ولكن علينا ان نوطد انفسنا لاحتمال الكثير من الآلام ٠ ثم أضـــاف قائلا : لولم يسافر فكرى فى وظيفته الجديدة فى اليابان لكان الآن معتقلا معنا ، فالحمد لله ٠

واقترح شكرى ان ينشد الجميع نشيد اسلمى يامصر ٠ وارتجت حجرة السجن بالنشيد المحبوب ، وعبثا راح السجان يهـــدد وينذر ويتوعد ، فلم تكن قوى الشر كلها قادرة على اطفاء هذا اللهب المقدس٠ ولم تطل فرحة فوزى وأنسه بهذا الجو مع اخوانه والذى كاد ينسيه آلامه ، فقد دعى مرة ثالثة ، واقتيد الى قسم الخليفة فاودع فى سجنه٠ كان هذه المرة وحيدا منفردا ، فقد اخلى السجن كما يبدو لهذا الغرض٠ وادرك فوزى مافى ذلك من دلالة فقد بدأوا يضيقون عليه الخنـــاق ويعزلونه عن اخوانه ، تمهيدا لافتراسه ٠

وكان الشهر شهر الصيام ، وحل موعد الافطار ، ولم يقدم أحد لفوزي شيئا من الطعام ، وربما ادعى العساكر ان كلا منهم مشغول في رمضان • وهم فوزى أن يطلب عونا ، ولكنه لم يلبث ان استنكف واستحى • ان عليه ان يصبر ويحتمل • وعلى أية حال فأين هذا مما لايزال ينتظره ، انه لايزال فى البداية •

وسيق للمرة الرابعة ـ فى منتصف الليل وقد أضناه السهر يومين متعاقبين ، أضيف اليهما الجوع والقلق والغم لما أصاب اخوانه، ـ الى سراى النيابة العمومية ، ومن ثم اقتيد الى حجرة النائب العام ، ذات الباب المكسو بالجوخ الاخضر ، الذى انقبض فوزى لمرآه هذه المرة ، وهو الذى كان يبهجه من قبل عندما كان يجتازه كمحام •

وأحس فوزى وهو يدخل حجرة النائب العام الواسعة التى كان يغمرها الضوء الساطع أنه يقطع أول خطواته نحو المشنقة • وكانت أعصابه الكليلة التى أضناها القلق والسهر والجوع ، تتضافر كلها مع الجو الرهيب الذى وجد نفسه محاطا به وسكون الليل ، لخلق هذا الشعور فى نفسه ، انه يجتاز خطواته الاخيرة نحو النهاية •

وكان النائب العام رجلا نحيلا طاعنا فى السن لم يشأ أن يرفع رأسه عندما دخل فوزى لينظر اليه • وظل يحدق فى الأوراق منكبا عليها ، وسأله الرجل دون أن يرفع رأسه :

ـ ما اسمك ؟

واحنق هذا التصرف فوزى فجعل نيران الغضب تشتعل فى نفسه ، ولما كان موقنا أن مصيره قد تقرر سلفا ، فقد وجد نفسه يندفع لتحدى النائب العام ، وأن يفرغ فيه كل غضبه ، فقال للنائب العام :

ـ ولكن من تكون أنت أولا ؟ اننى لا اعرفك •

وبوغت النائب العام بهذا السؤال غير المتوقع والذى يفيض بالقحة والتحدى ، فرفع رأسه ونظر لفوزى والشرر يتطاير من عينيه وقال له :

– أنا النائب العام ٠

– لايوجد شيء من تصرفاتك يدل على انك النائب العـــام ، انك تتصرف كما لو كنت شاويشا فى أحد الاقسام ٠

وصعق كل من فى القاعة ، وندت عن بعض الضباط صرخـــة خافتة ، وتحركت بعض الايدى فى اتجاه وجه فوزى للطمه اذا اذن لها فى ذلك ، أو لسد فمه ، اذا استمر على هذا الافحاش فى القول ٠ بينما ظل قلم سكرتير التحقيق معلقا فى الهـــواء من فرط الذهول ، والسكرتير نفسه يحملق فى فوزى ولسان حاله يتساءل عما اذا كان مجنونا ٠ وقد ساعد هذا الجو النائب العام على احتمال الصــــدمة فلا يطيش صوابه ، ولم يزد رد الفعـــل عنده على ان قال لفوزى فى عنف وغضب :

كيف تسمح لنفسك ان تهين النائب العام هذه الاهانة ؟ ولكننى سأعرف كيف أؤدبك ٠ على أن هذا التهديد لم يزد فوزى الا اصرارا على المضى فى تحديه فقال :

– ان الموظفين العموميين لايتميزون باللافتات التى توضـــع على ابوابهم ، ولكن بالطريقة التى يتصرفون بها ، والنائب العـام قاض قبل ان يكون شيئا آخر ٠

وضرب النائب العام المائدة بكفه فى غضب وقال :

– كيف لاتعرف اننى كنت مستشارا فى محكمة الاستئناف ؟

– اذا كنت كذلك ، فكيف تعاملنى كما لو كنت متهمــــا قد تم اصدار الحكم عليه ، ولم يبق ناقصا سوى التنفيذ ؟ كيف لاتسمح لى أولا بالجلوس ، وتسألنى عن أحوالى ، أو تدع لى فرصة لكى أشكو اليك ؟ هل تعلم اننى بالرغم من صيامى لم اذق طعاما منذ يومين ، ولم أنم وقد نقلت فى ثلاثة سجون فى بضع ساعات قبل أن أصل اليك ؟

وقاطعه النائب العام قائلا :

– كفى لا أريد أن أسمع منك أى كلام الا على قدر السؤال الذى يوجه اليك ، ما اسمك ؟

– اذن لاتطمع ان تسمع منى أى جواب على اسئلتك .

ونظر النائب العام لفوزى فى غضب وحقد وبدا عليه كما لو كان يتمنى ان يسحقه وقال له :

– انك لاتعرف ما الذى تجره على نفسك بهذه الوقاحة وهذا الاجرام ؟ ولم يزد فوزى على ان نظر له باحتقار . ولم يبق امام النائب العام الا أن يطلب من الضباط ان يقتادوا فوزى من أمامه .

وهيأ فوزى نفسه ، وعضلاته واعصابه ، لاحتمال ماسوف ينهال عليه من ضرب وايذاء على يد البوليس بمجرد مغادرته حجرة النائب العام . وكم كانت دهشته عظيمة عندما لم يقع شىء من ذلك .

ولم تكن الدنيا تسعه من الفرح عندما وجد نفسه فى خاتمة المطاف فى أحدى زنازين سجن الاستئناف الذى كان اشبه بالنسبة له الى ان يكون فندقا يتردد عليه ، يعرف كل من فيه ويصادقهم . لم يكد يغلق عليه باب الزنزانة بعد أن أعطى له البرش المعهود والبطانيتان حتى كان فى سبات عميق أقرب مايكون الى الاغماء ، لفرط ما عانى من توتر وسهر وجوع وقلق .

٨

لم يلبث سجن الاستئناف على سعته ان ضاق بالمسجونين من جماعة البعث ، والذين جىء بهم من سائر انحاء القطر وزج بهم ، بتهمة الشروع فى قتل رئيس مجلس الوزراء . وقد أربى عدد المسجونين على بضع مئات غير الذين كانوا لايزالون فى سجون الاقسام أو سجن المحافظة (التخشيبة) وسجون المراكز بالاقاليم .

وبدأت هذه المبالغة من جانب الحكومة تحول التيار ضد رئيس الحكومة والحزب الحاكم . وتكتلت القوى المعارضة فى البلاد حول التنديد بما تتخذه الحكومة من اجراءات شاذة فى هذه القضية ، أهدرت فيها أبسط حقوق الانسان فضلا عن كل المبادىء الدستورية . وكانت أنباء ذلك تتسرب الى السجن فتنعش المسجونين ،

والذين لم يكونوا فى حاجة الى ماينعشهم، فقد كان مجرد تكتلهم وتجمعهم يكسبهم قوة وشجاعة واستهانة بالمخاطر . كانوا مطمئنـــين الى أنه يستحيل على أى محقق ان يربط بينهم وبين حادث الشروع فى القتل وهم بهذه الكثرة ، وبعضهم لم ير مجد الدين المتهم الأول بل لم يسمع باسمه .

كان الليل لايكاد يرخى سدوله على ســـجن الاستئناف وتغلق أبوابه ، حتى يتحول السجن الى ناد ضخم ومجتمع يغص بالشــباب وأسباب المرح والسرور والحياة . كان الشبان يصعدون على جرادل الماء الموجـــودة فى كل زنزانة ليقتربوا بذلك من شراعات الأبواب ويتخاطبوا فيما بينهم ، ويقص كل منهم على زملائه ما قاله فى النيابة أو سمعه فى التحقيق أو طالعه فى الصحف . وكان البعض منهم يرتل القرآن والبعض يغنى . وسرعان ما رأوا أن ينظم ذلك كله بطريقـــة منسقة . فأصبح مايجرى يتم وفق برنامج معد ســـلفا ، فمن تلاوة للقرآن يقوم بها أحفظ الجميع للقرآن وانداهم صوتا ، الى اذاعة نشرة أخبار داخلية بحوادث السجن ، واخرى خارجية تتناول ما يدور فى التحقيق والحوادث السياسية الجارية.ثم قصص تقص وحكايات تحكى ومسرحيات تمثل ومناظرات تعقد . على أن الاناشيد والاغانى كانت هى صاحبة النصيب الأوفر من البرنامج ، وحماسة الجميع فقد كانوا يشتركون فيها كلهم . ولم تقتصر الاناشيد على ما كانوا يرددونه دائما كنشيد اسلمى يامصر أو سودى على رغم الزمن يامصر يانعم الوطن ، بل اصبحت المسألة بمثابة معرض للاناشيد ، ابتداء من اناشيد سيد درويش القديمة مثل أنا المصرى كريم العنصرين ، ويا بلادى بلادى لك حبى وفؤادى ، وحتى الاناشيد العربية من فلسطين وسوريا والعراق من أمثال « نحن الشباب لنا الغد » وبلاد العرب أوطانى .. على ان النشيد الغنائى الذى احتل الصدارة فى هـــذه الأيام هو النشـــيد الفلسطينى « ياظلام السجن خيم ، اننا نهوى الظلاما » .

وهكذا كانت الضربة التى أريد بها تمزيق شمل حركة البعث ،

هى التى جمعت شملها ووطدت اركانها فى نفوس صفوة ابنائهـــا ٠ أما بالنسبة للقضية فقد أصبح كل مسجون عالما بما يدور ، فـــلم تستطع النيابة ان تخدع واحدا منهم أو ان تضلله ٠ ووقف الجميع صفا كانهم بنيان مرصوص ٠ وأسقط فى يد النيابة وحارت ما الذى تفعله وسط هذا الخضم ٠

على أن فوزى كان هو الوحيد وسط هذا الحشد من الشـــباب المرح الطروب ، الذى حول السجن الى منتدى ، من ظل يقدر خطورة اللحظات التى كانوا يحيونها ، وتنصب فى نفســـه كل آلام واحزان المتألمين والمحزونين من آل هؤلاء الشباب واقربائهم ٠

وكان السجن لايكاد يهدأ ، ويأوى الجميع الى مضاجعهم ، حتى يبدأ دوره فى السهر والأرق ٠ ما الذى تقوله الآن عروس شكرى التى انتزع منها عريسها فى شهر العسل ، والتى فوجئت بتحول مهمتها الى ان تشرف على ارسال الملابس والطعام له فى السجن ؟ أى صدمة يمكن ان تصاب بها فتاة فى مقتبل عمرها اعنف من هذه الصـــدمة ؟ ما الذى تفعله الآن أمهات وآباء هذا النفر الذى يجب ان يمتحن بعد أسابيع ؟ ماهو احساس زوج وأبناء هذا الرجل الوقور الطيب مختار بك مدير الشرقية الأسبق الذى جاءت به الحكومة ســجينا مع هؤلاء الشبان ٠ كان الرجل الشيخ قد وجد فى شباب البعث مايذكره بشبابه وهو ينظم الجمعيات السرية ضد الانجليز ، وهو يشعل النيران فى ثورة سنة ١٩١٩ بالرغم من كونه المأمور المكلف بالمحافظة على الأمن ٠ وكان قد انقلب مؤخرا على زعيم حزب الأغلبية بعد ان كان من اشد انصاره، ووجد فى حركة البعث متنفسا فراح يزورها من حين لآخر ٠ واستغل رئيس الحكومة الفرصة فزج به فى السجن شريكا لابنـــــاء البعث لم يرع ماضيه وجهاده ٠ لقد كان اعتقاله جرحا فى قلب فوزى ، وكان هذا الجرح ينز بالدم كلما هجع كل من فى الســـجن وظل فوزى مسهدا ٠

على ان ما كان يعتصر قلب فوزى اعتصــــارا من الألم والحزن،

والشعور بالمرارة ، هو ما حاق بصاحبه خالد أمين الذى اعتدى عليه البوليس اعتداء وحشيا فى المنصورة ، وما صب عليه من اهانات . كان بحسب فوزى أن يرى خالد أمين وهو معصوب الرأس تحيط الضمادات بوجهه ، كى لايهنأ له عيش أو تطيب حياة . ثم لم يعد يراه ، وقيل انه نقل الى احدى المستشفيات . وانتاب فوزى الجزع ان يكون خالد قد أصيب بعاهة لايرجى منها شفاء . ولم يكن اهتمام فوزى وحزنه من أجل مجد الدين عبد الخالق نفسه ، بالرغم من انه سبب كل هذا البلاء ، بأقل من حزنه وألمه من أجل الآخرين . وقد استحق مجد الدين كل محبة فوزى وعطفه لوقفته وقفة بطولية فى التحقيق ، فقد احتمل كل صنوف العذاب ، واحتقر كل المغريات التى لوح له بها ليقرر ان فوزى ومحيى وصبرى وخالد أمين وغيرهم من قادة الحركة هم الذين حرضوه على فعلته ، وأنهم امدوه بالسلاح والمال . بل لقد طلب منه أن يزج بمن يشاء من أسماء رؤساء الاحزاب المعارضة ، وبرئيس الديوان الملكى اذا أراد . ووعدوه ان يجعلوا منه شاهد ملك فيقضى ببراءته ، ولكن مجد الدين قاوم ذلك كله بعزيمة لاتلين ، واحتمل الضرب والتعذيب والتجويع ، على ان يتهم بريئا . وظل يكرر فى التحقيق انه فعل مافعل بوحى ضميره ووجدانه ، احتجاجا على معاهدة الخزى والاحتلال ، التى اضاعت السودان ولم تحقق الجلاء . وانتقاما للحريات المهدرة ومبادىء الدستور التى أصبحت توطأ بالاقدام .

ووضع مجد الدين عقابا له وتعذيبا فى احدى حجرات المحكوم عليهم بالاعدام ، حيث تسلط عليهم الأنوار طول الليل والنهار ، ويراقبهم الحراس بدون انقطاع . كان فوزى يتوجع له ، ويؤلمه ان ليس باستطاعته ان يكلمه ويطمئن على صحته وان يهنئه على بطولته. وكانت الوساوس تساوره أحيانا ، الى كم من الزمن يظل مجد الدين قادرا على احتمال هذا العذاب والتشبث بهذا الموقف البطولى ؟ أليس من الجائز ان تنهار أعصابه فى نهاية الأمر ، فيلبى ما يطلب منه ، ويتهم كل من يحلو للحكومة ان تتهمه وعلى رأسهم فوزى ؟

وهكذا كانت هذه المشاعر والاحاسيس تتجمع كلهـــا فى نفس فوزى اذا جن الليل ونام كل من فى الســــجن ، فيظل يتقلب على فراشه وكأنه قد من شوك • وكان ماتنشره الصحف من تشويه لجهاد الجماعة ، وكيف عثر على الأدلة الدامغة والمســــتندات التى تثبت اتصالها بدول أجنبية ، وكيف أن المحققين ورجال البوليس يعلنون عن اتجاه التحقيق اتجاها جديدا خطيرا ، الى غير ذلك من الأراجيف، كان كل ذلك يمزق فوزى تمزيقـــا ، فلايجـد أمامه الا أن يفزع الى الصلاة ويروح يجأر الى الله بالدعاء •

احكم بيننا وبين رئيس الحكومة يارب ، احكم بيننا وبين رئيس الحكومة يارب ، احكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين •

٩

جدد الأمر بحبس فوزى أربعة عشر يوما آخرين بعد الاربعـــة الأولى ، وترك النائب العام فوزى بغير استجواب ، حتى اذا لم يبق على نهاية الأيام الأربعة عشر سوى يوم واحد ، استدعاه من جـــديد للتحقيق وقابله بالوجه المتجهم العبوس ، وسأله فى جفاف وغلظـــة عما اذا كان مستعدا ان يجيب • ورد عليه فوزى فى برود ، ان ذلك يتوقف على مسلكه معه، فاذا تصرف بما يمليه عليه واجبه من حياد ونزاهة، فسيكون مستعدا للعدول عن قراره • واستشاط النائب العام غضبا من جديد وصرخ فى وجه فوزى :

ــ ما الذى تريده منى ؟ أتريد ان أدللك ؟ ألا تعلم انك متهم بتهمة خطيرة هى تهمة الشروع فى مقتل رئيس الحكومة ؟ الا تدرك خطورة موقفك وانك تزيده سوءا بهذا التصرف ؟

وهز فوزى كتفيه فى سخرية وقال للنائب العام :

ــ ان مشكلتك انك لاتتصورنى متهما فحسب ، بل ومحكوما عليه بالفعل • الك تعلم ان أوليات المبادىء الجنائية ان المتهـم برىء حتى تثبت ادانته ، فلو انك محقق نزيه لوجب ان تعاملنى كبرىء حتى تتوفر

لديك الأدلة القانونية على ادانتى ، انك لن تستطيع أن تحـول ثقتى بنفسى ،وببراءتى • بل لن تستطيع مهما أوتيت من قوة ان تغير من نظرتى للأمور ، وهى اننى أنا الذى اتهم ولست متهما ، أتهم رئيس الحكومة بالاعتداء على الدستور والحرمات، والتفريط فى حقوق البلاد، وان أتخذ من موقفك معى ، انه قد عبث حتى بالقضاء واستقـــلاله ، فجعل منك أداة طيعـــة لخدمة أغراضه • ولاعجب فى ذلك فرئيس الحكومة هو القائل « ان القضاء المصرى قد فسد الى درجة التعفن »•

وصرخ النائب العام فى وجه فوزى :

ـ اسكت ، من تظن نفسك ؟ اننى لن أصبر بعد اليوم على هــذه الوقاحة ، ورد عليه فوزى :

ـ لن تستطيع ان تسجننى فوق سجنى الانفرادى ، وليس امامك الا ان تجلدنى ، او ان تأمر بشنقى بغير محاكمـــة ، وكلا الأمرين قد رضت نفسى عليهما •

وخبط النائب العام كفا على كف وهو فى شدة الضيق والغيظ وقال :

ـ ما رأيت فى حياتى القضائية التى أربت على الثـــلاثين عاما شيئا كهذا •

ـ وها قد حان الوقت لترى شيئا جديدا • ولو انك فكرت قليلا لعلمت انك انت الذى تدفعنى للوقوف منك هذا الموقف ، فما دمت تشـــعرنى أننى مجرد من كل حق ، أن لا أمـل لى فى النجاة لأنى محكوم على سلفا ، فما الذى يجعلنى أخاف منك ، ما الذى يجعـــلنى أحرص على رضائك ؟ كيف تتصـــور انه يطيب لى أن أجاوب على أى سؤال توجهه الى ، وانت تأبى الا ان تبقينى امامك واقفـــا كنوع من الاذلال ولست مستعدا ان اذل • أنا على استعداد ان أموت لا أن أذل• والأمر فى يدك كما ترى فاما ان تعاملنى بمـــا يجب لى من الاحترام باعتبارى محاميا أولا ، ورئيس جماعة سياسية ثانيـــا • واما أن

لاتطمع منى لسماع غير ماتسمع • وقطع عليه النائب العام كلامه الذى استرسل فيه وقال له فى غلظة :

ـ لست أريد فلسفة ، ومثلك لن يعلمنى واجبى ، هل ستجاوب أو لاتجاوب ؟

وأصر فوزى على أنه لن يجيب • فأصدر النائب العام أمره باعادته الى السجن • وفى اليوم التالى أصدر رئيس المحكمة أمرا مجددا بحبس فوزى أربعة عشر يوما أخرى على ذمة التحقيق • ولكن رئيس المحكمة لم يفعل ذلك الا بعد ان راح يحلف على فوزى ان لايقف من النائب العام هذا الموقف المتعنت ، وان يجيب عليه وسيراه معقولا جدا ، بل وطيبا ، وباستطاعة فوزى ان يطمئن الى عدالته ونزاهته •

١٠

وذعا النائب العام فوزى للمرة الثالثة، وقابله هذه المرة بابتسامة باهتة ، وأمر له بكرسى ليجلس عليه ، ثم قال له فى دعابة :

ـ والآن هل حلت المشكلة ؟ ها أنت جالس على كرسى ، فأرجو ان تجيب الآن على الأسئلة التى أوجهها لك • ونظر فوزى للنائب العام فى ابتسامة ساخرة وقال له :

ـ يؤسفنى انك لم تستطع ان تعرف حتى الآن أى انسان هذا الذى تعامله ، ان المسألة لم تكن فى أى وقت من الأوقات مسألة كرسى أجلس عليه ، واذا كنت قد تشبثت بهذه الشكلية ، فما ذلك الا لأننى اعتبرها من أبسط حقوقى وأولها • أننى اتصور ان التحقيق الآن وقد استغرق ثلاثة أسابيع فلابد ان يكون قد تكشف لكم واتضحت معالمه• ان مجد الدين قال لكم مرارا وتكرارا ، انه فعل مافعل من تلقاء نفسه، وأى عدول منه بعد ذلك عن هذه الاقوال المتكررة لن يفيد فى شىء بفرض حصوله • فأحسب ان الوقت قد حان لتكفوا عن هذه المحاولة الفاشلة لحساب الحكومة ، وهى ان تجرموا الجماعة كلها ، بسبب

هذا الحادث • فمن الخير للجميع أن يعود التحقيق الى الأوضـــاع الطبيعية والسليمة •

فقال النائب العام وقد ضاق ذرعا :

ـ ما الذى تغنيه بكلامك ؟

ـ أعنى انه لكى أجيب على ما يوجه الى من أســئلة ، فلابد من توافر واحد من شروط ثلاثة كل منها من شأنه ان يعيد الىّ الثقة فى نزاهة التحقيق •

ولما كان النائب العام قد اعتاد اسلوب فوزى وألفه فقد تمـالك نفسه لأول مرة وطمع فى أن يقنع فوزى عن طريق التفاهم فقال له :

ـ يا استاذ فوزى ، انك تصف نفسك بأنك محـام ، أى تعرف القانون • وتقول انك رئيس جماعة سياسية تحب ان تعامل كرجل مسئول. فأناشدك ضميرك ان تحكم بنفسك على أقوالك، أسمعت عن متهم يضع شروطا لادارة التحقيق ، أينا المحقق ، أنا أم أنت ؟

ـ أنت طبعا ، ولك ان تفعل ماتشاء ، ولكنى انا المتهم الذى من حقه أن يدافع عن نفسه بالأسلوب الذى يشاء ، وهذا هو اسلوبى فى الدفاع عن نفسي ، ان لا أرد ألا اذا توفرت لى ضمانات اطمئن اليها •

فقال النائب العام لسكرتير التحقيق وقد بدأ عليه كما لو كان قد استسلم :

ـ اكتب له ياســيدى مايمليــه عليك لنرى آخر اختراعات السيد فوزى •

ـ أما شرطى الأول فهو ان ترفع السرية المضروبة على التحقيق ، وأن يتم علنا فى حضور المحامين ، بعد أن ثبت حتى الآن أن هــذه السرية مفروضة على المتهمين فحسب فى الوقت الذى يسمح فيـــه للصحف ان تخوض فى التحقيق ناشرة عنه الأكاذيب ، وكل مايسىء الى سمعتنا • فاذا أبيتم الا ان يظل التحقيق سريا ، فلا أقل من أن يتولاه مستشار من محكمة الاستئناف نظرا لخطورة القضية • وهنا قاطعه النائب العام محتدا وقال له :

ـ ألم أقل لك انى أحد مستشارى محكمة الاستئناف ؟

ـ ولكنك لم تعد كذلك مذ أصبحت تمثل سلطة الاتهام • وعلى أية حال فانا على استعداد أن أجيب أمامك وان يظل التحقيق سريا ، لو أنك أفرجت عن مئات المعتقلين الذين أصدرتم أمركم بالقبض عليهم دون ذنب أو جريرة • وراح فوزى يضرب الأمثلة على القبض التعسفى •

وانفجر النائب العام غضبا ، واعتبر فوزى مخلوقا لايطاق ، وأمر باعادته الى سجن جديد ليحال بينه وبين الاختلاط ببقية المسجونين ، وأن تشدد عليه الرقابة حتى لاتتاح له أي فرصة ان يتصـــــل بأى مخلوق •

* * *

وسرت فى بدن فوزى رعدة ، ومدير سجن مصر الذى نقل اليه، يخاطبه فى تجهم وينذره ، بأنه اذا حاول ان يتصل بأحد بأى أسلوب من الأساليب ، فسيستخدم مدير السجن السلطات المخـــولة له من شتى العقوبات بما فيها الجلد • وكان على فوزى ان يكظم غيظه وأن يصبر على هذا التحرش • ووضعوه فى زنزانة أعدت للحيلولة بين من يكون فيها وبين الاتصال بخارجها • ولقد تصور فوزى بعد أن احـكم اغلاق الزنزانة عليه أنها اشبه ما تكون بالغواصة ، التى اذا وضعت فى الماء تعوم تحته دون ان تتسرب قطرة ماء اليها •

وكان ما يشغل فوزى ويقلقه انه قد بات الآن وحيدا بكل ماتعنيه هذه الكلمة ، وانه سيكون فى ظلام دامس حيال التحقيق ، فلن يعرف ما يدبر له أو يحاك حوله • لقد كان فى سجن الاستئناف يعرف كل صغيرة وكبيرة مما يجرى فى التحقيق وفى البلاد كلها ، أما الآن فقد انتزع من ذلك كله ، وحرم هذا الجو العبق بالتآخى والمحبة التى كانت تسود أفراد الجماعة ، وقد قربت المحنة بينهم • كانت جميع الفوارق قد محيت بين اغنيائهم وفقرائهم ، كان الطعام يجىء من بيوت القادرين فيجمع ثم يعاد توزيعه على قدم المساواة وربما زيد للضعفاء فى الجسم فنالوا أكثر من صاحب الطعام الذى جاء باســـمه • وكانت الملابس

الداخلية تأتى لتوزع بدورها على أشد الجميع احتياجا اليها ، والنقود التى تودع فى أمانات البعض يعاد توزيعها • وسرعان ما اشـــترك الحراس والضباط فى هذه الروح الجماعية السامية فتـــداعت كل انظمة السجن ، وطويت لوائحه •

لقد حرم فوزى من ذلك كله • وأحس بلذعة السجن ، وهو يجلس فى زنزانته وحيدا وسط الظلام الدامس ، وبدأت عقارب الشك تدب الى نفسه ، الشك فى صواب هذا الذى يفعـــلون ، وفزع فوزى الى الصلاة والى دعائه ، المأثور •

رب احكم بيننا وبين رئيس الحكومة ، رب احكم بيننا وبين رئيس الحكومة بالحق ، وأنت خير الحاكمين •

١١

استيقظ فوزى فى هدأة الليل فسمع آيات ترتل ، استطاعت ان تنفذ اليه رغم الحصـــار المضروب • وكانت هى التى أيقظت فوزى ، وصلت اليه عبر الجدران على أمواج الأثير لقد كان يعرف هذه الآيات وطالما ترنم بها هو نفسه « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ، وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » •

ولو أن بلابل الدنيا كلها صدحت لما أشجت فوزى كما أشـجاه هذا الصوت الذى يردد هذه الآيات • لو أن ليلة القدر تجلت لفوزى لما سعد بها أكثر من سعادته فى هذه اللحظات التى اكتشف فيها ان صوت القارىء المتبتل هو صوت خالد أمين ، أحب انسان فى الدنيـا اليه ، والذى كان افتقاده له فى سجن الاستئناف يؤلف سحابة فى سماء حياته • هاهو بجانبه ، يعلمه بصوته الحنون انه سليم معافى، معافى البدن والوجدان ، فما كان لغير سليم فى ذروة السلامة أن يرتل

القرآن بهذه العذوبة . لقد أشبه صوته في هذه اللحظات صـــوت الملائكة فلا يمكن أن يكون ترتيلها الا شيئا من ذلك .

وأحس فوزى كما لو كانت حجرته المظلمة قد غمرت بالضـــياء فجأة فقد كانت كلمات خالد التى ينطق بها تشبه أن تكون قنـــاديل مضيئة تبدد حلكة الليل .

ومضى خالد فى ترتيله « والذين يبيتون لربهم سجدا وقيـاما ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما » . وقفز فوزى غير عابىء بالبرد الذى كان يجعله ينتفض وهو يعـــالج النوم ، وأحس بالدفء وهو يتوضأ ، ورفع عقيرته عندما وقف يصلى ليرد على الرسالة ويطمئن صاحبه عليه ، ويدخل فى نفسه السـعادة كما أدخل :

– « وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير . لايكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتســبت ، ربنـــا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنـــا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

واذا كانت يد الله الرحيمة قد قدمت لفوزى قبل ان يبدأ يومه الأول فى سجن مصر بشرى وجوده الى جوار صاحبه وحبيبه ، فقـــد شملته هذه اليد الرحيمة بنعمة ثانية ولما ينقض يومه الثانى وكانت هذه النعمة الدافقة على شكل (عمود) من الطعام جاءه من بيت شريفة هانم لأول مرة . كان الخط على البطاقة التى تحمل اســـمه هو خط وفاء . انه لايمكن ان يخطئه ، وكذلك الطعام . انه من صنع يديها ، فهو يعرف هذه الأصناف جيدا ، لقد كانت هى المتخصصة فى صنعها ، وكان قد اعتاد ان يطريها كلما اكلها عندهم .

وأهوى فوزى على الطعام يقبله بروحه قبل أن يأكله ، فقد كانت دلالة ارسال الطعام شيئا لايحلم به . لقد كان ارساله اليه علامة على انهما تقفان الى جواره ، الأم وابنتها معا ، تشدان أزره فى محنته ،

وتحوطانه ببرهما وعطفهما • وبدأ فوزى ينظر الى المستقبل بثقة ويقين فى النصر ، وخر ساجدا يشكر الله الذى كفكف عبراته وآنس وحشته ولم يتركه نهبا للشكوك والوساوس •

١٢

فوجىء فوزى عندما صعد الى الدور العلوى بمحكمة مصر لنظر المعارضة فى أمر حبسه للمرة الثالثة بمختار بك مدير الشرقية الاسبق الذى كان سجينا معهم وهو مطلق السراح ، فكاد فوزى ان يصرخ من الفرح للافراج عن هذا الرجل الكريم • على ان فوزى لم يلبث أن ضايقه أن الرجل يحاول الاتصال به رغم ممانعة الحراس • لقد كان فوزى يتمنى ان ينأى الرجل بنفسه عن ان يمس أحد هؤلاء الحراس الجفاة احساسه ، وهو لايكف عن محاولته الاتصال به ليكلمه • وأودع فوزى احدى الحجرات فى انتظار حلول موعد المعارضة ، فما راعه الا اقتحام مختار بك الحجرة وهو يصيح بالرغم من محاولات الجند ابعاده :

ــ الوزارة سقطت ، الوزارة سقطت ، رفعة الرئيس سقط •

واخرج مختار بك من الحجرة فى نهاية الأمر ، ولكن بعد ان كان قد أدى رسالته ، وزف هذه البشرى التى لاتصدق لفوزى • وظل فوزى مبهوتا عقب سماعه النبأ الذى لايصدق ، وسأل الضابط الذى كان يرافقه عن صحة النبأ ، فأجابه فى اقتضاب انه لم يسمع أكثر مما سمع هو • وظل فوزى لايريد ان يصدق ، فمن المستحيل أن يبتسم الزمان لانسان بمثل هذه الصورة • لايمكن أن يكون الله قد استجاب دعاءه بهذه السرعة والفاعلية ،فمن هو ليستجاب اليه هكذا؟ لا ان مختار بك يقول أمنية من أمانيه • ولكن فوزى لم يكد يدخل الى حجرة رئيس المحكمة حتى كان كل شىء يؤكد صحة الخبر ، بل ويحمل لفوزى مايدل على ان الانتصار أعمق غورا مما كان يمكن أن يطوف فى احلامه ، فكامل بك المحامى الذى تطوع للدفاع عنه ، قد اختير وزيرا

فى الوزارة الجديدة التى تشكلت برئاسة زعيم الأقلية ، الذى يحب فوزى الحب كله ، ومد له يد المعونة بشتى الصور والاشكال· لا ··· لا ··· ان هذا لايمكن ان يكون صحيحا ، ولابد ان فوزى يحلم ·

ولكن الحقيقة الصلبة كانت تتجلى أمامه · ان رئيس النيابة الذى طالما نظر شذرا لمحاميه كامل بك قد أصبح يتودد اليه ويقترب منه من حين لآخر ويهمس له فى اذنه · وترامى الى سمع فوزى قول رئيس النيابة لكامل بك ، أن جميع الوزراء قد تكاملوا ليقسموا اليمين أمام جلالة الملك وليس يؤخرهم الا كامل بك ، فيرد عليه كامل بك فى اباء وشمم :

ـ قل لرئيس الحكومة ان اليمين الدستورية تستطيع ان تتأخر ساعة أو ساعتين ، اما الذى لايمكن ان يؤخر دقيقة واحدة فهو بقاء متهم برىء فى السجن · قل لرئيس الحكومة اننى مصر على أداء واجبى كمحام أولا قبل ان أبدأ واجبى كوزير ·

وكان ذلك فوق احتمال فوزى ، وأعلى من قدرته · أتكون القيامة قد قامت ؟ أهذا الذى يجرى امامه هو هذه الدنيا الثانية حيث الموازين القسط بالحق ؟ حيث تنشر الكتب ويكشف عن النوايا والقلوب ؟

وظل فوزى فى غمرة هذا الشعور ولم يقلل منه أو يضعفه أن أصدر رئيس المحكمة أمرا جديدا باستمرار حبسه أربعة عشر يوما ثالثة ، فما كان يحب لرئيس المحكمة ان يفعل غير ذلك ، والا أثبت على نفسه انه ليس قاضيا ، وانه كان يسجنه قبل ذلك ظلما وعدوانا·

وعانق كامل بك فوزى بحرارة وهو يودعه قبل عودته الى السجن، وأقسم له ان عينيه لن تذوقا طعم النوم الا بعد ان يرى فوزى حرا طليقا ·

وبر الوزير بما تعهد به المحامى ، فقد افرج عن جميع المعتقلين وعلى رأسهم فوزى ، وعزل النائب العام وجىء بنائب عام جديد وضع القضية فى اطارها الصحيح من انها عمل فردى ، وأعاد الى حركة البعث كرامتها واعتبارها فى تقريره الذى حفظ به الاتهام الموجه اليها·

الفصل الرابع

١

مضى اسبوع كامل بعد الافراج عن فوزى قبل ان يكون بقدرته ان يجد ساعة سكون يخلو فيها الى نفسه • لقد اقيمت الاحتفـــالات الضخمة بمناسبة عودة حركة البعث الى نشاطها مبرأة من كل سوء ، وكان يضاعففى ضخامة الحفلات واحتشاد الألوفلسماع خطبفوزى وخالد أمين ومحيى وصبرى وبقية الصحاب تصور الكثيرين ان ساعة اشتراك حركة البعث فى النفوذ والســـــلطان قد دنت ، فلم يخف رئيس الحكومة عطفه على الحركة واطلق لها الحرية الكامــلة ، وعين مديرا لمكتبه بناء على طلب فوزى أحد أعضاء الجمـــاعة ليكون حلقة اتصال بينهم • واستجاب لأخطر اقتراحاتهم الخاصة بتقوية الجيش وتدعيمه ، ووضع عزيز باشا مدير مدرسة البوليس السابق والذى كان قد أصبح صديقا للجماعة ، على رأس الجيش •

لقد كانت القافلة تسير •

وجلس فوزى فى شرفة بيته وقد هدأت الزوابع بعض الشىء ذات ليلة مع صاحبه رياض الذى كان قليل الاجتماع به ، لتوظفه خارج القاهرة بل خارج العمران فقد أصبح مقر عمله فى شركات التعدين فى صحراء سينا • ولم تفت عين رياض النافذة ما طرأ على صاحبه من تبدل اذ كان يجلس فى شرفة بيته ، ولما تتجاوز الساعة العـــاشرة والنصف بعد فقال له :

ـ منذ متى أصبحت تأوى الى البيت فى هذه الساعة المبكرة ؟

وحاول فوزى ان يراوغ صاحبه فقال له :

ـ أنسيت أننى لم أخرج من السجن الا منذ اسبوع واحد ومن حقى ان أنال قسطا من الراحة ؟

ـ ومنذ متى كنت تعرف كلمة الراحة هذه ؟ أنسيت انك طالما كنت تقول ان راحتك هى فى ان تكون وسط اخوانك اناء الليل وأطراف النهار ؟

ولم ير فوزى بدا من أن يقص على صاحبه قصته الجديدة مع وفاء ، وان يحدثه عن كل مايتصل بها ٠ ولمعت عينا رياض وقال لصاحبه :

ـ وما دامت الأمور قد وصلت الى هذا الحد من تعلقك بها ، فأى وقت سيكون أنسب للزواج من هذه الفترة التى انتصرت الحركة فيها وتستطيع ان تجد السبيل لعملك بنجاح فى المحاماة أو الصحافة؟ ولاحظ رياض أن فوزى ينظر اليه فى دهشة فسأله عن سبب دهشته، فقال له فوزى وهو لايزال مأخوذا بعض الشىء :

ـ أهو أنت يا رياض أحمد الكرمانى من يقول لى ذلك ؟

ـ وأى عجب فى هذا ؟

ـ واختك ؟

ـ مالها اختى ؟

ـ أولم ارتبط أمامك وأمام والدتك ان لا أتزوج قبل أن تتزوج٠

وحملق رياض فى وجه فوزى فى دهشة شديدة ، وكان فوزى هو الذى سأل صاحبه هذه المرة عن سر حملقته فيه فأجابه رياض :

ـ أن من يسمعك تتكلم هكذا يتصور ان الله لم يخلق غير آمال فى هذه الدنيا ٠ ماهذا الحظ الغريب الذى لآمال عندك ؟ واحتج فوزى على اقوال صديقه وقال له :

ـ لقد كنت احدثك الآن عن انسانة اخرى ملكت على كل مشاعرى، وأنا أعرف ان كلامى الآن عن آمال يؤذيها، ولكن المسألة مسألة مبادىء ونحن حملة مبادىء فكيف أستطيع ان اتحلل من عهد قطعته على نفسى دون

أن أفقد احترامى لنفسى ، ويصبح من حق كل انسان أن يصـــفنى بأننى دجال ٠

وضحك رياض ملء شدقيه من اعماق قلبه ، وبعـــد ان فرغ من الضحك قال لفوزى :

ـ أقسمت عليك يافوزى ان تقول لى الحق ، ألم يصل الى علمك نبأ ما سوف تعمله آمال فى الغد ؟ ألم تسمع شيئا يتصل بها ؟

ـ أقسم لك غير حانث أننى لا اعرف شيئا من اخبارها ؟ أنسيت أنت أين كنت فى الأسابيع الماضية ؟

ـ هذا شىء عجيب ، اذن فلتقر عينك ياصديقى وليطب خاطرك فسوف تتزوج آمال غدا ٠

وقفز فوزى من فوق كرسيه ، وقلبه يطفح بالفرح والسعادة التى لم يشعر بهما من قبل ، الا وهو يخبر بنبأ بسقوط صاحب المقـــام الرفيع بينما مضى رياض يقول : وهل تعرف بمن ستتزوج ؟ ستتزوج شوقى بك نصار ٠

وصعق فوزى وهو يسمع هذا الاسم وراح يحملق فى وجه صاحبه فى ذهول ٠ وقال رياض :

ـ اننى افهم دهشتك كل الفهم ، فقد كان شوقى بك نصار هو آخر انسان تتصور انه يمكن لآمال ان تتزوجه ، فقد كانت أشـــدنا نكيرا عليه اثناء مرض اختى المرحومة مفيدة ٠ لقد اعتبرنا زواجها منه تحديا لعواطفنا وقررنا جميعا مقاطعة حفلة زواجها ، ولكنها لم تبال بطبيعة الحال كما هو شأنها دائما ٠

وبدأت الذكريات تنثال على رأس فوزى بعد أن ذهب عنه الروع٠ وتداعت عشرات من الصور فى رأسه فى سرعة عجيبة : ثناؤه عليها فى حفلة خطبتهما ، هذه القبلة التى وضعها على جبهتها ، خروجهمـا سويا بحجة شراء حاجات لنادية ، صورة شوقى بك نصار المعلقـــة فوق سريرها وزعمها ان ذلك تم بارادة نادية ٠

وحل اللغز الذى طالمـــا كان يحيره ، عندما انقلبت عليـــه

تتحداه بهذا الاسلوب العنيف ٠ كانت قد تبدلت وبدأت تضـــيق بعلاقتها به ، بعد ان شرعت تهيىء نفسها لهذه العلاقة الجديدة ٠ كم من الزمن ياترى ظلت تخدعه ؟ على أن ذلك كله لم يكن يعنى فوزى فى هذه اللحظات الا باعتباره تاريخا مضى وانقضى ٠ كان الذى يهمه فى الدرجة الأولى ويفعم نفسه بالانفعال ، هو ان آخر عقبة كان يمكن ان تحول بينه وبين وفاء قد زالت نهائيا وأصبح باستطاعته ، أن يخطو الخطوة التى طالما تمناها ، وهى أن يصارح شريفة هانم برغبته فى زواج ابنتهـــا ٠

ونظر فوزى الى رياض كما لم ينظر له فى يوم من الأيام ٠ لقــد تطورت علاقته برياض على مر الأيام فى شتى الصور والاشـــكال ، ما بين اعجاب وحب وصداقة ، ولكن لم يحدث ان نظر فوزى الى رياض كما نظر اليه فى هذه اللحظة ، لقد بدأ يكبره ويعظمه ، فليس سوى قلب كبير من يفى لصاحبه هذا الوفاء كله ، فيقف بعواطفه الى جوار صديقه فى الوقت الذى يختلف فيه مع أخته شقيقته ٠ وهاهو يشجعه فى صدق واخلاص أن يتزوج بوفاء ، مع ان لرياض اخوات أربعا تصلح كل واحدة منهن لأن تكون زوجـــة لفوزى ٠ وعانق فوزى رياض فى لهفة وهو يقول له :

ــ أنت انسان عظيم يارياض ، أنت انسان عظيم ٠

٢

لم يضيع فوزى دقيقة واحـــدة عقب انصراف رياض من عنده ، وأسرع الى وفاء يسألها بصفة نهائية اذا كانت مســتعدة لأن تربط مصيرها بمصيره ، فعتبت عليه سؤاله وهو يعرف ان المصـــيرين قد ارتبطا منذ أمد بعيد ٠ وقال فوزى :

ــ لقد اعتزمت أن أفاتح والدتك فى الموضوع رسميا ٠

ــ أخشى ان تكون هذه المفاتحة قد تأخرت أكثر مما ينبغى بحيث بدأت أشعر بالحرج أمام والدتى وأخى سامح ٠

ـ وحاول فوزى ان يذكرها بالحيـــاة التى يحيـــاها وانه قد لايستطيع ٠٠٠ وأسرعت فوضعت يدها على فمه لتمنعــه من ان يتم مايريد ان يقوله ، وقالت له :

ـ هذه مسائل قد فرغنا منها ، ولن تنجح فى تخويفى ٠ اننى شريكتك فى السراء والضراء ومستعدة ان اقاسمك السجن اذا شئت ٠

وعجب فوزى لرباطة الجأش التى تعالج بها وفاء هذا الأمر الخطير، وأوشك ان لايصدق نفسه ، أهذه وفاء التى كانت لاتحس بعاطفتـــه نحوها منذ ستة شهور فقط ؟ أهذه وفاء التى ظل قلبها غفلا عن الحب والعواطف الفائرة ؟ ما بالها تخاطبه كما لو تحـــولت الى ربة الحب نفسها ٠ من أين جاءت بكل هذه الثقة التى تحدثه بها ، كيف تحولت هذه التى كان يظنها طفلة الى اكثر من ند له ؟ لقد شعر بنفسه صغيرا أمامها ، حيث لم يساوره هذا الشعور لحظة واحدة امام آمال التى كانت تكبره فى العمر ، والتى تعـــــلمت فى اوروبا ٠ واذ راودته ذكرى آمال ، شعر أن واجبه يحتم عليه ان يحدثها عن علاقته بها ٠ وكأن وفاء قد حذرت مايدور فى نفسه وطالعت أفكـــاره ، ورأت ان توفر عليه مشقة التصريح فقالت له :

ـ اننى أعرف كل قصصك مع آمال ، فقد كانت الأحاديث عنكما تدور دائما أمامى دون أن ألقى بالى اليها ٠ فلنسدل ستارا على الماضى، ولا نفكر الا فى مستقبلنا معا ، ولتعلم اننى احبك الى الحـــد الذى لا استطيع أن أتصور ان يكون فى قلبك أو حتى فى خيـــــالك ظل لامرأة اخرى ، وقد يساعدك أن تعلم منذ الآن انك تقتلنى ، فى اليوم الذى تحب فيه غيرى ٠

واحتضنها فوزى فى حرارة وقال لها :

ـ وفاء ياحبيبتى ، يازوجتى وأغلى النـــاس عندى ، انزعى من رأسك كل هم ووسواس ، فلست اظن ان هناك امرأة اخرى تدانيك٠ ويوم أن نتزوج قريبا فستكونين زوجتى الوحيدة فى هذه الدنيا وفى الدنيا الآخرة ٠

على أن القلق لم يلبث أن دب اليه فهمس فى اذن وفاء :
ـ ولكن الا تظنين ان والدتك قد لاترضى بى زوجا لك تصـــورا منها ان لن يكون بقدرتى أن انفق عليك فضلا عن ان اسعدك ؟ فقالت له وفاء على الفور :
ـ لقد كانت هى التى علمتنى أن أكبرك وأجلك ، قبل أن أحبك .
ـ وماذا تظنين سيكون رأى سامح أخيك ؟ ماتهيبت انسانا أصغر منى فى حياتى بل أكبر منى ، كما أتهيب سامحا .
ـ ان سامح يحبك كما لم يحببك أقرب اصدقائك ، وانى لأتمثله وقد تفوق على الجميع بمجرد تخرجه واتمام دراسته فى معاونته لك .
ولم تكن وفاء مخطئة فى تقديرها فقد رحبت شريفة هانم بفوزى ابنا لها وأخا لسامح وزوجا لابنتها وشقيقا لتاتا وديدى .

٣

جلس فؤاد عبد السميع فى حجرته بعد ان اصبح مخلوقا ينكره كل من عرفه فى يوم من الأيام ، فقد حولته الخمر الى مايشبه أن يكون حطام انسان . كان شعره قد شاب وخبا نور عينيه وتهدل جلد وجهه وذوى جسده .
ومع ذلك فقد كان هناك شيء غير طبيعي يجرى فى هذه اللحظات فى داخله . لقد سحب يده عن زجاجة الوسكى بحركة تفيض بالعزم الذى كان قد فقده منذ أمد بعيد جدا . وومضت فى عينيه الذابلتين ومضة خافتة كبقايا لهب تحت الرماد ، وراح يغمغم لأول مرة منذ زمن طويل كلاما مفهوما محددا :
ـ لا لن أفقد وعيى هذه الليلة فلابد من قتلها هى وعشيقها . لن أسكر ، لن أسكر ، ساعدنى يارب ، لاتتخل عنى ، هبنى قوة من لدنك ، قوة أستطيع بها ان اقتل الزانية واقتل نفسى بعدها .
وتصاعدت أصوات الموسيقى التى كانت هى الحافز لفؤاد على هذه الصحوة التى كانت تبدو مستحيلة ، تصاعدت الأصوات ممزوجة

بالضحكات المستهترة من حشد الصحاب والصاحبات الذين اجتمعوا ليحتفلوا بعيد ميلاد ميرفت • وكان لهذه الضحكات أثر المهمــاز فى الحصان الجريح المتداعى فقد انتفض من جديد ، وسرت فيه موجة من عزم وارادة • لطالما حذرها انها اذا لم تكف عن استهتارها به ، وتمتنع عن مقابلة عشيقها الجديد لاعب التنس على نفس الفراش الذى شهد غرامهما الأول ، وفى نفس الجناح الذى احتله كضابط للحرس قبل ان يكون زوجا لها ، فسوف يقتلها • ولكنها لم تلق بالا لتهــديده ، فقد كانت تراه ، أعجز من أن يخطو خطوة بغير مساعدة الخــدم ، وكانت تبقيه شفقة عليه كما يقول والدها ، كما يبقى الانسان حيوانا فى دور النزع الأخير •

وكانت فكرة وضع حد لحياته التى أصبحت تافهة حقيرة ، تساوره فى كل لحظة يفيق فيها لنفسه • ولكنه صمم قبل أن يضع حــدا لحياته ، أن يصفى حسابه مع ميرفت ، مع المخلوقة التى أوصلته الى هذا الحال •

يجب ان يقتلها ثم يقتل نفسه • وكأن هذا الهــدف قد أمده بقوة جديدة فاستخرج فى لحظة من لحظات افاقته ذلك المسدس الذى كان يملكه ابان خدمته فى البوليس • وكان المســدس يحتوى على رصاصات ست • وأصبحت أسعد لحظات حياته هى هذه اللحظات التى يفيق فيها بالليل ، فيغلق الباب على نفسه من الداخل ثم يخرج المسدس من المخبأ الذى أصبح يخفيه فيه حتى لايعثر عليه احــد ، ويروح يتحسس المسدس فى سعادة جنونية ، ويكرر العبارات التى كان يكررها فى هذه المناسبة ، والتى كانت تمده بشىء من القوة : سأفرغ فيها وعشيقها أربع رصاصات ، وأبقى لى اثنتين ، ان واحدة فى المخ تكفى ، ولكن يجب أن أحتاط فقد لاتنطلق احدى الرصاصتين فتقوم الثانية بالمهمة •

ولو قدر لميرفت أن تراه فى أمثال هذه اللحظات لامتلأت منه رعبا وفزعا ، ولما أبقته فى البيت لحظة واحدة مهما كانت شفقة أبيهــا

أو شفقتها هى عليه ، فقد كان يبدو شيئا مخيفا قادرا على القتل فعلا .
وكم من مرة هم فؤاد ان ينفذ عزمه ، ولكنه لايكاد يقف على قدميه ، حتى يتطوح وتدور الدنيا من حوله ويقع صريعا على الارض . ويروح يبكى ويبكى على نفسه وكيف أصبح عاجزا حتى عن أن يضع حـــدا لآلامه .

ولكنه كان مصمما هذه المرة أن لايتكرر هذا الموقف ، لقد أعـــد نفسه مذ سمع انها ستقيم حفلة عيد ميلادها لانفاذ عزمه . ما أروعها من مناسبة أن يرديها فى ذات اللحظة التى جاءت فيها الى الدنيا ، أن يعيدها الى الظلام الذى جاءت منه ، وأن يقتل نفسه فى اعقاب حفلة ، كما زف اليها فى اعقاب حفلة مماثلة .

وجاهد فؤاد حتى لايغرق هذه المرة فى الخمر وراح يرد نفسه عن الشرب كلما نازعته نفسه اليه ، وليس الا بعـــد ان يغلب على أمره ، وتوشك نار الادمان ان تشل حيويته،فيتناول كأسا تعيد اليه رشده وشيئا من اتزانه . وقد كان نجاحه فى هذه المحاولات بمثابة وقود جديد يلهب ارادته ويقويها ويزيد ثقته فى قدرته على انفاذ عزمه .

وكانت الموسيقى الصاخبة المتصاعدة والتى تجعل كل كيانـــه يرتجف ، وفرقعات زجاجات الشمبانيا ، والصرخات المعربدة ، تدله على ان الحفلة قد وصلت الى ذروتها . كان رمضان باشا قد عاد من (كلوب) محمد على كما هى عادته قبيل منتصف الليـــل وآوى الى فراشه . وفى لحظة سكون ، حمل الهواء صوت دقات ساعة الجامعة مؤذنة بالثانية . وأرهفت اعصاب فؤاد وتوترت عضلاته فلن يطول الوقت بعد الآن .

وهدأت اصوات الموسيقى بالفعل وبدأت الاصوات الـــدالة على انصراف المدعوين تملأ الجو . وتناهت الى سمعه ضحكات حادة واخرى خليعة ، وطرقعة قبلات ومحركات السيارات تدور ، وابوابها تغلق فى شدة تعقبها صيحات وداع وتهليل وضحك .

ولم تلبث هذه الاصوات بدورها ان خبت ، وسمع صوت باب

القصر الحديدى يغلق · وران على القصر سكون مخيف عقب هـذا الصخب والضجيج الشديدين · وجحظت عينا فؤاد وتلاحقت انفاسه، واستماتت يده على قبضة المسدس ، وقال لنفسه : الآن · ولكنه لم يلبث أن رد نفسه قائلا : ليس بعد ، فهو يعلم من عاداتها التى لاتغيرها مايجعله قادرا على ان يراها الآن بعين خياله · انها جالسة الآن مستلقية على الكنبة الكبيرة فى البهو · لابد أنها تطلب من وحيد أن يملأ لهـا كأسا كما اعتـادت ان تطلب منه هو فى سـالف أيامه · انه واثق انهـا لابد قد اسـتبقت الى جوارها فى هـذه الليـلة عشيقها وحيد · انها تطلب منه الآن ان يدير لها أغنيتها الحزينـة المفضلة من أوبرا مدام بترفلاى « الفم المغلق » لطالما أنكر عليها هـذا المزاج القاتم ، وأبدى دهشته أن تختـار ميرفت التى تفيض بالمرح وحب الحياة ، هذا اللحن الجنائزى لتهدئة اعصابها بعد ليلة صاخبة، ولكنه لن ينكر هذا اللحن هذه الليلة فهو فى موضعه ·

وصدق فؤاد فى تصوره حتى لكأن ميرفت ساعة دقاقة لاتختل أبدا ، فقد بدأت نغمات اللحن الحزين تسرى فى هدأة الليل وسكونه· ومع انتهاء اللحن تحامل فؤاد على نفسه ووقف ، لقد كان يراها الآن بعين خياله تتمطى وتتثاءب ثم تقود عشيقها بيدها الى مخدعها · انها تحب دائما ان تكون هى الطالبة لا المطلوبة، فقد كانت تعتز بشخصيتها (الاسبور) ، تحب التمرد على التقاليد وعلى الطبيعة نفسـها التى تجعل دور المرأة سلبيا تجاه ايجابية الرجل · وخطا فؤاد نحو الأمام بكل ما أمدته به ارادته ووضوح الهدف فى ذهنه من طـاقة ، وفتح باب حجرته وتقدم نحو الامام فاذا به يتطوح من جديد · وتغيم الدنيا فى عينيه ويوشك أن يقع ، وصرخ فى أعماق روحه فى ضراعة :

ــ لا ، لا ليس هذه المرة ، ليس هذه المرة · لن أفقد وعيى ، لن يغمى على · اننى أعرف ماذا سأفعل ، ان كل شىء واضح فى ذهنى · سأقتلها وعشيقها بأربع رصاصات وأبقى اثنتين لى ، ان واحدة تكفى،

ولكن يجب ان احتاط فقد لاتنطلق احدى الرصاصتين ، فتقوم الثانية بالمهمة • انني أعرف طريقي ، لن يغمى علي •

وتمسك فؤاد بالحاجز المطل على البهو فرأى حسنين وادريس وخدما آخرين يروحون ويجيئون ، يرفعون المقاعد المتهاوية ويجمعون الصحون والأطباق المتناثرة ، ويلتقطون الزجاجات الفارغة • وتراجع فؤاد فان أحدا لاينبغي أن يراه في هذه الساعة والا حبط كل شيء • على ان الخدم من ناحيتهم كانوا في دور التشطيب فقد بدأوا يطفئون الأنوار الصاخبة • ونهشت نار الادمان أعصاب فؤاد وعلم أن لامناص له من شرب كأس والا احرقت هذه النيران ارادته • وعاد الى حجرته يجر نفسه جرا ، وشرب كأسا واحدة • واندفعت يده بحكم العادة لتفرغ الثانية ، ولكنه كان يعرف ان لو فعل لضاع مشروعه ، فاستنجد بارادته التي كانت الآن في أوجها ونجح في كف نفسه عن الكأس الثانية • ان أمامه الآن بضع دقائق لانجاز مهمته قبل ان تخور قواه من جديد •

وعندما استأنف فؤاد محاولته وأطل على البهو الكبير وجده يسبح في الظلام الا من هذا المصباح الخافت في مدخل البهو المؤدي الى جناح الضيوف حيث توجد الآن ميرفت وعشيقها • وومض من خلال الظلام تاريخ حياته كلها ، حياته السعيدة في طفولته بين أمه وأبيه ، في المدرسة وهو يقود المظاهرات ويتزعم الطلبة ، وهو في مدرسة البوليس والجميع وعلى رأسهم عزيز بك يثنون على تفوقه • ولم يقف طويلا أمام صور بطولته ، في المصارعة اليابانى أو الملاكمة والشيش ، بقدر ما استوقفته بطولته في اطلاق النار ، لقد كان أول المدرسة كلها في ضرب النار ، كان يحصل دائما على خمسة من خمسة • ورن في اذنه صوت موتوسيكله وهو يطوف أنحاء قسم عابدين وقد أفعمت نفسه بالرضا والأمل ، كان يمثل في هذه اللحظة ذروة رجولته ، كان علما على الشهامة والاستقامة • وسطعت صورة أزهار ، أزهار في مواقفها

المتعددة معه ، مواقف تفيض بالحب والتفانى والاخلاص ، وتقلصت عضلات فؤاد وتوترت وامتلأ بشحنة جديدة من العزم ٠

وبدأ يهبط درجات السلم ، متشبثا باطاره يهبط فى بطء درجة أثر درجة ، وتراءت له صورة أمه التى لم تشهد حفلة زفافه ، وكيف أوشك ان ينساها ، ويحس بالغضب يعمى عينيه ولكنه لم يعد يخشى أن ينهار ، سوف يضع حدا لهذا الماضى المخجل ، سيرتفع من جديد الى القمة ، سيعيد بضربة واحدة الى شخصيته الكرامة المسلوبة سيحمل كل من عرفه يوما أن يذرف الدموع من أجله ، بدلا من صب اللعنات على رأسه ٠

وسار فى الدهليز المؤدى الى جناح الضـــيوف ، وطرقت اذنه ضحكتها المستهترة التى يعرفها جيدا ، وشحذت هذه الضحكة عزيمته من جديد ، وانقض على الباب المغلق يحرك قبضته ، وتحركت القبضة ولكن الباب لم ينفتح٠ وذكر فؤاد هذه الحقيقة التى كان قد نسيها من أنه كان للباب مزلاج صغير ، اعتادت ميرفت رغم استهتارها ان تغلقه٠ حقا ان المزلاج لايعدو ان يكون لسانا رقيقا من الصلب ، ولكنــه كان مزلاجا على كل حال ، جعل الباب لاينفتح ٠ هل انهار الهدف الكبير ؟ وجاءت النجدة من الداخل ، على صورة صيحة استنكار أطلقتها ميرفت، تتساءل عن هذا الكلب القذر الذى حرك قبضة الباب ويقف وراءه ، الباب الذى كان يعتبر حرما لايقترب منه انسان ٠ وكانت صيحتها بمثابة اشعال فتيل البارود ، فقد جن جنونه وتراجع الى الوراء وانقض على الباب بكتفه فانهار الباب تحت وطأة الصدمة وفتح على مصراعيه٠ وتعثر فؤاد وأوشك أن يقع ، وأدركت ميرفت فى لحظة حقيقة الموقف فصرخت ، ودوت صرختها فى سكون الليل ٠ وطاش عقل فؤاد من هذه الصرخة وعاجلها بالمسدس قبل أن تتحرك أو يتحرك عشـــيقها الذى بهت من المفاجأة ٠ وانطلقت الرصاصات وانطلقت حتى لم يعد فؤاد يسمع دويها ، وهنا فقط استفــــاق من جنونه ، وأدرك أنه أفرغ رصاصاته الست كلها ولم يبق لنفسه الرصاصتين اللازمتين للاجهاز

على نفسه . ان رصاصة واحدة فى المخ تكفى ولكن واجب الحيطة ان يبقى رصاصتين حتى اذا لم تنطلق احداهما قامت الثانية بالمهمة . وأحس فؤاد بالدوار اللعين وسمع صوت أبواب تفتح ، وأقدام تعدو وهرج ومرج ، وومضت فى ذهنه بطولته فى ضرب النار خمسة من خمسة ، انه لايزال ذلك البطل تشهد بذلك هاتان الجثتان فوق الفراش الذى أصبح ملطخا بالدماء ، خمسة من خمسة انه لايخطىء أبدا . ولكن الرصاصتين أين الرصاصتان اللتان كان يجب ان يبقيهما لنفسه ؟ ان واحدة تكفى ، ولكن لابد من الثانية على سبيل الاحتياط ، لقد عاكسه القدر من جديد انه لن يموت سيقبض عليه سيحاكم ، ولكن لماذا ، لماذا يفعل القدر معه ذلك ، ان رصاصة واحدة تكفى ولكن .... وتهاوى على الأرض ولم يعد يعى شيئا فى الوقت الذى كان الصراخ يعلو فى البيت والحجرة تغص بالمذعورين والوالهين .

٤

فزعت الست أم سميحة وجرس الباب الخارجى يرن فى شدة والحاح ولهفة ، ولما كانت الخادمة قد خرجت الى السوق لتشترى حاجات البيت ، فلم يبق أمامها الا ان تنزل لتفتح الباب بنفسها على الرغم من تحذير ابنتها الدكتورة فاطمة ان تفعل ذلك .

وفوجئت بعد أن فتحت الباب بأزهار ترتمى على صدرها هاتفة :

ـ أمى ....

ـ سميحة ....

وتعانقت الأم وابنتها فى لهفة وحرارة واختلطت الدموع بالقبل فقد مضت ثلاثة أعوام مذ غادرت أزهار القاهرة الى بيروت . وبدأت الأم تفيق لنفسها فجذبت ابنتها من يدها لتصعد بها الى الدور العلوى وتقدم لها طعام الافطار فقد حزرت الام بغريزتها ، ان ابنتها لابد ان تكون جائعة . ولكن أزهار اعتذرت لأمها رغبة منها فى ان لاتتعبها . ندت عن الأم صرخة احتجاج وقالت لها :

ـ شد ماتغيرت ياسميحة ! أتقولين لى أنا ان لا اتعب من أجلك ؟
أنسيت انك ضناى ونور عينى ، وبنتى التى لا اعز فوقها مخلوقا ؟
واعتذرت أزهار لأمها فهى تعرف مكانتها من أمها ، ولكن الحقيقة انها مرتبكة وهى تريد ان تقابل أختها الدكتورة بأسرع ما تستطيع ٠
وجزعت الأم لهذا التصريح وسألت ابنتها فى لهفة عما يكربهـــا ٠ وفتحت أزهار عينيها من الدهشة وقالت لأمها :

ـ أو لم تسمعى بما حدث ؟ أولم تخبرك فاطمة أو حســـن عن المصيبة التى وقعت ؟

وامتقع وجه الأم وأصابها اضطراب شديد وصاحت :

ـ أى مصيبة يا ابنتى كفى الله الشر ؟

ـ فؤاد يا أمى ، فؤاد ٠٠٠ ألم يبلغك ماحل بفؤاد ؟

وتنفست الأم الصعداء ، وقالت لابنتها فى عتاب :

ـ اخص عليك ياسميحة ، سيبتى ركبى ٠ مالك انت وفؤاد ، يجب أن تبتعدى عن طريقه ، ان الجميع يقولون انه سيشنق٠وصرخت أزهار فى فزع قائلة :

ـ بعد الشر عن فؤاد ألف مرة ٠ اسكتى يا أمى لاتقولى ذلك ، فال الله ولا فالك ٠ ان فؤاد مســـكين ، ويجب أن ينجو ٠ وحملقت الأم فى ابنتها وقالت :

ـ ينجو ؟ كيف ينجو ياسميحة ، أولم يقتل اثنين ؟

ـ ان الشرع والقانون يخولانه الدفاع عن عرضه وكرامته ٠

ـ قالت لى الدكتورة فاطمة ان الجرائد تقول انه قتلها بدون ذنب، أثناء حفلة عيد ميلادها ٠ وتقول الدكتورة فاطمة ان الجرائد هائجة ضد فؤاد ناكر الجميل ٠

ـ وهذا ما جعلنى أجىء من بيروت الى القاهرة لأقف الى جواره ، سأنفق آخر قرش فى حوزتى اذا لزم الأمر من أجل انقاذه ٠

ـ يابنتى ابعدى عن طريقه ، هذا الرجل ليس من قســـمتك

ونصيبك ، ولم يعد يفيدك التعلق به وهو الآن فى السجن ، ومصيره معلق بين يدى الله ٠

ورن الجرس من جديد ، فهتفت أزهار فى فرح :

ــ ارجو ان تكون هذه فاطمة أو حسن ؟

ــ بل هذه زنوبة خادمتنا وقد عادت من السوق ٠

وحزرت الخادمة على الفور من تكون القادمة لكثرة ما رأت صورها التى تزين حجرة الاستاذ حسن ٠ ولم تكد تتأكد لديها هذه الحقيقة ، حتى اطلقت زغرودة حادة مجلجلة تعبيرا عن الفرح الذى عم البيت بمقدمها ، وراحت تقول :

ــ يافرحتك ياسى حسن لما ترجع من الكلية وتقــــابل اختك وحبيبتك ست أزهار ٠ وراحت زنوبة الخادمة تحدث ست أزهار ، كيف أن سى حسن لايطيب له حديث الا عن ست أزهار ، وأنه لايوجد خطأ يمكن أن ترتكبه ولا يسامحها عنه سى حسن ، اذا تشفعت عنده باسم الست أزهار ٠

وابتهجت أزهار بهذه التحية التى قابلتها بها الخادمة ، وهـــذه المعلومات التى تقصها عليها عن حب حسن لها الذى كانت تعرفه كل المعرفة ٠ وانتهزت أم سميحة هذه الفرصة لتقول لابنتها :

ــ تعالى الى حجرتك ياسميحة ، لقد ابقيناها مستعدة من أجلك ، بعد ان جهزناها بحجرة نوم جديدة ، تعالى شاهدى حجرة الدكتورة ٠ وصرخت أم زنوبة الخادمة وقالت :

ــ لأ والنبى ياستى لاتدخليها حجرة الدكتورة ، فهى لايمكن الا ان تكون مليئة بالعفاريت لهذه الجماجم من الموتى ، بل أريها حجرة سيدى حسن بك لترى صورها التى تزين جدرانها الاربعة ٠

وجابت أزهار فى انحاء البيت الذى شهد مولدها وأمضـــت به زهرة حياتها والذى تعتز به فاطمة فرفضت ان تبارحه حتى الآن ٠ ولاحظت أزهار لأول مرة كيف ان المنــــدرة قد تحولت الى صالون استقبال عصرى ففرشت أرضها بالبساط ، ووضعت بها مقاعد جديدة

عصرية ، أما الفناء فقد وزعت فيه مجاميع من أصص الورد ومختلف الزهور . وأحست بالرضا والارتياح وهي تشهد انقلاب الدور العلوى وما أصبح يحويه من أثاثات وأمتعـــة عصرية . وعندما شرعت أم سميحة تدعو لابنتها باعتبارها سبب هذا العز ، عانقتها أزهار وسدت فمها بالقبلات لتحول دون استمرار هذا السيل من الفاظ المـــديح والثناء الذى لاتستحق منه شيئا . وسألت الأم أزهار عن حقائبها ، فردت أزهار بأنها تركتهـــا فى الفندق حيث نزلت مؤقتـــا ، هى وصاحبها السورى الذى طالما حدثتهم عنه . وقالت الأم :

ـ رشاد افندى الذى يريد ان يتزوجك ؟

ـ هو بنفسه يا أمى وقد حجزنا حجرتين فى فندق شبرد ، فقد أبى الا أن يحضر معى ليساعدنى على انقاذ فؤاد .

ـ ولماذا يابنت الحلال لاتحققى أمنيتك فى الزواج والاستقرار وقد بعث لك الله بهذا الرجل الطيب ، ان الدكتورة قالت لى انه يحبك ويريد ان يتزوجك ، وهو لايريد اولادا فضلا عن انه غنى جدا .

ـ انه رجل ولا كل الرجال يا أمى ....

ورن جرس الباب من جديد ، فقالت الأم هـــذه رنة حسن ، وصاحت أزهار من فرط السرور وأسرعت تعدو على الســـلم حافية القدمين لتفتح له الباب ، وان هى الالحظات حتى كانت صيحات الفرح وزغاريد زنوبة تملأ البيت من جديد .

كان حسن قد كبر خلال هذه السنوات ونما جسمه وأصبح زينة للشباب ، وقال لأخته وهو يدور حول نفسه فى حركة استعراضية ضاحكة :

ـ انظرى غرس يديك ، أو لم تكونى تقولين انك تريدين أن أصبح محاميا أو وكيل نيابة ؟ فها أنذا فى طريقى لأكون كذلك . وانهـال حسن من جديد على اخته بالعناق والتقبيل وراح يقول : أنا أســـعد مخلوق اليوم على ظهر الارض برؤيتك يا أزهار ، اننى فخـــور باسم أزهار . حتى اختى فاطمة أصبحت لاتتحدث عنك الا باسم أزهار .

ليس سوى أمي التى تأبى ان تعترف الا بسميحة . وليكن فى علمك اننى اصبحت بطلا وطنيا ،لقد ضمتنى فاطمة الى حركة البعث وترقيت فأصبحت عضوا مجاهدا بسرعة ، لقد أصبحت احفظ المبادىء العشرة عن ظهر قلب اسمعى :

لاتتكلم الا بالعربية ولا ترد على من لايخاطبك بها ، ولا تدخل محلا لايكتب اسمه بالعربية .

ـ تطهر فقاطع الخمور ودور اللهو الحرام والسنمات الاجنبية .

ـ تطهر وصل لربك وأم المسجد يوم الجمعة ان كنت مسلما والكنيسة يوم الأحد ان كنت مسيحيا ويوم السبت ان كنت يهوديا .

لاتشتر الا من مصرى ولا تأكل الا طعاما مصريا ، ولا تلبس الا ما صنع فى مصر .

وأسرع حسن يرى اخته كيف ان قماش بدلته مصرى ، ولكن رنين الجرس حال بين حسن وبين ان يتلو على مسامع اخته بقية مبادىء الجماعة العشرة .

وكان انفجار جديد من الزغاريد والقبلات وأزهار تلتقى باختها الدكتورة . وقالت فاطمة بعد ان استقر بهم المقام :

اخيرا تذكرتنا يا أزهار ، لقد تصورت اننا قد نموت دون ان نراك .

وشهقت أزهار من وقع الكلمة ، بينما كانت أم سميحة تصيح مستنكرة هذا الذى قيل :

ـ ألم أطلب منك يادكتورة ان لاتقولى هذا الكلام ابدا ، بعد الشر عنكم كلكم .

وصفق حسن بيديه فى حركة تهريجية ، وأعلن الحاضرين انه سيذهب ليعد سلطة الطحينة التى تحبها أزهار بيده هو . وتذكرت والدته انها يجب ان تنصرف بالفعل لاعداد وليمة الغداء فلابد ان تعد لأزهار وليمة .

ووجدت أزهار نفسها وحيدة كما كانت تشتهى مع اختها فاطمة،

ولكنها لم تكن تعرف من أين تبدأ حديثها ، فقد كانت تعرف مـــدى نقمة فاطمة الدائمة على فؤاد ، واذا بفاطمة تسهل عليها مأموريتها ، فتفاجئها بقولها :

ـ أتعلمين اننى كنت متأكدة من حضورك ، بمجرد مطالعتى فى الصحف أنباء نكبة فؤاد عبد السميع ، لقد جئت من أجـــله أليس كذلك ؟

ـ أجل يافاطمة ، وما أسعدنى أن تقدرى حقيقة مشاعرى .

ـ ما أعجب هذه الدنيا وافتراق حظوظهـــا ! ما الذى فعـــله فؤاد عبد السميع هذا فى دنياه ليمنحه الله قلبا مثل قلبك ، ويختصه بهذا الوفاء الذى لم نسمع بمثله ؟ أتتصورين يا أزهار ، انك غلبتنى أنا نفسى على أمرى نهائيا ، فأصبحت أشفق على فؤاد اكراما لخاطرك واحتراما لعاطفتك ؟ وعانقت أزهار اختها فى فرح وعرفان بالجميل وقالت لها :

ـ لاحرمنى الله منك أبدا يافاطمة لقد خففت عنى الكثير من الحرج، لقد ترددت فى اللجوء اليك لتساعدينى فى انقـــاذه ، ونكن لم يكن أمامى سبيل غير ذلك .

ـ ولكن ماذا بوسعنا ان نفعله من أجله ؟

ـ نحشد أكبر عدد من كبار المحامين للدفاع عنه ، ولاتهمك النقود فلدى منها الكثير . وقد صحبنى الى مصر رشاد افندى الذى طالمـــا كتبت لك عنه ، وهو على استعداد أن يقدم لى أى مبلغ من المال .

وصعقت فاطمة لهذه الأنباء وقالت لأختها فى ذهول :

ـ رشاد افندى السمان جاء معك الى مصر ليساعدك على تخليص فؤاد ؟

ـ أجل فعل ذلك ، وبلغ به النبـــل أن حاول تهوين الأمر على ، فادعى انه انما يجىء معى الى مصر لينتهز الفرصة ، ويحقق مشروعه الذى طالما عرضه على وهو ان يخرج لى فيلما سنمائيا ليربح من ورائه الكثير كما يدعى .

ـ ياله من رجل نبيل ! يخيل الى ان الله قد عوضك وفاء بوفاء ٠
ـ هذا صحيح ولطالما ساءلت نفسى ، أكان رشاد يحبنى هـــذا الحب كله ويعرض على الزواج منه ، لو كنت أحيا حياة الراقصـــات العادية ، ولم أكن وفية لفؤاد هـذا الوفاء ؟ على أن أزهار لم تلبث أن أعادت الحديث الى مايهمها فى هذه اللحظات فى الدرجة الأولى فسألت اختها عن رأيها فى الاستعانة بالاستاذ سيدهم باشا ، فقد أوصاها كل من فى لبنان ان تلجأ اليه باعتباره اعظم محام فى مصر ٠ وظهر الامتعاض على وجه فاطمة لمجرد ذكر اسم سيدهم باشا وقالت لأختها:
ـ اذا أردت أن أعاونك فى هذا الموضوع فيجب ان تتركى لى حرية التصرف ٠ ان سيدهم باشا سياسى حزبى ، وهو لايســتطيع الا ان يستغل كل قضية يترافع فيها لمصلحة حزبه ، وقد يشغله فى الدرجة الأولى فى قضية كقضية فؤاد الجانب السياسى منها ، باعتبـــار والد المجنى عليها من رجال العهد البائد كما اعتادوا ان يصـــــفوه ابان حكمهم ، بأكثر مما يعنيه انقاذ فؤاد ٠ وقالت أزهار فى أسى وحزن :
ـ فماذا باستطاعتنا أن نفعل اذن ؟
ـ ان ما يحتاجه فؤاد فى الدرجة الأولى محـــامون يعرفونه منذ شبابه المبكر كيف كان وكيف صار ٠ وقلبى يحدثنى أنه لن ينقـــذ فؤاد الا اخوانه القدماء من أمثـــال فكرى الذى لو كان الآن فى مصر لتولى هو تنظيم الجهود للدفاع عنه ، ومع ذلك فاعتقـــــد ان فوزى ومحيى لن يقلا عن فكرى استعدادا لمساعدته ، لو نجحنا فى اقناعهما بذلك ؟
ـ ولكن ما الرأى اذا رفض الاستاذ محيى والاســـتاذ فوزى ان يترافعا عنه ؟
ـ هذه هى المشكلة بالفعل ، ولو كان فكرى هنا لما تشككت لحظة فى تولى ثلاثتهم الدفاع عنه ٠
ـ فكرى الذى كنت تحبينه ؟ اين ذهب ؟
ـ لقد وظف فى السلك السياسى وهو الآن فى اليابان ، ولكنى

علمت أنه سيحضر الى مصر بعد شهرين فى أجازة ليشهد زفاف أخته أميرة على الأستاذ محيى ، ومع ذلك فانى أعرف من الذى سيقنعهما بالمرافعة عنه . سأرجو الدكتور خالد أمين ان يساعدنى فى هذه المهمة .

ـ هل الدكتور خالد أمين أحد زملائك فى مستشـــفى القصر العينى ؟ وضحكت فاطمة وقالت :

ـ بل هو دكتور فى العلوم ، وقد أصـبح الآن الرجل الأول فى حركتنا من الناحية الواقعية من حيث تضحيته وتجرده لخدمة مصر . ولو استطعت ان اقنعه بتولى فوزى المرافعـــة عن فؤاد فلن يعصى له أمرا وكذلك محيى .

وأسرعت أزهار تلبس حذاءها ثم معطفها وهى تقول لاختها :

ـ وما الذى ننتظره ، هيا بنا ، هيا بنا اليه لايجب ان نضــيع دقيقة واحدة .

ـ والغــداء ؟

ـ أن الغداء يستطيع ان ينتظر ولكن نجاة فؤاد لايمكن ان تنتظر .

على أن أزهار لم تكد ترى حسن الذى دخل عليها مشـــمرا عن ساعديه، وحاملا فى يده طبقا من سلطة الطحينة وقد حلاه بالمقدونس، حتى فترت همتها ولم تجرأ ان تنبئه بعزمها على الخروج قبل تناول الطعام . فبدأت تخلع معطفها فى صمت بينما كان حسن يقول لها :

ـ الى الطعام يابطلة الرقص الشرقى ، يا رافعـــة رأس مصر فى القطر الشقيق ، الى الغداء ياعميدة اسرة حسن ابراهيم، التى انتصرت على الفقر والتخلف والحرمان وظلم المجتمع .

وسارت أزهار وراء اخيها وهى تبتسم فى سعادة وغبطة من أجل أسرتها بينما كان قلبها مشغولا بحبيبها ولذلك لم تنتبه لما كان يقوله أخوها وهو يسير متبخترا أمامها :

ـ المبدأ العاشر وغايتك أن تصبح مصر فوق الجميع ، دولة شامخة تتألف من مصر والسودان ، وتحالف الدول العربية وتتزعم الاسلام .

٥

كانت قاعة محكمة الجنايات الكبرى فى محكمة مصر بباب الخلق تغص بجمهور لم يسبق ان احتشد فى قضية مماثلة ، فقد ساهمت عدة عناصر لجعل القضية تحظى باهتمام الرأى العام فى شتى قطاعاته، ابتداء من طبقات (الهاى‌لايف) التى كانت ميرفت نجما من نجومها، حتى الأوساط الفنية التى اهتمت بالقضية بعد أن ظهرت أزهار على مسرحها وأعلنت أنها ستقف الى جوار فؤاد بكل امكانياتها وانها تؤمن ببراءته • وشباب البعث الذين كانوا لايعيشون أو يهتمون الا بمبادئهم وكل ما من شأنه أن يدعم حركتهم ويزيد فى انتشارها ، بدأوا يتحمسون لمتابعة القضية بعد أن علموا أن فوزى ومحيى سيترافعان عن المتهم •

ولم تكن احزاب الأقلية وحزب الأغلبية دون طوائف الأمة الاخرى اهتماما بالقضية ، نظرا لشخصية والد المجنى عليها بين المعسكرين• وعلى الرغم من أن سكرتارية المحكمة حاولت ان تنظم الدخول الى قاعة الجلسة فقصرته على حملة التذاكر ، فان البوليس الذى جىء به لحفظ النظام ، كان هو نفسه أحد العوامل التى ساعدت على الازدحام غير العادى فى قاعة الجلسة • كان كل ضابط يدخل معارفه ، حتى أصبح يخيل للناظر أن قاعة الجلسة توشك أن تنفجر تحت وطأة من احتشدوا فيها • ولم يكن المحامون أقل الجميع حرصا على شهود الجلسة ، بعد ان كثرت الروايات حول الكيفية التى وقع بها الحادث، وان حبل المشنقة الذى ظن فى وقت من الأوقات أنه ينتظر فؤاد ، قد بدأ يختفى ليحل محله أحاديث عن السجن والحبس والأشغال الشاقة على أكثر تقدير • ودارت مراهنات حول الحكم بين المحامين الذين راحو يعقدون المقارنات بين الذين سيتولون الادعاء المدنى ، وهم صفوة كبار المحامين وجهابذتهم ، وبين فوزى ومحيى الناشئين الذين سيتولون الدفاع عن المتهم ، وأنه لن يكون بقدرتهما أن يصمدا أمامهم.

ولكن نفرا ممن كان قد اتيح له أن يشهد خطب فوزى ومحيى العامة ، كانوا يؤكدون لزملائهم أنهم سيفاجأون بما لايتوقعونه ٠

وهكذا بلغ التوتر مداه فى قاعة الجلسة قبل افتتاحها مباشرة ٠ وكان فؤاد عبد السميع محور هذه المأساة وبطلها هو آخر من يعبأ بتطوراتها ، كما كان هو نفسه آخر من يهتم به انسان فى الجلسة ، وكانت نظرة واحدة اليه فى قفص الاتهام، تجعل الجميع يزورون عنه وينفرون ، ولايحفلون بمصيره ، بأكثر مما يحفل بمصيره هو نفسه ٠

كان فؤاد يجلس متشبثا بقضبان القفص الحـــديدى ليحول بين نفسه وبين السقوط ، ولعل هذه الحركة كانت هى الاجراء الواعى الوحيد الذى كان يدل على أنه لا يزال حيا ، فقد كان شارد الذهن مغلق العينين ، مصفر الوجه صفرة الموت ، أشعث أغبر ، وقد طالت لحيته بطريقة عفوية ٠ كانت البدلة التى يرتديها واسعة فضفاضة بعـــد أن أصبح لايكاد يملأ نصف فراغها ، ولم يكن يسمع أو يعى شيئا مما يجرى حوله ٠ وكان منظره يثير التقزز والدهشة البالغة ، كيف أن مثل هذا المخلوق كان يوما زوجا لاجمل فتيات مصر وأشيكهن ، كيف كان صهرا للوزير وصاغا فى البوليس ؟ على أن عجبهم الأكبر كان يدور هذا الصباح حول موقف أزهار الراقصة ، التى جاءت من بيروت لتقف الى جواره ٠ واذا كان أحد لاينظر الا لماما ومن طرف خفى لفؤاد ، فقد كان كل من فى القـــاعة ينظر لأزهار بتمعن وتطلع ، وكانت قد أصبحت تبدو فائقة الجمال تحت وهج الشهرة ، واستخـــدام آخر مايقدم المال من عناصر التجميل ، كتصفيف للشعر وتجميل للوجه وارتداء افخر الأزياء واحدثها طرازا ٠ وكان مما يزيد فى فتنتهـــا ، انها كانت شديدة الحرص على ان تكون الحشـــمة طابع ملابســـها وزينتها ٠ ولم تكن أزهار هى الانثى الوحيدة فى الجلسة ، فقد كان هناك عدد من صديقات ميرفت ومعارفها وقد جئن بدورهن يشهدن آخر فصول روايتها المتعددة الفصول ٠ ولم يشغل هذا النفر من زهرات المجتمع أنفسهن بوجوب التزام الحشمة ، فلم يكن راقصات لتشغلهن عقدة الوقار ، بل كن من بنات البيوتات الكبيرة العصرية ٠

وكانت أم فؤاد عبد السميع هى الانسان الوحيد فى هذه القاعة، غير أزهار ،من يخفق قلبه مع خفقات قلب فؤاد ،ولم تكن ترى أو تسمع فى كل ما يحيط بها شيئا ، فقد كانت روحها متعلقـــة بابنها وفلذة كبدها ٠

لقد هرعت الى القاهرة بمجرد سماعها بالحادث ، وصحبها زوج ابنتها وبنتها ، وعاشوا لأول مرة فى احد فنادق سيدنا الحســـين ، لتكون بجوار ابنها فى محنته ، وليكون باستطاعتها فى نفس الوقت ان تتردد على الحسين لتدعو اناء الليل واطراف النهار ان يأخذ الله بيد ابنها ببركات الحسين ٠ ولم يرقأ لها دمع مذ وصلت الى قاعـة الجلسة ولم يكف لسانها عن ترديد كلمة واحـــدة « يارب ، يارب ، يارب » ٠

واخيرا جاءت الســــاعة الموعودة وفتحت الجلسة ، وأرهفت الاسماع والحواس ٠ وساد صمت عميق والرئيس يوجه الاتهـــام لفؤاد عبد السميع الذى وقف متهالكا متشبثا بالقضبان الحـــديدية خوف السقوط :

ـ يافؤاد ، انت متهم بقتل زوجتك ميرفت رمضان احمد ، ووحيد صبرى حسنين عمدا مع سبق الاصرار والترصد ٠

ورد فؤاد فى صوت خافت ولكن كل من فى المحكمة سمعه لفرط ما أرهفت الاسماع :

ـ نعم قتلتهم ٠

وجلس فؤاد بعد ذلك باذن من الرئيس الذى لمس اعياءه ، وكأن فؤاد قد استنفد آخر ما كان فى نفسه من جهد حتى يقول العبارة التى قالها ، ذلك أنه لم يلبث أن استغرق فى ذهول عميق أقوى مما كان فيه ، بحيث حجبه عن كل مايدور فى الجلسة ٠٠٠٠

وهكذا لم يتابع شهادة الشهود من خدم القصر وهم يســـوقون الاكاذيب ، ويدعون أن الحفلة لم تكد تنتهى ويبدأ المدعوون فى التفرق، حتى فوجئوا بالمتهم ينهال على سيدتهم ووحيد بك بالرصاص حتى

أرداهما قتيلين . ولم يحضر رمضان باشا ليشهد فى الجلسة فقد أصيب الرجل بانهيار عصبى عقب الحادث جعله عاجزا عن التحرك فلازم الفراش . لم يسمع فؤاد ما راح يصبه على رأسه المحامون الباشوات الذين يمثلون والد المجنى عليها المدعى بالحق المدنى ، من الشتائم وألوان السباب فهو الوصولى القذر والكلب العقور الذى عض اليد التى امتدت له بالاحسان . لم يدعوا شيئا من ماضيه الا ونبشوه، وراحوا يتخذون منه دليلا وبرهانا على أنه قد ولد مجرما بطبيعته . اعتبروا دخوله مدرسة الكونستبلات مظهرا لخيبته وفشله فى الحياة السوية . وكان موضوع علاقته بأزهار هو الميدان الذى راحوا يصولون فيه ويجولون ، ليصلوا من ورائه للكشف عن استهتار فؤاد ودناءته وانه كان يعيش على كدها على ما صوروا الموقف . وعلى الرغم من ان التحقيق قد تناول مظنة ان تكون هناك علاقة بين أزهار وبين الجريمة من أى نوع كان ، وانتهى مثبتا بما لايدع مجالا للشك ان لادخل لأزهار بهذا الحادث عن قرب أو بعد ، حتى ان النيابة العمومية ، استغنت عن شهادتها فى القضية مع أو ضد المتهم ، فقد أبى محامو الادعاء المدنى الا أن يشهروا بأزهار نتيجة اعلانها أنها تقف الى جواره ، وليتخذوا من صلته بها حافزا للقيام بالجريمة . ولم يكن يهم المحامين ان يقولوا كلاما منطقيا أو له اساس من الثابت فى الأوراق ، بقدر ما كان يهمهم تلطيخ أزهار وفؤاد معا . وتباكوا على الفضيلة والتقاليد والشرع والقانون الذى اهدره فؤاد فى علاقته الأثيمة بأزهار .

وتابعت النيابة العمومية كبار المحامين فى نهجهم وجلجل صوتها وهى تتلفت صوب فؤاد الذى كان فى نجوة من كل هذا الذى يجرى، وهتف وكيل النيابة المترافع الذى جىء به خصيصا لبلاغته :

– ألا خسئت أيها المجرم الأثيم وشلت يمينك ، الا لعنت أيها السكير العربيد ياقاتل الثلاثة ، ثلاثة نعم ياحضرات القضاة ، فان الأب المكلوم لم يعد يحيا الا بالجسد فقط أما روحه فغائبة عن الحياة،

والأمل الآن معقود بحـــكمكم لتردوا الى الحيـــاة هـــذه الروح المعـــذبة روح أب طعن فى صـــميم قلبه ووجـــدانه وهو يحرم من ابنته الوحيدة زهرة حياته فى شيخوخته ۰ اننا نريد حكما رادعا تنزلونه على هذا المجرم الآثيم ، حكما يشفي الصدور ويذكر الجميع بأن سيف العدالة بالمرصاد ، لا تأخذكم بفؤاد عبد السميع شـــفقة أو رحمة ، لقد عاش طول عمره حشرة وليس للحشرات من مصير الا ان توطأ بالاقدام ، كونوا على ثقة أنه مجرم بالطبيعة مجرم مذ خرج الى هذه الحياة الدنيا ، ولو كان هناك عقوبة اكثر من الاعدام لكانت من نصيب أمثاله ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ۰

ثم جاء دور الدفاع عن المتهم واتجهت الابصار الى محيى وتعلقت به الاسماع ، وراود الكثيرين الشك فى انه سيكون باستطاعتـه ان يبدد شيئا من هذا الركام من القاذورات والاتهامات التى صبت على رأس المتهم ۰ وكان فوزى ومحيى قد قسما الدفاع فيمـــا بينهما ، فاختص محيى بمناقشة أدلة الاتهام ودحضها واظهار كذبها وتلفيقها ثم تصوير القضية كما هى فى حقيقتها ووضعها فى اطارها الصحيح ، على ان يضطلع فوزى بعموميات القضية وأدبياتها التى كانت أخطر مايهدد فؤاد ويثير الاشمئزاز منه ، ويحرض على القسوة عليه ۰

واضطلع محيى بمهمته فى براعة فائقة ، فكشف عما فى شهادة الشهود من تناقض فاضح نتيجة الكذب والتلفيق ، وهم يدعون ان القتل قد تم على ملأ من الجميع ۰ ومضى يستخرج من الأوراق ومما قيل أمام المحكمة مايقطع بحقيقة الحادث وانه لايخرج عن كونه زوجا قتل زوجته هى ومن يزنى بها ، وليس فيما فعل مايعاب عليه والقـانون يعتبره معذورا ويعامله بالرأفة واستمر محيى يترافع ساعتين ، ولم ينته من مرافعته حتى أصبح واضحا أن المحكمة قد اقتنعت بحقيقـة ما حدث ، وان فؤاد كان الزوج المعذور اذ يقتـــل زوجته الزانية وعشيقها ، وكذلك كان اقتناع كل من فى القاعة ، ومع ذلك فقـد ظل اشمئزاز الجمهور من فؤاد كما كان لم ينقص كثيرا أو قليلا ۰

٦

مدت الأم يدها المعروقة من خلال قضبان قفص الاتهام ونادت ابنها :

ــ فؤاد ٠

وفتح فؤاد لأول مرة عينيه تحت وطأة هذا النداء الصـــادر من قلب الأم ٠

ــ نعم يا أمى ٠

ــ أرأيت كيف أظهر الله الحق ؟ قل يارب يابنى ، قل يارب ٠

وبدرت لأول مرة حركة واعية من فؤاد اذ أهوى على يد أمه وراح يقبلها ويبللها بدموعه ، ويقول لها وهو يشهق بالبكاء :

ــ لم يعد يعنينى فى الدنيا الا ان تسامحينى ، سامحينى يا أمى٠

ــ وعلى أى شىء أسامحك يابنى ، أنك ابنى ، ضناى ، قل يارب ، قل يارب ٠ وســـــحبت الأم يدها من فؤاد وعادت تتمتم « يارب ، يارب ، يارب » ٠

واقتربت أزهار من القفص وسرت موجة من الهمس والتطلع لمــا سيجرى بين أزهار وفؤاد وأسرع الصحفيون الى أوراقهم وأقلامهم ، والمصورون الى آلاتهم لالتقاط الصور ، وقالت أزهار لفؤاد :

ــ أسمعت يافؤاد ما الذى قاله الأستاذ محيى وكيف نســـــف الاتهام نسفا ، فكيف بعد مرافعة فوزى ؟ ألم أقل لك منذ اللحظـــة الأولى انك ستخرج من هذه المحنة وتسترد صحتك وتذهب الى غير رجعة الأيام السود ٠ وكأنما احست أزهار ان فؤاد لم يلق باله لمـا قالته له فهتفت به :

ــ فؤاد ألم تسمعنى ؟ وفتح فؤاد عينيه الذابلتين وومض فيهما بريق خافت من الحياة وقال :

ــ اسمعك يا أزهار اسمعك ٠

ــ أوعيت مرافعة الاستاذ محيى واطمأنت نفسك ؟

ـ لقد قبلت يد أمي وقد ســـــامحتني ، وأنت بجواري ، فوزي ومحيي يترافعان عني ، حسبي هذا حسبي هذا سأموت قرير العين ، ماذا أريد أكثر من ذلك لأعرف ان الله سامحني ٠

كيف تتحدث عن الموت في الوقت الذي اتضحت فيه براءتك ؟ لن يصدر عليك حكم اذا صدر الا بقدر بسيط من الشـــهور ، وستعود اليك صحتك وستخرج الى الحرية من جديد ، وسنسعد ســـويا كما كنا في الماضي ٠

ودخل الحاجب ايذانا بقرب دخول المحكمة ٠ واطفئت السجاير ، وهدأت الحركة وساد السكون ، وصاح الحاجب وقــد شـــد قامته وتوترت عضلاته وحاول جاهدا ان يملأ الناس رعبا وهو يصيح :

ـ محـــكمة ٠٠٠٠٠

ودخل القضاة الثلاثة الكبار ووقف كل من في القاعة اجلالا لهم، واستؤنفت الجلسة واستهل فوزي مرافعته وسط صمت رهيب :

« شهدتني هذه القاعة اكثر من مرة في قفص الاتهـــام ، وما من مرة لم أناشد فيها قضاتي أن يحكموا علي بالسجن اذا شـــاءوا وهم آمنون مطمئنون انني سأباركهم كما لو حكموا علي بالبراءة ، فقد كنت أرى في السجن من أجل الحق والفضيلة شرفا لايقل عن الحـــكم بالبراءة ، ولكنني اذ أقف اليوم موقف المحامي عن هذا المتهم المنكود ، فان واجبي يتلخص في أن ألفت نظركم الى أن الحكم بالســـجن ولو اليوم واحد على هذا المتهم اكثر مما ســـجن ، يكون حكمـــا على الحق والعدل والفضيلة ٠

لقد ملأ محامو الادعاء المدني وتابعتهم النيابة العمومية هـــذه القاعة بألفاظ وعبارات مدوية طنانة حاولوا بها ان يصوروا مـــدى شناعة الجريمة التي ارتكبت وأن يستدروا عطفكم على الارواح الكريمة التي أزهقت ، والدماء الزكية التي أهرقت ٠ وقد بقي أن تســـمعوا مني أنا المحامي عن المتهم ، أنني لست أقل عنهم استنكارا للجريمـــة

التى وقعت . أن قلبى ليدمى فى صدق من أجل هذا الأب المنكود الذى يلازم الفراش حزنا على وحيدته . وانى لأرثى للمجنى عليها ، وأرثى لصاحبها الذى قتل معها فى ميعة الشباب والصبا . أرثى لهـــذا الشباب الذى أضله سوء طالعه ، فكان هذا الانحراف الذى صـــوره زميلى فى الدفاع فأحسن تصـــويره . ومع ذلك فانى أرثى لميرفت أيا كانت حياتها ، وأيا كان الاستهتار الذى عاشت فيه ، تأسيا بقول المسيح عندما جاءته الزانية فتغامز القوم عليها ، فقال لهم « من كان فيكم بغير خطيئة فليقذفها بحجر » . لقد وجد الانسان على هـــذه الارض ثمرة خطيئة ارتكبهـــا أبو البشر ، ومن يدعى أنه مبرأ من الخطايا فهو دجال منافق . اننى لأرجو الله فى موقفى هذا ان يغفر لى خطاياى . فلسنا نقسو اذن على ميرفت لأنها أخطأت وتوجعنـــا من أجلها لايقلل منه انها أخطأت . المسألة الآن هى معرفة من هو المتسبب فى هذه الجريمة التى نفزع منها جميعا فاما النيابة فتعتبرنا نحن المجرمين ، وأما نحن فنعتبر انفسنا مجنيا علينا فيمن جنى عليهـــم . انظروا الى هذا الذى يسمونه متهما ياحضرات المستشارين ، انظروا اليه فى قفصه وتأملوه جيدا ، ثم استدار فوزى صوب فؤاد وهتف به ، أن يقف ليواجه قضاته . ولم ينتبه فؤاد لما طلب منه ، حتى نبهتـــه أمه وطلبت منه أن يقف ، فحاول أن يقف تحت تأثير الأمر الصادر له ، والذى لم يفقه له معنى ، وتشبث بالقضبان ثم حافة القفص ليتمكن من النهوض ، فاستطاع بصعوبة ان يقف شارد اللب مذهولا ، ولكنه لم يكد يقف حتى هوى من جديد على مقعده محطما من أثر الجهد الذى بذله .

وسرت همهمة فى القاعة ، بينما استأنف فوزى مرافعتـــه وقد تهدج صوته معلقا على هذا المشهد الذى جرى :

« هذا هو فؤاد عبد السميع أو بالأحرى ، هـــذا هو مابقى من فؤاد عبد السميع . ولست أطلب منكم ياحضرات المستشارين الا أن تلقوا نظرة على هذه الصور التى تمثل فؤاد قبل أن يتزوج ميرفت -

وقدم فوزى مجموعة من الصور (ألبوم) فراح القضاة يقلبون فى صفحاته وهم لايستطيعون اخفاء دهشتهم رغم محاولتهم ان يظهروا بمظهر المتحفظ ، واستأنف فوزى كلامه قائلا :

« انظروا أى فرق بين ما كان عليه فؤاد ، وما هو عليه الآن تتجلى لكم حقيقة المأساة التى كنا نحن من ضحاياها ٠

وراح فوزى يتعقب كل ما وصف به فؤاد من نعوت خسيسة مبينا كيف كان ذلك كله أثر البيئة الجديدة التى وجد نفسه غارقا فيها ٠

ثم عرض لموضوع علاقة فؤاد بأزهار وبدأ الانفعال يظهر فى صوته الذى تهدج ، بينما راح يقول :

لقد أطالت النيابة وأطال محامو الادعاء المدنى الوقوف طويلا أمام علاقة المتهم بأزهار ، وحاولوا ان يتخذوا من هذه العلاقة مادة للطعن والتجريح والتشهير لا بالمتهم فحسب ، بل وبالسيدة أزهار نفسها ، منددين بموقفها الحالى من المتهم وقد حانت الساعة لاقول لكم ياحضرات المستشارين ، اننى اذا كنت قد قبلت الدفاع عن هذا المتهم ، فانما فعلت ذلك اجلالا واكبارا للسيدة أزهار وليس من أجل اعتبار آخر ٠ جئت الى هنا احتراما منى لاسمى عاطفة يمكن ان تحملها امرأة لرجل أيا كان الوصف الذى يطلقه المجتمع على هذه العلاقة ٠ ان الذين حاولوا المساس بأزهار والنيل من سمعتها ينسون أنها اليوم تمثل النجمة اللامعة بالنسبة لالوف المعجبين بها ، لايعرفون ربما أن هذه القضية لاتكاد تنتهى حتى تشرع فى تمثيل ثلاثة أفلام سنمائية فى آن واحد ، بعد أن أصبح يتهافت عليها منتجو الافلام ومخرجو السنما ٠ فهى اليوم تقف على ذروة الشهرة والغنى ، ومع ذلك فقد تركت ذلك كله لتخف لنجدة الرجل ، الذى لم يرض فى لحظة من اللحظات بحكم تربيته ونشأته أن يتزوجها ، الرجل الذى تخلى عنها ليتزوج ابنة الوزير ٠ أسرعت الى نجدته ، والوقوف الى جواره ، بعد أن أصبح طللا وحطاما باليا ، وبقايا انسان ٠ بعد أن لم يبق منه

الادمان على الخمر الا على هذا الشبح الذى تزدريه العين • انها تقف بجوار انسان قال كل من فى مصر تحت تأثير الدعاية الكاذبة لحقيقة الحادث ، ان مصيره المشنقة ، أفما كان حريا بها ان تهرب منه وأن تفر فرار السليم من الاجرب ؟ أفما كان حريا بها ان تقف منه موقف الشماتة والتشفى؟ لو أنها فعلت لكان ذلك من حقها ولما لامها انسان. ولكنها أبت الا أن تضرب لنا مثالا ونموذجا على الوفاء الذى يصل الى مرتبة الأساطير ، والذى لانستطيع اذا سمعناه الا أن ننكر وجوده ، ولكنه من حسن الحظ ماثل أمامنا ويجرى تسجيله الآن فى ســـاحة القضـــاء •

لقد جاءت تخب من بيروت لتنجده ، وجاءتنى وزميلى ضـــارعة لنقبل المرافعة عنه مذكرة أيانا بما كنا قد نسيناه ، فى غمار الحوادث وتحت تأثير الدعاية الكاذبة من أنه فى نهـــاية الأمر زميل الطفولة لواحد منا ، واننا رضينا أو لم نرض فهو منا • وهكذا أخجلتنـــا من أنفسنا أن نكون أقل احساسا منها بواجب الوفاء نحو انســـان فى محنته • من أجل هذه العاطفة السامية النبيلة أحنى رأسى ، من أجل هذا النموذج الحى من الوفاء الاسطورى ، جئت الى هذه الساحة •

ثم مضى فوزى فى مرافعته حتى اذا أوشك على الفراغ منها ارتفع صوته مجلجلا فى سماء قاعة محكمة الجنايات :

« فاذا قلتم عن فؤاد انه سكير عربيد أدمن الخمر ، فقد وصـل الى ذلك بفعلكم ، واذا تحول الى لاعب قمار محترف فانما كان يلعب بورقكم ، وبما لكم وفى قصركم • واذا تمرغ فى حمأة الرذيلة فعـلى فراشكم ، وبحكم تقاليدكم • واذا انتهى به المطاف الى أن يصبح قاتلا، فليس ذلك سوى جنى زرعكم • فاذا بكيتم أو بالاحرى تباكيتم على الجمال الجسدى الذى ذوى ، فابكوا قبل ذلك على جمالنـــا الروحى الذى خبا • اضربوا بشدة على اليد الآثمة المجرمة ولكن ابحثوا عنها فى غير صفوفنا ، فقد كنا نحن أول ضحايا هذه اليد المجرمـــة ، يد البطالة والفراغ ، يد الثراء والغنى الفاحش ، يد السلطة المطلقة التى

لاتعبأ بقانون أو عرف أو تقليد أو دين ، يد الغرائز المنطلقة البهيمية، التى لاتجد عاصما أو رادعا يوقفها عند حدها ، يد استغلال النفوذ واساءة استعمال السلطة • هذه هى اليد الباطشة التى بطشت بكل المنكوبين فى هذه القضية ، والذين كنا أولهم •

وارتفع نشيج فى القاعة من هنا وهناك، وساد الصمت والوجوم، وتحولت الانظار الى أم فؤاد وأزهار ، بينما كان رئيس المحكمة يقول لفوزى :

ـ حسبك يا أستاذ فوزى •

ـ أجل حسبى فلم أعد من ناحيتى قادرا على أن أمضى فى مرافعتى، ولم يبق أمامى الا أن أدعو الله ان يلهمكم السداد والتوفيق •

٧

ـ حكمت المحكمة حضوريا على فؤاد عبد السميع بالحبس سنة واحدة مع الشغل والنفاذ •

ودوى التصفيق فى قاعة محكمة الجنايات ، وهتف الحاضرون بحياة العدل ، فقد كان الحماس قد بلغ بالجمهور أشده ، وأقبل الجميع يهنىء بعضهم بعضا ، واشتغل المصورون الصحفيون فى همة لأخذ صور فؤاد ، الذى كان الوحيد فى هذه القاعة الذى لم يحس بالحكم ، واندفعت أزهار نحو قفص الاتهام وأمسكت يد فؤاد وراحت تغمرها بدموعها وقبلاتها وتقول :

ـ مبروك يافؤاد الف مبروك •

وأمسك فؤاد يد أزهار كما أمسك يد والدته من قبل وقال لها :

ـ سامحينى يا أزهار ، سامحينى •

ـ كف عن هذا الكلام الذى لامعنى له ، لاتفكر فى الماضى ، انظر الى المستقبل ، اعتن بصحتك ، اقبل على طعامك ، عد الى ايمانك وتفاؤلك ، لكى تسترد كل قوتك • أتعرفَ ما الذى تعنيه سنة من الحبس ؟ أنها تسعة شهور ، أمضيت منها فى الحبس الاحتياطى

أربعة ، فلم يبق أمامك الا خمسة شهور ، خمسة شهور فقط ، أتسمع يافؤاد؟ خمسة شهور فقط تعود بعدها الى الحرية لتراني فيانتظارك، كما كنت دائما ٠

وغمغم فؤاد قائلا لأمه التي كانت تبكي من الفرح الى جواره ٠

ـ أسمعت يا أمي ماتقوله أزهار ، أسمعتها ؟

وعانقت الأم الكليلة المتداعية تحت تأثير شتى الانفعالات أزهار ، وقالت لها :

ـ ماذا تستطيع أم فقيرة ضعيفة أن تعبر لك به يابنتي عن شكرها لك لانقاذ وليدها ؟

واجهشت أزهار بالبكاء بينما كانت والدة فؤاد تقبلها في كل جزء من وجهها وهي تقول :

ـ ابنتي ، يا ابنتي ٠

الفصل الخامس

١

كانت حفلة زفاف فوزى على وفاء هى الفرصة التى اتخذت منها أزهار سبيلا لتعبر عن شكرها لفوزى وعرفانها لجميله ، فأصرت على أن تحيى الحفلة ، وأن تحضر له بعض المطربين • وعبثا حاول فوزى أن يعتذر لها بأن ظروفه تحول بينه وبين اقامة مثل هذا الحفل ، وأنه قد قرر أن يكون الحفل بسيطا صـــامتا ، ولكن أزهار تغلبت على معارضته بقولها أن اعتذاره لايعنى شيئا سوى احتقاره لرقصـــها ومهنتها • ورضخ فوزى لالحاح أزهار وتحول الحفل الصغير المتواضع فى شقتى شريفة هانم والسيد أفندى على ، الى حفل يفيض بالبهجـــة والمرح ويفعم بالسعادة • عزفت الموسيقى أعذب الالحـــان ، وغنى المطرب أجمل الأدوار ، ورقصت أزهار كما لم ترقص من قبل فى كل حياتها كما قرر رجال بطانتها • كانت أشبه ما تكون بزنبقة الحقول رقة ، وبالفراشة خفة ، والنغمات ســحرا • وكان فوزى يهتز تحت وطأة تثنيات جسدها وشدة انفعالاتها، ولم يكن يعرف اذا كان الآخرون يرون مايراه فى أزهار ، يرون الانوثة المجسدة التى هى جوهر الحياة وسرها الرهيب ، حيث تقوم على البذل والاعطاء والفناء فى غير مقابل • كان كل شىء حول فوزى فى هذه الليلة يملأه بالسعادة المترعة ، كان يحس بنفسه أغنى الاغنياء ، وأقوى الاقوياء ، وهو يزف الى عروسه محاطا بهذه الصفوة من اخوانه الذين أخلصوا له وشاطروه الجهاد ، ووقفوا الى جواره فى السراء والضراء • لقد كانوا جميعا هناك محيى وأميرة أخت فكرى اللذين كانا سيتزوجان فى الاسبوع التالى لزواجه،

وكان هناك فكرى الذى عاد خصيصا من اليابان ليشهد عرس اخته ، فشهد عرس فوزى كذلك ، وكان هناك رياض الذى لم يتردد فى شهود حفل فوزى ، ولم يكن هناك أى ظل من شك أنه لايقل سعادة عن أى صديق آخر من أصدقاء فوزى · ولقد أحس فوزى بصدقه وهو يشيد بجمال عروسه ويهنئه على حسن اختياره وان الله قد عوض صبره خيرا · وكان هناك خالد أمين الذى أصبح يرمز الى كل ماهو جليل ونبيل فى حركتهم ، وكان هناك نفر من طليعة المجاهدين الذين أصبحوا أعز على فوزى من روحه التى بين جنبيه ، وكان هناك سامح الذى كان قد تخرج بامتياز جعله مفخرة لكل من عرفه ، وأخيرا كانت هناك وفاء العروس التى بهرت اخوان فوزى بحسنها الهادىء وروحها القوية ·

ولم يكن فوزى اقل انبهارا بجمال عروسه من زملائه حتى لكأنه يراها لأول مرة ، فلم يحدث من قبل ان رآها متزينة كما تفعل الفتيات ، فلما ازينت هذه الليلة بحكم كونها عروسا وارتدت ثوب الزفاف الفضى ووضعت على رأسها اكليل الزهور بدت له فتنة مجسدة ، كأجمل من وقعت عينه عليهن أو صادف من الجميلات · وكانت عيناها العسليتان تطفحان بضوء ساطع هو صدى لما تحسه من سعادة · وكان ذلك كله يهز فوزى ويجعله يرتجف لفرط شعوره بالعجز عن شكر النعمة التى غمره الله بها ·

ودعى الرجال لتناول الطعام ، وجلس شباب حركة البعث لأول مرة حول مائدة حافلة لا يأخذون عليها الاسراف · ولم يذكر واحد منهم العدس الذى جعلوه شعار مآدبهم ، فقد كانوا يعرفون أنهم يشهدون ليلة من ليالى العمر التى لايجود الزمان بمثلها من يوم لآخر · كانوا يعرفون انهم يحتفلون بعدة احتفالات فى آن واحد ·

وبعد ان بدأت البطون تقترب من الامتلاء ، كان من غير الطبيعى ان لايرتد الحديث الى السياسة والحوادث الجارية ، فقد كانت هذه

الاحاديث هي دنياهم ، واذ كانوا يحيون الآن في مناسبة سعيدة تذكرهم بالنصر الذي احرزوه ، وقد أصبحت حركتهم شامخة وطيدة الاركان يعلق عليها الكثيرون الامل في بناء حياة أفضل ، فقد تركوا لأحلامهم العنان ٠

فقال محيي :

ـ ان هذا التصدع الخطير الذى حاق بحزب الأغلبية بخروج الأستاذ الويشي والدكتور بأهر ومن معهما من النواب والشيوخ ، هو نهاية حزب الأغلبية وزعامة رئيسه ٠

ولكن فوزى لم يقر صاحبه على وجهة نظره وقال :

حقا ان هذا التصدع سينال من حزب الأغلبية كحزب ذى فاعلية ولكن زعامة رئيس الحزب ستظل بين السواد الأعظم من الشعب حيث هي ٠ وراح فوزى يشرح لأخوانه السر فى تعلق الشعب برئيس حزب الأغلبية رغم أخطائه والمآخذ التى تؤخذ عليه ٠ فالشعب يرى فيه رمزا لسيادته ، فهو رئيس الحكومة الوحيد الذى يرتقى الحكم بارادة الشعب فى انتخابات حرة نزيهة ٠ أما بقية الاحزاب فلا سبيل لها أن تلى الحكم الا عن طريق الانجليز حينا أو السراى حينا آخر أى عن طريق القهر وغلبة الشعب على أمره ٠ واسرع صبرى يقول :

ـ سنكون نحن الذين نقضى نهائيا على هذه الزعامة الخرافية عندما نلى الحكم ، ويرى الشعب من حكمنا ما لم يره فى أجيال من الاصلاح والبناء والانشاء والتعمير والعدالة الاجتماعية ٠

واعترض فوزى على صاحبه قائلا :

ـ لا أظن أن أمثالنا يصلون الى الحكم ٠ اننا حملة مبادىء ، والحكم والمبادىء لايتفقان ٠ ان الحاكم مهما أوتى من صفاء النفس لايمكن الا أن تضطره الضرورات العملية الى الانحراف عن بعض المبادىء والمثل ٠ واحتج صبرى على هذا القول وظاهره محيى فى احتجاجه ، فقال محيى :

ـ لايجب ان تشككنا فى حقنا فى بلوغ الحكم وجعله هدفا من

أهدافنا ، فلن يكون من المستطاع تحقيق برنامجنا الا من خـــــلال السلطة ، عن طريق السلطة والسلطة وحدها ، ســـــلطة الجيش والبوليس والمحاكم ، يكون بقدرتنا أن نخرج الانجليز ، وأن نوحد البلاد العربية وأن نقضى على الفقر والجهل والمرض • وتدخل خـالد أمين الى جوار فوزى قائلا بصرامته التى تجعل الجميع يهابونه اذا تكلم:

ـ أناشدكم الله يا اخوانى أن تدعوا كل تفكير فى الحكم أو تولى السلطة • فليتول السلطة من يتولاها ، لقد عشنا مثاليين ، ويجب ان نظل ما بقينا على ظهر الحياة مثاليين • من أدرانا ان لا يفسدنا الحكم كما أفسد رئيس حزب الاغلبية ؟ ألم يكن مضرب الامثال على التطرف فى وطنيته وفضيلته ، وايمانه بالحرية والديمقراطية ؟فلنبق دائمـا كما نحن نوجه وندعو وننشر الروح تاركين لغيرنا مهمة الحكم ، ليس هناك ما يجب أن يملأنا بالسعادة أكثر من أن نرى مبادئنا التى ندعو اليها تتحقق على يد كائن من كان ، اننى أتمثل بقول فوزي الذى يردد فيه قول نبينا : « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » وقطع على خالد حديثه ، مقدم حشد من أطباق الفاكهة والحلوى ، فصاح الصائحون فى مرح وكان صبرى أعلاهم صوتا :

ـ بالله عليك يادكتور ان تدعنا الليلة من أحاديث المســــاكين والمسكنة ، حدثنا عن الجنة التى وعد بها عباد الله الصالحين •

وانقضوا على أطباق الحلوى يمزقونها فى عنف وصخب وقد نسوا حديث المستقبل الى حين •

٢

جلست أزهار فى ركن من أركان الصالون فى فرح فوزى الى جوار اختها فاطمة والسعادة تطفح على وجهها ، لوجودها فى هذا الجو العبق الذى يفيض بالاخلاص والفضيلة والطهر وسألت اختها :

ـ أين فكرى يافاطمة وسط هؤلاء الجالسين على مائدة الطعام ؟

واحمر وجه فاطمة وأشارت الى أحد الجالسين حول مائدة الطعام بوجه جميل مشرق وقالت :

– هذا الذى يضع وردة حمراء فى عروة سترته • وهتفت أزهار:

– الا ما أجمل وجهه يافاطمة ! حدثينى كيف تقابلتما بعد عودته من اليابان ، هل تغيرت عاطفته نحوك • فقالت فاطمة :

لقد قابلنى بفرح واشتياق، ولكن لاتنسى أنه اصبح دبلوماسيا ، على أنه لم يعد يحتل فى نفسى المكان الذى كان له • شخص واحد هو الذى أصبحت احلم به ويملك على كل مشاعرى ، ويفهمنى تمام الفهم ويعزك أنت من كل قلبه • وهتفت أزهار على الفور :

– لقد حذرته ، انه الدكتور خالد أمين أليس كذلك ؟ لقد أدركت ذلك منذ تقابلنا معه لأول مرة لتكلميه فى موضوع فؤاد • وأجابت فاطمة :

– انه انسان مثالى ، ليس فى مصر كلهـــا من يدانيه ، حتى ولا الأستاذ فوزى نفسه ، ولطالما جاهر الأستاذ فوزى بأحقية خالد لقيادة الحركة باعتباره أفضل منه ، ولكن الدكتور خالد يصم أذنيه عن سماع ذلك ، ويعلن أنه سيظل طول عمره يجاهد كجندى صغير فى قافلة المجاهدين •

وسألت أزهار اختها :

– وهل يبادلك عاطفتك وشعورك نحوه ؟

– الحق اننا لم نتبادل كلمة واحدة فى هذا الموضوع ، فأنا أجبن من أن أتفوه أمامه بشىء من ذلك ، ومع هذا فقلبى يحدثنى أنه يحمل لى بعض ما أحمله له • ما انفردنا فى مكتبه فى احدى المرات الا وخيل الى أن عينيه يغوصان فى اعماق نفسى ويحسان بما أحمله له ، فيظهر على وجهه الارتياح الذى لا أستطيع أن أخطئه • وغمرت أزهار موجة من الفرح وقالت لأختها :

– فهل من أمل يافاطمة أن أفرح بزواجك منه قريبا ؟ فتنهدت فاطمة وقالت :

ـ أما الحديث عن زواجي منه فأمل بعيد المنال ، قلبى يقول لى ان الدكتور خالد لايفكر فى الزواج من أى انسانة ، لقد تزوج مبادئه • انه يعيش ويحيا وسيموت من أجل هذه المبادىء • أنه طراز عجيب من البشر الذين خلقوا ليكونوا قديسين وشهداء •

وقطعت شريفة هانم هذه المسارة التى أستغرقت وقتا طويلا بين الشقيقتين ، ودعتهما الى تناول العشاء بدورهما • ولم تكــد أزهار تنفرد بشريفة هانم فى لحظة هدوء نســبى حتى أسرعت تعانقهــا وتقول لهــا :

ـ ماهذا الجمال ياشريفة هانم وهذا الجــلال الالهى ؟ لو كنت رجلا لعشقتك ، ولو كنت عابدا لعبدتك • وابتسمت شريفــة هانم ابتسامتها الرقيقة الحانية وقالت لأزهار :

ـ لم اكن أعرف أنك تجيدين الكــلام مثــل اجادتك للرقص ولا أظنك تتوقعين منى ان أرد على تحيتك بما يدانيها ، هيا الى الطعام، هيا يادكتورة فاطمة ، أرجو ان تعتبرينى دائما بمثابة أم ثانية لك • واستؤنفت السهرة من جديد بعد الفراغ من تناول العشاء ، وعادت الموسيقى تعزف والمطرب يغنى وأزهار ترقص وترقص ، وكلما حاول فوزى ان يطلب منها ان تكف ، تقول له : دعنى بالله عليك ارقص ، ان الرقص هو اللغة الوحيدة التى أستطيع أن أعبر بها عما فى نفسى• أن الرقص هو صلاتى التى اتوجه بها الى خالقى ، اننى اسعد مخلوقة هذه الليلة فى الدنيا كلها ، ليخيل الى أن الدنيا قد خلت من الأكدار والأحزان والشقاء ولم يبق فيها الا الحب والاخلاص والسعادة •

٣

لم تكد أزهار تعود من حفلة زفاف فوزى قبيل الفجر ، وتأوى الى مخدعها فى الفندق الذى كانت تقيم فيه منذ عودتهــا من بيروت والى جوارها رشاد افندى السمان فى حجرة أخرى ، حتى أيقظهــا فى

الصباح المبكر أحد ضباط قسم عابدين ، وطلب منها فى رقة أن تتوجه بأسرع ماتستطيع لمقابلة رئيس النيابة ٠

واصفر وجه أزهار وخفق قلبها وأحست بانقباض شديد يتملكها وتساءلت فى اضطراب :

ـ رئيس النيابة ؟

وأسرع ضابط البوليس يطمئنها أنها لايجب ان تخشى سوءا على نفسها ، فقد حرص رئيس النيابة ان يقول ذلك للضابط ، وقد فهم منه أن الموضوع خاص باستلام بعض أشياء يراد تسليمها لهـــا ، وازداد رعب أزهار وقالت :

ـ يسلمنى شيئا أنا ؟ أى شىء يمكن أن يســـلمنى اياه رئيس النيابة ؟

ولم يستطع الضابط ان يزيدها بالأمر تفصيلا ٠ ولم يكد ينصرف بعد أداء رسالته حتى أسرعت أزهار الى ارتداء ملابسها ، ثم توجهت الى الحجرة المجــــاورة فطرقتها ، وفتح لهـــا رشاد افندى الذى أدهشه أن تستيقظ أزهار فى هذا الوقت المبكر وهى التى جاءت منذ ساعتين فقط ، فاطلعته على دعوة الضابط لها للتوجه الى النيـــــابة العمومية ٠ فظهر القلق على وجه رشاد أفندى وقال لها :

ـ أولم ننته من هذه النيابة العمومية ، ماذا يريدون منك ؟

ـ قلبى يحدثنى يارشاد ان هناك كارثة تنتظرنى ٠ فاحتج عليها رشاد قائلا :

ـ ما هذه الافكار السوداء ؟ أى كارثة يمكن أن تصيبك ؟ وأنت بصحتك وفنك وأنا الى جوارك ؟ على أية حال انتظرى بضع دقائق حتى ألبس ملابسى واذهب معك ٠ ويجب أن نتصل بالاستاذ محيى ليذهب معك ٠ فقالت أزهار وقد بدأ يعتريها شعور غامض لاتدرى كنهه :

ـ لا أظن اننا فى حاجــــة الى شىء من ذلك ، بل لا أظن أننى فى حاجة لصحبتك أنت نفسك ، فدعنى أسرع الى هناك لأعود لك بالخبر اليقين ٠

ولم يستطع رشاد افندى ان يقنعها فى ان يذهب معها ، فاكتفى بأن قال لها أنها اذا تأخرت فسيضطر للحاق بها ثم أضاف قائلا :

– لاتنسى ان اليوم هو موعدنا لمقابلة الأستاذ الجزايرلى المخرج السنمائى للاتفاق على التفاصيل النهائية ٠

٤

لم تكن أزهار فى وعيها وهى تغادر مكتب رئيس النيابة ، ولم تفق لنفسها الا وهى تبكى بين أحضان أمها وتصرخ قائلة :

– فؤاد مات يا أمى ، فؤاد انتحر ٠

ولم يكن بوسع أمها وأخيها واختها ، الا ان يشاطرنها الحزن والبكاء فى صمت ٠ وجاء رشاد افندى الذى توجه الى النيابة عندما تأخرت عليه أزهار فعلم هناك بالنبأ ، وتوقع أنها لابد أن تكون قد ذهبت الى أمها وعائلتها ، فخف لمواساتها ، وكان يقدر عظم الضربة التى وجهت الى أزهار ٠ وعندما جاشت فى نفسه من جديد الآمال ان هذه الوفاة قد تزيل من طريقه نهائيا العقبة التى حالت بينه وبين زواج أزهار ، استبعد هذا الخاطر من نفسه بكل قوة ، فهو لايمكن ان ينسى بحال ماجرى عندما طاف برأسه مثل هذا الخاطر عندما علم نبأ زواج فؤاد ٠ ولم يبق فى نفسه سوى الشعور بالأسى من أجل أزهار ٠

واستقبلته اسرة أزهار فى ترحاب ومودة ، فقد سبق لهم أن استقبلوه من قبل وهم يقدرون فيه اخلاصه ووفاءه المجرد لاختهم أزهار ٠ قادوه الى الدوار العلوى راجين ان يخفف مرآة من أحزان اختهم ٠ ولم تكد عينا أزهار تقع عليه حتى ارتمت فى احضانه ، معولة باكية كما فعلت مع أمها من قبل وراحت تردد جملتها التى انعقد لسانها عليها :

– فؤاد مات يا رشاد ، فؤاد انتحر ٠

وطلب منها رشاد أفندى ان تتشجع ولاتدع الحزن يعصف بكيانها

واعرب لها عن تقديره لحزنها وألمها ان يموت فؤاد هكذا بعد ان فعلتمن أجله كل هذا الذى فعلت • ولكن ما يجب أن يعزيها هو أنهـــا ظلت وفية له حتى النهاية ، ولم تتخل عنه فى الوقت الذى تخلت عنه الدنيا كلها • وكأنما كانت هذه الكلمات بلسما شافيا لجراحات أزهار فهدأت نفسها وسكنت • وران صمت عميق على الموجودين بينمـــا كانت الخواطر تتزاحم فى رؤوس المجتمعين ، خواطر تبتعد عن جو المأساة وترنو الى آفاق جديدة •

وكان رشاد افندى هو أول من قطع حبل الصمت اذ سأل فاطمة:

ـ ألم تقل لكم كيف مات ، ولماذا انتحر ؟ وردت عليـــه فاطمة بالنفى فهى على هذا الحـال مذ عادت • وبدأت أزهار التى كانت قد تمالكت نفسها ، تتنبه للحديث الجارى حولها فقالت :

ـ قال لى رئيس النيابة أنه فتل حبلا من الفراش الذى كان ينام عليه ، وشنق نفسه فى نافذة الزنزانة بعد أن ترك لى خطابا قبـــل موته ، وأوصى ان يسلم لى • فقال رشاد افندى :

ـ وأين ذلك الخطاب ، أولم يسلموه لك ؟ أولم تطالعيه ؟ فقالت أزهار :

ـ وهل كنت فى حالة تسمح لى بالمطالعـــة ؟ لقد أذهلنى الخبر بحيث لم أعد أعى شيئا • ومدت فاطمة يدها الى حقيبة أزهار بعد أن علمت ان الخطاب بها ، ثم فضته وشرعت تطالعه فى صـوت مرتفع بناء على طلب اختها :

أزهار ياحبيبتى

الآن فقط أسمح لنفسى أن أناديك بياحبيبتى ، وأن أخاطبك فى غير خجل لأنى معتزم أن أقدم لك الشىء الوحيد الذى مازلت أستطيع أن أقدمه لك ليكون هدية زفافك ، وهو حيـــاتى التى ما زالت تقف بينك وبين السعادة والهناء •

ولم تستطع أزهار التى أدركت على الفور مغزى هذه الكلمـــات الا أن تجهش بالبكاء من فرط التأثر ، بينما تبادل الحاضرون النظرات

مع رشاد افندى الذى امتقع وجهه لسماع هذه العبـــارة • ومضت فاطمة تتلو خطاب فؤاد :

« قلت لى يا أزهار انك ستكونين فى انتظارى بعد خروجى من السجن لنستأنف حياتنا معا من جديد ، فهل تتصـــورين اننى قادر على ارتكاب هذه الخطيئة المميتة ؟ لو اننى اقدمت عليهـــا ؟ لو قبلت منك هذه التضحية الجديدة لكنت حقيقا بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين • أبعد كل هذه التضحيات التى بذلتها من أجلى اكافئك شر مكافأة ، فاجعلك تعيشين مع انسان عاطل مـدمن خمر مجرم قاتل ؟ ولاتعجبى يا أزهار اذا وصفت نفسى بالاجرام والقتـــــل فأنا كذلك بالفعل • ان كل ماوصفتنى به النيـــابة صحيح وحق ، ولقد كنت مصمما منذ اللحظة التى قررت فيها أن أقتل ميرفت وعشيقها ، أن أقتل نفسى على التو فلست أقل عنهما استحقاقا للموت • أن ميرفت لم تفعل شيئا لم أكن أعرفه ، ولطالما وصفت لك حياتها وسلوكها ، وكنت أنا الذى تركت حياة الاستقامة والفضـــيلة معك ، واخترت سبيلها فى الحياة ومنهاجها، لكى أترقى وأتسلق سلم الحياة الرفيعة• ولقد تسلقت السلم دافعا الثمن الذى يدفع، فى هذه الأحوال، عن رضا واختيار • فما كان يحق لى أن أقتـــل بعــد ذلك من أجل العرض أو الكرامة أو الشرف فكل هذه مسميات كنت قد تخليت عنهـــا مذ رضيت الحياة مع ميرفت • فاذا كنت قد قتلتها فقد قتلتها يأســـــا وانتقاما لنفسى ، فأنا قاتل سفاح بغير أعذار مخففة • فأين أنا منك الآن وأين أنت منى ؟ لقد أصبحت نجمة شهيرة أظلتنى بمالها وجاه شهرتها فى المحكمة • أما شقيقتك فطبيبة تتحدث عنها الصـــحف والمجلات كواحدة من فتيات الطليعة ، وأخوك حسن على ما علمت منك فى طريقه الى أن يكون من رجال القضـــــاء فأين أنا منك يا أزهار ؟ أتذكرين ؟ لطالما اعتبرت زواجى منك مجلبة للعار ، وأنا مازلت ثابتا على عهدى ، فزواجى منك مجلبة للعار ، ولكن العـــار اليوم هو على أسرتك أنت لا أسرتى » • ولم تستطع فاطمة وقد وصلت الى هـــذا



الحد من قراءتها الا ان تتوقف وتمسح دموعها بينما ارتمت أزهار في أحضان أمها وهي تقول لها باكية :

ـ اتسمعين يا أمي ؟ أصدقت الآن ما كنت أقوله لك من أن فؤاد أطيب انسان صادفته ؟ واستأنفت فاطمة من جديد مطالعة الخطاب :

« لا يا أزهار ، لاتنتظريني بل عليك بصاحبك ذلك الذي بلغ به النبل وانكار الذات الى حد ان يجيء معك الى مصر ليســـاعدك على انقاذي • هذا هو رجلك من بين العالمين ، ما أجدره بك ، وأجدرك به•

وأمسكت أزهار بيد رشاد في حب وحنان فلم يستطع أن يتمــالك دموعه من فرط التأثر وقالت له في انتصار :

ـ أسمعت يا رشاد ؟ أصدقت الآن أن فؤاد كان جــديرا بحبي ووفائي ، وهاهو يربط بيننا ، وقد كنت تظن أنه سيظل يفرق بيننا؟ ثم قالت لاختها : اقرئي يافاطمة ، اقرئي ، لقد بدأت أحزاني تخف وتزول وفؤاد يوصيني بهذا القول المقدس بعد أن أصــبح في عالم السماء • واستأنفت فاطمة مطالعة الخطاب :

« أزهار ياحبيبتي ، ودعيني أقلها لك للمرة الأخيرة ، دون ان يغار زوجك الجديد • انني ذاهب عما قليل الى الله آمنا مطمئنا وأنا غير خائف أو جزع من مقابلته ، ذلك انه خالق كل شيء ومقدر كل شيء ، لقد كان هو صانع الحياة بوجهيها ، واللذين لاتقوم الحياة الا بهما ، فلو زال أحد الوجهين لزال الثاني على الفور ولما كان كون أو حياة • أي معنى للخير اذا لم يكن الشر هناك ؟ أي معني للجمال اذا لم يكن القبح هو الذي يضفي عليه معناه ؟ ما الحياة نفسها اذا لم يكن ثمة موت ؟

لقد بدأت الحجب تنقشع عن باصرتي وأنا على أبواب الأبدية ، ان في نفسي احساسا قويا اننا لسنا جميعا في هذه الحياة ، أنا وأنت وميرفت ووحيد ورمضان باشا وفوزي ومحيي وفكري وكل من عرفت من أشخاص او ستعرفين ، لسنا سوى ممثلين نمثل ادوارا قد لقنت لنا منذ الأزل لانستطيع ان نعدوها أو ننحرف عنها ، سواء منا من

يقوم بدور الشر ، أو يمثل الخير · ويضيق النظارة فى المسرح بممثل دور الشر ويكرهونه ويحقدون عليه ويتمنون لو كسروا عنقه ، ويحبون لاعب دور الخير ويحفلون به ويهشون اليه ، ومع ذلك فقد يكون ممثل دور الشر هو الأحظى عند مؤلف الرواية ومخرجها ، لأنه هو الذى أدى الدور المرسوم له فى دقة واحكام لتبلغ الرواية ذروتها · وقد يكون لاعب دور الخير اقل الاثنين استحقاقا للثناء لتقصـــيره عن أداء كل المطلوب منه · وداعا يا أزهار ولكنى قبل أن أغادر هذه الدنيا لايزال لى عندك رجاء وخدمة اطمع ان تؤديها لى وهى ان تهرعى بمجرد سماعك خبر موتى الى جوار أمى فهى التى أعلم اننى أسىء اليها بموتى ولكن لاحيلة لى فى رد المكتوب ، اننى مدعو لتمثيل الدور المرسوم لى · اطلبى منها ان تسامحنى على فعلتى الجديدة ، وكم قد سامحتنى طوال أيام الحياة، كونى بها بارة يا أزهار وعوضيها بحنانك وعطفك عليها وحبك لها عن حبى وحنانى وعطفى الذى كانت قد فقدته منذ أمـــد بعيد · أما أنت فليكن عزاؤك ان اسمك سيكون آخر ما يلفظ به لســـانى ، الوداع يا أزهار ·

تمت بعون الله

القصة القادمة

محظية الملك

القسم الثانى من هذه الملحمة ويتناول الفترة من نشوب الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٥٢ ·

كلمـــة حق

لايستطيع المؤلف وقد جاء على ختام هذا القسم الأول من قصته ، الا أن يقرر أن هذا العمل ككل أعماله السابقة ما كان يمكن أن يخرج الى النور على هذه الصورة التى هو عليها لولا مؤازرة اخوانه واصدقائه، ومعونتهم الأدبية والمادية • واذا كان المجال لايتسع لتسجيل كل من كانت له يد فى دفع هذا العمل الى الأمام ، فان المؤلف يجتزىء بذكر اسماء ثلاثة لايرى مناصا من ذكرها • وأول هذه الاسماء هو اســم الأخ الصادق الأمين ابراهيم شكرى الذى استضاف المؤلف فى بيته الريفى بشربين ليتفرغ لكتابة القصة • •

وقد استمع الأستاذ ابراهيم شكرى للقصة جملة جملة بل وكلمة كلمة ، فكانت له توجيهات سديدة وملاحظات قيمة ، وصلت فى بعض الأحيان الى حد استبعاد فصول كاملة واقتراح كتابة فصول جديدة•

أما ثانى هذه الاسماء فهو الاســـتاذ الكاتب الأديب عبد العزيز الدسوقى ، الذى عاصر فكرة القصة منذ كانت فكرة فى خيال المؤلف، حتى سطرها على الورق فصلا بعد فصـــل وكان بدوره يزود المؤلف بالكتب والارشادات الفنية حتى اذا فرغ المؤلف من كتابة القصـــة أخذ على عاتقه معالجة النص من الناحية اللغوية ثم أشرف على تصحيح التجارب ، باذلا فى ذلك من العناء والجهد المضنى مالايقدر ســـوى الله عز وجل على مجازاته • وأخيرا وليس آخرا الأخ الحبيب الأستاذ اسماعيل عامر والذى أخذ على عاتقه جهد طبع القصة واخراجها حتى تصل الى أيدى القراء •

وليس هؤلاء الثلاثة كما قدمت الا رمزا لعشرات غيرهم ساهموا فى تحقيق مشروع هذه القصة ، وليس أقلهم استحقاقا للشـــكر والتقدير رجال مطبعة مصر المخلصين من عمال وموظفين •

والحمد لله رب العالمين من قبل ومن بعد •

أ • ح

القاهرة فى ١٩٦٣/٥/٢٠

كتب للمؤلف

كتب سياسية

١ ـ ايمانى
٢ ـ الأرض الطيبة
٣ ـ وراء القضبان
٤ ـ الاشتراكية التى ندعو اليها
٥ ـ فى ظلال المشنقة
٦ ـ قصة مصر (بالانجليزية طبع نيويورك)
٧ ـ رسالة الى هتلر (طبع نيويورك بالعربية والانجليزية)

كتب اجتماعية وعلمية

٨ ـ الزواج والمرأة (فى حقوق المرأة السياسية)
٩ ـ رسالة فى الحرب
١٠ ـ رسالة فى المجد (العلم والاقتصاد)
١١ ـ الطاقة الانسانية

كتب رحلات

١٢ ـ مشاهداتى فى جزيرة العرب
١٣ ـ يقظة العملاق (رحلة فى آسيا)
١٤ ـ أمة تبعث (رحلة فى الهند)
١٥ ـ من وحى الجنوب (رحلة فى منابع النيل)

كتب قانونية

١٦ ـ قضية مقتل النقراشى (مرافعة)
١٧ ـ علاقات العمل
١٨ ـ قضية التحريض على حرق القاهرة
١٩ ـ مجموعة تشريعات العمل

مسرحيات

٢٠ ـ من الحياة (مسرحيتان اجتماعيتان)
٢١ ـ نور يسطع فى الظلام (مترجمة عن تولستوى)

قصص

٢٢ ـ أزهار ـ قصة مصر قبل الحرب العالمية الثانية

تحت الطبع

٢٣ ـ محظية الملك ـ قصة مصر من الحرب حتى قيام الثورة